لوسيندا رايلي

مكتبة 1300

الشقيقات السبع

قصّة مايا

ترجمة:
ريتا م. البستاني

رواية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

إهداء لـ ..

من كانت مكتبة لهم شقيقة روح

وندى سقى ظمأ المعرفة

الشقيقات

السبع

مكتبة | 1300

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.
ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

© جميع الحقوق بالعربية محفوظة لشركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

الطبعة الأولى 2023

ISBN: 978-6144-58-581-8

تدقيق لغوي: وفيق زيتون

صورة الكاتبة على الغلاف: Boris Breuer ©

تصميم الغلاف: ريتا كلزي

الإخراج الفني: فدوى قطيش

Original Title: **The Seven Sisters**
Copyright © Lucinda Riley, 2014

إنّ الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

10 8 2023 مكتبة
t.me/soramnqraa

الجناح، شارع زاهية سلمان، مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: 8375 -11 بيروت، لبنان
هاتف: 830608 1 961+ فاكس: 830609 1 961+

الموقع الإلكتروني: www.all-prints.com
البريد الإلكتروني: publishing@all-prints.com
مواقع التواصل الاجتماعي: allprintslb

لوسيندا رايلي

مكتبة | 1300

الشقيقات السبع

قصّة مايا

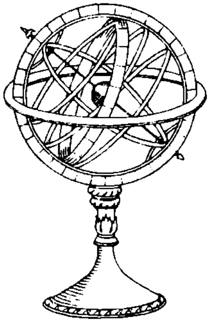

رواية

ترجمة:
ريتا م. البستاني

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

إلى ابنتي، إيزابيلا روز

كلُّنا في الحفرة نفسِها، لكنّ بعضَنا يتطلّعون إلى النجوم.

أوسكار وايلد

الشخصيات

أتلانتيس

پا سولت - والد الشقيقات بالتبنّي (متوفّى)

مارينا (ما) - مربيّة الشقيقات

كلوديا - مدبّرة المنزل في أتلانتيس

غيورغ هوفمان - محامي پا سولت

كريستيان - الرُبّان

الشقيقات داپلييز

مايا

آلي (ألسيوني)

ستار (أستروپ)

سيسي (سيلينو)

تيغي (تايغيت)

إلكترا

ميروپ (مفقودة)

مايا

حزيران 2007

الرُّبع الأوّل من القمر

13؛ 16؛ 21

1

مكتبة
t.me/soramnqraa

ســوف أتذكّر دائمًا أين كنـــتُ بالضبط، وماذا كنتُ أفعل، عندمــا بلغني خبر وفاة والدي.

كنتُ في لندن، بضيافة جيني، صديقتي القديمة منذ أيام الدراسة، أجلس في حديقة منزلها الجميلة، وعلى ركبتيّ نسخةٌ مفتوحةٌ من أوديسا پينيلوپ، أستمتع بشمس حزيران، بينما ذهبت هي، لتأتي بطفلها الصغير من الحضانة.

محاطةً بهالةٍ من السّكينة، وسعيدةً بفكرة الابتعاد، رحتُ أتأمّل الياسمينة البريّة، ببراعمها الصغيرة التي لن تلبث أن تلد مهرجانًا ماجنًا من الألوان، وإذا بهاتفي المحمول يرنّ. ألقيتُ نظرةً خاطفةً على الشاشة. كانت مارينا تتّصل.

- مرحبًا يا ما، كيف حالُكِ؟

كنتُ آملُ أن يتناهى إليها دفء صوتي أيضًا.

- مايا، أنا...

صمتت مارينا لبرهة، وفي تلك اللحظة، أدركتُ أنّ أمرًا مروِّعًا قد حدث.

- ما الأمر؟

- مايا، لا أعرف كيف أقول لك ذلك، لكنّ والدك أُصيبَ بنوبةٍ قلبيّة هنا، في المنزل، بعد ظهر أمس، وفي ساعةٍ مبكّرةٍ من هذا الصباح... فارق الحياة.

لزمتُ الصمت وتسابقت ملايين الأفكار إلى ذهني، تافهةً، شتّى، أوّلها أنّ مارينا، ولسببٍ مجهول، قد قرّرَت أن تمازحني بسماجة.

- لم أخبرْ شقيقاتك بعدُ، كونك البِكر يا مايا. بدا لي أنّ من حقّك أن تكوني أوّل من يعلم. أودُّ أن أسألك إن كنتِ تفضّلين إخبارهنّ بنفسك، أو ترغبين في أن تتركي الأمر لي.

- أنا...

لم تجد أيّ كلمة طريقها إلى شفتيّ. أدركت أنّ مارينا الغالية، مارينا الحبيبة، المرأة التي كانت بالنسبة إليّ أقرب مخلوق لما تمثّله الأم، لم تكن لتنقل لي الخبر لو لم يكن صحيحًا. إذًا، فلا شكّ في أنه صحيح. وفي تلك اللحظة، شعرت بأنّ العالم كلّه قد انزاح عن محوره.

- أرجوك يا مايا، قولي إنك بخير. إنها حقًّا أسوأ المكالمات التي اضطررت إلى إجرائها في حياتي، ولكن، ماذا كنت لأفعل غير ذلك؟ وحدَه اللّه يعلم كيف ستتلقّى شقيقاتُكِ الخبر.

في تلك اللحظة، سمعتُ المعاناة في صوتها وأدركتُ أنها مثلي. فهمتُ أنها كانت في حاجة إلى أن تخبرني، من أجلها هي بقدر ما هو من أجلي، فعدتُ إلى حيّز راحتي وهو إراحة الآخرين.

- بالطبع يا ما، سأخبر شقيقاتي إذا كنتِ تفضّلين ذلك، لكنّني أجهل مكان وجودهنّ حاليًّا. ألا تتدرّبُ آلي في مكانٍ بعيدٍ لتشارك في سباق القوارب؟

وبينما كنّا نكمل الحديث عن مكان وجود كلٍّ من شقيقاتي، كما لو أنّنا أردنا جمعهنّ في حفلة عيد ميلاد، عِوَضَ الحداد على وفاة والدنا، اتّخذت المحادثةُ بُعدًا سرياليًّا.

سألتُها:

- متى تعتقدين أنه ينبغي لنا التخطيط لتحديد موعد الجنازة؟ وماذا عن وجود إلكترا في لوس أنجلوس وآلي في مكانٍ ما في أعالي البحار. من المؤكّد أننا لا نستطيع التفكير في الأمر قبل الأسبوع المقبل على أقرب تقدير؟

- حسنًا...

سمعتُ نبرة التردُّد في صوت مارينا.

- لعلّ من الأفضل لكِ ولي أن نناقش الأمر عندما تعودين إلى البيت، فلا داعي للعجلة الآن يا مايا، إنْ كنت ترغبين في صرف الأيام القليلة المتبقّية من عطلتك في لندن، فإنّ ذلك سيكون جيّدًا. هنا، لا يسعنا فعل أي شيء آخر من أجله... تضاءل صوتُ مارينا بشكلٍ بائس.

- بالطبع يا ما، سأستقلُّ أوّل طائرة إلى جنيف إذا استطعت! سأتصل بشركة الطيران على الفور وبعد ذلك سأبذل قصارى جهدي للاتصال بالجميع.

قالت مارينا بنبرةٍ حزينة:

- أنا في غاية الأسف يا حبيبتي. أعرف أنك كنت تحبينه حتّى العبادة.

- نعم...

كان الهدوء الذي شعرتُ به ونحن نناقش الترتيبات، قد هجرني فجأةً، كأنّه الهدوء الذي يسبق العاصفة.

- سأتصل بك في وقتٍ لاحق، عندما أعرف متى سأصل.

- أرجوكِ يا مايا، اعتني بنفسك، لقد تلقّيتِ صدمةً رهيبة.

ضغطتُ على الزرّ لإنهاء المكالمة، وقبل أن تنكشف غيوم العاصفة في قلبي وتغرقني، صعدتُ الدرج إلى غرفة نومي للاتصال بشركة الطيران. بينما كنت أنتظر دوري على قائمة الانتظار، حدّقت إلى السرير، حيث استيقظتُ هذا الصباح على يومٍ آخر بكلّ بساطة. ثمّ شكرت اللّه، لأنه لم يهَب البشر القدرة على رؤية المستقبل.

لم تكن الموظّفة التي ردّت في نهاية المطاف، لطيفةً أو متعاونةً، وأيقنت، وهي تتحدّث عن رحلات الطيران المحجوزة بالكامل، والعقوبات المالية، وتفاصيل بطاقة الائتمان، أنّ خزّاني العاطفيّ على وشك الانفجار. أخيرًا، وبعد أن منحتني، على مضضٍ، مقعدًا في رحلة الساعة الرابعة إلى جنيف، ما يعني رمي كل شيء في حقيبتي على الفور، وركوب سيارة أجرة إلى مطار هيثرو، جلستُ

على السرير وحدّقت طويلًا إلى ورق الجُدُر المشجّر، فبدأت رسومُه تتراقص أمام عينيّ.

همستُ: لقد رحل. رحل إلى الأبد، ولن أراه مرّةً ثانيةً.

توقّعتُ أن تثير هذه الكلمات المنطوقة سيلًا هادرًا من الدموع، لكنني في الواقع فوجئت بعدم حدوث أيّ شيء. بدلًا من ذلك، جلستُ هناك خَدِرةً، ذاهلةً، ورأسي لا يزال يضجُّ بما ينبغي فعله. بدت فكرة إخبار شقيقاتي الخمس أمرًا مروِّعًا، وبحثتُ في نظام تصنيف ملفّاتي العاطفيّ عن التي سأتّصل بها أولًا. كانت تيغي، ثانية أصغر الفتيات الستّ، والشقيقة التي لطالما شعرتُ بأنها الأقرب إليّ.

بأصابعي المرتعشة، رحتُ أمرّر قائمة الأسماء إلى أسفل حتى وجدتُ رقمها واتّصلتُ. عندما أجابني بريدُها الصوتي، لم أعرف ماذا أقول، باستثناء بضع كلمات مشوّشة أطلب منها معاودة الاتصال بي على وجه السرعة. في ذلك الحين، كانت في مكانٍ ما من المرتفعات الاسكتلندية، تعمل في مركز يُعنى بالغزلان البرية اليتيمة والمريضة.

أما بشأن الشقيقات الأخريات، فكنت أعلم أنّ ردود أفعالهن ستتنوّع، ظاهريًّا على الأقل، مراوحةً بين اللامبالاة والدّفق العاطفي الدرامي.

لم أكنْ متأكّدةً بالضبط من الدرجة التي سأحتلّها على سلّم الحزن، عندما سأتحدّث إلى أيّ منهنّ، لذا قرّرت اتّباع طريق الجبناء وبعثت رسائل نصّية إليهنّ جميعًا، أطلب فيها أن يتّصلن بي في أقرب وقتٍ ممكن. ثمّ حزمت حقيبتي على عجل، وهبطتُ الدرج الضيّق إلى المطبخ لأكتب ملاحظةً لجيني، أشرح فيها لماذا اضطررتُ إلى المغادرة بهذه السرعة.

قرّرتُ أن أجرّب حظي بإيقاف سيارة أجرة سوداء في شوارع لندن. غادرت المنزل، ورحت أغذُّ السير في حديقة تشيلسي المورقة، تمامًا كما يفعل أيّ شخصٍ عاديّ، في أيّ يومٍ عاديّ. أعتقد أنني، في الواقع، عندما مررتُ برجلٍ ينزّه كلبه في الشارع، حيّيته، حتّى أنني ابتسمتُ له.

لا أحد يستطيع أن يعرف ما حدث لي على الفور، قلتُ في نفسي، وأنا أصعد إلى سيارة الأجرة التي تمكّنتُ من إيقافها على طريق كينغز رود المزدحم. ثم وجّهتُ السائق إلى مطار هيثرو.

لا، لا أحد يستطيع أن يعرف.

بعد مضيّ خمس ساعات، والشمس تنحدر ببطءٍ فوق بحيرة جنيڤ، وصلتُ إلى عوّامتنا الخاصّة على الشاطئ، لأستكمل منها المرحلة الأخيرة من رحلتي إلى المنزل.

وجدتُ كريستيان بانتظاري في زورقنا الأنيق من طراز ريڤا. ومن سحنته، فهمتُ أنه سمع الخبر.

- كيف حالك يا آنسة مايا؟

سألني والتعاطف بادٍ في عينيه الزرقاوين وهو يساعدني في الصعود إلى متن الزورق.

- أنا... مسرورةٌ لأنني هنا.

أجبت بنبرةٍ محايدةٍ، ثم اتجهت إلى مؤخّرة الزورق، حيث جلست على المقعد الجلديّ ذي اللون القشديّ، الذي يتقوّس متّخذًا شكل المؤخّرة.

في العادة، كنت أجلس في مقعد الراكب الأمامي، إلى جانب كريستيان، ونحن نشقّ عباب المياه الهادئة في رحلة العودة التي تستغرق عشرين دقيقة إلى المنزل. لكنني اليوم، شعرت بالحاجة إلى الخصوصية. عندما شغّل كريستيان المحرّك القوي، ومضَ وهجُ الشمس على نوافذ المنازل الفخمة التي تصطفُّ على ضفاف بحيرة جنيڤ. غالبًا ما كنت أشعر عندما أقوم بهذه الرحلة، أنها كانت المدخل إلى عالمٍ أثيريٍّ منفصلٍ عن الواقع.

عالم پا سولت.

لاحظت أوّل دليلٍ غامضٍ على وخز الدموع في عينيّ عندما فكّرت في اللقب الذي ابتكرتُه، وأطلقتُه على والدي عندما كنتُ صغيرة. كان دائم الإبحار ويعشق

ذلك، وعند عودته إلى منزلنا الواقع على ضفاف البحيرة، غالبًا ما كانت تفوح منه رائحة الهواء النقي والبحر. بطريقةٍ ما، التصق به الاسم، ولأنّ شقيقاتي الصغيرات انضممن إليّ وتبنّينه، فقد أطلقنه عليه أيضًا.

بينما أخذ الزورق يضاعف من سرعته، والريح الدافئة تبعثر شعري، رحتُ أفكّر في مئات الرحلات السابقة التي قمتُ بها إلى أتلانتيس، قلعةِ پا سولت، التي تبدو وكأنّها خارجة لتوّها من قصص الجِنّ الخرافية. بالنظر إلى موقعها على نتوء يحيط به هلالٌ من التضاريس الجبلية التي ترتفع بحدّة خلفه، لم يكن الوصول إليها ممكنًا من طريق البرّ، والوسيلة الوحيدة، كانت القارب. ولمّا كان أقرب الجيران إلينا يقطنون على مسافة أميال على طول البحيرة، أصبحت أتلانتيس مملكتنا الخاصة، بعيدًا عن بقية العالم. كلّ ما تحتويه كان سحريًا... كما لو أنّ پا سولت، ونحن - بناته - قد عشنا هناك في مكانٍ مسحور.

كنّا أطفالًا رُضّعًا عندما اختارنا پا سولت من جهات الأرض الأربع، ثم تبنّانا وأحضرَنا إلى المنزل لنعيش في كنفه وحمايته. وكلّ واحدةٍ منا، كما دأب على القول، كانت مميّزةً ومختلفة... كنّا فتياته، وأطلق علينا أسماء الشقيقات السبع، مجموعة النجوم المفضّلة لديه. كنتُ الأولى، والأكبر سنًّا.

عندما كنت طفلةً، كان يأخذني إلى مرصده ذي القبّة الزجاجية، في أعلى المنزل، ويرفعني بيديه الكبيرتين القويتين لكي أنظر من خلال تلسكوبه إلى سماء الليل.

- ها هي، كان يقول وهو يحاذي العدسة. انظري يا مايا، إنها النجمة المتلألئة الجميلة التي سُمّيتِ باسمها.

وكنتُ أرى فعلًا. لكنّني، وبينما يروح يشرح الأساطير التي كانت مصدر اسمي وأسماء شقيقاتي، بالكاد كنت أستمع، لأنني ببساطة، كنت أستمتع بذراعيه وهما تطوّقانني بقوة، واعيةً تمامًا لتلك اللحظة النادرة والخاصة، عندما كان كلّه، لي وحدي.

ثُمّ أدركت في النهاية أنّ مارينا، التي كنت أفترض في طفولتي أنها أمي - حتى أنني قمت بتقصير اسمها إلى «ما» - لم تكن إلّا ممرّضة ماهرة، وظّفها پا لتعتني بي في أثناء رحلاته الطويلة المتكرّرة. لكنّ مارينا بالطبع، كانت أكثر من ذلك بالنسبة إلينا نحن الفتيات، فهي التي مسحت دموعنا، ووبّختنا لعدم التزامنا آداب المائدة، ووجّهتنا بهدوء في خلال مرحلة الانتقال الصعب من الطفولة إلى الأنوثة.

كانت حاضرة دائمًا، ولم أكن لأحبّها أكثر لو أنها هي التي أنجبتني.

خلال السنوات الثلاث الأولى من طفولتي، عشت أنا ومارينا وحدنا في قلعتنا السحرية على ضفاف بحيرة جنيف، بينما كان پا سولت يجوب البحار السبعة ليسيّر أعماله. ومن ثمّ بدأت شقيقاتي يصلن، الواحدة تلوَ الأخرى.

في العادة، كان پا يُحضر لي هدية عندما يعود إلى المنزل. كنت أسمع صوت محرّك الزورق وهو يصل، فأركض عبر المروج المعشِبة والأشجار حتى الرصيف لاستقباله. مثل أي طفل، كنت أريد أن أرى ما يخفيه داخل جيوبه السحرية لإسعادي. في إحدى المناسبات الخاصة، بعد أن قدّم لي حيوان رنّة خشبيًّا نُحِتَ بشكل رائع، وأكّد لي أنه جاء من مشغل سانت نيكولاس، في القطب الشمالي، خرجتْ من خلفه امرأةٌ بالزي الرسمي، تحمل على ذراعيها حزمة ملفوفة في شال. وكانت الحزمة تتحرّك.

- هذه المرّة، يا مايا، أحضرتُ لك هدية خاصّة للغاية. شقيقة جديدة. الآن، لن تكوني وحيدةً عندما أضطرّ إلى الذهاب بعيدًا.

ثمّ ابتسم لي وهو يرفعني بين ذراعيه.

بعد ذلك تغيّرت حياتي. لم تمضِ بضعة أسابيع حتى اختفت ممرّضةُ الأمومة التي أحضرها پا معه، وتولّت مارينا مَهمّة رعاية شقيقتي الصغيرة. لم أستطع أن أفهم كيف يمكن لهذا الشيء الأحمر، الذي لا يتوقّف عن الزعيق، وغالبًا ما تفوح منه رائحة كريهة، ويحوّل عنّي الانتباه الذي أستحقّه، أن يكون هدية. إلى أن حلّ ذلك الصباح عندما ابتسمت لي ألسيوني - التي سُمِّيت على اسم النجمة الثانية من الشقيقات السبع - من كرسيها المرتفع ونحن نتناول الفطور.

- إنها تعرف من أنا. قلت متعجّبةً لمارينا، التي كانت تطعمها.

- بالطبع يا عزيزتي مايا. أنت شقيقتها الكبرى، سوف تتطلّع إليك بإعجاب طوال حياتها، وسوف يكون الأمر متروكًا لكِ لتعلّميها كثيرًا من الأشياء التي تعرفينها ولا تعرفها هي.

وبينما كانت تنمو، أصبحتْ ظلّي الذي لا يفارقني، تتبعني في كل مكان، وكان ذلك يسرّني ويغضبني بالقدر نفسه. «مايا، انتظريني!». كانت تطالب بصوتٍ عالٍ وهي تسير خلفي بخطًى مترنّحة.

على الرغم من أنّ آلي - اللقب الذي أطلقته عليها - كانت في الأصل إضافةً غير مرغوبٍ فيها إلى وجودي الأشبه بالحلم في أتلانتيس، لم أكن لأطلبَ رفيقًا أحلى وأحبَّ منها. نادرًا ما كانت تبكي، هذا إن بكت، ولم تكن تمرّ بنوبات الغضب التي ترافق الأطفال الصغار في مثل سنّها. بضفائرها الحمراء الذهبية المنسدلة، وعينيها الزرقاوين الواسعتين، كان لدى آلي سحر طبيعي يجذب الناس إليها، وأوّلهم والدي.

في المناسبات التي كان پا سولت يعود فيها من إحدى رحلاته الطويلة في الخارج، كنت أراقبه عندما يراها، وكيف كانت عيناه تشرقان. لم ينظر إليّ بهذه الطريقة، أنا الخجولة المتحفّظة مع الغرباء، بينما كانت آلي تتحلّى بانفتاحٍ وثقةٍ جعلاها محبوبةً من الجميع.

كانت أيضًا واحدةً من أولئك الأطفال الذين بدا أنهم بارعون في كلّ شيء، خاصة في الموسيقا والرياضات المائية. أذكر أنّ پا علّمها السباحة في حوض منزلنا الواسع، حيث كنت أكافح من أجل البقاء طافيةً وأكره أن يغمرني الماء، بعكس شقيقتي الصغرى التي ألفته كحورية بحر. وفي حين لم أكن أتمكّن من الحفاظ على التوازن، حتى على متن تيتان، وهو يخت پا الهائل، وعابر المحيطات الجميل، كانت آلي، عندما نكون في المنزل، تتوسّل والدي أن يصحبها في رحلة على متن الليزر الصغير، الذي يبقيه راسيًا على ضفة البحيرة في مينائنا الخاص. كنت أجثو في مؤخرة القارب الضيّقة، بينما كان پا وآلي يقودانه بسرعة عالية عبر المياه الصافية.

لقد جمعهما شغفُهما المشترك بالإبحار ووثّق علاقتهما بطريقةٍ كنتُ أشعر أنني لم أكن قادرةً على تقليدها.

على الرغم من أن آلي درست الموسيقا في المعهد الموسيقي بجنيڤ، وكانت عازفة فلوت موهوبة للغاية، بإمكانها أن تنضمّ إلى أوركسترا محترفة، فقد اختارت حياة بحّار متفرّغ بعد أن تركت المعهد. وهي الآن تشارك بانتظام في سباقات القوارب، ومثّلت سويسرا في مناسبات عدّة.

كانت آلي في الثالثة من العمر تقريبًا، عندما وصل پا إلى المنزل مصطحبًا شقيقتنا التالية، التي سمّاها أستروپ، كالنجمة الثالثة من مجموعة الشقيقات السبع.

- لكننا سنسمّيها ستار، قال پا، مبتسمًا لنا، أنا ومارينا وآلي، بينما رحنا نتفحّص أحدثَ إضافةٍ للأُسرة وهي ترقد في مهدها الصغير.

في ذلك الحين، كنت أحضر دروسًا صباحيّة مع مدرّس خاص، لذلك، لم يؤثّر فيّ وصول شقيقتي الجديدة بقدر ما أثّر في آلي. ولم تمضِ ستة أشهر، حتى انضمّت إلينا طفلة أخرى، تبلغ من العمر اثني عشر أسبوعًا فقط، تُدعى سيلينو، الاسم الذي اختُصر على الفور ليصبح سيسي.

كان فارق السنّ بين ستار وسيسي ثلاثة أشهر فقط، وبقدر ما تعود بي الذاكرة إلى الوراء، فقد وطّدتا رابطةً وثيقةً جمعت بينهما. كانتا أقرب إلى التوائم، تتحدّثان بلغتهما الطفولية الخاصة، التي ما تزالان تستخدمان بعض مفرداتها للتواصل حتى يومنا هذا. لقد سكنتا عالمهما الخاص، بمعزل عنّا، نحن الشقيقات الأخريات. وحتى اليوم، وقد بلغتا العشرينات من العمر، لم يتغيّر شيء. كانت سيسي، أصغر الشقيقتين، المسيطرة دائمًا، بجسمها الممتلئ وبشرتها السمراء بلون البندق في تناقضٍ مباشرٍ مع ستار الشاحبة النحيلة.

في العام التالي، وصلت طفلة أخرى - تايغيت، التي أطلقتُ عليها لقب «تيغي» لأن شعرها القصير الداكن كان ينبت بزوايا غريبة على رأسها الصغير، ويذكّرني بالقنفذ في قصة بياتريكس پوتر الشهيرة.

كنت في السابعة من عمري، وسرعان ما شعرت أن تيغي قريبة مني منذ اللحظة الأولى التي رأيتها فيها. كانت أكثرنا هشاشة، تعاني من أمراض الطفولة، الواحد تلوَ الآخر، ولكن، حتى كطفلةٍ صغيرة، كانت رزينة وقنوعة. بعد بضعة أشهر، عندما أحضر پا طفلة أخرى، تُدعى إلكترا، إلى المنزل، كانت مارينا المُنهَكة غالبًا ما تسألني إذا كنتُ أمانع في البقاء مع تيغي، التي كانت تعاني باستمرار من الحمّى أو السعال. في نهاية المطاف، خلُص التشخيص إلى إصابتها بالربو، ونادرًا ما كانت تخرج من غرفتها في عربة الأطفال، بسبب شتاء جنيف القاسي وتأثير هوائه البارد وضبابه الكثيف على رئتيها.

كانت إلكترا أصغر شقيقاتي، وكان اسمها يناسبها تمامًا. تعوّدت الآن، على الطفلات الصغيرات ومتطلّباتهنّ، لكنّ شقيقتي الصغرى كانت، بلا شك، أصعبهنّ وأكثرهنّ تطلُّبًا. كان كل شيء فيها كهربائيًا، وكانت قدرتها الفطريّة على التحوُّل في لحظة من الظلام إلى النور وبالعكس، تعني أن منزلنا، الذي لطالما لفّه الهدوء، أصبح مكانًا يدوّي فيه الصراخ يوميًا. تردّدت أصداء نوبات غضبها في وعي طفولتي، ومع تقدُّمها في السنّ، لم تبهت شخصيّتُها الناريّة مقدار ذرّة.

سرًّا، ابتدعتُ وآلي وتيغي كنية خصّيناها بها. كنا نناديها «تريكي» فيما بيننا. كنّا جميعًا نحاذرها، نمشي من حولها كما لو كنّا نسير على قشور البيض لئلا نفعل أيّ شيء يُحدِث تغييرًا صاعقًا في مزاجها. أستطيع القول بصراحة، إنني عرفتُ لحظات كرهتُها فيها بسبب الاضطراب الذي جلبتْه إلى أتلانتيس.

ومع ذلك، متى عرفت إلكترا بأن إحدانا تعاني من مشكلةٍ ما، كانت تُبادر إلى تقديم العون والدعم. وكانت كذلك قادرةً تمامًا على إظهار أنانية كبيرة، كان كرمها في مناسبات أخرى واضحًا بالقدر نفسه.

بعد إلكترا، كانت الأسرة كلّها تتوقّع وصول الشقيقة السابعة. ولمّا كنّا جميعًا قد سُمّينا بأسماء مجموعة النجوم المفضّلة لدى پا سولت، فلم نكن لنكتمل من دونها. حتى أننا كنا نعرف اسمها - ميروپ - ونتساءل من ستكون. لكن مضى عام،

ثم آخر، وآخر، ولم يصل مع والدنا مزيد من الأطفال إلى المنزل.

أذكر بوضوح أنني كنت ذات مرّة معه في المرصد. كنت في الرابعة عشرة من العمر، وعلى أعتاب البلوغ. كنا ننتظر حدوث كُسوفٍ، قال والدي إنه لحظة فارقة في تاريخ البشرية، وعادة ما يجلب معه تغييرًا كبيرًا.

- پا، سألته: هل ستحضر ذات يوم شقيقتنا السابعة إلى المنزل؟

في تلك اللحظة، بدت كتلته الجسدية القوية المنيعة وكأنها قد تصلّبت لبضع ثوانٍ. بدا فجأةً وكأنه يحمل ثقل العالم على كاهله. على الرغم من أنه لم يلتفت إليّ، وظلّ يركّز في توجيه التلسكوب على الكسوف المقبل، فقد عرفت فطريًّا أن ما قلته قد أحزنَه.

- لا، يا مايا، لن أفعل. لأنني لم أجدها .

عندما لاح أمامنا سياج أشجار التنوّب السميك، الذي يحفظ منزلنا من أعين المتطفّلين، ورأيت مارينا تقف على رصيف الميناء الصغير، بدأت الحقيقة المروّعة لفقدان پا تبلغ وعيي.

أدركت أنّ الرجل الذي جعلنا أميرات مملكته لم يعد موجودًا ليُديم السحر.

2

عندما نزلت من الزورق إلى الرصيف، وضعت مارينا ذراعيها برفق حول كتفيّ مواسيةً. ومن دون كلمات، استدرنا لنسير معًا عبر الأشجار والمروج الواسعة المنحدرة التي تؤدّي إلى المنزل. في حزيران، كان منزلنا في أوج جماله، وكانت حدائقه المزيّنة في عزّ إزهارها، ما يغري سكانه لاستكشاف ممراتها الخفية وكهوفها السرية.

يُعدُّ منزلنا الذي بُني في أواخر القرن الثامن عشر، وصُمّم معماره على طراز لويس الخامس عشر، مثالًا للعظمة الأنيقة، بطوابقه الأربعة، التي تتخلّل جُدُرها القوية ذات اللون الورديّ الفاتح، نوافذُ عاليةٌ مقطّعةٌ إلى ألواحٍ زجاجية صغيرة، ويعلوها سطحٌ أحمر شديد الميلان، ترتفع أبراج في كل زاوية من زواياه. أمّا داخله فيزخر بالأثاث الفاخر، وكل وسائل الرفاهية الحديثة، بسجّاده السميك، وأرائكه الضخمة، التي تريح ساكنيه، وتبثّ الطمأنينة في نفوسهم. كنا نحن الفتيات ننام في الطابق العلوي، ذي الإطلالة البديعة على منظر البحيرة المترامية وراء الأشجار.

كانت مارينا أيضًا تحتل جناحًا في الطابق نفسه.

نظرت إليها وفكّرت كم كانت منهكة. بعينيها البنيّتين اللطيفتين اللتين لطّختهما ظلال التعب، وشفتيها المتبسّمتين عادةً، وقد بدتا مقروصتين ومتوتّرتين. افترضت أنها في منتصف الستينات من العمر، لكنها لم تكن تبدو كذلك. كانت امرأة جميلة، طويلة القامة، بملامح قوية، حسنة الملبس، يعكس مظهرُها الأنيق - دون تكلّف - أصولَها الفرنسية. عندما كنت صغيرة، كانت ترخي شعرها الحريري الداكن وتتركه منسدلًا، لكنها الآن تلفّه وتعقدُه خلف عنقها.

تزاحمت في ذهني آلاف الأسئلة متدافعةً على سلّم الأولوية، لكنّ سؤالًا واحدًا فرض نفسه، مطالبًا بإجابة فوريّة.

- لماذا لم تخبريني فور تعرُّض پا لنوبة قلبية؟ سألتُها عندما دخلنا إلى المنزل ومشينا حتى قاعة الاستقبال بسقفها المرتفع، وشرفتها الحجرية الواسعة، التي تصطف على أطرافها جرار مليئة بنباتات القرّة ذات الأزهار الحمراء والذهبية الزاهية.

- صدّقيني يا مايا، لقد توسّلت إليه أن يسمح لي بإخبارك، وإخبار الفتيات جميعًا، لكنه غضب للغاية عندما ذكرت له ذلك، ولم يكن في وسعي سوى أن أمتثل لمشيئته.

وفهمتُ قصدها، فإذا كان پا قد منعها من الاتصال بنا، لم يكن لديها خيار آخر. كان پا الملك، وكانت مارينا في أحسن الأحوال، الشخص الأجدر بالثقة من بين أفراد حاشيته، وفي أسوأ الأحوال، خادمته المطيعة التي يجب أن تنفّذ ما أمرها به.

- أين هو الآن؟ أما يزال في غرفة نومه بالطابق العلوي؟ هل يجب أن أصعد وأراه؟

- لا، يا حبيبتي، ليس في الطابق العلوي. ألا تريدين كوبًا من الشاي قبل أن أخبرك مزيدًا؟

- للأمانة، أعتقد أنّي بحاجة إلى كأس جين تونيك. اعترفتُ وأنا أرتمي متهالكةً على إحدى الأرائك الضخمة.

- سأطلب من كلوديا أن تحضّرها لك. وأعتقد أنني هذه المرة، سأنضمُّ إليك أيضًا.

رافقتُ مارينا بأنظاري وهي تغادر الغرفة لتجد كلوديا، مدبّرة المنزل، التي جاءت إلى أتلانتيس مذ جاءت مارينا إليها. كلوديا ألمانية، يخفي مظهرها الخارجي الكئيب قلبًا من ذهب. هي أيضًا، كانت تعشق سيّدها. وفجأةً تساءلتُ عمّا سيحدث لهما هي ومارينا، وعمّا سيحدث لأتلانتيس نفسها، الآن، بعد أن رحل پا.

بدت هذه الكلمات متناقضة في سياقها. كان پا «مسافرًا» دائمًا إلى مكانٍ ما، يفعل شيئًا ما، بالرغم من أنه لم يكن لدى أحدٍ من موظفيه، أو أفراد أسرته، فكرة محدّدة عمّا يفعله لكسب رزقه. كنت قد سألته ذات مرة، عندما جاءت صديقتي جيني للإقامة معنا خلال العطلة المدرسية، وقد شعرَتْ بالرهبة من البذخ الذي نعيش فيه.

- يبدو أن والدك يملك ثروةً خرافية. همسَت لي ونحن نهبط سلّم طائرة پا الخاصة، التي حطّت لتوّها في مطار لامول بالقرب من سان تروپيز. كان السائق ينتظر على مدرّج المطار ليقلّنا إلى المرفأ، حيث يرسو يختنا الرائع تيتان، الذي يتسع لعشرة أسرّة. وكنّا نقوم في تلك السنة، كما في سابقاتها، برحلة بحريّة في مياه البحر الأبيض المتوسط، وكان پا سولت، هو الذي يختار دائمًا الوجهة التي يرغب في أن يأخذنا إليها.

كأيّ طفل، غنيًا كان أم فقيرًا، نشأ پا وترعرع دون أن يعرف شيئًا مختلفًا عن بيئته. لم تصدمني طريقةُ عيشنا، ولم تبدُ لي أكثر من عادية. ومثل كل شقيقاتي، عندما كنتُ أصغر سنًّا، تلقّيتُ دروسًا على أيدي مدرّسين خصوصيين كانوا يأتون إلى المنزل، ولم أدرك كم كانت حياتنا بعيدة كل البعد، عن الحياة التي يعيشها معظم الأشخاص الآخرين، إلاّ عندما ذهبت إلى المدرسة الداخلية في سن الثالثة عشرة.

عندما سألت پا ذات مرة عمّا يفعله بالضبط ليؤمّن لأسرتنا كل رفاهية يمكن تخيُّلها، نظر إليّ بتلك الطريقة السرية التي كان يجيدها، وابتسم.

- أنا مجرّد ساحر بسيط.

لم يُفدني جوابه في شيء، وذلك ما أراده بالضبط.

مع تقدُّمي في السنّ، بدأت أدرك أنّ پا سولت كان ساحرًا لا يُشقّ له غبار، وأنّ لا شيء كان كما يبدو عليه للوهلة الأولى.

عندما عادت مارينا إلى قاعة الاستقبال وهي تحمل كأسي جين تونيك على صينية، خطر لي أنه بعد ثلاثة وثلاثين عامًا، لم يكن لديّ أيّ فكرة حقيقية عمّن كان والدي في العالم، خارج أتلانتيس. ثم تساءلت إنْ كنت أخيرًا سأكتشف ذلك.

- تفضّلي.

قالت مارينا، وهي تضع الكأس أمامي. ثم أردفت وهي ترفع كأسها:

- نخب ذكرى والدك، تغمّده اللّه بواسع رحمته.

- نعم، نخب ذكرى يا سولت. فليرقدْ بسلام.

تناولت مارينا جرعةً كبيرةً قبل أن تعيد الكأس إلى الطاولة، وتأخذ يدي بين يديها.

- مايا، قبل أن نتحدّث في أي شيء آخر، يجب أن أخبرك بأمر مهمّ.

- ماذا؟ سألتها وأنا أنظر إلى جبينها المرهق، الذي غضّنَه القلق.

- لقد سألِتني قبل قليل إذا كان والدك لا يزال هنا في المنزل. والجواب هو أنه قد دُفن. كانت أمنيته أن يُدفن على الفور، وألّا تكون أيٌّ من الفتيات حاضرةً.

حدّقت إليها كما لو أنها فقدت عقلها.

- لكن يا ما، لقد أخبرِتني قبلًا، أنّه مات في ساعة مبكّرة من هذا الصباح! كيف يمكن أن يُرتَّب دفنٌ بهذه السرعة؟ ولماذا؟

- مايا، كان والدك مصرًّا على أنه حال وفاته، تُنقَل جثّتُه على متن طائرته الخاصة إلى يخته. بعد صعوده إلى متن السفينة، كان من المقرّر أن يوضع في تابوت من الرصاص، يبدو أنه ظلّ في عنبر تيتان لسنوات عدة، استعدادًا لمثل هذا الحدث، وأن يُبحر من هناك. بطبيعة الحال، ونظرًا لحبه الماء، فقد أراد أن يرقد في المحيط. كان يريد أن يجنّب بناته حزنَ... مشاهدةِ الحدث.

- يا إلهي. قلتُ، وقد جعلتني كلمات مارينا أرتعد رعبًا. وأضفت:

- لكنّه بالتأكيد كان يعلم أننا جميعًا نريد أن نودّعه كما يليق به؟ كيف استطاع أن يفعل ذلك؟ ماذا أقول للأخريات؟ أنا...

- يا حبيبتي، لقد عشنا، أنا وأنت، في هذا المنزل فترةً هي الأطول مقارنةً بباقي ساكنيه، وكلتانا تعلم أنه عندما يتعلّق الأمر بوالدك، لم يكن مجديًا طرح بعض الأسئلة.

وأضافت بنبرة هادئة:

- لا أستطيع إلاّ أن أعتقد، أنه تمنى أن يُدفن، كما عاش، سرًّا.

- وكسيّد الموقف.

قلت، والغضب يحتدم داخلي فجأةً. وأضفت:

- يُخيّل إليّ أنه لم يكن قادرًا حتى على الوثوق بالأشخاص الذين يحبونه، ولا بقدرتهم على القيام بما يليق به ولأجله.

قالت مارينا:

مهما تكن أسبابه، آمل فقط، ومع مرور الزمن، أن تحتفظن بذكراه، أبًا محبًّا، كما كان. إن الشيء الوحيد الذي أعرفه، هو أنكنّ، أنتنّ الفتيات، كنتنّ كلّ عالمه.

سألتُ، والدموع تفيض من عينيّ من جرّاء الإحباط:

- لكن من منّا تعرفه حقًّا؟ هل جاء الطبيب ليؤكد وفاته؟ لا بدّ من أنّ لديك شهادة وفاة؟ هل يمكنني أن أراها؟

- سألني الطبيب عن بعض تفاصيل هويّته الشخصية، كمكان وسنة ميلاده. قلت إنني مجرّد مستخدَمة ولم أكن متأكدة من هذا النوع من المعلومات. ثم أحلتُه إلى غيورغ هوفمان، المحامي الذي يتولى شؤون والدك كافّة.

- لكن لماذا كان سريًّا إلى هذا الحد، يا ما؟ كنت أفكّر اليوم، وأنا على متن الطائرة، أنني لا أذكر أنه استقبل أحدًا من أصدقائه هنا في أتلانتيس. من حينٍ إلى آخر، عندما كنا نكون على متن اليخت، كان أحد شركائه في العمل يأتي للاجتماع به، ثم يختفيان في مكتبه بالطابق السفلي، لكنه لم يكن اجتماعيًّا على الإطلاق.

- لقد أراد أن يبقي حياته العائلية منفصلة عن أعماله، بحيث يكون قادرًا على تركيز اهتمامه الكامل على بناته عندما يكون في المنزل.

- أيّ بنات! البنات اللواتي تبنّاهن، وأحضرهنّ إلى هنا من كلّ أرجاء العالم. لماذا يا ما، لماذا؟

نظرت مارينا إليّ بصمت، وعيناها الحكيمتان الهادئتان لا تدُلّان إن كانت تعرف الإجابة أم لا. تابعت:

- عندما تكونين طفلةً، تشُبّين على قبول حياتك وترضين بها. لكنّ كلتينا تعرف أنّ من النادر - إن لم يكن من الغريب تمامًا - أن يتبنّى رجل عازب في متوسط العمر، ستّ فتيات صغيرات، ويحضرهن إلى سويسرا، ليعشن ويكبرن تحت سقف واحد.

- لم يكن والدك رجلًا عاديًّا. قالت مارينا موافقةً، ثم أضافت بشكلٍ ملتبس: لكن، هل يمكن أن يُنظر إلى مَنْح أيتامٍ يحتاجون إلى فرصة حياةٍ أفضل، تحت حمايته، على أنه فعل سيئ؟ إن كثيرًا من الأثرياء يتبنّون أطفالًا إذا لم يكن لديهم أطفال.

- لكن هؤلاء يكونون متزوجين في العادة، ردّدتُ بلا مراعاة. ثم سألتها:

هل تعرفين شيئًا عن حياته العاطفية يا ما، هل كان له صديقة في يومٍ ما، امرأة يحبّها؟ لقد عرفته طيلة ثلاثة وثلاثين عامًا ولم أرَه مع امرأة قط.

- يا حبيبتي، أفهم أنّ والدك قد رحل. وأنتِ تدركين أن أسئلة كثيرة أردتِ طرحها عليه، لا يمكن الإجابة عنها الآن، لكنني حقًّا لا أستطيع مساعدتك. إضيفي إلى ذلك، أنها ليست اللحظة المناسبة. أضافت مارينا بلطف: في الوقت الحاضر، يجب أن نحيي ذكرى ما كان يمثّله بالنسبة إلينا، وأن نتذكّر فيه الإنسان اللطيف والمحبّ، الذي عرفناه جميعًا داخل جُدُر أتلانتيس. حاولي أن تتذكّري أن والدك جاوز الثمانين، وأنه عاش حياة طويلة وحافلة.

- لكنه قبل ثلاثة أسابيع فقط، كان يبحر بالليزر، يجهد ويكافح على متن القارب برشاقة شابٍّ لا يبلغ نصف عمره! من الصعب التوفيق بين تلك الصورة وصورة شخصٍ يحتضر.

قالت مارينا مشجّعةً:

- نعم، والحمد للّه، أنه لم يكن مثل كُثُر في سنّه، يعانون من الموت البطيء. إنّه لمن الرائع أن تتذكّريه، أنتِ والفتيات الأخريات، رجلًا قويًّا سعيدًا موفور الصحة. ذلك هو ما أراده بلا شك.

- لكنه لم يتعذّب، أليس كذلك؟ سألتُها بشيء من التردُّد، وأنا أعلم في قرارة نفسي أنه حتى لو عانى وتعذّب، فإن مارينا لن تخبرني بذلك أبدًا.

- لا يا مايا. كان يعرف ما الذي ينتظره، وأعتقد أنه تصالح مع خالقه. حقًّا، أعتقد أنه كان سعيدًا بالرحيل.

- أخبريني بحقّ الجحيم، كيف أقول للأخريات إنّ والدهنّ قد رحل وإن جثّته غير موجودة؟ سيشعرن كما أشعر الآن بالضبط، أنه، وبكلّ بساطة، قد تبخّر في الهواء.

- لقد فكّر والدك في ذلك قبل وفاته، واتّصل بي محاميه غيورغ هوفمان في وقت سابق من هذا اليوم. أعدك بأن تحصل كل واحدةٍ منكنّ على فرصة لتوديعه.

قلتُ متنهّدةً:

- حتى وهو ميت، يستمرّ پا في إبقاء كل شيء تحت سيطرته. بالمناسبة، لقد تركتُ رسائل نصّيّة لجميع شقيقاتي، لكنني، لم أتلقّ منهنّ أي إجابة حتى الآن.

- حسنًا، لقد أكّد لي غيورغ هوفمان أنّه على أهبّة الاستعداد للمجيء بمجرّد وصولكنّ جميعًا. أرجوك يا مايا، لا تسأليني عمّا سيقوله، إذ ليس لديّ أدنى فكرة. والآن، لقد طلبتُ من كلوديا أن تحضّر لكِ بعض الحساء. لا شكّ في أنك لم تأكلي شيئًا منذ الصباح. هل تفضّلين تناوله في منزلك الصغير بالحديقة، أم أنك تريدين البقاء هنا في المنزل هذه الليلة؟

- سأتناول بعض الحساء هنا، وبعد ذلك سأعود إلى منزلي الصغير إذا كنتِ لا تمانعين في ذلك. أعتقد أنني بحاجة إلى أن أكون وحدي.

- بالطبع. وتقدّمت مارينا نحوي وعانقتني.

- أعرف أنها صدمة رهيبة بالنسبة إليك. وأنا آسفة، لأنك، مرّة أخرى، تتحمّلين عبء المسؤولية وحدك دون الفتيات الأخريات، لكنّه هو الذي طلب مني أن أخبرك أنتِ أولًا. لست أدري إنْ كان ذلك يريحك. والآن، هل أذهب وأطلب من كلوديا تسخين الحساء؟ أعتقد أنّ تناول بعض الطعام سيكون مفيدًا لنا، نحن الإثنتين.

بعد أن تناولنا الطعام، طلبتُ من مارينا أن تذهب إلى الفراش، وقبّلتها متمنية لها ليلة سعيدة، فقد كانت منهكة أيضًا. وقبل أن أغادر المنزل، صعدتُ الأدراج الكثيرة حتى الطابق العُلويّ، ونظرت إلى كلّ غرفةٍ من غرف شقيقاتي. بقيت كلّها على حالها منذ غادرت ساكناتُها المنزل للذهاب إلى الأمكنة التي اخترنها، وما زالت كل غرفة تعكس شخصية صاحبتها المختلفة جدًّا عن شخصيات شقيقاتها الأخريات. وكلما عُدنَ، كما تعود الحمائمُ إلى أعشاشها على ضفاف الماء، لم تكن لدى أيٍّ منهنّ أدنى رغبة في تغييرها. ولا أنا.

فتحت باب غرفتي القديمة، وتوجّهت إلى الرفّ حيث ما أزال أحتفظ بأغلى ذكريات طفولتي. أخذت دمية قديمة قدّمها لي پا عندما كنت طفلةً صغيرة. وكعادته، نسج قصةً سحريةً حولها، وروى لي أنها كانت لكونتيسة روسية شابّة، لكنها ظلّت في موسكو، وحيدةً في قصرها الثلجي، بعد أن كبرت سيّدتُها ونسيتْها. أخبرني أن اسمها ليونورا، وأنها بحاجة إلى ذراعين جديدتين تحضنانها.

أعدتُ الدمية إلى مكانها على الرف، وتوجّهت إلى الصندوق الذي يحتوي على هدية قدّمها لي پا في عيد ميلادي السادس عشر؛ فتحته وأخرجت القلادة التي كانت في داخله.

- إنه حجر القمر، يا مايا.

قال لي، وأنا أحدّق إلى الحجر البرّاق البديع، الذي كان يتلألأ بتدرُّجات زرق، وتحيط به أحجارٌ صغيرةٌ من الألماس.

-إنه أكبر مني سنًّا، وقصّته شيّقة للغاية.

تذكّرت أنّه تردّد تلك اللحظة، كما لو كان يزن شيئًا ما في ذهنه.

- قد أروي لك قصّته ذات يوم. تبدو القلادة قديمة بالنسبة إليك الآن، لكنني أعتقد أنها سوف تناسبك جيدًا ذات يوم.

كان پا مصيبًا في تقييمه. في ذلك الوقت، كنت أتزيّن - كجميع صديقاتي في المدرسة - بأساور فضيةٍ رخيصة، وصلبانٍ كبيرة تتدلّى من خيوطٍ جلديةٍ حول

رقبتي. لم أتقلّد حجر القمر قط، وظلّ منذ ذلك الحين قابعًا في مكانه، منسيًّا على الرف.

لكنني سأتقلّده الآن.

بينما كنت أتوجّه نحو المرآة، ربطتُ مشبك السلسلة الذهبية الدقيقة حول عنقي ورحتُ أتفحّصها. ربما كان ذلك من صنع خيالي، لكنْ بدا أنّ الحجر يتوهّج على بشرتي. امتدّت أصابعي إليه بشكل غريزي، ولمستُه بينما كنت أسير إلى النافذة لأتأمّل أضواء بحيرة جنيف المتلألئة.

همست: ارقدْ بسلام، يا حبيبي پا سولت.

وقبل أن تبدأ الذكريات الأخرى تبتلعني، خرجت مسرعةً وابتعدتُ عن غرفة الطفولة، ثم مشيت على طول الطريق الضيّق الذي قادني إلى المنزل الذي أمضيت فيه سنّ الرشد، على بعد حوالى مائتي متر.

كنت أترك باب منزل الحديقة الصغير مفتوحًا بشكل دائم؛ ولمّا كانت أجهزة نظام الحراسة عالية التقنية، لم يكن هناك سوى فرصةٍ ضئيلةٍ لكي يتمكّن شخص ما، من سرقة شيء ما، من ممتلكاتي القليلة.

عندما دخلتُ، رأيت كلوديا التي سبقتْني إلى الداخل تشغّل المصابيح في غرفة الجلوس. تهاويتُ على الأريكة، غارقةً في لجّةٍ هائلة من اليأس.

كنت الشقيقة التي لم ترحل على الإطلاق.

3

عندما رنّ هاتفي المحمول في الساعة الثانية صباحًا، كنت أستلقي مسهّدةً على السرير، أتساءل: لماذا لم أكن قادرة على الاسترخاء وبكاء پا. عندما رأيت اسم تيغي على الشاشة، شعرتُ بالغثيان.

- مرحبًا.

- يؤسفني أن أتّصل بك في هذا الوقت المتأخّر يا مايا، لكنني استلمت رسالتك لتوّي. التغطية هنا سيئة للغاية. أستطيع القول من خلال نبرة صوتك إن الأمور ليست على ما يرام. ما الذي يحدث، هل أنت بخير؟

أذابت حلاوةُ صوت تيغي الخفيف الصخرة المتجمّدة التي بدا في الوقت الحاضر أنها احتلّت مكان قلبي.

- نعم، أنا بخير، لكن...

- هل يتعلّق الأمر بپا سولت؟

- نعم. قلتُ بصوت خنقَه فرطُ التوتر. كيف عرفتِ؟

- لم أعرف... وما أزال لا أعرف... كان لديّ إحساس غريب هذا الصباح، عندما خرجتُ إلى البرّية بحثًا عن ظبيةٍ صغيرة، كنّا قد وشمناها قبل بضعة أسابيع. وجدتُها ميتةً، ومن ثمّ ولسببٍ ما، فكّرت في پا. بعد ذلك، تجاهلت هذا الشعور، ظنًّا مني أنني كنت حزينة على الظبية. هل...؟

- أنا آسفة جدًا يا تيغي، لكنْ... يجب أن أخبرك أنّه توفّي صباح اليوم. أم يجدر بي أن أقول، صباح أمس؟

- أوه مايا، لا! لا أستطيع أن أصدّق ذلك. ماذا حدث؟ هل كان حادث إبحار؟ لقد قلت له عندما رأيته في المرة الأخيرة إن عليه ألّا يبحر وحده على متن الليزر بعد الآن.

- لا، لقد توفّي هنا في المنزل... نوبة قلبية.

- هل كنتِ معه؟ هل تعذّب؟ أنا... «وتقطّع صوتها»... لا أستطيع تحمُّل مجرّد التفكير في أنه تعذّب.

- لا يا تيغي، لم أكن هنا. كنت في لندن، أزور صديقتي جيني لبضعة أيام. في الواقع - استعدتُ أنفاسي بينما كنت أتذكّر - پا هو الذي أقنعني بالذهاب. قال إن الابتعاد عن أتلانتيس، والتنعّم باستراحة قصيرة سيكونان مفيدين لي.

- آه يا مايا، يا له من أمرٍ مروِّعٍ بالنسبة إليك. أقصد، نادرًا ما تغادرين أتلانتيس، وفي المرة الوحيدة التي تفعلين ذلك...

- أعرف.

- ألا تعتقدين أنه كان يعرف، وأراد أن يجنّبك ذلك؟

عبّرتْ تيغي بصوتٍ مرتفعٍ عن الفكرة التي كانت تدور في ذهني خلال الساعات القليلة الماضية.

- لا، لا أعتقد. أعتقد أنه سوء الحظ، ما يُسمى «بقانون سود» (SOD). في أي حال، لا تقلقي عليّ. أنا أكثر قلقًا عليك بسبب هذا الخبر المروّع. هل أنتِ بخير؟ أتمنّى لو كنت بجانبكِ لأضمّكِ إلى صدري.

- للأمانة، لا أستطيع أن أصف لك ما أشعر به الآن، لأنه ببساطة ليس حقيقيًّا. وربما لن يكون كذلك حتى أصل إلى البيت. سأحاول حجز مكانٍ في رحلة الغد. ألم تخبري الأخريات بعد؟

- لقد تركت لهنّ رسائل لا نهاية لها، تطلب إليهنّ الاتصال بي على وجه السرعة.

- سأعود في أقرب وقتٍ ممكنٍ لمساعدتك، يا حبيبتي مايا. أنا على يقين من أنه سيكون هناك عمل كثير مع مراسم الجنازة التي ينبغي ترتيبها.

لم أمتلك الشجاعة الكافية لأعلن لها الأخبار التي دفنها والدي معه.

- أنتظر بشوقٍ وجودك هنا. والآن، حاولي أن تنامي، يا تيغي، إذا استطعتِ، وإذا كنتِ بحاجة إلى التحدّث في أيّ وقت، فأنا هنا.

- شكرًا لكِ.

شعرت من صوت تيغي المرتجف أنها كانت على وشك البكاء، إذ بدأ الخبر يترسّخ في ذهنها بكل فداحته.

- مايا، أنت تعرفين أنه لم يرحل. الأرواح لا تموت، لكنها تنتقل إلى عالمٍ آخر فحسب.

- آمل أنْ يكون ذلك صحيحًا. تصبحين على خير، يا حبيبتي.

- تحلّي بالشجاعة، يا مايا، أراكِ غدًا.

عندما ضغطت على الزر لإنهاء المكالمة، استلقيت منهكةً على السرير. تمنّيت لو كنت أستطيع أن أشارك تيغي معتقداتها الروحية الحماسية وإيمانها بالحياة الآخرة. أما الآن، فلم أكن قادرةً على إيجاد سببٍ كارميٍّ يبرّر مغادرة پا سولت هذه الأرض.

لعلّني ذات حين، آمنتُ بوجود إله، أو على الأقل، بوجود قوةٍ ما، تجاوز الإدراك البشري. ولكنْ في مكانٍ ما، وزمانٍ ما، تلاشى ذلك الأيمان وتلاشت معه تلك الراحة.

وإذا توخّيت الأمانة مع نفسي، فإنني كنتُ أعرف بالضبط متى حدث ذلك.

ليتني أستطيع تعلُّم الإحساس بالعواطف من جديد، والتوقّف عن الاختباء خلف هذه البرودة الظاهرة.

كان من المفترض أن يزلزل أعماقَ كياني موتُ پا، وبدلًا من ذلك، كان ردّ فعلي الفاتر يؤكّد أكثر من أي شيء آخر مدى العمق الذي بلغته مشكلتي.

وبالرغم من ذلك، فكّرت في الأمر، ولم أكن أمانع في مواساة الآخرين. كنت أعلم أن شقيقاتي يرينني بمنزلة محكّ الأُسرة، الشخص الذي يُعوّل عليه، والذي سيكون حاضرًا لأجلهنّ عندما يواجهن أيّ مشكلة. فلطالما كانت مايا عمليّةً وحسّاسةً وعقلانية، وكما دأبت مارينا على القول، يُفترض أنها «الأقوى».

الحقيقة هي أنني كنت أكثرهنّ قلقًا وخوفًا. وفي حين أنهنّ جميعًا قد حلّقنَ وهجرنَ العش، فقد بقيت متستّرةً بالحاجة إلى وجودي هنا إلى جانب پا، بعد أن تقدّم في السنّ، بالإضافة إلى العذر الذي يتناسب تمامًا مع المهنة التي اخترتها، المهنة التي تُمارَسُ في جوٍّ من الوحدة.

من المفارقات، أنه بالنظر إلى الفراغ الذي طبَع حياتي الشخصية، فقد أمضيت أيامي في عالمٍ خياليٍّ رومنسيٍّ غالبًا، وذلك من خلال ترجمة الروايات من الروسية والبرتغالية إلى الفرنسية، لغتي الأم.

كان پا أول من لاحظ موهبتي، وقدرتي على التقليد بشكلٍ ببغائيٍّ لأي لغة أجنبية يحدّثني بها. وبصفته لغويًّا خبيرًا، كان يستمتع بالتنقّل من لغةٍ إلى أخرى ليمتحن قدرتي على مجاراته في الرد. عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، كنت أتكلّم ثلاث لغات، الفرنسية والألمانية والإنجليزية - اللغات المُستخدمة في سويسرا - وأتدبّر أمري جيدًا في الإيطالية واللاتينية واليونانية والروسية والبرتغالية.

مثّلَت اللغات شغفًا حقيقيًّا بالنسبة إليّ، وتحديًا لا حدّ له، فمهما يكن التقدّم الذي أحرزه فيها، كنت أستطيع أن أتحسّن وأرغب في ذلك. لقد شغلتني الكلمات واستخدامها استخدامًا صحيحًا، لذلك عندما اقتضى الأمر أن أفكّر في دراستي الجامعية، كان الاختيار بديهيًّا.

لجأت إلى پا طلبًا للنصيحة بشأن اللغات التي يجب أن أختارها وأركّز عليها، فنظر إليّ متفكّرًا وقال:

- حسنًا، يا مايا، الأمر متروك لك. ولكن، ربما لا ينبغي لك أن تختاري اللغات التي تتقنينها في الوقت الحاضر، لأنّ أمامك ثلاث أو أربع سنوات في الجامعة لتتعلّمي لغاتٍ أخرى وتتقنيها.

تنهّدت وقلت:

- لا أعرف حقًّا، يا پا. أحبّها جميعًا، لذلك أسألك.

- حسنًا إذًا، سأعطيك وجهة نظر منطقية، وأقول إنه في الثلاثين عامًا القادمة، ستتحول القوة الاقتصادية العالمية بشكلٍ جذري. لو كنت مكانك، وأتقن بالفعل ثلاث لغات غربية رئيسية، فسأوسّع آفاقي وأبحث أبعد.

- هل تقصد دولًا مثل الصين وروسيا؟

- نعم، والهند والبرازيل بالطبع. كلّ البلدان التي تمتلك موارد هائلة غير مستغَلّةٍ وثقافاتٍ رائعةً أيضًا.

- من المؤكّد أنني أحبّ اللغة الروسية وأستمتع بها، كما أحبّ، البرتغالية. إنها...

وبعد أن بحثت عن الكلمة المناسبة قلت:

- إنها لغة معبّرة جدًّا.

ابتسم پا واستطعت أن أرى أنه سُرَّ بإجابتي.

- حسنًا إذًا، لماذا لا تدرسين اللغتين؟ بفضل موهبتك وقدراتك اللغوية الطبيعية، تستطيعين التصدّي لهذه المَهمّة بسهولة. وأعدك، يا مايا، أنه بامتلاكك إحداهما أو كلتيهما سيكون العالم محارتك. في زمننا الحالي، هناك عدد قليل من الأشخاص الذين يملكون رؤية واضحة لما يخبّئ لنا المستقبل. العالم يتغيّر، وسوف تكونين واحدةً من نُخبته.

شعرت بالعطش والجفاف في حلقي، نهضت من السرير ودخلت المطبخ لأسكب لنفسي كأسًا من الماء. تذكّرتُ كم كان پا يأمل في أن أنطلق بثقة، مسلحةً بمهاراتي الفريدة، إلى فجر العالم الجديد، الذي كان متأكّدًا من طلوعه. في ذلك الحين، كنت شبه متيقّنة من أنني سأنجح في ذلك. وبصرف النظر عن أي شيء آخر، كنت أتحرّق شوقًا إلى أن أجعله فخورًا بي.

ولكن كما هو الحال مع كثير من البشر، جعلتني الحياة أنحرف عن المسار المخطّط له. وبدل أن توفّر لي منصّة انطلاق إلى العالم الأوسع، فقد أعطتني مهاراتي الشخصية الذريعة للاختباء، والانزواء بعيدًا في منزل طفولتي.

كلّما رفرفت شقيقاتي بأجنحتهن وخرجن من أماكن إقامتهن الدائمة ليجُبْنَ جميع أنحاء العالم، كنّ يضايقنني ويسخرن من حياتي المنعزلة. كنّ يحذرنني ويقلن إنني في خطر، وقد ينتهي بي الأمر عانسًا عجوزًا، إذ كيف سألتقي شخصًا إذا كنت أرفض أن أضع قدمًا خارج أتلانتيس؟

لقد وبّختني آلي عندما رأيتها آخر مرة:

- أنت جميلة جدًّا يا مايا. كل الذين يلتقونك يقولون ذلك، لكنّك تقبعين هنا وحيدةً وتضيّعين هذا الجمال.

ربما كان صحيحًا أن مظهري الخارجي هو الذي جعلني ألفتُ الأنظار وسط الحشد. ولمّا كنّا أسرة مكوّنة من ست شقيقات، فقد حصلنا جميعًا على تصنيفاتنا الشخصية مذ كنّا صغيرات السن، وذلك وفق السمات الرئيسية التي تميّزنا:

مايا، الجميلة؛ آلي، القائد؛ ستار، الديبلوماسية؛ سيسي، البراغماتية؛ تيغي، الراعية؛ وإلكترا، كرة النار.

كان السؤال السديد كالتالي: هل حقّقت لنا مواهبُنا الشخصية النجاح والسعادة؟

كان بعض شقيقاتي لا يزلن صغيرات السنّ، لم يعشنَ بما فيه الكفاية ليُجبْنَ عن هذا السؤال، ولم أكنْ في وضعٍ يتيح لي أن أجيب عنهنّ. لكنْ بالنسبة إليّ، كنت أعرف أنّ «هِبَة» الجمال كانت مصدر أكثر اللحظات إيلامًا في حياتي، لأنني في ذلك الحين كنت ساذجةً جدًّا لأفهم القوّة التي تزخر بها هذه الهبة. لذلك، كنت الآن أخفيها، أي أنّني كنت أخفي نفسي.

في الفترة الأخيرة، عندما كان پا يزورني في منزل الحديقة، كان يسألني:

- هل أنتِ سعيدةً.

- بالطبع، يا پا.

كنت أجيب دائمًا بالإيجاب.

ظاهريًا، لم يكن لديّ سبب وجيه لكي أكون غير سعيدة. كنت أعيش في بحبوحة تامة، مع زوجين من الأذرع الحنونة على مرمى حجر. والعالم، من الناحية النظريّة، كان محارتي. لم يكن لديّ أي علاقات أو مسؤوليات تقيّدني... مع ذلك، كم كنت أشتهيها.

ابتسمت وأنا أفكّر في پا، وهو يشجّعني، قبل أسبوعين، على زيارة صديقتي القديمة في لندن. ولأن پا هو من اقترح ذلك، ولأنني أمضيت حياتي الراشدة وأنا أشعر أنّني خيّبت أمله، وافقتُ. حتى لو لم أستطع أن أكون «طبيعية»، كنت آمل أن يعتقد أنني كذلك إذا ذهبتُ.

هكذا ذهبتُ إلى لندن... وعدتُ لأجد أنه ذهب أيضًا، وإلى الأبد.

كانت الساعة الرابعة صباحًا عندما عدت إلى غرفة نومي واستلقيت على السرير يائسةً من الغرق في النوم الذي لم يأتِ. بدأ قلبي يخفق ويدقّ جدار صدري عندما أدركت أنني، بوفاة پا، لم أعد أستطيع استعماله ذريعةً للاختباء هنا. قد تُباع أتلانتيس. ومن المؤكد أنّ پا لم يذكر لي أيّ شيء عمّا سيحدث بعد وفاته. وبقدر ما أعلم، لم يقل شيئًا لأي من شقيقاتي أيضًا.

قبل ساعات قليلة فقط، كان پا سولت كليّ القدرة والحضور، وقوّة طبيعية حمَتنا جميعًا وأبقتنا عاليًا في فضاء من الأمان.

لقد دأب پا على تسميتنا بتفاحاته الذهبية. تفّاحات ناضجة، مكتملة الاستدارة، لا تنتظر سوى أن تُقطَف. والآن اهتزّ الغصن، وسقطنا جميعًا، بغياب يد ثابتة تتلقّفنا ونحن نهوي.

سمعت طرقًا على بابي الأمامي، وعندما نهضتُ من السرير لأجيب، تعثّرت وكدت أسقط. قبل بضع ساعات، ومع بزوغ الفجر، أُصبت باليأس لعدم قدرتي على النوم،

بحثتُ عن الحبوب المنوِّمة التي وُصفت لي منذ سنوات، وأخذتُ واحدة. عندما ألقيت نظرةً خاطفةً على ساعة الجدار المعلّقة في القاعة ورأيت أنها جاوزت الحادية عشرة، تمنيت لو أنني لم أستسلم.

فتحت الباب، فظهر وجه مارينا القَلِق من خلفه.

- صباح الخير يا مايا. لقد حاولت الاتصال بك على هاتفك الأرضي وهاتفك الجوّال لكنك لم تجيبي. لذا، قرّرتُ المجيء لأتأكّد من أنّك بخير.

قلت وأنا محرجة:

- آسفة، لقد تناولت حبّة منوّمة أفقدتني الوعي. ادخلي.

- لا، سأدعك تستيقظين على مهل، ثم بعد أن تستحمّي وترتدي ملابسك، ربما يمكنك القدوم إلى المنزل؟ اتّصلت تيغي لتخبرني بأنها ستصل اليوم في حوالى الساعة الخامسة مساءً. لقد تمكّنَت من التواصل مع ستار وسيسي وإلكترا، وهنّ في طريقهنّ إلى المنزل أيضًا. هل لديك أخبار من آلي؟

- دعيني أتحقّق من هاتفي الجوّال، وإذا لم تترك لي رسالة، سأعاود الاتصال بها مرةً أخرى.

- هل أنت بخير؟ لا يبدو لي أنك بخيرٍ على الإطلاق، يا مايا.

- سأكون بخيرٍ يا ما، حقًّا. سأكون بخير.

أغلقت الباب الأمامي، ودخلت الحمّام لأرشّ بعض الماء البارد على وجهي وأصحو. عندما نظرت في المرآة، أدركتُ لماذا سألت مارينا إنْ كنت بخير. بين عشية وضحاها، ظهرت خطوط قاتمة حول عينيّ، وارتسمت تحتها هالات زرق ضخمة. أصبح شعري البني الداكن، اللامع في العادة، دهنيًّا وهزيلًا حول وجهي، وبدت بشرتي، التي تكون في العادة عسلية لا تشوبها شائبة ولا تحتاج إلاّ قليلاً من المكياج، منتفخة وشاحبة.

«بالكاد كنتُ جميلةَ الأُسرة هذا الصباح»، همهمت لانعكاس صورتي في المرآة، قبل البحث في طيّات أغطية الفراش المتشابكة عن هاتفي الجوّال. في النهاية وجدته تحت اللحاف. كانت هناك ثماني مكالمات فائتة. استمعت إلى

أصوات شقيقاتي عبر رسائلهن التي تراوحت بين الإنكار والصدمة، ما عدا آلي، الشقيقة الوحيدة التي لم تردّ على ندائي بعد. اتصلت بها مرةً أخرى، وتركت رسالة على بريدها الصوتي تطلب منها الاتصال بي بسرعة.

في المنزل، وجدت مارينا وكلوديا تبدّلان الملاءات وتفتحان النوافذ لتهوية غرف شقيقاتي في الطابق العلوي. بدت لي مارينا، على الرغم من حزنها، سعيدةً بعودة سربها من الفتيات إلى المأوى. لقد كان وجودنا جميعًا تحت سقف واحد حدثًا نادرًا بالنسبة إلينا هذه الأيام. فآخر مرة، كانت في شهر تموز، قبل أحد عشر شهرًا، على متن يخت پا، وهو يبحر حول الجزر اليونانية. في عيد الميلاد، كنّا أربعًا فقط هنا في المنزل، إذ كانت ستار وسيسي في رحلة سفر إلى الشرق الأقصى.

- لقد أرسلتُ كريستيان على متن القارب لجلب الطعام والمؤن التي طلبتُها.

قالت مارينا، بينما كنت أتبعها إلى الطابق السفلي. أضافت متذمّرة:

- من الصعب جدًّا إرضاء شقيقاتك هذه الأيام، فشقيقتك تيغي نباتية، واللّه وحده يعرف أي نظام غذائي جديد تتّبعه إلكترا. لكنّني كنت أعرف جيدًا أنّ جزءًا منها يستمتع بكل ثانية من هذه الفوضى المفاجئة، التي ذكَّرَتْها بالأيام التي كنا فيها جميعًا تحت رعايتها.

- منذ الفجر وكلوديا في المطبخ، لكنني أعتقد أننا سنبقي الأمور بسيطةً هذه الليلة ونتناول المعكرونة والسلطة.

- هل تعرفين متى ستصل إلكترا؟

سألتها عندما وصلنا إلى المطبخ حيث أعادت رائحة خبز كلوديا الشهيّ موجةً من ذكريات الطفولة.

- ليس قبل ساعات الصباح الأولى على الأرجح. لقد تمكّنت من الحصول على مقعدٍ في رحلةٍ تقلّها من لوس أنجلوس إلى باريس، ومن هناك، ستطير مجدّدًا إلى جنيڤ.

- كيف بدَت لكِ؟

- كانت تبكي بشكلٍ هستيري.

- وسيسي وستار؟

- كالعادة، تكفّلت سيسي بترتيباتهما المشتركة. لم أتحدث إلى ستار، لكنّ سيسي بدَت مصدومة تمامًا. مسكينة! كما لو أنّ الريح هجرت أشرعتها. لقد عادتا من فيتنام قبل عشرة أيام فقط. تناولي بعض الخبز الطازج، يا مايا. أنا متأكّدة من أنك لم تأكلي شيئًا منذ الصباح.

مدّت مارينا طبقة سميكة من الزبدة والمربّى على شريحة من الخبز ووضعتها أمامي.

- كيف سيكون حالهنّ بعد الذي حدث؟ كم أخشى التفكير في ذلك.

همهمتُ وأنا أقضم لقمةً من الشريحة.

- سيكُنّ جميعًا كما كُنّ دائمًا، وسيتفاعلن بطرائقهنّ المختلفة.

أجابت مارينا بكثيرٍ من الحكمة.

قلتُ بحسرة: وبالطبع، فإنهنّ جميعًا يعتقدن أنهنّ سيعُدن إلى البيت لحضور جنازة پا. على الرغم من أنه كان حدثًا محزنًا للغاية، إلا أنه على الأقل، كان بمنزلة طقس عبور، وفرصة لنا جميعًا لإحياء ذكراه، وإرقاده ليستريح، ثم بعد ذلك، نكمل حياتنا ونمضي قُدُمًا، إذا كان ذلك ممكنًا. الآن، سيعُدن إلى المنزل، فقط ليجدن أن والدهنّ قد رحل.

- أعلم، يا مايا، لكنّ ما حدث قد حدث.

قالت مارينا بنبرةٍ حزينة.

بالتأكيد، وعلى أقلّ تقدير، كان له أصدقاء أو شركاء عمل، ألا ينبغي أن نخبرهم؟

- قال غيورغ هوفمان إنه سيتكفّل بذلك. لقد اتصل بي مرة أخرى هذا الصباح لمعرفة متى ستكنّ جميعًا هنا، بحيث يتمكّن من ترتيب مجيئه لرؤيتكنّ. أخبرته

بأنني سأعلِمه حالمَا ننجح في التواصل مع آلي. قد يتمكّن من إلقاء بعض الضوء على الطريقة الغامضة التي يعمل وفقها عقل والدك.

- حسنًا، أتمنّى أن يتمكّن أحدهم من ذلك.

تمتمتُ متجهّمةً.

- والآن، هل تمانعين إذا تركتك تأكلين بمفردك؟ لديّ آلاف الأشياء التي ينبغي القيام بها قبل وصول شقيقاتك.

- لا بالتأكيد. شكرًا يا ما. لا أعرف ما الذي كنّا لنفعله جميعًا من دونك.

- أو ما سأفعله أنا من دونك.

أجابت وهي تربّت كتفي قبل أن تغادر المطبخ.

4

بعد الخامسة بقليل من مساء ذلك اليوم، وبعد أن أمضيت فترة بعد الظهر في التجوال بين الحدائق من دون هدف، وحاولت القيام ببعض أعمال الترجمة لإبعاد پا عن ذهني، سمعت صوت محرك الزورق الذي وصل إلى الرصيف. شعرت بالارتياح لوصول تيغي أخيرًا، فعلى الأقل، لم أعد وحيدةً مع أفكاري. فتحت الباب الأمامي وهرعتُ لاستقبالها.

شاهدتها تخرج برشاقةٍ من القارب. غالبًا ما كان پا يقترح عليها أن تتابع دروسًا في الباليه عندما كانت أصغر سنًّا؛ لم تكن تيغي تمشي، كانت تطفو، حاملةً جسدها الرقيق بخفة كبيرة، كما لو أنّ قدميْها لم تكونا تلامسان الأرض. كانت تتمتّع بحضور روحانيّ غامض، وكانت عيناها الصافيتان الواسعتان، المسيّجتان برموش كثيفة، تهيمنان على وجهها المرسوم على شكل قلب. وبينما كنت أراقبها، أدهشني شبهها بالغزالة الصغيرة الغضّة التي كانت ترعاها وتعتني بها بحماسةٍ كبيرة.

- حبيبتي مايا.

قالت وهي تمدّ لي ذراعيْها.

بقينا لفترةٍ في عناق صامت، ولمّا تراجعَت رأيت الدموع تنهمر من عينيها.

- كيف حالك؟ سألتْني.

- مصدومة، خدِرة... وأنتِ؟

- مثلك تمامًا. ما أزال غير قادرة على استيعاب ما حدث.

أجابت وقد بدأنا السير نحو المنزل، وذراع كل منّا مشبوكة بإحكام حول كتفيّ الأخرى.

فجأةً، توقفت تيغي واستدارت نحوي.

- هل پا...؟

إذا كان هنا، فأنا بحاجةٍ إلى لحظةٍ قصيرةٍ لأهيئ نفسي قبل أن أراه.

- لا يا تيغي. ليس في المنزل.

- أوه، أفترض أنهم أخذوه إلى. . .

جعلت الفكرةُ صوتها يتضاءل بشكلٍ بائس.

- فلندخلْ، ونحتسِ كوبًا من الشاي. سأشرح لك كل شيء.

- كما تعلمين، حاولت أن أتواصل مع پا... أعني مع روحه.

قالت تيغي وقد ندّت عنها تنهيدة عميقة. لكن لا شيء سوى الفراغ، لا شيء.

واسيتها: لعلّ من السابق لأوانه الشعور بأيّ شيء.

كنت قد تعوّدت الاستماع لأفكارها الغريبة، ولم أرغب في سحقها ببراغماتيتي الصارمة. أضفتُ بينما كنا ندخل المطبخ:

- أنا أيضًا لا أستطيع.

كانت كلوديا أمام حوض غسيل الأواني، وعندما استدارت لرؤية تيغي - التي كنت أشكّ دائمًا في أنها المفضّلة عندها - رأيت التعاطف باديًا في عينيها.

- أليس أمرًا فظيعًا؟

قالت تيغي وهي تعانقها، فقد كانت الوحيدة التي لا تشعر بالحرج من احتضان كلوديا.

وافقت كلوديا: نعم، فظيع حقًّا. اذهبي أنت ومايا إلى قاعة الاستقبال. سأحضر لكما الشاي.

- أين ما؟ سألتني تيغي ونحن نشقّ طريقنا إلى قاعة الاستقبال.

- في الطابق العُلوي، تضع اللمسات الأخيرة على غرف نومكنّ. وربما أرادت أن نمضي أولًا بعض الوقت معًا. قلتُ بينما كنا نجلس.

- هل كانت هنا؟ أقصُد، هل كانت مع پا في النهاية؟

- نعم.

- لماذا لم تتّصل بنا جميعًا في وقت مبكّر؟

سألت تيغي، كما فعلتُ تمامًا.

خلال نصف الساعة التالية، أجبت على الأسئلة نفسها التي قصَفتُ مارينا بها يوم أمس. أخبرتها أيضًا أن جثة پا قد وُضِعَت في صندوق من الرصاص استقرّ في قاع المحيط، وتوقّعت منها أن تغضب مثلما غضبت، لكنّ تيغي اكتفَت بهزّةٍ صغيرةٍ من كتفيها تنمّ عن التفهّم.

- لقد أراد العودة إلى المكان الذي أحبه، وأن ترتاح جثته هناك إلى الأبد. مايا، أنا سعيدة لأنني لم أرَه... بلا حياة. أستطيع الآن أن أتذكّره دائمًا كما كان.

رحتُ أتأمّل شقيقتي التي فاجأني ردّ فعلها. كانت أشدّنا حساسية. يبدو أنّ خبر وفاة پا لم يؤثّر فيها - ظاهريًّا على الأقل - بقدر ما كنت أتصوّر. في الحقيقة، لم أرَها يومًا مشرقةً إلى هذا الحد. كان شعرها الكستنائي الكثيف يلتفّ حول وجهها كلُبدةٍ لامعة، وكانت عيناها البنيّتان الواسعتان، بتعبيرهما البريء المعتاد، الذي يكاد يذهل الرائي، تتألّقان بشكلٍ إيجابي. لقد منحني مظهرُ تيغي الهادئ الأملَ في أن تكون شقيقاتي الأخريات متفائلات ظاهريًّا كما بدَت. أمّا أنا فلم أكن كذلك.

- على الرغم من قسوة هذه الظروف، تبدين رائعةً، يا تيغي.

أثنيت عليها، معبرة عن أفكاري بصوت عالٍ.

- لا بدّ من أن كل هذا الهواء الإسكتلندي المنعش يناسبك تمامًا كما يبدو.

قالت موافقةً: أوه، نعم بالتأكيد، إنه كذلك. بعد كل تلك السنوات التي عشتها في طفولتي، حيث كنت مجبرةً على البقاء في المنزل، لديّ انطباع الآن بأنه قد

أُطلقَ سراحي في البرية. أنا أعشق عملي تمامًا، على الرغم من أنه شاقّ، والكوخ الذي أقيم فيه بدائيّ بشكلٍ لا يُصدَّق. حتى أنه لا يوجد فيه مرحاض داخليّ.

- براڤو. صحتُ معجبةً بقدرتها على اجتناب كل وسائل الراحة من أجل متابعة شغفها. إذًا فهو أكثر إرضاءً من العمل في مختبر حديقة سرڤيون للحيوانات؟

- يا إلهي، تمامًا.

قالت تيغي وهي ترفع أحد حاجبيها.

- أضافت: سأكون صريحةً؛ على الرغم من أنها كانت وظيفة رائعة فقد كرهتها، لأنني لم أكن أعمل مع الحيوانات نفسها. كنت أقوم بتحليل تركيباتها الجينية فحسب. ربما تعتقدين أنني مجنونة لأنني تخلّيت عن مهنة رائعة لأتجوّل في المرتفعات الاسكتلندية ليل نهار لقاء أجْرٍ يكاد يكون صفرًا، لكنني أجد ذلك مجزيًا أكثر بكثير.

نظرتْ إلى الأعلى وابتسمتْ لكلوديا وهي تدخل قاعة الاستقبال حاملةً صينية وضعتها على المنضدة، وخرجت على الفور .

- لا يا تيغي، لا أعتقد أنك مجنونة على الإطلاق. أفهمك حقًّا.

- في الواقع، قبل مكالمتنا الهاتفية ليلة أمس، كنت أشعر بالسعادة أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

ابتسمتُ وقلت: هذا لأنك وجدتِ العمل الذي كنت تطمحين إلى القيام به، أنا متأكدة من ذلك.

- نعم، هذا و... أشياء أخرى.

ولاحظتُ احمرارًا خفيفًا يظهر على وجنتيها الرقيقتين. أضافت:

- لكنّها أشياء أدّخرها لوقتٍ آخر. متى تصل الأخريات إلى المنزل؟

- ستحضر سيسي وستار في حوالى السابعة مساءً، وستصل إلكترا في وقتٍ ما من ساعات الصباح الأولى.

قلتُ، وأنا أسكب الشاي في كوبينا.

- كيف كان ردّ فعل إلكترا عندما أخبرتِها؟ لا، لستُ بحاجة لمعرفة الإجابة، أستطيع أن أتخيّل.

- حسنًا، في الواقع، لم أكلّمها. لكنني أعلم أنها كانت تصرخ وتنتحب عندما نقلت إليها مارينا خبر وفاة پا.

- كما هو متوقّع إذًا.

قالت تيغي وهي تأخذ رشفةً من شايها.

تنهّدتْ فجأةً، وأظلمت عيناها.

- يا له من شعور غريب. ما أزال أتوقّع أن يدخل پا في أي لحظة. وبالطبع، لن يفعل ذلك بعد الآن.

- لا، لن يفعل.

وافقتُ بحزن.

- أما من شيءٍ ينبغي لنا فعله؟

سألت تيغي وهي تنهض عن الأريكة وتتوجّه إلى النافذة لتنظر إلى الخارج.

- يُخيّل إليّ أنه ينبغي لنا أن نفعل شيئًا ما... لا أعرف.

- من المُفترَض أن يأتي محامي پا لرؤيتنا عندما يصل الجميع، وسيشرح لنا الأمور. لكن في الوقت الحالي - هززتُ كتفيّ بشيء من اليأس - كل ما يمكننا فعله هو انتظار الأخريات.

- أفترض أنّك على حق. وضغطت تيغي بجبهتها على زجاج النافذة.

- لا أحد منّا كان يعرفه حقًّا، أليس كذلك؟

قالت بهدوء.

- لا، لا أحد. أقررتُ.

- مايا، هل يمكن لي أن أطرح عليك سؤالًا آخر؟

- بالطبع.

- هل تساءلتِ يومًا من أين أتيتِ؟ أقصُد من هما والداك الحقيقيان.

- بالطبع يا تيغي، لقد خطر ببالي ذلك، لكنّ پا كان كلّ شيءٍ بالنسبة إليّ. لقد كان والدي. لذلك أفترض أنني لم أكن أبدًا أحتاج إلى التفكير في ما هو أبعد من ذلك.

- هل تعتقدين أنك ستشعرين بالذنب إذا حاولتِ معرفة مزيدٍ عن هذا الأمر؟

أجبتُها: ربما. لكن پا كان كافيًا دائمًا، ولم أستطِع أن أتخيّل والدًا أكثر منه حبًّا أو رعايةً.

أستطيع أن أفهم ذلك؛ لقد كانت تربطكما علاقة خاصة. ربما لأنك كنت طفلته الأولى.

- لكنّ كل واحدة منّا كان لها علاقة خاصّة به. لقد أحبّنا جميعًا.

قالت تيغي بهدوء: نعم، أعرف أنّه كان يحبّني. لكن ذلك لم يمنعني من التساؤل من أين أتيتُ في الأصل. فكّرت في أن أسأله، لكنني لم أكن أريد إزعاجه. لذلك لم أفعل. في أي حال، لقد فات الأوان الآن.

ثمّ خنقت تثاؤبًا.

- هل تمانعين إذا صعدت إلى غرفتي وأخذت قسطًا من الراحة؟ قد تكون صدمة متأخرة، أو لأنني لم أحصل على يوم إجازة واحد منذ أسابيع عدّة. إنّني منهكة كلّيًّا.

- بالطبع لا أمانع. اذهبي واستلقي، يا تيغي.

راقبتها وهي تعبر الغرفة بلطافةٍ متوجّهةً نحو الباب.

- أراكِ لاحقًا.

- نامي جيدًا. قلتُ، وقد وجدتُ نفسي وحيدة مرةً أخرى. وغاضبة بشكلٍ غريب. لعلّني كنت أتخيّل أشياء لا وجود لها، لكن عالم تيغي الآخر الغامض، وهيئتها التي توحي بالابتعاد عن كل ما يدور حولها، ظهرا فجأة أكثر وضوحًا. لم أكن متأكّدةً تمامًا ممّا أنتظره منها؛ ففي النهاية، كنت أخشى ردود أفعال شقيقاتي على الخبر، لذا كان من المُفترَض أن أشعر بالسرور لأن تيغي بدت وكأنها تتعامل معه بشكلٍ جيّد.

في الواقع، كان السبب الحقيقي لاضطرابي، هو شعوري بأنّ كلّ واحدةٍ من شقيقاتي قد عاشت حياة تجاوز پا سولت ومنزل الطفولة، بينما كان هو وأتلانتيس يشكّلان عالمي بأكمله.

ترجّلت ستار وسيسي من الزورق بعد السابعة بقليل، وكنت هناك لاستقبالهما. لم تكن سيسي من النوع المولع بتعابير الجسد العاطفية، فما كدت أضمّها بين ذراعيّ حتى سحبت نفسها بعيدًا.

- قالت بما يشبه التعليق: خبر صادم يا مايا. ستار متأثّرة جدًّا.

- أنا متأكّدة من ذلك. أجبتُها، وأنا أراقب ستار وهي تقف خلف شقيقتها، وتبدو أكثر شحوبًا من المعتاد.

- كيف حالك يا حبيبتي؟ سألتها وأنا أمدّ ذراعيّ نحوها.

- محطّمة. همسَت ستار، وهي تسند رأسها على كتفي لبضع ثوانٍ، وشعرها البديع ينسدل بلونه الفضيّ كضوء القمر.

قلت: على الأقل كلُّنا معًا الآن.

ابتعدت ستار عني ولجأت إلى سيسي التي قامت على الفور بلفّ ذراعها القوية، الحامية، حولها مرةً أخرى.

- ما الذي يجب القيام به؟ سألتْ سيسي، بينما كنا نسير نحن الثلاث باتجاه المنزل.

مرة أخرى، أخذتهما إلى قاعة الاستقبال وأجلستُهما. ومرة أخرى، رويت ظروف وفاة پا ورغبته في دفنٍ خصوصيٍّ دون حضور واحدةٍ منا.

- إذًا، من كان ذلك الشخص الذي رمى فعليًّا جثة پا في البحر؟

بشكلٍ منطقيٍّ خالٍ من العواطف، استفسرت سيسي، شقيقتي الرابعة، التي كانت وحدها قادرة على أن تسأل بهذه الطريقة. كنت أعرف أنها لم تقصد الظهور كشخصٍ يخلو من الإحساس. كانت تريد الحقائق فقط.

- إنه سؤال لم أطرحه، لكنني متأكدة من أنه يمكن لنا اكتشاف ذلك. ربما كان أحد أفراد طاقم تيتان.

- وأين حدث ذلك؟ أعني، بالقرب من سان تروبيز حيث كان اليخت راسيًا، أم أنّهم أبحروا إلى عرض البحر؟ لا شكّ في أنّهم فعلوا، أنا متيقّنة من ذلك.

كنت أنا وستار نرتعد من حاجتها إلى التفاصيل.

- تقول ما، إنه دُفن في تابوت من الرصاص كان موجودًا على متن تيتان. أمّا بشأن المكان، فلا أعرف حقًّا. قلتُ ذلك على أمل أن أضع نهايةً لتحقيق سيسي.

قالت بإلحاح:

- أليس من المفترض، أن يخبرنا هذا المحامي بما جاء في وصيّته بالضبط؟

- نعم، أعتقد ذلك.

فقالت: وهي تهزّ كتفيها:

بحسب ما نعرفه، فنحن الآن معدمات. هل تذكرين كيف كان مهووسًا بضرورة أن نكسب عيشنا بأنفسنا؟ لن أتفاجأ إذا اكتشفتُ أنه ترك كلّ ثروته للأعمال الخيرية.

على الرغم من أنني كنت أتفهم أن قلّة اللباقة الطبيعية التي اتّسمت بها سيسي كانت بالتأكيد أوضح في هذه اللحظة، وتتيح لها التغلّب على ألمها الداخلي الحالي، فقد بلغَت الحد الأقصى. لم أعقّب على تعليقها، وبدلًا من ذلك التفتُّ إلى ستار، التي جلست بصمت على الأريكة بجانب شقيقتها.

- كيف حالك؟ سألتُها بلطف.

- أنا...

- إنها في حالة صدمة، مثلنا جميعًا. تدخّلت سيسي قبل أن تتمكّن ستار من الكلام.

- لكننا سنتجاوز ذلك معًا، أليس كذلك؟ قالت وهي تمدّ يدها السمراء القوية إلى يد شقيقتها لتشدّ على أصابعها النحيلة الشاحبة. وبعد قليل أردفت:

- يا له من أمرٍ مؤسف، كنتُ على وشك أن أخبر پا بنبأٍ سار.

- سألتُها: وما هو هذا النبأ؟

- لقد تلقّيت عرضًا بالحصول على مكانٍ في الدورة التأسيسية التي تقيمها الكلية الملكية للفنون في لندن، اعتبارًا من شهر أيلول القادم.

- هذا خبر رائع يا سيسي.

قلتُ، على الرغم من أنني لم أكن أفهم حقًّا أعمالها الفنية الغريبة، «منشآتها» كما كانت تسمّيها، وكنت أفضّل أسلوبًا أكثر تقليديًا من الفن الحديث، كنت أعلم أنه كان شغفها وكنت سعيدة بذلك.

- نعم، نحن مسرورتان، أليس كذلك؟

- نعم. وافقت ستار مطيعةً، مع أنها لم تبدُ كذلك. استطعت أن أرى شفتها السفلية ترتجف.

- سنقيم في لندن. هذا إذا بقي لنا أموال بعد أن نلتقي هذا الذي يسمّي نفسه محامي پا.

قلتُ بنفاد صبر:

- بصراحة، يا سيسي ليست هذه اللحظة المناسبة للتفكير في مثل هذه الأشياء.

- آسفة يا مايا، أنت تعلمين أن هذا هو أسلوبي. لقد أحببت پا كثيرًا. كان رجلًا لامعًا وكان دائمًا يشجّعني في عملي.

لبضع ثوان فقط، رأيت ضعفًا وربما بعض الخوف يظهران في عينيّ سيسي العسليّتين.

أكّدتُ: نعم، لقد كان فريدًا من نوعه.

- حسنًا يا ستار، لماذا لا نصعد، أنا وأنت، إلى الطابق العُلوي لنفرغ أمتعتنا؟ اقترحت سيسي، قبل أن تسألني:

- في أي وقت يجهَزُ العشاء يا مايا؟ نحن الاثنتين نشعر بالجوع.

- سأطلب من كلوديا أن تجهّزه في أقرب وقت ممكن. لن تصل إلكترا قبل ساعات ولم تأتِني بعدُ أيّ أخبار من آلي.

- حسنًا، سنراك بعد قليلٍ إذًا. قالت سيسي وهي تنهض، وستار تحذو حذوها. أضافت: إذا كان هناك ما يمكن لي فعله، فما عليك إلّا أن تطلبي.

ابتسمت لي سيسي بحزنٍ وهي تقول ذلك. على الرغم من عدم اهتمامها، كنت أعلم أنها صادقة.

بعد أن غادرتا القاعة، فكّرت في لغز العلاقة التي كانت تربط بين شقيقتيّ الثالثة والرابعة. غالبًا ما ناقشنا أنا ومارينا سرّ هذه العلاقة؛ كنّا، نحن الاثنتين، نشعر بالقلق ونحن نراهما يكبران، لأن ستار، وبكل بساطة، كانت تختبئ وتكبر في ظلّ الشخصية القوية التي تتمتّع بها سيسي.

- تبدو ستار وكأنها لا تملك عقلًا خاصًّا بها، لقد قلت ذلك مرّةً بعد مرّة. ليس لديّ أدنى فكرة عن رأيها الشخصي بخصوص أي شيء. أليس من المؤكّد أنّه أمر غير صحيّ؟

كانت مارينا توافقني من صميم قلبها. لكنْ عندما حدّثت پا سولت بالأمر، ابتسم تلك الابتسامة الغامضة وطمأنني ألّا أقلق قائلًا:

- ستار ملاكٌ بهيّ، ذات يوم ستفرد جناحيها وتطير. انتظري تري.

لم يُرِحني ذلك، فمثلما كانت ستار تعتمد على سيسي، كانت سيسي تستمدُّ قوتها ورباطة جأشها من ستار مباشرةً. كان الاعتماد متبادلًا، وإذا حدث وطارت ستار ذات يوم، كما توقّع پا سولت، كنت أعرف أن سيسي ستجد نفسها ضائعةً تمامًا.

* * *

كان العشاء كئيبًا ذاك المساء بينما بدأت شقيقاتي الثلاث يتكيّفن مع وجودهن في المنزل، حيث كان كل شيء من حولنا يذكّر بفداحة ما فقدناه. بذلت مارينا قصارى جهدها للحفاظ على معنويات الجميع، لكنها بدت غير متأكّدة من أفضل السبل للقيام بذلك. طرحَت أسئلةً عمّا تفعله كل واحدةٍ من فتياتها الغاليات في حياتها حاليًّا، لكن ذكرى پا سولت التي لم نعبّر عنها استدعت الدموع إلى أعيننا. في النهاية، أفسحت محاولاتُ تبادلِ الحديث المجالَ أمام الصمت.

- سأكون سعيدةً عندما يُحدَّدُ مكانُ وجود آلي. فإنّه لم تحضُر، لن نستطيع المضيّ قدُمًا في سماع ما أراد پا سولت أن يخبرنا به.

أضافت تيغي متنهّدةً: أرجو المعذرة، لكنني سأصعد وآوي إلى الفراش.

بعد أن قبّلتنا جميعًا، غادرت الغرفة، وبعد بضع دقائق تبعتها سيسي وستار.

- قالت مارينا عندما لم يبقَ سوانا حول المائدة: أوه، يا عزيزتي. كلُّهنّ مدمَّراتٌ تمامًا. أتفق مع تيغي؛ كلما أسرعنا في تحديد مكان وجود آلي، وأعدناها إلى المنزل، تمكنّا جميعًا من المضي قدمًا بشكل أسرع.

قلت: من الواضح أن هاتفها الجوّال خارج نطاق التغطية. لا بدّ من أنّك منهكةً تمامًا يا ما. نامي وسأبقى مستيقظةً بانتظار وصول إلكترا.

- هل أنت متأكدةً يا حبيبتي؟

- نعم. أكّدتُ وأنا أعلم مدى الصعوبة التي كانت تجدها مارينا في التعامل مع شقيقتي الصغرى.

- شكرًا لك يا مايا.

قالت مذعنةً، من دون مزيدٍ من الاحتجاج.

نهضت وقبّلتني بلطفٍ على رأسي، ومن ثمّ غادرت المطبخ.

خلال طوال نصف الساعة التالية، أصررت على مساعدة كلوديا في رفع أطباق وجبة العشاء، إذ كنتُ، ببساطة، ممتنةً لوجود عمل أتسلّى به بانتظار وصول إلكترا. كنت قد تعوّدت صمت كلوديا، لكنني الليلة وجدتُ حضورها الهادئ والصامت مريحًا.

- هل أُقفِل البابَ يا آنسة مايا؟ سألتْني.

- لا، لقد كان نهارك طويلًا أيضًا. اذهبي وارتاحي سأتكفّل بذلك.

- كما ترغبين، طابت ليلتك. قالتها بالألمانية وهي تغادر المطبخ.

أدركت أنّ إلكترا لن تصل قبل ساعتين على الأقل، واستيقظت تمامًا بسبب نومي، على غير عادتي، حتى ساعة متأخِّرة من هذا الصباح. رحتُ أتجوّل في المنزل

حتى وصلت إلى باب مكتب پا سولت. كنت أرغب في أن أشعر به من حولي، فأدرت مقبض الباب ووجدته مغلقًا.

فاجأني ذلك وأزعجني؛ فخلال الساعات التي كان يمضيها في مكتبه وهو يدير أعماله من المنزل، كان الباب مفتوحًا دائمًا لنا، نحن الفتيات. لم يكن قط مشغولًا إلى الحدّ الذي يمنعه من إهدائي ابتسامةً ترحيبيةً عند طرقي الخجول، وكنت أستمتع دائمًا بالجلوس في مكتبه، الذي كان يحوي كنزه الطبيعيّ والماديّ. على الرغم من وجود صفوف من أجهزة الكمبيوتر على مكتبه، وشاشة فيديو عملاقة، مثبتة على الحائط لإجراء المكالمات الجماعية عبر الأقمار الصناعية، كانت عيناي تركزان دائمًا على الكنوز الشخصية، الموضوعة بشكل عشوائي على الرفوف خلف المكتب.

كانت أشياء بسيطة، أخبرني أنه جمعها خلال رحلاته المتعدّدة حول العالم. كان هناك، من بين أشياء أخرى، كان هناك صورة لمريم العذراء ذات إطار مذهّب، وكانت من الصِّغر بحيث يمكنني أن أضعها في راحة يدي. وكان هناك أيضًا كمان قديم، وحقيبة جلدية بالية، وديوان ممزّق لشاعر إنجليزي لم أسمع به قطّ.

لا شيء نادر، لا شيء ذو قيمة خاصّة على حدّ علمي، بل مجرّد أشياء كانت تعني له شيئًا ما.

على الرغم من أنني كنت على يقين من أنّ رجلًا بمنزلة پا كان قادرًا على ملء منزلنا بأعمالٍ فنيةٍ لا تُقدّر بثمن، وتحفٍ قديمةٍ رائعة، لو رغب في ذلك، لكن منزلنا، في الواقع، لم يكن يحوي قطعًا أثرية باهظة الثمن. على العكس من ذلك، كنت أشعر دائمًا أنّ لدى پا نفورًا من الممتلكات المادية الجامدة ذات القيمة الكبيرة. كان يسخر بشدّة من معاصريه الأثرياء عندما يدفعون مبالغ باهظة لامتلاك أعمالٍ فنيةٍ شهيرة، ويقول لي إنّ معظمها ينتهي به المطاف في خزائنهم الحديدية، مخافة أن يتعرّض للسرقة.

كان يقول لي: ينبغي أن يكون الفن متاحًا للجميع. إنه هدية من روح الرسام. واللوحة التي نضطر إلى إخفائها عن الأنظار لا قيمة لها.

عندما تجرّأت على تذكيره بأنه، هو نفسه، يملك طائرة خاصة ويختًا كبيرًا فاخرًا، رفع حاجبيه موجّهًا إليّ نظرةً صارمة.

- لكن يا مايا، ألا ترين أنهما مجرّد وسيلتَي نقل؟ إنهما يقدمان خدمة عملية، ووسيلة لتحقيق هدفٍ ما. وإذا اشتعلت النيران فيهما غدًا، يمكن لي تعويضهما بسهولة. يكفي أن يكون لديّ ستّ تحفٍ فنية بشرية: بناتي، اللاتي يستحققن وحدهن العناء على وجه هذه الأرض، لأنّه، يستحيل تعويضهنّ. لا تستطيعين أن تعوّضي الأشخاص الذين تحبّينهم يا مايا. تذكّري ذلك جيدًا. لن تنسيه، أليس كذلك؟

تلك كلماتٌ قالها لي قبل سنوات عدّة ولم تفارقني قطّ. كنت أتمنّى من كل جوارحي لو أنني تذكّرتها عندما كان ينبغي لي أن أتذكّرها.

ابتعدت عن باب مكتب پا سولت بجفاف عاطفي، ودخلت قاعة الاستقبال. كنت لا أزال أتساءل: لماذا أُقفِلَ ذلك الباب، بحق الجحيم؟ وقلتُ في نفسي: سأسأل مارينا غدًا. مشيتُ حتى طاولة جانبية والتقطتُ صورة فوتوغرافية أُخذت قبل بضع سنوات، يظهر پا فيها متّكئًا على درابزين اليخت تيتان، وهو محاط ببناته، وترتسم على وجهه الوسيم، بملامحه المسترخية، ابتسامةٌ عريضة، ويسترسل شعره الذي خطّه الشيب مدفوعًا إلى الخلف برياح البحر. كانت الشمس قد لوّحت جسده القوي المتناسق بلون برونزي قوي.

- من كنتَ؟ سألتُ الصورة مقطّبة الحاجبين.

لم أرغب في القيام بأيّ شيء، فشغّلتُ التلفزيون ورحتُ أقلّب القنوات حتى وجدتُ قناةً تبث نشرة الأخبار. كالعادة، كانت النشرة حافلة بمشاهد الحرب والألم والدمار، وكنت على وشك تبديل القناة عندما أعلن المذيع أن جثة كريغ إسزو، وهو صناعيٌّ شهيرٌ كان يدير شركة اتصالات دولية عملاقة، قد عُثر عليها بعد أن لفظها البحر على شاطئ خليجٍ صغيرٍ في جزيرةٍ يونانية.

استمعت باهتمام، وقد تجمّد جهاز التحكّم في يدي، بينما كان مذيع الأخبار يوضح أن أسرة كريغ كانت قد أعلنت مؤخرًا أنه يعاني من سرطان في طوره النهائي. وفي ضوء هذا التشخيص، قرّر أن يضع حدًّا لحياته.

راحت نبضات قلبي تتسارع. ليس لأن والدي، أيضًا، قد اختار مؤخرًا أن يرقد إلى الأبد في قاع المحيط، ولكنْ لأن النبأ كان يمسُّني مباشرة...

ثم ذكر مذيع الأخبار أنّ ابنه زِد، الذي كان يعمل، جنبًا إلى جنب، مع والده لسنوات عدة، سيتولى مهامه فورًا رئيسًا تنفيذيًّا للشركة الأثينية القابضة. عندما ظهرت صورة زِد على الشاشة أغمضت عينيّ بشكلٍ غريزي.

يا إلهي، تأوّهتُ متسائلة: لماذا قرر القدر اختيار هذه اللحظة ليذكّرني برجل قضيت الأربعة عشر عامًا الماضية في محاولة يائسة لنسيانه.

إذًا يبدو، ويا لسخرية القدر، أنه في غضون ساعات قليلة، فقد كلانا والده في قبر مائي.

نهضتُ ورحتُ أذرع أرض الغرفة، محاولةً إزالة صورة وجهه - الذي بدا أكثر وسامة مما كنت أتذكّر - من ذهني.

فكّري في الألم الذي سبّبه لك يا مايا. قلتُ لنفسي: لقد انتهى الأمر، انتهى منذ سنوات. مهما يحصلْ، ومهما تفعلي، لا توقظي ذكريات أليمة.

بينما كنت أتنهّد وأغوص في الأريكة، مُستنفدَةً من كل طاقة، أدركت أنّ الأمر لا يمكن له أن ينتهي حقًّا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

5

بعد مرور ساعتين، سمعت الأزيز الناعم لمحرك الزورق، مبشّرًا بوصول إلكترا. أخذت نفسًا عميقًا وحاولت تمالُك نفسي. خرجت من المنزل ومشيت في الحدائق المضاءة بنور القمر، والندى الدافئ يبلّل قدميّ العاريتين، ومن ثَمّ رأيت إلكترا تصعد المروج نحوي. بدت بشرتها الأبنوسية الجميلة متوهّجةً في ضوء القمر، بينما كانت ساقاها البالغتا الطول تقصِّران المسافة بيننا.

كانت إلكترا بقامتها الفارعة التي تتجاوز ست أقدام، تجعلني أشعر بالضآلة إزاء جسدها المنحوت وأناقتها الطبيعية الخالية من أي جهد أو تكلّف. عندما وصلت إليّ، كانت هي التي ضمّتني إليها بقوة، وكان رأسي يناسب صدرها ويغرق فيه تمامًا.

- أوه مايا! أرجوكِ، قولي لي إنّ هذا كلّه ليس صحيحًا؟ لا يمكن له أن يرحل، لا يستطيع ذلك. أنا...

بدأت إلكترا تنتحب بصوتٍ عالٍ، وقرّرتُ أنه بدل إزعاج الشقيقات الأخريات اللائي ينمن حاليًّا في المنزل، سأصطحبها إلى منزل الحديقة، وبكثيرٍ من الرقّة وجّهتُها نحوه. استمرّت تبكي بكاءً يفطر القلب بينما كنت أغلق الباب خلفنا، ثم قدتُها إلى غرفة الجلوس وأجلستُها على الأريكة.

- مايا، ماذا سنفعل جميعًا من دونه؟ سألتْني، وعيناها الكهرمانيتان المتوهّجتان تتوسّلان مني جوابًا.

قلت: لا شيء نستطيع القيام به للتخلّص من ألم خسارته، لكنني آمل على الأقل أننا، بوجودنا جميعًا، نستطيع أن نواسي بعضنا بعضًا. ومن ثمّ أخذت على

عجلٍ علبة مناديل ورقية كانت على الرف، ووضعتها بجانبها على الأريكة. أخذتْ منديلًا ومسحتْ عينيها.

- لم أتوقّف عن البكاء منذ أخبرَتني ما. لا أستطيع تحمُّل ذلك، يا مايا. ببساطة، لا أستطيع.

وافقتها: لا، لا أحد منّا يستطيع.

وبينما كنت أشاهد شقيقتي وأستمع لسيل حزنها الهادر، فكّرتُ وتساءلتُ كيف يمكن لهذا الحضور الشهواني الآسر أن يتناقض، إلى هذا الحدّ، مع الفتاة الصغيرة الهشّة التي تسكن روحها. غالبًا ما كنت أرى صورها في المجلات على ذراع نجمٍ سينمائيٍّ أو پلاي بوي ثري، حيث تبدو رائعة ومسيطِرة تمامًا، وأتساءل إن كانتْ حقًّا هذه المرأة التي تظهر في الصور، هي نفسها، الشقيقة التي عرفتها بمزاجها العاطفي المتقلّب. لقد توصّلتُ إلى الاعتقاد بأن إلكترا تتوق إلى استعراضاتٍ دائمةٍ من الحب والاهتمام لتخفيف شعورٍ متأصِّلٍ بعدم الأمان.

- هل أحضر لك شيئًا تشربينه؟ سألتُها حين توقفَت عن البكاء. ربما براندي؟ قد يساعد على تهدئتك.

- لا، لم أتناول مشروبًا كحوليًّا منذ شهور. ميتش أيضًا توقّف عن الشراب.

كان ميتش صديق إلكترا الحالي، المعروف للكون كلّه باسم مايكل دوغان، المغنيِ الأميركي ذو الشهرة العالمية، الذي كان حاليًا يقوم بجولة عالميّة نفدت جميع تذاكرها، حيث يغني في ساحات ضخمة تكتظّ بالمشجّعين الصاخبين.

- أين هو الآن؟ سألتُها، وأنا أسائل نفسي إن كان الحديث عنه سيؤدي بإلكترا إلى الغرق في سيلٍ آخر من الدموع.

- في شيكاغو، والأسبوع القادم، سيغنّي في ماديسون سكوير غاردن. هل تستطيعين يا مايا أن تخبريني كيف مات پا سولت؟ أنا حقًّا بحاجةٍ إلى أن أعرف.

- هل أنت متأكّدة من ذلك يا إلكترا؟ من الواضح أنك حزينة للغاية ومُتعَبة بعد هذه الرحلة الطويلة. ربما بعد ليلة نوم جيدة، ستكونين أفضل حالًا وأكثر هدوءًا.

- لا يا مايا. هزّت إلكترا رأسها وبذلت جهدًا واضحًا لتتمالك نفسها. من فضلك، أخبريني الآن.

للمرة الثالثة، كرّرت ما قالته لي مارينا، وبشكل سريع غطّيت أكبر قدر ممكن من التفاصيل. جلست إلكترا بهدوء واستمعت باهتمام لكل كلمة قلتها.

- إذًا، هل فكّرت في ترتيبات الجنازة؟ قال لي ميتش: إذا كانت مراسم الدفن ستقام خلال الأسبوع المقبل، فقد أكون قادرًا على الحضور لمساعدتك في تجاوز هذه المحنة.

لأول مرة، شعرت بالارتياح فعلًا لأن پا اختار أن يُدفن سرًّا. كان مجرّد التفكير في السيرك الإعلامي الذي كان ليحدث، لو ظهر صديق إلكترا النجم في جنازة پا، يبعث في جسدي هزّات من القشعريرة.

- إلكترا، أنا وأنت متعبتان الآن، و...

- قالت إلكترا، وقد لاحظَت تردُّدي على الفور: ما بك يا مايا؟ أخبريني، أرجوكِ.

- حسنًا، سأفعل، لكن من فضلك حاولي ألّا تغضبي مرّةً ثانيةً.

- سأبذل قصارى جهدي، أعدكِ بذلك.

قلتُ لها إن نوعًا من الجنازة قد أُقيم بالفعل. ويُحسب لها، على الرغم من أنني رأيت مفاصل أصابعها تبيضّ لفرط ما شدّت قبضتيها وضغطتهما، أنها وفت بوعدها ولم تعاود البكاء مرةً أخرى.

سألتني: ولكن لماذا فعل ذلك؟ أليس من القسوة أن يحرمنا جميعًا من فرصة توديعه وداعًا لائقًا؟ ومن ثمّ قدحَت عينا إلكترا الذهبيّتان من شدّة الغضب وقالت: هذا قرار يشبهه تمامًا. أعتقد أنّ ما فعله ينمّ حقًّا عن أنانية مفرطة.

- حسنًا، ولكن يمكننا أن نعتقد بأنه على النقيض من ذلك، أراد أن يجنّبنا جميعًا ألم وداعه.

- ولكن كيف لي أن أشعر أنّه رحل؟ كيف يمكن لأيّ منا أن تفعل؟ في لوس أنجلوس، يتحدثون عن «الخاتمة» ومدى أهميتها. من أين لنا أن نحظى بخاتمتنا الآن؟

- سأكون صريحةً معك يا إلكترا، لا أعتقد بوجود خاتمة تقفل الصفحة نهائيًا بعد فقدان شخص نحبُّه.

- ربما، لكنّ هذا لا يساعد. حدّقت إلكترا إلى وجهي وأضافت: حسنًا، لم نكن أنا وپا سولت نتّفق في معظم الأشياء. أقصُد، من الواضح أنه لم يكن يوافق على كيفية كسب رزقي. لكنّه بالمقابل، كان الشخص الوحيد الذي اعتقد بأنّ لديّ عقلًا راجحًا. تذكّري كم كان يغضب عندما أرسب في امتحاناتي المدرسية.

تذكّرت حجج إلكترا العنيفة التي كان يتردّد صداها خارج مكتبه بشأن تقاريرها المدرسية الكارثية، وفيما بعد، بشأن أمور أخرى متنوعة كلما نمت وكبرت. لم تكن إلكترا تنظر إلى القواعد إلا كأشياء يجب كسرها، وكانت الوحيدة التي قاتلت وتجرّأت على الوقوف في وجه پا وقفة الندّ للندّ. ومع ذلك، كنت أرى بريق الإعجاب في عينيّ پا عندما يتحدث عن ابنته الصغرى النارية.

قال لي في أكثر من مناسبة: إنها بالتأكيد مفعمة بالحيوية، وهذا ما سوف يميّزها دائمًا عن بقية الحشد.

- كان يعبدك يا إلكترا. عزّيتُها. وأضفت: ومن ثمّ نعم، ربما كان يريدك أن تستخدمي عقلك. أيّ أب لا يريد ذلك؟ دعينا نتكلّم بصراحة، لقد أصبحتِ أكثر نجاحًا وشهرة من أيّ منا. انظري إلى حياتك مقارنةً بحياتي. لديك كل شيء.

- لا، ليس لديّ شيء. ثم تنهّدَتْ فجأةً، وأردفتْ:

- مجرّد دخان وأوهام فارغة حقًّا، ولكن هذا ما نحن عليه. أنا متعبة يا مايا. هل تمانعين في أن أنام هنا هذه الليلة؟

- بالطبع لا. السرير الاحتياطي جاهز. نامي كما تشائين، حتى إلى وقت متأخر من يوم غد، فما دمنا لم نجد آلي، لا شيء يمكن لأي منا أن تفعله سوى الانتظار.

- شكرًا لك. وأنا آسفة لأنني كنت عاطفية إلى هذا الحد. ومن ثمّ اعترفت قائلة: لقد عرّفني ميتش إلى اختصاصية تحاول مساعدتي في علاج تقلُّباتي المزاجية. نهضت وسألتني: هل يمكن لك أن تحضنيني؟

- بالتأكيد.

أخذتها بين ذراعيّ وحضنتها. ثم حملَتْ حقيبتها الليلية وتوجهَتْ نحو باب غرفة الجلوس وتوقفَتْ أمامه.

- لديّ صداع رهيب. تُرى، هل أجد لديك بعض الكودیين؟

- لا، آسفة، لكنّي أعتقد أن لديّ بعض أقراص الباراسيتامول.

- لا عليكِ. أهدتني إلكترا ابتسامة مرهقة وقالت: أراك غدًا.

عندما أطفأتُ الأضواء وتوجّهت إلى غرفة نومي، رحتُ أفكر في ذلك كله. كنت قد فوجئت تمامًا برد فعل تيغي الصامتة، والآن، ها هي إلكترا تعطيني مادّة للتفكير لم أكن أتوقّعها. لقد بدت هذه الليلة كما لو أن في داخلها يأسًا دفينًا كان يقلقني.

عندما استلقيت تحت أغطية الفراش - التي أعادت كلوديا ترتيبها تمامًا بعد ليلتي المضطربة - فكرت إلى أيّ مدى قد يمثّل موت پا سولت لحظةً مصيريةً لنا جميعًا.

لم تكن أيّ من شقيقاتي قد استيقظت عندما ذهبت في الصباح التالي لرؤية مارينا. سألتها إنْ كان لديها أخبار من آلي.

- لا شيء. قالت بلا حَوْلٍ ولا قوة.

- كان پا يعرف ما يجب فعله. لقد أثبت ذلك دائمًا.

- نعم. وافقت مارينا. ومن ثمّ سألتني:

- كيف وجدتِ إلكترا؟

- وجدتها مصدومةً، ومدمَّرةً، وغاضبةً جدًّا لعدم قدرتها على توديع پا بشكلٍ صحيح. لكنها تمكّنت من إبقاء عواطفها تحت السيطرة.

- عظيم. لقد اتصل بي غيورغ هوفمان مرةً أخرى ليعرف إن كنّا قد وجدنا آلي، وكان عليّ أن أقول له الحقيقة. ماذا يسعنا أن نفعل؟

قلتُ وأنا أعدُّ لنفسي الشاي: لا شيء، سوى محاولة التحلّي بالصبر. بالمناسبة، يا ما، عندما حاولت الدخول إلى مكتب پا الليلة الماضية، وجدتُ الباب مغلقًا. هل تعرفين لماذا؟

- لأن والدك طلب مني أن أقفله قبل وفاته بقليل. ثم أصرّ على أن أعيد له المفتاح مباشرة بعد ذلك. ليس لديّ أي فكرة عن المكان الذي وضعه فيه، ولكي أكون صادقةً، مع كل ما يجري هنا. . . وصعوبته، فقد غاب عن ذهني ذلك.

- حسنًا، يتعيّن علينا العثور عليه. لا شكّ في أن غيورغ سيطلب الدخول إلى مكتب پا، لأنه كان يحتفظ فيه بجميع أوراقه.

- بالطبع. والآن، ما دامت أيّ من شقيقاتك لم تظهر حتى الساعة، وقد شارف الوقت على الظهيرة، أقترح أن تعدّ لنا كلوديا وجبة فطور وغداء.

- فكرة جيّدة. سأعود إلى منزلي في الحديقة لأرى إن كانت إلكترا قد استيقظت.

- حسنًا يا حبيبتي. وابتسمت لي مارينا ابتسامة متعاطفة.

- سينتهي انتظارنا قريبًا.

- أعرف.

في الطريق إلى منزلي في الحديقة، لمحتُ من خلال الأشجار ظلّ ستار تجلس وحيدةً على رصيف الميناء الصغير قبالة البحيرة. مشيت إليها وربّتُّ كتفها بلطف، لئلّا تخاف.

- هل أنت بخير يا ستار؟

- نعم، أفترض ذلك. قالت وهي تهزُّ كتفيها.

- هل أستطيع الانضمام إليك؟

استقبلت اقتراحي بإيماءة شبه مرئية من رأسها. فجلست بجانبها وتركت ساقيّ تترجّحان على حافة الرصيف، ثم نظرت إليها فرأيت وجهها غارقًا بالدموع.

- أين سيسي؟ سألتُها.

- ما تزال نائمة. عندما تكون حزينة، تلجأ إلى النوم، أما أنا فلم يغمض لي جفن طوال الليل.

اعترفت: أنا أيضًا أعاني.

- لا أصدّق أنّه رحل يا مايا.

جلست بجانبها صامتةً وأنا أعلم كم كان نادرًا بالنسبة إليها أن تفصح عن مشاعرها لأي شخص آخر غير سيسي. لم أشأ أن أقول شيئًا قد يجعلها تنهار وتنغلق على نفسها.

قالت أخيرًا: أشعر بالضياع. كنت أعرف دائمًا بطريقةٍ ما أن پا كان الشخص الوحيد الذي يفهمني. أقصد يفهمني حقًّا. كانت ملامحها الأخّاذة، شبه الشبحية قد تشوّهت وتحوّلت قناعًا من اليأس. التفتت إليّ وقالت:

- أتعرفين ما الذي أعنيه يا مايا؟

قلت ببطء: نعم، أعتقد أنني أعرف. ورجاءً يا ستار، إذا احتجت إلى شخصٍ آخر تتحدثين إليه، فأنا حاضرة دومًا. تذكّري ذلك.

- سوف أفعل.

- أنتما هنا!

أجفلنا بشكل غريزيٍّ واستدرنا نحن الاثنتين لنرى سيسي على الرصيف تتقدّم نحونا. ربما تخيّلت ذلك، لكنني متيقّنةً من أنني رأيت أصغر لمحة انزعاج تومض في عينَي ستار الزرقاوين.

- جئت أتنشّق بعض الهواء النقي، كنتِ نائمة. قالت ستار وهي تنهض.

- حسنًا، أنا مستيقظة الآن، كذلك تيغي. هل وصلت إلكترا الليلة الماضية؟ لقد مررتُ بغرفة نومها، ولم ألحظ أيّ علامات تدلّ على أن أحدًا نام فيها.

- نعم، لقد وصلَت وبقيت معي في منزل الحديقة. سأذهب لأرى إن كانت قد استيقظت. قلت، وأنا أنهض وأتبع شقيقتيّ عبر المروج.

قالت سيسي: يُفترض أنك قضيت ليلة صعبة في التعامل مع مسرحيات إلكترا المعتادة، أليس كذلك يا مايا؟

- في الواقع، كانت إلكترا هادئة نسبيًا. أجبت، وأنا أعلم جيدًا أن العلاقة بين شقيقتيّ الرابعة والسادسة ليست على ما يرام. كانت كل منهما نقيضًا للأخرى؛ سيسي عملية جدًّا وتكره إظهار أيّ عاطفة، وإلكترا متقلّبة جدًّا.

قالت سيسي بنبرة قاطعة: عظيم، لكن ذلك لن يدوم طويلًا. أراكِ لاحقًا.

عدت إلى منزلي الصغير، وأنا أفكّر في أزمة ستار. على الرغم من أنها لم تعبّر عن ذلك، لكنّها كانت المرة الأولى التي ألمح فيها إشارة إلى أن هيمنة سيسي كانت عبئًا كبيرًا يثقل كاهلها. حين دخلت المنزل، سمعت أصوات حركة قادمة من المطبخ.

كانت إلكترا، التي بدت مذهلةً في رداء من الحرير الزمردي، تملأ غلّاية الماء.

- هل نمتِ جيدًا؟ سألتها.

- مثل طفل. أنت تعرفينني، هكذا كنت دائمًا. هل تريدين بعض الشاي.

ألقيتُ نظرةً حذرةً على الكيس الذي كانت ترجّحه بأطراف أصابعها.

- ما هذا؟

- شاي أخضر طبيعي. الشراب المفضّل في كاليفورنيا، الجميع يشربونه. يقول ميتش إنه صحيٌّ جدًّا.

- أنتِ تعرفينني، أنا مدمنة على الشاي الإنجليزي التقليدي، الداكن والغني بالكافيين. لذلك أعتقد أنني سأرفض العرض.

ابتسمتُ وجلستُ إلى الطاولة.

- نحن جميعًا مدمنون على شيء ما، يا مايا. لو كنت مكانك لما أقلقني كثيرًا إدمان الشاي. هل لديك أخبار عن آلي؟

رويت لها بالضبط ما أخبرتني به مارينا.

- أعلم أن الصبر ليس من الفضائل التي أتحلّى بها، إذ لا تتوقّف الاختصاصية التي تعالجني عن تذكيري بذلك. لكن، هل من المُفترَض أن نقبع هنا جميعًا، وندور في حلقة مُفرَغة إلى أن تحضر آلي؟ إذا كانت في عرض البحر، فقد يستغرق الأمر أسابيع عدّة.

- آمل حقًّا ألا يحدث ذلك. قلت متنهّدةً بينما كنت أتأمّل رشاقتها الساحرة وهي تتنقّل في المطبخ.

على الرغم من أنني كنت أُعتبر جميلة الأُسرة، فقد كنت أعتقد دائمًا أنّ اللقب يجب أن يعود إلى إلكترا. حين خرجت لتوّها من السرير، بشعرها المسترسل حول كتفيها كلبدة كثيفة متماوجة، لم يكن وجهها يحتاج إلّا إلى مسحةٍ خفيفةٍ من الماكياج لإبراز وجنتيها الرائعتين وشفتيها الممتلئتين. كان جسدها الرياضي بانحناءاته الأنثوية، يذكّرني بملكة أمازونية.

فتحت باب الثلّاجة وراحت تتفحّص محتوياتها.

- أليس لديك هنا أي شيء يؤكل، دون أن يكون محشوًّا بالإضافات الكيميائية؟

- آسفة. المخلوقات العادية مثلي لا تدقّق بالطباعة على الملصقات. أجبتها، على أمل أن تتقبّل المزاح.

- حسنًا، فلنتكلمْ بصراحة يا مايا؛ ليس عليك أن تشغلي نفسك بمظهرك الخارجي، فأنت بالكاد ترين كائنًا بشريًّا بين اليوم والآخر، أليس كذلك؟

- أنتِ على حق. أجبتها بإنصاف، من دون أن تزعجني ملاحظتها. في الواقع، كان ذلك صحيحًا تمامًا.

أخيرًا، قرّرت إلكترا تناول موزةٍ. قشّرتها وعضّت طرفها بشكل كئيب.

- لديّ جلسة تصوير طويلة لصالح مجلة ڤوغ، بعد ثلاثة أيام. آمل ألّا أضطرّ إلى إلغائها.

- وأنا آمل أيضًا، لكن من يدري متى ستظهر آلي. ليلة أمس، بحثت في «غوغل» عن سباقات القوارب الشراعية التي تجري في الوقت الحالي، لكنّي لم أجد شيئًا. لذلك لا نستطيع إرسال طلبٍ إلى السلطات البحرية حتّى للاتصال بها.

بعد برهةٍ قصيرةٍ من الصمت، تابعتُ:

- لقد استيقظت الأخريات، وهنّ الآن في المنزل، ألا تريدين أن ننضمّ إليهنّ بعد أن ترتدي ملابسك؟

- حسنًا، إذا كان لا بدّ من ذلك. قالت إلكترا بلامبالاة.

- إذًا، أراكِ بعد قليل. قلتُ وأنا أغادر الطاولة، مدركةً أنّ الأفضل هو أن تُترك إلكترا وشأنها في حالةٍ مزاجيةٍ كهذه.

دخلتُ إلى الغرفة التي كنت أعمل فيها، وجلست إلى طاولة المكتب، ثم شغّلت جهاز الكمبيوتر. رأيت بريدًا إلكترونيًا لطيفًا من مؤلّفٍ برازيلي، فلوريانو كوينتيلاس، كنت قد ترجمت عن البرتغالية روايته الجميلة، الشلال الصامت، قبل بضعة أشهر. كنت أتواصل معه أثناء عملية الترجمة كلّما واجهت صعوبة معيّنة - كنت أرغب في نقل جمال أسلوبه الشعري الأثيري قدر المستطاع - ومنذ ذلك الحين، كنا نتبادل الرسائل الإلكترونية بشكلٍ دوري.

كان يخبرني بأنه سيسافر في شهر تموز إلى باريس بمناسبة صدور كتابه، ويودُّ أن أحضر حفل الإطلاق الذي تقيمه دار النشر. كما أرفق الفصول الأولى من روايته الجديدة، وطلب إليّ قراءتها إذا توافر لديّ الوقت.

بثّ بريدُه الإلكتروني الدفءَ في قلبي، لأن الترجمة في بعض الأحيان قد تكون مَهمّةً لا تُقدّر قدرها بالنسبة إلينا، نحن العاملين في الظلّ. لذلك كنت أثمّن عاليًا المناسبات النادرة، عندما كان المؤلف يتّصل بي مبديًا رغبته في مخاطبتي مباشرة. كنت أشعر أن ثمّة صلةً تربطني به.

تحوّل انتباهي عن جهاز الكمبيوتر عندما رأيت طيف قوامٍ مألوفٍ يركض عابرًا المروج.

- آلي. شهقتُ من فرط الدهشة وأنا أهبُّ واقفةً. إلكترا، لقد وصلت آلي! صحتُ وأنا أهرع إلى خارج المنزل لاستقبالها.

الواضح أن شقيقاتي الأخريات قد رأينَها تترجّل من القارب. فعندما وصلت إلى شرفة المنزل الرئيسي، كانت سيسي، وستار، وتيغي قد تجمّعن حولها.

قالت آلي ما إن رأتني: مايا، أليس أمرًا فظيعًا؟

- نعم، إنّه أمر مروّع. لكن كيف سمعتِ الخبر؟ كنا نحاول الاتصال بك طوال اليومين الماضيين.

- فلنذهب إلى الداخل. سأشرح لكنّ كل شيء.

تخلّفت قليلًا بينما راحت شقيقاتي الأخريات يتزاحمن حول آلي أثناء دخولهنّ المنزل. صحيح أنني كنت الشقيقة البكر، تلك التي يلتفتنَ إليها ويطلبنَ منها الدعم على انفراد، عندما يواجهنَ مشكلةً ما، ولكن عندما نجتمع، كانت آلي هي التي تتولّى القيادة دائمًا. وكما هي العتادة، تركتُها تفعل.

كانت مارينا تنتظر أسفل الدرج، فاتحةً ذراعيها على اتساعهما. وبعد أن عانقت آلي، اقترحت علينا التوجُّه إلى المطبخ.

- فكرة جيدة. أنا حقًّا بحاجة ماسّة إلى كوب من القهوة. قالت آلي. لقد كانت رحلة طويلة إلى المنزل.

بينما كانت كلوديا تعدُّ آنيةً كبيرةً من القهوة، دخلت إلكترا واستُقبلت بترحيب حار من الجميع، باستثناء سيسي، التي اكتفت بهزّ رأسها في شبه إيماءة باردة.

- يجب أن أروي لكنّ ما حدث، لأنني وللأمانة، ما أزال أشعر بالحيرة ولا أفهم جيدًا. قالت آلي بينما كنّا جميعًا نتّخذ مقاعدنا حول الطاولة.

ما خاطبَت مارينا، التي كانت تحوم حولنا: يجب أن تسمعي هذا أيضًا. ربما تستطيعين المساعدة في توضيحه.

وجلست مارينا إلى الطاولة معنا.

اعترفت آلي بابتسامة حزينة: كنت في بحر إيجة، أتدرّب على سباق جزر سيكلادس الذي ينطلق الأسبوع القادم، عندما سألني صديقٌ بحار إنْ كنت أرغب في الانضمام إليه لبضعة أيام في رحلةٍ بحريةٍ على يخته الميكانيكي. كان الطقس بديعًا، والحقيقة أنني، ولأول مرّةٍ، كنت سعيدةً بالاسترخاء على الماء دون إجهاد نفسي في مناورات الإبحار.

- من هو صاحب ذلك القارب؟ سألتها إلكترا.

- قلت لكِ، مجرّد صديق. ردّت آلي بفظاظة.

تصنَّعتْ عدم ملاحظة علامات الاستغراب التي ظهرت جليّةً على وجوهنا، وتابعَتْ: باختصار، حدث ذلك قبل يومين، عندما أخبرني صديقي فجأةً، بأنّ أحد رفاقه، وهو بحّار أيضًا، قد اتصل به عبر الراديو، ليعلمه بأنه حدّد مكان تيتان قبالة ساحل ديلوس. يبدو أن صديقي كان يعرف أنه يخت پا، وقرّرنا نحن الاثنين أنه سيكون من الممتع أن نفاجئه بزيارة قصيرة. كنّا على مسافة ساعة فقط، أو قرابة ذلك، إذا أبحرنا في اتجاهه. لذا، فقد رفعنا المرساة وانطلقنا.

تناولت آلي رشفة من قهوتها قبل أن تضيف: عندما رأيت تيتان عبر المنظار، اتّصلت لاسلكيًّا بهانس، ربّان پا، لأخبره بأننا نقترب منه. لكنْ... تنهّدت آلي... لأسباب لم أفهمها في ذلك الوقت، لم يجب. وفي الواقع، كنا نستطيع رؤية القارب وقد راح يبتعد عنّا. فعلنا ما في وسعنا للحاق به، لكنْ، كما تعلمن جميعًا، يمكن لپا أن يبحر في قاربه بسرعةٍ كبيرةٍ عندما يريد ذلك.

رأيت وجوه شقيقاتي الذاهلة حول الطاولة، كنّ مفتونات بقصة آلي التي تابعت حديثها: كانت التغطية على هاتفي الجوال سيّئة جدًّا، وتمكنت بالأمس من التقاط رسائلكن التي تطلب مني الاتصال على وجه السرعة. خصوصًا رسالتك يا سيسي، التي تخبرينني فيها بما حدث بالضبط.

- آسفة يا آلي. قالت سيسي وهي تخفض عينيها بحرَج. لم أكن أرى أيّ فائدةٍ من اللفّ والدوران. كنا بحاجة إلى أن تعودي إلى المنزل في أسرع وقتٍ ممكن.

- وقد أتيت. لذا رجاءً، هل يمكن لإحداكن أن تخبرني بما يحدث بحق الجحيم؟ ولماذا كان قارب پا سولت يرسو في اليونان بعد أن... تُوفّي؟

تحوّلت إليّ كل أنظار المجتمعات حول الطاولة، بما في ذلك آلي. لذا، وبقدر ما استطعت، أخبرتها بما حدث، مشيرةً من وقت إلى آخر إلى مارينا لتؤكد ما أقول. عندما شرحت أين اختار والدنا أن يرقد إلى الأبد، تلاشى اللون من وجه آلي وهمستْ:

- يا إلهي. إذاً، يُحتمل أنني قد وقعت على جنازته مصادفة. لا عجب في أنّ القارب انطلق بعيدًا عني بأسرع ما يمكن. أنا...

وضعت آلي رأسها بين يديها ونهضت الفتيات الأخريات وتجمّعن حولها. تبادلت أنا ومارينا نظرات مؤلمة عبر طرفي الطاولة. أخيرًا، استعادت آلي رباطة جأشها واعتذرت عن الاستعراض الغريزي لعواطفها.

- يا لها من صدمة مروِّعة بالنسبة إليك! قالت تيغي. الآن فقط، وبعد فوات الأوان، تدركين ما كان يحدث هناك، أمام عينيك! كلّنا معك يا آلي.

- شكرًا. قالت وهي تومئ برأسها. لكنني الآن أفكر في ما قاله لي پا ذات مرة عندما كنا نبحر معًا. قال إنه كان يريد أن يُدفن في البحر. لذلك أفترض أنّه أمرٌ منطقي.

- باستثناء حقيقة واحدة، وهي أننا لم نُدعَ للحضور عندما حدث ذلك. علّقت إلكترا بنبرةٍ ساخطة.

- لا، لم نُدعَ. تنهّدت آلي. مع ذلك، وبالمصادفة تمامًا، كنتُ هناك. هل تمانعن في أن أخرج لبرهة؟ أعتقد أنني بحاجةٍ إلى البقاء وحدي.

وافقت أنا وشقيقاتي جميعًا على الامتثال لرغبتها، ومع رسائل الدعم التي شيّعناها بها، غادرَت آلي المطبخ.

- يا له من أمرٍ مروِّعٍ بالنسبة إليها. قالت مارينا.

- صحيح. لكننا على الأقل، أصبحنا نعلم جميعًا أين قرّر پا سولت أن يُدفن. قالت سيسي.

- بحق يسوع، أهذا كل ما يمكن لك التفكير فيه يا سيسي؟ قالت إلكترا بنبرةٍ حادّة.

- آسفة، عملية دائمًا، هذا أنا. أجابتها سيسي برباطة جأش.

- نعم، أنا أيضًا يسعدني أن أعرف مكان وجوده. قالت تيغي دفاعًا عن سيسي. نحن جميعًا نعرف نقطة ضعفه إزاء الجزر اليونانية، لا سيما جزر سيكلادس. بوسعنا

أن نخرج بيخته هذا الصيف ونرمي إكليلًا من الزهور في البحر، في المكان الذي حدّدته آلي على شاشة الرادار.

- نعم. قالت ستار بنبرة خجولة. إنها فكرة جميلة يا تيغي.

- والآن، أيتها الفتيات، هل تريد إحداكن تناول وجبة الفطور؟ سألَت مارينا.

- لا، شكرًا. قالت إلكترا. سأتناول قليلًا من السلطة، إذا كان في هذا المنزل عرقٌ أخضر.

- سنجد بالتأكيد شيئًا يناسبك. قالت مارينا برحابة صدر، وهي تشير إلى كلوديا لتبدأ في إعداد الطعام. ثم التفتت إليّ وقالت:

- والآن، بعد أن أصبحت آلي في المنزل، هل ينبغي لي أن أتصل بغيورغ هوفمان، وأطلب منه المجيء بأسرع ما يمكن؟

- بالتأكيد، قالت سيسي قبل أن أتمكّن من الإجابة. إذا كان لدى پا سولت شيء ما، أي شيء، أراد أن نعرفه، فلنستمعْ إليه في أقرب وقتٍ ممكن.

- هل تعتقدين أن آلي ستكون قادرة على التحمّل؟ سألتني مارينا. لقد أصيبَت اليوم بصدمةٍ مروِّعة.

قلت: للأمانة، أعتقد أنها مثلنا جميعًا، تفضّل الانتهاء من هذا الأمر. لذلك، نعم يا ما، اتصلي بغيورغ.

6

لم تظهر آلي على الغداء فتركناها وشأنها، كنّا نعلم أنها تحتاج إلى بعض الوقت لتفهم ما حدث. عندما وصلت مارينا إلى المطبخ، كانت كلوديا ترفع الأطباق عن الطاولة.

- اتصلت بغيورغ فقال إنه سيصل هذا المساء قبل غروب الشمس. يبدو أن والدك كان محدّدًا ودقيقًا في طلباته، وفي الوقت المناسب.

- حسنًا، أعتقد أنني بحاجة إلى تنفّس هواءٍ نقيٍّ بعد هذه الوجبة الدسمة، قالت سيسي. هل ترغب إحداكن في القيام بجولةٍ سريعةٍ على سطح البحيرة؟

وافقت الشقيقات الأخريات. ربما توقًا إلى الهرب من التوتّر المتصاعد.

قلت: لن أنضمّ إليكنّ، أرجو المعذرة. ينبغي أن تبقى إحدانا هنا، من أجل آلي.

عندما غادرن بالقارب رفقة كريستيان، أخبرت مارينا بأنني سأعود إلى منزلي الصغير في الحديقة، وإذا احتاجت إليّ آلي، سأكون هناك. أخذت كمبيوتري المحمول وجلست على الأريكة، ثم بدأت قراءة الفصول الأولى من رواية فلوريانو كوينتيلاس الجديدة. كانت كروايته الأولى، مكتوبةً بلغةٍ جميلةٍ مُتقَنة الصنعة، وبالضبط، بذلك النوع من السرد الذي كنت أعشقه. كانت أحداثها تدور في القرن المنصرم، قبل مئة عام، في مكانٍ قريبٍ من شلالات إيغوازو، وتحكي قصة أفريقيٍّ شابٍّ هاربٍ من طغيان العبودية. استغرقت في القراء، وكنتُ مسترخيةً إلى الحد الذي جعلني أغفو. انزلق الكمبيوتر عن ركبتي وسقط على الأرض، ثم سمعت صوتًا ينادي باسمي.

استيقظت مذعورة. وكانت آلي هي التي تناديني.

- آسفة يا مايا. كنت نائمة، أليس كذلك؟

- نعم، أعتقد ذلك. ولسببٍ ما، اعتراني شعور بالذنب.

- قالت ما إن الفتيات الأخريات ذهبن إلى البحيرة، لذا جئت لأتحدّث معك، هل يضايقك ذلك؟

- أبدًا. أجبتها محاولةً أن أنفض عن نفسي الخدر الذي تسببت به إغفاءتي اللامتوقَّعة.

- هل ترغبين في كوبٍ من الشاي؟ اقترحت آلي.

- أجل، شكرًا لك. أفضّل الشاي الإنكليزي التقليدي، كما هي العادة. أسود من دون سكّر.

- أعرف.

ابتسمت رافعةً حاجبيها وهي تغادر الغرفة لتختفي في المطبخ. عادت وهي تحمل كوبين يتصاعد منهما البخار وجلست على الأريكة، وعندما رفعت الكوب إلى فمها، رأيت يديها ترتجفان.

- مايا، يجب أن أحدثك بأمر مهمّ.

- ما هو؟

وضعت آلي كوبها في الصحن بشكلٍ مفاجئ.

- دعْكِ من الشاي، أليس لديك شراب أقوى؟

- لديّ بعض النبيذ الأبيض في الثلاجة.

ذهبتُ إلى المطبخ لأُحضر الزجاجة والكأس. ولمّا كانت آلي لا تشرب إلا نادرًا، أدركت أنّ ما تريد قوله لي كان خطيرًا.

- شكرًا. قالت عندما قدّمت لها الكأس بعد أن ملأتها. وأردفت وهي تتناول رشفة من النبيذ: قد لا يكون الأمر بهذه الأهمية، لكنّني عندما وصلتُ إلى المكان الذي غادره يخت پا مسرعًا، رأيتُ مركبًا كبيرًا آخر لا يزال راسيًا في المكان نفسه.

- حسنًا، لكنّه بالتأكيد ليس أمرًا مستغربًا، أليس كذلك؟ في أواخر شهر حزيران، ثمّة عدد كبير من المصطافين الذين تزدحم بهم مياه المتوسط.

- نعم، ولكن... كان ذلك المركب معروفًا لنا نحن الاثنين، أنا وصديقي. كان أوليمبس.

- كان كوب الشاي في منتصف الطريق إلى شفتيّ، عندما قالت آلي ذلك. أعدته بعصبية إلى الصحن، فأحدث فرقعةً مسموعة.

عضّت آلي على شفتها قبل أن تتابع:

- وبالطبع، من شبه المؤكد أنك سمعت بما حدث على متن أوليمبس، أليس كذلك؟ كنتُ على متن الطائرة عندما قرأتُ الخبر في الصحيفة.

- نعم، رأيته على شاشة التلفزيون، في نشرة الأخبار.

- ألا تجدين من المستغرب أن پا قد اختار هذا المكان بالذات ليرقد فيه إلى الأبد؟ وأنه في الوقت نفسه، وعلى مقربة من المكان نفسه، يقرّر كريغ إسزو وضع حدٍّ لحياته؟

كنت أعتقد بالطبع - لأسباب لم أكن قادرةً على البوح بها لآلي - أن هذه المصادفة كانت سخيفة، وتكاد تكون فاحشة. لكن أكثر من ذلك؟ لا، لا يمكنها أن تكون.

- نعم، إنها مصادفة غريبة. قلتُ باذلةً قصارى جهدي لأخفي اضطرابي. لكنني متأكدة من عدم وجود صلة. لم يكن يعرف أحدهما الآخر، أليس كذلك؟

- ليس لديّ أدنى فكرة. ولكن ما الذي كنا نعرفه عن حياة پا خارج هذا المنزل ويخته؟ لم نلتقِ غير عددٍ قليلٍ جدًّا من أصدقائه أو شركائه في الأعمال. كما أنه من المنطقي أن يكونا قد التقيا في الماضي. ففي النهاية كانا من كبار الأثرياء ورجال الأعمال الناجحين.

- هذا صحيح. مع ذلك، ما زلت أعتقد أنها كانت مجرد مصادفة. أنت أيضًا كنتِ في الجوار، على متن قاربك. ديلوس جزيرة خلّابة تقصدها مراكب كثيرة.

- نعم، أعرف ذلك، لكنني غير قادرة على أن أنتزع من ذهني صورة پا وهو يرقد هناك وحيدًا في قاع البحر. وبالطبع، في ذلك الحين، لم أكن أعرف أنه مات، فما بالك الآن، وهو في مكان ما تحت مياه هذا البحر الأزرق المذهل. أنا...

نهضتُ ووضعت ذراعي حول كتفَيْ شقيقتي.

- أرجوك يا آلي، انسي المركب الآخر ووجوده في المكان نفسه، فلا علاقة بين الحدثين. من المريح جدًا أنك كنت هناك لتري المنطقة التي اختار پا أن يُدفن فيها. ربما نستطيع القيام برحلةٍ بحريةٍ هذا الصيف، كما اقترحت تيغي، لنضع إكليلًا من الزهور على صفحة الماء.

آلي منتحبة: إن أسوأ ما في الأمر هو أنني أشعر بالذنب.

- لماذا؟

- لأنني... أمضيت أيّامًا رائعة على ذلك القارب. كنت سعيدة جدًّا، ولم أشعر بمثل تلك السعادة في حياتي كلها. والحقيقة، هي أنني لم أكن أرغب في أن يتّصل بي أحد، فأغلقت هاتفي الجوّال. وبينما كان مغلقًا، كان پا يُحتضر، تمامًا في اللحظات التي احتاج إليّ فيها، ولم أكن إلى جانبه!

- آلي، آلي...

رددت شعرها الذي كان يغطّي وجهها إلى الخلف، ورحت أهدهدها برفق.

- لم تكن أي واحدةٍ منّا موجودة هناك، وأعتقد، بكل أمانة وصدق، أن هذا ما أراده پا. أرجوك تذكّري، حتى أنا، على الرغم من أنني أعيش هنا بشكل دائم، كنت قد غادرت العش عندما حدث ذلك. وبحسب ما قالته ما، لم يكن هناك شيء يمكن فعله حقًّا، وعلينا جميعًا أن نصدّقها.

- نعم، أعرف. لكن يبدو كما لو أن ثمّة أشياء كثيرة كنت أرغب في أن أسأله عنها، أو أقولها له، لكنّه رحل.

- أعتقد أنّ مشاعرنا واحدة. قلت بنبرةٍ حزينة. لكن على الأقل، يمكننا أن نتكاتف ونساند بعضنا بعضًا.

- نعم، أنت على حق. أشكرك يا مايا. قالت آلي ممتنّةً. ثم أضافت متنهدةً: أليس غريبًا أن تنقلب حياتنا هكذا، رأسًا على عقب، في بضع ساعات.

- نعم. وافقت دون تحفّظ. في كل حال، أودّ أن تحدّثيني ذات يوم، عن السبب الذي جعلك سعيدة إلى هذا الحد، عندما كنتِ على متن ذاك القارب.

- سأفعل، أعدك بذلك، لكن ليس الآن. وأنتِ، كيف حالكِ؟ سألتني فجأةً، لتغيِّر موضوع الحديث.

- أنا بخير. هززتُ كتفيّ. ما زلت تحت وقع الصدمة، كحالنا جميعًا.

- بالطبع، وعلاوة على ذلك، لم يكن إخبار شقيقاتنا بما حدث مَهمّةً سهلة. آسفة لأنني لم أكن هنا لأساعدك.

- حسنًا. إنّ وجودك هنا الآن، على الأقل، يعني أننا نستطيع مقابلة غيورغ هوفمان، ولنمضي قُدُمًا.

- أوه، لقد نسيت أن أخبرك بأنّ ما طلبت منا الحضور إلى المنزل في غضون ساعة. من المقرر أن يصل في أي لحظة، لكن يبدو أنه يريد التحدّث معها أولًا. لذا، وبينما نحن ننتظر، هل لي بكأس أخرى من النبيذ، من فضلك؟

في الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم، عدت أنا وآلي إلى المنزل حيث وجدنا شقيقاتي يجلسن على الشرفة الغارقة في ضوء أشعة المغيب الأخيرة.

- هل وصل غيورغ هوفمان؟ سألتهنّ وجلسنا نحن الاثنتين.

- نعم، ولكن قيل لنا أن ننتظر هنا. لقد اختفى هو وما في مكانٍ ما. ما يزال پا سولت مخلصًا لصورته، ويغذّي الغموض حتى النهاية، علّقت إلكترا بنبرةٍ لاذعة.

جلسنا نحن الشقيقات الستّ ننتظر في حالةٍ من التوتّر الشديد. أخيرًا، ظهر غيورغ هوفمان على الشرفة بصحبة مارينا.

- آسف يا فتيات، لقد أطلتُ انتظاركنّ. كان عليّ أن أرتّب أمرًا ضروزيًا. تعازيّ لكنّ جميعًا. قال بنبرة تخلو من العاطفة وهو يمد يده ليصافحنا الواحدة

تلوَ الأخرى، كما تقتضي تقاليد اللباقة السويسرية المعتادة. هل تسمحن لي بالجلوس؟

- طبعًا، قلتُ مشيرةً إلى الكرسي الذي كان بجانبي.

راقبتُه عن كثب. كانت بذلته السوداء الأنيقة، وبشرته التي لوّحتها الشمس، وتجاعيد وجهه، وشعره الفضّي الذي ذهب لمعانه، دلائل تخبرني أنه ربما كان في أوائل الستينيات من عمره.

- سأكون في الداخل إذا احتاجني أحد. قالت ما مع إيماءة من رأسها، قبل أن تغادرنا متوجّهةً إلى المنزل.

- حسنًا يا فتيات، يؤسفني أن ألتقي بكنّ للمرة الأولى في مثل هذه الظروف المأسوية. لكنني بالطبع، أشعر كما لو أنني كنت أعرف جيدًا كل واحدةٍ منكن من خلال الأحاديث التي كانت تدور بيني وبين والدكنّ. إن أوّل شيء أودّ قوله، هو أنه كان يحبكنّ كثيرًا، وكان فخورًا جدًّا بما أصبحتنّ عليه. لقد تحدّثت إليه قبل أن... يتركنا بقليل، وطلب مني أن أقول لكُنّ ذلك.

فوجئت عندما رأيت دموعًا خفيفة تجول في عينيّ غيورغ. كنت أعرف أنّ إظهار أي عاطفة بالنسبة إلى رجلٍ في مثل موقعه، كان أمرًا غير عادي، وقد أحببتُه إلى حدٍّ ما.

- إن أوّل ما أودّ البدء به، هو إيضاح الجانب المالي في الوصية، أطمئنكنّ جميعًا بأن كل واحدة منكنّ ستحصل، إلى حدٍّ ما، على ما يكفي لسدّ حاجتها من المال حتى آخر يوم في حياتها. مع ذلك، كان والدكنّ حريصًا على ألاّ يحوّلكنّ هذا الميراث إلى أميرات خاملات. لذلك، سوف تتلقّين جميعكنّ دخلًا متواضعًا يجنّبكنّ العوز، لكنّه لا يتيح لكنّ عيش حياةٍ مرفّهة. هذه الرفاهية، ينبغي أن تكسبنها بأنفسكنّ، كما فعل والدكنّ بالضبط، وقد أكّد لي بشكل قاطع هذه الرغبة. مع ذلك، فقد جُمعت أملاك والدكن وقُيِّدت باسمكنّ في شركةٍ مؤتَمنةٍ منحني شرف إدارتها. إذًا، سوف يكون من مسؤوليتي التقديرية أن أخصّص لكنّ مزيدًا من المساعدة المالية إذا جئتنّ إليّ باقتراحٍ ما أو إذا واجهتُنّ مشكلة ما.

ظللنا صامتات نصغي باهتمام لما كان يقوله لنا غيورغ.

- هذا المنزل أيضًا يشكل جزءًا من الائتمان، وقد عبّرَت كلوديا ومارينا عن سعادتهما بالبقاء فيه، ووافقتا على الاعتناء به. عندما تتوفّى آخر الشقيقات، يصار إلى حلّ هذه الشركة في اليوم نفسه، عندئذٍ تُصبح أتلانتيس قابلة للبيع، ويُوزّع ثمنها على أطفالكن. في حال عدم وجود أطفال، يذهب المال إلى جمعية خيرية من اختيار والدكنّ. وأنا شخصيًا أعتقد أن الإجراء الذي اتّخذه والدكنّ حاذق للغاية، فهو يضمن عدم المساس بالمنزل ما دامت إحداكنّ لا تزال على قيد الحياة، بحيث يبقى ملاذًا آمنًا تستطعن العودة إليه في أي وقت. لكن بالطبع، كان أقصى ما يتمنّاه والدكنّ، هو أن تحلّقن بأجنحتكنّ بعيدًا، وتصنعن مصائركنّ الشخصية بأيديكنّ.

كنت أراقب شقيقاتي الأخريات وهنّ يتبادلن النظرات، غير واثقة من سعادتهن بقرار پا. أمّا بالنسبة إليّ، فقد أدركت أنه من الناحية العملية أو المالية، لم يتغيّر إلا شيء قليل. كنت لا أزال أحتفظ بمنزل الحديقة الصغير، الذي كنت أدفع لقاء السكن فيه إيجارًا رمزيًّا لپا، وتوفّر لي مهنتي دخلًا مريحًا يمكّنني من سدّ حاجاتي الضرورية.

بعد ذلك قال غيورغ: أما الآن، فأجدني مضطرًّا إلى الطلب منكنّ جميعًا أن تنهضن وترافقنني، فقد ترك لكنّ والدكنّ شيئًا آخر. اتبعنني، من فضلكنّ.

نهض غيورغ، وبدل أن يتوجّه إلى باب المنزل الأمامي، جاوزه محاذيًا الواجهة باتجاه الحديقة، وكنّا نسير خلفه كخرافٍ تتبع راعيها. أخيرًا، وصلنا إلى حديقة سريّة تقع خلف جدار من أشجار السرو المقلّمة بعنايةٍ فائقة. كانت تطلُّ على البحيرة مباشرة، وتقدّم منظرًا خلّابًا لغروب الشمس والجبال الواقعة على الضفة الأخرى.

من الشرفة المكشوفة التي تتوسّطها، كانت هناك درجات تقود نزولًا إلى خليج صغير كنّا نحن الشقيقات غالبًا ما نسبح في مياهه الباردة الصافية. كنت أعرف أيضًا، أنه ركن پا المفضّل. عندما لم أكن أجده في المنزل، كنت أعثر عليه جالسًا هنا، محاطًا بأسرة الخزامى والورود التي تنشر في الفضاء عبقها الساحر.

- لقد وصلنا. أعلن غيورغ. وهذا هو الشيء الذي أودّ أن ترَينه.

أشار إلى الشرفة فدُهشنا جميعًا لرؤية منحوتةٍ تنتصب في وسطها. كانت بالرغم من غرابتها جميلة للغاية.

تجمّعنا حول ذلك الشيء ورحنا نتأمّله بافتتان. كان يتألّف من قاعدة حجرية يصل ارتفاعها حتى الورك تقريبًا، يعلوها هيكلٌ غير عاديّ. عندما أنعمت النظر إليه، رأيت أنه يتكوّن من تقاطع دوائر رفيعة تحتوي على كرة ذهبية صغيرة. ثم لاحظت أن الكرة كانت في الواقع كرةً أرضيّةً حُفِرت عليها الخطوط العريضة للقارات، ويخترقها في المركز قضيب معدني رفيع ينتهي بسهم في أحد طرفيه. حول المحيط، كان هناك دائرة أخرى تمثّل الأبراج الفلكية الاثني عشر.

- ما هذا؟ سألت سيسي نيابةً عنّا جميعًا.

- إنه اسطرلاب كرويّ. قال غيورغ.

بعد أن أدرك أنّ ذلك لم يزدنا معرفةً، واصل غيورغ:

- الاسطرلاب معروف منذ آلاف السنين. استعمله الإغريق القدماء لتحديد مواقع النجوم ومعرفة الوقت. هذه الدوائر الذهبية التي تحيط بالكرة الأرضية تمثّل خطوط الاستواء والطول والعرض، وهذا هو خط الزوال الذي يحيط بها جميعًا من الشمال إلى الجنوب، ويحمل نقش علامات الأبراج الفلكية الاثني عشر. أمّا هذا المحور المركزي، فيشير إلى النجم القطبي پولاريس.

- يا لجماله! قالت ستار وهي تنحني على الاسطرلاب لتتمكّن من رؤيته عن كثب.

- لكن ما علاقته بنا؟ سألت إلكترا.

- ليس من اختصاصي أن أشرح ذلك. أضاف غيورغ: مع ذلك، إذا أنعمتنّ النظر، ستَرَين أسماءكن منقوشة على الدوائر التي أشرت إليها.

- انحنينا جميعًا، ووجدنا أن غيورغ كان على حق.

- هذا اسمك يا مايا. قالت آلي. إنه متبوع بأرقام يبدو لي أنها مجموعة من الإحداثيات. نعم إنها لكذلك. أضافت وهي تتفحّص الدائرة التي تحمل اسمها. نحن نستعملها في الإبحار طوال الوقت.

- هنالك نقوشٌ أيضًا، لكن يبدو أنها بلغةٍ مختلفة. علّقت إلكترا.

- اليونانية، قلت على الفور وقد تعرّفت إلى الأحرف.

- ماذا تقول؟ سألتني تيغي.

- يلزمني ورقة وقلم لأدوّنها وأشتغل عليها لاحقًا. قلتُ وأنا أتفحّص نقشي الشخصي.

- حسنًا، إذًا فهي منحوتة لطيفة قام أحدهم بنصبها هنا على الشرفة. لكن ما الذي تعنيه فعلًا؟ سألت سيسي وقد نفد صبرها.

- أقول مرةً أخرى، ليس من اختصاصي الإجابة عن هذا السؤال. قال غيورغ. والآن، فإن مارينا تقوم بسكب الشمپانيا وفقًا لتعليمات والدكن. لقد أراد أن تشربن جميعًا نخب رحيله. بعد ذلك، سأوزّع عليكن الظروف الشخصيّة التي تركها لكنّ. آمل أن تجدن فيها أكثر ممّا أستطيع شرحه.

مرّةً أخرى، تبعناه بصمتٍ عبر الحدائق. عندما وصلنا إلى الشرفة، وجدنا بالفعل زجاجتين مثلّجتين من شمپانيا أرمان دو بريناياك تنتظراننا مع صينية مصفوفة عليها كؤوس من الكريستال. تجمّعنا حول الطاولة بينما كانت مارينا تملأ كؤوسنا.

رفع غيورغ كأسه.

- أرجو أن تشربن معي نخب والدكنّ، ونخب الحياة الرائعة التي عاشها. هذه هي الجنازة التي تمنّاها: كلّ فتياته مجتمِعات، هنا في أتلانتيس، البيت الذي كان له شرف مشاركته معكنّ طوال هذه السنين.

رفعنا كؤوسنا كمخلوقات آلية.

- نخب پا سولت، قلتُ.

- نخب پا سولت، ردّدت شقيقاتي بصوتٍ واحد.

بشيءٍ من الحرج، رشفت كل واحدةٍ رشفةً من كأسها: ثم نظرتُ إلى السماء والبحيرة والجبال البعيدة، وقلت لوالدي إنني أحببته.

- إذًا، متى سنحصل على تلك الرسائل؟ سألت آلي أخيرًا.

- سأحضرها على الفور. قال غيورغ ونهض مغادرًا الطاولة.

- حسنًا، إنها أغرب سهرة جنائزية شاركت فيها على الإطلاق. قالت سيسي.

- لطالما كان پا سولت موهوبًا في صنع المفاجآت. قالت إلكترا مع ابتسامة فاترة.

- هل أستطيع الحصول على مزيدٍ من الشمپانيا، سألت آلي.

لاحظت مارينا أن كؤوسنا كانت فارغة، فملأتها من جديد.

- هل تفهمين ذلك يا ما؟ سألت ستار بقلق.

- لا أعرف أكثر مما تعرفينه يا حبيبتي، أجابت بشكل مبهمٍ كعادتها.

- ليته كان هنا. ليشرح لنا بنفسه. قالت تيغي، وقد فاضت عيناها بالدموع.

- لكنه ليس هنا. ذكّرَتها آلي بهدوء. وبشكلٍ ما، أجد ذلك مناسبًا. لقد سهّل علينا قدر الإمكان تقبُّل أمرٍ فظيعٍ للغاية. والآن علينا أن نستمدّ القوة بعضنا من بعض.

- أنتِ على حق. وافقتها إلكترا.

نظرت إلى آلي وتمنّيت لو كنت أجاريها في القدرة على إيجاد الكلمات الصحيحة التي تصنع اللحمة بيننا وتوحِّدنا.

في غضون ذلك، عاد غيورغ. وكانت الشمپانيا قد أراحتنا قليلًا. جلس في مقعده ووضع على الطاولة ستة مظاريف سميكة قشدية اللون صُنِعَت من الورق الخشن.

- لقد وُضعَت هذه الظروف في عهدتي قبل ستة أسابيع تقريبًا. وفي حال وفاة والدكنّ، كانت التعليمات التي تلقّيتُها تقضي بأن أسلّمها إليكنّ.

نظرنا إليها بقدرٍ متساوٍ من الاهتمام والريبة.

- هل أستطيع الحصول على مزيدٍ من الشمپانيا أيضًا؟ سأل غيورغ بصوتٍ يشوبه التوتُّر.

أدركتُ مدى صعوبة ذلك كلِّه بالنسبة إليه أيضًا. فحتى أكثر الأشخاص براغماتية كان ليعاني من الكشف لست بنات حزينات عن تفاصيل إرث والدهن الغريبة.

- بالطبع يا غيورغ. قالت مارينا وهي تملأ كأسه.

قالت آلي: إذاً، هل يُفترض بنا أن نفتحها الآن، أم في وقت لاحق، عندما نكون بمفردنا.

- لم يُشِر والدك إلى هذه النقطة. أجاب غيورغ. كل ما قاله هو أن تفتحنها عندما تكنّ جاهزات ويُشعِركنّ ذلك بالارتياح.

أنعمت النظر في رسالتي. عندما رأيت اسمي المكتوب بخط والدي الجميل، الذي كنت أعرفه عن كثب، اجتاحتني رغبة عارمة في البكاء.

نظرنا، بعضنا إلى بعض، وكل واحدة تحاول سبر ما تشعر به الأخريات.

- أعتقد أنني سأقرأ رسالتي على انفراد. قالت آلي.

كان هناك غمغمة عامة بالموافقة، وعرفت أن آلي، كعادتها، تمكّنت غريزيًا من قراءة مشاعرنا الجماعية بشكل صحيح.

- حسنًا، لقد انتهت مهمتي. أفرغ غيورغ كأسه، ثم مدّ يده إلى جيبه وأخرج ستّ بطاقات شخصية، وزّعها علينا. أرجو ألاّ تتردّدن في الاتصال بي، إذا احتجتنّ إلى المساعدة. أؤكد لكنّ أنني سأكون متاحًا لكنّ في أي ساعة من النهار أو الليل. لكنني متأكّد، من خلال معرفتي بوالدكنّ، أنه توقّع ما يمكن أن تحتجن إليه. لذلك، فقد حان الوقت لأن أترككنّ. مرةً أخرى، يا فتيات، أقدّم لكنّ تعازيّ الحارّة.

قلت: شكرًا لك يا غيورغ. نحن جميعًا نقدّر مساعدتك لنا.

- إلى اللقاء. نهض وأومأ برأسه لنا جميعًا. تعرفن أين تجدنني عند الحاجة. لا داعي لمرافقتي.

تابعته نظراتُنا بصمتٍ وهو يغادر، ثم رأيت مارينا تغادر الطاولة أيضًا.

- أعتقد أنه من الجيد لنا جميعًا تناول بعض الطعام. سأطلب من كلوديا أن تقدّم العشاء هنا. قالت وهي تختفي داخل المنزل.

- أكاد أخاف من فتحه. قالت تيغي وهي تنقر بأصابعها على مظروفها. ليس لديّ أدنى فكرة عن محتواه.

- هل تعتقدين يا مايا، أنك تستطيعين العودة إلى المنحوتة لترجمة العبارات المنقوشة على الاسطرلاب؟ سألتني آلي.

- بالطبع. قلتُ، وأنا أرى مارينا وكلوديا تتوجّهان نحونا بأطباق الطعام. سأفعل ذلك بعد العشاء.

- لا تؤاخذنني يا رفيقات، لكنني لست جائعة. قالت إلكترا وهي تنهض. أراكنّ لاحقًا.

عندما غادرت، عرفتُ أن كل واحدةٍ كانت تتمنى التحلّي بالشجاعة الكافية لتحذو حذوها. كنّا جميعًا بحاجةٍ إلى قضاء بعض الوقت على انفراد.

- هل تشعرين بالجوع يا ستار؟ سألت سيسي.

- أعتقد أنه يجب أن نتناول بعض الطعام. أجابت ستار بصوتٍ خافتٍ ويداها تطبقان بإحكام على مظروفها.

- حسنًا. قالت سيسي.

بعد أن استبسلنا في إجبار أنفسنا على ابتلاع الطعام، الذي أعدّته كلوديا بكثير من الحب، بدأت شقيقاتي يغادرن الطاولة بصمتٍ، الواحدة تلو الأخرى، إلى أن بقيت أنا وآلي وحدنا.

- هل تمانعين في أن أذهب إلى الفراش يا مايا؟ أشعر بإرهاق تام.

- لا، بالطبع. أجبت. أنتِ آخر من سمع النبأ، ومن الطبيعي أنك لا تزالين تحت تأثير الصدمة.

بينما كنت أراقبها وهي تغادر الشرفة، أطبقت أصابعي على المظروف الذي ظلّ بجانب طبقي طوال الساعة الفائتة دون أن ألمسه. نهضت أخيرًا وتوجّهت إلى منزلي الصغير في الحديقة. دخلتُ غرفة نومي ودسستُ الظرف تحت الوسادة، ثم ذهبت إلى مكتبي لآخذ ورقة وقلمًا.

حملت مصباحًا يدويًا، ومشيتُ عائدةً إلى الحديقة حيث كان الاسطرلاب. كان الليل قد خيّم وبدأت النجوم تظهر. وكان پا سولت قد أراني الشقيقات السبع

من مرصده مرات عدّة، بين شهري تشرين الثاني، ونيسان، حيث كنّ يتدلّين فوق البحيرة تمامًا.

همستُ إلى السماء: لقد اشتقت إليكِ. وآمل في أن أفهم ذات يوم.

ثم حوّلتُ انتباهي إلى الدوائر الذهبية التي تحيط بالكرة الأرضية. وبينما كنت أدوّن الكلمات اليونانية بأفضل ما في وسعي أن أفعل، مستعينةً بنور المصباح اليدوي، وأفكر في أنه ينبغي لي أن أعود في اليوم التالي لأتأكد من صحتها وعدم نسيان أي منها، أحصيت عدد النقوش التي دوّنتُها.

كانت ستة.

وكان هناك دائرة واحدة لم أكن قد نظرت إليها بعد. عندما سلّطت ضوء المصباح اليدوي على السابعة، باحثةً عن النقش، اكتشفت أنها كانت فارغة إلّا من اسم: ميروپ.

7

صرفت الساعات الأولى من الليل في ترجمة الاقتباسات التي كانت منقوشة على الاسطرلاب، دون أن أحاول تأويلها، إذ بدا لي بكلّ وضوح أن ذلك لم يكن يخصّ إلا شقيقاتي. تركتُ اقتباسي حتى النهاية، وأنا أتوجّس خيفةً من اكتشاف ما يقوله. وعندما أنهيت ترجمته، أخذت نفَسًا عميقًا وقرأت:

لا تدعي خوفك يقرّر مصيرك.

كنت أعرف أن لا شيء كان قادرًا على وصف شخصيتي وكينونتي كما وصفته الكلمات الخمس التي تركها لي پا سولت.

في صباح اليوم التالي، وبعد أن أعددت كوبًا من الشاي، عدتُ إلى الغرفة. سحبتُ المظروف من تحت وسادتي وحملته إلى غرفة الجلوس، ثم رحتُ أتأمّله بينما كنت أحتسي الشاي.

بعد أن أخذت بضعة أنفاسٍ عميقة، التقطته وفتحته. كان في داخله رسالة، لكنني أحسست بوجود شيء آخر، صلب وناعم، تحت أصابعي. كان قطعة صغيرة من السيراميك شكلها مثلّث ولونها قشديّ يميل إلى الخضرة. قلبتها فرأيت على ظهرها كتابة شبه ممحوّة، غير مقروءة.

لم أقدر على فكّ رموزها، فوضعتها جانبًا، وبيدين مرتجفتين، فتحت رسالة پا وبدأت في قراءتها.

أتلانتيس
بحيرة جنيڤ
سويسرا

عزيزتي مايا،

أعرف أنك ستكونين حزينة وضائعة عندما تقرأين هذه الرسالة. ابنتي البكر الحبيبة، لا يسعني القول إلّا أنك كنت لي فرحًا لا يضاهيه فرح. لقد أحببتك كما لو كنت ابنتي الطبيعية. أنت التي ألهمِتني الاستمرار في تبنّي شقيقاتك الصغريات، وأنتنّ جميعًا، كنتنّ مصدر أكبر سعادة قُدِّر لي أن أعيشها في حياتي.

لم تسأليني قط عن جذورك الحقيقية، أو المكان الذي وجدتُك فيه، أو الظروف التي أدّت إلى تبنّيك. لكن كوني واثقة من أنني كنت لأروي لك كل شيء لو أنك سألِتني. لكن الآن، في هذه اللحظات التي أوشك فيها على الرحيل عن هذه الأرض، أجد أنه من واجبي أن أمنحك حرية اكتشاف الحقيقة، إذا تمنّيتِ البحث عنها يومًا.

لم تكن لأيٍّ منكنّ شهادة ميلاد عندما تبنّيتها، وكما تعلمين، فأنتنّ بناتي رسميًا في سجلات القيود المدنية. ولا أحد يستطيع أن يسلبكنّ هذا الحق. مع ذلك، يمكنني على أقل تقدير أن أبيـّن لك الاتجاه الصحيح الذي ينبغي أن تتّبعيه. بعد ذلك، سيكون لك وحدك أن تختاري القيام بهذه الرحلة في ماضيك، إذا كنت ترغبين في ذلك.

على الاسطرلاب الذي أصبحت تعرفينه الآن، توجد مجموعة من الإحداثيات التي تحدّد بالضبط المكان الذي بدأت فيه قصّتك على هذا

الكوكب. وفي المظروف الذي بين يديك، تجدين دليلًا آخر سيساعدك في رحلة البحث هذه.

مايا، أنا أجهل تمامًا ما الذي يمكن لكِ اكتشافه إذا قررت العودة إلى البلد الذي وُلدتِ فيه. كل ما يسعني قوله، هو أن قصة أسرتك الحقيقية أثّرت فيّ إلى أبعد حدّ.

يحزنني أنه لم يتبقّ لي ما يكفي من الوقت لأروي لك قصّتي الشخصيّة. ربما بدا لك أنني أخفي عنك أشياء كثيرة. كلّ ما فعلته، كان من أجل حمايتكنّ، أنت وشقيقاتك. لكن بالطبع، لا يمكن للمرء أن يعيش في فقاعة إلى الأبد. لقد كبرتِ، وكان عليّ أن أدعك تحلّقين بأجنحتك الشخصية.

لكل امرئٍ أسراره التي يبقي عليها مدفونة في أعماقه. لكنني أتوسّل إليك، أن تصدّقيني عندما أقول إنّ الأسرة هي الكنز الأكبر في هذا العالم، وما من قوّةٍ على هذه الأرض تساوي حبّ والد لطفله.

عندما أتأمّل ماضيّ يا مايا، أشعر بالندم على بعض القرارات التي اتّخذتها. تلك هي طبيعتنا البشرية: نرتكب الأخطاء، ثم نستخلص الدروس والعِبر. لكنّ أمنيتي الأغلى والأصدق، هي أن أنقل على الأقل بعضًا من الحكمة التي اكتسبتُها إلى بناتي الغاليات.

أعتقد أن ثمّة شيئًا يقبع في داخلك، بسبب تجربتك في الحياة التي عشتِها حتى الآن، قد جعلك تفقدين الإيمان بالطبيعة البشرية. عزيزتي مايا، أرجوك أن تعلمي أنني تعذّبتُ أيضًا، وعانيت من البلاء نفسه، وقد أفسد حياتي في بعض الأحيان. مع ذلك، فقد علّمتني السنون الطويلة التي أمضيتها على هذه الأرض، أنّ كلّ تفاحةٍ فاسدة، تقابلها آلاف أخرى شهيّة. يجب أن تثقي بالخير الجوهري الكامن في دواخل نفوسنا، بعد ذلك، ستكونين قادرةً على العيش والحب بكل جوارحك.

سأتركك الآن، يا عزيزتي مايا؛ واثقًا من أنني أعطيتك، أنتِ وشقيقاتك، أشياء كثيرة لتفكّرن فيها.

ستكونين دائمًا تحت ناظريّ من علياء هذه السماوات.

والدك المحبّ،

پا سولت إكس

جلستُ ساكنةً، أمسك الرسالة بيديّ المرتجفتين. كنت أحتاج إلى قراءتها ثانيةً، وربما ثالثةً أو رابعة، لكنَّ جملةً واحدةً قدحت كشرارةٍ في ذهني.

هل كان يعرف؟

اتّصلت بمارينا وطلبت منها المجيء. عندما وصلَت، بعد أقلّ من خمس دقائق، قرأَت على الفور علامات الضيق في وجهي.

تبعَتني إلى غرفة الجلوس، ورأت الرسالة المفتوحة الملقاة على المنضدة.

- أوه مايا. قالت، وهي تفتح لي ذراعيها. لا بدّ من أنك حزينة جدًّا لسماع صوت والدك القادم من القبر.

لم أتحرّك لمعانقتها.

- أرجوك يا ما، قولي لي، هل أخبرت پا ... بسرّنا؟

- لا، لم أفعل! صدقيني أرجوك، لم أكن لأخونك مطلقًا!

رأيت الألم في عينيّ مارينا الطيّبتين.

- إذًا، فهو لم يعرف قط؟

- بالتأكيد. كيف كان له أن يعرف؟

- ثمّة جملة ترِدُ في الرسالة، تجعلني أعتقد أنه كان يعرف حتمًا.

- هل يمكنني إلقاء نظرةٍ عليها؟

- طبعًا، ها هي. التقطتُ الرسالة ووضعتُها في يدها، ثم رحتُ أراقبها عن كثب وهي تقرأها.

لم تلبث مارينا أن رفعت عينيها ونظرت إليّ. بدا من ملامحها أنها قد استعادت هدوءها. ثم أومأت لي بحركةٍ بطيئةٍ من رأسها.

- أفهم ردّ فعلكِ، لكنني أعتقد حقًّا أن والدك لم يكن يقصد سوى أن يقاسمك حقيقته الشخصية.

ارتميتُ على الأريكة وأخذت رأسي بين يديّ.

ندّت عن مارينا تنهيدة تنمّ عن حزنٍ كبير.

- اسمعي يا مايا، كما قال والدك في رسالته، لا أحد منّا معصوم عن الخطأ. نتّخذ القرارات التي نعتقد أنها صائبة في حينها. وأنت، خلافًا لجميع شقيقاتك، كنت تسعين دائمًا إلى إرضاء الآخرين، خصوصًا والدك، قبل أن تفكري في نفسك.

- لم أكن أريد أن أخيّب أمله.

- أعرف يا حبيبتي، لكنّ ما أراده والدك هو أن تكنّ سعيداتٍ، آمناتٍ، ومحبوبات. أرجوك، لا تنسي ذلك، اليوم قبل الغد! لقد آن الأوان، بعد أن رحل، لكي تفكري في نفسك، وفي ما تريدينه، أنتِ.

نهضت مارينا وبدا أنها قد استعادت حيويتها.

- لقد أعلنت إلكترا أنها ستغادر، كذلك تيغي. أمّا سيسي فقد اتصلت بغيورغ هوفمان في وقت مبكر من صباح هذا اليوم، وذهبت مع ستار إلى جنيڤ لزيارته في مكتبه. وحدها آلي لا تزال مسمّرةً أمام شاشة الكمبيوتر المحمول في المطبخ.

- هل قرأن رسائلهنّ؟ سألتها وأنا أحاول استعادة رباطة جأشي.

- لا أعرف، ربما فعلن، لكنهن لم يخبرنني بذلك. أجابت مارينا. هل ترغبين في الانضمام إلينا على وجبة الغداء، قبل أن تغادر إلكترا وتيغي؟

- بالطبع. وأنا آسفة يا ما، لأنني شككت فيك.

- لا تقلقي، أتفهّم ذلك تمامًا، نظرًا لما ورد في الرسالة. خذي وقتك واستعيدي هدوءك. أراك بعد قليل.

- شكرًا يا ما. قلت بما يشبه الهمس بينما كانت مارينا تغادر الغرفة. قبل أن تصل إلى الباب الأمامي، توقفت واستدارت نحوي.

- مايا، أنت حقًّا الابنة التي تمنيتها دائمًا. وكما أحبّك والدك، أحبك كما لو أنك ابنتي.

✻ ✻ ✻

بعد أن ذهبَت وبقيت وحدي، جلست على الأريكة وذرفت دموعي كلها. كما لو أن سيلًا هادرًا من العواطف الدفينة منذ زمن بعيد، كان يتوسّلني لأُطلق سراحه. شعرت بالخزي، غير قادرةٍ على تمالك نفسي، واستسلمت لموجةٍ عارمةٍ من الإشفاق على الذات.

كنت أعرف أنني أبكي على نفسي. ليس على پا، ولا على موته المفاجئ، ولا على الألم الذي عاشه وهو يحتضر، ولكن على ألمي الشخصي لخسارته، وإدراكي الفظيع بأنني لم أكن أستحق ثقته، ولا أثق به إلى الدرجة التي تجعلني أبوح له بالحقيقة.

أي نوع من البشر كنتُ؟ ماذا فعلتُ؟

ولماذا تعتريني هذه المشاعر الآن؟ مشاعر لم يكن لمعظمها أي علاقة بموت پا.

أنا أتصرّف كإلكترا، قلت في نفسي، على أمل أن أتوقّف عن البكاء. لكنّ ذلك لم يحدث، وظلّت الدموع تنهمر. لا بدّ من أنني فقدتُ مفهوم الوقت، لأنني عندما رفعتُ عينيّ أخيرًا، رأيت تيغي واقفةً أمامي، والقلق بادٍ على وجهها.

- أوه يا مايا، لقد جئت لأخبرك بأننا سنغادر اليوم، أنا وإلكترا، ونريد أن نودعك. لكنْ لا يسعني أن أتركك في هذه الحالة...

- لا عليك. قلتُ وأنا أتنفّس بصوتٍ مرتفع. أرجو المعذرة، أنا...

- علامَ تعتذرين؟ قالت وجلست بجانبي، ثم أخذت يديّ بيديها. أنت كائن بشريّ أيضًا. أعتقد أنك تنسين ذلك في بعض الأحيان.

رأيتها تلقي نظرة على رسالة پا التي كانت لا تزال ملقاةً على المنضدة، فالتقطتها كما لو كنت أريد حمايتها.

- كان ذلك محزنًا جدًّا، أليس كذلك؟ سألتني.

- نعم... ولا...

كنت أدرك أنني لم أكن قادرة على أن أشرح لها ما يعتمل في داخلي. ومن بين جميع الشقيقات اللواتي كان يمكن لأي منهن أن تفاجئني في هذه اللحظة، كانت تيغي الشقيقة التي حظيت مني بأكبر قدر من الاحتضان، والتي اعتمدت عليّ، وكنتُ دائمًا حاضرةً لمساعدتها. ها هي الآن تعكس الأدوار، ولم أكن قادرة على فهم ذلك أو تقَبُّله.

- بالمناسبة، لقد فاتك الغداء، قالت.

- آسفة.

- أرجوك، ألا يمكنك أن تتوقّفي عن الاعتذار؟ كلنا نفهم. كلنا نحبك. وكلّنا نعرف جيدًا ما يعنيه موت پا بالنسبة إليك.

- انظري إليّ! يُفترض بي أن أكون الشقيقة التي تأخذ على عاتقها تدبُّر الأمور، الشخص الذي يعوّل عليه الآخرون! وها أنا أنهار قبل الجميع. هل قرأتِ الرسالة؟ سألتُها.

- لا، ليس بعد. أعتقد - أو على الأقل، أشعر - أنني سأحملها معي إلى اسكتلندا. أريد أن أقرأها في البرية، في مكان أعشقه.

- أنا، مكاني هنا، البيت الذي أنتمي إليه، لذلك فقد فتحتها وقرأتها. لكنني أشعر بالذنب، يا تيغي. اعترفتُ لها.

- لماذا؟

- لأنني... كنت أبكي على نفسي. ليس على پا، لكن عليّ أنا.

تنهّدت: اسمعي يا مايا. هل تعتقدين حقًّا بوجود أي سبب آخر يجعلنا نبكي موت شخص كنا نحبّه؟

- نعم، بالطبع. نبكي الحياة التي انقطعت فجأة، والعذاب الذي قاساه المُتوفّى، أليس كذلك؟

ابتسمت لي تيغي وقالت: حسنًا... أعرف أنك تجدين صعوبة في تصديق ما أؤمن به، أن ثمة حياة أخرى بعد الموت، وأن أرواحنا تحيا. لكنني قادرة على أن أتخيّل پا الآن - في مكانٍ ما من هذا الكون، وقد تخلّص من غلافه الجسدي الثقيل - حرًّا للمرة الأولى. لا بد من أنه قاسى كثيرًا، كنت أرى ذلك في عينيه. أستطيع أن أقول إنني أنا أيضًا، عندما يموت أحد غزلاني، ويتحرّر من ألم العيش، أدرك أنني لا أبكيه، أبكي لأنني فقدته، ولأنني سأفتقده. أرجوك يا مايا، حتى لو كنت ترفضين الاعتقاد بوجود آخرة بعد مرورنا على هذه الأرض، حاولي أن تفهمي بأن الحزن هو حصّة الذين يبقون، حصّتنا نحن. كلّنا نحزن على أنفسنا وخسارتنا. وينبغي حقًّا ألاّ تشعري بأي ذنبٍ إزاء ذلك.

نظرت إلى شقيقتي، وحسدتها على ذلك الهدوء الذي كانت تتقبُّل به الأشياء، ثم أقررت بصمتٍ أن ذلك الجزء مني، الذي سمَّته روحًا، كنتُ قد دفنتُه منذ سنين عدّة.

- شكرًا يا تيغي. آسفة لأنني فوّتُّ الغداء.

- لم يفُتكِ الكثير. في النهاية، كنتُ أنا وآلي وحدنا. كانت إلكترا تحزم حقائبها. قالت إنها تناولت كثيرًا من الأطعمة السيئة في كل حال، وسيسي وستار لم تعودا من جنيف بعد، فقد ذهبتا منذ الصباح لرؤية غيورغ هوفمان.

- نعم، لقد أخبرتني ما بذلك. أليس من المحتمل أن تكون سيسي ذهبت من أجل الحصول على المال؟

- أفترض ذلك. أنت تعرفين أنها قُبِلَت في دورة للفنون بمدينة لندن، وتريد الالتحاق بها. سوف تحتاجان إلى إيجاد سكن، وبالتالي إلى المال.

- صحيح.

- من الواضح أن موت پا كان له تأثير كبير عليك، أكثر من أيٍّ منّا. كلّنا نعلم أنّك بقيت هنا للاهتمام به ورعايته.

- لا يا تيغي، هذا ليس صحيحًا. لقد بقيت لأنه لم يكن لديّ مكان آخر أذهب إليه، هذه هي الحقيقة. اعترفتُ بصراحة.

- كالعادة، أعتقد أنك تغالين في القسوة على نفسك. لقد بقيتِ وعشتِ هنا من أجل پا، ولو جزئيًّا. الآن، وبعد أن رحل، ها هو العالم ينفتح أمامك. لديك مهنة تستطيعين ممارستها في أي مكان، وتستطيعين الذهاب إلى أي مكان تريدينه.

نظرت تيغي إلى ساعة يدها.

- يجب أن أذهب لأحزم أمتعتي. إلى اللقاء يا حبيبتي. قالت وهي تلفّ ذراعيها حول كتفيّ. أرجوك أن تعتني بنفسك. إذا شعرت أنك بحاجة إليّ، فلا تتردّدي في الاتصال بي متى تشائين. ماذا لو أتيت لزيارتي في المرتفعات الاسكتلندية ذات يوم. المناظر الطبيعية خلابة، والجو هادئ بشكلٍ لا يُصدَّق.

- ربما، يا تيغي. شكرًا لك.

بعد أن ذهبتْ بوقت قصير، استجمعتُ قواي ونهضتُ، ثم خرجتُ لأودّع إلكترا. وبينما كنت أسير في الحدائق متوجِّهة إلى رصيف الميناء الصغير، فوجئت بها وهي تتجسّد شخصيًّا أمامي.

- أنا ذاهبة. لقد هدّد وكيل أعمالي برفع دعوى قضائية ضدي إذا لم أحضر جلسة التصوير غدًا صباحًا.

- بالطبع.

مالت إلكترا برأسها وقالت: هل أنت بخير؟

- نعم، أنا بخير.

- اسمعي، الآن لم يعد پا هنا لتقلقي عليه. لماذا لا تأتين إلى لوس أنجلوس لزيارتنا، أنا وميتش؟ لدينا شاليه رائع في الحديقة مخصص لاستضافة الأصدقاء، وأنت على الرحب والسعة حقًّا، متى تشائين.

- شكرًا يا إلكترا، ابقي على اتصال.

- بالطبع سأفعل. إذًا، إلى لقاء قريب. قالت عندما وصلنا إلى الرصيف، حيث رأينا سيسي وستار تترجّلان من القارب.

- مرحبًا. صاحت سيسي، وأخبرتني ابتسامتها بما لا يدع مجالًا للشكّ أنّ مَهمّتها في جنيف قد تكلّلت بالنجاح.

أتغادرين أيضًا، يا إلكترا؟ سألَت ستار.

- يجب أن أعود إلى لوس أنجلوس، ينبغي أن يعمل بعضنا لكسب رزقه، كما تعلمين. قالت بشكلٍ واضحٍ متعمّد، وكنت أعرف أن تعليقها كان موجّهًا إلى سيسي.

- حسنًا، فعلى الأقل، بعضنا يستخدم دماغه من أجل ذلك، وليس جسده. ردّت سيسي.

سمعت آلي التي وصلت إلى الرصيف، برفقة تيغي، تبادل هذه التعليقات الحامية.

- مهلًا، مهلًا، ألا تعتقدان أنه ليس وقت المشاحنات الآن؟ إلى اللقاء يا إلكترا. واتجهت آلي نحو شقيقتها وقبّلتها على خدّيها. حاولي ترتيب أمورك بحيث نلتقي قريبًا.

- بالتأكيد. أجابت إلكترا وهي تقبّل ستار، لكنها تجاهلت سيسي. هل أنت جاهزة، يا تيغي؟

- نعم. قالت تيغي، بعد أن قبّلتنا جميعًا واتجهت نحو ستار. وبينما كانت تحضنها، رأيت تيغي تهمس في أذن ستار، وستار تبادلها الهمس.

- حسنًا، هيا بنا. أمرَت إلكترا. لا أريد أن تفوتني الطائرة.

صعدت تيغي وإلكترا إلى القارب الذي أقلع على الفور. لوّحنا لهما نحن الأربع، ثم عدنا إلى المنزل.

- أعتقد أنه ينبغي لنا أن نغادر أيضًا، أنا وستار. أعلنَت سيسي.

- حقًّا؟ ألا نستطيع البقاء لفترة أطول قليلًا؟ سألتها ستار متوسلةً.

- ولماذا؟ لقد رحل پا، ورأينا المحامي. يجب أن نصل إلى لندن في أقرب وقت ممكن وإيجاد مكان نسكن فيه.

- أنتِ على حق. قالت ستار.

- ماذا ستفعلين في لندن يا ستار، بينما تداوم سيسي في مدرسة الفنون؟ سألت آلي.

- لست متأكدة بعد. أجابت ستار.

- تفكرين في الالتحاق بدورة تعليمية لفنون الطبخ، أليس كذلك يا ستار؟ أنت تعلمين أنها طباخة ماهرة. أضافت سيسي موجِّهة كلامها إليّ. حسنًا، يجب أن أهتمّ بموضوع الحجز. أعرف أن هناك رحلة تنطلق من جنيف إلى مطار هيثرو في الساعة الثامنة، وهي تناسبنا تمامًا. أراكنّ في وقت لاحق.

بقيت مع آلي نراقب الفتاتين وهما تدخلان إلى المنزل.

قلتُ متنهدةً: لا تقولي شيئًا، فأنا أعرف.

- لطالما اعتقدت أن علاقتهما الوثيقة كانت أمرًا إيجابيًّا عندما كنّا ننمو ونكبر، قالت آلي. إنهما الفتاتان المتوسطتان، وكان اتّكاء إحداهما على الأخرى شيئًا جيّدًا.

- أتذكر جيّدًا، عندما اقترح پا تسجيلهما في مدرستين منفصلتين، كيف راحت ستار تنتحب بشكلٍ هستيريٍّ وهي تتوسّله لكي يسمح لها بالبقاء مع سيسي. قلتُ متفكّرةً.

- المشكلة، هي أن لا أحد على الإطلاق، يستطيع إيجاد فرصة للتحدث إلى ستار على انفراد. هل تعتقدين أنها بخير؟ لقد بدت في حالة يُرثى لها منذ وصولها.

- ليس لديّ أدنى فكرة يا آلي. في الواقع، أشعر في بعض الأحيان أنني بالكاد أعرفها.

- حسنًا، إذا كانت سيسي ستنشغل بدراستها، وإذا قررت ستار فعل شيء ما بشكلٍ منفصل، فإن ذلك قد يوفر لهما فرصةً لفك ارتباطهما، ولو قليلًا. والآن، ما رأيك في الجلوس معي على الشرفة، وسأطلب من كلوديا أن تحضر لك بعض السندويتشات؟ أجدك شاحبة يا مايا، وقد فوتِّ على نفسك وجبة الغداء. ثمّة أمرٌ أريد أن أناقشه معك.

أومأتُ برأسي موافقةً، وجلستُ تحت الشمس تاركةً أشعتها الدافئة تداعب وجهي، وتمنحني الشعور بالراحة. ثم بعد برهة قصيرة، عادت آلي وجلست بجانبي.

- ستجلب لك كلوديا بعض الطعام. لا أريد التطفّل عليك يا مايا، ولكن هل فتحت رسالتك ليلة أمس؟

اعترفت: نعم، فلنقل إنني في الواقع قد قرأتها هذا الصباح.

- لا بدّ من أنها أحزنتك.

- كردّ فعلٍ أوليّ، نعم، لكنني الآن بخير، حقًّا. أجبتها غير راغبة في مزيدٍ من النقاش. لقد أراحتني آلي وواستني برعايتها اللطيفة، لكنني كنت أدرك أن آلي بالرغم من قلقها عليّ واهتمامها بي، لا تقوى على منع نفسها من أن تلقي عليّ محاضرة.

- وماذا بشأنك أنت؟ سألتُها.

- نعم، لقد فتحتُ رسالتي. كانت جميلة وأبكتني، لكنها سمَت بي أيضًا. أمضيت الصباح في البحث عن الإحداثيات على شبكة الإنترنت. والآن، أصبحت أعرف بالضبط من أين أتينا جميعًا. هناك بعض المفاجآت، صدّقيني. قالت آلي بينما كانت كلوديا تحضِر طبقًا من السندويتشات وتضعه أمامي.

سألتها: تعرفين بالضبط أين وُلدنا؟ وأين وُلدتُ؟

- نعم، أو على الأقل، لديّ دليل على المكان الذي وجدَنا فيه پا. هل تريدين أن تعرفي يا مايا؟ أستطيع أن أخبرك، إلّا إذا كنت تفضّلين البحث بنفسك.

- أنا... لستُ متأكدة. قلتُ وقد شعرتُ كما لو أن شيئًا ينعقد في أحشائي.

- كلّ ما أستطيع قوله، هو أن پا كان يسافر كثيرًا.

نظرتُ إليها وتمنّيت أن أكون بمثل هذا الهدوء الذي تظهره إزاء هذا القدر من التناقض بين موت پا الغامض وكشف سرّ ولادتنا.

- إذًا، فأنت تعرفين من أين أتيت؟ سألتُها.

- نعم، على الرغم من أن ذلك لم يتّضح بعد.

- وماذا بشأن الأخريات؟ هل أخبرتهنّ بأنك تعرفين أين وُلدن؟

- لا، لكنني شرحت لهنّ كيفية البحث عن الإحداثيات بمحرك غوغل. هل أشرح لك أيضًا؟ أم أخبرك وحسب؟ كانت عينا آلي الزرقاوان تحدّقان إليّ بثبات.

- ليس الآن، لست متأكّدة بعد.

- حسنًا، وكما قلتُ لك، يمكن لك أن تبحثي بنفسك في منتهى السهولة.

- إذًا، من المحتمل أن أفعل ذلك عندما أكون جاهزة. قلتُ بشكلٍ قاطع، مدركةً مرّةً أخرى، أن شقيقتي كانت تسبقني بخطوة.

- سأدوّن لك تفاصيل كيفية البحث عن الإحداثيات، إذا قرّرتِ ورغبتِ في أن تعرفي. هل ترجمت أيًّا من الاقتباسات اليونانية المنقوشة على الاسطرلاب؟

- نعم، ترجمتُها كلّها.

- حسنًا، أودّ حقًّا أن أعرف ما اختاره پا لي. أخبريني من فضلك.

- لا أذكر بالضبط، لكن بإمكاني العودة إلى منزلي وتدوينه لك.

- شكرًا لك.

قضمتُ من أحد السندويتشات التي وضعتها كلوديا أمامي، متمنيةً للمرة الألف أن أشبه آلي، التي تتعامل مع المواقف الصعبة بهدوءٍس ورباطة جأشٍ كبيرين، ولا تخشى المصاعب التي ترمي بها الحياة في طريقها. المهنة التي اختارتها - وحيدةً في مواجهة أمواجٍ عاتيةٍ قد تقلب في لحظةٍ واحدةٍ مركبها الشراعي الهش رأسًا على عقب - كانت صورةً مجازيّةً مثاليةً عن شخصيتها. كنت أعتقد أنها أكثرنا ثقةً بنفسها. لم تكن آلي عرضة للتشاؤم أو الأفكار السلبية، وكانت تستخلص من انتكاسات الحياة دروسًا إيجابيةً تحضّها على المضيّ قُدُمًا.

- إذًا، يبدو أننا، أنا وأنت قادرتان على تزويد شقيقاتنا بالمعلومات التي يحتجن إليها إذا رغبن في استكشاف ماضيهنّ. قالت آلي متفكرة.

- نعم، لكنْ من المبكر جدًّا لأي منّا أن تفكر في العودة إلى الوراء، وتتّبع الأدلّة التي تركها لنا پا.

- ربما. إضافة إلى ذلك، لن يلبث أن ينطلق سباق السيكلادس، وعليّ أن أغادر في أقرب وقتٍ ممكنٍ للانضمام إلى الطاقم. للأمانة يا مايا، بعد الذي عشته في اليومين الأخيرين، ستكون عودتي إلى الماء صعبة جدًّا.

- أستطيع أن أتخيّل. قلتُ، وقد صدمتني هشاشتها المفاجئة. لكنني واثقة من أنك ستتغلّبين على هذه الصعوبة.

- بصراحة، إنها المرة الأولى التي أشعر فيها بالخوف منذ بدأت المشاركة في السباقات التنافسية.

- لقد كرّست حياتك كلها للإبحار يا آلي، لم تتركي شيئًا من دون أن تضعيه في خدمة هذا الشغف. لذا، لا تسمحي لنفسك بالانهيار أمام حدثٍ وضعته الصدفةُ في طريقك.

- أنت على حق، سأبذل قصارى جهدي لأساعد فريقنا في الفوز، من أجل پا. شكرًا يا مايا. أتعلمين، أنني في بعض الأحيان أفكّر كيف سمحت لهذا الشغف بالسيطرة على حياتي؟ هل تذكرين كم كنت أتوق إلى أن أصبح عازفةَ نايٍ محترفةً عندما كنت أصغر سنًّا؟ لكنّ عشقي للبحر انتصر في نهاية المطاف.

ابتسمت وقلت: بالطبع، أتذكّر جيدًا. أنت موهوبة في أشياء كثيرة يا آلي، لكنني أعترف لك بأنني أفتقد كثيرًا الاستماع لك وأنت تعزفين على الناي.

- إنه لأمر غريب، ففي الأحيان الأخيرة، بدأت أدرك أنني أفتقده أيضًا. في كل حال، هل ستكونين بخير إذا بقيت وحدك هنا؟

- طبعًا. لا تقلقي، أرجوك. لست وحيدة، فهنالك مارينا، وعملي. سأكون على خير ما يُرام.

- حسنًا، ألا ترغبين في الانضمام إليّ أواخر الصيف لقضاء بضعة أيام على قاربي؟ نستطيع الإبحار إلى أي مكان يعجبك، كخليج أمالفي على سبيل المثال. إنه مكان ساحر، وواحد من الأمكنة المفضّلة لديّ، وقد أحضر الناي معي. قالت مع ابتسامة خفيفة.

- إنها فكرة رائعة، لكن سنرى. أنا مشغولة جدًّا بأعمال الترجمة في الوقت الحاضر.

- لقد نجحنا في حجز مقعدين على متن رحلة إلى مطار هيثرو. صاحت سيسي، وهي تندفع وراءنا إلى الشرفة. سيأخذنا كريستيان إلى المطار في غضون ساعة.

- إذًا سأحاول إيجاد رحلةٍ إلى نيس وآتي معكما. لا تنسي أن تدوّني لي الاقتباس يا مايا، ستفعلين أليس كذلك؟ قالت وهي تنهض مغادرةً الطاولة لتختفي داخل المنزل.

- هل كان كل شيء على ما يُرام مع غيورغ؟ سألتُ سيسي.

- نعم. اكتفت سيسي بإيماءة من رأسها، ثم سحبت كرسيًّا وجلست بجانبي. هل ترجمتِ الاقتباسات؟

- نعم.

- قالت لي آلي إنها حدّدت مواقع إحداثياتنا جميعًا.

سألتها: هل فتحتِ رسالتك؟

- لا. اتفقت أنا وستار على انتظار لحظة هدوء لقراءتهما معًا. لكن سيكون من المفيد جدًّا أن تدوّني اقتباسينا، ضعيهما في مظروف وأعطني إياه قبل أن نغادر. لقد طلبتُ من آلي أن تفعل الشيء نفسه بشأن الإحداثيات.

- نعم يا سيسي، يمكن لي بالتأكيد أن أعطيك الاقتباس الذي يخصّك. لكنّ پا، قال بشكلٍ واضحٍ في الرسالة التي تركها لي إنه ينبغي لي أن أسلّم كلّ ترجمة للشقيقة المعنيّة بها. لذلك، سأعطي ستار اقتباسها الشخصي. قلتُ، وقد أدهشتني قدرتي على الكذب بهذه السلاسة.

- لا بأس. قالت سيسي رافعةً كتفيها بلا مبالاة. لكننا بالطبع سنتشاركهما.

ثم نظرت فجأةً إلى عينيّ مباشرةً.

- وأنتِ؟ ماذا ستفعلين هنا وحدك بعد رحيل پا؟

- لديّ عملي الذي يبقيني مشغولةً طوال الوقت. أجبتها.

- صحيح، لكننا نعلم جميعًا أنك كنت تعيشين هنا من أجله. في أي حال، لقد اتّصلت ببعض المكاتب العقارية بحثًا عن شقة جديدة، وبعد أن نستقرّ، سنكون سعيدتين بوجودك معنا نحن الاثنتين، إذا رغبتِ في المجيء إلى لندن.

- أشكرك على هذه اللفتة الطيبة يا سيسي، سأُخبرك في حينه.

- حسنًا. أتسمحين لي بأن أطرح عليك سؤالًا يا مايا؟

- بالطبع، يا سيسي.

- هل... هل تعتقدين أن پا كان يحبّني؟

- يا له من سؤال غريب! طبعًا، دون أدنى شك في ذلك. كان يحبنا جميعًا، بالقدر نفسه.

- كلّ ما في الأمر... ثم راحت تنقر على المنضدة بأظفارها القصيرة الخشنة كما يفعل عازف البيانو على مفاتيحه الموسيقية.

- ما الأمر؟ سألتُها.

- للأمانة، أنا خائفة من فتح الرسالة. أقصُد، كما تعلمين، لستُ أكثر الأشخاص عاطفيةً، ولم أشعر قط أنّ علاقتي بپا كانت وثيقة. لستُ غبيةً، وأعرف جيدًا أن الجميع يرونني فظّةً وعمليّة - باستثناء ستار، بالطبع - لكنني أدفن مشاعري كلّها داخلي. هل تفهمين؟

جعلني بوح سيسي اللامتوقّع أمدُّ يدي لألمسَ يديها بشكل غريزي. قلت: أفهم جيدًا. أتعرفين يا سيسي، لن أنسى أبدًا ذلك اليوم الذي وصلتِ فيه إلى البيت. كانت ما مصدومة برؤية والدنا وهو يأتي بطفلة جديدة بعد وقت قصير من وصول ستار. عندما سألت پا لماذا جاء بك بهذه السرعة، أجابني، لأنك استثنائية، ولأنه بكل بساطة، شعر بأن عليه أن يحضرك معه. وكان على حق.

- حقًّا؟

- حقًّا.

منذ عرفتُها، كانت المرة الأولى التي أرى فيها شقيقتي الرابعة كما لو أنها على وشك أن تجهش بالبكاء.

قالت بامتنان: أشكرك يا مايا. والآن، يجب أن أجد ستار لأخبرها بأننا نغادر قريبًا.

بينما كنت أراقبها وهي تنهض وتتوجّه إلى المنزل لتغيب داخله، فكّرت في مدى التغيير الذي أحدثه موت پا فينا جميعًا.

بعد انقضاء ساعةٍ من الوقت، وبعد أن سلّمت كل واحدة من شقيقاتي نسخة من ترجمتي لاقتباسها، كنت مرةً أخرى على الرصيف أقول وداعًا. رحتُ أراقب آلي، وسيسي، وستار وهنّ يبتعدن على متن القارب الذي كان يمخر عباب الماء مسرعًا، ليعدن إلى حيواتهن الشخصية. أقفلت عائدةً إلى منزلي الصغير وسكبتُ لنفسي كأسًا من النبيذ، وأنا أفكر كيف قدّمت لي كل واحدة من شقيقاتي مساحةً في حياتها؛ لو أردت، كنت أستطيع صرف السنة القادمة بأكملها جوّالةً في أرجاء الأرض، والعيش في عوالمهنّ المتنوعة.

لكنْ ها أنا ذا، ما زلت أعيش في بيت طفولتي. مع ذلك، فكّرتُ في أنّ ثمّة مكانًا ما غير هذا المكان، وحياةً لم أكن أتذكّرها ولا أعرف عنها شيئًا.

مشيتُ بإصرار حتى مكتبي، وشغّلتُ الكمبيوتر. لعلّ الوقت قد حان لأكتشف من كنتُ. من أين أتيت، وإلى أيّ مكانٍ كنتُ أنتمي.

بينما كنت أفتح محرّك غوغل، ارتعشت يداي قليلًا. أدخلتُ الإحداثيات كما علّمتني آلي، ثم حبست أنفاسي بانتظار أن يخبرني الحاسوب أين أجد جذوري. أخيرًا، بعد أن توقّفت الدائرة الصغيرة عن الدوران على الشاشة لوقتٍ خلتُه الأبدية - مثل كرةٍ تدور على محورها - ظهرت التفاصيل أمام عينيّ، وانكشف مكان ولادتي.

8

من المثير للدهشة، أنني تلك الليلة غرقت في نوم عميقٍ خالٍ من الأحلام، واستيقظت مفعمةً بالحيوية والنشاط. ظللتُ مستلقيةً أحدّق إلى سقف غرفة نومي، مستعيدةً في ذهني تفاصيل ما اكتشفته الليلة الماضية.

لم أجد المعلومات التي اكتشفتها صادمةً، كما لو أنها كانت مسجّلةً في مكانٍ ما من حمضي النووي، وكنت أعرفها. في الواقع، وبمحض الصدفة، كانت حياتي في اللاوعي قد تضمّنَت جزءًا منها. لم أكن قادرةً على التصديق دون عناء أنني بالفعل، رأيت المنزل الحقيقي الذي ربما شهد ولادتي. بدا هائل الحجم في الصورة الجوية التي أظهرها محرّك غوغل، وتساءلت، بالنظر إلى روعته الواضحة، عن السبب الذي جعل پا ينتزعني منه وأنا طفلة رضيعة.

كنت أغادر سريري، عندما رنّ هاتفي الجوّال، لكنّني لم أكد ألتقطه لأجيب حتى توقّف عن الرنين. رأيت على الشاشة رقمًا مجهولًا، وربما كانت مكالمةً تجاريةً لإقناعي بشراء شيءٍ ما. تركته وذهبتُ إلى المطبخ لأنشّط نفسي، كما هي عادتي، بكوبٍ من الشاي الإنكليزي.

بينما كنت أرتشفه، قلتُ في نفسي إنّ من المذهل التفكير في أنني، لو أردت، يكفيني، وبكل بساطة، أن أستقلّ الطائرة في اليوم التالي، وفي غضون ثلاث ساعات أو أربع، يمكنني أن أطرق باب ماضيَّ.

بيت الأوركيد، لارنجيراس، ريو دي جنيرو، البرازيل.

حاولتُ أن أستجمع في ذهني التفاصيل الدقيقة لمحادثتي مع پا قبل أن أسجّل في الجامعة. كنت مفتونةً بدراسة اللغات، ومن بين تلك التي وضعتها ضمن خياراتي، شجّعني على تعلُّم البرتغالية. أتذكّر جيدًا كيف بدت لي سهلةً كما لو أنها كانت لغتي الأم، الفرنسية.

ذهبت إلى غرفة الجلوس بحثًا عن قطعة السيراميك التي ظلّت في المظروف. سحبتها ورحت أتفحّص النقش الباهت على ظهرها. كنتُ الآن أفهم بشكلٍ أفضل لماذا كُتب بالبرتغالية. ظلّت أحرف قليلة مقروءة، وتاريخ - 1929 - لكنّ فكّ رموز النقش بأكمله كان أمرًا مستحيلًا.

سَرَت فيّ رعشةُ إثارةٍ مفاجئةٍ عندما قدحَت في ذهني فكرةٌ مجنونة، لكنني قمعتُها على الفور. لا، لم أكن قادرةً على القفز في أوّل طائرة تتجه إلى البرازيل. كانت فكرة سخيفة بكل بساطة.

ولكن، هل كانت كذلك حقًّا؟

سكبتُ لنفسي كوبًا آخر من الشاي، ورحت أقلّب الفكرة في ذهني. وعندما هدأتُ، قررتُ أنني ذات يوم، قد أقوم بهذه الرحلة. ولمَ لا؟ كان لديّ أسباب وجيهة لأفعل، ما دمت قد ترجمتُ أعمال مؤلفين برازيليين إلى الفرنسية. كنت أستطيع زيارة ناشري فلوريانو كوينتيلاس - الكاتب الذي اتّصل بي مؤخّرًا - لأرى ما إذا كانوا يستطيعون التوصية بي للعمل مع كتّاب آخرين يحتاجون إلى خدماتي.

رنّ هاتفي مرةً ثانيةً ليعلمَني باستلام رسالة من المكالمة الفائتة. ذهبتُ إلى غرفة الجلوس والتقطته عن المنضدة. كنت أضع السماعة على أذني وأتوجّه نحو المطبخ عندما سمعتُ صوتًا مألوفًا يكلّمُني.

- مرحبًا يا مايا، هذا أنا، زِد. آمل أنك ما تزالين تتذكرينني. قال مع قهقهة خفيفة قبل أن يكمل: لست أدري إن كنت قد سمعت بخبر وفاة والدي المأسوي. للأمانة، لم نخرج بعد من هول الصدمة. لم أكن لأتّصل بك لأعلن لك هذا النبأ المؤسف، لكنني بمحض الصدفة، سمعت من أحد أصدقائي البحّارة ما حدث لوالدك. يبدو أنه قد رحل أيضًا. في أي حال، سأكون في جنيف خلال الأيام القليلة

القادمة، وفكّرت كم سأكون سعيدًا بلقائك. قد يستطيع كلٌّ منّا البكاء على كتف الآخر. يا لغرابة الحياة، أليس كذلك؟ لا أعرف إن كنت ما تزالين تعيشين في جنيڤ، لكنني أحتفظ برقم هاتفك الأرضي في مكانٍ ما. لذلك، إذا لم تردي على هذه الرسالة، فسأجرّب حظي في الاتصال بك على رقم أتلانتيس الشهيرة. أنا آسف حقًّا بشأن والدك. اعتني بنفسك.

سمعت صوت (بيب) ينذرني بنهاية الرسالة. وقفت مذهولة وقد جمّدني صوته الذي كنت أسمعه للمرة الأولى منذ أربعة عشر عامًا.

يا إلهي، غمغمتُ، متخيّلة زِد وهو يقف على عتبة بابي بعد يومين أو ثلاثة. شعرت كما لو أنني كنت أرنبًا مبهورًا بضوءٍ ساطع؛ كان جزء مني يريد أن أندسّ تحت السرير وأختبئ، فربما كان في جنيڤ، وقد يصل بين ثانية وأخرى.

تبادر إلى ذهني أن تأخذ مارينا أو كلوديا سماعة الهاتف وترد عليه، لتخبره بكل براءة أنني كنت في المنزل حقًّا. اجتاحتني هذه الفكرة كتيارٍ يرسل في جسدي أمواجًا كهربائية. كان عليّ أن أذهب من فوري إلى المنزل لأحذّرهما من إخبار أي شخص يتّصل بأنني كنت موجودة.

ولكن ماذا لو ظهر زِد على عتبة الباب فجأةً؟ كان يعرف بالضبط أين توجد أتلانتيس. وكنتُ قد وصفتُ له موقعها بالتفصيل ذات مرة.

يجب أن أرحل، قلت في نفسي، بعد أن أطاعتني قدماي أخيرًا لتحملاني إلى غرفة الجلوس، حيث رحت أذرعُ أرضها، مشلولةً بالقلق، وأفكر في التي قد أختارها من بين دعوات شقيقاتي الأربع.

لم تستهوِني أيٌّ منها. لذلك فكّرا في العودة إلى لندن لزيارة جيني، والانتظار ريثما يزول الخطر.

ولكن كم سيطول ذلك؟ قد يمدّد زِد إقامته في جنيڤ ويبقى مدّة أطول. أراهن أن ثروة والده الهائلة ترقد بين أيدي المصرفيين السويسريين وفي خزائنهم.

لماذا الآن؟ صرختُ في وجه السماء. تمامًا في الوقت الذي كنت أحتاج فيه

إلى التركيز والهدوء. ولكن يجب أن أرحل مهما يكلِّف الثمن. لم يكن لديّ أدنى شك في أن رؤيته ستحطّمني تمامًا، وخصوصًا في الحالة الذهنية الهشّة التي كنت أمرّ بها بعد موت پا.

نظرت إلى المنضدة، وبشكل غريزي ذهبت أصابعي لتلمس السطح الناعم لقطعة السيراميك المثلّثة. وبينما كنت أتأمّلها، تركت نفسي أستسلم للفكرة التي بدأت لتوّها تتبرعم في ذهني.

إذا كنت أريد أن أترك أطول مسافةٍ بيني وبينه، ولا يعرف مكاني أحد، كانت البرازيل تؤدّي الغرض على أكمل وجه. كان بوسعي أن أحمل الكمبيوتر معي وأتابع العمل هناك على الترجمة التي كنتُ قد بدأتها. لمَ لا؟

نعم يا مايا، لمَ لا؟ قلت لنفسي.

بعد مرور ساعةٍ من الوقت، ذهبت إلى المطبخ وسألت كلوديا عن مارينا.

- ذهبَت إلى جنيڤ لشراء بعض الحاجيات. هل تريدين أن أبلّغها رسالةً ما عندما أراها؟

استجمعتُ كل ما أملك من الشجاعة.

- نعم. قولي لها إنني سأغادر أتلانتيس هذا المساء، وسأغيب مدة أسبوعين على الأقل. ثمة شيء آخر يا كلوديا، إذا اتصل بي أي شخص كان، أو جاء يسأل عني بنفسه، قولي بأنني سأكون غائبة لبعض الوقت.

ظهرت علامات الدهشة واضحة على وجه كلوديا، الذي كان، في العادة، يخلو من أي تعبير.

- إلى أين ستذهبين يا مايا؟

- بعيدًا وحسب. قلتُ بشكل طبيعي.

- حسنًا.

انتظرت أن تكمل، لكنها صمتَتْ.

- سأذهب إلى منزلي في الحديقة لأحزم أمتعتي. هل تستطيعين أن تخبري كريستيان، عندما يعود، بأن يكون جاهزًا ليأخذني إلى جنيڤ في حوالى الساعة الثالثة؟

- هل أحضّر لك الغداء؟

- لا شكرًا. قلتُ، وكنت أعرف أن معدتي مضطربة بما يكفي. سأعود بعد قليل لأقول وداعًا. لا تنسي يا كلوديا، من الآن فصاعدًا، إذا اتصل بي أي شخصٍ كان، قولي إنني غير موجودة.

- أعرف يا مايا، لقد قلتِ ذلك قبل قليل.

بعد مضيّ ساعتين، غادرتُ أتلانتيس. كنتُ قد حجزت بطاقة سفر، وغرفة في الفندق، وحمَلتُ معي حقيبةً حشوتُها ببعض الحاجيات على عجل. وبينما كان القارب يبحر بي بسلاسة على بحيرة جنيڤ، تساءلتُ فجأةً، إنْ كنت أذهب هربًا من ماضيّ أم بحثًا عنه.

9

مع فارق توقيتٍ يبلغ خمس ساعات، كانت السادسة من صباح اليوم التالي، عندما حطّت الطائرة في البرازيل. كنت أتوقّع الخروج تحت شمس أميركا الجنوبية الساطعة، لكنني أُصبتُ بخيبة أمل، عندما رأيت سماءً ملبّدةً بالغيوم. كان الفصل شتاءً هنا، ولم تكن درجة الحرارة أكثر من عشرين مئوية، ما يعني غياب الحرّ الاستوائي الخانق الذي كنت أتوقّعه. عندما خرجت إلى قاعة الوصول، استقبلني رجل يحمل لافتةً صغيرةً باسمي.

- مرحبًا، أنا الآنسة داپليز. كيف حالك؟ سألت باللغة البرتغالية بينما كنت أقترب من السائق، مسرورةً بعلامات الدهشة التي ظهرت على وجهه.

تبعتُه حتى السيارة، وبينما كنا نغادر المطار باتجاه ريو، رحتُ ألتهم بعينيّ هذه المدينة التي - كما يبدو - كانت مكان ولادتي. بالرغم من أنني زرت البرازيل خلال السنة الثانية من دراستي الجامعية، لكنّ مقرّ برنامج التبادل كان في ساو باولو، حيث قادتني رحلاتي إلى العاصمة القديمة سلفادور. كانت قصص ريو وجرائمها، وفقرها، وحياتها الليلية الصاخبة، قد جعلتني أحذر زيارتها، خصوصًا بالنسبة لامرأة تسافر وحيدة. لكنني الآن، كنت هنا، وإذا كانت معلومات پا صحيحة، فقد كنت جزءًا من حمضها النووي، وكان جزءًا مني.

بدا السائق مسرورًا بلقاء أجنبية تتكلّم البرتغالية بطلاقة، وسألني:

- من أين أنت؟

- من هنا. لقد وُلدتُ هنا. أجبته.

تفحّصَني في مرآة الرؤية الخلفية.

- نعم بالطبع، الآن أستطيع أن أرى أن ملامحك برازيلية. لكنّ لقبك داپلييز، لذلك افترضت أنك فرنسية. أنت هنا لزيارة أقربائك؟

- نعم. أجبتُ. كان مصيبًا.

- انظري. قال وهو يشير إلى جبلٍ مرتفعٍ حيث كان ينتصب تمثالٌ أبيض اللون، يفتح ذراعيه على اتساعهما كما لو كان يحضن المدينة. إنه مسيحنا المخلّص. حين أراه أشعر على الفور أنني في البيت.

رفعتُ عينيّ لأتأمّل التمثال الشاحب والأنيق، الذي بدا طافيًا بين الغيوم كظهورٍ ملائكيّ. على الرغم من أنني، كسائر البشر، كنت قد رأيت الصورة في وسائط الميديا مرات لا تُحصى، كانت الحقيقة تحبس الأنفاس، وتُخَلِّفُ مشاعر عاطفية غريبة.

- هل سبق لك أن صعدتِ لزيارته؟ سألني السائق.

- لا، لم أفعل.

- إذن، أنت «كاريوكا» حقيقية. قال مع ابتسامة عريضة، وأضاف: على الرغم من كونه إحدى عجائب الدنيا السبع، نحن في ريو لا نكاد نلاحظ وجوده، ونعتبره من المسلّمات. وحدهم السيّاح يتوافدون لزيارته.

- سأفعل ذلك حتمًا. وعَدتُ، بينما كنا ندخل نفقًا، والمسيح المخلّص يغيب عن الرؤية.

بعد أربعين دقيقة، وصلنا إلى فندق سيزر پارك. على الجانب الآخر من الجادة، كان شاطئ إيبانيما المقفر في هذه الساعة الصباحية المبكرة، يمتد بمنظره الآسر إلى الحد الذي تصل إليه الرؤية.

- تفضّلي سينيوريتا داپلييز، هذه بطاقتي الشخصية، اسمي بييترو. إذا احتجت إلى التنقّل في المدينة، اتّصلي بي، سأكون تحت تصرّفك في أي وقت تريدين.

- شكرًا. قلتُ، وأعطيته بضعة ريالات إكرامية قبل أن أتبع الحمّال إلى البهو لتسجيل وصولي.

بعد بضع دقائق، كنت أقيم في جناح مبهج وفسيح، تتيح نوافذه الأمامية العريضة رؤيةً رائعةً على شاطئ إيبانيما. كانت الغرفة باهظة الثمن، لكنني حجزت في آخر لحظة، ولم يكن هناك خيارات أخرى متوافرة. ولمّا كنت لا أنفق شيئًا مما أكسبه إلا نادرًا، فلم أشعر بالذنب. كان الأمر يتعلّق بما قد يستجدّ من أحداث في الأيام القليلة التالية. وإذا قررت البقاء لفترة أطول، كنت أستطيع استئجار شقّةٍ مفروشة.

ولكن ما الذي كان ليحدث في الأيام القليلة التالية؟

منذ الأربع وعشرين ساعة الماضية، كان لديّ انطباع بأنني غارقة في قلب دوّامة من الأحداث المأسوية. كنت مدفوعةً بحالةٍ من الذعر واليأس، وعازمةً على مغادرة سويسرا بأي ثمن، وبأسرع وقت ممكن، فلم أفكر حقًّا بما ينبغي لي القيام به عندما أصل إلى البرازيل. لكن في الوقت الحاضر، وبعد أن قضيت الليلة الفائتة على متن الطائرة دون أن يغمض لي جفن، وشعوري بالإنهاك جراء الصدمة التي تلقيتها في الأيام الأخيرة الماضية، قرّرت تعليق لافتة عدم الإزعاج على باب الغرفة، ثم انزلقت تحت الملاءات المنعشة ذات الرائحة العطرة، وغرقت في النوم.

عندما استيقظت بعد ساعاتٍ قليلة، كنت متشوقة لزيارة المدينة، لكنني شعرت بالجوع، فأخذت المصعد إلى المطعم في الطابق الأخير. جلستُ على الشرفة التي كانت تملك إطلالة رائعة على البحر والجبال معًا، وطلبت سلطة سيزر مع كأس من النبيذ الأبيض. كانت الغيوم قد تلاشت دون أن تترك أي أثر لمْرورها، وكان الشاطئ يحتشد بأجساد برونزية مكشوفة لأشعة الشمس.

ما إن شبعتُ حتى شعرت بأن الأفكار قد بدأت تتوضّح في ذهني بحيث تتيح لي القيام بما هو أفضل. دقّقت العنوان الذي تشير إليه الإحداثيات التي كنت قد

دوّنتها على هاتفي الجوّال، وأقررت في نفسي أن لا شيء يضمن بقاء أسرتي الأصلية في المنزل. كنت أجهل حتى أسماءهم. ولم أستطِع مقاومة ضحكةٍ مكتومةٍ عندما تصوّرت نفسي أقف على عتبة الباب، وأعلن أنني كنت أبحث عن أسرتي المفقودة منذ زمنٍ بعيد.

ثم فكّرتُ في الاقتباس الذي نقشه پا سولت على الاسطرلاب، كان أسوأ ما يستطيعون فعله هو أن يصفقوا الباب في وجهي. ربما كانت كأس النبيذ، أو اختلاف التوقيت، هما اللذان منحاني شجاعة غير عادية. لذلك، عدت إلى جناحي، وقبل أن أغيّر رأيي، اتصلت بالطابق الأرضي لمعرفة ما إذا كان بييترو، السائق الذي استقبلني في المطار متوافرًا ليقلّني بسيارته إلى العنوان الذي كنتُ أريد الذهاب إليه.

- بالتأكيد، قال البوّاب. هل تريدين السيّارة على الفور؟

- نعم.

لم تمضِ عشر دقائق حتى كنت من جديد في سيارة بييترو التي كانت تغادر ببطء مركز المدينة.

قال: هذا المنزل، لا كازا داس أوركيدياس، أعتقد أنني أعرفه.

- أنا لا أعرفه. اعترفتُ.

- حسنًا، إذا كان المنزل هو هذا الذي أعرفه، فإنه مثير للاهتمام حقًّا. إنه منزل قديم جدًّا، كانت تسكنه أسرة برتغالية ثرية.

مرة أخرى توقّفنا في الازدحام المروري الخانق، الذي أكّد لي بييترو أنه لا يتوقّف على الإطلاق.

قلت: قد يكون للمنزل مالكون جدد.

- هذا صحيح. قال وهو ينظر إليّ في مرآة الرؤية الخلفية، وعرفتُ أنه شعر بتوتّري. هل تبحثين عن أحد أقربائك؟

- نعم. أجبتُ بصدقٍ، وأنا أنظر إلى الأعلى. وعلى الفور، رأيتُ المسيح المخلّص طافيًا فوقي. لم أكن متديّنة حقًا، لكنني تلك اللحظة، وعلى نحوٍ ما، غمرني شعور عجيب بالارتياح لذراعيه العطوفين، المفتوحتين.

- سنصل إلى العنوان الذي تريدينه خلال دقيقتين، أعلمَني بييترو بعد مرور خمس عشرة دقيقة. أشكُّ في أن تري شيئًا من الطريق، لأن المنزل محاط بسياجٍ عالٍ للحفاظ على خصوصيته من نظرات المتطفّلين. لقد كان حيًّا راقيًا في ما مضى، يسكنه الأثرياء حصرًا، أمّا الآن، وللأسف، فقد حدث نمو عمرانيّ كبير في الجوار.

في الواقع، كان يمتد على جانبيّ الطريق خليط من الأبنية الصناعية والسكنية.

- ها هو المنزل، سينيوريتا.

تتبّعتُ الجهة التي أشار إليها إصبع بييترو فرأيت سياجًا طويلًا تخنقه الأزهار البرية والأعشاب الضارّة. مقارنةً بمنزلنا في جنيف، الذي يتمتّع بعنايةٍ فائقة، بدا واضحًا أنّ ما من يدٍ حانيةٍ امتدّت إليه منذ زمن بعيد. كانت مدخنتان قديمتان من الآجر الأحمر الذي سوّده السخامُ، تطلاّن من فوق السياج المرتفع.

- قد لا يكون المنزل مأهولًا. هازًّا كتفيه، بعد أن قيّم على الفور، كما فعلتُ تمامًا، مظهر المنزل الخارجي المُهمَل.

- ربما. قلتُ موافِقةً.

- هل أركن السيارة هنا؟ سألني وهو يبطئ ليتوقّف بمحاذاة الرصيف على مسافة بضعة أمتار من المنزل.

- نعم، من فضلك.

ركن السيارة وأوقف المحرك، ثم التفت إليّ.

- سأنتظرك هنا، حظًّا سعيدًا، سينيوريتا داپلييز.

- شكرًا.

ترجّلتُ من السيارة وصفقت الباب بقوة أكبر مما يلزم وأنا أهيئ نفسي لما قد أكتشفه. وبينما كنت أسير على الرصيف، قلت لنفسي إن ما قد يحدث في الدقائق

القليلة التالية ليس مهمًّا. كان لي دائمًا أب محبّ، ومارينا كانت أمًّا بالنسبة إليّ، ولا أنسى شقيقاتي. في أي حال، لم تكن الأسرار التي قد أجدها مخبّأةً وراء هذا السياج، هي التي دفعتني إلى المجيء، بل غريزة الهرب، ولسبب محدّد.

منحتني هذه الفكرة الثقة التي كنت أحتاج إليها، فتخطّيت البوابة الحديدية المفتوحة على الممرّ. وللمرة الأولى، رأيت المنزل الذي كانت الإحداثيات تخبرني بأنه المكان الذي بدأت فيه قصتي الأصلية.

كان قصرًا جميلًا يعود تاريخ بنائه إلى القرن الثامن عشر. يستدعي شكله الكلاسيكي المربّع، وجدرانه المكسوة بالجص الأبيض، وأفاريزه وزخارفه الناتئة، ماضي البرازيل الكولونيالي. ومع ذلك، كان الجص في حالةٍ يُرثى لها، وطلاء عشرات النوافذ العالية يقشّر في أماكن عدة بحيث يُرى من تحته الخشب عاريًا.

استجمعت كل ما أملك من شجاعة، وتقدمت مجاوزةً نافورةً من الرخام المنحوت، لا بدّ من أن الماء كان يتدفق منها في ما مضى.

رأيت مصاريع النوافذ مغلقة بإحكام، وبدأت أتساءل ما إذا كان بييترو محقًّا وأن المنزل لم يعُد مسكونًا.

صعدت الدرج العريض الذي يقود إلى الباب الأمامي وقرعت الجرس. لم أتلقّ جوابًا. بعد أن قرعت مرتين متتاليتين، نقرتُ على الباب الخشبي نقرًا خفيفًا. لم أسمع وقع خطوات تأتي من الداخل، فقرّرت أن أطرق بقوّة هذه المرة.

مضت برهة غير قصيرة وكنت لا أزال عند عتبة الباب، فقلت في نفسي: لن يفتح أحد الباب. كنت أضيّع وقتي سدى. ومرةً أخرى، رفعت بصري ورأيت أن كل المصاريع كانت مُقفَلة. لا شكّ في أن هذا المنزل كان مهجورًا حقًّا.

هبطت الدرج، تردّدت، ما العمل؟ أعود إلى السيارة مباشرةً حيث كان بييترو ينتظرني، وأتخلّى عمّا جئت أبحث عنه؟ أم أتجوّل في الجوار، وأحاول العثور على شقٍّ في أحد المصاريع يتيح لي رؤية شيء ما؟ ثم انتصر الفضول. رحت أسير على امتداد الواجهة الأمامية بخطى حذرةٍ مخافة أن أُسمَع، إذا كان في المنزل أحد.

اتضح أن الواجهة كانت أطول كثيرًا من العرض، تشرف على حديقة لا شكّ في أنها كانت بديعة. تابعتُ التقدُّم، يائسة من وجود فتحةٍ تتيح لي إلقاء نظرة على الداخل. كان الجدار ينتهي بشرفة تغطيها الطحالب.مكتبة سُر مَن قرأ

لفت انتباهي على الفور تمثال حجريّ محاط بأصصٍ فخارية مكسّرة. كان التمثال لامرأةٍ شابة، تجلس محدّقةً إلى الفراغ. عندما اقتربت، رأيت أن الأنف كان مكسورًا. كان لشكله البسيط وخطوطه الرصينة جمال مبهر.

كنت على وشك الانعطاف إلى اليسار لأستطلع الجانب الخلفي من المنزل، عندما اكتشفت فجأةً أن شخصًا كان يجلس تحت شجرة في الحديقة، أسفل الشرفة.

راحت نبضات قلبي تتسارع، والتصقت بالجدار لأراقبه خلسة. كانت امرأة! ومن وضعية جلوسها على الكرسي، بدت لي متقدمة جدًّا في السن، لكنني كنت بعيدةً جدًا، فلم أستطع تمييز قسمات وجهها.

أثارت رؤية هذه المرأة سيلًا من الافتراضات في ذهني. بقيت مسمّرة في مكاني أراقب تلك التي ربما كانت إحدى قريباتي. لم أكن موهوبة في اتخاذ القرارات السريعة.

رفعتُ عينيّ إلى السماء، وشعرت بأن پا لم يكن ليتردّد في موقفٍ كهذا. وللمرة الأولى في حياتي الراشدة، كنت على وشك التصرّف مثله.

لم تلتفت عندما تقدّمت نحوها. ولما اقتربت أكثر، لاحظت أنها تغمض عينيها، وبدا لي أنها كانت تنام، فرحت أتأمّل قسمات وجهها باحثة عن شبهٍ بيننا. لم أترك الأوهام تتملّكني، فمن المحتمل ألّا تجمعني بها قرابة، وأنها لم تكن تسكن المنزل عندما تبنّاني پا قبل ثلاثٍ وثلاثين سنة.

- آسفة، هل يمكنني أن أساعدك، سينيوريتا؟

أجفلني ذلك الصوت الرقيق الآتي من ورائي فاستدرت. رأيت امرأة أفريقية مسنّة، نحيلة جدًا، رمادية الشعر، ترتدي زيّ خادمة من الطراز القديم، وتنظر إليّ بارتياب.

- آسفة، لقد قرعت الجرس لكنني لم أتلقّ جوابًا.

رفعت المرأة سبّابتها إلى شفتيها.

- هسّ، إنها تنام. ماذا تريدين؟

كيف كنت لأستطيع أن أقول لهذه المرأة، همسًا، بضع كلمات تشرح سبب زيارتي؟

- لأنني... قيل لي إنّ ثمة صلةً تجمعني بهذا المنزل، وأودّ التحدث مع مالكه.

شعرت بأنها كانت تقيّمني، ورأيت في عينيها وميضًا مفاجئًا عندما استقرّ نظرها على عنقي.

- السيدة كارفالو مريضة جدًّا، وتتألّم كثيرًا، لذلك، فهي لا تستقبل أحدًا.

- حسنًا، ربما تستطيعين أن تخبريها بأنني مررت. فتحت حقيبتي لأخرج بطاقتي الشخصية وأعطيتها للخادمة. أقيم حاليًا في فندق سيزر بارك. أخبريها بأنني أرغب حقًّا في التحدث إليها.

- أستطيع، لكن ذلك لن يحدث أي فرق. أجابت الخادمة بنبرةٍ جافّة.

- منذ متى تسكن هذه السيدة الجالسة هنا هذا المنزل؟

- طوال حياتها. والآن، سأرافقك إلى الخارج.

أصابتني كلماتها بالقشعريرة، وألقيت نظرة أخيرة على العجوز الجالسة على الكرسي. إذا كانت إحداثيات پا سولت صادقة، فلا بد أنّ صلة قرابة تجمعني بها. استدرت لأتبع الخادمة عبر الشرفة باتجاه الخارج. عندما وصلنا إلى زاوية المنزل سمعت صوتًا ضعيفًا قادمًا من الخلف.

- من هي؟

- توقّفنا واستدرنا، ورأيت الخوف ظاهرًا في عينيّ الخادمة.

- أرجوك المعذرة، سيدة كارفالو، لم أكن أريد إزعاجك. أجابت.

- لستُ منزعجة. لقد راقبتكما خلال الخمس دقائق الأخيرة. أحضريها؛ لا يمكننا التحدث ومائة متر تفصل بيننا.

امتثلت الخادمة لأمر سيدتها وعادت بي إلى الشرفة، ثم أسفل، إلى الحديقة.

عندما أصبحنا أمام المرأة العجوز، قرأَتْ لها تفاصيل بطاقتي الشخصية.

- إنها الآنسة داپلييز، وتعمل في الترجمة.

عندما أصبحت قبالة المرأة وجهًا لوجه، أذهلني نحولها، وبشرتها الرمادية الممتقعة، كما لو أن القوة التي تبقيها على قيد الحياة تنحسر ببطء. عندما راحت تتفحّصني بنظراتها الثاقبة، الواعية تمامًا، ظننت للحظة خاطفة أني رأيت في عينيها ما يشبه الصدمة، كما لو أنها عرفت من أكون.

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟ سألَت.

- إنها قصة طويلة.

- ماذا تريدين؟

- لا شيء، أنا....

- لقد أخبرتني الآنسة داپلييز أن ثمة صلةً تربطها بهذا المنزل. قالت الخادمة بنبرةٍ بدت لي مشجِّعة.

- حقًّا؟ وما هي هذه الصلة؟

- قيل لي إنني وُلدتُ في هذا المنزل. أجبتُ.

- يؤسفني أن أخيّب آمالك، سينيوريتا، ولكن لم يولد أطفال هنا منذ ولادة طفلي قبل خمس وخمسين سنة. أليس كذلك يا يارا؟

- نعم، سيدتي.

- ثم من أعطاك هذه المعلومة؟ لا شك في أنه شخص يتمنى التقرّب مني ليرث المنزل بعد وفاتي، أليس كذلك؟

- لا يا سيدتي. أؤكد لك أن الأمر لا علاقة له بالمال. لم آتِ من أجل ذلك. قلتُ بشكل قاطع.

- إذن أرجوك أن تشرحي بشكل أوضح لماذا جئتِ.

- لأنّ والدي الذي تبنّاني عندما كنتُ طفلةً صغيرةً تُوفّي الأسبوع الفائت، وقد ترك لي رسالة يقول فيها إن أسرتي كانت تعيش في هذا المنزل. من ثمّ حدّقت إلى عينيها مباشرةً. كنت آمل أن ترى الصدق في عينيّ.

مرةً أخرى، راحت تراقبني عن كثب وبدا لي أنها كانت متردِّدة قبل أن تتابع.

- إذًا، يجب أن أخبرك بأن والدك قد ارتكب خطأً فادحًا، وأن رحلتك هذه مضيعة للوقت. يؤسفني عدم قدرتي على تقديم مزيدٍ من المساعدة. رافقتك السلامة.

أخيرًا، تركتُ الخادمة تقودني إلى الخارج، وكنت على يقينٍ مطلقٍ بأن تلك المرأة العجوز كانت تكذب.

10

لم تكن الساعة قد جاوزت الثامنة مساءً عندما وصلتُ إلى الفندق، لكنني كنت منهكةً كما لو أن الوقت منتصف الليل، وأخطأت أن غرقت في نومٍ عميقٍ خالٍ من الأحلام، واستيقظت في الخامسة فجرًا.

بقيتُ ممدّدةً على السرير، أفكّر في ما حدث أمس. فعلى الرغم من الإنكار الشديد لمالكة بيت الأوركيديا، كانت غريزتي تقول لي إن پا سولت لم يكن مخطئًا. لكنّني، وللأسف، لم أكن أملك أدنى فكرة عما يمكن لي أن أفعله حيال ذلك. مهما يكن ما تعلمه المرأة العجوز وخادمتها، بدا واضحًا أنهما لن تخبراني به.

أخرجت قطعة الخزف الصغيرة من حقيبتي، ومرّةً أخرى، حاولت فكّ رموز التدوين المنقوش عليها، لكنني سرعان ما استسلمت. كلّ ما كان لديّ، هو بضع كلمات باهتة غير مقروءة، ولحظة زمنية مثبّتة على ظهر قطعة حجرية مثلّثة الشكل.

لجأت إلى الكمبيوتر المحمول لإلهاء نفسي، ورحت أتفقّد بريدي الإلكتروني. وجدت رسالة من الناشر البرازيلي الذي كنت أعمل معه، وكنت قد اتصلت به في أثناء انتظاري الطويل الذي استغرق ثلاث ساعات ونصف الساعة في قاعة الترانزيت بمطار شارل دو غول الباريسي.

سينيورا داپلييز العزيزة،

يسعدنا أنك قرّرتِ زيارة البرازيل. تقع مكاتبنا في ساو باولو، لذا،

قد لا يكون السفر لزيارتنا ملائمًا لكِ، لكننا سنكون مسرورين باستقبالك والتعرّف إليك إن فعلتِ. مع ذلك، فقد أوصلنا رسالتك إلى فلوريانو كوينتيلاس الذي يقطن ريو. أنا على يقين من أنه سيكون سعيدًا بلقائك وتقديم كلّ أشكال المساعدة في أثناء إقامتك بربوع بلدنا الجميل. أرجو ألّا تتردّدي في الاتصال بي إذا احتجت إلى أي شيء.

مع أطيب التحيات،

لوتشيانو باراكيني.

مكتبة
t.me/soramnqraa

جلب الودُّ والدفء اللذان اتّسمت بهما الرسالةُ الابتسامةَ إلى شفتيّ. تذكّرت من زيارتي الأخيرة مدى اختلاف الثقافة المحلية عن النمط السويسري المفرط في الرسميّة. ولم يكن لديّ أدنى شك في أنني لو واجهت مشكلةً ما، مهما يكن نوعها، فإن هؤلاء الناس الذين لا يعرفونني على الإطلاق سيرحّبون بي ويساعدونني بأي وسيلة ممكنة.

استلقيت على السرير، ونظرت عبر النافذة فرأيت الشمسَ تشرق فوق البحر، ومن الجادة العريضة أسفل، بدأ يصعد ضجيجُ حركة المرور الصباحية. كانت المدينة تستيقظ.

بعد أحداث أمس، كان السؤال السديد هو التالي: هل أحاول الحفر أعمق لاكتشاف الأسرار التي كانت تخفيها عني ريو؟

بالنظر إلى البديل الوحيد الذي كان متوافرًا - العودة إلى جنيڤ، التي كنت أعرف أنها مستحيلة في الوقت الحالي - قرّرتُ البقاء بضعة أيام إضافية أقضيها في التمتّع بالسياحة. فحتى لو كنت قد وصلت بالفعل إلى طريق مسدود في البحث عن أصولي، كنت على الأقل أستطيع اكتشاف المدينة التي ربما وُلدتُ فيها.

ارتديت ملابسي، وأخذت المصعد إلى الطابق الأرضي. خرجت من الفندق وعبرت الشارع لأجد نفسي على شاطئ إيبانيما، كان مقفرًا في تلك الساعة المبكّرة.

مشيتُ باتجاه الأمواج التي كانت تتكسّر على الرمل الناعم تحت قدميّ، ومن ثمّ استدرتُ لأتأمّل منظر ريو من البحر.

كانت كتلة من المباني - بارتفاعات وحجوم مختلفة - تتنافس على احتلال موقع على طول الواجهة البحرية، وخلف ذرى السطوح، بدت قمم الجبال البعيدة بالكاد مرئية. إلى يميني كان الخليج يمتد بعيدًا حتى نتوء صخري، وإلى يساري كانت قمتا مورو دويس إيرماوس تتسامقان في منظرٍ ساحر.

في تلك اللحظة، وأنا وحيدة تمامًا، شعرت بطاقةٍ تسري في عروقي، وبإحساسٍ مفاجئ بالخفّة والتحرّر.

هذا جزء مني، وأنا جزء منه...

رحت أركض على الشاطئ، بشكل غريزي، وقدماي تغوصان في الرمل الزلِق، وتحملانني بثباتٍ بينما كنت أفتح ذراعيّ على اتساعهما، في لحظةٍ من البهجة والحبور المطلقَين. ثم توقّفتُ لاهثةً، وانحنيتُ على نفسي ضاحكةً من هذا السلوك الذي لم يكن يشبهني.

بعد ذلك، غادرت الشاطئ، وعبرت الشارع لأتوغّل في عمق المدينة. على امتداد الشوارع التي مررت فيها، أدهشني هذا المزيج من المباني الكولونيالية والحديثة المرغمة على التعايش جنبًا إلى جنب، لتعكس التغييرات المتعاقبة على طراز المدينة المعماري.

عندما انعطفت عند ناصية أحد الشوارع، وجدتُ نفسي في ساحة تعجّ بالباعة الذين كانوا يقيمون ما يشبه سوقًا للخُضَر والفاكهة في تلك الساعة الصباحية المبكرة. توقّفت عند أحد الأكشاك والتقطت دراقةً فابتسم لي البائع الشاب.

- تفضّلي سينيوريتا، خذيها.

- شكرًا، قلتُ، ثم ابتعدتُ وأسناني تنغرز في الثمرة الحلوة اليانعة، وفجأةً تسمّرت قدماي عندما رأيت تمثال المسيح طافيًا من فوقي.

- هذا ما سأفعله اليوم. قلتُ في نفسي.

أدركت فجأةً أنه لم يكن لديّ أدنى فكرة عن المكان الذي أنا فيه، وإلى أي مدى كنت قد ابتعدت عن الفندق، فرحتُ أتبع صوت الأمواج، وكحمامة زاجلة تحتفظ بخريطة المنطقة مطبوعةً في ذاكرتها، وجدت طريق العودة إلى الفندق.

تناولت وجبة الإفطار على شرفة الطابق الأخير، وللمرة الأولى، منذ وفاة پا استعدتُ شهيّتي المفقودة. حين عدت إلى الغرفة، وجدت عددًا من الرسائل على هاتفي الجوّال. اتخذت القرار بتجاهلها لئلا يفسد أي شكل من أشكال الواقع، البهجة التي شعرت بها هذا الصباح. مع ذلك، رأيت رسالة على بريدي الإلكتروني، واسترعى انتباهي اسم صاحبها. كانت من فلوريانو كوينتيلاس.

عزيزتي سينيوريتا داپليز،

لقد أخبرني ناشري بزيارتك المفاجئة لريو. سأكون مسرورًا جدًّا بلقائك والتعرّف إليك شخصيًّا، ربما يمكنني أن أصحبك إلى الغداء أو العشاء تعبيرًا عن امتناني للعمل الذي قمت به في ترجمة كتابي. لقد أخبرني الناشرون الفرنسيون بأنهم يعلّقون عليه آمالًا كبيرة ويتوقّعون له مبيعات جيّدة جدًّا. أو ربما ترغبين في رؤية مدينتنا الجميلة بعينيّ «كاريوكا» حقيقيّ. تجدين رقم هاتفي مدوّنًا في أسفل هذه الرسالة. للأمانة، سأكون منزعجًا للغاية إذا لم تتصلي بي في أثناء إقامتك في ريو.

تحت تصرّفك دائمًا.

مع أطيب التحيات.

فلوريانو كوينتيلاس

لم أستطع كبت ضحكة خرجت مكتومةً. كنا نتبادل الرسائل بشكلٍ منتظم طوال العام الفائت بشأن ترجمة كتابه «الشلال الصامت»، وكنت أعرف أنه لاً يُطلق الكلمات سدىً.

لذلك، تساءلت: هل كان ليتصل بي لو كان في جنيف، وهل كنت لأعرض عليه اصطحابه في زيارة للمدينة؟ هل كنت لأنزعج لو رفض؟

كانت الإجابة عن السؤالين: نعم.

قرّرت أنّ أفضل طريقة للاتصال به وأكثرها حيادية هي في الردّ على رسالته نصًّا. لست متأكدةً كم صرفت من الوقت في كتابة الرسالة، وتحريرها وإعادة كتابتها، لكنني أخيرًا، كنت راضية عنها، وضغطت على زر الإرسال.

عزيزي فلوريانو، يسعدني أن أكون هنا في ريو، وسوف يكون رائعًا - حذفتُ كلمة يسرّني - أن ألتقيك. سأذهب الآن إلى زيارة كوركوڤادو لكي أؤدي دور السائحة، ولكن، يمكن لك أن تتّصل بي على هذا الرقم. مع أطيب التمنيات. مايا داپلييز.

كنت راضيةً عن نجاحي في إيصال مشاعر الدفء والحفاظ في الوقت نفسه على مسافة ما في طبيعة العلاقة، فأنا أيضًا كنت كاتبة بشكلٍ ما. ذهبت إلى مكتب الخدمات والإرشاد في بهو الفندق لأستعلم عن وسيلة النقل التي تمكنني من زيارة المسيح المخلّص.

- سينيوريتا، يمكنني أن أقدّم لك خيار الرفاهية أو التجربة الحقيقية التي أفضّلها شخصيًا وأتبنّاها بقناعة تامة. قال لي عامل مكتب الإرشادات. استقلّي سيارة أجرة إلى كوسمي فيلو - أخبري السائق بأنك تريدين زيارة المسيح - ثمّ اركبي القطار حتى قمة جبل كوركوڤادو.

- شكرًا لك.

- بكل سرور.

بعد بضع دقائق، كنت أستقلّ سيارة أجرة في طريقي إلى كوسمي فيلو والمسيح. رنّ الهاتف في حقيبتي وأجبت لأكتشف أنّ المتصل كان فلوريانو كوينتيلاس.

- مرحبًا.

- سينيوريتا داپلييز؟

- نعم.

- أنا فلوريانو. أين أنتِ؟

- في سيارة أجرة لزيارة المسيح. أنا الآن بالقرب من محطة القطار.

- هل أستطيع الانضمام إليك؟

تردّدتُ ولاحظ ذلك.

- إن كنت تفضّلين الزيارة بمفردك، فأنا أتفهّم ذلك.

- لا بالطبع. سأكون سعيدة بأن يرافقني دليل محليّ.

- حسنًا، خذي القطار إلى الجبل، وسألتقيك عند الدرج الذي يؤدّي إلى القمة.

- اتفقنا. ولكن كيف ستعرفني؟ من المؤكّد أنّ المكان يغصّ بالزائرين.

- لن أخطئك سينيوريتا داپلييز. لقد رأيت صورتك الفوتوغرافية على الإنترنت. إلى اللقاء.

دفعت للسائق أجرته، وترجّلت من السيارة عند محطة قطار كوركوڤادو الصغيرة الواقعة أسفل الجبل، وأنا أحاول أن أتخيّل شكل فلوريانو، إذ لم أكن قد التقيته من قبل. كنت فقط أعشق أسلوبه في الكتابة.

بعد أن اشتريت بطاقتي، وجدت أن القطار يتألّف من مقصورتين فقط، وقد ذكّرني بقطارات سكك الحديد التي تتلوّى كالأفاعي في جبال الألب السويسرية. صعدتُ وجلستُ لأجد نفسي في قلب ضوضاء من اللغات المختلفة باستثناء البرتغالية. أخيرًا، أقلع القطار وعبر هضابًا مغطاةً بالغابات الكثيفة، وقد أدهشني وجود أدغالٍ كهذه بالقرب من مدينة كبيرة، فمن المستحيل أن يُسمح بمثل ذلك في جنيف.

ونحن نصعد، شعرت برأسي يندفع إلى خلف، وذُهلت من مقدرة الإنسان على صنع مركبةٍ تستطيع أن تحملني وتحمل بقية الركاب إلى قمة جبل بدا وكأنه

يرتفع عموديًا تقريبًا. أصبحت المشاهد أكثر سحرًا وجمالًا حتى وصلنا أخيرًا إلى محطة صغيرة، وخرج الجميع من القطار.

نظرت إلى أعلى، فرأيت كعبَيّ المسيح المخلّص على قاعدته الحجرية. وبالكاد تمكّنت من رؤية أعلى التمثال الذي كان ينتصب عاليًا جدًّا. رحت أراقب الركّاب وقد بدأوا يصعدون الدرج، متسائلةً ما إذا كان فلوريانو ينتظرني أعلى الدرج أو أسفله. ورغبةً في عدم إضاعة الوقت، بدأت أصعد، وأصعد. بعد أن صعدت مئات الدرجات، التقطت أنفاسي، منهكةً بهذا الجهد المبذول الذي ضاعفته حرارة الشمس.

- مرحبًا سينيوريتا داپلييز. كم أنا سعيد بلقائك أخيرًا والتعرّف إليك شخصيًّا.

ابتسمتْ لعينيّ عينان دافئتان عسليّتا اللون، ولاحظت فيهما لمحة استمتاعٍ بدهشتي الواضحة.

- أنت فلوريانو كوينتيلاس؟

- نعم، ألم تتعرّفي إليّ من صورتي الفوتوغرافية على غلاف الرواية التي ترجمتِها؟

غطّت نظرتي الخاطفة الوجه الجميل الذي لوّحته الشمس، والشفتين الممتلئتين اللتين تفترّان عن ابتسامة عريضة تكشف صفًّا من الأسنان شديدة البياض، حسنة النَّظم.

- بل تعرّفتُ إليك، لكن... أشرت إلى الدرجات تحتي. كيف، بحق الجحيم، تمكّنتَ من الوصول قبلي؟

- لأنني، يا سينيوريتا، كنت هنا عندما اتصلتُ بك. ابتسم فلوريانو.

- كيف؟ لماذا؟ سألته في حيرةٍ من أمري؟

- من الواضح أنك لم تقرأي بالتفصيل سيرتي الشخصية كمؤلّف. لو أنك فعلتِ، لعرفتِ أنني مؤرخ، وأن التأريخ مهنتي. ومن حينٍ إلى آخر، أستطيع أيضًا أن أكون مرشدًا سياحيًّا لشخص متميِّز يرغب في مشاركة معرفتي الفائقة بريو.

- أرى ذلك.

- في الحقيقة، إن كتابي حتى الآن، لا يدرّ ما يكفي من المال لتغطية نفقات العيش، لذا فهذه هي الطريقة التي توفّر لي دخلًا إضافيًا، واعترف بذلك. لكن إظهار معالم مدينتي الرائعة للزوار وتعريفهم إليها ليس عملًا شاقًا على الإطلاق. كنت هذا الصباح، أرافق مجموعة من الأثرياء الأميركيين الذين أرادوا أن يكونوا هنا قبل أن يكتظّ المكان بالجموع. يمكن لكِ أن تري الآن حجم هذا الحشد من الزوار.

- نعم.

- إذن، سينيوريتا دابليز، أنا تحت تصرّفك. انحنى فلوريانو بطريقة مسرحية ساخرة.

- شكرًا. قلتُ، وكنت لا أزال مضطربة بسبب ظهوره الفوري غير المتوقّع.

- هل أنتِ على استعداد لمعرفة تاريخ المعالم الأكثر شهرةً في البرازيل؟ أعدك، أنك لست في حاجة إلى مكافأتي بإكرامية في نهاية الزيارة. قال مازحًا، وهو يقودني عبر الحشد، ثم توقّفنا على الشرفة، قبالة التمثال.

- هذا المكان يتيح أفضل رؤية له. أليس مدهشًا؟

رفعت عينيّ ونظرت إلى وجه المسيح اللطيف، بينما راح فلوريانو يروي لي حيثيات بناء التمثال. كانت الصورة البصرية تطغى على ذهني، فلم ألتقط من تلك التفاصيل المتعلّقة بتشييده إلاّ القدر اليسير.

- المعجزة، هي عدم وقوع أي ضحية في أثناء البناء... ثمة حقيقة أخرى مثيرة للاهتمام، وهي أن مدير المشروع كان يهوديًا، لكنه، عندما انتهى من بناء تمثال المسيح، اعتنق المسيحية. وقد دوّن السنيور ليفي جميع أسماء أسرته وأمّن عليها في قلب المسيح قبل أن يختم عليها بالخرسانة.

- يا لها من قصة رائعة.

- ثمّة قصصٌ كثيرة مؤثّرة كهذه.

أشار لي بالاقتراب قبل أن يتابع:

- على سبيل المثال، يتكوّن الجزء الخارجي لتمثال المسيح من فُسيفساء تتألّف من قطع حجر الصابون الأملس، مثلثة الشكل. وقد صرفت النساء العاملات في الشركة أشهرًا عدّة في لصقها على شبكات منفصلة لصنع ألواح كبيرة، ما يعني أن الغطاء الخارجي كان مرنًا، وبالتالي لن يكون التمثال عرضة للتشقّق. أخبرتني سيدة عجوز كانت حاضرة أثناء العملية، أنّ نساءً عديدات كنّ يكتبن أسماء أحبائهن مع رسالة أو صلاة على ظهر قطع البلاط الصغيرة. وها هي الآن، مختومة إلى الأبد في قلب تمثال المسيح.

توقّف قلبي عن الخفقان ونظرت إليه بذهول.

- سينيوريتا مايا، هل أنتِ بخير؟ هل أزعجكِ شيءٌ قلتُه؟

- إنها قصّة طويلة جدًّا، تمكّنت أخيرًا من العثور على صوتي.

- حسنًا، يمكن لكِ أن تتخيّلي أنّ هذه القصص هي المفضّلة لديّ.

قال بابتسامة ماكرة، قبل أن يبحث في وجهي عن ابتسامة في المقابل. وهو يفعل ذلك، تغيّرت تعابير وجهه إلى نظرة قلقة.

لقد أصبحتِ شاحبة فجأة، يا سينيوريتا. لعلّها حرارة الشمس القوية. سنلتقط صورة - بالطبع عليك أن تقفي أمام المسيح وتقلّديه فاتحةً ذراعيك على اتساعهما - وبعد ذلك سننزل إلى المقهى ونطلب لك بعض الماء.

إذًا، على غرار مئات الآلاف من السائحين قبلي، كنت أتظاهر كما طلب مني فلوريانو، وشعرت بالغباء الشديد وأنا أقف هناك، ذراعاي مفتوحتان، أتصنّع ابتسامة على ملامحي.

بعد ذلك، قادني إلى مقهى ظليل أسفل الدرج، وأشار إليّ بالجلوس إلى إحدى الطاولات. عاد بعد فترة وجيزة وجلس قبالتي، ثم وضع أمامنا زجاجة ماء سكب منها كأسين.

- إذًا أخبريني... ما هي قصتك؟

- فلوريانو، إنها قصة معقّدة للغاية. تنهدتُ، غير قادرة على قول شيء آخر.

- أنا رجل غريب، وأنت غير مرتاحة لمشاركتها معي. أفهم ذلك، وهو يهز رأسه ببرودة أعصاب. لو كنت مكانكِ لشعرتُ بالمثل. هل يمكن لي أن أطرح عليك سؤالين؟

- طبعًا.

- أولًا، هل الغاية من وجودك هنا في ريو، هي قصتك هذه، المعقّدة للغاية؟

- نعم.

- وثانيًا، ما الذي قلتُه وجعلك تضطربين؟

فكّرت في سؤاله لبضع ثوانٍ بينما كنت أشرب الماء. كانت المشكلة هي أنني إذا أخبرته، سأضطر في النهاية إلى شرح كل شيء. ولمّا كان أحد الأشخاص القلائل الذين يمكن لهم أن يخبروني ما إذا كانت قطعة البلاط المثلّثة الملساء، التي تحمل الكتابة الباهتة على ظهرها، جزءًا من فسيفساء تمثال المسيح، فقد بدا أنه لم يكن لديّ خيارات كثيرة.

- لديّ شيء أودّ أن تراه. قلتُ أخيرًا.

- إذًا، أريني إياه. قال مشجّعًا.

- في الواقع، إنه موجود في خزنتي بالفندق.

- هل هو ثمين؟ قال فلوريانو رافعًا حاجبيه.

- لا، ليس له قيمة مالية على أي حال. لكنه ثمين بالنسبة إليّ.

- حسنًا، أنا هنا منذ ثلاث ساعات طويلة، لذا أقترح أن أقلّك إلى فندقك لتريني، إياه.

- حقًّا، يا فلوريانو، لا أريد أن أسبّب لك أي متاعب.

- سينيوريتا مايا. قال وهو ينهض. أنا أيضًا يجب أن أنزل من الجبل. يمكن لك أن تأتي معي، هيا بنا.

- حسنًا، شكرًا لك.

ما أثار دهشتي، أنه لم يتوجّه إلى القطار، بل إلى حافلةٍ صغيرةٍ متوقفةٍ بالقرب من المقهى. صعد، حيّا السائق وربّت ظهره. كان عدد من الركاب قد سبقونا إليها. وفي غضون دقائق، استقر الجميع في مقاعدهم، وأقلعت الحافلة على طريق متعرِّج تحدّه غابة كثيفة. بعد بضع دقائق، وصلنا إلى موقف للسيارات. وقادني فلوريانو إلى سيّارة فيات حمراء صغيرة، وفتح بابها.

قال: في بعض الأحيان، لا يرغب زبائني في ركوب القطار ورؤية المناظر الخلابة، لذلك أحضرهم إلى هنا. إذًا، سينيوريتا مايا، إلى أين نحن ذاهبان؟ سألني.

- إلى فندق سيزر بارك في إيبانيما.

- ممتاز، لأن مطعمي المفضّل يقع على مقربة منك، ومعدتي تقول إنه وقت الغداء. قال بينما كنا نسير بسرعة إلى القسم التالي من طريق الغابة شديد الانحدار.

- يجب أن أعترف، أنا مفتون بمعرفة ما تريدين أن تريه لي. قال ونحن نخرج من كوركوڤادو لننضمّ إلى السيل الذي لا يتوقف لحركة المرور الذي يعبر كوسمي فيلو إلى وسط المدينة.

- قد لا يكون شيئًا ذا أهمية. قلتُ.

- إذًا، لن تخسري شيئًا إذا أريتني إياه. أجاب بنزاهة.

في السيارة، نظرت خلسةً إلى صديقي الجديد. لطالما كنت أجدها لحظة غريبة عندما ألتقي شخصًا بشحمه ولحمه، ولم يكن بيني وبينه من قبل، سوى تبادل للرسائل وحسب.

في الواقع، كان فلوريانو يشبه تمامًا الصورة التي رسمتها في مخيّلتي من خلال رواياته ورسائل البريد الإلكتروني.

كان ذا وسامة فوق عادية، وذا جاذبية تفوق إلى حدٍّ كبيرٍ صورته الفوتوغرافية على أغلفة رواياته، بسبب سحره وطاقته الطبيعيّين. كل ما فيه - من شعره الأسود الكثيف، وبشرته السمراء، إلى جسده القوي، وعضلاته المفتولة - يشي بأصوله الجنوب - أميركية.

لكنْ من المفارقة، أنه لم يكن من النوع الذي يستهويني. لطالما وجدت نفسي منجذبةً إلى القطب المعاكس؛ الذكور الغربيين، بألوانهم الفاتحة وبشرتهم الشاحبة. لعلّني كنت، أنا السمراء، أبحث عن نقيضي، عن شخصٍ لا يشبهني.

أوقف السيارة أمام الفندق.

- اصعدي إلى غرفتك واجلبي ذلك الشيء، سأنتظرك هنا.

في جناحي، سرّحتُ شعري وأضفت القليل من أحمر الشفاه، ثم سحبت البلاطة المثلثة من خزنتي ودسستها في حقيبتي.

- والآن هيا بنا إلى الغداء. قال فلوريانو.

لم أكد أصعد إلى السيارة حتى انطلق بأقصى سرعة. المطعم قريب، ولكنْ، قد يستغرق الأمر بعض الوقت حتى أجد مكانًا لأركن سيارتي.

بعد بضع دقائق، أشار إلى منزلٍ أبيض على الطراز الكولونيالي يحتوي على شرفة جميلة صُفّت عليها الطاولات.

- هذا هو المكان، اخرجي واحجزي لنا طاولةً. سأنضم إليك بأسرع ما أمكن.

فعلت ما طلبه مني، وقادتني نادلة إلى مكان ظليل. جلست أراقب الناس قبل أن أقرر الاستماع إلى رسائلي على هاتفي المحمول. راحت دقات قلبي تتسارع من جديد عندما سمعت صوت زِد يقول إنه اتصل بأتلانتيس وقالت له مدبّرة المنزل إنني في الخارج. أضاف أنه يشعر بالأسف لأنه لم يجدني، ولن يتمكّن من رؤيتي لأنه سيغادر إلى زيورخ غدًا.

ما يعني أنه أصبح من الممكن الآن العودة إلى المنزل بأمان...

- يا إلهي! ما أكاد أتركك بمفردك بضع دقائق، حتى أجدك ممتقعةً شاحبة اللون. صاح فلوريانو، وهو يجلس قبالتي إلى الطاولة، ويرمقني بنظرةٍ متسائلة. والآن، ما الأمر؟

مرة أخرى، أدهشتني قدرته على ملاحظة توتُّري، وأدركت أنه سيكون من الصعب إخفاء أي شيء عن هذا الرجل، الذي بدا أنه يمتلك حدسًا طبيعيًا بدقة شعاع الليزر.

- لا شيء حقًّا. قلتُ وأنا أعيد هاتفي إلى حقيبة يدي. في الواقع أشعر براحة شديدة.

- حسنًا إذًا. أرغب في احتساء زجاجة بيرة من ماركة بوهيميا. هل تريدين مجاراتي؟

- لستُ من محبّي البيرة.

- لكنْ يا مايا، أنت في ريو! يجب أن تشربي البيرة، أو كوكتيل كايپيرينيا، الذي أؤكد لك أنه أقوى كثيرًا.

وافقت على البيرة، وعندما وصلت النادلة، طلبنا شريحة اللحم التي نصح بها فلوريانو.

- مصدر لحم البقر من الأرجنتين، وعلى الرغم من أنّنا نكره الأرجنتينيين لأنهم هزمونا كثيرًا في كرة القدم، لكننا نحب أن نأكل أبقارهم. أمّا الآن، فلا أعتقد أني أطيق الانتظار أكثر من ذلك حتى تريني ذلك الشيء الثمين الذي حدّثتِني عنه.

- نعم. أخرجتُ قطعة البلاط من حقيبتي ووضعتُها بحذرٍ على المنضدة الخشنة بيننا.

- هل أستطيع؟ سألني وهو يمدّ يده إليها.

- طبعًا.

راقبته وهو يلتقطها بعناية ويتفحّصها.

ثم قلبها ونظر إلى الكلمات الباهتة على ظهرها.

رأيته يحبس أنفاسه وقد بدت عليه علامات الدهشة.

- الآن فقط، أستطيع أن أفهم ما الذي صدمك.

وقبل أن أسأله تابع قائلًا: يبدو لي أن هذا الشيء كان من المُفترَض أن يزيّن جسد المسيح. يا لها من مفاجأة!

لوهلةٍ، بدا محتارًا أمام قطعة البلاط فظلّ صامتًا. أخيرًا قال:

- هل يمكن لك أن تخبريني كيف وصلَتْ إليكِ؟

بعد أن وصلت البيرة متبوعةً بشطائر اللحم، رويت لفلوريانو القصة كاملةً. كان يستمع بصبر، ولا يقاطع إلا بين الحين والآخر إذا احتاج إلى تفسير. في الوقت الذي انتهيت فيه من الحديث، كان طبق فلوريانو فارغًا بينما بالكاد مسست طبقي.

- دعينا نتبادل الأدوار. ستأكلين بينما أتحدث. أشار إلى طبقي، وفعلت كما طلب مني.

- يمكنني بالتأكيد أن أساعدك في نقطة واحدة، وهي اسم العائلة التي تعيش في كازا داس أوركيدياس. تعدُّ آيريس كابرال، من أشهر عائلات ريو، وهي أرستقراطية في الحقيقة، فهي تنحدر من الأُسرة الملكية البرتغالية السابقة، وقد أدّت دورًا أساسيًّا في المائتي عام الأخيرة من تاريخ ريو.

- لكنني لا أملك أي دليل يثبت للمرأة العجوز أن لي علاقة بأسرتها.

- حسنًا، لا يمكن لنا التأكّد بعد. أو، في الواقع، لا يمكن لنا أن نتأكد قبل أن ننتهي من التحقيق المناسب. أولًا، من السهل جدًّا، بالنسبة إليّ، تتبُّع تاريخهم من خلال شهادات الميلاد والزواج والوفاة. في حالتنا هذه، ومع عائلة كاثوليكية بهذه الأهمية، أنا متأكد من أن سجلات أفرادها محفوظة بدقة. بعد ذلك، علينا أن نحاول فك رموز الأسماء الموجودة على قطعة البلاط، ومعرفة ما إذا كانت تتطابق مع أي من أسماء عائلة آيريس كابرال.

شعرت بالدوار بسبب فارق التوقيت، والبيرة، واستيقاظي في ساعة مبكرة.

سألته: هل يستحق الأمر ذلك كلّه؟ حتى لو تطابقت الأسماء، أشكّ في أن المرأة العجوز ستعترف بأي شيء.

- خطوة بخطوة، يا مايا. ورجاءً حاولي ألّا تكوني انهزامية إلى هذا الحد. لقد جئتِ إلى ريو لمعرفة قصتك، ولا يمكن لك الاستسلام بعد مرور يوم واحد. بعد أن تعودي إلى فندقك، وبينما تأخذين قيلولة، سأقوم بدور المحقّق. موافقة؟

- صدّقني يا فلوريانو، لا أريد أن أسبّب لك أي متاعب.

متاعب؟ بالنسبة إلى مؤرِّخٍ مثلي، إنها هدية! لكنني أحذِّرك، قد تنتهي بعض أجزاء هذه القصة في كتابي التالي. قال مبتسمًا. والآن، هل أستطيع أن أبقيها بحوزتي؟ وأشار إلى قطعة البلاط.

- يمكن لي أن أذهب إلى المتحف الجمهوري، ولربما أجد أحد الزملاء في المختبر. لديهم معدات تصوير بالأشعة فوق البنفسجية، قادرة على صنع المعجزات. يمكن لهم بالتأكيد مساعدتي في فك الرموز المنقوشة على ظهر البلاطة.

- بالطبع. وافقت، معتقدةً أنه سيكون من الوقاحة الرفض.

فجأةً، لاحظت شابّتين صغيرتين في العشرينات من العمر، تحومان بخجلٍ حول فلوريانو.

- أرجو المعذرة، هل أنت سينيور فلوريانو كوينتيلاس؟ سألت إحداهما وهي تقترب من الطاولة.

- نعم.

- أردنا فقط أن نقول كم أحببنا كتابك. وهل يمكننا أن نطلب توقيعك من فضلك؟ عرضت الفتاة على فلوريانو دفتر يوميات صغيرًا وقلمًا.

- بالتأكيد. ابتسم وهو يوقع على دفتر اليوميات، ثم تحدث بسهولة مع الفتاتين. ثم غادرتا أخيرًا، خجلتين لشدة سرورهما.

- أنت شخصية مشهورة؟ قلت بشيء من السخرية ونحن نغادر الطاولة.

قال مازحًا: في ريو، نعم. كان كتابي من أكثر الكتب مبيعًا هنا، لأنني دفعت للناس لقراءته. لقد اشترته دول أخرى كثيرة لترجمته ونشره العام القادم. لذلك سننتظر لنرى ما إذا كان بمقدوري التخلي عن وظيفتي كدليل سياحي والكتابة بدوامٍ كامل.

- حسنًا، أعتقد أنه كتاب جميل ومؤثّر، ومن المؤكد أنه سيحقّق إيراداتٍ جيدة.

- قال وهو يشير باتجاه الفندق: شكرًا يا مايا. لقد اقتربنا. أودّ الذهاب إلى المتحف قبل إغلاق الأقسام التي أحتاج إليها. هل ألتقيك في بهو الفندق حوالى الساعة السابعة مساءً؟ قد يكون لدي بعض الإجابات بحلول ذلك الوقت.

- نعم، إذا كان لديك الوقت.

- سأفعل. إلى اللقاء.

بعد أن ودّعني شاهدته يهبط الشارع بخطى واثقة. عندما استدرت في الاتّجاه المعاكس، أدركت أن هذا الرجل - المؤرّخ والكاتب المشهور والدليل السياحي - كان زاخرًا بالمفاجآت.

11

«إذًا...»

بعد انقضاء بضع ساعات عدت والتقيت فلوريانو. كنا في المصعد نتّجه إلى شرفة البار على سطح الفندق عندما قال لي بحماسةٍ شديدة.

- عندي لك خبر سار، لذلك سأستغل المناسبة لأجعلك تتذوّقين أول كأس كايپيرينيا.

- ممتاز، أجبته ونحن نختار طاولة في مقدمة الشرفة. عندما اتّخذ كلٌّ منّا مكانه، رحت أتأمّل الشمس وهي تتوارى تدريجًا وراء جبال توين برذرز تاركة مكانها للظلام.

- خذي هذه. قال فلوريانو وهو يسحب ورقة من محفظته البلاستيكية.

- ألقي نظرةً عليها. إنها قائمة بكل ولادة وزواج وموت مذكورة في سجل عائلة آيريس كابرال منذ عام 1850.

ألقيت نظرة سريعة على قائمة الأسماء ولا أزال عاجزة عن تصديق وجود أي صلة تربطني بتلك العائلة.

- حسنًا، نرى أن غوستافو آيريس كابرال تزوج من إيزابيلا بونيفاسيو في كانون الثاني 1929، ورُزقا بطفلة سمّياها بياتريس لويزا في نيسان 1930. وفي غياب شهادة وفاة باسمها، يمكن لنا أن نفترض أن تكون العجوز التي قابلتها أمس في ذلك المنزل هي بياتريس لويزا نفسها.

- وهل لديها أولاد؟ قاطعته مستفسرة.

- نعم، فقد تزوجت بإيفاندرو كارفالو عام 1951، وأنجبا طفلة عام 1956 سمّياها كريستينا إيزابيلا.

- كارفالو هي كنية تلك السيدة العجوز، لقد سمعت خادمتها تناديها بها. وماذا عن كريستينا، ماذا حلّ بها؟

- يبدو أن نسل العائلة يتوقّف عندها، وفق سجل الأحوال الشخصية في ريو. لم أعثر على أي وثيقة تثبت إنجاب كريستينا أطفالًا، لأننا لا نعرف كنية الأب، أو بالأحرى لا نعرف إذا كانت متزوّجة في الواقع. للأسف، كان دوام العمل قد انتهى والمكتب على وشك الإغلاق، لذلك لم يتسنَّ لي أن أتحقّق من كل تلك المعلومات.

- إذًا، لو أنّ هناك صلة قرابة تربطني حقًّا بتلك العائلة - وأشدّد على كلمة لو - فهذا يرجّح أن تكون كريستينا هي أمي.

قلت لفلوريانو وأنا أستعد لاحتساء الشراب. في صحتك. رفعت كأسي لأشرب نخبه، ثم احتسيت جرعة كبيرة من الكوكتيل، فاكتشفت أخيرًا أنه ليس سوى سائل شديد المرارة، كاد بانزلاقه في حلقي أن يخنقني.

ضحك فلوريانو بعد أن رآني منزعجة فقال لي:

- آسف حقًّا، كان عليّ أن أحذّرك من مذاقه القوي.

ثم احتسى بدوره الكايبيرينيا وكأنه يروي عطشه بماء، وتابع قائلًا:

- حتى أنني طلبت من صديقي الذي يعمل في المتحف الوطني بينما كنت مارًّا من هناك، أن ينظر إلى البلاطة عبر آلة تعمل بالأشعة فوق البنفسجية. فلم يستطع التأكد سوى من الاسم الأول المنقوش على ظهرها، وتبيّن أنه لإيزابيلا، المرشّحة لأن تكون جدّتك الكبرى وفق الوثائق التي عثرت عليها.

- وماذا عن الاسم الآخر؟

- ذاك كان أكثر انمحاءً، لذلك أجرى عليه مزيدًا من الاختبارات ونجح لغاية الآن في استنباط أول ثلاثة حروف فقط.

- وهل تتطابق مع الحروف الثلاثة الأولى من اسم ذلك الرجل الذي نعتقد أنه جدي الأكبر، غوستافو آيريس كابرال؟ سألته مستوضحة.

- لا، ليست متطابقة. انظري لقد كتبها لك هنا.

وأعطاني فلوريانو ورقة أخرى أخرجها من محفظته البلاستيكية.

أمعنت النظر فيها ورحت أهجّئ: ل و...؟ ومن ثمّ نظرت إليه شزرًا، فقال لي:

- لنعطِ ستيفانو أربعًا وعشرين ساعة إضافية كي يستنبط بقية الحروف. أنا واثق من أنه سينجح لأنه بارع في مهنته، صدقيني. هل تُثنّين؟ سألني وهو يشير إلى كأس الكايپيرينيا.

- لا، شكرًا. أعتقد أنني سأطلب كأسًا من النبيذ الأبيض بدلًا من هذه.

وبعد أن طلب فلوريانو مشروبًا آخر لكلينا، راح يحدّق إليّ.

سألته:

- ماذا هناك؟

- هناك أمر آخر أريدك أن تعرفيه يا مايا، وإذا لم تعتبريه دليلًا قاطعًا على صلة قرابتك بعائلة آيريس كابرال، أتساءل ما يمكن أن يكون ذلك الدليل. هل أنت جاهزة؟

سألته بعد أن أشعرني ببعض القلق:

- ليس أمرًا مخيفًا، أم أنه كذلك؟

- كلا، على العكس. أعتقد أنه في غاية الروعة. انظري إلى هذه الورقة التي وصلتني مؤخرًا. وهذه المرة، سحب ورقة كاملة عليها صورة غير واضحة لوجه امرأة.

- من تكون؟

- إيزابيلا آيريس كابرال، المرأة التي حُفِر اسمها الأول على البلاطة التي في حوزتك، والتي نعتقد أنها جدتك الكبرى. انظري يا مايا إلى الشبه بينكما؟

رحت أحدّق إلى ملامح المرأة التي تظهر أمامي على الورقة، وبالفعل وجدت انعكاسًا لوجهي في تلك الصورة. فقلت له وأنا أقلّل من أهمية ذلك الدليل:

- أجل، ربما.

- الشبه غير طبيعي، يا مايا. ويمكن لي أن أؤكد لك أنها ليست الصورة الوحيدة. هناك أرشيف كامل من الصحف القديمة يتضمّن صورًا لها، وقد نجحت في الوصول

إليه بفضل شريحة صور من المكتبة الوطنية. فإيزابيلا كانت واحدة من أجمل نساء البرازيل، وقد تزوجت بغوستافو آيريس كابرال في كاتدرائية ريو في يناير 1929. وبالنسبة إلى تلك الحقبة، فإن حفل زفافهما يُعدّ زواج العام.

- لا يمكن لنا الإنكار أنها قد تكون مصادفة. قلت له وأنا أشعر بالإحراج من تلميحات فلوريانو ومقارنة ملامحي بمعايير جمال تلك الحقبة.

- ولكن...

- ماذا؟ قال وهو توّاق لسماع ما أفكّر فيه.

- عندما كنت في ذلك المنزل كازا داس أوركيدياس، لفتت نظري منحوتة قابعة في إحدى زوايا الشرفة، وعلقت في ذهني لأنها لم تكن من النوع الذي يُترك في الحدائق. كانت منحوتةً لامرأةٍ تجلس على كرسي. وبالنظر إلى تلك الصورة أنا واثقة من أن امرأة المنحوتة هي المرأة نفسها التي تظهر في الصورة. أجل بالطبع، لأنها في ذلك الحين بدت لي مألوفة.

- لكونها تشبهك. أجابني بينما كانت النادلة تمسك بالكأسين الموضوعتين على صينيتها لتضعهما أمامنا على الطاولة. ثم قال:

- حسنًا، أشعر وكأننا أحرزنا بعض التقدم.

- وأنا ممتنّة لك يا فلوريانو، على الرغم من أنني واثقة من أن المرأة العجوز التي التقيت بها أمس لا ترغب في إخباري بأي شيء، ولن تعترف بي أبدًا. في الواقع، لمَ ستقوم بذلك؟ لو كنتَ مكانها ألن تتصرّف بالمثل؟ سألته بغتة.

- لا أنكر أنه لو جاءني يومًا مجهول يدّعي أنه قيل له إنه فرد من عائلتي، سأشك في نواياه وإن لاحظت شبهًا كبيرًا بينه وبين والدتي. أجاب فلوريانو بعد تفكير.

- حسنًا والآن كيف أتصرّف؟

فأجابني بثقةٍ مطلقة: تعودين لرؤيتها، وهذه المرة أريد مرافقتك، لعلّها إذا سمعت باسمي ستهتمّ بكِ.

لم أستطع التحكّم في ردّ فعلي على ثقة فلوريانو الكبيرة بنفسه لاعتقاده أنّ المرأة العجوز كانت ستعرف بلا شك من يكون. ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجهي، ورحت أفكر في سكان أميركا الجنوبية، كيف يتباهون على الملأ بمواهبهم وإنجازاتهم من دون أن يخجلوا.

ثمّ تابع قائلًا: وأريد أن أرى التمثال الذي ذكرتِه يا مايا، فهل تمانعين؟

- بتاتًا، أنا ممتنّة لك على كل المساعدة التي قدّمتها لي حتى الآن.

- ثقي بأنه من دواعي سروري، ففي النهاية أنت نسخة طبق الأصل من إحدى أجمل النساء في البرازيل.

احمرّت وجنتاي خجلًا بعد أن أحرجني بإطرائه. وسرعان ما تحوّلت أفكاري الساخرة تساؤلات. فهل كان يتوقع منّي معروفًا مقابل تلك المساعدة. كنت أعرف أن العلاقات الجنسية العابرة كانت شائعة في هذه الأيام، لكنها لم تكن خيارًا قابلًا للتصوّر بالنسبة إليّ.

- لحظة من فضلك. قال وهو يتلقّى مكالمة على هاتفه المحمول، من ثمّ اختصر حديثه بالبرتغالية مع المتصل الذي كان يناديه بـ«كيريدا» *querida* (عزيزتي)، قائلًا:

- لا مشكلة، سأكون عندك في غضون خمس عشرة دقيقة.

ومن ثمّ نظر إليّ وهو يتنهّد ويفرغ الشراب الذي بقي في كأسه.

للأسف، عليّ المغادرة. هذه پترا الشابة التي تسكن في شقتي، أضاعت مفاتيحها مجددًا. ومن ثمّ بحث بعينيه عن النادلة ليطلب الحساب.

- من فضلك. قلت له وأنا مصرّة على دعوته.

- هذه المرّة أنا من يدعوك، أريد أن أشكرك على كل ما تقوم به من أجلي.

- إذًا، شكرًا لكِ. أجابني وهو يومئ برأسه.

- في أي ساعة تفضّلين أن أمرّ لاصطحابك في الغد؟

- في الساعة التي تناسبك. ليس لديّ التزامات.

- اقترح الساعة العاشرة والنصف صباحًا كي نصل قبل أن يحين موعد غداء سينيورا بياتريس كارفالو وقيلولة بعد الظهر. ومن ثمّ قال لي وهو ينهض عن كرسيه:

- لا داعي لمرافقتي. ابقي لتنهي نبيذك. سأراكِ في الغد، إلى اللقاء.

غادر فلوريانو وهو يومئ برأسه إلى النادلة التي كانت تنظر إليه نظرة تقدير. أما أنا فبقيت لأنهي كأسي وأنا أفكّر: كم كنت تافهة عندما اعتقدت للحظة أنه يرغب في معاشرتي.

لا بدّ من أن تكون لديه حياة خاصّة مثل الجميع. ومن ثمّ رحت أفكّر في نفسي وأنا أضع كأس النبيذ على شفتي: لعلّني أوشكت أن أعثر على ما يخصّني.

12

في صباح اليوم التالي، دخل فلوريانو بهو الفندق في الموعد الذي حدّده لننطلق بسيارته الفيات الحمراء بسرعة. وفي كل مرة شعرت بسيارته تتمايل لاختراق الازدحام المروري، كنت أحبس أنفاسي إلى أن أدرك أننا نجونا بأعجوبة من اصطدام.

لأصرف انتباهي عن قيادته الجريئة رحت أسأله:

- من أين أنت؟ هل أنت برازيلي في الأصل؟

- برأيك كيف يكون البرازيلي في الأصل؟ ليس هناك ما يُدعى برازيلي في الأصل، لأن العرق البرازيلي تكوّن من سلالات مختلطة وجنسيات مختلفة ومذاهب شتّى، حتّى لون بشرتنا ناتج عن تزاوج ألوان مختلفة. البرازيليون الحقيقيون الوحيدون هم السكان الأصليون الذين قُتلوا قبل خمسمائة عام على يد البرتغاليين الذين أتوا إلى هذه الأرض ليطالبوا بحقهم في ثروات بلادنا. ومن لم يمت حينها قتلًا على أيديهم، مات من الأمراض التي أتوا بها معهم.

أضاف:

- لو أردت أن أختصر لك تاريخ عائلتي الطويل، أستطيع القول إن والدتي تنحدر من البرتغاليين وأبي من أصول إيطالية. لذلك ثقي بأنه لا يوجد شيء هنا في البرازيل يُدعى سُلالة دم نقية.

شعرت وكأنني كنت أتعرّف بسرعة إلى خصائص هذا البلد الذي قد يكون وطني الأم. فسألت:

- وماذا عن عائلة آيريس كابرال؟

- حسنًا، أكثر ما يثير الاهتمام هنا هو أنهم برتغاليون في الأصل، إلى أن ظهرت إيزابيلا بونيفاسيو التي نرجّح أنها جدتك الكبرى. فوالدها من أصل إيطالي، وكان فاحش الثراء، جمع ثروته مثل كُثُر في وقتها، من زراعة البن. وإذا دقّقنا أكثر في التاريخ، سنجد أن عائلة آيريس كابرال كانت تمر بأوقاتٍ عصيبة مثل غيرها من العائلات الأرستقراطية التي تكاسلت في تطوير أعمالها. وبالنظر إلى أن إيزابيلا كان رائعة الجمال ومن عائلة فاحشة الثراء، ليس مستبعدًا إن يكون زواجهما قد أتى على شكل صفقة لصالح الطرفين.

عندئذ سألته:

- وهل أظلمك إذا اعتبرت استنتاجاتك مجرّد فرضيّات بدلًا من وقائع؟

- لا، بل هي فرضيّات بحتة. اعرفي أنه بمعزل عن التواريخ وتلك الرسالة الغريبة ودفتر المذكرات، هذا هو حال أي تحقيق يبدأ في مسألة مرّ عليها الزمن. أضاف فلوريانو:

- لا تستطيعين الوثوق بأي معلومة تحصلين عليها في غياب أي فرد يفترض أن يثبت لك صحة هذه المعلومة أو عدم صحتها. فمن يريد أن يصبح مؤرّخًا، يجب عليه أن يتعلم كيف يركّب أجزاء الأحجية التي يعمل على كشفها حتى تكتمل الصورة النهائية أمامه.

- أجل، لعلّك محق. قلت بالرغم من أنني كنت أحاول جاهدة أن أفهم قصده.

- لكننا حاليًّا قادرون على توثيق كل المعلومات بفضل الإنترنت، ما سيغيّر في المستقبل، أساليب البحث في التاريخ. فهذه الحقبة الجديدة التي ندخلها ستكون خاليةً تقريبًا من الألغاز التي قد نرغب يومًا في كشفها. لذلك أجد نفسي اليوم شاكرًا اللّه على عملي روائيًّا، لأن سيد ويكيبيديا وأمثاله تعدّوا للأسف على مهنة المؤرخ. وذات يوم، عندما أتقدّم في السن وأفكر في كتابة مذكراتي، لن يكون لها أي قيمة، لأن سيرتي الذاتية ستكون متوفرة للجميع على الإنترنت.

كنت ما أزال غارقة في التفكير عندما حرّك فلوريانو مقوده باتجاه ذلك المنزل كازا داس أوركيدياس، من دون أن يطلب مني أن أدلّه على الطريق.

ذهلت عندما وجدته يركن السيارة أمام المنزل الذي نقصده فسألته:

- كيف عرفت أننا وصلنا؟

- عزيزتي مايا، أولئك الذين نرجّح أن يكونوا عائلتك التي فقدتها منذ زمن بعيد، هم أشخاص مرموقون في ريو. وأي مؤرخ يعيش في البرازيل سيعرف هذا المنزل. فهو واحد من مخلفات الزمن الماضي التي نجحت في الصمود. هل أنت جاهزة؟ سألني وهو يطفئ المحرك ويلتفت إليّ.

- نعم.

تركت فلوريانو يمشي في المقدمة إلى أن اقتربنا من المدخل وصعدنا السلالم.

قلت له: «الجرس لا يعمل».

فقال: «إذًا نطرق الباب».

وراح يطرق الباب بقوّةٍ وصخبٍ وكأنه يوقظ الموتى. عندما لم يُستجب لنا خلال الثلاثين ثانية الأولى، عاود فلوريانو الطرق مرة أخرى بقوةٍ أكبر، نقلت إلى مسامعنا وقع أقدام سريعًا علا تدريجًا منبئًا باقترابه من خلف الباب. وإذا بالترباس يُسحب والقفل يدور. وعندما فُتح الباب، أطلت من خلفه الخادمة الأفريقية ذات الشعر الرمادي التي قابلتها في زيارتي الماضية لتقف في وجهنا عند العتبة. وما أن تعرّفت إليّ حتى تغيّرت ملامحها من الخوف.

- عذرًا على الإزعاج يا سينيورا، اسمي فلوريانو كوينتيلاس، وأنا صديق سينيوريتا دايليز. ثقي بأننا لا نرغب في إزعاج سيدتك أو تعكير مزاجها. لكننا نملك معلومات نعتقد أنها ستهمها. فأنا مؤرّخ محترم فضلًا عن كوني روائيًا».

- أعرف من تكون يا سينيور كوينتيلاس. أجابته الخادمة وهي لا تزال تحدّق إليّ.

- سينيورا كارفالو تتناول قهوتها في غرفة الصباح، وقد سبق لي أن أبلغت صديقتك بأنها امرأة مريضة.

أثارت لهجتها الجدية في الكلام رغبتي في الضحك، إذ شعرت وكأننا في ميلودراما رديئة النوع من العصر الفيكتوري.

- لمَ لا نرافقك إلى الداخل ونشرح لها الأمر بأنفسنا؟ اقترح عليها فلوريانو، وأضاف:

- وفي حال لم تكن في مزاجٍ لمحادثتنا، أعدك أننا سنرحل على الفور.

كانت قدم فلوريانو قد تخطّت العتبة ما دفع الخادمة المرتبكة إلى التراجع بضع خطوات. وما إن أصبحنا في الداخل، حتى رافقتنا إلى القاعة الكبيرة المزيّنة بالبلاط، ومنها انشق سلّم مقوّس عريض ليربطها بالطابق العلوي.

في وسط القاعة رأيت طاولة فاخرة من خشب الماهوغوني الأنيق، وساعة ذات صندوق طويل كانت مسندة إلى أحد الجُدُر. وانتبهت إلى الممر الضيّق الذي يبدأ عند أسفل السلم ليمتد على طول القاعة فيؤدي بشكل واضح إلى جهة المنزل الخلفية.

- من فضلك دلّينا على الطريق. قال فلوريانو للخادمة متبنّيًا لهجتها الجدية. فتردّدت قليلًا وكأنها درست الموضوع في نفسها، ثم أومأت إلينا ومشت سالكةً الممر الضيّق، فتبعناها أنا وفلوريانو إلى أن بلغنا الباب في نهاية الممر المظلم. هناك التفتت إلينا وأصرت على الدخول وحدها أولًا لاستئذان سيّدتها.

- انتظراني هنا.

طرقت باب الغرفة ودخلت مغلقة الباب في وجهنا. فالتفتُّ إلى فلوريانو وقلت له:

- السيدة العجوز مريضة، فهل من الصواب أن نضايقها؟

- لا، ليس من الصواب يا مايا. وهل من العدل أن ترفض هي الإفصاح عن نسبك الحقيقي؟ هذه المرأة التي في الداخل قد تكون فعلًا جدتك، وبالتالي فإن ابنتها هي أمك. فهل تكترثين فعلًا لو قطعت عليها روتينها الصباحي لبضع دقائق؟

وإذا بالخادمة تخرج من الغرفة لتقول لنا:

- ستقابلكم لخمس دقائق فقط، ليس أكثر.

ومرة أخرى شعرت بنظراتها تثقبني ونحن ندخل تلك الغرفة المظلمة التي فاحت منها رائحة العفن والرطوبة.

كان الديكور لا يزال على حاله منذ عقود. وبعد أن تعوّد نظري الظلمة، انتبهت إلى السجادة الشرقية الرثّة تحت أقدامنا وإلى الستائر الحريرية الباهتة التي غطّت النوافذ. لكن كل تلك الرثاثة عُوّضت بأثاثٍ أثريٍّ أنيقٍ من خشب الورد والجوز، وبثريا عملاقة تدلّت فوق رؤوسنا.

رأيت سينيورا كارفالو تجلس على كرسيٍّ مخمليٍّ عالي الظهر، وتغطي ركبتيها ببطانية من الصوف. ولمحت على الطاولة الموضوعة إلى جانبها عقاقير الأدوية وإبريقًا من الماء.

- لقد عدتِ من جديد. قالت لي.

لكنّ فلوريانو قاطعها قائلًا:

- من فضلك سينيورا كارفالو، سامحي سينيوريتا داپلييز على مضايقتك مرة أخرى، لكن يمكن لك أن تتصوري كم أن مسألة عثورها على عائلتها الحقيقية جادة بالنسبة إليها. ولن تصرف النظر عنها إلا بعد أن تعرف الحقيقة.

تنهّدت العجوز قائلة:

- سينيور كوينتيلاس، أمس أخبرت صديقتك بأنني غير قادرة على مساعدتها.

- هل أنت واثقة يا سينيورا كارفالو؟ حدّقي إلى الصورة المعلّقة فوق المدفأة لتدركي أن سينيوريتا مايا لم تأتِ إلى هنا بدوافع خفية. ثقي بأنها لا تسعى وراء المال، إنما ترغب فقط بتتبُّع أثر أسرتها. فهل ترين خطأً في تصرفاتها؟ هل يجوز أن نلومها على ما تقوم به؟

نظرت إلى حيث أشار فلوريانو فرأيت لوحة زيتية للسيدة التي أصبحت أعرف أنها إيزابيلا آيريس كابرال. وهذه المرة لم يعترني أي شك، حتى أنني رأيت نفسي في تلك الصورة.

- إيزابيلا آيريس كابرال هي والدتك. وأنت أنجبت ابنة سمّيتها كريستينا، عام 1956. فبقيت المرأة العجوز جالسة في صمت، لا بل زمّت شفتيها أكثر فأكثر.

- يبدو لي أنك لمْ تستعدّي بعدُ لتقبُّل فكرة أنه قد يكون لديك حفيدة؟ اعلمي يا سينيورا، أن صديقي الذي يعمل في المتحف الوطني يقوم في هذه اللحظة بجمع الأدلّة التي تثبت حقّ سينيوريتا داپلييز بالميراث. لذلك سنعود قريبًا لزيارتك.

بقيت السيدة العجوز على صمتها رافضة النظر إلى فلوريانو. وفجأةً، بدأت تتأوّه من الألم وقد شعرتُ بصدقها من عينيها.

- من فضلكم، أريد البقاء وحدي.

- كفاك يا فلوريانو. همست في أذنه:

- السيدة مريضة وما تقوم به ليس عدلًا.

رضخ فلوريانو على الفور وأومأ لها بازدراء:

- وداعًا سينيورا كارفالو، أتمنى لك يومًا سعيدًا.

قلت لها:

- نأسف على الإزعاج يا سينيورا كارفالو. لن نزعجك مرة أخرى، هذا وعد.

خرج فلوريانو من الغرفة وهو واثق من تصرّفه، في حين شعرت أنا بالحرج وبرغبةٍ في البكاء.

عدنا والتقينا بالخادمة في القاعة الكبرى، كانت تحوم حول نفسها ونحن نمشي باتّجاهها.

- شكرًا لأنك سمحت لنا بالدخول يا سينيورا. قال فلوريانو ما إن بلغنا القاعة ورحنا نمشي خلفها إلى الباب.

همس فلوريانو في أذني:

- اشغليها بالحديث أريد أن أتحقّق من أمر. واختفى بعد أن هبط سلّم المدخل.

التفتّ إلى الخادمة بملامح تؤكّد أسفي على ما حصل.

- آسفة حقًّا لكوني أزعجت سينيورا كارفالو. أعدك بأنني لن أعود إلى هنا من دون إذنها.

- سينيورا كارفالو مريضة جدًا يا سينيوريتا. هي تحتضر ولم يتبقَّ أمامها سوى وقت قصير، هل تفهمين.

بقيت الخادمة تحوم حولي عند عتبة الباب، فشعرت وكأنها تريد أن تطلعني على أمرٍ آخر.

- هل تسمحين لي بسؤال. قلت لها وأنا أشير إلى النافورة التي جفّت مياهها:

- هل سنحت لك الفرصة لتشهدي على أمجاد هذا المنزل؟

- نعم، لأنني وُلِدت فيه.

وراحت تنظر إلى البناء المزري، فشعرت وكأنها تتذكر الأيام الغابرة. وسرعان ما طفا الحزن إلى عينيها. ثم رأيتها تعاود النظر إليّ وأنا ألمح فلوريانو بطرف عيني يختفي خلف المنزل.

- سينيوريتا. همست الخادمة:

- أرغب في إعطائك شيئًا ما.

- عفوًا. قلت لها وقد تشتّت انتباهي وأنا أصبّ كامل تفكيري عند فلوريانو الذي اختفى كليًا عن الأنظار.

- لديّ ما أقدّمه لك، وهذا يعني أنّني أثق بك. ولكن عليك أن تقسمي بأنك لن تخبري سينيورا كارفالو عنه. وإلا ستعتبرني خائنة ولن تسامحني.

- بالطبع، لن أخبرها. أفهمك تمامًا.

سحبت الخادمة من جيب مريولها الأبيض رزمةً من الورق البني وسلّمتها لي.

- أرجوك. لا، بل أتوسّل إليك بألا تخبري أحدًا أنها منّي. قالت بصوت مرتعش:

- حصلت عليها من أمي التي قالت لي حينها إنها جزء من تاريخ عائلة آيريس كابرال، وطلبت مني قبل أن تموت أن أحتفظ بها.

رحت أحدق إليها وأنا تحت تأثير الدهشة فقلت لها: شكرًا.

في تلك اللحظة ظهر فلوريانو بجانب السيارة فتنفّست الصعداء. ثم سألتها:

- لمَ تعطيها لي؟

عندئذ أشارت بأصبعها الطويل إلى الحجر القمري المعلّق بسلسلة الذهب الرفيعة التي تتدلى حول عنقي وقالت:

- أعرف من تكونين. وداعًا. وعادت إلى الداخل وأغلقت الباب في وجهي».

حشرت رزمة الورق في حقيبتي وأنا ما أزال أشعر بالذهول لما حدث، وهبطت السلّم عائدةً إلى السيارة.

كان فلوريانو قد شغّل المحرك، فانطلقنا بالسرعة المعتادة سالكين الطريق الرئيسي.

- هل رأيت التمثال؟

- نعم. أجابني وهو يواصل طريقه بعيدًا عن المنزل. أنا حقًّا آسف يا مايا لأنها ترفض الاعتراف بك، لكن ذهني الماكر بات قادرًا على جمع أجزاء هذه الأحجية. كما أنني قادر على فهم سبب تردّدها. ما إن نصل إلى المدينة، سأوصلك إلى الفندق وأتوجّه مباشرةً إلى المتحف الوطني ثم إلى المكتبة العامة. هل أتّصل بك إذا حصلت على أخبار؟ سألني بعد أن وصلنا إلى الفندق.

- نعم، من فضلك. أجبته وأنا أترجّل من السيارة.

حين انطلق فلوريانو بسيارته دخلت المصعد لأعود مباشرةً إلى جناحي. وبعد أن علّقت إشارة عدم الإزعاج على مقبض الباب من الخارج، أغلقته وذهبت أتمدّد فوق السرير، ثم أخرجت رزمة الورق من حقيبتي. فاكتشفت أنها مجموعة رسائل جُمعت كلّها بخيطٍ واحدٍ عُقِد بإحكام. وضعتها على السرير ورحت أفكّ العقدة، ثم أمسكت بالمغلف الأول المفتوح بطريقة متقنة بقطاعة ورق. تحقّقت مما كان مكتوبًا على ظهر الرسائل فعرفت أنها موجهة إلى سيدة تُدعى سينيوريتا لوين فاغونديس.

سحبت بتروٍّ الرسالة الأولى من المغلّف بعد أن أحسست بهشاشة ذلك الورق الرقيق بين أصابعي، وفتحتها لأقرأ في أعلى الصفحة العنوان، باريس، والتاريخ في 30 آذار 1928. رحت أتفقّد بقية الرسائل فأدركتُ أنها لم تكن مرتّبة وفق تسلسل زمني، إذ ظهرت بينها رسائل موجهة إلى لوين فاغونديس في عام 1927 لكن العنوان كان البرازيل. وعندما سحبت بقية الرسائل من مغلفاتها، عرفت من

التوقيع أنها تعود لإيزابيلا، المرأة التي قد تكون جدتي الكبرى... فتذكرت ما قالته لي الخادمة قبل حين.

- أعرف من تكونين...

أمسكت بقلادة حجر القمر بين أصابعي ورحت أفكر بأنها لطالما كانت حول عنقي منذ أن تبنّاني پا سولت وأنا طفلة رضيعة. لعلها تذكار من أمي. حتى أنه أخبرني وهو يعطيها لي بأنّ هناك قصة مثيرة وراءها. ربما قال ذلك ليدفعني بطريقة لبقة إلى طرح الأسئلة ذات يوم للاستفسار عن تلك القصة، لأنه لم يشأ في ذلك الحين أن يتطرّق مباشرة إلى ماضيّ لئلّا يضايقني. لا بدّ من أنه أرادني أن أبادر بنفسي إلى طرح الأسئلة. وكم أتمنّى اليوم لو طرحتها قبل فوات الأوان.

بقيت أغوص في تلك الرسائل لساعات. كان عددها يتخطّى الثلاثين رسالة، فأعدت ترتيبها حسب الزمان والمكان.

كنت أتلهّف للبدء بقراءة ذلك الخط النظيف الجميل عندما رن جرس هاتفي المحمول، فسمعت صوت فلوريانو المتحمّس عبر السماعة:

- مايا، لديّ أخبار رائعة. هل أزورك بعد ساعة؟

- هل تمانع أن نرجئ زيارتك إلى صباح الغد؟ أشعر بانزعاج في معدتي. اختلقت العذر وأنا أشعر بالذنب. كنت أرغب في صرف بقية اليوم وحدي لأقرأ الرسائل.

- إذًا، نلتقي غدًا عند العاشرة؟

- أجل، حينها أكون قد تعافيت.

- وإذا احتجت إلى أي شيء يا مايا، لا تتردّدي في الاتصال بي، من فضلك.

- بالتأكيد، أشكرك.

- لا شكر على واجب. ارتاحي الآن.

بعدما أنهيت المكالمة، اتصلت بخدمة الغرف لأطلب زجاجتي ماء وشطيرة «كلوب سندويش». وعندما أوصلوها لي، التهمت كل الطعام الموضوع على الصينية، ثم أمسكت بالرسالة الأولى بين أصابعي المرتجفة وبدأت القراءة...

إيزابيلا

ريو دي جنيرو

تشرين الثاني 1927

13

استيقظت إيزابيلا روزا بونيفاسيو من نومها على طقطقة أقدام صغيرة تخدش البلاط. رفعت رأسها عن الوسادة لتجلس مستقيمة القامة وتنظر من سريرها إلى الأرض، فرأت القرد الجميل الشعر «ساغي» يحدّق إليها وبين يديه الصغيرتين المكسوّتين بالوبر، وهما صورة طبق الأصل عن يديها، فرشاة شعرها. عندما رأت بيل القرد يحدّق إليها بعينيه السوداوين اللماعتين وكأنه يتوسّل إليها بأن تسمح له بالهروب بلعبته الجديدة، لم تستطع تمالك نفسها من الضحك.

- إذًا، ترغب في تسريح شعرك؟ سألته وهي تزحف على بطنها إلى أسفل السرير.

- أعد لي فرشاتي من فضلك. قالت وهي تمد يدها إليه.

- هذه لي، وإن سرقتها سيتعكّر مزاج ماي (أمي).

أمال القرد رأسه نحو سكة الهروب، وما إن مدّت بيل أصابعها النحيفة الطويلة لتستعيد الفرشاة، حتى وثب القرد بخفّة إلى عتبة النافذة واختفى عن أنظارها بلمح البصر.

تنهّدت بيل وهي تتمدّد مجدّدًا على سريرها، وتفكّر في المحاضرة التي سيلقيها عليها والداها عن أهمية إغلاق الدرف ليلًا لسبب بات معروفًا، خصوصًا أن فرشاة الشعر هذه كانت من عرق اللؤلؤ، وهي هدية قدّمتها لها جدتها من جهة أبيها في حفل تعميدها. وكما سبق وقالت للقرد، فإن أمها لن تجد ما حدث لتوّه مسليًا.

التَوَت بيل مجدّدًا لتضع رأسها على الوسادة، على أمل ولو كاذبٍ، أن يوقع القرد فرشاتها في الحديقة أثناء عودته إلى الأحراش الواقعة خلف منزلها على سفح الجبل. وإذ بنسيم عليل يحرّك خصلة من شعرها الكثيف الداكن فوق جبينها، حاملًا معه عطر فاكهة الجوافة والليمون التي نضجت على أغصانها في الحديقة أسفل نافذتها. وعلى الرغم من أن الساعة الموضوعة بجانب سريرها كانت ما تزال تشير إلى السادسة والنصف صباحًا، إلا أن بيل شعرت بأن بقية اليوم ستكون حارّة. نظرت إلى السماء وهي تنجلي بسرعة فلم تجد سحابة واحدة تفسد صفاءها.

ولمّا كانت لوين خادمتها، لن تطرق بابها قبل مرور ساعة لتساعدها على ارتداء ملابسها، فكرت في استجماع قواها للخروج إلى حديقة المنزل بينما لا يزال الجميع نائمين، والسباحة في المياه التي لا تزال باردة داخل المسبح الذي بات جاهزًا لاستقبالها، وقد أنهى والدها أنطونيو بناءه لتوّه.

هذا المسبح ذو البلاط الأزرق الجميل هو أحدث استثمار يقوم به أنطونيو ليشعره بالفخر، باعتباره أول استثمار من نوعه تتضمّنه أملاك خاصة في ريو دي جنيرو. وقبل شهر دعا كل أصدقائه من وجهاء ريو، فلبّى الجميع الدعوة من دون استثناء، ووقفوا على الشرفة المحيطة به يتفرّجون وينهالون عليه بالتبريكات.

أكثر ما سخرت منه بيل في ذلك اليوم، هو ارتداء الرجال ملابسهم الباهظة وتزيّن النساء بأحدث تصاميم من صيحات الموضة الباريسية المتوافرة حصريًا في متاجر أڤينيدا ريو برانكو. لكن لا أحد منهم أحضر ملابس السباحة الخاصة به. حتى هي، اضطرت إلى الوقوف بجانبهم بكامل ملابسها الأنيقة تاركة نفسها تحترق تحت أشعة الشمس الملتهبة. وكم تمنّت لو أنها تقدر على خلع ملابسها الرسمية لتغوص داخل المياه المنعشة. حتى أنها في الواقع لم ترَ يومًا أحدًا في ذلك المسبح.

ذات مرة، طلبت بيل من والدها أن يسمح لها بالسباحة، لكنه هزّ برأسه نفيًا.

- لا يا حبيبتي. وهل يجوز للخدم أن يروك في ملابس السباحة. لا تستطيعين السباحة عندما يكونون في الجوار.

لكن خدمهم لم يغيبوا يومًا عن الجوار. حينها أدركت بيل أن المسبح هو مجرّد زخرفة أخرى، أو مقتنى كبير حصل عليه والدها ليتباهى به أمام أصدقائه. أي بمعنى آخر، محطة أخرى في سعي والدها الدائم لتحقيق المكانة الاجتماعية التي يتوق إليها.

وعندما كانت بيل تسأل أمها عن سبب عدم شعور والدها بالرضا عن ممتلكاتهم بالرغم من أنّهم يعيشون في أحد أجمل المنازل في ريو، ولا يكفّون عن تناول العشاء في فندق كوباكابانا بالاس، ويملكون أحدث طراز لسيارات فورد الفاخرة، كانت تجيب بازدراء لكونها لا تكترث لتصرفاتها:

- لأنه ببساطة، عاجز عن تغيير اسم عائلته بالرغم من العدد الهائل للسيارات والمزارع التي يملكها.

وكانت بيل طوال أعوامها السبعة عشر، تعتقد أن أنطونيو ينحدر من الجالية الإيطالية التي هاجرت إلى البرازيل لتعمل في مزارع البن الموزّعة على الأراضي الخصبة المحيطة بساو باولو. لكنّ والد أنطونيو لم يكن مجتهدًا فحسب، إنما كان يعمل بفطنة، فادّخر نقودًا كثيرة ليتمكّن من شراء قطعة أرض ويباشر عمله الخاص فيها.

وحالما أصبح أنطونيو جاهزًا لتولّي المسؤولية، كانت مزرعة البن التي أسّسها والده قد ازدهرت، ما أتاح له شراء ثلاث مزارع إضافية لتتراكم أرباحها وتجعل منه رجلًا ميسورًا.

عندما أصبحت بيل في الثامنة من عمرها، اشترى والدها مزرعة قديمة تبعد مسافة خمس ساعات بالسيارة من ريو. فبقيت تلك المزرعة في نظر بيل منزل العائلة الرئيسي. وبالرغم من موقعها النائي في أعالي الجبال كان المنزل كبيرًا، يلفّه الهدوء من كل صوب. هناك كوّنت بيل أغلى الذكريات واستمتعت بالتجوّل حرةً طليقةً عبر مساحة تبلغ ألفي هكتار لتعيش طفولة مثالية خالية من الهموم.

وعلى الرغم من أن تلك المزرعة قد قرّبت المسافة بين أنطونيو وريو، لكنه لم يكن راضيًا عن الإقامة فيها. وإذا ببيل تتذكّر الأمسية التي أوضح فيها أنطونيو، على العشاء، الأسباب التي تدفعه إلى الانتقال للعيش في المدينة.

- ريو هي العاصمة، مقر القوى الحاكمة في البرازيل، وعلينا أن نكون جزءًا منها. فمع ازدهار أعمال أنطونيو، كان المنجم الذي يدرّ له الذهب يزدهر على السواء. وقبل ثلاث سنوات، دخل أنطونيو المنزل ليعلن عن شرائه منزلًا في كوزمي ڤيلو، أحد الأحياء الأكثر تميّزًا ورقيًّا في ريو.

- بعد اليوم، لن يتمكّن الأرستقراطيون البرتغاليون من تجاهلي، فقد أصبحنا جيرانهم صاح أنطونيو وهو يضرب يده على الطاولة احتفالًا بنصره.

تبادلت بيل ووالدتها النظرات بعد أن انتابهما الخوف من فكرة ترك منزلهما في الجبل للعيش في مدينة كبيرة. لكن والدة بيل المعروفة بليونتها كانت متمسّكة بمزرعة سانتا تيريزا فأصرت على الاحتفاظ بها ملاذًا لهم، في حال فكروا ذات يوم بالهروب من صيف ريو اللهّاب.

- لمَ قبلتِ يا ماي؟ سألت بيل بحزن والدتها عندما دخلت غرفتها لتتمنّى لها ليلة سعيدة.

- أنا أحب هذا المكان ولا أرغب بالعيش في المدينة.

- لأن والدك لن يكتفي بأن يصبح ثريًّا مثل النبلاء البرتغاليين في ريو. فهو يطمح إلى أكثر من ذلك، يريد أن يصبح واحدًا منهم ليكسب احترامهم.

- لكن يا ماي، كلنا نعرف ازدراء البرتغاليين في ريو للنازحين الإيطاليين، لذلك لن يقدر على تحقيق هدفه؟

- حسنًا، أنطونيو نجح في تحقيق كل أمنياته لغاية اليوم. أجابت كارلا وقد بدأت تشعر بالتعب.

- لكن من أين لنا أن نعرف كيف نتصرّف هناك؟ لقد عشت معظم حياتي في الجبال، لذلك لن أجد مكاني بينهم بسهولة لأحقق أمنية پاي (أبي).

- لا تقلقي، فقد تحدّث والدك عن لقائنا بسيدة تدعى سينيورا ناتاليا سانتوس، وهي برتغالية من الطبقة الأرستقراطية، لكن عائلتها تمرّ بأوقاتٍ عصيبة. لذلك تحاول اليوم كسب عيشها من تعليم عائلات من أمثالنا كيفية التصرف في المجتمع لتقدّمنا إليه بعد ذلك.

- وهل بات علينا الآن أن نتحوّل إلى دمىً ترتدي أفخر الملابس وتنتقي الألفاظ الراقية وتستخدم لوازم الطعام الفاخرة على المائدة؟ أفضّل الموت على ذلك. قالت بيل لتعبّر عن استيائها.

- نعم بالضبط. قالت كارلا وهي تضحك على استنتاجات ابنتها. وإذا ببريق في عينيها البنيتين الدافئتين يعكس شعورها بالتسلية.

- ولأنك ابنته الوحيدة وحبيبة قلبه الجميلة، فقد تكونين الدجاجة التي ستبيض له ذهبًا. والدك يا إيزابيلا، يظن أن جمالك سيجلب لك زواجًا موفّقًا.

نظرت بيل إلى والدتها مرتعبة وقالت:

- هل يعتبرني باي ورقة رابحة يستخدمها ليحظى بالقبول الاجتماعي؟ أنا أرفض ذلك! ثم استدارت وسحقت وساداتها بقبضتيها.

اقتربت كارلا من السرير وثبتت قامتها الممتلئة عند حافته، ثم ربّتت ظهر ابنتها المتصلّب بيدها السمينة لتواسيها.

- الأمر ليس سيئًا كما يبدو لك يا *querida*.

- لكنني ما أزال في الخامسة عشرة من عمري، كما أنني أريد الزواج عن حبٍّ وليس من أجل المركز الاجتماعي. فضلًا عن أنني أجد الشبان البرتغاليين قديمي الطراز وهزيلين وكسولين، لذلك أفضل الزواج بشابٍّ إيطالي.

- باللّه عليكِ يا بيل، لا يجوز أن تطلقي الأحكام جزافًا، لأنّ كل عِرْقٍ فيه الصالح وفيه الطالح، وأنا واثقة من أن والدك سيجد لك الشخص المناسب. ففي النهاية ريو مدينة كبيرة.

- لن أذهب معكم!

عندئذ انحنت كارلا لتقبّل شعر ابنتها الحالك اللمّاع.

- حسنًا، أريد أخيرًا أن أقول لك شيئًا؛ اعلمي أنك ورثت ذكاء والدك. تصبحين على خير يا حبيبتي.

جرى ذلك قبل ثلاث سنوات، ومن ذلك الحين لم تغيّر بيل ولو فكرة واحدة ممّا قالته لأمها. بقي والدها على حاله طموحًا، كما بقيت والدتها على لطافتها المعهودة، حتى أن مجتمع ريو بقي متمسّكًا بتقاليده التي مرّ عليها أكثر من مئتي سنة، في حين بقي الرجال البرتغاليون في نظر بيل يفتقدون إلى كل أنواع الجاذبية.

لكنّ المنزل الذي باتوا يعيشون فيه في كوزمي ڤيلو كان مذهلًا. كانت جُدُرُه مطلية بلون أصفر مريح، تتخلّلها نوافذ طويلة ذات مصراعين. وكان المنزل يضم غرفًا متناسقة أُعيد تصميم ديكورها وفق الشروط التي فرضها والدها، فزوّدت بكل وسائل الراحة الحديثة المتوفرة آنذاك كالهاتف مثلًا، كما أضيفت الحمامات إلى الطابق العلوي. أما مساحته الخارجية التي تميزت بمناظرها الطبيعية الخلابة فكانت قادرة على منافسة حدائق ريو النباتية.

أطلق على ذاك المنزل اسم مانساو دا پرنسيسا نسبةً إلى الأميرة إيزابيل التي جاءت ذات مرة لتشرب من مياه نهر كاريوكا الذي يعبر أراضيه، وقد قيل إنها تتميز بخصائص علاجية.

على الرغم من الرفاهية الواضحة التي تميّز بها المكان، شعرت بيل بجبل كوركوڤادو الذي يشهق خلف المنزل، وكأنه يخنقها، ما زاد من شوقها إلى المساحات الشاسعة والهواء الطلق الذي يهبّ عليها من الجبال المزرعة.

منذ وصولهم إلى المدينة، أصبحت سينيورا سانتوس، الوصيّة على تعليم بيل آداب اللياقة والسلوك الاجتماعي، جزءًا من أيامها. فتعلّمت منها الدخول برأس مرفوع وأكتاف مستقيمة. وراحت تلك الأخيرة تحشو رأسها بأشجار عوائل الطبقة الأرستقراطية في البرتغال. وبعد أن تعلّمت منها اللغة الفرنسية، وأخذت دروسًا في البيانو وفي تاريخ الفن والأدب الأوروبي، بدأت بيل تحلم بالسفر إلى العالم القديم.

كان أصعب جزء في تلك الوصاية هو إصرار سينيورا سانتوس على أن تنسى بيل للغتها الأم التي حدّثتها بها أمها منذ نعومة أظفارها، ما تطلّب منها جهدًا كبيرًا لتتكلّم ببرتغالية صافية بعيدًا من اللكنة الإيطالية.

وكانت بيل كلّما نظرت إلى نفسها في المرآة، تلاحظ ابتسامة ساخرة على وجهها. فبالرغم من كل الجهود التي بذلتها ناتاليا سانتوس لمحو ماضيها، بقيت ملامحها تفضح أصولها. فبشرتها الصافية النقية التي لفحتها شمس الجبال الحارقة كانت متوهّجة بلون برونزي داكن، لذلك كانت سينيورا سانتوس تحذّرها باستمرار من التعرّض للشمس. أما خصلها السميكة الداكنة وعيناها البنيتان الكبيرتان فلم تتوقف لحظة عن تذكير الناظرين إليها بالأمسيات التوسكانية الساحرة.

وكانت شفتاها الغليظتان تعكسان طبيعتها الشاعرية، في حين بقي ثدياها الثائران ينتفضان كلما حاولت لوين تقييدهما بمشدٍّ قاس. لذلك كانت بيل تشعر كل صباح وكأنها حيوان برّي قُيّد في قفص بعد أن تذوّق طعم الحرية المطلقة، ما إن تقوم لوين بتضييق ملابسها عليها لتستر أنوثتها البارزة.

راحت تتأمّل وزغة صغيرة تزحف بسرعة البرق على سقف غرفتها، ففكّرت في نفسها وفي أنها قادرة على الهروب في أي لحظة عبر تلك النافذة المفتوحة مثلما فعل القرد ساغي قبل لحظات. لكنها فضّلت أن تقضي يومًا آخر مثل دجاجة مُقيّدة تستعد لدخول فرن ريو الاجتماعي على حرارة مشتعلة، بعد أن تعلّمت كيف تتجاهل الطبيعة التي وهبها لها اللّه لتصبح سيدة مجتمعٍ راقٍ وترضي رغبات والدها. أما خطط والدها لمستقبلها فكانت ستبلغ ذروتها في غضون أسبوع على الأكثر، وذلك في عيد ميلادها الثامن عشر، إذ كان سيقيم لها حفلة ضخمة في فندق كوباكابانا بالاس ليقدّمها إلى مجتمع ريو الأرستقراطي.

كانت بيل تشعر بأنها ستُجبر قريبًا على الزواج ممّن يختاره لها والدها لتخسر ما تبقّى لها من حريةٍ إلى الأبد.

بعد انقضاء ساعة، سمعت طرقًا مألوفًا على الباب أنبأها بحضور لوين.

- صباح الخير سينيوريتا بيل. يا له من صباح جميل، أليس كذلك؟ سألتها الخادمة وهي تدخل الغرفة.

- لا. أجابت بيل وقد بدا مزاجها متعكّرًا.

- هيا انهضي بسرعة لترتدي ملابسك، لأن نهارك طويل.

- أتعتقدين ذلك؟ تظاهرت بيل بأنها تجهل مواعيدها بالرغم من أنها في الواقع، كانت تعرف حق المعرفة الالتزامات التي تنتظرها في الساعات الآتية.

- هيا يا صغيرتي، لا وقت لدينا للألاعيب. خاطبتها لوين بنبرةٍ محذِّرة، وهي تناديها بالعبارات التي كانت تطلقها عليها عندما كانت طفلة صغيرة، كلما بقيت على انفراد معها.

- كلتانا نعرف أنّ لديك حصة بيانو عند العاشرة، وبعد ذلك ستصل مدرسة اللغة الفرنسية. أما بعد الظهر، فلديك موعد مع السيدة دوشين لقياس فستان حفلة عيد ميلادك.

أغمضت بيل عينيها وتظاهرت بأنها لم تسمع شيئًا.

اقتربت لوين من السرير ووكزتها وكزة صغيرة على كتفها.

- ما المشكلة؟ قريبًا ستحتفلين بعيد ميلادك الثامن عشر، وبالمناسبة سينظّم والدك حفلة رائعة يحضرها وجهاء ريو! ألستِ سعيدة بذلك؟

لكن بيل لم تقم بأيّ ردّ فعل.

- أي فستان تريدين أن ترتدي اليوم؟ الكريم أم الأزرق؟

- لا يهم!

تقدّمت لوين من الخزانة والأدراج لتختار بنفسها ملابس بيل وتضعها على طرف السرير.

عندئذ نهضت بيل وجلست على مضض.

- سامحيني يا لوين فأنا أشعر بالحزن لأن القرد دخل غرفتي وسرق الفرشاة التي قدّمتها لي جدتي. ستغضب أمي الآن لأنني تركت النافذة مجدّدًا مفتوحة على مصراعيها.

- آه، لا! قالت لوين مذعورة.

- فرشاة شعرك المرصعة باللؤلؤ باتت عند القرود في الغابة؟ كم مرّة نبّهوك إلى أن تغلقي النوافذ جيّدًا في الليل؟

- مرّات عدّة. أكدت بيل وقد ليّنت نبرتها.

- سأطلب من عمال الحديقة أن يبحثوا جيّدًا لعلّهم يعثرون عليها في مكانٍ ما.

- شكرًا لك. قالت بيل وهي ترفع ذراعيها إلى فوق حتى تتمكّن لوين من نزع ملابس النوم عنها.

أثناء الفطور، قام أنطونيو بونيفاسيو بمراجعة قائمة المدعوّين إلى حفلة ابنته في فندق كوباكابانا بالاس، بعد أن ضمّت إليها سينيورا سانتوس خيرة مجتمع ريو، وكان معظمهم سيلبّون تلك الدعوة. فعلّق أنطونيو بارتياح:

- باستثناء عائلة كارفالو جوميز، وعائلة ريبيروس بارسيّوز. وتابع كلامه رافعًا حاجبه: أمر حزين أن يكون لديهم ارتباط آخر.

- حسنًا، هم لا يعرفون ماذا يفوّتون عليهم. ربّتت كارلا كتف زوجها لتواسيه إذ كانت تعرف أنهما العائلتان الأكثر نفوذًا في ريو.

- سوف يتحدثون عن حفلتنا في كل أنحاء المدينة، لذلك لا بدّ من أن تصلهم الأخبار، وحينها أنا واثقة من أنهم سيعرفون.

قال أنطونيو:

- آمل ذلك، لأن الحفلة كلّفتني كثيرًا. أما أنتِ يا أميرتي فستكونين محطّ أنظار الجميع.

- نعم يا پاپا، وأشكرك على ذلك.

- بيل، أصبحت تعرفين أنه لا يمكن لك مناداتي پاپا، ولكن پاي.

- عفوًا پاي، أجد صعوبة في تغيير عادة متأصّلة مثل هذه.

طوى أنطونيو جريدته ثم نهض عن كرسيّه وودّع زوجته وابنته، ومن ثمّ أومأ برأسه وقال:

- أنا ذاهب إلى المكتب لأنجز الأعمال التي ستحقّق لنا كل أمنياتنا.

تابعته بيل بنظراتها وهو يغادر، ثم فكّرت في أنّه ما يزال محافظًا على وسامته، بطوله الممشوق، ولياقته البدنية، وأناقته المعتادة، ولبدته الداكنة بالرغم من ظهور بعض الشيب على الصدغين.

- أشعر وكأن باي متوتّر قليلًا. قالت بيل لوالدتها وهي تتنهّد.

- أتعتقدين أنّ الحفلة هي السبب؟

فأجابتها كارلا بلامبالاة:

- والدك متوتّر طوال الوقت يا بيل، سواء كان بسبب حبوب البن أو بسبب عيد ميلادك؛ هو يبحث بنفسه عما يقلقه. باختصار، إنه أبوك. والآن حان الوقت لأذهب بدوري، سألتقي بسينيورا سانتوس بعد قليل لنراجع معًا التحضيرات النهائية لحفلة كوباكابانا بالاس. وهي ترغب في أن تنضمي إلينا بعد حصّة البيانو وحصّة اللغة الفرنسية لنراجع معًا قائمة المدعوّين.

- لكن يا ماي، يمكنني أن أردّدها لك عن ظهر قلب وفي كل الاتجاهات. قالت بيل وقد انزعجت من الأمر.

- أعرف ذلك يا حبيبتي، لكن علينا التأكد من أن كل الأمور تسير على ما يُرام. ثم نهضت كارلا لتغادر الغرفة، إلا أنها تردّدت لحظة وعادت إلى بيل لتقول:

- أريدك أن تعرفي أن صوفيا ابنة عمي تعاني من مرضٍ خطير، وأنني دعوتها مع أولادها الثلاثة لتقضي فترة نقاهتها هناك في المزرعة. ولأنّه ليس لدينا من يساعد فابيانا وزوجها في العمل، فكّرت في إرسال لوين لتعتني بالأولاد إلى أن تستعيد صوفيا عافيتها. لذلك يؤسفني القول إن لوين ستغادرنا في نهاية الأسبوع.

- لكن يا ماي! شهقت بيل من الاستياء.

- بقيت أيام قليلة على حفلتي، فكيف سأستعد من دون مساعدتها؟

- أنا آسفة يا بيل، ليس لديّ خيار آخر». ومادامت غابرييلا باقية هنا فأنا واثقة من أنها ستقوم باللازم لتحصلي على كلّ ما تحتاجين إليه. والآن عليّ حقًّا المغادرة، لا أريد الوصول متأخّرة.

ثم ربّتت كارلا كتف ابنتها في حركة مطمئنة وغادرت نهائيًا.

استرخت بيل فوق كرسيّها في محاولةٍ لاستيعاب الأخبار المزعجة التي تلقّتها، بعد أن شعرت باستياءٍ كبيرٍ من فكرة بعدها عن المقرّبين منها أثناء استعدادها لأهم حدث في حياتها.

أبصرت لوين النور في تلك المزرعة، حيث كان أجدادها، وهم من أصل أفريقي، مُستعبَدين في حقول البن. وفور عتق الرقيق في البرازيل عام 1888، تحرّرت أعداد هائلة من المُستعبَدين ليرحلوا في لحظتها عن أسيادهم. إلا أن والدي لوين اختارا البقاء في المزرعة ومواصلة العمل عند المالكين الأساسيين، وكانوا في ذلك الوقت عائلة أرستقراطية برتغالية. وعندما اضطرت تلك العائلة، مثل غيرها من عائلات ريو الميسورة إلى بيع مزارعها بعد أن عجزت عن تأمين عمّال السخرة لحقولها، قرّر والد لوين في ليلة مظلمة الاختفاء هاجرًا والدة لوين غابرييلا وطفلة في التاسعة من العمر لتعيلا نفسيهما بنفسيهما.

مرت بضعة أشهر قبل أن يشتري أنطونيو تلك المزرعة، فأشفقت كارلا عليهما وسمحت لهما بالبقاء لتعملا في الخدمة المنزلية. وهكذا انتقلت الأم وابنتها مع عائلة بونيفاسيو إلى ريو قبل ثلاث سنوات.

بالرغم من أن لوين كانت مجرّد خادمة، لكنها نشأت قريبة من بيل في تلك المزرعة النائية. فأدّى الوقت الذي صرفتاه في اللعب مع أطفال من جيلهما إلى توطيد العلاقة بينهما. لم تكن لوين تكبر بيل بكثير لكنها كانت تتمتّع بحكمةٍ بالنظر إلى سنّها، لذلك لم تتوقف يومًا عن تقديم النصائح والعون لسيّدتها الشابة. أما بيل التي كانت تقدّر كثيرًا طيبتها وولاءها، فردت لها الجميل بتعليمها القراءة والكتابة كل مساء.

في أسوأ الأحوال نتبادل الرسائل، فكرت بيل وهي ترتشف قهوتها وتتنهّد.

- هل انتهيت يا سينيوريتا؟ سألتها غابرييلا وهي تقطع عليها حبل أفكارها. ولاحظت بيل ابتسامتها العريضة ففهمت أنها سمعت ما قالته كارلا.

ثم ألقت بيل نظرة خاطفة إلى البوفيه فوجدته مليئًا بالفاكهة الطازجة؛ مانجو، تين، لوز، وإلى جانبها سلّة من الخبز الطازج، أي ما يكفي لإشباع شارع بحاله، فكيف الحال مع عائلة لا تتعدّى ثلاثة أفراد.

- نعم، تستطيعين رفع الأطباق عن المائدة. وأعتذر سلفًا عن العمل الإضافي الذي سيُلقى على عاتقك في غياب لوين.

لكن غابرييلا تجاهلت الموضوع:

- أعلم أن ابنتي ستصاب بالخيبة لغيابها عن استعداداتك لعيد ميلادك. لكن لا تقلقي لأننا سنتدبّر الأمر.

ما إن خرجت غابرييلا، حتى أمسكت بيل بجورنال دو برازيل الموضوعة أمامها على الطاولة، ورأت صورة لبيرثا لوتز الناشطة في حقوق المرأة برفقة مؤيّديها أمام مقر البلدية، تتصدّر الصحيفة.

كانت سينيوريتا لوتز قد أسّست الاتحاد البرازيلي لدعم المرأة قبل ست سنوات، وقامت بمعظم الحملات التي تطالب بمنح كل النساء في البرازيل حقّ الاقتراع. وكانت بيل تتتبّع أخبارها والتقدّم الذي تحرزه بشغف، وتراقب عن كثب التغيير الذي بدأت تعيشه النساء في تلك الحقبة، باستثنائها هي التي بقيت سجينة تفكير والدها الرجعي، كونه يؤمن بأن المرأة وُلِدت لتتزوّج من أغنى شخصٍ يتقدّم لها، لتنجب له الذرية الصالحة.

منذ انتقالهم للعيش في المدينة، حرص أنطونيو على أن تبقى ابنته الوحيدة أسيرةً في منزلها، رافضًا السماح لها بالتنزّه في الخارج من دون مرافقة سيدة تكبرها سنًّا. علمًا بأن فتيات جيلها اللواتي كانت تتعرف إليهن في حفلات الشاي الرسمية، وتصادقهن بعد موافقة سينيورا سانتوس، كنّ من عائلات منفتحة تبنّت أوجه الحداثة من دون مقاومة. لكن أنطونيو كان، على ما يبدو، يغفل عن ذلك.

على سبيل المثال، صديقتها ماريا إليسا دا سيلڤا كوستا وهي من أصول أرستقراطية برتغالية. لم تحصر عائلتها نشاطاتها بالتردّد إلى المناسبات الاجتماعية، على اعتقاد پاي الخاطئ، لأن زمن البلاط البرتغالي الذي يحلم بأن تصبح عائلته

واحدة منه، كان يتلاشى في ذلك الوقت، بالرغم من الأثر القليل الذي بقي منه، وثلّة المتشبّثين الذين يتمسّكون بزمانٍ شبه زائل.

ماريا إليسا هي واحدة من الشابات القليلات اللواتي شعرت بيل بوجود قاسم مشترك بينهما بعد التعرّف إليها. أما هيتور والد ماريا إليسا، فكان مهندسًا معماريًّا ارتبط اسمه بتمثال كريستو ريدينتور الموجود في أعلى قمة جبل كوركوڤادو الذي يشهق خلف منزلهم. كانت عائلة دا سيلڤا كوستا تعيش في حي مجاور في بوتافوغو، لذلك كانت ماريا إليسا تتردّد كثيرًا على بيل كلما رافقت والدها إلى كوزمي ڤيلو ليأخذ مقاسات الهيكل الذي كان سيبنيه، فتأتي هي لتزور بيل بينما يستقل هو القطار صعودًا إلى أعلى الجبل. وفي ذلك اليوم، توقّعت بيل زيارتها في وقت متأخّر.

- سينيوريتا، هل أحضر لك شيئًا آخر؟ سألتها غابرييلا قبل أن تخرج من الباب وهي تحمل بين يديها صينية ثقيلة.

- لا، شكرًا يا غابرييلا، تستطيعين الخروج.

وبعد دقائق قليلةٍ، نهضت بيل عن كرسيّها وغادرت الغرفة.

- لا شك في أنك متحمسة لحفلتك. قالت ماريا إليسا أثناء جلوسهما في ظلال الغابة المكتظة بالأشجار الاستوائيةِ التي تفرد أغصانها فوق حديقة المنزل.

كان عمال الحديقة عند آل بونيفاسيو متأهبين على الدوام لملاحقة الأوراق المتساقطة، ومنعها من التراكم فوق العشب المقلّم، على عكس الأوراق المتراكمة خارج السور والتي كانت ترتفع لتشكّل تلة حقيقية.

أجابتها بيل بصراحة:

- أعتقد أنني سأشعر بسعادةٍ أكبر بعد انتهاء الحفلة.

- في الحقيقة، أنا أنتظر تلك الحفلة بفارغ الصبر.

قالت ماريا إليسا مبتسمة:

لأن ألكسندر ميديروس سيكون هناك وأنا شديدة الإعجاب به. أتمنى أن يدعوني للرقص حينها سأكون في قمة السعادة.

تابعت حديثها وهي ترتشف عصير البرتقال الطازج:

- وأنت هل هناك من يلفت انتباهك؟

- سألت بيل وهي تنتظر منها إجابة صريحة.

- لا، بالإضافة إلى أنني أعرف تمامًا أن والدي هو من سيختار لي زوجًا.

- آه لا، يا لذاك التفكير الرجعي! عندما أتحدث إليك أشعر بأنني محظوظة ببِاي، على الرغم من أنه مأخوذ طوال الوقت بتمثاله ذاك. لكن هل أقول لك سرًّا؟ قالت ماريا إليسا وهي تخفض صوتها إلى حد الهمس.

- على الرغم من أن پاي سيشيّد أكبر نصب تذكاري في العالم للكريستو، إلا أنه في الحقيقة ملحد.

- من يدري، فقد يغيّر ذلك المشروع معتقداته. فكرت بيل بصوت عالٍ.

- سمعته في الليلة الماضية يقول لماي إنه ينوي الذهاب إلى أوروبا للعثور على نحّات لتمثاله، وسيغيب لفترة طويلة، لذا قال إننا سنسافر معه. هل تتخيّلين ذلك يا بيل؟ سنتمكّن من رؤية أروع المعالم السياحية في فلورنسا، وروما، وطبعًا باريس. قالت ماريا إليسا وقد انكمش أنفها الجميل المغطّى بالنمش لما ولّدته فكرة السفر إلى أوروبا من سرور في نفسها.

- أوروبا؟ تعجّبت بيل وهي تنظر إلى صديقتها.

- ماريا إليسا، أنا قادرة في هذه اللحظة على كرهك. لطالما تمنّيت القيام برحلة إلى العالم القديم. خصوصًا إلى فلورنسا، حيث جذور عائلتي.

- حسنًا، في حال تأكّدت الرحلة يمكن لك مرافقتنا إن شئت، على الأقل لبعض الوقت. حتى أن مجيئك سيفيدني أنا أيضًا، لأنني سأكون برفقة شقيقيّ فقط. ما رأيك؟ قالت ماريا إليسا وعيناها تلمعان من الإثارة.

- أشكرك على هذه الدعوة الرائعة لكنني متأكدة من أن والدي سيرفض. قالت بيل بنبرةٍ واثقة.

- هو لا يسمح لي بالتنزّه وحدي في الشارع، فكيف سيسمح لي بالخروج في رحلة إلى أوروبا عبر المحيط؟ فضلًا عن أنه يريدني هنا في ريو، مستعدة للزواج في أقرب وقت ممكن». قالت بيل وهي تدهس بحذائها نملة صغيرة بعد أن شعرت بالأسى على نفسها.

اقترب هدير محرّك سيارة من الحديقة لينبئ الفتاتين بمجيء والد ماريا إليسا لاصطحابها.

- حسنًا يا بيل، أراكِ في الحفلة الخميس المقبل.

- قالت ماريا إليسا بعد أن نهضت لتعانق بيل.

- حسنًا.

ودّعت ماريا إليسا بيل ثم قالت لها وهي تتقدّم نحو بوابة الحديقة:

- لا تقلقي بشأن الرحلة، أعدك أن أفكّر في خطةٍ ناجحة.

بقيت بيل جالسة في الحديقة تحلم بقبة دومو في فلورنسا ونافورة نبتون. وكانت حصة تاريخ الفن أكثر ما استمتعت به في درس الثقافة الذي أعطته لها سينيورا سانتوس. كما أنهم قاموا بتوظيف فنانٍ تشكيليٍّ ليعلّمها أصول الرسم، فكانت فترات بعض الظهر التي قضتها في مرسمه في المدرسة الوطنية للفنون الجميلة من أكثر اللحظات الممتعة التي عاشتها في ريو منذ وصولها.

كان ذلك الفنان يعمل في النحت أيضًا، لذلك حظيت بفرصة ممارسة النحت بعدما وضع بين يديها كتلة من الطين الأحمر السميك. ما زالت بيل تذكر حتى اليوم تلك النعومة التي داعبتها بأصابعها والليونة التي حاولت أن تعطيها شكلًا.

- لديك موهبة حقيقية. مدحها الفنان بعدما عرضت عليه ما اعتبرته نسخة رديئة من ڤينوس دي ميلو. إلا أنّ بيل أحبت أجواء ذلك المرسم بغض النظر عما إذا كانت موهوبة أم لا، وشعورها بالاشتياق اليه كان يبدأ ما إن يوشك الدرس على الانتهاء.

فجأة، سمعت لوين تناديها من الشرفة، معلنة عن وصول مدام دوشين لأخذ مقاساتها النهائية لثوب الحفلة. فنهضت بيل وقد تخلّت عن فكرة أوروبا وأمجادها، وراحت تمشي عبر الحديقة إلى أن دخلت المنزل.

14

في عيد ميلادها الثامن عشر، استيقظت بيل في الصباح الباكر لترى عبر نافذتها غيومًا رماديةً تتلبّد في الأفق. فجأة، سمعت دويٍّ رعدٍ خافتًا يُنذر بهبوب عاصفةٍ قوية، لا سيّما أن السماء قد اشتعلت بالبرق والصواعق. وسرعان ما انشقّت السماوات لترمي فوق ريو كل ما في جوفها فتغرق السكان.

بينما كانت غابرييلا تتخبّط داخل الغرفة مردّدة على مسامع بيل مواعيدها في ذلك اليوم، نظرت عبر النافذة لتتفقّد وضع السماء.

- علينا أن نصلّي كي تفرغ الغيوم كل ما حقنته داخلها قبل موعد الحفلة، فيتوقّف المطر قبل أن يبدأ الضيوف بالتوافد، وإلا سنكون في ورطةٍ لو تلطّخ فستانك الجميل بالطين ساعة وصولك إلى الفندق. سأذهب إلى الكنيسة لأتضرّع إلى السيدة العذراء من أجل أن توقف المطر قبل أن يحل المساء، فتنقشع السماء وتقوى أشعة الشمس فيجف تجمع المياه. والآن هيا بنا يا سينيوريتا إيزابيلا لأن والديك ينتظرانك في غرفة الطعام، ووالدك يرغب في رؤيتك قبل ذهابه إلى المكتب. هذا يوم مميز بالنسبة إلينا جميعًا.

على قدر ما كانت بيل تحب غابرييلا، فإنّها في ذلك اليوم، تمنت للمرّة المئة لو أن لوين هي من تشاركها تلك اللحظات المميّزة لتهدئ أعصابها.

بعد عشر دقائق، دخلت بيل غرفة الطعام فنهض أنطونيو عن كرسيه ومدّ لها ذراعيه.

- ابنتي الغالية! اليوم تبلغين سن الرشد، ويغمرني الشعور بالفخر لكونك ابنتي. تعالي إلى حضن والدك.

دخلت بيل بين ذراعي والدها الضخمين ليتغلغل في أنفها عطره المألوف ورائحة الزيت الذي يستخدمه في تثبيت شعره.

- قبّلي والدتك قبل أن نقدّم لك الهدية التي اخترناها خصيصًا لهذه المناسبة.

- بيكّولينا. قالت كارلا على غفلة مصبّحة ابنتها بلهجتها الإيطالية القديمة.

ثم نهضت عن الطاولة لتقبّلها بحرارة، وفتحت ذراعيها كي تحضنها.

- انظري إلى نفسك، أنت رائعة الجمال.

- لا شك في أنها ورثت ذلك الجمال عن أمها العزيزة. قاطعهما أنطونيو وهو يخطف نظرة حنونة إلى زوجته.

على الرغم من أن أنطونيو لم يظهر في الأيام الأخيرة عاطفته إلا نادرًا، فقد تمكّنت بيل من رؤية الدموع في عينيه. فعادت بها الذاكرة إلى الأيام التي كانوا فيها عائلة إيطالية بسيطة، قبل أن يصبحوا فاحشي الثراء. فشعرت بغصّة في حلقها.

- انظري إلى الهدية التي اشتريناها لك. قال أنطونيو وهو ينحني فوق الكرسي الذي وضع عليه صندوقين مغلّفين بالمخمل.

- انظري إلى هذا. تابع وهو يمسك بالصندوق الأكبر ويرفع غطاءه ليكشف عما في داخله.

- وإلى هذا أيضًا. قال وهو يفتح الصندوق الثاني وكان أصغر حجمًا.

شهقت بيل من الدهشة ما إن وقع نظرها على عقد الزمرد والأقراط المتمِّمة له.

- ياي، يا إلهي كم هي رائعة! وحنت رأسها لتتفقّد الهدية عن قرب. وبعد أن استأذنت والدها رفعت العقد عن بطانة الحرير. كان من الذهب الخالص وفيه أحجار زمرد متفاوتة يتوجّها حجر فائق الروعة كان سيلمع عند صدرها.

- جرّبيها. أصرّ والدها داعيًا زوجته إلى إقفال العقد عند رقبتها. وما إن فعلت كارلا حتى قرّبت بيل أصابعها من حنجرتها لتداعب ملمس الحجارة الناعم.

- هل يليق بي؟

- أنصحك بوضع الأقراط قبل أن تنظري في المرآة. قال أنطونيو. وساعدتها كارلا على إدخال الأقراط المرصّعة بحجرين على شكل دمعةٍ في أذنيها.

- والآن تفضّلي من هنا. قال أنطونيو وهو يقودها إلى المرآة المعلّقة فوق البوفيه.

- يا لروعتها! تعجّب قائلًا وهو ينظر إلى انعكاسها المتلألِئ على بشرتها الملساء الناعمة فوق رقبتها النحيلة.

- باي، لا شكّ في أنها كلّفتك ثروة!

- عثرت عليها في مناجم الزمرد في ميناس جيرايس، وقد اخترت بنفسي الأفضل بين كل الأحجار غير المصقولة المتوافرة هناك.

- ثقي يا حبيبتي أننا اخترنا لك فستان الحرير الناعم المطرّز بخيط الزمرد عن قصد ليسلّط الضوء على هدية عيد ميلادك. أضافت كارلا.

استطرد أنطونيو قائلًا: «هذه الليلة يا حبيبتي، لن تعثري في حفلتك على امرأة واحدة تضع مجوهرات أجمل وأثمن من هذه، وإن كانت ستضع على رأسها التاج الملكي البرتغالي نفسه!».

وعلى الفور تلاشت الفرحة التي تشعر بها كل فتاة إثر تلقيها هدية مثل هذه، عندما أدركت بيل، وهي لا تزال تنظر في المرآة، أن الدافع من وراء إهدائها تلك المجوهرات، لم يكن رغبة أب في إرضاء ابنته الوحيدة يوم عيد ميلادها الثامن عشر، ولكن إثارة إعجاب الجمهور الكريم الذين سيشارك في الحفلة.

عندئذ تحولت الحجارة الخضراء اللمّاعة، التي لفّت عنقها، هدية مُبتذَلة مجبولة بالغرور... فشعرت وكأنه يحوّلها إلى لوحة ليعرض عليها زخارف ثروته، وامتلأت عيناها بالدموع.

- آه يا حبيبتي، لمَ تبكين؟ سألتها كارلا وهي تقترب منها لتواسيها.

- لا بدّ من أنك تشعرين بشيء من الارتباك، أنصحك بألّا ترهقي نفسك في التفكير في يومٍ خاصٍ مثل هذا.

وبطريقة لا شعورية دنت بيل من أمها لتلقي برأسها على كتفها، بعد أن استولى عليها الخوف من المستقبل.

تذكّرت بيل حفلة عيد ميلادها الثامن عشر في كوباكابانا بالاس. تلك الليلة التي قدّمتها رسميًّا هي ووالدها إلى مجتمع ريو، في عرضٍ من اللقطات الحيّة.

يبدو أن غابرييلا قدّمت الأضاحي المناسبة للسيدة العذراء لأنها ما إن دخلت تستحم عند الساعة الرابعة، حتى توقف المطر فجأة، بعد أن انشقت السماوات نصفين طوال فترة بعد الظهر. ثم وصل المزيّن ليصفّف شعرها السميك اللمّاع ويحبك سلاسل الزمرد التي كانت هدية أخرى من والدها، في كعكة صمّمها من خصلها. أما ثوبها المصنوع من ساتان الحرير في باريس، والذي قامت خبيرة الموضة مدام دوشين بتعديله لإبراز ثدييها وتنحيف وركيها وتسطيح بطنها، فكان لائقًا بها وكأنه صُمِّم خصيصًا من أجلها.

حينما وصلت إلى الفندق، انهال عليها المصوّرون الذين تلقّوا دعوةً من والدها، وبدأوا بالتقاط صورها وهي تترجّل من السيارة، ما أدّى إلى برق سيل من الفلاشات في وجهها وهي تسير إلى الداخل ممسكةً بذراع والدها.

بقيت نافورة الشمبانيا تتدفّق كالمياه طوال الوقت، أما كافيار البيلوجا النادر والمستورد من روسيا، فكان متوفرًا بكمية هائلة وكأنه سالغادينوس، الوجبة الرخيصة التي نجدها عند الباعة المتجوّلين.

بعد العشاء الفاخر، الذي تُوِّج بطبق كركند ثرميدور وبأفضل أنواع النبيذ الفرنسي، قامت فرقة موسيقية، وكانت الأشهر في ريو، بالعزف على الشرفة. وقد قامت إدارة الفندق بتغطية المسبح الأولمبي بألواح خشبية ليتحوّل إلى حلبة تتيح للضيوف الرقص على ضوء النجوم.

يبدو أن أنطونيو رفض رفضًا قاطعًا أن تُعزف السامبا في تلك الحفلة على الرغم من شعبيتها المتزايدة، لكونها لا تزال تُصنّف في ريو موسيقى الأحياء الشعبية.

إلا أن سينيورا سانتوس أقنعته بالسماح برقصتي تانغو برازيلي أو ثلاث، لخطواتها الحيوية ولكونها كانت رائجة حينها في النوادي الأكثر روّادًا في باريس ونيويورك.

ثم تذكرت بيل رقصاتها العديدة على الحلبة، والأيادي التي كانت تلامس بين الحين والآخر كتفيها العاريتين، وانتفاضها مثل الغبار ما أن تشعر بيد تلامسها، غير مكترثة لأمر أي من أولئك الرجال.

لاحقًا أحضر أنطونيو شخصيًا أحد المدعوّين الشبان ليقدّمه إليها.

- إيزابيلا، اسمحي لي بأن أقدّم إليك غوستافو آيريس كابرال. كان ينظر إليك من بعيد، وسيسرّه كثيرًا أن تقبلي مشاركته الرقص.

على الفور، أدركت بيل من كنيته أن ذلك الصعلوك المذعور هو ابن أحد أكثر العائلات أرستوقراطية في البرازيل.

- طبعًا. قالت وهي تخفض جفنيها باحترام.

- شرف لي يا سينيور.

ولم تقدر إلّا أن تلاحظ قصر قامته لأنه بالكاد استطاع النظر إلى عينيها من دون أن يرفع رأسه. وعندما انحنى ليقبّل يدها، أُتيحت لها الفرصة لتلاحظ شعره الخفيف.

- سينيوريتا، أين كنت مختبئة؟ تمتم غوستافو وهو يقودها إلى حلبة الرقص.

- أنت أجمل امرأة في ريو على الإطلاق.

لم تحتج بيل إلى النظر إلى والدها لترى إن كان يراقبهما، لأن ابتسامته العريضة التي ارتسمت على شفتيه كانت قد اخترقتها من الخلف.

في وقتٍ لاحق، عندما حان موعد قطع قالب الحلوى الذي ارتفع عشرة طوابق، وُقدّمت كأس أخرى من شمبانيا النافورة ليشرب الجميع نخب بيل، دوّى عصف من الأصوات دفع بكل من كان حاضرًا على الشرفة، بمن فيهم بيل، للالتفات إلى الشاطئ. وإذ بقارب يطفو فوق الأمواج، مطلقًا الألعاب النارية التي أضاءت بألوانها في تلك الليلة سماء ريو، فشهق الجميع تعجّبًا وانبهارًا. في ذلك

الوقت، بقي غوستافو ملتصقًا بكتف بيل، ما اضطرها إلى اصطناع بسمة زائفة طوال الوقت.

***

في اليوم التالي، استيقظت بيل في الحادية عشرة صباحًا لتكتب رسالة إلى لوين الموجودة في المزرعة، تخبرها فيها بتفاصيل الحفلة، إذ كانت تتوقّع أن تكون تلك الأخيرة على أحرّ من الجمر لمعرفة آخر الأخبار. خرجت بيل من غرفتها ونزلت إلى الطابق السفلي. وعلى الرغم من أن عائلة بونيفاسيو لم ترجع إلى المنزل قبل الرابعة فجرًا، وجدت بيل والديها يجلسان إلى مائدة الفطور في ذلك الوقت المتأخر، لكنّ التعب كانت يظهر بوضوح عليهما. ما إن رآها أنطونيو حتى صاح بزوجته:

- انظري من وصل، أميرة ريو الجديدة!

- صباح الخير پاي، صباح الخير ماي. قالت بيل وهي تنضم إليهما. ثم اقتربت غابرييلا لتقدّم لها وجبة الفطور، فشكرتها وهي تبعد الطعام بيدها عن طبقها قائلة:

- سأكتفي بالقهوة.

- كيف تشعرين يا حبيبتي؟

- مرهقة قليلًا.

- ربما لأنك بالغتِ في شرب الشمبانيا ليلة البارحة؟ تساءل أنطونيو.

- أنا واثق من ذلك.

- لا، فأنا لم أشرب سوى كأس واحدة طوال الليلة. كل ما في الأمر أنني أشعر بالتعب. هل ستغيب عن المكتب اليوم يا پاي؟

- لا، أريد أن أصل متأخّرًا ولو لمرّةٍ واحدةٍ في الحياة بعد أن ألقي نظرة على هذا. قال أنطونيو وهو يشير إلى صينية فضية موضوعة على الطاولة، تكدّس فوقها البريد.

- بدأ عدد من الضيوف بإرسال خدمهم ليسلمونا رسائل شكر عن الليلة الماضية، وليوجّهوا لك دعوات على الغداء والعشاء. وجدت بينها واحدة موجهة إليك شخصيًّا. لكنني بالطبع لم أطلع على محتواها، إلا أنني أخمّن هوية المرسل من الختم الموجود على ظهرها. خذي يا إيزابيلا، افتحيها من فضلك وأخبري والديك بمضمونها.

ما إن سلّم أنطونيو المظروف لإيزابيلا، حتى رأت شارة آيريس كابرال المختومة بالشمع الأحمر. ففتحت الظرف وقرأت الأسطر القليلة المنقوشة بخط كبير على الورقة.

- إذًا؟ سألها أنطونيو.

- إنها من غوستافو آيريس كابرال. وهو يشكرني على الليلة الماضية ويأمل معاودة لقائي قريبًا.

صفّق أنطونيو من فرحته ثم قال: «يا لكِ من فتاةٍ ذكيةٍ يا إيزابيلا! غوستافو ينحدر من عائلة آخر إمبراطور للبرتغال، وهو يحظى بأحد أفضل الأنساب في ريو».

- وأنا متفاجئة من مراسلته ابنتنا. أضافت كارلا وهي تشبك ذراعيها على صدرها وتسترسل في التفكير.

بعد أن عاينت بيل ملامح والديها وشعرت بحماستهما، تنهّدت وقالت: «پاي، كل ما في الأمر أنّ غوستافو أرسل لي بطاقة شكر على استضافته البارحة. هو لم يعرض عليّ الزواج بعد».

- بالطبع لا، يا *querida*، لكنه قد يفعل ذات يوم. أجابها أنطونيو وهو يغمزها.

- كنت شاهدًا على نظراته المسحورة بك، وأعتقد أن تصرّفاتٍ مثل هذه تكشف لنا عن خطوته الآتية. أليس كذلك؟

ثم رفع أنطونيو صحيفة جورنال دو برازيل وأشار إلى صورة بيل، وهي تصل مشعةً إلى الحفلة، تتصدّر الصفحة الأولى.

- أنتِ حديث المدينة يا أميرتي، هذا يعني أن حياتك وحياتنا ستنقلب منذ اليوم رأسًا على عقب.

هذا ما حصل تمامًا في الأسابيع القليلة التالية. فمع اقتراب عيد الميلاد ونشاط موسم ريو الاجتماعي، بلغت سعادة بيل ذروتها. فاستُدعيت مدام دوشين من جديد إلى المنزل لتصمِّم لبيل تشكيلةً خاصةً من فساتين الرقص والأوبرا والسهرات. أمّا بيل التي تتلمذت بتفوّق على يد سينيورا سانتوس فقد تألّقت في كل مناسبة بحسن تصرّفها.

أما غوستافو آيريس كابرال الذي لقّبته بيل وماريا إليسا فيما بينهما، بالنمس، لشبهه الكبير بحيوان النمس، ولعادته السيئة في التمسّك ببيل على الدوام، فكان حاضرًا في كثير من المناسبات.

ليلة افتتاح مسرحية دون جيوفاني في مسرح البلدية، التقى غوستافو بيل في البهو الكبير وأصرّ عليها لترافقه إلى حجرة والديه خلال الاستراحة ليتمكّن من تقديمها رسميًّا لهما.

- عليكِ أن تشعري بالفخر. قالت ماريا إليسا وهي ترفع حاجبيها ما إن انسحب غوستافو مخترقًا الحشد، ليحتسي الشمبانيا في قاعة الاستقبال قبل أن تُرفع الستارة من جديد.

- تعرفين أن والديه هما الأقرب في النسب إلى آخر ملوك ريو، أو على الأقل هما يتصرّفان وكأنهما الأقرب إليه. قالت وهي تنفجر من الضحك».

لاحقًا، اقتاد غوستافو بيل إلى حجرة آيريس كابرال وقت الاستراحة، فوجدت نفسها تنحني تلقائيًّا كما لو أنها تلقي التحية على الإمبراطور نفسه. فأخذت والدة غوستافو لويزا آيريس كابرال، وهي سيّدة متعجرفة مغطّاة بالماس، تعاينها بعينين ضيّقتين.

- سينيوريتا بونيفاسيو، أنتِ حقًّا جميلة مثلما يردّد الجميع. قالت لها بلطف.

- شكرًا لك. أجابتها بيل وقد شعرت بالخجل.

- أين والداك؟ هل جئت برفقتهما؟ لم تسنح لنا الفرصة بعد بالتعرّف إليهما.

- لا، لم يحضرا الليلة.

- قيل لي إن والدك يملك عددًا كبيرًا من مزارع البن في ساو باولو. قال مَوريسيو والد غوستافو الذي بدا لها نسخة طبق الأصل عن ابنه.

- نعم سينيور، هذا صحيح.

- وبفضلها أصبح فاحش الثراء. بالطبع، ففرص جني الأموال الطائلة كثيرة في هذه المنطقة. علّقت لويزا.

- أجل سينيورا. قالت بيل لتجاريها في الكلام بعد أن أدركت محاولتها الضمنية في تحقيرهم.

- حسنًا. قاطعها مَوريسيو وهو يوجّه إليها نظرةً تحذيرية.

- علينا أن نخطّط لدعوتكم إلى الغداء.

- بالتأكيد أجابت سينيورا آيريس كابرال وهي تومئ برأسها لبيل، ثم تحوّل انتباهها إلى جارتها.

- أعتقد أنهما أحبّاك. قال غوستافو وهو يعيدها إلى حجرتها.

- هل تعتقد؟ أجابته بيل وهي تفكّر عكس ذلك.

- نعم، لقد طرحا عليك أسئلةً وأظهرا لك اهتمامهما. هذه علامة جيدة، سأذكّرهما بوعدهما في دعوة والديك إلى الغداء.

وفور انضمامها إلى ماريا إليسا، أخبرتها بأنّها تتمنّى أن ينسى غوستافو الأمر.

لكنّ الدعوة التي وجّهها آل آيريس كابرال إلى عائلة بونيفاسيو لم تتأخّر في الوصول إلى منزلهم، لتثير في نفس كارلا قلقًا. فراحت تجرّب معظم الفساتين المعلّقة في خزانتها لتختار ثوبًا يليق بالمناسبة.

- من فضلك يا ماي، هذه مجرّد دعوةٍ إلى الغداء. لذلك أعتقد أن عائلة آيريس كابرال لن تهتم لملابسك. قالت بيل وهي تتوسّل إلى أمها بألّا تقلق.

- لا، بل سيهتمون. ألم تدركي أننا دُعينا إلى هناك لاختبارنا؟ وكلمة واحدة سلبية من لويزا آيريس كابرال ستغلق كل الأبواب التي فُتحت في وجوهنا حتى الآن.

تنهّدت بيل وخرجت من غرفة ملابس والدتها وهي تكاد تصرخ لكونها غير مهتمة بطريقة تفكير عائلة آيريس كابرال بها أو بوالديها. ففي كل الأحوال لم يكن يخطر في بالها أن يبيعوها إليهم وكأنها قطعة أرض.

- هل ستقبلين الزواج به إذا عرضه عليك؟ سألتها ماريا إليسا في آخر زيارة لها بعد أن أخبرتها بيل عن تلك الدعوة.

- يا إلهي، ماريا إليسا! بالكاد أعرفه. وأنا واثقة من أن والديه يرغبان في تزويجه بأميرة برتغالية وليس بابنة مهاجرين إيطاليين.

- لعلك على حق. لكنّ والدي أخبرنا بأن آل آيريس كابرال يمرّون حاليًا بأوقات عصيبة، لأنهم مثل عائلات أرستقراطية متأصّلة عديدة، جمعوا أموالهم قبل مئتي سنة من مناجم الذهب في ميناس جيرايس. لكن مزارع البن التي كانوا يمتلكونها أفلست إثر انعتاق الرقيق. ووفق والدي هم لم يقوموا بأي مجهود ليعوّضوا خسائرهم، وهذا الذي أدّى إلى تضاؤل ثرواتهم.

- كيف يمكن لآل آيريس كابرال أن يكونوا مفلسين وهم يعيشون اليوم في أحد أرقى المنازل وأفخمها في ريو. فضلًا عن ذلك، فإن والدة غوستافو كانت مثقلة بالجواهر المرة الماضية؟ سألت بيل.

- لا يمكن لنا الحكم على المجوهرات لأنها غالبًا ما تكون موروثات عائلية، في حين أن المنزل لم يُطلَ مرة واحدة طوال الخمسين سنة الماضية. سبق لپاي أن زاره مرة ليقيّم التصليحات التي يحتاج إليها، فذكر أمامنا أنه يعاني من

الرطوبة لدرجة اخضرار طلاء جُدُر الحمام من كثرة العفن. وعندما قدّم لسينيور آيريس كابرال فاتورة شكلية، شهق مذعورًا وطرده من المنزل. قالت ماريا إليسا مستهزئة.

وبعد قليل أضافت وهي تنظر إلى بيل:

- أقسم لك أن اسمهم يساوي أكثر من ثروتهم. على عكس والدك الذي يعدّ فاحش الثراء لذلك مهما تحاولي أن تتجاهلي الأمر أنصحك بألّا تتغافلي عن الواقع.

- حتى وإن عرض عليّ الزواج، لا يستطيعون إجباري على الزواج به يا ماريا إليسا، خصوصًا وأنه لن يكون مصدر سعادتي.

- حسنًا، أعتقد أن والدك سيبذل قصارى جهده في إقناعك لأن موافقتك عليه ستكون تحقيقًا لحلمه القديم بأن تحمل ابنته الوحيدة اسم عائلة آيريس كابرال، وأن يكون أحفاده من ذريّتهم. فمن الخارج، أيًّا يكن سينظر إلى هذا الزواج على أنه صفقة العمر، أنت لديك الجمال والثروة وغوستافو لديه النسب النبيل.

وعلى الرغم من أن بيل كانت تحاول إبعاد ذلك السيناريو عن تفكيرها، لكنّ صراحة ماريا إليسا هبطت عليها مثل الصاعقة.

- ليساعدني اللّه. قالت بيل وهي تتنهّد.

- ماذا أفعل؟

- لا أعرف يا بيل، حقًا لا أعرف.

ولإخماد شعورها باليأس الذي بدأ يربكها، غيّرت بيل الموضوع بسرعة، وتطرّقت إلى الموضوع الذي سبق لماريا إليسا أن ذكرته أمامها وبقيت تفكّر فيه بلا انقطاع.

- متى تغادرون إلى أوروبا؟

- بعد ستة أسابيع، وأنا أتطلّع بشوق لذلك. لقد قام باي بحجز المقصورات على متن الباخرة التي ستقلّنا إلى فرنسا.

- ماريا إليسا... قالت بيل وهي تمد ذراعها لتمسك بكف صديقتها.

- أتوسّل إليك بأن تطلبي من والدك أن يتحدث إلى والدي كي أرافقكم إلى باريس. أرجوك أن تصرّي عليه لإقناعه بأنّ من المفيد لي أن أكلّل تعلّمي بجولة في العالم القديم، إذا كان يرغب بالفعل في أن أحظى بزواج جيّد. لقد كنتِ محقّة عندما قلت إنني إنْ لم أتحرّك اليوم، سيجبرني والداي على الزواج من غوستافو في الأشهر القليلة المقبلة. لذلك عليّ أن أجد طريقة للهروب من هنا، فمن فضلك ساعديني.

- مفهوم. أجابتها ماريا إليسا وهي تنظر بعينيها البنيّتين إلى بيل وهي تستنجد بها.

- سأتحدث إلى باي وأرى ما نستطيع فعله. أرجو ألّا يكون الأوان قد فات، لأن الدعوة التي وجهها إليكم آل آيريس كابرال تُنبئ بزواجٍ وشيك.

- لكنني في الثامنة عشرة من عمري، وما زلت حتمًا صغيرة على الزواج؟ ألم تسمعي بيرثا لوتز وهي تطلب إلينا النضال من أجل استقلالنا وكسب قوتِنا بأنفسنا، كي لا نضطر إلى وهب أنفسنا لمن يملك ثروة أكبر عندما يتقدّمون لنا بالزواج. وهل هناك امرأة لم تنضم إليها في مطالبتها بالمساواة؟

- أجل يا بيل، لكن أولئك النساء لسنَ أنت. قالت ماريا إليسا وهي تحاول تهدئة صديقتها بتربيت يدها.

- أعدك بأنّني سأتحدّث إلى باي لنرى إذا كنّا قادرين على إخراجك من ريو لبضعة أشهر على الأقل.

- حتى أنني قد لا أعود مطلقًا. غمغمت بيل.

في اليوم التالي، ركبت بيل السيارة مع والديها لتقلّهم إلى كازا داس أوركيدياس، منزل عائلة آيريس كابرال. فجلست كارلا بجانب ابنتها التي شعرت بتوتّرها.

- ماي، هذه ليست إلا دعوة إلى الغداء.

- أعرف يا حبيبتي. أجابت كارلا وهي تنظر أمامها بعد أن عبر السائق البوابات الحديدية الطويلة متابعًا سيره على طول الممر إلى مدخل القصر الأبيض المهيب.

- يا لروعة هذا المنزل.

- قال أنطونيو وهو يترجّل من السيارة. ثم مشى الثلاثة داخل الرواق الطويل المؤدي إلى الباب الأمامي.

على الرغم من حجم المنزل المهيب وهندسته الكلاسيكية الفاخرة، لاحظت بيل إهمالًا في الحديقة وأثر الزمان على الطلاء الخارجي، فتذكّرت على الفور ما قالته لها ماريا إليسا.

استقبلتهم الخادمة وقادتهم إلى غرفة جلوس معتمة، أثاثها من الطراز القديم. وما إن دخلت بيل، حتى فاحت في منخريها رائحة الرطوبة، فشعرت بقشعريرة في جسمها على الرغم من الحرارة المرتفعة في الخارج.

- سأعلم سينيورا آيريس كابرال بوصولكم. قالت الخادمة وهي تدعوهم إلى الجلوس.

جلس الثلاثة في صمتٍ رهيبٍ بانتظار وصول مضيفيهم. إلا أن انتظارهم قد طال على نحوٍ مبالَغٍ فيه إلى أن دخل في النهاية غوستافو.

- سينيورا وسينيور بونيفاسيو، سينيوريتا إيزابيلا، لقد سررت بزيارتكم. ربّما تأخر والداي في النزول لكنهما سيحضران حالًا.

صافح غوستافو أنطونيو، ومن ثمَّ قبّل يد كارلا، وبعد ذلك أمسك بيد بيل. وقال لها:

- هل تسمحين لي بأن أعبّر اليوم بطلاقة عن إعجابي بك يا إيزابيلا. والآن، اسمحوا لي بأن أقدّم لكم المرطبات إلى حين وصول والديّ؟

بعد مرور عشر دقائق على حديثهم المصطنع، دخل سينيور آيريس كابرال الغرفة برفقة زوجته.

- نعتذر عن التأخير، لقد طرأت علينا مسألة عائلية. قال سينيور آيريس كابرال.

- إلا أننا هنا الآن. ما رأيكم لو ننتقل مباشرة إلى المائدة؟

كانت غرفة الطعام في غاية الفخامة، فالطاولة الأنيقة المصنوعة من خشب الماهوغوني كانت قابلة للاتساع لأربعين شخصًا. وعندما نظرت بيل إلى السقف، لاحظت الشقوق الكثيرة التي تشوّه الأفاريز المزخرفة الباهرة.

- هل تشعرين بالراحة يا سينيوريتا؟ سأل غوستافو إيزابيلا بينما كان يجلس بجانبها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- نعم، شكرًا.

- ممتاز.

بذلت بيل جهدها لإيجاد ما تحادثه فيه تلك الليلة، إذ كانت قد استنفدت الكلام البديهي الذي يُقال عادة، في مناسبات سابقة، كلما وجدت نفسها بجواره.

- منذ متى وأنتم تعيشون في هذا المنزل؟ سألته بعد طول تفكير.

- أجابها غوستافو.

- منذ مئتي سنة. وأعتقد أن لا شيء قد تغير فيه منذ ذلك الوقت. قال مبتسمًا.

- أحيانًا أشعر وكأنني أعيش في متحف بالرغم من أنه منزل جميل.

- لا، بل إنه رائع أجابت بيل مصادقةً على كلامه.

- تمامًا مثلك أنت. أضاف غوستافو بلباقة.

أثناء جلوسهم إلى مائدة الطعام، أدارت بيل مرارًا رأسها من ناحية غوستافو وفي كل مرة، كانت تمسك به وهو يحدق إليها بعينين ملؤهما الإعجاب. أما والداه فلم يكتفيا بتصنّع الحديث مع والديها، إنما بدا لها أنهما استدعياهما لاستجوابهما. وسرعان ما انتبهت بيل، التي كانت تجلس قبالة أمها، إلى التوتر يعلو وجهها وهي تقوم بمجهود كبير لمحادثة سينيورا آيريس كابرال، فرمقتها بنظرةٍ متعاطفة.

لكن ما إن أعطى النبيذ مفعوله، وخفّف من حدّة التوتّر بين الحاضرين، حتّى أصبح غوستافو على وجه الخصوص، يحادث إيزابيلا بارتياح أكبر. فخلال ذلك

الغداء، اكتشفت بيل شغف غوستافو بالأدب، وحبه للموسيقى الكلاسيكية، ودراسته الفلسفة اليونانية والتاريخ البرتغالي. وعرفت أنه يملأ وقت فراغه الطويل بقراءة الموضوعات الثقافية لأنه كان من دون عمل، ما غيّر نظرتها فيه. فشعرت بيل بارتياح أكبر له، وبعدما أدركت أنهما يتشاركان الحب نفسه للفنون، انقضى الوقت المتبقي من الدعوة على نحوٍ سلس.

- أعتقد أنك طالب بالفطرة. قالت له وهي تبتسم، بينما نهض المدعوون عن المائدة لتناول القهوة في غرفة الرسم.

- هذا من لطفك يا إيزابيلا. أي مجاملة منك تساوي ألفًا من غيرك. وأنت أيضًا تعرفين كثيرًا عن الفن.

- حلمت دائمًا بالسفر إلى أوروبا للتعرّف عن قرب إلى أشهر أعمال العظماء. قالت وهي تتنهّد.

وبعد نصف ساعة من الوقت، ودّع آل بونيفاسيو مضيفيهم وغادروا إلى المنزل.

وفيما كانت السيارة في طريق العودة، التفت أنطونيو إلى المقعد الخلفي حيث جلست زوجته وابنته وابتسم لهما.

- حسنًا، لا أعتقد أن الأمر كان يمكن أن يؤول إلى أفضل من ذلك.

- بالطبع لا يا عزيزي. أجابت كارلا وهي كالعادة تذعن لآراء زوجها.

- لقد تمت الدعوة على خير ما يرام.

- ولكن ذلك المنزل... يا إلهي! يحتاج إلى إعادة بناء من جديد. أو إلى ثروة تؤمّنها مزارع البن ليستعيد أمجاده.

وتابع أنطونيو تباهيه قائلًا: حتى الطعام الذي قدّموه... ثقوا بأنني تناولت أفضل منه بكثير في كوخ هناك بجانب الشاطئ. لذلك يا كارلا، سوف ندعوهم الأسبوع المقبل إلى العشاء لنريهم كيف تكون الضيافة في منزلنا. أخبري الطاهي بأن يشتري أجود أنواع السمك ولحوم البقر وألا يبخل في الإنفاق.

حسنًا يا أنطونيو.

عندما وصلوا إلى المنزل، تذرّع أنطونيو بوجوب ذهابه إلى المكتب لبضع ساعات. فترجلت كارلا وبيل من السيارة عند المدخل وتنزّهتا عائدتين إلى المنزل عبر الحديقة.

- لقد بدا لي غوستافو بغاية اللطافة. تجرأت كارلا على القول، وهي تعلّق على الدعوة.

- أنت محقّة. أجابتها بيل.

- أنت تشعرين بأنه مغرم بك، أليس كذلك؟

- لا يا ماي، كيف سيغرم بي وهذه هي المرة الأولى الذي يطول فيها حديثنا.

- لاحظت كيف كان يراقبك على مأدبة الغداء. أنا واثقة من أنه مغرم بك. قالت كارلا وهي تتنهد بعمق.

- وهذا أكثر ما يجعلني سعيدة.

15

- هل طلبتِ من والدك أن يُحدّث والدي عن رحلة أوروبا.

- سألت بيل ماريا إليسا بنبرةٍ يائسة عندما جاءت لزيارتها بعد بضعة أيام.

- نعم. قالت ماريا إليسا أثناء جلوسهما في الحديقة مثل كل مرّة.

- سيسرّه كثيرًا أن يوافق والدك على مرافقتنا. لقد وعدني بالتحدث إليه عندما سيأتي لاصطحابي.

- يا إلهي. تنفّست بيل الصعداء.

لا يسعني سوى الدعاء من أجل أن يقتنع والدي بضرورة زيارتي أوروبا.

- لكنني قلقة قليلًا يا بيل. بحسب ما أخبرتني به لتوّك، أعتقد أن عرض غوستافو للزواج سيأتي أقرب مما نتوقّعه. فحتّى لو وافق والدك، أشكّ في أن يسمح لك خطيبك بأن تغيبي عن نظره.

ثم توقفت ماريا إليسا للحظة عندما شعرت بالقلق يعلو وجه بيل قبل أن تتابع حديثها:

- هل فكرة الزواج بغوستافو تثير اشمئزازك إلى هذا الحد؟ لقد قلت بنفسك إن غوستافو ذكي وطيّب القلب. كما أنك ستعيشين في واحد من أجمل منازل ريو، وأنا واثقة من أن والدك سيُسرّ بإعادة تصميمه على ذوقك. فضلًا عن أننا إذا أضفنا كنيتك الجديدة إلى جمالك الساحر، ستكونين ملكة ريو المقبلة. كثيرات هن الفتيات اللواتي يحلمن بهذه الفرصة. أوضحت ماريا إليسا.

- ماذا تقولين يا ماريا إليسا؟ سألت بيل وهي تنظر إلى صديقتها بعينيها الداكنتين اللمّاعتين.

- اعتقدت أنك تقفين في صفّي.

- وأنا في صفّك يا بيل، لكنك تعرفين طباعي، فأنا امرأة عملية وأحكّم عقلي أكثر من قلبي. كل ما أقصده الآن هو أنك تعرّضين نفسك للأسوأ.

قالت بيل وهي تعضّ على يديها:

- أنا واثقة من مشاعري تجاهه يا ماريا إليسا وهذا هو الأهم.

- كنت سأتّفق معك في الرأي لو أننا نعيش في عالم مثالي، لكننا نعرف تمامًا أنه ليس كذلك.

- أنت تفكرين مثل امرأة عجوز، يا ماريا إليسا. «ألا ترغبين في الوقوع في الحب؟».

- قد تكونين على حق. قالت ماريا إليسا.

- لكنني أعرف أيضًا أن الحبّ ليس الاعتبار الوحيد الذي نفكر فيه عندما نقرّر الزواج. كل ما أرجوه منك هو أن تكوني حذرةً لأنك في حال رفضت غوستافو، سيُعتبر ذلك ازدراءً منك بحق عائلته. صحيح أنهم ليسوا الأغنى هنا، لكنهم ذوو نفوذ قوي. لذلك هناك احتمال كبير بأن يصعّبوا عليكم مواصلة العيش في ريو لاحقًا.

- أفهم منك أنه إذا عرض غوستافو عليّ الزواج فخياري الوحيد هو القبول؟ أفضّل تسلّق جبل كوركوڤادو لأرمي بنفسي من فوق؟

- من فضلك يا بيل. قالت ماريا إليسا وهي تحرّك رأسها وترفع حاجبيها.

- هدّئي من روعك، فأنا واثقة من أنّك ستجدين طريقة للتحايل على الأمر. بالرغم من أنني أجدك مجبرةً على التوفيق بين ما تتمنينه لنفسك وما يرغبه منك الآخرون.

راحت بيل تحلِّل ما قالته ماريا إليسا وهي تراقب طائرًا طنّانًا يتنقّل بين الأشجار. ورغم حفاظها ظاهريًا على هدوئها المعتاد لتبدو مثل المياه الراكدة في بركةٍ مغلقة، إلا أنها داخليًا كانت تغلي مثل مياه الشلال التي تهدر من أعلى الجبال لترتطم بالصخور في أسفلها.

- كم أتمنّى لو كنت قادرة على النظر إلى الموضوع من زاوية المنطق كما تفعلين يا ماريا إليسا.

- أنت تفتقدين إلى مرونتي في تقبّل الواقع. كما أفتقد إلى همّتك وجمالك يا بيل، هذا كل ما في الأمر.

- لا تكوني سخيفة، لأنك في نظري أجمل فتاة تعرفت إليها في هذه المدينة، قلبًا وقالبًا». ثم وقفت بيل بسرعة لتعانق صديقتها.

- شكرًا على النصيحة وعلى المساعدة أيضًا، فأنت صديقة رائعة.

بعد ساعةٍ من الوقت، وصل والد ماريا إليسا، هيتور دا سيلڤا كوستا، إلى الباب الأمامي لمانساو دا پرنسيسا. فتحت غابرييلا له الباب فيما اختبأت الفتاتان خلف الباب في حجرة الجلوس بعد أن سمعتاه يطلب مقابلة أنطونيو.

لم يسبق لبيل أن تبادلت أي حديث مع سينيور دا سيلڤا كوستا باستثناء بعض المجاملات في مناسبات اجتماعية مختلفة، لكنها أحبّت كثيرًا ما رأته لتوّها. فراحت تفكّر في وسامته وملامحه الجميلة وعينيه الزرقاوين الفاتحتين اللتين يجول بهما مرارًا في أماكن بعيدة يرجّح أن تكون قمة جبل كوركوڤادو العالية، مقر إقامة التمثال الضخم للكريستو الذي يبنيه.

ما إن رأت والدها يستقبل هيتور بحرارة على الرغم من أنه لم يكن يتوقع زيارته، تنفّست بيل الصعداء وشعرت ببصيص أملٍ لمعرفتها مدى احترام أنطونيو لهيتور؛ أولًا لكونه من عائلة برتغالية عريقة، وثانيًا بسبب مشروع الكريستو الذي كان يبنيه والذي جعله مؤخّرًا أشهر من نار على علم. وشاهدت الفتاتان والديهما يدخلان غرفة الرسم ويغلقان الباب وراءهما.

- لا يسعني الانتظار. قالت بيل وهي ترمي بنفسها فوق كرسيها.

- من يصدّق أن مستقبلي برمّته يتوقّف على هذه المحادثة.

- لا تكوني مأسوية يا بيل، سترين أن كل شيء سيكون على ما يرام. قالت ماريا إليسا وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة.

عشرون دقيقة مرّت على بيل وهي تعاني من مرارة الترقّب. وفجأة فتح باب الغرفة وخرج منها الرجلان وهما يتحادثان عن مشروع كريستو.

سمعت هيتور يقول لوالدها: «أخبرني، من فضلك، متى تريد أن تصعد إلى قمة الجبل لترى ما خطّطت له. والآن عليّ أن أجد ابنتي لاصطحابها إلى المنزل».

- على الفور. قال أنطونيو وهو يومئ لغابرييلا لتبحث عن ماريا إليسا.

- سيكون من دواعي سروري أن أراك مجدّدًا يا سينيور، وأشكرك على عرضك الكريم.

- على الرحب والسعة. ها أنتِ هنا يا ماريا إليسا، أسرعي يا حبيبتي لديّ اجتماع في المدينة عند الخامسة. وداعًا، سينيور بونيفاسيو.

عندما استدار الأب وابنته مغادرين المنزل، هزّت ماريا إليسا كتفها من الحيرة تحت أنظار بيل، التي بقيت تحوم حول نفسها في نهاية الرواق، قبل أن تعود وتختفي وراء الباب.

بقيت بيل تراقب تحركات والدها الذي جمد في مكانه لبضع ثوان، ثم التفّ حول نفسه ليدخل مكتبه من جديد. عندما رآها ثابتة في مكانها والقلق بادٍ على وجهها هزّ برأسه وتنهّد بعمق.

- حسنًا، يمكنني أن أخمّن من تعابير وجهك أنكِ كنتِ على دراية بالأمر.

- كانت فكرة ماريا إليسا. أجابت بيل من دون تفكير.

- رجتني أن أسافر معها لتحظى برفيقة طوال الرحلة، كما تعلم ليس لديها سوى شقيقين صغيرين.

- حسنًا، اعلمي يا إيزابيلا أنني أعطيت سينيور دا سيلڤا كوستا جوابًا نهائيًا. ففكرة سفرك وحدك إلى أوروبا غير واردة.

- لكن لمَ يا پاي؟ لا شك في أنك تعرف كم يُمكن لهذه الرحلة أن تحسّن من مستواي العلمي؟

- لست بحاجةٍ إلى مزيدٍ من العلم يا إيزابيلا. لقد أنفقت آلاف الريالات على تعليمك وقد أتت في النهاية بثمارها، لأنك نجحت في إيقاع السمكة الكبيرة في شباكك. كلانا نعرف أنك قريبًا ستتلقّين عرض سينيور غوستافو بالزواج. لذلك، أعطني سببًا وجيهًا يجعلني أوافق على إرسالك في هذا الوقت إلى العالم القديم، وأنتِ على وشك أن تتوَّجي ملكة ريو الجديدة.

- پاي من فضلك، أنا...

- كفى يا إيزابيلا! لا أريد أن أسمع أكثر، لنغلق الموضوع إلى الأبد. أراك عند العشاء.

انفصلت بيل عن والدها منتحبةً، فركضت إلى المطبخ الذي يقع في جهة المنزل الخلفية، ما أثار دهشة الخدم الذين يحضّرون العشاء، وخرجت من الباب المؤدّي إلى الباحة الخارجية. ثم تابعت الركض عبر الحديقة غير آبهة بفستانها، تدفع بنفسها صعودًا على التل المغطّى بالأعشاب البرية، ممسكةً بنباتٍ من هنا وشجرةٍ من هناك لتدفعها أكثر إلى الأعلى.

بعد عشر دقائق، بلغت ما يكفي من البعد لئلا يسمعها أحد وهي تصرخ، وهبطت بجسمها فوق التربة الدافئة، وبدأت تصيح مثل حيوانٍ برّي. بعد أن أفرغت كل غضبها وإحباطها، تركت نفسها تتدحرج فوق التراب وتمسح الأرض بفستانها المصنوع من الشاش. ثم استقرت عند نقطة مطلّة على ريو، وجلست على الأرض مقرّبةً ركبتيها من ذقنها وطوت ذراعيها حولهما بإحكام. راحت تجول بنظرها عبر ريو إلى أن هدّأت المناظر الجميلة من روعها. فقامت أولًا بمسح للأحياء التي تضمنتها كوزمي فيلو، ثم استدارت لتحدق إلى جبل كوركوڤادو الشاهق فوجدت سحابة رمادية تحلّق فوق قمته.

وجدت في الاتجاه المعاكس، على بعد مسافةٍ قصيرةٍ من سفح الجبل، قرية فقيرة يسكنها المفلسون بعد أن بنوا ملاجئهم ممّا توافر لهم.

وبإصغائها لصوت النسيم، كانت قادرة على سماع قرع سكان الأحياء الفقيرة على الطبول وهم يرقصون على وقع موسيقاهم الشعبية التي تُدعى سامبا، لينسوا

بؤس عيشهم. فلم تتأخر تلك المشاهد المحزنة وأصوات الناس اليائسين في إعادة الرشد إليها.

«لستِ أكثر من فتاةٍ ثريّةٍ مدلّلةٍ وأنانيةٍ يا بيل». وبّخت نفسها. «كيف تسمحين لنفسك بالتصرّف هكذا وأنت تملكين أشياء كثيرة في حين أن هؤلاء لا يملكون شيئًا منها؟».

أحنت بيل رأسها بخشوعٍ ووضعته على ركبتيها وراحت تستغفر اللّه وتتضرّع للسيدة العذراء. «أيتها العذراء المباركة، انزعي قلبي من مكانه واستبدلي به قلبًا مثل قلب ماريا إليسا، فهذا القلب لا يفيدني بشيء. أقسم بأنني من الآن فصاعدًا سأكون ممتنّة ومطيعة وبأنني لن أقاوم أوامر أبي».

بعد عشر دقائق، عادت بيل أدراجها إلى أسفل الجبل، عابرةً إلى المطبخ بثيابها المتّسخة وشعرها الأشعث، والأهم من ذلك برأس مرفوع. ثم صعدت إلى الطابق العلوي وطلبت من غابرييلا أن تحضّر لها الحمام حيث تمدّدت داخل مياهه وراحت تتأمّل نفسها وهي تتصرّف كابنةٍ مطيعة، وزوجةٍ حنونة.

وعندما حان موعد العشاء، لم يفتح أحد منهم موضوع الرحلة المرفوضة إلى أوروبا. في تلك الليلة، استلقت بيل على سريرها وهي تعلم أن ذلك الموضوع قد أُقفل إلى الأبد.

16

بعد مرور أسبوعين، لبّى آل آيريس كابرال دعوة آل بونيفاسيو إلى العشاء في منزلهم الفخم مانساو دا پرنسيسا. وبذل أنطونيو جهدًا كبيرًا لإبهار ضيوفه متباهيًا عند كل فرصة بنمو أعماله في زراعة البن خصوصًا وأن الطلب الأميركي على الحبوب البرازيلية كان يزداد مع مرور الوقت.

علّق والد غوستافو على ذلك بقوله:

- عائلتنا أيضًا كانت تملك مزارع بنٍّ عدّة بالقرب من ريو، لكن مع إلغاء العبودية لم تعد المزارع تنفعنا.

أجابه أنطونيو:

- أما أنا فأعتبر نفسي محظوظًا بشراء مزارع قريبة من ساو باولو، لأنها لم تكن تعتمد على المُستعبَدين فحسب. كما أن الأراضي المحيطة بتلك المدينة كانت مناسبة أكثر لزراعة البن. لذلك أفتخر اليوم بإنتاج أجود أنواع البن، وسوف تتأكّدون من ذلك بأنفسكم عندما سيقدّمون القهوة لنا بعد العشاء.

- هذا هو العالم الجديد وعلينا من دون شك أن نحتضنه. أجاب مَوريسيو بشيء من الجدية.

- وأن نكافح من أجل الحفاظ على قيم أجدادنا وتقاليدهم. أضافت والدة غوستافو وهي تلمّح ضمنيًا إلى أمرٍ آخر.

كانت بيل تراقب لويزا آيريس كابرال طوال الوقت أثناء العشاء، لذلك لاحظت أنها بالكاد تبتسم. ممّا لا شك فيه أنها كانت تتمتّع في صغرها بجمال خارق، بالنظر

إلى لون عينيها الساحرتين الأزرق وهيكلها العظمي الرفيع. كما بدا لبيل أن المرارة أكلتها من الداخل فمسحت بمرور الوقت كل أثر لذلك السحر. فقطعت عهدًا على نفسها بألّا تتيح للقدر، مهما كان يخبئ لها في المستقبل، أن يخضعها للمصير نفسه.

- عرفت أنك تصادقين ماريا إليسا ابنة هيتور دا سيلڤا كوستا. قال غوستافو بصوتٍ منخفض.

- هل أنت مقَربة منها؟

- نعم، بالفعل.

- سأرافق والدي في الأسبوع المقبل إلى قمة جبل كوركوڤادو لنقابل سينيور دا سيلڤا كوستا هناك فيخبرنا بما آلت إليه مخطّطاته. باي عضو في الدائرة الكاثوليكية، وهم أول من راودهم حلم رفع نصب تذكاري للكريستو في تلك النقطة. لكنني سمعت بأن خطط سينيور دا سيلڤا كوستا تتغيّر باستمرار، مع العلم أنني لا أحسده على تلك المهمة التي كلّف نفسه بها. فارتفاع الجبل يفوق سبعمئة متر.

- هل تعرف أنني لم أصعد بعد إلى تلك القمة، على الرغم من أننا نعيش بجوارها. أجابت بيل.

- فالجبل يبدأ ارتفاعه من خلف حديقتنا.

- أتمنى أن يسمح لي والدك بأن أصطحبك بنفسي إلى هناك.

- وأنا أيضًا أتمنّى ذلك، شكرًا لك. أجابته بكل تهذيب.

- إذًا، هذا مشروع أتطلّع إليه، سأسأله لاحقًا.

على الرغم من أن بيل أبعدت نظرها عن غوستافو لتنهي حلوى البوديوم دي ليتيه كونديسنادو المحضّرة بالحليب المركّز والكراميل، بقيت تشعر بنظراته المحدّقة إليها.

بعد ساعتين، وما إن أغلقت الخادمة الباب وراء ضيوف آل بونيفاسيو، حتى التفت أنطونيو إلى كارلا وبيل وقال مبتسمًا:

- أعتقد أنهم انبهروا بضيافتنا، وأعتقد أنك يا أميرتي... قال لبيل وهو يلطمها على ذقنها.

- ستسمعين قريبًا جدًّا أخبارًا سارّة من غوستافو، لأنه قبل قليل استأذنني لاصطحابك إلى قمة كوركوڤادو الأسبوع المقبل. برأيي، هذا أفضل مكان ليعرض الشاب الزواج على حبيبته، أليس كذلك؟

فتحت بيل فمها لتعترض على ما قاله والدها لتوّه، لكنها سرعان ما تذكّرت وعدها بأن تتصرّف كابنة مطيعة. وعندئذٍ أجابته بـ«نعم پاي» وهي تخفض جفنيها من الخجل.

في وقتٍ لاحق، تمنّت بيل في قرارة نفسها لو أن لوين موجودة معها لتتناقشا حول كل ما يحدث معها، وبينما كانت تدخل فراشها، سمعت طرقًا على الباب.

- تفضّل.

أطلّت كارلا من خلف الباب.

- حبيبتي، أرجو ألّا أكون قد أيقظتك؟

- لا يا ماي، اقتربي من فضلك. أجابتها وهي تربّت المرتبة. فجلست كارلا على السرير ومدّت ذراعيها لتمسك بيدَي ابنتها.

- إيزابيلا، أريدك ألّا تنسي أنك ابنتي الحبيبة، لذلك أعرفك حقّ المعرفة وأشعر بضرورة استيضاح ما يجول في خاطرك بشأن غوستافو، إذ يبدو أنه سيعرض عليك الزواج قريبًا. هل هذا حقًّا ما تريدين؟

تذكّرت بيل مرة جديد العهد الذي قطعته على نفسها، لذلك تروّت قليلًا قبل أن تجيب والدتها: «في الحقيقة يا ماي أنا لا أحب غوستافو، ولا تروق لي أمه أو أبوه. كلانا نعرف أنهما متعاليان علينا ويفضّلان أن يزوّجا ابنهما الوحيد إلى فتاة برتغالية. لكنني في الوقت نفسه أجد غوستافو طيّبًا ولطيفًا جدًّا، وأعتقد أنه إنسان جيّد. كما أنني أعرف كم أن هذا الزواج سيسعدكما خصوصًا پاي. لذلك...». توقفت بيل عن الكلام لتتنهّد قليلًا قبل أن تتابع:

- لذلك فإنني سأوافق على الزواج به ما إن يتقدّم لي.

حدّقت كارلا إلى ابنتها مطوّلًا قبل أن تسألها:

- هل أنتِ واثقة يا بيل؟ لنضع جانبًا ما يرغب فيه والدك، أجد أنّ من واجبي كأم، التأكد من حقيقة مشاعرك، لأن إجبارك على عيش حياة لا تريدينها هي خطيئة كبرى. أريدك أن تكوني سعيدة، وهذا أكثر ما يهمني.

- شكرًا يا ماي، أثق بأنني سأكون كذلك.

- حسنًا. قالت كارلا بعد طول تفكير.

- أعتقد أن الحب بين الرجل والمرأة ينمو بمرور الوقت. ثقي بذلك لأنني أقولها عن خبرة. ثم ضحكت ساخرة قبل أن تتابع وعظها:

- أنا أيضًا كانت لديّ شكوك في البداية، أما اليوم، وعلى الرغم من كل ما أخفق به، فلا أستبدل به أحدًا. يُفضّل دائمًا أن يكون حب الرجل للمرأة أكبر بكثير من حبّها له، لا تنسي ذلك.

- لمَ تقولين هذا يا ماي؟

- لأن الرجال يا عزيزتي، عندما يحبون فإنهم يحبون إلى الأبد على الرغم من إخفائهم عاطفتهم، بعكس النساء اللواتي يتصارعن مع مشاعرهنّ المتقلّبة، ويقدرن على الوقوع في الحب أكثر من مرة. وأنا واثقة من أن غوستافو يحبّك، أستطيع أن أرى ذلك في عينيه كلما نظر إليك. وهذا الحب سيضمن بقاءه إلى جانبك طوال العمر بعد أن تتزوّجا. ثم تمنّت كارلا نومًا هنيئًا لبيل وقبّلتها على جبينها ورحلت.

بعد ذلك، راحت بيل تفكّر في ما قالته أمها، وهي تأمل أن تكون محقّة في ما تقول.

- هل أنتِ جاهزة؟

- نعم. أجابت بيل وهي تقف في غرفة الرسم ممسكةً بنفسها كي لا تثور على والديها وهما يتحقّقان من طلّتها.

انهال أنطونيو عليها بالإطراء: «تبدين جميلة يا أميرتي، من سيقدر على مقاومتك؟».

ثم سألتها كارلا:

- هل تشعرين بالتوتّر يا حبيبتي؟

أجابت بيل وهي تحاول احتواء انزعاجها المتزايد:

- لا، ولا داعيَ لتعظيم الأمور، لأنها مجرّد رحلة في القطار إلى جبل كوركوڤادو، وإن كانت برفقة غوستافو.

- حسنًا. قال أنطونيو وهو يهب واقفًا ما إن رنّ الجرس.

- سنرى ذلك، ها قد وصل.

قالت كارلا وهي تقبّل ابنتها على الخدّين:

- بالتوفيق يا ابنتي، باركك اللّه.

- سنكون بانتظارك لسماع الأخبار الطيبة. صاح أنطونيو عندما غادرت بيل الغرفة. وفي الخارج، التقت بغابرييلا التي كانت تنتظر عند المدخل لتثبت قبعة الحرير الجديدة فوق رأسها، إذ كانوا قد اشتروها لمثل تلك المناسبات.

حين رأت بيل غوستافو ينتظر عند عتبة الباب، بدا لها أنيقًا على غير عادته بهيكله النحيل داخل بذلة الكتان ذات اللون الكريمي، وقبعة القش الفاخرة التي كان يعتمرها.

- سينيوريتا إيزابيلا، تبدين رائعة الجمال. هيّا بنا فالسائق ينتظرنا في الخارج.

سار الثنائي جنبًا إلى جنب نحو السيارة، ومن ثمّ صعدا إلى المقعد الخلفي. لاحظت بيل أن غوستافو كان متوتّرًا بشكل ملحوظ، حتى أنه بقي صامتًا طوال

الدقائق الثلاث التي استغرقتها الرحلة من منزلها إلى المحطة الصغيرة، حيث كانوا سيستقلون القطار إلى قمة الجبل. وعندما ترجّلا من السيارة، بقي غوستافو ملتصقًا بها إلى أن صعدا إلى القطار المؤلف من عربتين موصولتين بمؤخرة محركه الصغير الذي يعمل على البخار.

قال لها غوستافو: «الرحلة لن تكون مريحة، ومع ذلك أتمنى أن تستمتعي بالمناظر الخلابة».

وسرعان ما انطلق القطار باتجاه القمة. لكن المنحدر كان شديد الارتفاع، ما أشعر بيل بتشنّج في رقبتها وهي تحاول عبثًا تثبيت رأسها. وعندما بدأ القطار يترنّح في كل الاتجاهات، أمسكت بيل لاشعوريًا بكتف غوستافو، ما دفعه إلى لفّ ذراعه حول خصرها.

كان هذا أول اختراق للمساحة الحميمية بينهما، لكنه لم يحرّك ساكنًا عند بيل، وفي الوقت نفسه لم يشعرها بأي اشمئزاز، واعتبرت الأمر مثل لفتةٍ مطمئنةٍ من أخٍ يكبرها سنًا. وجعلت الضوضاء التي تسبّب بها المحرك المحادثة بينهما شبه مستحيلة، ففضّلت بيل الاستمتاع برحلتها والقطار يتابع تقدّمه عبر الغابة الحضرية الوارفة التي يمكن لجذورها أن تصل إلى الحديقة الواقعة خلف منزلها.

عندما دخل القطار المحطة الأخيرة، ترجّل الركاب إلى الرصيف فشعرت بيل بنوعٍ من خيبة الأمل.

- هذا المكان يطل على أروع المناظر الطبيعية في ريو. إذا أحببت، نستطيع تسلّق الدرجات القليلة إلى القمة لنعرف كيف يقومون بحفر أسس الكريستو هناك. قال غوستافو.

- فلنصعد مباشرة إلى القمة. قالت بيل مبتسمة، ولم تتأخر في لمس الموافقة في ملامحه. وبجرأة كبيرة، راحا يتسلّقان الدرجات الحادة تحت أشعة الشمس الحارقة التي اختبرت قدرتهما على تحمّل الحرّ الشديد داخل ملابسهما الرسمية.

من الأفضل لي ألّا أتعرّق، فكّرت بيل وهي تشعر بتبلّل ملابسها الداخلية من العرق والتصاقها على بشرتها. وأخيرًا وصلا إلى القمة وراحا يتأمّلان المناظر الخلابة

التي أطلّا عليها من فوق. كانت بيل قادرة على رؤية الحفارات الميكانيكية التي تقطّع الصخور وتمزّقها بمخالب عملاقة على طول الجبل وعرضه. وإذا بغوستافو يمسك بيدها ليسحبها إلى الظل.

- شرح لنا سينيور دا سيلڤا كوستا أنهم سيحفرون أمتارًا عدّة داخل الأرض ليثبت التمثال في مكانه، وإلا فسيكون معرّضًا للسقوط. والآن انظري هناك. قال وهو يدير بيل بكتفيها ويوجّهها إلى حافة الجبل.

تبعت عينا بيل أصبع غوستافو الذي كان يشير إلى سقف مبنى أنيق يتلألأ باللون الأحمر.

- أليس هذا باركيه لاج؟

- نعم، هو بذاته، مع حدائقه النباتية المذهلة. هل تعرفين قصّة المنزل الذي يقع وسط تلك الحدائق؟

- لا.

- حسنًا، يُقال إنّ رجلًا برازيليًّا وقع في حب مغنية أوبرا إيطالية ورغب في الزواج منها، فطلب منها أن تنتقل للعيش هنا في ريو. لكن المغنية تعوّدت العيش في إيطاليا ولم تشأ الرحيل عنها. وذات يوم، سألها الرجل عمّا يمكن أن يجعلها ترضى بالرحيل عن روما والانتقال للعيش هنا. فأخبرته بأنها لن ترضى بترك روما إلا إذا كانت ستعيش في قصر يشبه قصورها. فبنى لها ذلك القصر وتزوّجته ثم انتقلت للعيش هنا معه، وهي لا تزال تقيم حتى اليوم داخل تلك الجُدُر التي تذكّرها بوطنها الجميل.

- يا لها من قصة رومنسية. تنهّدت بيل بعمق وهي عاجزة عن ضبط نفسها، ثم أحنت رأسها لتنظر إلى أسفل الجبل وتمتع نظرها بالمناظر الطبيعية. وعلى الفور شعرت بذراع غوستافو تلتفّ مجدّدًا حول خصرها.

- حذارِ، لا تحوجيني إلى إخبار والديك بأنك وقعت من أعلى جبل كوركوڤادو. قال ممازحًا، ثم تابع:

- هل تعرفين يا إيزابيلا، لو قدّرني اللّٰه سأبني لك منزلًا جميلًا مثل هذا.

كانت بيل لا تزال واقفة عند الحافة تنظر إلى الناحية المقابلة لها، عندما وقعت على مسمعها تلك الكلمات من الخلف.

- لطفٌ منك أن تقول لي ذلك يا غوستافو.

- إنها الحقيقة يا إيزابيلا... ثم أدارها بلطفٍ حتى أصبحا يقفان وجهًا لوجه.

- لعلك تعرفين ما أريد أن أطلبه منك.

- أنا...

وعلى الفور وضع غوستافو أصبعه على شفتيها. «أفضّل ألا تقولي شيئًا حاليًا لئلا تخونني شجاعتي.

وتنحنح قليلًا ثم تابع كلامه وهو يشعر بتوتّر شديد:

- أعرف تمامًا أنني بهذا الشكل لا أُعدّ زوجًا يليق بك، فأنت امرأة رائعة الجمال وقادرة على أن تشيري بأصبعك إلى أي رجل حتى يأتي راكضًا إليك. فمعظم الرجال في ريو وقعوا أسارى سحرك، تمامًا مثلي. لكنني أريدك أن تعرفي أنني أقدّرك من الداخل يا إيزابيلا وأعتبرك أكثر من مجرد امرأة جميلة.

سكت غوستافو لبرهة فشعرت بيل بواجب الرد. وما إن فتحت شفتيها لتتكلم حتى هبط أصبعه مرة أخرى فوقهما ليسكتها من جديد.

- من فضلك، دعيني أُنهي كلامي. من لحظة وقوع نظري عليك لأول مرة، وكان ذلك في حفل عيد ميلادك الثامن عشر، عرفت أنني أريد أن أكون معك. لذلك طلبت من والدك أن يقدمني إليك، وتعرفين ما حصل لاحقًا. قال غوستافو وهو يهزّ بكتفيه.

- بالطبع إذا نظرنا إلى هذه العلاقة من الخارج سنجد أنها مناسبة للطرفين، لأن عائلتك لديها المال وعائلتي لديها النسب. لكنني يا إيزابيلا أريدك أن تعرفي أنني لا أرغب في أن يكون هذا الزواج مبنيًا على أسس تافهة مثل هذه، لأنني... وفي تلك اللحظة أحنى غوستافو رأسه ثم عاد ونظر إليها وقال:

- لأنني أحبك.

وبينما كانت بيل تنظر إليه لمست الصدق في عينيه. وعلى الرغم من أنها كانت تتوقع أن يعرض الزواج عليها اليوم، لكن كلماته هذه كانت صادقة ومؤثّرة أكثر من الكلام الذي تخيّلته. وعلى الفور تذكّرت ما قالته والدتها وصدّقته. الغريب في الأمر أنها شعرت بتعاطفٍ كبيرٍ مع غوستافو وشعرت أيضًا بالذنب لأنها كانت تتمنّى لو أنها كانت قادرةً على مشاركته بصدق تلك المشاعر، لكان أصبح لوجودها مغزىً أكبر.

- غوستافو، أنا...

- إيزابيلا أرجوك، دعيني أكمل، فلقد أوشكت على الانتهاء. أتفهّم إذا كنت لا تبادلينني حاليًا المشاعر نفسها، وهذا أمر شبه مؤكّد بالنسبة إليّ. لكنني واثق من أنني سأقدّم لك معظم ما ستحتاجين إليه في هذه الحياة لتطوّري نفسك، وآمل مع الوقت أن يكبر حبك لي، ولو قليلًا.

نظرت بيل فوق كتف غوستافو فوجدت أن المكان أصبح شبه خالٍ من الزوار الذين كانوا قبل لحظات برفقتهم، وقد عادوا أدراجهم إلى المحطة.

لكن غوستافو تابع قائلًا: «لست أدري إذا كان ما سأقوله مفيدًا لك، لكنني التقيت بسينيور دا سيلڤا كوستا قبل ثلاثة أيام وأخبرني عن رغبتك في مرافقة عائلته إلى أوروبا. أتمنّى من كل قلبي أن تخرجي في هذه الرحلة يا إيزابيلا. وإذا وافقتِ على الارتباط بي الآن والزواج بي بعد عودتك من الرحلة، سأخبر والدك بأنني أعتبر تلك الرحلة الثقافية إلى العالم القديم مفيدة لك، كونك ستصبحين زوجة عمّا قريب».

راحت بيل تحدّق إلى عينيه بعد أن صعقت بما اقترحه عليها بشأن سفرها إلى أوروبا.

- ما زلت صغيرة في السن يا *querida*، تذكّري أنني أكبر منك بعشر سنوات تقريبًا. قال غوستافو وهو يقرّب كفّه من خدها.

- وأتمنّى من كل قلبي أن يُسمح لك بتوسيع آفاقك، مثلما سُمح لي عندما كنت أصغر سنًّا. والآن هل لي أن أعرف إجابتك؟

كانت بيل تدرك تمامًا أنه لا يسعها المماطلة في الرد على سؤاله، لأن عرض غوستافو كان بمنزلة تحقيقٍ لأكبر حلم لديها، وكلمة واحدة منه قادرة على منحها أكثر ما تتمناه، السفر بمفردها إلى ما وراء حدود ريو الضيقة. صحيح أنها بالمقابل كانت ستدفع الثمن باهظًا إلا أنه سبق لها أن استعدت نفسيًّا لفكرة زواجها منه.

- غوستافو، كرم منك أن تعرض عليّ هذا الاقتراح.

- حسنًا، لن أكذب عليك يا إيزابيلا، لن أكون سعيدًا ببعدك عني كما أنني سأفتقد حضورك كل يوم، لكنني أدرك أيضًا أننا لا نستطيع احتجاز الطيور الجميلة داخل القفص. فعندما نحب لا يسعنا إلا أن نطلق سراح من نحب. وأمسك غوستافو بيديها قبل أن يتابع:

- كنت أفضّل أن نذهب سويًّا لأعرّفك شخصيًّا إلى أشهر المعالم السياحية في أوروبا. حتى أنني فكرت في اصطحابك إلى هناك خلال شهر العسل. لكنني بصراحة لا أملك حاليًّا المال الكافي لتمويل مثل تلك الرحلة. بالإضافة إلى ذلك، فإن والديّ سيشعران بارتياح أكبر لو بقيت هنا بجانبهما. إذًا، ما قولك؟ قال غوستافو وهو ينظر إليها ويترقّب إجابة فورية منها.

- غوستافو، أخشى فقط ألا يتقبّل والداك ومجتمع ريو فكرتك هذه؟ أنت تريدني أن أكون خطيبتك لذلك ألا يجدر بي أن أبقى بجانبك حتى يحين موعد الزواج؟

- لا تقلقي حيال ذلك لأن والديّ ينتميان إلى العالم القديم، وفي العالم القديم معظم شابات العائلات الثرية يخرجن في جولة ثقافية قبل الزواج. لذلك لا تخافي لأنهما لن يعارضا الفكرة. أرجوك يا إيزابيلا لا تتركيني أنتظر أكثر. يصعب عليّ تحمّل كل هذا العذاب.

- أعتقد... قالت بيل وهي تأخذ نفسًا عميقًا.

- أعتقد أنني سأوافق.

- يا إلهي، شكرًا لك. قال غوستافو بعد أن شعر بالارتياح.

- إذًا أصبح بإمكاني أن أعطيك هذا.

ومدّ غوستافو يده إلى جيب سترته من الداخل ليسحب علبة ذات غلاف جلدي.

- الخاتم الذي في داخلها يعود إلى ممتلكات عائلة آيريس كابرال. قيل إن ابنة عم الإمبراطور دون بيدرو، قد امتلكته عندما أعلنت خطوبتها.

حدّقت بيل أولًا إلى ذلك الماس الصافي المرصّع بين حجرين من الياقوت، ومن ثمّ قالت: مكتبة سُر مَن قرأ

- يا لهذا الخاتم الجميل.

- الحجر الذي ترينه في الوسط قديم جدًّا وقد استُخرج من مناجم تيجوكو، أما الذهب فهو من مناجم أورو بريتو. هل تسمحين لي بأن أضعه في أصبعك؟ أريد فقط أن أتأكد من مقاسه. قال وهو على عجلة من أمره.

- لأنه الآن بات علينا أن نعود إلى المنزل لأطلبك رسميًّا من والدك.

- بالتأكيد أسمح.

أدخل غوستافو الخاتم في الأصبع الرابع من يدها اليمنى. «ها هو. تعديل بسيط وسيلائم أصبعك النحيف الجميل تمامًا، على الرغم من أنه رائع في يدك منذ الآن». وأمسك غوستافو بيدها ثم قبّل الخاتم.

- هل تعرفين يا عزيزتي إيزابيلا أن أول شيء لفتني لديك هو يداك؟ فهما رائعتا الجمال. قال ذلك وهو يقبّل كل طرف من أطراف أصابعها.

شكرته قائلة: «Obrigada».

ثم نزع غوستافو الخاتم بلطف وأعاده إلى علبته.

- والآن من الأفضل لنا أن نعود أدراجنا قبل أن يهبط الظلام ويتوقّف عمل القطار فنعلق هنا. ثم أضاف ساخرًا:

- لا أتخيّل أنّ ذلك سيسعد والدك.

- لا. قالت عندما سحبها من ذراعها إلى أسفل السلم وهما عائدان إلى المحطة الصغيرة. ثم فكرت بيل في قرارة نفسها أنها الآن، وقد أوقعت «بالأمير» في شباكها، ستنال رضى والدها التام.

عندما وصلا إلى المنزل، دخلت بيل على الفور إلى غرفتها في حين دخل غوستافو يتحدّث إلى والدها. جلست على حافة السرير بعد أن اشتد توتّرها لدرجة أنها قامت بطرد غابرييلا من الغرفة عندما دخلت تسألها إذا كانت ترغب في تغيير ملابسها. كانت تشعر بالحيرة والغبطة في الوقت نفسه.

راحت تفكر في دافع غوستافو وراء تشجيعها على القيام بتلك الرحلة إلى أوروبا. ربما كان سيتّخذ تلك الرحلة ذريعةً ليؤجل ارتباطهما الحتمي، أو ربّما هو أيضًا لم يكن مستعدًّا للزواج بتلك السرعة، وربّما كان يتعرّض، هو أيضًا، للضغط نفسه الذي يمارسه عليها والدها. لكنها عادت وتذكّرت اللهفة التي رأتها في عينيه وهو يعرض الزواج عليها، حتى أنها لم تكن مصطنعة...

دخلت غابرييلا الغرفة من جديد لتقطع عليها حبل أفكارها، وتقول لها بابتسامة مشرقة:

- والدك يطلب أن تنضمي إليه في الطابق السفلي. وقد طُلب مني أن أقدّم للحاضرين أفضل أنواع الشمبانيا التي لدينا. مبروك يا سينيوريتا، أتمنّى لكِ كل السعادة، ولتباركك السيدة العذراء بكثير من الأولاد.

- شكرًا يا غابرييلا. قالت بيل وهي تغادر الغرفة مبتسمة. ثم هبطت السلم على وجه السرعة تابعة صدى الأصوات النابعة من غرفة الرسم.

- وهذه عروستنا قد أتت! تعالي يا حبيبتي لتقبّلي والدك، أنت أميرتي الجميلة، اعرفي أنني أعطيت لتوّي مباركتي لنصفك الآخر.

- شكرًا يا باي، أجابت بيل والدها وهو يقبّلها على الخدين.

- يا ابنتي العزيزة، اعرفي أنك اليوم جعلتني أسعد أبٍ في العالم.

- كما جعلتني أسعد رجل في ريو. رد غوستافو مبتسمًا.

- وها هي أمك قد أتت لتسمع الأخبار الحلوة. قال أنطونيو حين دخلت كارلا الغرفة.

استمروا يتبادلون التهاني إلى أن وصلت الشمبانيا وشرب الجميع نخب مستقبل بيل وغوستافو متمنين لهما كامل الصحة والسعادة.

- دعني أذكرك يا سينيور أنني لست مرتاحًا لرغبتك في إرسالها مسافة آلاف الأميال بعيدًا عنك قبل الزواج. قال أنطونيو وهو يعبس قليلًا ويرمق غوستافو بنظرة شكّاكة.

- لقد شرحت لك أن بيل ما زالت صغيرة في السن، وزيارتها إلى أوروبا ستزيدها نضجًا لتجعل محادثاتنا أغنى وأكثر عمقًا، خصوصًا عندما سنتقدم في السن وستخف وتيرة الدلع بيننا. قال غوستافو وهو يبتسم ويغمز بيل خلسة.

- حسنًا، هذا ليس من شأني. قال أنطونيو بكل ثقة.

- لكنها على الأقل ستحظى بفرصة زيارة أهم دور الأزياء في باريس لتصمِّم فستان زفافها هناك.

- هذا مؤكد، وأنا واثق من أنها ستبدو رائعة الجمال في أي فستان قد تختاره. والآن... قال غوستافو منهيًا كأس الشمبانيا التي في يده.

- حان الوقت لأنسحب، عليّ أن أذهب لأخبر والديّ بالخبر السعيد. وأشك في أنهما سيتفاجآن.

- معك حق، لكن قبل أن تبحر خطيبتك إلى أوروبا علينا أن نقيم حفلة الخطوبة. ربما في فندق كوباكابانا بالاس حيث رأيت زوجتك المستقبلية لأول مرة. قال أنطونيو الذي بات عاجزًا عن إخفاء ابتسامته الممتدة من الأذن إلى الأذن.

- سنحتاج إلى نشر إعلان في الخانات الاجتماعية. قال لغوستافو وهو يرافقه إلى الباب.

- يسرني أن أدع مهمة الترتيبات لعائلة عروسي المستقبلية. أجابه موافقًا على مسألة إقامة حفلة للخطوبة. ثم أمسك بيد بيل وقبّلها.

- تصبحين على خير إيزابيلا، أشكرك على جعلي أسعد رجل في الدنيا.

انتظر أنطونيو إلى أن ابتعدت سيارة غوستافو عن المنزل وراح يصيح من الفرح، ثم حمل بيل بين ذراعيه وتركها تترجّح كما كان يفعل في صغرها.

- أحسنت يا أميرتي، تهانينا لنا جميعًا. ثم أعاد بيل إلى الأرض والتفت إلى زوجته ليعانقها.

- ألست مسرورة مثلنا يا كارلا؟

- بالتأكيد مسرورة طالما أن بيل سعيدة، فهذا خبر رائع بالنسبة إليّ أيضًا.

حدّق أنطونيو إلى كارلا بضع ثوانٍ ثم عبس وقال:

- هل أنت بخير يا حبيبتي؟ لأنك تبدين شاحبة.

- أعاني من صداع، هذا كل ما في الأمر. والآن... قالت كارلا متصنعةً الابتسامة:

- سأذهب إلى المطبخ لأطلب من الطاهي أن يحضّر على العشاء شيئًا خاصًا بالمناسبة.

فلحقت بيل بوالدتها إلى المطبخ هربًا من غبطة والدها الساحقة.

- ماي، هل أنت فعلًا سعيدة من أجلي؟

- بالطبع أنا سعيدة يا إيزابيلا.

- وهل أنتِ بخير؟

- نعم *querida*، هيا اصعدي إلى غرفتك وارتدي أجمل ثوب عندك لنحتفل معًا على العشاء.

17

توالت الأسابيع بسرعة بعد أن تمت خطوبة بيل وغوستافو على خير ما يرام، وشارك فيها مجتمع ريو الراقي بأكمله. يبدو أن كلّ شخصيّة مهمّة تمنّت أن تكون جزءًا من تلك القصة الخيالية التي تشبه، إلى حدٍّ بعيد، قصة الأمير الذي يتزوّج بفتاة أحلامه.

ابتهج أنطونيو بالدعوات التي بدأت تنهال عليه، هو وكارلا، من كل حدبٍ وصوبٍ، ليشاركا في سهراتٍ خاصّةٍ، ودخول منازل كانت مغلقة سابقًا في وجهيهما.

أما بيل فلم تجد ولو قليلًا من الوقت، لتفكّر في رحلتها القريبة إلى أوروبا، على الرغم من حجز مقصورةٍ باسمها على الباخرة التي كانت ستبحر إلى هناك. واستدعيت السيدة دوشين من جديد لتساعدها على اختيار الملابس التي تليق بعاصمة الموضة الراقية في العالم القديم.

وبعد طول غيابٍ عادت لوين أخيرًا من المزرعة، فحرصت بيل على معرفة رأيها بغوستافو.

ذات مساء، دخلت لوين لتساعدها في ارتداء فستانها استعدادًا للعشاء، وقالت لها:

- أعتقد يا سينيوريتا، مما رأيته حتى الآن، أنه رجل محترم وأهلٌ ليكون زوجًا لك. فضلًا عن اسم عائلته الذي سيأتيك بكثير من المنافع. لكن... فجأةً توقفت لوين عن الكلام وهزّت برأسها.

- لا، ليس من حقّي أن أقول هذا.

- لوين من فضلك، تعرف إحدانا الأخرى منذ نعومة أظفارنا ولا أثق بأحدٍ أكثر منك. لذلك أخبريني بكل ما تفكرين فيه.

إذًا سامحيني لأنني سأذكّرك بأقوالك يا *minha pequena* (صغيرتي). أجابتها لوين بعد أن لانت تعابير وجهها.

- أولًا ذكرت في رسائلك أنك لست واثقة من أنك تريدين هذا الارتباط، وبعد أن رأيتكما هنا معًا فهمت أنك لست مغرمةً به. ألا تقلقين حيال ذلك؟

- تقول ماي إن الحبّ يأتي بعض الزواج، لكن بصرف النظر عن ذلك، أتعتقدين أنني أملك خيارًا آخر؟ قالت بيل وهي تأمل أن تجلب لها إجابة لوين شيئًا من الطمأنينة.

- قد تكون والدتك محقّة يا سينيوريتا. أريد... ومرة أخرى انقطعت عن الكلام كأنها شعرت بأن الوقت ليس مناسبًا لما ترغب في قوله.

- ما بالك؟

- أريد أن أخبرك بأمر. خلال إقامتي في المزرعة قابلت شخصًا. أقصد أنني قابلت رجلًا.

تفاجأت بيل قائلة: «يا للروعة يا لوين. لمَ لمْ تخبريني من قبل؟».

- شعرت بالخجل على ما أعتقد، وكنت مشغولة بالترتيبات لحفل خطوبتك، لذلك لم أجد الوقت المناسب.

- من هو؟ سألت بيل وقد أُثير فضولها.

ولم تتردّد لوين في الإفصاح عن اسمه: برونو كانترينو ابن فابيانا وساندرو.

تذكّرت بيل الشاب الوسيم الذي كان يعمل مع والديه في فازيندا ثم ابتسمت في وجه لوين. «يا له من شاب وسيم، أجدكما لائقين أحدكما للآخر».

- عرفته منذ صغره وكانت تربطنا علاقة صداقة، لكن الأمور آلت مؤخرًا إلى شيء مختلف.

- وهل تحبينه؟ سألت بيل.

- نعم أحبه وأفتقده كثيرًا منذ أن عدت إلى ريو. والآن أسرعي من فضلك وإلا ستتأخرين على العشاء.

عندئذٍ غرقت بيل في صمتها بينما تابعت لوين مساعدتها في ارتداء الفستان. فقد فهمت تمامًا لماذا صارحتها لوين بحبها لذلك الشاب، لكنها كانت تدرك أن التحضيرات لزواجها من غوستافو قد بدأت، وأنه لن يسعها القيام بأي شيء لتغيّر ذلك.

بمرور الوقت بدأت بيل تشعر بارتياح أكبر في علاقتها مع غوستافو، فكلما أمضت وقتًا أطول إلى جانبه، كان يحبّبها بنفسه أكثر فأكثر، إذ إنَّ غوستافو كان متيقّظًا لأدنى احتياجاتها ومستمعًا لبقًا ينصت لكل ما تقوله بإمعان. كما أن السعادة الحقيقية التي شعر بها لموافقتها على الزواج به، أسهمت كثيرًا في إثارة حماستها.

- لم يعد نمسًا في نظرك لأنه بات يتصرّف كالجرو. قالت لها ماريا إليسا وهي تضحك على غوستافو يوم التقتها في حفلة خيرية نظمت في الحدائق النباتية.

- المهم أن شعورك بالاشمئزاز قد زال.

- لقد أصبحت معجبة به جدًا. قالت بيل. ورغبت في الإفصاح بأنه لم يكن أمرًا سهلًا عليها، لكنها امتنعت؛ إذ يُفترض بها أن تكون عاشقة له فهو خطيبها.

- لا يسعني أن أصدّق بأنه سيسمح لك بمرافقتنا أنا وعائلتي إلى أوروبا. أشك في أن شخصًا غيره كان ليرضى بهذا الأمر.

- يبدو أنه يريد الأفضل لي. قالت بيل وهي تأخذ حذرها.

- نعم هذا واضح، أنت محظوظة للغاية. لكنك ستعودين إليه أليس كذلك؟ قالت ماريا إليسا وهي تراقب رد فعل بيل.

- أو أنك قبلت بهذه الخطوبة لتتمكّني من القيام برحلتك إلى أوروبا؟

- وماذا تعتبرينني؟ قالت بيل باستنفار.

- بالطبع سأعود إليه. قلت لك لتوّي أنني مغرمة به.

- ممتاز. قالت ماريا إليسا بصوت مرتفع.

- لأنني لا أريد العودة إلى ريو وأنت تحملينني عبء إبلاغه بأن عروسه هربت مع رسام إيطالي.

- آه من فضلك، أشعر بأنك تصدّقين ما تقولين!

أجابتها بيل بامتعاض.

قبل يوم من موعد إبحار الباخرة عبر المحيط الأطلسي، حاملة بيل وعائلة دا سيلڤا كوستا إلى فرنسا، جاء غوستافو إلى مانساو دا پرنسيسا ليودّع خطيبته. وفي تلك المرة تركهما أنطونيو وكارلا بمفردهما في غرفة الرسم.

- هذه آخر مرة أراك فيها لأننا لن نجتمع قبل أشهر عدّة. قال غوستافو وهو يرسم ابتسامة حزينة على وجهه.

- سأفتقدك يا إيزابيلا.

- وأنا أيضًا يا غوستافو، لا أجد الكلمات الصحيحة التي تعبّر عن شكري لك على السماح لي بالمشاركة في هذه الرحلة.

- أريدك أن تكوني سعيدة، هذا كل ما في الأمر. والآن عندي لك هدية. ثم أدخل غوستافو يده في جيبه ليخرج منها علبة ذات غلاف جلدي، وعندما فتحها رأت بيل عقدًا في داخلها.

- هذا لك. قال وهو يضع العقد حول عنقها.

- اسمه حجر القمر ويحمي كل من يمتلكه، خصوصًا إذا كان مسافرًا في البحر بعيدًا عن أحبائه.

نظرت بيل إلى الحجر الناعم فوجدته أبيض مائلًا إلى الزرقة ومرصّعًا داخل دائرة صغيرة من الماس، فقالت له وهي تشعر بالحماسة:

- يا له من عقد رائع، شكرًا يا غوستافو.

- اخترته خصيصًا لك. أجابها بعد أن سُرّ برد فعلها.

- قد لا يكون ذا قيمة كبيرة لكنني سعيد بأنه أعجبك.

- أعجبني كثيرًا. قالت متأثرة باهتمامه المفرط بها.

- هل تعقده لي؟

وقام غوستافو بإغلاق العقد حول عنقها ثم وضع شفتيه على رقبتها وقبّلها.

- *minha linda* إيزابيلا، ما أجمله عليك.

- أعدك بأنني لن أخلعه إبدًا.

- ولا تتوقفي عن مراسلتي!

- بالطبع سأفعل.

- إيزابيلا، أنا... ثم لمس ذقنها بأصابعه ليقرّبه من ذقنه وقبّلها لأول مرة على شفتيها.

لم يسبق لإيزابيلا أن قبّلت أحدًا من قبل، لذلك كان لديها فضول بأن تعرف الشعور الذي تولّده مثل تلك القُبَل. قرأت في الكتب أن النساء يشعرن أثناء التقبيل بارتجاف في ركبهن، وتعجّبت لأنها لم تشعر بالوهن عندما شق لسان غوستافو طريقه داخل فمها وهي لا تعرف ماذا تفعل بلسانها. وبعد أن ابتعد عنها راحت تفكر بما حصل، فلم تجد الأمر مقزّزًا، حتى أنه ببساطة لم يعنِ لها شيئًا، لا شيء على الإطلاق.

- وداعًا يا عزيزتي لوين، في أمان اللّه وحفظه. قالت بيل وهي تستعد لمغادرة غرفتها كي يرافقها والداها إلى الميناء.

- وأنت أيضًا يا سينيوريتا بيل. أنا حزينة لأنك ستسافرين عبر المحيط من دوني. لن تتأخري في مراسلتي أليس كذلك؟

فأجابتها بيل:

- لا، حتى أنني سأراسلك دائمًا لأخبرك بكل ما لا أستطيع أن أخبر به والديّ. وابتسمت كأنها تحيك من خلفهما مؤامرة.

- لذلك احرصي على إخفاء الرسائل التي تصلك منّي. والآن حان وقت الرحيل، أنت أيضًا كاتبيني لتخبريني بكل ما يحدث هنا. واعتني جيّدًا بنفسك يا لوين. ثم قبّلتها وغادرت.

وهي تركب السيارة، راحت تفكّر في لوين التي تعيش الشغف الذي يولّده الحب على الرغم من أنها مجرّد خادمة، بينما هي كانت ستُحرم منه إلى الأبد.

صعد والداها إلى الباخرة التي كانت راسية في ميناء ريو الرئيسي، بيار ماو، وراحت كارلا تجوب المقصورة التي كانت ستمكث فيها بيل. قالت بشيء من الدهشة وهي تقترب من السرير لتجلس فوقه وتختبر مرتبته:

- لكن كيف ذلك؟ هذه الغرفة تشبه تلك التي في منازلنا، فيها مصابيح كهربائية وستائر فاخرة.

مازحها أنطونيو:

- وهل كنت تتوقعين أن تسافر بيل على ضوء شموع موضوعة داخل شبك على ظهر الباخرة لتترجّح هكذا في الهواء؟ أستطيع أن أؤكد لكما أن هذه الرحلة كلّفت أموالًا طائلةً لتوفّر لك، حبيبتي، كل وسائل الراحة المتاحة».

وللمرة الألف، تمنّت بيل على والدها أن يتوقّف عن قياس كل شيء بالنقود التي يدفعها. ثم نبّه بوق الباخرة مرافقي الركاب إلى موعد الإبحار فعانقت بيل أمها وهي تقول لها:

- من فضلك ماي، اعتني جيدًا بنفسك إلى أن أعود، أشعر وكأنك لم تكوني على طبيعتك في الآونة الأخيرة.

- كفّي عن القلق يا بيل. ليس هناك ما يدعو إليه، أنا أتقدّم في السن فحسب. أجابتها كارلا وهي تصرّ على أنها لا تعاني من شيء.

- بل اعتني أنت بنفسك إلى أن تعودي إلينا سالمة.

وعندما فُكّ عناق كارلا لبيل، استطاعت بيل أن ترى الدموع في عينَي أمّها.

بعد ذلك، حضنها أنطونيو بين ذراعيه وقال لها:

- وداعًا يا أميرتي، آمل أن تظلّي، في نهاية هذه الرحلة، راغبة في العودة إلينا؛ أنا وأمك وخطيبك، بعد أن تتعوّدي جمال ذلك العالم القديم.

عادت بيل مع والديها إلى ظهر الباخرة لينزلا على السلّم إلى الرصيف، وهناك بدأت تلوّح لهما بيدها. وما إن بدأ حجمهما يتقلّص في نظرها، حتى انتابها قلق شديد. فهذه أول مرة في حياتها تسافر مع عائلة شبه غريبة عنها. صدح بوق السفينة في الفضاء معلنًا عن موعد الإبحار وتسبّب لها بتوتّرٍ كبيرٍ شعرت به في نهايات أذنيها العصبية. ثم بدأت الفجوة تتّسع بين السفينة والرصيف فزادت حدّتها في التلويح.

«وداعًا يا أمي وأبي العزيزين، انتبها إلى نفسيكما. حفظكما اللّه لي».

استمتعت بيل كثيرًا خلال الرحلة، إذ كانت توفّر للركاب الأثرياء وسائل ترفيه كثيرة. فأمضت برفقة ماريا إليسا ساعاتٍ طويلةً داخل المسبح الذي أحيا فيها شعورًا حُرمت منها طوال إقامتها في ريو. كما قضت الفتاتان وقتًا طويلًا في لعب الكروكيه على العشب الاصطناعي المزروع فوق سطح الباخرة العلوي. وكم ضحكتا في المساء داخل غرفة الطعام، أثناء مسحهما نظرات المعجبين الذين يسافرون معهم في تلك الرحلة.

لكنّ، خاتم الخطوبة البارز الذي كانت تضعه بيل في أصبعها وفّر لها حماية كبيرة، من العواطف الجيّاشة تحت تأثير النبيذ، أثناء مراقصتها بعض الفرسان وقت

العشاء. في حين عاشت ماريا إليسا بضع مغازلات بريئة حظيت كلها بتأييد من بيل لتعيش من خلالها مشاعر جميلة.

خلال تلك الرحلة عمّقت بيل علاقتها بعائلة ماريا إليسا بعد أن كانت معرفتها بهم سطحية في ريو، وكأنهم انتظروا المحيط ليقرّبهم، بعضهم من بعض. وكان لماريا إليسا أخوان أصغر سنًّا هما كارلوس وباولو، والاثنان في مرحلة انتقالية بين الطفولة والبلوغ، إذ كان الأول يبلغ الرابعة عشرة والآخر يبلغ السادسة عشرة. وقد اتضح ذلك من علامات البلوغ التي كانت ما تزال تظهر بخجل عليهما، ومن عدم تسلّحهما بالشجاعة لمحادثة بيل. أما والدة ماريا إليسا، ماريا جورجيانا، فكانت سيّدة ذكية وامرأة حادّة الطباع، وسرعان ما تبيّن لبيل أنها قادرة على إثارة نوبات غضب في حال جرت الأمور بعكس إرادتها. وكانت تصرف معظم وقتها وهي تلعب البريدج في صالون الباخرة الأنيق خلافًا لزوجها الذي نادرًا ما كان يخرج من مقصورته.

ذات مساء، وبينما كانت الباخرة تدخل المياه الإقليمية لجزر كاب فيردي، عند الساحل الأفريقي، كي ترسو لبضع ساعات بينما تحمّل المؤن، سألت بيل ماريا إليسا:

- ماذا يفعل والدك هناك طوال اليوم؟

- كالعادة يعمل على تمثاله. أجابتها ماريا إليسا.

- تقول ماي إنها فقدت حب زوجها بسبب ذلك الكريستو، على الرغم من أنه لا يؤمن به وفق ما يقول! يا لتلك المفارقة، أليس كذلك؟

وذات يوم طرقت بيل باب المقصورة التي اعتقدت أنها مقصورة ماريا إليسا، وعندما لم تتلقّ الرد فتحت الباب لتنادي عليها. فتفاجأت بهيتور دا سيلڤا كوستا ينظر إليها من خلف مكتب غزته أوراق الحسابات المعمارية المعقّدة، حتى أن السرير والأرض لم يسلما منها. فأدركت أنها ارتكبت خطأً.

- سينيوريتا إيزابيلا مساء الخير، كيف يمكنني مساعدتك؟

- أنا آسفة حقًّا على إزعاجك يا سيدي. كنت أبحث عن ماريا إليسا ويبدو أنني أخطأت المقصورة.

- أرجوك لا تعتذري، لأنني مثلك أُصبت مرارًا بحيرةٍ وأنا أحاول إيجاد طريقي، فكل الأبواب يشبه بعضها بعضًا هنا. أجاب هيتور بابتسامة طمأنتها.

- أما بالنسبة إلى ابنتي، فربما تجدينها في المقصورة المجاورة، أو في مكان فوق على ظهر الباخرة. فأنا لا أتعقّب تحركاتها كثيرًا». قال وهو يشير إلى الفوضى على المكتب وأضاف:

- تفكيري مشتّت بأمورٍ أخرى.

سألته بيل:

- هل تسمح... هل تسمح لي برؤية رسومك؟

- وهل يهمّك ذلك؟». سأل متفاجئًا وقد اشتعلت عيناه الفاتحتين سرورًا.

- لمَ تسأل؟ بالتأكيد يهمني! الجميع في ريو يقولون إنك ستحقّق معجزة، لأن تمثالًا بهذه الضخامة لا يمكن أن يثبت على جبل بهذا الارتفاع.

- هم على حق. فالكريستو لا يستطيع تحقيق ذلك، لذا سيقع ذلك على عاتقي. ثم ابتسم رغم شعوره بالتعب.

- انظري هنا، سوف أريك كيف ستتمّ الأمور وفق اعتقادي.

وأشار هيتور إلى كرسيٍّ كي تسحبه وتجلس عليه. ثم راح يوضّح لها خلال الساعة التي تلت كيف سيبني ركيزة دعم ضخمة، لينجح في تثبيت تمثاله.

- سأملأ أحشاءه بعوارض حديدية هي عبارة عن ابتكارات أوروبية جديدة تسمى الخرسانة المسلحة. وكما ترين يا بيل، فإن الكريستو لن يكون مجرد تمثال، لكنه سيكون مبنى في هيكل إنسان، لذلك عليه أن يصمد في مهب الرياح وتحت حبال المطر. ناهيك عن الصواعق التي يرسلها أبونا الذي في السماوات إلينا نحن البشر، ليذكّرنا بقوّته.

جلست بيل في مكانها منبهرة بكل تلك التفاصيل، تصغي إلى طريقة هيتور الشاعرية في الحديث عن مشروعه، فشعرت بشرف كبير كونه يأتمنها على كل تلك المعلومات.

- والآن عندما سأصل إلى أوروبا، عليّ أن أعثر على النحّات الذي سيجسّد رؤيتي لمظهر الكريستو الخارجي. فالتصميم الداخلي لن يهم الجمهور الذي لن يرى أبعد من المظهر الخارجي. ثم نظر إليها وهو يفكّر وقال:

- وهذا هو الشائع في هذه الحياة. ألا توافقين؟

أجابته بيل متردّدة بعض الشيء كونها لم تفكر من قبل على هذا النحو:

- بلى، أعتقد أنك على حق.

ثم تابع قائلًا:

- على سبيل المثال أرى بوضوح أنك امرأة شابة وجميلة، لكن هل أعرف شيئًا عن الروح التي في داخلك؟ بالطبع لا، لأنني لم أنظر يومًا في جوهرك. لذلك عليّ أن أجد النحّات المناسب ليقوم بتلك الوظيفة، فأعود بعدها إلى ريو بتفاصيل الوجه والجسم واليدين التي يرغب الجمهور في رؤيتها.

في تلك الليلة، دخلت بيل فراشها وهي تشعر بنوعٍ من الإرباك. فعلى الرغم من فارق السن بينها وبين هيتور دا سيلڤا كوستا، الذي يجعل أيًّا يكن يعتقد أنه والدها، أُحرجِت من نفسها بعدما أدركت أنها منجذبة إليه.

18

بعد مرور ستة أسابيع على انطلاق الباخرة من مرفأ ريو، بلغت أخيرًا وجهتها ورمت مرساتها في مرفأ لوهافر. ومن هناك ركبت عائلة دا سيلفا كوستا القطار إلى باريس كما كان مخطّطًا. في باريس انتظرتهم سيارة خارج المحطة لتقلّهم إلى شقّةٍ أنيقةٍ استأجروها في جادة دو مارينيي القريبة من جادة شانزليزيه الشهيرة، حيث سيستقرون. وكانت تلك الشقة قريبة من المكتب الذي استأجره هيتور للعمل وللقاء الخبراء الذين رغب في استشارتهم أثناء وضعه اللمسات الأخيرة لتمثال الكريستو.

عندما قام هيتور بجولته على إيطاليا وألمانيا لمقابلة أشهر نحّاتَيْن عرفتهما أوروبا في ذلك الوقت، كان يفترض بعائلته أن ترافقه إلى هناك، إلا أنها لم تفعل.

بانقضاء الأسبوع الأول، أدركت بيل بسرعة أن باريس قادرة على إمتاعها. وفي الليلة الأولى دخلت الغرفة التي كانت ستتشاركها مع ماريا إليسا؛ كانت ذات سقفٍ عالٍ، تحتوي على نافذةٍ ذات إطارٍ منزلق، فراحت تنظر إلى الخارج. استنشقت رائحة غريبة لم تعهدها من قبل، وأحسّت لاحقًا بقشعريرة المساء كونهم وصلوا إلى هناك في أوائل الربيع، ودرجة حرارة المدينة، وفق تقدير بيل، لم تتخطّ الخمسين فهرنهايت مقارنة بريو حيث يسجّل الطقس في مثل هذا الوقت من السنة السبعين فهرنهايت وما فوق.

راحت بيل تراقب النساء الباريسيات في الشارع أسفل نافذتها، كيف كنّ يمشين على طول الرصيف في تلك الجادة العظيمة، ممسكات بأذرع فرسانهن، وجميعهم متأنقون بأزياء ذكورية راقية مستوحاة من تصاميم دار شانيل، التي

تتميّز بخطوطٍ بسيطةٍ غير منظمةٍ وتنانير تصل إلى الركبة، على خلاف الفساتين المشدودة عند الصدر التي لا تزال بيل تغرق فيها.

تنهّدت بيل وهي تحرّر شعرها الكثيف من أعلى عقدته، وتتساءل إذا ما كانت ستتجرأ يومًا على اتباع موضة الشعر القصير المنتفخ في الوسط. ولو حصل ذلك، لتبرّأ والدها منها بلا شك، وهو الذي يعتقد أن شعرها هو سر جاذبيتها. لكنها الآن هنا على بعد آلاف الأميال خارجًا عن سيطرته، ولأوّل مرّةٍ في حياتها.

شعرت بيل بحماسة كبيرة، ثم أدارت عنقها إلى اليسار ووقع نظرها على الأضواء التي تتلألأ فوق نهر السين العظيم الذي ينساب على طول باريس، وعلى الضفة الشمالية التي كانت تحت مرآها. وكانت بيل قد سمعت كثيرًا عن الفنانين البوهيميين في شوارع مونمارتر ومونبارناس، وعن العارضات اللواتي كن يقفن من دون ملابس ومن دون الشعور بأي إحراج أمام رسامين أمثال بيكاسو وغيره، وعن جان كوكتو الشاعر الشهير الذي ارتبط اسمه بالأفيون، وذاع صيته في كل مكان، إلى أن بلغ أعمدة الصحافة الصفراء في ريو.

وكانت بيل قد عرفت من حصص تاريخ الفن التي تلقّتها في ريو أن الضفّة الشمالية هي مركز لفنانين عريقين مثل ديغا، وسيزان، ومونيه، وأنّها وقعت مؤخّرًا تحت سيطرة مجموعة جديدة من المبدعين اتّسمت أعمالهم بالجرأة وعُرفت بالسورياليين. كما أنّ تلك الضفة الشمالية قد ارتبطت بكتّاب مثل فرنسيس سكوت فيتزجيرالد وزوجته الجميلة زيلدا بعد أن التقطت لهما صورًا في مطعم ومقهى «بلكلوسيري دا ليلاس»، وهما يحتسيان الأفسنتين برفقة أصدقائهما البوهيميين. وفهمت بيل من تلك الأقاصيص أن تلك المجموعة غرقت كثيرًا في شرب الخمرة طوال النهار، والرقص طوال الليل، إلى أن تخطّت حدود المعقول.

- حان وقت النوم يا بيل، أشعر بالتعب بعد الرحلة الطويلة. قالت ماريا إليسا وهي تدخل غرفة النوم وتقطع عليها حبل أفكارها.

- من فضلك أغلقي النافذة فأنا أتجمّد من البرد.

سحبت بيل إطار النافذة نزولًا ثم ذهبت إلى الحمام لترتدي ملابس النوم. وبعد عشر دقائق، رقدت الفتاتان، جنبًا إلى جنب، كل واحدة في سريرها.

فجأةً قالت ماريا إليسا بصوتٍ مرتجفٍ وهي تسحب أغطيتها إلى ذقنها:

- يا لذلك الطقس البارد، ألا تشعرين بالبرد؟

- لا، ليس كثيرًا. أجابتها بيل وهي تحاول الوصول لإطفاء المصباح الموضوع على الطاولة بجانب سريرها.

- تصبحين على خير يا ماريا إليسا. نومًا هنيئًا لك.

وبينما كانت مستلقية على ظهرها وسط الظلام الحالك، راحت تتخايل كيف سيصعب عليها مقاومة تلك المدينة، وذلك الحشد الذي يعيش حياة مهمّشة خارجة عن المألوف على ضفة السين الشمالية، ما أشعرها على الفور بدفء شديد.

في صباح اليوم التالي استيقظت بيل في وقت مبكر. وبحلول الساعة الثامنة صباحًا كانت قد ارتدت ملابسها واستعدّت للخروج إلى الشارع لتستنشق الهواء الباريسي. وعندما دخلت لتناول فطورها، وجدت هيتور وحده في غرفة الطعام.

- صباح الخير إيزابيلا. قال هيتور وهو ينظر إليها ممسكًا بيد قلمه الحبر وبالثانية فنجان قهوته.

- كيف تشعرين؟

- أنا بحالة ممتازة، شكرًا. لن تنزعج بانضمامي إليك، صح؟

- لا، على الإطلاق، فرفقتك تسرني. كنت أعتقد أنني سأتناول الفطور بمفردي لأن زوجتي عانت من الأرق طوال الليل نتيجة البرد.

- وابنتك أيضًا، طلبت لتوّها من الخادمة أن تحمل لها الفطور إلى الغرفة. تعتقد أنها أُصيبت بالزكام.

- بالنظر إليك أفهم أنك لا تعانين من أي مرض، ويسرّني ذلك. علّق هيتور.

- حتى وإن كنت سأستيقظ بالتهاب رئوي، كنت سأخرج من سريري في كل الأحوال. قالت بنبرةٍ ثابتةٍ بينما كانت الخادمة تسكب القهوة في فنجانها.

- كيف يمكن للمرء أن يشعر بالمرض وهو في باريس؟ فكّرت بصوتٍ عالٍ عندما دخلت الخادمة بسلة معجّنات شكلها مثل بوقٍ لتضعها في وسط الطاولة.

- هذا هو الكرواسان. قال هيتور عندما رآها تتفحّصها.

- وهو لذيذ عندما يؤكل ساخنًا مع مربى الفاكهة. أنا أيضًا أحب هذه المدينة على الرغم من أنني هذه المرة لن أحظى بالوقت لأستكشفها أكثر. عليّ أن أشارك في اجتماعات عديدة.

- مع النحّاتين الذين ترشّحهم لمشروعك؟

- أجل وأنا متحمّس جدًا للقائهم. لديّ أيضًا موعد مع اختصاصيٍّ في الخرسانة المسلّحة. وهو بالنسبة إليّ بالأهمية نفسها لأي موعدٍ رومنسي، إذ قد يكون أساسيًّا لتطوير مشروعي.

- هل سبق أن زرت مونبارناس؟ سألته بيل وهي تقضم الكرواسان اللذيذ وتشعر برغبة في التهامه دفعة واحدة.

- نعم، لكن قبل سنوات عدّة. كنت أصغر سنًّا وقمنا ذات مرةٍ بجولةٍ كلاسيكيةٍ هناك. هل تشعرين بانجذابٍ إلى الضفة الشمالية وسكانها الاستثنائيين؟

رأت بيل بريقًا في عينَي هيتور فأجابته:

- نعم، أقصد أنها مسقط رأس أعظم فناني جيلنا. فأنا أحب كثيرًا أعمال بيكاسو.

- وهل هذا يعني أنك ميّالة إلى الفن التجريدي؟

- لا، لا أقصد ذلك، كما أنني لست خبيرة في الفن. لكنني ببساطة أستمتع بالنظر إلى الأعمال الفنية المبدعة. فمنذ أن بدأت بالاطّلاع على تاريخ الفنون أصبحت مهتمةً بفناني ذلك الاتجاه.

- لا عجب في أن تكوني متلهّفة للتعرّف إلى ذلك الحي البوهيمي، لكنني أحذرك يا سينيوريتا، لأنه لا يشبه أحياء ريو بشيء، فهو وكر للانحطاط.

- أتخيّل أن يكون كذلك، فروحه مختلفة عن روح الأماكن الأخرى!». قالت له بيل.

- إنهم يعيشون حياة مختلفة، يجرّبون فيها كل جديد ليعطوا زخمًا لأعمالهم الفنية.

- نعم، أنت محقّة. وأشكّ في أن ينطبق ذلك عليّ لأنني لو قررت أن أطوّر تمثال كريستو وفق أسلوب بيكاسو في الرسم، حينها قد أواجه مشكلة كبيرة». قال وهو يضحك.

- لذلك، فإن بحثي اليوم لن يقودني إلى حي مونبارناس. والآن لا أريدك أن تعتبريني فظًّا، عليّ المغادرة، سأتركك وحدك لئلا أتأخّر على الاجتماع الأول الذي سيبدأ بعد نصف ساعة.

- أنا راضية بهذا القدر. قالت بيل لهيتور وهو يجمع أوراقه ودفتر ملاحظاته استعدادًا للمغادرة.

- شكرًا على رفقتك، اعلمي أنني أستمتع كثيرًا بمحادثاتنا.

- وأنا بالمثل. أجابته بيل وقد شعرت بالخجل.

فأومأ هيتور وغادر على الفور.

الزكام الذي أصاب ماريا إليسا تطوّر بحلول الظهر إلى حمّى، لذلك استُدعي الطبيب. وبدت ماريا جورجيانا أفضل بقليلٍ من ابنتها، فوصف لهما الطبيب الأسبرين ونصحهما بالبقاء في الفراش إلى أن تزول الحمّى. ما اضطرّ بيل إلى البقاء في الشقة مثل حيوانٍ مسجون في قفصٍ، وكل باريس في الخارج تناديها لتخرج وتتعرّف إليها. وسرعان ما شعرت بالإحباط وبالقسوة تجاه ماريا إليسا، على الرغم من أنها لك تقترف بحقّها أي ذنب. «لست سوى فتاة أنانية»، وبّخت نفسها وهي تجلس بجانب النافذة وتراقب الشارع وهو ينبض بالحياة.

وفي النهاية وافقت على لعب الورق مع أخوَيْ ماريا إليسا الأصغر سنًّا لعلها تضع حدًّا لمللها، وهي تفكّر في مدى خسارتها بمرور كل ساعة إضافية من أول اليوم.

استغرق مرض ماريا جورجيانا وماريا إليسا وقتًا طويلًا، زاد خلاله نفاد صبر بيل على ذلك الحبس. وبعد أن قارب الأسبوع الأول على الانتهاء، تجرّأت بيل التي لم تطأ قدمها خارج عتبة البيت منذ وصولها، أن تطلب من ماريا جورجيانا السماح لها بالتنزّه في الشارع لتستنشق الهواء المنعش. لكن إجابتها بالرفض لم تفاجئ بيل.

- لا تستطيعين الخروج من دون مرافقة يا إيزابيلا. فلا حالتي ولا حالة ماريا إليسا تتيح لنا مرافقتك حاليًّا. لكن، لا تقلقي. ستحظين بالوقت الكافي لتزوري كل المعالم السياحية في باريس لدى عودتنا من فلورنسا». أجابتها بكل جدية.

فغادرت بيل غرفة ماريا جورجيانا تفكّر في أفضل طريقة لاحتواء نفسها ريثما يغادرون إلى فلورنسا. ومجدّدًا شعرت كأنها سجينة تنظر عبر قضبان زنزانتها الحديدية، وهي تتضوّر من الجوع، إلى علبة شوكولا شهية وُضعت على بعد ملليمترات قليلة من متناولها.

كان هيتور من أنقذ الموقف في النهاية بعد أن التقيا على الفطور في غضون أسبوع. وعلى الرغم من انشغاله الدائم، لكنه شعر بأنها ذاقت ذرعًا من تلك العزلة.

- إيزابيلا، اليوم سأزور بولون بيلانكور لألتقي نحّاتًا يُدعى بروفيسور پول لاندوڤسكي. كنت قد تحدّثت إليه في السابق عبر الهاتف، واليوم سأزوره في المشغل لأتعرّف إليه شخصيًّا وإلى طريقته في العمل. يخالجني شعور بأنه الأنسب لتلك المهمة، على الرغم من أنني لم أقابل بعدُ النحّات الإيطالي والنحّات الألماني. فهل ترغبين في مرافقتي؟

- يشرّفني ذلك يا سينيور، شرط ألا أقف عائقًا في طريقك وأنت تنجز أعمالك.

- لا، أنا واثق من أنك لن تكوني كذلك. واعلمي أيضًا أنني أتفهّم انزعاجك من البقاء في البيت. لذلك أنصحك بمرافقتي لتقومي بجولةٍ مع مساعد لاندوڤسكي داخل المشغل، بينما أتحدّث أنا إليه.

- سينيور دا سيلڤا كوستا، أعتقد أنني لا أريد أكثر من ذلك. قالت بيل وقد تحمّست للفكرة.

أجابها هيتور:

- حسنًا، لا تحمّلي الموضوع أكثر ممّا يستحق، ففي النهاية والد زوجك المستقبلي هو عضو في الدائرة الكاثوليكية، ودوره في الترويج لفكرة النصب التذكاري على قمة كوركوڤادو، سيساعدنا كثيرًا في جمع التبرّعات. لذلك سأشعر بالإحراج إنْ عدت إلى ريو وأخبرته بأنني فشلت في تقديم الثروات الثقافية في العالم القديم إليك. استعدي، لأننا سنغادر في تمام الحادية عشرة.

أثناء عبورهما بالسيارة فوق جسر ألما الذي يقع على الضفة الشمالية، راحت بيل تحدّق متلهفةً عبر النافذة، وكأنها توقّعت رؤية بيكاسو شخصيًا وهو جالس في أحد المقاهي التي يشتهر بها الشارع.

قال هيتور:

- مشغل لاندوڤسكي يبعد قليلًا من هنا. لذلك أرجّح بأنه لا يهتم أبدًا للتسكّع مع أصدقائه في شوارع مونبارناس وشرب الخمرة، فهو يصبّ كلّ اهتمامه في عمله. ولأنه يعيش مع عائلته، فوضعه لا يتلاءم، بأيّ شكلٍ من الأشكال، مع أجواء الضفة الشمالية.

- كنيته لا تشير إلى أنه فرنسي. قالت بيل ما إن أدركت أنّ لاندوڤسكي ليس من الشلّة التي تتوق إلى التعرّف إليها عن قرب، فخاب ظنّها به.

- كلا، هو من أصول بولندية. وعلى الرغم من ذلك، أعتقد أن عائلته تعيش في فرنسا منذ حوالى خمس وسبعين سنة. لذلك أقول إنّ مزاجه قد لا يتناسب مع

أهواء معاصريه الهمجية. علمًا أنه من مؤيدي نمط «الآرت ديكو» الجديد الذي راج مؤخّرًا في أوروبا. لذلك اعتقدت أنه الأنسب لتمثالي.

سألته بيل:

- ما هو الآرت ديكو؟ لا أعرف شيئًا عنه.

- ممم... كيف أشرحه لك؟ غمغم هيتور في نفسه.

- حسنًا، هو فن يتناول أيّ شيءٍ نراه في حياتنا اليومية مثل طاولة، أو فستان، أو حتى إنسان، لكنّه يصوّره لنا مجرّدًا من خطوطه الأساسية. وهذا يعني أنه لا يمتّ بصلةٍ إلى الخيال أو ال رومنسية التي نجدها في النمط الكلاسيكي المُعتمَد في أعمال أهم الفنانين والنحّاتين. هو مجرّد فنٌّ بسيط لا يعرف التعقيدات... تمامًا مثل رغبة المسيح في كيفية النظر إليه.

كلما تقدّمت السيارة في سيرها نحو مشغل لاندوڤسكي، كانت المناظر الطبيعية تتحوّل مشاهد ريفية لتفسح العمارات المجال أمام منازل فردية كانت تتوزع بين الحين والآخر على حافّتي الطريق، فلم تستطع بيل إلا أن تفكّر في سخرية القدر الذي شاء أن يبعدها مرةً أخرى عن قلب المدينة، هي التي تاقت إلى التخلّص من حجزها لهفة لاستكشافه.

بعد انعطافات عدّة في اتجاهات خاطئة، استدار السائق عند منعطف إلى اليسار وتقدّم باتجاه منزل كبير كان لافتًا للنظر.

- لقد وصلنا. قال هيتور وهو يترجّل من السيارة وعيناه تشرقان بالأمل. فتبعته بيل عبر الحديقة إلى أن أطلّ شخص نحيل بملابس ملطّخة بالطين وقد غطّى الشيب شعره المبعثر ولحيته الطويلة ليستقبلهما، وبعد أن تصافح الرجلان، دخلا مباشرة في صلب الموضوع، ما دفع بيل إلى البقاء على مسافة منهما لئلا تقاطع حديثهما، وبعد مرور بضع دقائق، انتبه هيتور إلى وجودها.

- سينيوريتا. ناداها هيتور ملتفتًا إليها.

- اعذريني لأنني لا أحب أن تفوتني متعة لقائي الأول بالشخص الذي أراسله مرارًا قبل التعرف إليه. اسمحي لي بأن أقدم لك بروفيسور بول لاندوڤسكي. بروفيسور، هذه سينيوريتا إيزابيلا بونيفاسيو.

ما إن مدّ لاندوڤسكي ذراعه ليسلّم عليها حتى رفع أصابعها إلى شفتيه وقال:

- تشرّفت يا آنسة، ثم عاود التحديق إلى يدها ليفاجئها بعد ذلك بتمرير أطراف أصابعه على منحنياتها.

- يا لجمال هذه الأصابع! لم أرَ في حياتي أجمل منها. ألست من رأيي أيها السيد؟.

فأجابه هيتور:

- آسف لقول إنني لم ألاحظها من قبل، لكنك محق يا برفيسور، لأن أصابعها جميلة جدًّا.

وبعد أن حرّر لاندوڤسكي يد بيل من قبضته قال لهيتور:

- والآن أيها السيد هيّا بنا إلى العمل، سنقوم بجولةٍ في المشغل، ولاحقًا يمكن لنا مناقشة تفاصيل رؤيتك للكريستو.

تبعت بيل الرجلين عبر الحديقة تنظر يمينًا ويسارًا إلى الأوراق الخضر التي كانت ما تزال نائمة. فعلى الرغم من كونها خضرًا، لكن أزهارها لم تكن قد تفتّحت، مقارنة بألوان النبات الذي يزيّن طبيعة بلادها، والذي ينبض بالحياة على مدار السنة.

قادهما لاندوڤسكي إلى نهاية حديقته حتى بلغوا ما يشبه المرأب. كان مبنىً عالي السقف، جداره من زجاج يتيح للنور اختراقه. ما إن دخلوا إليه، حتى رأت بيل شابًّا يقف منحنيًا فوق منضدة عمل مفروشة في أحد الأركان، ويعمل بيديه الاثنتين في نحت تمثال من الطين. وبالرغم من إحساسه بدخولهم، إلا أنه بقي مركّزًا في عمله، ولم يلتفت إليهم ولو حتى لحظة واحدة.

- أعمل الآن على تمثال لسون يا تسين وأجد صعوبة في إصابة عينيه. ربما لأن ملامحهم تختلف عن ملامحنا. قال لاندوڤسكي.

- وهذا مساعدي يبحث في إمكانية تنقيح ما نتج عن جهودي السابقة».

سأله هيتور:

- وهل تعمل فقط بالطين أو بالحجر؟

- يتوقّف ذلك على رغبة الزبون، هل فكّرت في ما تريده لتمثالك؟

- نعم، فكّرت أولًا بالبرونز ثم تراجعت، إذ ليس مستحبًا أن يظهر المسيح بصبغة خضراء، كما أن البرونز يعتق بمرور الوقت وتحت تأثير الرياح والأمطار. فضلًا عن ذلك، أريد لريو أن تراه مشرقًا كلما نظرت إليه.

- حسنًا، فهمتك. أجاب لاندوڤسكي.

- مادام التمثال سيفوق الثلاثين مترًا، فهذا سبب كافٍ لإلغاء فكرة نحته بالحجر، وإلا سيكون مستحيلًا علينا سحبه إلى فوق، ناهيك باستواء قامته لتثبيته في مكانه.

- أنت محق. قال هيتور.

- لذلك فكرت في إنشاء الغلاف الخارجي للتمثال في قوالب محدّدة أعيد بناءها لاحقًا في ريو في أجزاء متفرّقة. لكن عليّ أولًا أن أنهي تصميم هيكله المعماري، وآمل أن أفعل ذلك وأنا ما أزال هنا في أوروبا.

- حسنًا، إذا انتهيت ممّا تريد رؤيته هنا، يمكن لنا الانتقال إلى المنزل لأعرض عليك الرسوم التي جهّزتها.

- وأنت، يا آنسة. قال لاندوڤسكي موجّهًا انتباهه إلى بيل:

- هل ترغبين في انتظارنا هنا إلى أن ننهي المقابلة أم تفضّلين الانتقال إلى غرفة الرسم حيث ستجدين زوجتي؟

أجابته بيل:

- لا، يمكنني البقاء هنا. شرف لي أن أتعرّف إلى طريقة عملكم في هذا المشغل.

- أنصحك أن تعتمدي اللطف في طلب كل ما ترغبين فيه، حينها فقط ستجدين مساعدي ينتشل نفسه من مقلة عين سون يا تسين ليقدّم لك المرطبات.

ثم أومأ لاندوڤسكي إلى الشاب وغادر على الفور برفقة هيتور. لكن مساعد لاندوڤسكي بقي يتجاهل وجود بيل فيما راحت هي تتجول في الأرجاء، متمنيةً

في ســـرها لو تقدر على الاقتراب منه لترى ما كان يقوم به، من دون أن تتســبّب له بأيّ إزعاج.

قبالة المساحة الرئيسة المخصّصة للعمل، رأت بيل فرنًا ضخمًا افترضت أنه يُستخدم لشيِّ الطين. وإلى اليسار، وجدت مساحة مُغلقة مقسّمة قسمين؛ قسم أول شكل مغسلًا بسيطًا تضمّن حوضًا كبيرًا كُدّست حوله أكياس الطين مسندةً إلى جُدُره، وقسم ثانٍ شكّل مطبخًا صغيرًا افتقد إلى النوافذ. ثم انتقلت إلى القاعة الرئيسة حيث راحت تنظر عبر النوافذ، فوجدت خلفها عددًا من الصخور الحجرية الضخمة بأشكال مختلفة وأحجام متنوعة، افترضت بيل أن لاندوڤسكي سيستخدمها لاحقًا في نحته.

بعد أن استنفدت كل ما يمكنه أن يشغلها إلى حين عودة هيتور، وقع نظرها على كرسيٍّ خشبيٍّ متزعزعٍ، فاقتربت منه وجلست عليه لتراقب عن بعد مساعد لاندوڤسكي وهو غارق تمامًا في عمله. بعد مرور عشر دقائق، كان وقت الظهيرة قد حلّ، رفع المساعد أخيرًا رأسه ومسح كفّيه بمريوله.

قال في نفسه: «حان موعد الغداء»، ثم نظر إلى بيل وقال مبتسمًا:

- صباح الخير يا آنسة.

لم تكن بيل قد رأت ملامحه عندما كان مصوّبًا رأسه إلى المنحوتة، وما أن ابتسم لها حتى شعرت بانكماشٍ في معدتها.

- صباح الخير. ردَّت السلام بابتسامة خجولة.

ما إن نهض عن كرسيّه ليمشي باتّجاهها، حتى وجدت نفسها تنهض بسرعةٍ. بدأ يقترب منها، ثم راح يحدّثها بالفرنسية:

- سامحيني يا آنسة على تجاهلك، كنت أركّز في إنهاء المقلة التي تتطلّب عملًا دقيقًا.

ثم توقّف تاركًا مسافة متر بينهما وراح يحدّق إليها. «هل سبق أن التقينا؟ فوجهك يبدو مألوفًا».

- لا، هذا مستحيل. لقد وصلت لتوّي من ريو دي جنيرو.

- إذًا أنا مخطئ، قال وهو يومئ برأسه.

- لا أستطيع مصافحتك فيداي مغلّفتان بالطين. اسمحي لي، سأغيب لحظات وأعود إليك بعد أن أغسلهما.

- أرجوك تفضّل. أجابته بيل بصوتٍ لا يفرق عن الهمس بشيء.

وعلى الفور فكّرت في حالها كيف نهضت بسرعة عن الكرسي عندما اقترب لإلقاء التحية، وكيف شعرت، فور دخوله إلى المغسل، بدوارٍ في رأسها وضيقٍ في نفسها. فخطر في بالها أن تكون أُصيبت بنزلةٍ صدرية كما أُصيبت ماريا إليسا ووالدتها.

بعد خمس دقائق، عاد الشاب بعد أن نزع عنه المريول وارتدى قميصًا نظيفًا. وما إن دخل القاعة حتى رفع أصابعه إلى خدّه ليمرّرها بموازاة بشرته الشاحبة، ثم تركها تنساب داخل شعره الكستنائي الطويل المموّج في حركةٍ خطّطت شكل أنفه الأقنى وشفتيه الورديّتين الممتلئتين اللتين تحجبان أسنانه اللؤلؤية. فذكّرتها نظرته الحالمة بعيني هيتور الخضراوين، خصوصًا عندما يكون حاضرًا بجسمه وغائبًا بفكره، وغالبًا ما يكون كذلك.

فجأةً، أدركت بيل أنّه يحرّك شفتيه ويخرج صوتًا من بينهما، فتهيّأ لها أنه يسألها عن اسمها. وبعد أن وعت لرد فعلها على وجوده، عادت من خيالها إلى الواقع، مستجمعةً قواها لتحدّثه بفرنسية صريحة.

- يا آنسة، هل أنت بخير؟ تبدين وكأنك رأيت شبحًا.

- أعتذر منك، لقد شردت قليلًا. اسمي إيزابيلا، إيزابيلا بونيفاسيو.

- آه، مثل ملكة إسبانيا القديمة. قال وهو يومئ برأسه.

- وأميرة البرازيل الراحلة. علّقت بيل على الفور.

- سأعترف لك بأمر، لا أعرف شيئًا كثيرًا عن بلدك وعن تاريخه، باستثناء اعتقادكم تعتقدون أنكم قادرون على منافستنا في تحضير أفضل أنواع القهوة.

- أو على الأقل في إنتاج أفضل أنواع الحبوب. قالت بنبرةٍ دفاعية.

- يبدو أنني أعرف أكثر عن بلدك». تابعت وهي خائفة من أن تبدو في نظره حمقاء كما تهيّأ لها.

- أجل، ولا عجب في ذلك، لأن ثقافتنا بدأت تتنقّل حول العالم منذ مئات السنين، بينما إرثكم الثقافي ما يزال داخل حدودكم الجغرافية. لكنني لا أشكّ في أنه سيخرج منها ذات يوم. والآن يبدو لي أن البروفيسور وصديقك المهندس قد نسياك، لذلك أنصحك بأن تقبلي دعوتي إلى الغداء، هكذا تخبرينني أكثر عن البرازيل.

- أنا...

قالت بيل وهي تنظر من النافذة بعد أن شعرت بالتوتّر من حساسية الموقف. وراحت تفكر في رد فعل والدها أو خطيبها لو شاهدها الآن تقف على انفراد مع ذلك الرجل، الذي تراه للمرة الأولى في حياتها.

لاحظ الشاب التوتّر يعلو وجهها فسارع إلى طمأنتها:

أؤكد لك أنهما سيغرقان في حديثهما لساعات حتى أنهما سينسيان أنك هنا. وإن كنت لا تريدين التضوّر جوعًا، اجلسي من فضلك إلى الطاولة هناك وسأجهّز الغداء بنفسي».

واستدار ليمشي عبر المشغل باتجاه المطبخ الذي كانت قد لمحته قبل حين.

- عفوًا يا سيدي، لكن ما اسمك؟

توقّف الشاب واستدار مجدّدًا إليها ليقول:

- آه، سامحيني. يا لوقاحتي! أُدعى لوران، لوران برويي.

جلست بيل على المقعد الخشبي الموضوع تحت قنطرة صغيرة في زاوية المشغل. وفجأةً تسرّبت من بين شفتيها ابتسامة خجولة بعد أن فكّرت في الظروف التي وضعتها هنا على انفراد مع شاب غريب، دخل المطبخ ليعد الغداء بنفسه، وهي التي لم ترَ يومًا والدها في المطبخ، ناهيك برؤيته يعدّ الطعام.

وبعد بضع دقائق، عاد لوران يحمل صينية وُضع عليها رغيفان من الخبز الفرنسي الطازج اللذيذ الذي أحبّت مذاقه، وقطعتان من الجبنة الفرنسية التي فاحت رائحتها في الأرجاء، وإبريق من الفخار مع كأسين.

وضع لوران الصينية على الطاولة وسحب خلفه ستارة قديمة عُلّقت في السقف بالمسامير. «هذه لإبعاد غبار الورشة عن طعامنا». أوضح لها وهو يضع محتويات الصينية على سطح الطاولة العاري. ثم سكب كمية كبيرة من السائل الأصفر الشاحب داخل الكأسين ومرّر كأسًا لها.

تعجّبت بيل وسألته:

- وهل تشرب الخمر مع الخبز والجبن وحدك؟».

«يا آنسة، نحن الفرنسيين نشرب الخمر مع أي شيء وفي كل وقت». ثم ابتسم لها وهو يرفع كأسه ليشرب نخبها.

- في صحّتكِ.

رشف لوران جرعة كبيرة من النبيذ بينما رشفت بيل أول رشفة لتجّربه. وراحت تراقبه وهو يمزّق الرغيف إلى قطع صغيرة ويفتحها بأصابعه ليحشوها بالجبنة. ففكّرت في أن تطلب صحنًا، لكنها امتنعت عن ذلك وحذت حذوه.

لاحقًا وعت شعورها بالسرور كونها تتذوّق للمرة الأولى في حياتها مثل ذلك الطعام اللذيذ رغم بساطته. وبدلًا من أن تلتهم الطعام مثله كالذئب، حافظت على أنوثتها ومزّقت الخبز والجبن إلى قطع صغيرة بأصابعها الناعمة لتضعها بلباقةٍ ورقيٍّ في فمها، وهي تشعر بعينيه تحدّقتان إليها طوال الوقت.

وفي النهاية سألته:

إلامَ تحدّق؟ بعد أن انزعجت من نظراته الثاقبة.

أجابها وهو يفرغ كأسه ويسكب لنفسه كأسًا آخرى:

- إليكِ.

- والسبب؟

أخذ جرعةً أخرى ثم هزّ كتفيه على الطريقة التي تميّز الباريسيين، وقد تعرفت إليها بيل إثر مراقبتها لهم وهم يمشون في الشارع، أسفل نافذتها.

- لأنك يا آنسة، جذّابة جدًّا ولا أستطيع مقاومتك.

شعرت بانكماشٍ في معدتها على الرغم من أنّ ما قاله جاء في غير موضعه.

- لا تنظري إليّ وأنت مرعوبة يا آنسة، أنا واثق من أنّ فتاةً مثلك قد سمعت هذا الإطراء ألف مرة قبل اليوم؟ لذلك أفترض أنك تعوّدت تحديق الناس بك.

فكّرت بيل في ما قاله وأدركت أنه محق، لأنه سبق لها أن جذبت كثيرًا من المعجبين، لكن لا أحد أشعرها بثقل نظراته.

- هل سبق لأحدٍ أن رسمك من قبل، أو ربما نحتك؟ سألها لوران.

- ذات مرةٍ. كنت طفلة عندما كلّف والدي أحد الرسامين برسمني.

- حقًّا، اعتقدت للحظة أن الرسّامين في مونبارناس اصطفّوا في طابورٍ ليرسموك.

- لم يمر أسبوع على وصولي إلى هنا أيها السيّد. لذلك لم أتمكّن بعد من زيارة أي مكان.

- حسنًا، الآن وقد اكتشفتك أولًا سأحتفظ بك لنفسي. لن أسمح لأيٍّ من هؤلاء المحتالين المتشرّدين بأن يقتربوا منك. قالها وهو يرسم ابتسامة عريضة على وجهه.

تنهّدت بيل وقالت له:

- أودّ كثيرًا أن أذهب إلى مونبارناس، لكنني أشكّ في أن يسمحوا لي.

- بالتأكيد لن يفعلوا. علّق لوران على مسألة عدم السماح لها بالذهاب إلى هناك.

- هل تعرفين أن الآباء في باريس يفضّلون غرق بناتهم في نهر السين على خسارتهن لطهارتهن وقلوبهن عند ضفته الشمالية. أين تقيمين؟

- في شقّةٍ تقع في جادة دي مارينيي قريبًا من الشانزليزيه. أنزل ضيفةً عند آل دا سيلڤا كوستا. وهم أوصياء عليّ.

- أليسوا متحمّسين لاكتشاف كل ما يمكن لباريس أن تقدّمه لهم؟

- لا أجابت بيل، وقد اعتقدت أنه جادّ في سؤاله، إلى أن رأت تعابير المرح تظهر على وجهه.

- حسنًا، الفنان الحقيقي يعرف تمامًا أنّ لكل قاعدة شواذًا، وأن الحواجز وُجدت لتُهدم. هي حياة واحدة نعيشها يا آنسة، لذلك فالأحرى بنا أن نعيشها كما نريد.

بقيت بيل صامتة بعد أن شعرت بالنشوة لتعرّفها أخيرًا إلى شخص يشاركها الشعور نفسه. لكن ما شعرت به كان قويًّا إلى درجة أسالت الدموع من عينيها، وقد لاحظها لوران على الفور.

- لمَ تبكين؟

- لأن الحياة في البرازيل مختلفة تمامًا عن هنا. هناك علينا أن نحترم القواعد.

- فهمت، وأرى جيّدًا أنك تحترمين إحداها. قال لوران وهو يشير إلى خاتم الخطوبة في أصبعها.

ستتزوّجين قريبًا؟

- نعم، لدى عودتي إلى الوطن.

- وهل أنت سعيدة مع خطيبك؟

فوجِئت بيل بأسلوبه المباشر في الحديث. فعلى الرغم من كونه ما يزال غريبًا عنها، وجدت نفسها تشاركه الخبز والجبن والنبيذ وحياتها الشخصية، وكأن كل واحد منهما يعرف الآخر منذ الأزل. فإذا كانت تلك هي الطريقة البوهيمية لَرغبت بيل في اعتناقها من أعماق قلبها.

«أنا واثقة من أن غوستافو سيكون زوجًا مخلصًا وصالحًا». أجابت وهي تفكر جيّدًا في ما تقوله.

- فضلًا عن أنني أؤمن بأنّ الزواج في كثيرٍ من الأحيان، لا يقوم على الحب فحسب. قالت له من دون أن تقتنع في كلامها.

نظر إليها لوران لبرهة قبل أن يهز برأسه ويقول متنهّدًا:

- يا آنسة، الحياة من دون حب مثل الفرنسي من دون نبيذ والإنسان من دون أكسجين. ومع ذلك قد تكونين على حق. ثم تنهّد من جديد وتابع قائلًا:

- بعض الناس قادرون على العيش من دونه، حتى أنهم مستعدون للقيام بتسويات من أجل الثروة والمكانة الاجتماعية، وهذا بالنسبة إليّ أمر مستحيل. فأنا أرفض كليًّا أن أجعل من نفسي أضحية على مذبح المال. وإذا كُتِبَ لي أن أتشارك الحياة مع شخصٍ آخر، أريد أن أستيقظ كل صباح وأنا أحدق إلى عينيّ المرأة التي أحبها. كما أنني مندهش من استعدادك للقبول بأقل من ذلك، فأنا أشعر بقلبك الذي ينبض شغفًا».

- من فضلك يا سيد.

- سامحيني يا آنسة، لقد تماديت في الكلام، وهذا يكفي! لكن اعلمي أنه يشرّفني أن أقوم بنحتك. هل توافقين إذا استأذنت السيد دا سيلڤا كوستا على اتخاذك نموذجًا لي لأمارس فني؟

- حسنًا، اسأله. لكنني لن أستطيع... قالت بيل وهي تحمّر خجلًا من كثرة الإحراج فعجزت عن إنهاء جملتها.

أجابها لوران الذي قرأ أفكارها:

- لا يا آنسة، لا تقلقي، لأنني لن أطلب منك أن تخلعي ملابسك، أو على الأقل ليس الآن.

وعلى أثر ذلك التلميح الجريء، الذي أسعدها بقدر ما أخافها، عجزت بيل عن الرد، فغيّرت الموضوع على الفور وسألته:

- أين تعيش؟

- مثل أي فنان حقيقي، في غرفة فوق السطوح في أحد شوارع مونبارناس، وأتشاركها مع ستة أشخاص.

- وهل تعمل مع البروفيسور لاندوفسكي؟

- ليس تمامًا، فأنا لا أتقاضى منه راتبًا سوى الطعام والنبيذ، أجابها لوران.

- ولمّا كانت غرفة السطوح التي أتشاركها مع الباقين في مونبارناس مزدحمة، فإن البروفيسور يسمح لي بالنوم هنا أحيانًا على لوح نقّال. ما زلت أتعلّم مهنة النحت ولن أجد أفضل من البروفيسور لاندوفسكي لأتتلمذ على يده، لأن لاندوفسكي يختبر الآرت ديكو في النحت كما اختبر الباقون السوريالية في الرسم. وقد تخطّى في نهجه الأعمال المعقّدة التي لم تكن ترضي الجمهور بسهولة. كان أستاذي في المدرسة الوطنية العليا للفنون الجميلة وعندما اختارني مساعدًا له، سررت كثيرًا بقبول عرضه.

سألته بيل:

- من أين عائلتك؟

ضحك لوران وقال:

- بمَ يهمّك هذا؟ أشعر بأن السؤال التالي سيكون من أي فئة اجتماعية أنت! هل تعرفين يا آنسة أن كل الفنانين في باريس هم ببساطة فنانون تخلوا عن ماضيهم ليعيشوا الحاضر دون سواه. فموهبتنا هي التي تحدّد هويّتنا وليس أصولنا. ولأنك طرحت ذلك السؤال فسأخبرك بالحقيقة. أضاف وهو يحتسي جرعة إضافية من النبيذ:

- أسرتي تنحدر من سلالة نبيلة وتسكن في قصر قريب من فرساي. لو لم أبتعد عنها وعن الحياة التي أرادتها لابنها الأكبر، لكنت الآن الكونت كيبيدو برويي. وبعد أن أخبرت والدي بأنني أرغب في أن أصبح نحّاتًا، حرمني من الميراث وأصبحت ما أنا عليه اليوم لا أملك فلسًا واحدًا في جيبي. هذا يعني أن كل ما سأكسبه لاحقًا سيكون من عرق جبيني.

عندما أنهى كلامه نظر إليها ليعرف رد فعلها فلم تقل شيئًا، وماذا يمكنها أن تقول وهي تعيش حياتها على كل القيم التي سخّفها لتوّه؟

- هل تفاجأت؟ ثقي بأنك ستلتقين كُثُرًا مثلي هنا في باريس. على الأقل، لم أجلب لوالدي العار لكوني لوطيًا كما حصل لكثيرٍ من معارفنا.

حدّقت بيل إلى وجهه، مذعورة من مجرّد نطقه ذلك بصوتٍ عالٍ وإن خطرت الفكرة على باله، إلا أنها لم تستطع إخفاء تأوّهها.

- لكنّه أمر حرام!

أدار رأسه نحوها ليمعن النظر فيها.

- الأنظمة المتعصّبة هي من جعلت منه أمرًا حرامًا، لكن هل هو حرام بالفعل، من يدري؟

- لا، لا أعرف. قالت وهي تتعثّر في الإجابة ثم صمتت لتستعيد رباطة جأشها.

- سامحيني يا آنسة، أتمنى ألّا أكون قد صدمتك.

رأت بيل لمعانًا في عينيه، ففهمت أنه كان يستمتع في إثارة الصدمة فيها.

احتست رشفة أخرى من النبيذ شجعتها على المتابعة.

- أفهم من كلامك يا سيّد، أن الجاه والمال لا يهمّانك، فهل أنت سعيد بالعيش من لاشيء؟

- نعم، على الأقل في الوقت الحالي. فأنا شاب وبصحّةٍ جيّدةٍ وأعيش هنا في باريس، عاصمة الدنيا. مع ذلك، أعترف لك أنني إذا تقدّمت في السن وقُدّر لصحتي أن تتدهور، ولم تأتِني منحوتاتي بفلس، حينها قد أندم على قراري. لديّ أصدقاء فنانون يحظون بمتبرّعين يساعدونهم في كفاحهم. ومن بين أولئك المحسنين، أرامل لا يتمتّعن بأدنى معايير الجمال، يدعمن أولئك الفنانين الشبان ليرضوهنّ بطرائق مشبوهة، وهذا ليس من طبعي. كما أنني أعتبر ذلك من أعلى درجات الزنى، ولن أكون جزءًا منه.

مرةً أخرى، صُدمت بيل من طريقته المتحرّرة في الكلام واختياره لبعض الألفاظ. على الرغم من أنها سمعت مسبقًا عن بيوت الهوى في بلادها في لابا، تلك التي يقصدها الرجال لإشباع شهواتهم ونزواتهم الذكورية، لكنه أمر لا يُحكى في العلن خصوصًا بين رجل وسيّدة محترمة.

- أعتقد أنني أخيفك يا آنسة. ابتسم لوران وقد تعاطف معها.

- أعتقد أنه ما يزال ينقصني أشياء كثيرة لأتعرّف جيّدًا إلى باريس يا سيّد.

- هذا صحيح، لذلك تستطيعين اعتباري مدرّسك في مادة التفكير السابق لعصره. آه، ها هما الغائبان قد عادا. قال، وهو ينظر فوق كتفها عبر النافذة.

- البروفيسور يبتسم، وهذه علامة جيدة.

راقبت بيل الرجلين وهما يدخلان المشغل وسط محادثةٍ عميقةٍ لا تنتهي، بينما انصرف لوران إلى جمع بقايا الطعام فوق الصينية، فانتبهت بيل إلى كأس نبيذها وأسرعت إلى التخلّص منه خوفًا من استنكار هيتور.

- سينيوريتا. قال هيتور ما إن وقع نظره عليها.

- أعتذر منك إذ طال غيابي، لكن الحديث قد أخذنا بعيدًا أنا والبروفيسور لاندوڤسكي.

فأجابته بيل بسرعة:

- لا داعي للاعتذار يا سينيور، فالسيّد برويي شرح لي أساسيات النّحت وقد استمتعت بالحصّة كثيرًا.

- ممتاز، ممتاز.

لكن بيل لاحظت أن هيتور كان ما يزال مشتّتًا، إذ لم يتأخر في معاودة النظر إلى لاندوڤسكي.

- حسنًا، سأزور فلورنسا في الأسبوع المقبل ومن ثمّ ميونيخ لأعود بعدها إلى باريس في الخامس والعشرين من الشهر. أتّصل بك حينها.

- اتّفقنا. قال لاندوڤسكي.

- ربما وجدت أن آرائي وأسلوبي في العمل غير متوافقين مع تطلّعاتك. لذلك مهما يكن قرارك، ثِقْ بأنني معجب بشجاعتك وبتصميمك على تنفيذ مثل هذا المشروع الصعب، وسيسرّني كثيرًا لو اخترتني لأكون جزءًا من ذلك التحدي الكبير».

تصافح الرجلان واستدار هيتور ليخرج من المشغل فتبعته بيل.

وإذا بلوران يستوقفه قائلًا:

- سيّد دا سيلڤا كوستا، قبل أن تغادر لديّ رجاء من فضلك.

«ما الذي يريده يا ترى؟». سأل هيتور وهو يستدير إليه.

- أرغب في نحت من اؤتمنت عليها، الآنسة إيزابيلا. فهي تتمتّع بملامح جميلة وأريد أن أختبر قدراتي في نحتها بإنصاف.

بقي هيتور حائرًا ثم قال:

- لا أعرف بمَ أجيبك على الرغم من أنه عرض رائع، أليس كذلك يا إيزابيلا؟ لو كنت ابنتي، لشعرت بحرية أكبر في اتّخاذ مثل هذا القرار، وكنت سأوافق حتمًا من دون تردد. لكن...

- لا بدّ من أنك سمعت قصصًا كثيرة تسيء إلى سمعة الفنانين الباريسيين بشأن ما يطلبونه من عارضاتهم.

قال البروفيسور لاندوڤسكي مبتسمًا بعد أن أدرك سبب تردّد هيتور.

لكنني أكفل برويي يا سيّد دا سيلڤا كوستا، ويمكنك الوثوق به. فأنا لا أعتبره فقط موهوبًا إنما أؤمن أيضًا بقدراته التي ستجعل منه نحّاتًا عظيمًا، كما أنه يعمل تحت سقفي، لذلك تستطيع الاطمئنان على سلامة الآنسة.

- شكرًا لك يا بروفيسور، سأتحدث أولًا إلى زوجتي وأجيبك عندما سأتصل بعد عودتي من ميونيخ. أجابه هيتور.

- وأنا سأنتظر سماع ردّك بفارغ الصبر. قال لوران.

ثم نظر إلى بيل ليودّعها:

- وداعًا يا آنسة.

بقي كلٌّ من بيل وهيتور صامتين طوال رحلتهما إلى الشقة، كل منهما غارق في تفكيره. وعندما مرّت السيارة من جديد بمحاذاة مونبارناس، شعرت بيل بالإثارة في عروقها. فبعد الانزعاج الشديد الذي شعرت به خلال غدائها غير المتوقّع مع لوران برويي، ها هي تشعر، وللمرة الأولى في حياتها، بأنها تعيش.

19

بالرغم من الإثارة التي استولت عليها قبيل إبحارها إلى أوروبا، حين عرفت أنها ستزور إيطاليا أرض أجدادها، شعرت بيل بالحزن وهي تحزم أمتعتها في صباح اليوم التالي للاتجاه إلى فلورنسا.

بعد أن وصلت إلى هناك، ورأت، للمرة الأولى في حياتها، قبة الدومو المذهلة من نافذة جناح الفندق الذي نزلت فيه، واستنشقت روائح الثوم والأعشاب الطازجة التي تصاعدت من المطاعم الكثيرة في أسفل شارعها، لم تشعر بقلبها يدق بالسرعة التي توقّعتها.

وبعد أيامٍ قليلةٍ صرفوها في فلورنسا، ركبوا القطار الذي نقلهم إلى روما. هناك رمت بيل وماريا إليسا العملات المعدنية في بركة تريفي، وزارتا الكولوسيوم حيث لقي شجعان كُثُر أجلهم أثناء مصارعتهم في الساحة الشاسعة. وعلى الرغم من كل ذلك تفاجأت بيل من عدم اكتراثها لأي من هذه التفاصيل.

يبدو أنها تركت قلبها وحده في باريس.

عندما حلّ يوم الأحد وهي ما تزال في روما، انضمت إلى آلاف الكاثوليكيين الذين أتوا إلى ساحة القديس بطرس في الفاتيكان لحضور القداس الذي يحتفل به البابا. فركعت على ركبتيها وراحت تحدّق من خلف غطاء الدانتيل الأسود الذي هبط من على رأسها ليغطي وجهها، إلى تلك القامة البيضاء الصغيرة التي تطل على المؤمنين من أعلى الشرفة، وإلى رجال الدين الذين توزّعوا على ركائزهم في مختلف أنحاء الميدان. وعندما اصطفّت وراء مئات المصلّين المنشغلين بدعاءاتهم

ومسابحهم ريثما يتناولون القربان المقدّس، راحت تطلب من اللّه مباركة أهلها وأصدقائها، بالإضافة إلى صلاة قصيرة نبعت من القلب، تلتها بلهفةٍ كبيرة.

«يا ربّ، أرجو ألا ينسى سينيور هيتور محادثة زوجته في موضوع نحتي، واسمح بأن أعاود لقاء لوران برويي...».

* * *

بعد أن التقى هيتور بالنحّاتَيْن اللذين خطّط لرؤية أعمالهما الفنية المعروضة في مختلف أنحاء المدينة، غادر روما متوجّهًا إلى ميونيخ، لرؤية تمثال بافاريا الضخم المصنوع من البرونز والمصمّم بأسلوب مبتكر من أربعة أجزاء معدنية ضخمة تنصهر فيما بينها.

- أشعر بأنني سأستوحي الأفكار منه عندما سأطور مشروعي، فالتحديات التي واجهوها في بنائه شبيهة، إلى حدٍّ بعيد، بتلك التي أواجهها في بناء الكريستو. قال لبيل بعدما سألته عنه ذات ليلة وهم يتناولون العشاء.

ولأسباب لم تفهمها، أو ربّما جهلتها، قرّر هيتور أثناء وجودهم في روما أن يقوم برحلته الطويلة إلى ميونيخ من دون عائلته. فكان عليها العودة إلى باريس حيث كان بانتظار الصبيين مدرّس اللغة الفرنسية.

ما إن وصلوا إلى محطة روما ليستقلّوا القطار الليلي المتوجّه إلى باريس، حتى تنفّست بيل الصعداء. أما ماريا إليسا التي انتبهت إلى تغيّر حالها، فقالت لها وهي تدخل تحت الغطاء المخملي الأحمر الموضوع فوق سرير المقصورة التي تشاركتها معها:

- تبدين أكثر إشراقًا الليلة بعد أن بقيت هادئة طوال الوقت، كأنك لم ترافقينا في تلك الرحلة.

فأجابتها بيل بتحفّظ:

- كنت أتطلّع إلى العودة إلى باريس.

حين دخلت بيل سريرها، تفاجأت برأس ماريا إليسا يطل من حافة السرير العلوي.

- كل ما قصدته أنك تبدين مختلفة يا بيل.

- أتعتقدين ذلك؟ لم أنتبه لنفسي، ماذا تقصدين بمختلفة؟

- وكأنّك... لا أدري...

تنهّدت ماريا إليسا قبل أن تتابع كلامها:

- وكأنك عالقة في أحلام اليقظة. في كل حال، أنا مثلك أتطلّع إلى العودة إلى باريس لأتعرّف إليها عن حق هذه المرّة. وسنستمتع بها سويًّا، أليس كذلك؟

أمسكت بيل بيد ماريا إليسا التي مدّت ذراعها لها من فوق، وقبضت عليها بشدّة.

- بالطبع سنفعل.

الشقة 4،
48، جادة دو مارينيي،
باريس،
فرنسا
9 نيسان 1928

ماي وپاي العزيزان،

أخيراً، عدنا من روما إلى باريس، وأتمنّى أن تكونا قد استلمتما الرسالة التي بعثتها من روما. صحة ماريا إليسا ووالدتها تحسّنت كثيراً نسبة إلى ما كانتا عليه قبل مغادرتنا إلى إيطاليا. وهذا ما أتاح لنا زيارة باريس في الأيام القليلة الماضية والاستمتاع بمعالمها السياحية. ذهبنا أولاً إلى متحف اللوفر حيث لوحة الموناليزا، وزرنا كنيسة القلب الأقدس في حي يُدعى مونمارتر، حيث عاش مونيه وسيزان وغيرهما من الرسّامين العظماء.

وتجولنا في حديقة تويلري الرائعة ثم صعدنا إلى أعلى قوس النصر. قريبًا سأزور ما تبقّى من المعالم السياحية مثل برج إيفل، لذلك أقول لكم إن من يأتي إلى باريس لا يعرف الضجر.

إن مجرّد التنزّه في شوارعها يعد تجربة بحد ذاتها. ماي، أنا واثقة من أنك كنت ستحبين المحال التجارية لو أتيتِ إلى هنا! الشوارع التي تحيط بشقتنا مليئة بدور الأزياء الفرنسية الشهيرة، وقد حدّدت لي دار لانفين التي نصحتني بها سينيورا آيريس كابرال، أول موعد لتجربة فستان العرس. فهي تقع قريبًا منا في فوبورج دو سانت أونوريه. النساء هنا أنيقات جدًّا يا ماي، فحتى لو أن قدرتهن الشرائية لم تسمح لهن بالتسوّق إلا من المتاجر الكبرى مثل لو بون مارشيه، فإن ملابسهن لا تقل أناقة عن ملابس النساء الثريات. أما بالنسبة إلى الطعام يا پاي، فاعلم أن ابنتك قد جرّبت البزّاق المطبوخ بالزبدة مع الثوم والأعشاب. لتتلذّذ به، عليك أن تسحبه بشوكة صغيرة عنوة من بيته. يا لطعمه اللذيذ! على عكس أقدام الضفادع التي لم أحب مذاقها.

اعلما أن هذه المدينة لا تنام مطلقًا، إلى درجة أنني، كل ليلة، أستمع من غرفتي لمعزوفات الجاز التي تصدر من داخل الفندق المقابل لشقتنا. يبدو أنها موسيقى رائجة في باريس. لذلك وعدنا سينيور دا سيلڤا كوستا بأن يدعونا ذات مساءٍ للاستماع لها في أحد النوادي المحترمة.

أريدكما أن تعرفا أنني بخير وسعيدة جدًّا لوجودي هنا، كما أنني أحاول الاستفادة من تلك الفرصة الرائعة التي سنحت لي بألا أترك ثانيةً واحدة تذهب سدىً. وتأكّدا أن عائلة دا سيلڤا كوستا تعاملني بلطف، علمًا بأن سينيور دا سيلڤا كوستا موجود في ألمانيا منذ عشرة أيام، وسيعود إلينا هذه الليلة.

لقد تعرّفت إلى شابّة برازيلية من ريو، أتت برفقة والدتها قبل يومين لتشرب الشاي عندنا. اسمها مارجريدا لوبيز دي ألميدا وهي ابنة جوليا

لوبيز دي ألميدا، ربّما تعرفانها فهي تحظى بشهرة واسعة في البرازيل لأنها كاتبة مرموقة. وقد أتت مارجريدا إلى باريس بعد أن فازت بمنحة دراسية قدّمتها لها المدرسة الوطنية للفنون الجميلة في ريو، لتتخصّص في تقنيات النحت. فأخبرتني بأن المدرسة الوطنية العليا للفنون الجميلة تنظم دورات تدريبية للمهتمين بالنحت، ففكرت في التسجّل لاختبار موهبتي، إذ يبدو لي أن سينيور دا سيلڤا كوستا قد أثّر كثيراً فيّ وجعلني أهتم أكثر بموضوع النحت.

سأكتب لكما رسالة أخرى في الأسبوع المقبل، وإلى حين ذلك أرسل لكما كامل محبتي وأحرّ قبلاتي.

ابنتكما المحبة،

إيزابيلا

وضعت بيل قلم الحبر على المكتب ومطّت جذعها لتنظر عبر النافذة. رأت براعم الأشجار قد تفتّحت في أيام قليلة لتملأ الشارع أسفل نافذتها، بعد أن غطّت أزهارها الأغصان التي تحملها. وحين يهب النسيم، كانت تتساقط مثل المطر فوق الأرصفة وتشكل طبقة من البتلات تنشر عطرها الزكي في كل مكان.

ثم نظرت إلى الساعة الموضوعة فوق المنضدة، فوجدتها قد تخطّت الرابعة بعد الظهر. لقد سبق لها أن كتبت رسالة إلى لوين عن إيطاليا، لذا فكّرت في أن تكتب رسالة ثالثة إلى غوستافو في الوقت المتبقي لموعد العشاء. لكنها صرفت النظر عنها بعد أن وجدت صعوبة في مجاراة الحب الذي تحمله رسائله التي تصلها كل يومين.

أرجأت الكتابة إلى وقتٍ لاحقٍ ونهضت تتجوّل في الغرفة. وما إن اقتربت من الطاولة الموضوعة في وسط الغرفة حتى أخذت لاشعوريًّا حبة بونبون ووضعتها في فمها. وعلى الرغم من سماعها جلبة الصبيين اللذين يدرسان في غرفة الطعام

المجاورة، فقد كانت الشقة غارقة في هدوء تام، إذ أن ماريا جورجيانا وماريا إليسا كانتا تأخذان قيلولة بعد الظهيرة.

قيل لبيل إن هيتور سيعود من ميونيخ في موعد العشاء، فسرّت كثيرًا بالخبر على الرغم من أنها كانت تعي ضرورة لجم رغبتها في تذكيره بطلب لوران إلى يوم آخر. وفي هذه الأثناء جاءت مارجاريدا لوبيز دي ألميدا لزيارتها مرة ثانية، فُسّرت كثيرًا بمعاودة لقائها. وبينما انشغلت والدة مارجريدا ووالدة ماريا إليسا بمحادثتهما، اكتشفت بيل أثناء حديثها الخاص مع مارجريدا كم كانت تتمتع بروح طيّبة.

- هل سبق لك أن زرت مونبارناس؟ همست بيل في أذنها وهما تحتسيان الشاي.

- نعم، مرات عدّة.

أجابتها مارجريدا بصوت منخفض.

- لكن لا تخبري أحدًا بذلك، فكلتانا تعرف أن مونبارناس ليست مكانًا مناسبًا للآنسات المربّيات».

ووعدتها مارجريدا بزيارة أخرى عمّا قريب لتعطيها معلومات عن دورة النحت التي تفكر في الالتحاق بها في مدرسة الفنون الجميلة.

- سيكون البروفيسور لاندوڤسكي أحد أساتذتك، ولذا أنا واثقة من أن سينيور دا سيلڤا كوستا لن يعارض. قالت مارجريدا أثناء مغادرتها.

- إلى اللقاء.

وكما كان متوقّعًا عاد هيتور إلى المنزل لاحقًا ذلك المساء. وعلى الرغم من الإرهاق الذي بدا على وجهه من جرّاء رحلته الطويلة، فقد استرسل في حديثه عن روائع بافاريا والتمثال الذي رآه هنا. كما أخبرهم بالحكايات المشؤومة التي تطال ظهور

حزب العمال القومي الاشتراكي الألماني بقيادة رجل يُدعى أدولف هتلر. فاستمعت له بيل بإمعان.

- وهل قررت من سينحت لك التمثال؟ سألته بيل حين دخلت الخادمة لتضع أمامهم شرائح حلوى التارت.

- هذا كل ما فكرّت فيه خلال عودتي إلى هنا. أجابها هيتور.

- ما زلت أميل إلى لاندوڤسكي، فأعماله، برأيي، تحقّق توازنًا بين النفحة العصرية والبساطة المتميزة التي تتخطّى إطار الزمان والمكان، وهذا ما أرغب فيه لمشروعي.

- سعيدة جدًّا لأنك تشعر بذلك. قالت بيل.

- لقد التقيته عندما رافقتك إلى مشغله، ولهذا أسمح لنفسي بالقول إنني أنا أيضًا أحببت منهجه. كما أنّ مهاراته الفنية واضحة لكلّ شخص».

- لكنها غير واضحة لشخص لم يتعرّف إليه بعد. تذمّرت ماريا جورجيانا التي كانت تجلس بجانب هيتور.

- عليك أن تعرّفني إلى الرجل الذي سيقوم بتصميم تمثالك الغالي.

- بالطبع يا عزيزتي، إذا كنت ترغبين في ذلك.

- حتى أنّ مساعده بارع برأيي. قالت بيل وهي تحاول إنعاش ذاكرة هيتور.

- هذا صحيح. قال هيتور.

- والآن، عليكم أن تعذروني لأنني منهك.

خاب أمل بيل التي راقبت هيتور وهو يغادر الغرفة، ما أتاح لها ملاحظة التعابير القاتمة التي ظهرت على وجه ماريا جورجيانا.

- مرةً أخرى، ينسحب والدكم من جلستنا ليبقى على انفراد مع مسيحه! لا يهم. قالت ماريا جورجيانا للأولاد وهي تمسك بملعقتها لتكمل طبق الحلوى.

- ما رأيكم بأن نلعب الورق بعد العشاء.

لاحقًا، عندما أصبحت بيل داخل فراشها، راحت تفكّر في زواج الثنائي دا سيلڤا كوستا وفي زواج والديها. فبعد بضعة أشهر، سوف تنتقل بزواجها من غوستافو إلى معسكر المتزوجين. وقد اتضح لها منذ اليوم أن الزواج ليس سوى تسامحٍ وقبولٍ لأخطاء الآخر. لا شك في أن ماريا جورجيانا تشعر بالتهميش والتجاهل من قبل زوجها الذي يصب كل طاقته واهتمامه في عمله. وهي لا تختلف كثيرًا عن والدتها التي قبلت رغمًا عنها الانتقال من فازيندا الحبيبة إلى ريو، بعد أن استوعبت رغبة زوجها الجامحة في الارتقاء اجتماعيًا.

بقيت بيل تتقلّب فوق وسادتها من كثرة تفكيرها في ما قد ينتظرها في المستقبل. وهذا ما جعلها تشعر بالحاجة إلى معاودة اللقاء بلوران برويي أكثر من أي وقت مضى.

عندما استيقظت في الصباح كان هيتور قد غادر المنزل، فشعرت بالإحباط بعد أن فوّتت على نفسها فرصة تذكيره بطلب لوران.

أما ماريا إليسا فقد لاحظت انفعالاتها المتزايدة طوال ذلك اليوم الذي صرفتاه مع ماريا جورجيانا. فتناولن الغداء أولًا في فندق ريتز، ثم تجوّلن في شارع الشانزليزيه إلى أن حان موعدهنّ في دار جان لانفين.

- ما خطبك يا بيل؟ تتصرّفين وكأنك نمر وقع في الشرك. تأفّفت ماريا إليسا.

- حتى أنك لم تظهري أي اهتمام بنقوش الفستان وبالقماش الذي ترغبين في ارتدائه يوم زفافك. أي عروس كانت لتتمنّى حضور السيدة لانفين شخصيًا جلسة تجربتها لفستان زفافها، في حين أنك لم تأبهي حتى لظهورها أمامنا! ما بالك؟ ألا تستمتعين بوجودك في باريس؟

- بلى، بلى، لكن...

- لكن ماذا؟ سألتها ماريا إليسا.

- أشعر فقط... ومشت بيل إلى النافذة في غرفة الرسم وهي تحاول شرح الموضوع.

- هناك عالم في الخارج لم نرَه بعد.

- أي عالم يا بيل؟ رأينا كل ما علينا رؤيته في باريس! ماذا بقي؟

بذلت بيل قصارى جهدها لإخفاء انزعاجها. فماريا إليسا لم تفهم من تلقاء نفسها قصدها، ولهذا فضّلت بيل ألا تخبرها بشيء. استدارت إليها وقالت لها وهي تتنهّد:

- لا شيء، لا شيء... أنت محقة، لقد رأينا كل شيء في باريس. ربما لن تفهميني لأنك هنا مع عائلتك، وعلى الرغم من رحابة صدوركم إلا أنني أفتقد إلى منزلي. كذبت بيل لتبرّر تصرّفاتها.

- لا بدّ من أنّك كذلك! أجابتها ماريا إليسا وهي تهب لمعانقة صديقتها بعدما دفعتها روحها الطيبة إلى القيام بذلك.

- كم كنت أنانية في تفكيري، هذا لأنّني هنا وسط عائلتي، وأنت تبعدين آلاف الأميال عن عائلتك وعن غوستافو.

تركت بيل نفسها تسترسل لمعانقة ماريا إليسا المواسية.

- إذا كنت تتمنين العودة إلى منزلك تستطيعين تقديم موعد رحلتك.

وضعت بيل ذقنها على كتف صديقتها المغطّاة بقطعة دانتيل وراحت تهزّ برأسها.

- شكرًا لتفهّمك يا ماريا إليسا، لكنني واثقة من أنّني سأكون بخير صباح غد.

- حسنًا، اقترحت ماي أن تحضر لي مدرّس لغة فرنسية كل صباح، بينما ينهي أخواي دروسهما. لغتي الفرنسية ضعيفة، وپاي قال إن إقامتنا في باريس ستطول حوالى عام كامل، لذلك فكّرت في أن أحسّنها. أعرف أن مستواك في الفرنسية أفضل بكثير من مستواي، ومع ذلك إذا كنت ترغبين في الانضمام إليّ سأكون مسرورة، فبضع ساعات كل يوم ستملأ نهارنا.

لكنّ اعتقاد ماريا إليسا بأن الوقت في باريس ممل، وبحاجة إلى ما يملأه، زاد من شعور بيل بالإحباط.

- شكرًا لك يا ماريا إليسا، سأفكّر في الأمر.

صرفت بيل ليلة أخرى وهي تشعر بالاضطراب، وقد حاولت فيها تقبّل احتمال أن تستمر على هذه الحال، غير قادرة على الحصول على ما ارتأت أنه سيسعدها، لكن أمرًا ما حدث في اليوم التالي وأعاد إليها الروح.

فبعد ظهر اليوم التالي، جاءت مارجريدا لوبيز دي ألميدا برفقة والدتها لزيارة ماريا جورجينا. وراحت مارجريدا تُحدّث بيل عن دروس النحت التي تأخذها في مدرسة الفنون الجميلة، فأخبرتها أنها استفسرت عن إمكانية انضمامها كمستمعة حرّة إلى تلك الدروس.

- إن مرافقتها لي إلى تلك الحصص ستؤنسني وتفرحني، كوننا نأتي من بلد واحد. قالت مارجريدا لماريا جورجيانا وهي تربّت رجل بيل من تحت الطاولة.

- لم أعرف بأنك مهتمة بأعمال النحت يا إيزابيلا؟ اعتقدت أنك تقدّرينها من بعيد وليس أكثر؟ علّقت ماريا جورجيانا.

- شاركتُ في ريو بدورة موجزة، وهناك تعرّفت إلى فن النحت. واليوم أشعر برغبة في التعمّق فيه. قالت بيل وهي تشعر بتأييد مارجريدا لكلامها من نظراتها. ثم تابعت قائلة:

- سيسرني جدًّا أن أحظى بفرصة تعلّم ذلك الفن على يد أمهر النحاتين في العالم.

قاطعتها ماريا إليسا:

- هذا صحيح يا ماي، لطالما حدّثتني بيل عن دروسها في الفن، وأنا لم أكن أفهم شيئًا مما تقوله. ولأنها ضليعة في اللغة الفرنسية، أعتقد أنها ستستفيد أكثر من دروس النحت بدلًا من أن تشهد على تشويهي للغة الفرنسية؟

شعرت بيل برغبة في تقبيلها.

ثم أضافت مارجريدا وهي تنظر إلى والدتها:

- وهذا سيريحك يا ماي من مرافقتي إلى المدرسة صباح كل يوم ومن مجيئك بعد الظهر لاصطحابي. الآن وقد أصبح لي رفيقة، يمكن للسائق أن يأخذنا ويعود بنا بمفرده لتتفرّغي أنت للكتابة. ثم تابعت قائلة وهي تنظر إلى بيل:

- وستعتني كل واحدة منّا بالأخرى، أليس كذلك يا إيزابيلا؟

- أجل، بالطبع.

أجابت والدة مارجريدا:

- حسنًا، إذا كانت سينيورا دا سيلڤا كوستا موافقة، الفكرة تبدو معقولة.

عندئذ أومأت ماريا جورجيانا موافقة على ما تقوله إحدى أكثر النساء شهرة في المجتمع البرازيلي، والتي كانت منبهرة بها.

- إذا كنت تجدين الأمر مناسبًا يا سينيورا، سأترك القرار لك.

- حسنًا. قالت مارجريدا لبيل وهي تطبع لها قبلة على كل خد مثلما يفعل الفرنسيون، عندما رافقتها إلى الباب.

- سوف آتي الاثنين المقبل برفقة السائق لاصطحابك.

- شكرًا لك. همست بيل في أذن مارجريدا وهي تسير بجانب أمها نحو الباب.

- ثقي يا إيزابيلا أن ذلك الوضع سيناسبني أنا أيضًا. أجابتها مارجريدا ثم ودّعتها بصوت عالٍ وهي تمزج بين اللغات. وداعًا يا عزيزتي. فوجدت بيل في ذلك شيئًا من الرقي.

في ذلك المساء، عاد هيتور إلى المنزل مبتهجًا.

- طلبت من الخادمة إحضار الشمبانيا إلى غرفة الرسم، لديّ أخبار رائعة وأتمنّى الاحتفال بها مع عائلتي.

بعد أن قامت الخادمة بتقديم الشمبانيا، وقف هيتور وكأسه تترجّح في قبضته.

- لقد اتّخذنا أنا وسينيور ليفي وسينيور أوزوولد وسينيور كاكو قرارنا النهائي،

فذهبت اليوم لمقابلة بروفيسور لاندوڤسكي وعرضت عليه مهمة نحت تمثال الكريستو. سنوقّع العقد في الأسبوع المقبل.

- پاي، هذه أخبار رائعة!. صاحت ماريا إليسا.

- كم يسرّني أنك توصلت أخيرًا إلى القرار الذي يسعدك.

- وأنا أيضًا سعيدة من أجلك يا عزيزي، لأن صوتًا في داخلي كان يقول لي إن لاندوڤسكي هو الخيار الصحيح. فاستدار هيتور إلى ماريا جورجيانا وقال لها:

- علينا أن ندعوه مع زوجته الفاتنة إلى العشاء في أقرب وقت متاح لتتعرّفي إليهما. لا تنسي أنه سيظهر مرارًا في حياتنا في الأشهر المقبلة.

- تهانينا، سينيور دا سيلڤا كوستا. قالت له بيل مظهرةً دعمها له.

- أعتقد أنك أصبت في قرارك.

فأجابها هيتور وهو يبتسم:

- أقدّر لك حماستك.

20

مكتبة
t.me/soramnqraa

في تمام الساعة العاشرة صباحًا من يوم الإثنين، ارتدت بيل معطفها، ووقفت عند النافذة في غرفة الرسم تنتظر وصول مارجريدا ما يقارب الساعة، وإذا بسيارة «ديلاج» برّاقة تصل إلى مدخل المبنى الذي كانت تقيم فيه.

- وصلت سينيوريتا مارجريدا. قالت لماريا جورجيانا والأولاد.

- إيزابيلا، أنتظر عودتك عند الرابعة بعد الظهر، فلا تتأخري. قالت ماريا جورجيانا لبيل وهي تهرع إلى الخارج غير قادرة على كبح رغبتها في الهروب.

- أعدك بألّا أتأخر يا سينيورا دا سيلڤا كوستا. أجابت بصوتٍ عالٍ وهي تلتقي بماريا إليسا في الرواق.

- أتمنّى لك نهارًا سعيدًا، اعتني بنفسك.

- لا تقلقي عليّ، فمارجريدا برفقتي...

- تبدوان لي مثل أسدين يتضوّران جوعًا وفجأة انفتح أمامهما باب القفص. قالت ماريا إليسا رافعة حاجبيها.

- استمتعي بوقتك يا عزيزتي.

دخلت بيل المصعد لتنزل إلى الطابق الأرضي فوجدت مارجريدا تنتظرها في البهو.

- هيا أسرعي، لقد تأخّرنا. ابتداءً من الغد علينا أن ننطلق في وقت أبكر وإلا

سيجعلنا البروفيسور باكيه، إذا وصل قبلنا، أمثولةً للجميع. قالت مارجريدا وهما تصعدان إلى المقعد الخلفي من السيارة.

ما أن انطلقت السيارة، حتى راحت بيل تعاين ملابس مارجريدا وكانت ترتدي تنورة كحلية سادة وبلوزة غير مزخرفة من البوبلين، بينما حرصت هي على التأنّق وكأنها ذاهبة إلى حفلة شاي في فندق ريتز.

- أعتذر منك. قالت مارجريدا بعد أن انتبهت إلى ملابس بيل المتأنّقة.

- كان عليّ أن أحذّرك بالنسبة إلى الملابس، فمعظم الطلاب في مدرسة الفنون الجميلة غير ميسورين، وهؤلاء لا يتعاملون معنا نحن الطبقة الثرية بلباقة، على الرغم من أننا نعدّ من القلائل الذين يدفعون أجور المدرسين». قالت وهي تركّز خصلة بنيّة من شعرها اللمّاع خلف أذنها.

- فهمت. أجابتها بيل.

- لكنني حريصة على أن تعتقد سينيورا دا سيلڤا كوستا بأن الصف مليء بالآنسات المؤدبات.

لدى سماعها ذلك، انفجرت مارجريدا بالضحك وهي ترمي برأسها إلى الخلف.

- بيل، أنبّهك إلى أننا الفتاتان الوحيدتان في الفصل. حسنًا، هناك سيدة متقدمة في السن أعتقد أنها ما زالت عزباء، وشخص آخر... ربما تكون أنثى، لا أدري. فشعرها قصير مثل الرجال وأقسم أن لديها شاربين!

- ووالدتك لم تمانع؟ أقول ذلك لأنني اعتقدت أنها أخذت فكرة عن الأجواء؟

- ربما، لكن بصراحة أعتقد أنها لا تعرف كل شيء. تعلمين أنّ أمي تؤمن بالمساواة بين المرأة والرجل، لذلك هي تشجعني على التعلّم لأتمكّن من خوض معاركي في بيئتنا التي ما زالت تحت سيطرة الذكور. فضلًا عن أن الحكومة البرازيلية قد وهبتني تلك المنحة لدراسة النحت. لذلك كان عليّ أن أختار أفضل مدرسة توفّر هذا الاختصاص. أجابت مارجريدا.

انعطفت السيارة عند شارع مونتين لتتابع سيرها باتجاه جسر ألما، فقالت مارجريدا لبيل وهي تحدّق إليها:

- عرفت من أمي أنك مرتبطة بغوستافو آيريس كابرال وستتزوجينه قريبًا. يدهشني أن يكون قد سمح لك بالمجيء إلى باريس.

- هذا صحيح، أنا مخطوبة لغوستافو، وهو من تمنّى أن أتعرّف إلى أوروبا قبل الزواج، لأنه سبق أن زارها قبل ثماني سنوات.

- هذا يعني أنّ علينا أن نجعل الوقت القصير الذي تقضينه هنا ممتعًا قدر المستطاع. فضلًا عن أنني أثق بأنك لن تكرّري أيًّا مما ترينه أو تسمعينه اليوم أمام أحد. تعتقد أمي أن دروسي تنتهي عند الرابعة بعد الظهر، لكنها على خطأ.

- فهمت، وإلى أين تذهبين في الوقت المتبقي؟ سألت بيل بعد التردّد قليلًا.

- إلى مونبارناس لأتناول هناك الغداء مع أصدقائي. لذلك أقسمي لي أنك لن تتفوّهي بكلمة واحدة.

- بالطبع لا. أكّدت لها بيل بعد أن شعرت بالإثارة والحماسة لسماعها ذلك الاعتراف.

- أنبّهك إلى أنك ستجدين الناس الذين أعرفهم هناك... كيف أقولها لك... متطرفين إلى درجة صادمة.

- أعرف ذلك، لقد سبق لأحد يعرفهم تمام المعرفة أن نبّهني. قالت بيل لتؤكد على كلام مارجريدا، وتابعت التحديق من النافذة أثناء عبورهما فوق السين.

- أنا واثقة من أن ذلك (الأحد) ليس سينيورا دا سيلڤا كوستا؟ وضحكت الفتاتان كل واحدة في سرّها.

- لا، كان نحّاتًا شابًا التقيت به في مشغل بروفيسور لاندوڤسكي عندما رافقت سينيور دا سيلڤا كوستا إلى هناك.

- ما اسمه؟

- لوران برويي.

- حقًّا! قالت مارجريدا وهي ترفع حاجبها.

- أعرف من يكون، فقد التقيت به مرات عديدة في مونبارناس. إنه يأتي إلى المدرسة، بين الحين والآخر، ليعطينا الدرس بدلًا من بروفيسور لاندوفسكي عندما يكون مشغولًا. إنّه شابّ وسيم.

بعد سماع كلمات الإطراء، شعرت بيل بالارتياح إذ فهمت أنها قادرة على مشاركة مارجريدا حماستها، لذلك أخذت نفسًا عميقًا قبل أن تقول لها:

- لقد طلب الإذن من سينيور هيتور لينحتني.

- فعلًا؟ لا بد من أنك تشعرين بالفخر. لقد سمعت أن السيّد بروبي لا يختار أي عارضة لتقف أمامه. يُقال إنه حظي بشهرةٍ واسعةٍ في مدرسة الفنون الجميلة ويُتوقّع له نجاح باهر في المستقبل. قالت مارجريدا وهي تنظر بإعجاب مرةً أخرى إلى بيل.

- كلّك مفاجآت يا إيزابيلا. وسرعان ما انتبهت بيل إلى توقّف السيارة عند أحد الأرصفة.

سألت مارجريدا وهي تنظر من حولها:

- أين المدرسة؟

- تبعد شارعين من هنا. لا أريد للطلاب الذين يمشون مسافة كيلومترات كل صباح ليصلوا إلى هنا، ومعظمهم لا يملكون ثمن فطورهم، أن يروني في سيارة فخمة مثل هذه». أوضحت لها مارجريدا.

- هيا بنا.

كان مدخل مدرسة الفنون الجميلة مزينًا بتمثالين نصفيين من منحوتات الفنانين الفرنسيين بيير بول بوجيه ونيكولاس بوسين. تمكّنت الفتاتان من الوصول إليه عبر بوابة من الحديد المسبوك، ثم اجتازتا فناءها المتماثل المحاط بمبانٍ أنيقة مشيّدة بحجر باهت، أما نوافذها فمقوّسة في أعلى الحاجب وتشهق على علو الطابق الأرضي لتذكّر بالأديرة، علمًا أنه قيل إنها بُنيت في الأصل لتكون ديرًا.

دخلت الفتاتان من الباب الرئيسي وتابعتا سيرهما داخل القاعة الكبرى وسط صدى الأحاديث الشبابية.

وإذا بشابّةٍ نحيفةٍ تجاوزهما على مرأى من بيل التي صاحت بمارجريدا:

- انظري إلى هذه، ترتدي بنطالًا!

- ليست الوحيدة هنا، سترين كثيرات يرتدين بنطالًا. أجابت مارجريدا.

- هل تتخيّلين إحدانا تصل إلى فندق كوباكابانا بالاس، وهي ترتدي البنطال، لتشرب الشاي؟ ها قد وصلنا.

دخلت الفتاتان قاعة الدراسة حيث ألقت النوافذ الضخمة بنور الصباح على مقاعدها الخشبية، في الوقت الذي بدأ الطلاب يتوافدون بدورهم حاملين دفاترهم وأقلام الرصاص ويجلسون على مقاعدهم.

تفاجأت بيل.

- وأين سننحت؟ ولمَ لا يرتدون مريول النحت.

- هذه ليست حصّة نحت. قالت لها مارجريدا وهي تفتح دفتر الملاحظات لتراجع الجدول الزمني.

- إنها حصة تعلّم تقنيات النحت على الحجر. بمعنى آخر هذه حصة نظرية، وكل ما نتعلّمه اليوم نطبّقه في المستقبل في الحصّة التطبيقية.

دخل رجل في منتصف عمره القاعة بشعره المبعثر وعينيه المحتقنتين بالدماء ولحيته الخفيفة، فبدا لبيل وكأنه قفز لتوّه من سريره وأتى مباشرة إلى القاعة ليلقي عليهم الدرس.

- صباح الخير أيتها السيدات والسادة، سأعرّفكم اليوم إلى جميع الأدوات التي تلزمكم لنحت تمثال من الحجر. وفتح صندوقًا خشبيًّا أخرج منه أدوات شبّهتها بيل بآلات التعذيب، ووضعها على المنضدة.

- هذا منقاش حاد يُستخدم لتحديد الخطوط العريضة بالنقر على الأجزاء الكبيرة. متى حصلنا على الشكل الذي نريده، نستخدم هذا المنقاش المسنّن والذي يُعرف أيضًا بمنقاش الخدش. هذا سيتيح لنا الحصول على ما نسمّيه بالخطوط المسنّنة، أو الخطوط التي تعزّز ملمس الحجر...

واصل المدرّس حديثه عن كل أداةٍ على حِدَة مفصّلًا وظيفتها وبيل تستمع له بإمعان. وعلى الرغم من أنها كانت ضليعة في الفرنسية إلا أنها واجهت صعوبة في متابعة كل حديثه لأن لكنته كانت سريعة قليلًا، فضلًا عن استخدامه مصطلحات كثيرة، ما جعلها تواجه صعوبة إضافية في الفهم.

بعد استسلامها، اختارت أن تركّز، في الوقت المتبقي للحصّة، على زملائها الشبان الذين لم ترَ أشباههم من قبل. فبدوا لها غريبي الأطوار بملابسهم القذرة، وشواربهم الطويلة، ولحاهم الكثيفة، ورؤوسهم الجامحة، ففهمت أنه التوجّه الرائج بين فناني ذلك العصر. وأثناء مراقبتها لهم، التقت نظراتها ونظرات جارها، فرجّحت من ملامحه المختبئة وراء الشعر المنتشر على وجهه، أنه لا يكبرها كثيرًا في السن. وعندما فاحت رائحة كريهة عكست قلّة النظافة الشخصية داخل القاعة، شعرت بيل بتميّزها.

راحت تسخر من نفسها، هي التي كانت تعتبر نفسها في ريو روحًا متمرّدة، لمجرّد دعمها في السر حقوق المرأة، وعدم الاكتراث للممتلكات المادية، وكره مسألة تصيّد الأزواج الأثرياء.

وها هي هنا اليوم تجد نفسها مثل أميرة من العصور القديمة، في عالم تخلّى عن القواعد المجتمعية. فبالنسبة إليها، كان واضحًا أن لا أحد منهم يهتم للتقاليد والأعراف، ولا تستغرب إذا كانوا يشعرون بواجب محاربتها بشتّى الطرائق.

عندما أعلن المدرّس نهاية الحصّة، وجمع الطلاب دفاترهم وغادروا القاعة، الواحد تلو الآخر، شعرت بيل ببعض الوهن.

- تبدين شاحبة، هل أنت بخير يا إيزابيلا؟ قالت مارجريدا وهي تحدّق إلى وجهها.

- أعتقد أنها الزحمة داخل القاعة. كذبت بيل وهي تتبع مارجريدا إلى الخارج.

- فضلًا عن الرائحة الكريهة في القاعة. ألم تشميها؟

ضحكت مارجريدا وقالت لها:

- حسنًا، عليك أن تتعوّدي الأمر. أنا آسفة إن لم تقدّم هذه الحصة النحت لك بطريقةٍ ممتعة. الدروس التطبيقية تكون بالعادة مسلّية أكثر، أعدك بذلك. والآن ما رأيك لو نتنزّه قليلًا لنعثر على مكان نتناول الغداء فيه؟

ما إن أصبحت الفتاتان في الشارع حتى شعرت بيل بالسعادة. فراحت مارجريدا تخبرها أثناء عبورهما شارع بونابرت الذي كان سيقودهما إلى مونبارناس، عن الوقت الذي قضته في أوروبا.

- وصلت إلى باريس قبل ستة أشهر، ومع ذلك أشعر بأنني في بيتي. وفضلًا عن السنين الثلاث التي أمضيتها في إيطاليا، سأمضي هنا سنتين إضافيتين، لذلك أعتقد أنّ عودتي إلى ريو بعد غياب خمس سنين لن تكون سهلة.

- أنا واثقة من ذلك. قالت بيل معربة عن تفهمها لذلك الإحساس. ثم بدأت تنتبه إلى الشوارع التي تضيق، وإلى المقاهي التي تتكاثر، وكلها تعج بالزبائن الجالسين إلى طاولات خشبية صغيرة مصفوفة على الأرصفة تحت مظلات ملونة تحميهم من شمس الظهيرة. حينذاك بدأت تحس بالهواء المثقل بروائح التبغ والقهوة والكحول.

- ما هو ذلك السائل في كؤوسهم الصغيرة، يبدو أن الجميع يحتسون الشراب نفسه؟ سألت بيل مارجريدا.

- آه، هذا الأفسنتين. كل الفنانين يحبّونه لأنه قوي وغير مكلف. على الرغم من أنني أعتبر مذاقه مقرفًا.

وانتبهت بيل إلى بعض الرجال الذين كانوا يحدّقون إليهما باحترام، وإلى أن غياب المرافقة الأكبر سنًّا لم يثر من حولهما أي انتقادات. وعلى الفور فهمت أن لا أحد يأبه لوجودهما هنا، فتحسّن مزاجها بعدما عرفت أنها في مونبارناس ولأول مرة في حياتها.

- تعالي، سنذهب إلى لاكلوزيري دي ليلاس. قالت مارجريدا.

- وإذا كنا محظوظتين، سنلتقي هناك وجوهًا مألوفة.

أشارت مارجريدا إلى أحد المقاهي الشبيهة بتلك التي مروا بها من قبل. وبعد أن شقّتا طريقهما بين الطاولات الخارجية المكتظة بالزبائن والملتصقة

الواحدة بالأخرى فوق الرصيف، قادت مارجريدا بيل إلى الداخل لتحدّث النادل بفرنسية سريعة، فيقودها بدوره إلى طاولة مركونة في إحدى الزوايا من جهة النوافذ.

- والآن. قالت لبيل وهما تجلسان على أغطية جلدية كانت موضوعة فوق المقاعد.

- هذه أفضل نقطة لنا إذا رغبنا في مراقبة رواد مونبارناس وهم ينجزون أعمالهم. لنرَ كم من الوقت سيمر قبل أن يلاحظوا وجودك. أضافت مارجريدا.

- لمَ أنا؟ سألت بيل.

- لأنك يا عزيزتي فائقة الجمال، ولأنك امرأة فلن يجدوا عملة أفضل منك في مونبارناس ليتعاملوا بها. أعطيهم عشر دقائق وسترين كيف سيصبحون فوق رأسينا، توّاقين إلى التعرف إليك.

- وهل تعرفين كثيرًا من بينهم؟ سألتها بيل.

- نعم، تقريبًا. لن تصدّقي كم أنّ هذا المجتمع صغير، والكلُّ هنا يعرفون الكلّ.

لفت انتباههما رجل ذو شعر رمادي مسرّح إلى الخلف. بعد أن نهض عن طاولته وسار إلى البيانو ليجلس عنده ويبدأ العزف ببراعة فائقة ساد الصمت التام داخل المقهى. راحت بيل تركّز في أدائه وهو يصعّد في عزفه كلما تقدّم مع النوتات الموسيقية. وما إن وصل إلى نهاية المعزوفة، حتى علت موجة من التصفيق، فابتهج الرجل وعاد مسرورًا إلى طاولته.

- لم أسمع في حياتي عزفًا مثل هذا. قالت بيل وقد قطع ذلك أنفاسها.

- من كان ذاك الذي عزف على البيانو؟ إنّه حقًّا موهوب.

- *querida*، هذا راڤيل نفسه، والمقطوعة التي عزفها تدعى بوليرو. كان شرفًا لنا أن نسمعها اليوم لأنه لم يصدرها رسميًّا بعد. والآن، ماذا تريدين أن تأكلي؟

كانت مارجريدا قد صدقت عندما قالت لبيل إنهما لن تبقيا على انفراد لمدة طويلة. إذ سرعان ما بدأ الرجال يتوافدون إلى طاولتهما، من كل الأعمار، ليلقوا عليهما التحية، ويستفسروا عن تلك الجميلة التي يرونها برفقتها لأول مرة.

علّق أحد الرجال الذي بدا لبيل وكأنه يضع أحمر شفاه:

- يا لحظّنا الرائع، أيضًا وأيضًا امرأة من بلاد الغربة، سوداء العينين وحامية الدم.

وبقي الرجال يقتربون منهما ليقفوا قبالة بيل ويحدّقوا إلى وجهها، فتحمرّ هي خجلًا إلى أن تصبح بلون فجلة السلطة التي لم تمسّها بسبب ذلك الشعور بالبهجة الذي منعها من الأكل.

جاء أحدهم لاحقًا وقال لها:

- ثقي بأنني قادر على رسمك لأجعل من جمالك صورة خالدة. مارجريدا تعرف أين مرسمي. وبعدها ألقى التحية وهو يُحني لها جذعه ثم رحل. كما أن النادل كان يأتي إلى طاولتهما كل بضع دقائق حاملًا بيده كؤوسًا جديدة فيها سائل غريب اللون ويقول لهما:

- هذه لكما مع تحيات السيد الذي يجلس على الطاولة رقم ستة...

- ثقي بأنك لن تحتاجي إلى عرض نفسك أمام أيٍّ منهم. قالت مارجريدا.

- فكلّهم سورياليون لذلك لن يهتموا لشكلك الخارجي، إنما لجوهرك فحسب... وفي كل الأحوال، سيجعلون من صورتك شعلة تحترق شغفًا، وسيظهر صدرك في زاوية، وعينك في الزاوية المقابلة!» قالت مارجريدا وهي تضحك.

- جربي هذا، اسمه غرينادين. لقد أحببت مذاقه». وقدمت لها كأسًا فيها سائل قرمزي ثم فاجأتها بالقول:

- إيزابيلا، انظري بسرعة إلى الباب.

التفتت بيل إلى مدخل المقهى بعد أن زاغ نظرها بالكؤوس التي وُضِعت أمامها، وسمعت مارجريدا تسألها:

- هل تعرفين من يكون؟

- نعم. أجابتها بيل بعد أن تعرّفت إلى صاحب الشعر المتموّج الداكن الذي أشارت إليه مارجريدا.

- إنه جان كوكتو.

- هو بنفسه، يا له من رجل حسّاس، كما أنه صاحب نظرة سبّاقة لعصره!

- هل تعرفينه شخصيًّا؟ سألتها بيل.

- قليلًا. أجابت مارجريدا وهي تهزّ بكتفيها.

- ذات مرة طلب مني أن أعزف له على البيانو.

وبينما كانت بيل تصب كل اهتمامها في السيد كوكتو، فاتها الشاب الذي راح يشق طريقه إلى طاولتهما بعد أن تورّط في مشاجرة داخل المقهى.

- آنسة مارجريدا، مرّ وقت طويل لم أرك فيه، وآنسة إيزابيلا، أليس كذلك؟ ما إن سمعت بيل اسمها، رفعت نظرها عن طاولة كوكتو فوقع مباشرة في عيني لوران بروبي، ولدى رؤيته راح قلبها يقفز داخل صدرها.

- نعم أنا بنفسها، أعتذر منك يا سيّد بروبي، كنت شاردة قليلًا.

- لا داعي للاعتذار يا آنسة إيزابيلا، أتفهّم أن تشبعي نظرك بشخصية أهم منّي بكثير. قال وهو يبتسم لها.

- لم أفكر من قبل في احتمال معرفة كلّ منكما للأخرى.

- تعارفنا مؤخرًا. أوضحت مارجريدا.

- وأنا اليوم أعرّفها إلى روائع مونبارناس.

- وأنا واثق من أنها ستقدّرها كثيرًا. قال لوران وهو يرمق بيل بنظرة عكست تذكّره كل كلمة قيلت خلال محادثتهما الأخيرة.

- كما يمكن لك أن تتخيّل، لقد توسّل إليها كل الفنانين في المقهى بأن تسمح لهم برسمها. واصلت مارجريدا.

لكنني بالطبع نبّهتها إلى أخذ حذرها منهم.

- حسنًا، أشكرك على ذلك، لأنني موعود بها والآنسة إيزابيلا تعرف ذلك. كما أنني مسرور من أنك تصونين حقوقي الفنية عليها.

قال لوران وهو يرسم ابتسامة عريضة على شفتيه.

إثر سماعها ذلك ارتجفت بيل من شدة سرورها، أو ربما من مفعول الكحول، أو من الإثارة التي شعرت بها لانضمامها إلى ذلك العالم الجديد المذهل في نظرها.

وإذا بشابٍ أسمر البشرة يقترب من طاولتهما ولوران لا يزال حاضرًا.

- آنسة مارجريدا، كل من يجلس إلى طاولة السيّد كوكتو يطالب بمعزوفة منك على البيانو. فهل تتكرّمين علينا بمقطوعتك المفضّلة. أنا واثق من أنك عرفت أي واحدة نقصد، صح؟

- أجل بالطبع. قالت وهي تلقي نظرة سريعة على الساعة المعلّقة على الحائط خلف البار، ومن ثمّ خضعت لرغبتهم.

- يشرفني ذلك على الرغم من أنني غير قادرة على مساواة السيد راڤيل في العزف. قالت وهي تنهض عن مقعدها وتلقي التحية بإيماء رأسها لراڤيل.

راحت بيل تراقب مارجريدا وهي تشق طريقها بين الحشد لتجلس على المقعد الذي نهض عنه راڤيل قبل قليل. وإذا بالهتافات تعلو في المقهى.

- هل تسمحين لي بالجلوس لأستمع إلى عزفها؟ سألها لوران.

- بالطبع أجابت بيل.

جلس بجانبها على المقعد العريض، بعد أن ضغط بوركه على فخذها وهو يحاول أن يفسح لنفسه مجالًا على المقعد الضيّق. ومرة أخرى، تعجّبت بيل من قدرة هؤلاء الناس على اختراق الحواجز الشخصية وكأنّه أمر بديهي.

وعلى أنغام رابسودي إن بلو الرنّانة لغيرشوين، ذاع عزف مارجريدا في أرجاء المقهى بعد أن توقف الحاضرون عن إصدار الضجيج. وبقيت بيل تراقب ما يحدث من حولها، بينما كان لوران يمسح الكؤوس التي لم تمس أمامه ويختار واحدة ليشبك أصابعه النحيفة والقوية حولها.

أنزل لوران يده الثانية تحت الطاولة ووضعها بشكل عَرَضي على فخذه كما قد يفعل أي رجل. مرّت بضع دقائق فأعادها إلى أعلى فخذه وتركها تستقر عند ملتقى

فخذيهما. فحبست بيل أنفاسها ما إن شعرت بأنه قام بذلك عن قصد، خصوصًا عندما أحسّت بأصابعه تداعب فخذها برقة فوق الفستان...

وما إن بلغت الموسيقى ذروتها، حتى شعرت بيل بدمها يفور في عروقها وبوخز في جسمها.

- الآنسة مارجريدا موهوبة جدًّا، أليس كذلك؟ وأحسّت عندما قال لها ذلك، بأنفاسه تدفئ أذنها، فأومأت له برأسها من دون أن تتلفّظ بأي كلمة.

- لم أكن على دراية بموهبتها الموسيقية. قالت له، ما إن علا التصفيق مرة أخرى في المقهى.

- يبدو أنها تتمتّع بمواهب مخفيّةٍ كثيرة. وعندما قالت ذلك بدا لها صوتها غريبًا وكأنها كانت تتحدث من تحت الماء.

- أؤمن بشدة أن المرء عندما يولد مبدعًا، فإن روحه تشبه السماء المليئة بالنيازك، أو بكوكب يسير من دون توقف باتجاه كل ما يأسر الخيال. أناس كُثُر في هذه القاعة قادرون ليس على الرسم والنحت فحسب، إنما على كتابة الشعر والعزف على آلات موسيقية أيضًا، وعلى التأثير في الجماهير بسبب مهاراتهم التمثيلية والغنائية. قال لوران. ثم نهض عن المقعد وأحنى رأسه لمارجريدا ليعبّر لها عن تقديره وإعجابه:

- لقد أبدعت يا آنسة.

أجابته مارجريدا بتواضع:

- شكرًا يا سيّد، هذا لطف منك». ثم جلست في مكانها.

- أعتقد أننا سنتقابل قريبًا في المشغل. أخبرني بروفيسور لاندوڤسكي أنك ستنضمين إلينا في دورة تدريب خلال الأسابيع القليلة المقبلة.

- اقترح عليّ ذلك بنفسه ولم أكن أنوي الإعلان عنه قبل أن يتأكّد الأمر. أجابت مارجريدا وهي تشير إلى النادل ليحضر إليها الفاتورة.

- يُشرفني كثيرًا أن يُرحَّب بوجودي هناك.

- يعتقد أنك تتمتّعين بقدراتٍ هائلةٍ على الرغم من أنك امرأة. قال لوران ساخرًا.

- سأعتبرها مجاملة. قالت مارجريدا وهي تبتسم، ثم وصلت الفاتورة فوضعت فوقها بضع أوراق نقدية.

- مادمتِ ستأتين إلى مشغله، فهذا يعني أنك قادرة على أداء دور الوصيفة للآنسة إيزابيلا، بينما آخذ وقتي في نحتها. اقترح لوران.

- هذا يحتاج إلى التخطيط، لنفكّر جيدًا في الأمر. قالت مارجريدا وهي ترشق بنظرها ساعة الحائط المعلّقة خلف البار.

- حان الوقت لننسحب، إلى اللقاء يا سيّد بروبي. قالت مارجريدا وهي تقبّله على خديه، ثم نهضت بيل وتبعتها.

- آنسة إيزابيلا، لقد شاء القدر أن نلتقي مجدّدًا. آمل في المرة المقبلة أن يكون لوقت أطول. ثم قبّل يدها وهو يرمقها بنظرة من تحت رموشه. على الرغم من سذاجتها لكنها فهمت على الفور ما كانت تحمله تلك النظرة من معانٍ.

عندما عادت بيل إلى الشقة، كانت ماريا جورجيانا لحسن حظها، تأخذ قيلولة بعد الظهر، وكانت ماريا إليسا في غرفة الرسم تقرأ كتابًا.

ما إن دخلت بيل الغرفة عليها حتى سألتها:

- كيف كان يومك؟

- كان رائعًا! أجابت بيل وهي تُلقي بنفسها على الكرسي، منهكة من التوتّر الذي نتج عن كل تلك الإثارة، وفي الوقت نفسه مسرورة بلقائها المفاجئ بلوران.

- ممتاز. وماذا تعلّمت؟

- آه، كل شيء عن الأدوات التي تلزمنا للنحت على الحجر. قالت عابثة ودماغها لا يزال مشبعًا بالكحول التي منعتها من تحريك شفتيها بشكلٍ طبيعي.

- وهل التعرف إلى أدوات النحت على الحجر يحتاج إلى ست ساعات؟ سألتها ماريا إليسا وهي تنظر إليها بريبة.

- على الأغلب، ومن ثم ذهبنا لتناول الغداء... أجابتها بيل، ثم نهضت بغتة.

- أعتقد أنّني منهكة، سأذهب لآخذ قيلولة صغيرة قبل العشاء.

- بيل.

- نعم.

- هل كنتِ تشربين الكحول؟

- لا... حسنًا، شربت كأسًا واحدةً من النبيذ على الغداء. الكل يشربون في باريس. ثم مشت بيل باتجاه الباب، وهي تأخذ على نفسها عهدًا بألّا تقبل بعد اليوم أيًّا مما يوضع أمامها في المستقبل على طاولات لاكلوزيري دي ليلاس الخشبية القديمة.

21

شقة 4

48 شارع دو مارينيي،

باريس،

فرنسا

27 حزيران 1928

باي وماي العزيزان،

يصعب عليّ تصديق أنني غائبة عن ريو منذ أربعة أشهر. الوقت يمرّ بسرعة هنا، وأنا مصمّمة على متابعة الدروس التي أحضرها مع مارجريدا دي لوبيز ألميدا في مدرسة الفنون الجميلة. على الرغم من أنني أعرف تمامًا أنني لن أصبح نحّاتة شهيرة مثلما يُتوقّع لبعض زملائي في الدراسة. إلا أن تلك الدروس طوّرت حسّي في تذوّق فن الرسم والنحت وأشعر بأنها ستُفيدني في المستقبل عندما أصبح زوجة لغوستافو.

لقد حلّ الصيف مؤخّراً في باريس التي أصبحت أكثر حيوية، وأشعر بأنني أصبحت باريسية في الصميم!

أتمنّى لكما أن تزورا باريس ذات يوم لتتعرّفا إلى ذلك السحر الذي يميّزها والذي أعتبر نفسي محظوظةً برؤيته كل يوم.

مع فائق حبي،

إيزابيلا.

طوت بيل الرسالة بدقّةٍ متناهيةٍ ووضعتها داخل المظروف لترسلها إلى والديها عبر البريد. ثم أسندت ظهرها إلى الكرسي وتمنت لو أنّ بإمكانها مشاركة والديها مشاعرها الحقيقية تجاه باريس التي يزيد حبها لها كل يوم، وتجاه الحرية التي تكتسبها مع مرور الأيام، وتجاه الأشخاص الذين تتعرّف إليهم. لكنها كانت تعرف أنهم لن يتقبّلوا الحقيقة، لا بل سيندمون على قرارهم بالسماح لها بالمجيء.

الشخص الوحيد الذي كانت ترتاح إلى مصارحته هو لوين. لذلك سحبت ورقة جديدة وكتبت عليها رسالة مختلفة أفرغت فيها مشاعرها الحقيقية، وهي تحدّثها بمطلق الحرية عن مونبارناس ولوران بروبي، ذلك النحات الشاب الذي يرغب في نحتها.

* * *

بفضل مارجريدا، أصبحت بيل تستيقظ كل صباح بإحساس رائع. وعلى الرغم من أنّ تلك الدروس التي تحضرها كانت تأتيها بفائدة، إلا أنها في الواقع كانت تتطلّع أكثر إلى الوقت الذي تقضيه في مقهى لاكلوزيري دي ليلاس.

كل مرة كانت تذهب فيها إلى ذلك المقهى، كانت تشعر بأنها في وليمة فخمة للحواس المبدعة، كلما انضم فنان أو موسيقي أو كاتب إلى طاولة من طاولاته. فقبل أسبوع فقط، رأت المؤلف جيمس جويس يجلس إلى طاولة على الرصيف، يشرب الخمر ويفرغ أفكاره الحالمة على كومةٍ من الأوراق البيض بواسطة آلته الكاتبة.

- ألقيت نظرة خاطفة فوق كتفه فوجدت مخطوطة بعنوان *Finnegans Wake*، وهو الكتاب الذي يؤلفه منذ ست سنوات. قال لهما أرنو، وهو كاتب صاعد مقرّب من مارجريدا، بينما كان يلهث من الإثارة.

على الرغم من أن بيل كانت تعرف أنها لا تستطيع أن تحظى بأكثر من لقائها بأولئك النجوم أو تنفّس الهواء الذي يتنفسون، فقد حاولت مرارًا أثناء تنزّهها مع

مارجريدا من المدرسة إلى مونبارناس التخطيط للهروب مساء إلى الضفة الشمالية في الساعة التي تعود إليها الحياة، إلا أن مؤامراتهما المحاكة باءت كلها بالفشل.

- أعرف أن ذلك مستحيل، لكن لا شيء يمنعنا من الحلم. قالت بيل.

- حسنًا، علينا أن نكتفي بما لدينا من نِعَم. على الأقل نحن حرّتان طليقتان في النهار. قالت مارجريدا وهي تتنهّد.

***

نظرت بيل إلى ساعتها ريثما تصل سيارة مارجريدا لتُقلّها إلى المدرسة. كانت قد ارتدت فستان غبردين من اللون الأزرق الداكن، اختارته لكونه أبسط قطعة ملابس لديها، وسرّحت شعرها ثم وضعت قليلًا من أحمر الشفاه على شفتيها، وودّعت أهل البيت بصوتٍ عالٍ وهي تغلق الباب خلفها.

- كيف حالك هذا الصباح؟ سألتها مارجريدا وهي تركب السيارة.

- بخير، شكرًا.

- إيزابيلا، لدي أخبار، وأخشى ألّا تكون سارّة بالنسبة إليك. لقد طلب مني بروفيسور لادوفسكي أن أستعد للدورة التدريبية التي تقام في مشغله في بولون بيلانكور. لذلك سأتوقّف عن الذهاب إلى مدرسة الفنون الجميلة ابتداءً من اليوم.

- تهانينا، لا بدّ من أنك مسرورة. قالت بيل وهي تبتسم عنوة ابتهاجًا لصديقتها.

- نعم، مسرورة جدًا. قالت مارجريدا.

- لكنني متفهمة أيضًا بأن ذلك سيضعك في موقف صعب. أشك في أن سينيورا دا سيلڤا كوستا ستسمح لك بالمجيء وحدك يوميًّا إلى المدرسة.

- لا، لن تفعل. قالت بيل وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

- لا تيأسي يا بيل. ربّتت مارجريدا يد صديقتها لتطمئنها.

- سنجد حلًّا، أعدك بذلك.

***

حدث أن مدرّس الحصّة في ذلك اليوم كان البروفيسور لاندوڤسكي، الذي كان بالعادة يسحر بيل بتفسيره لنظرية الخطوط البسيطة ومناقشته الصعوبات التي قد تواجه النحّات في تحقيق الكمال. لكنها حينذاك لم تكن جاهزة لسماعه.

وأسوأ ما في الأمر كان أنها لم تلتقِ مجددًا برويي منذ وجبة الغداء الأولى في مقهى لاكروزيري دي ليلاس، والتي تعود إلى ما يفوق الشهر. وعندما سألت مارجريدا بطريقة غير مباشرة عنه، قالت لها إن البروفيسور لاندوڤسكي قد وكّله رسميًّا في بناء نموذج أولي لتمثال هيتور.

- أعتقد أن السيّد برويي ينام في ذلك المشغل كل ليلة. فسينيور دا سيلڤا كوستا حريص على استلام أي شيء يخوّله البدء بالعمليات الحسابية في أقرب وقت ممكن. وبعد انتهاء الحصة، نادى لاندوڤسكي على مارجريدا.

- إذًا يا آنسة، هل ننتظرك في المشغل الأسبوع المقبل؟

- نعم بروفيسور، يشرّفني أن أحظى بتلك الفرصة.

- أرى أنك برفقة ابنة بلدك، الفتاة ذات اليدين الجميلتين. قال لاندوڤسكي وهو يومئ برأسه لبيل.

- ما زال برويي يحدّثني عن رغبته في نحتك. في نهاية هذا الأسبوع، سنرسل النسخة الأولى من التمثال إلى وليّ أمرك، فإذا شئت يمكنك بعد ذلك مرافقة الآنسة لوبيز دي ألميدا إلى مشغلي لتحققي لبرويي أمنيته. اعلمي أن مجيئك سيكون بمنزلة جائزة على الساعات الطويلة التي قضاها بالعمل على الكريستو في الأسابيع الثلاثة الماضية. وسيُفيده كثيرًا أن يعاود النظر في شكل المرأة، بعد تحديقه المطوّل إلى ربنا.

- وأنا واثقة من أنه سيسرّ إيزابيلا القيام بذلك. أجابت مارجريدا على الفور. فأومأ لاندوڤسكي برأسه إلى الفتاتين وغادر الحصة.

- هل رأيت يا إيزابيلا؟ صاحت مارجريدا وهما تخرجان من المدرسة وتتابعان سيرهما كالعادة إلى مونبارناس.

- يبدو أن اللّه، أو في الحقيقة، أن الكريستو في صفك!

- أنت محقّة، إذ بدا لي ذلك أنا أيضًا. وافقت بيل بعد أن شعرت بقلبها يحيا بأمل جديد.

- لديّ ما أحدّثك به. قالت ماريا إليسا لبيل في ذلك المساء بينما كانتا تستعدان لدخول الفراش.

- أريد أن أعرف رأيك في مسألة تخصّني.

- كلّي آذان صاغية. أجابتها بيل وهي تشعر بالسرور من لأنها ستكون مستمعة جيدة لصديقتها التي باتت تقضي معها وقتًا أقل من السابق.

- ماذا هناك؟

- أرغب في أن أصبح ممرّضة، وأريد أن ألتحق بدورة تدريب.

- يا لها من أخبار رائعة. قالت بيل وهي تُظهر ابتسامة عريضة على وجهها.

- هل تعتقدين ذلك؟ أشعر بالقلق من رد فعل ماي، إذ لم يسبق لأي من نساء عائلتنا أن عملت من قبل. بدأت أفكر في ذلك منذ مدة، وعليّ أن أتحلّى بالشجاعة لأخبرها بالأمر. قالت ماريا إليسا وهي تعضّ على شفتها.

- ما الذي ستقوله برأيك؟

- آمل أن تعبّر عن فخرها بك وتتمنّى لك أن تقومي بكل ما يفيدك في هذه الحياة. كما أنني متأكّدة من أنّ والدك سيسر جدًّا بقرارك.

- حسنًا، أتمنّى أن تكوني على حق. قالت ماريا إليسا بعد أن ولّدت بيل فيها الحماسة.

- فكّرت في ألّا أسمح للوقت الذي سأقضيه هنا في باريس أن يذهب سدىً، إذ يمكنني التطوع في أحد المستشفيات. هناك واحد يبعد بضع دقائق عن شقتنا، سيرًا على الأقدام».

مدت بيل يدها إلى ماريا إليسا وضغطت عليها داخل قبضتها.

- أنت إنسانة رائعة يا ماريا إليسا وتفكرين دائمًا في الآخرين. لذلك أعتقد أنك تتمتّعين بالصفات المثالية لتمارسي مهنة التمريض. العالم يمر بتغييرات كثيرة تطالنا نحن النساء ولا أجد سببًا قد يمنعنا من تحقيق أي شيء في حياتنا.

- حسنًا، أنا لست على أبواب زواج، فلمَ لا أستغل الوقت؟ الأمر بالطبع يختلف بالنسبة إليك لأنك في غضون ستة أسابيع ستعودين إلى ريو لتصبحي زوجة غوستافو، وحينها ستنشغلين في إدارة بيتك خصوصًا إذا لم تتأخّري في الإنجاب. أما أنا فعليّ العثور على هدفٍ مختلفٍ في حياتي. شكرًا على الدعم. سأتحدث غدًا إلى ماي.

فور دخولهما الفراش، أطفأت ماريا إليسا النور في حين استلقت بيل على ظهرها واستغرقت وقتًا طويلًا لتغفو.

لقد بقي ستة أسابيع أمام عودتها إلى الحياة التي وصفتها صديقتها لتوّها بإيجاز. حاولت استحضار صور إيجابية عن حياتها المستقبلية، فلم تخطر ببالها أي صورة.

كانت مارجريدا قد وعدت بيل بالاتصال بها حالما تمر بضعة أيام على انضمامها إلى المشغل لتُعلمها بموعد انضمامها إليه بعد أن يحدّده لاندوفسكي، إلا أنها حتى تلك اللحظة لم تسمع منها حسًّا.

ومرة أخرى بقيت بيل وحيدة في الشقة، بعدما حصلت ماريا إليسا على إذن والدتها بعد طول انتظار، للتطوّع في مستشفى قريب، وصارت تخرج كل صباح عند التاسعة. أما ماريا جورجيانا فكانت تصرف جزءًا كبيرًا من أيامها في إنهاء المهام المنزلية وكتابة الرسائل.

- عيد ميلاد والدتي بعد شهر، وأرغب في شراء هدية لها من باريس، فهل تسمحين لي بالخروج يا سينيورا؟ سألت بيل ماريا جورجيانا ذات صباح أثناء الفطور؟

- لا يا إيزابيلا، لأنني واثقة من أن والديك لن يوافقا على تجوّلك بمفردك في باريس، وأنا عاجزة حاليًّا عن مرافقتك لانشغالي في مهام كثيرة.

تدخّل هيتور بعد أن سمع حديثهما:

- حسنًا يا إيزابيلا، لمَ لا ترافقينني بعد قليل؟ أنا ذاهب إلى المكتب، وربما تجدين هديتك في أحد المتاجر التي نمر بها في شارع الشانزليزيه. كما أنني واثق من أنه لا مشكلة في أن تمشي مسافة ما يقارب المئة متر وحدها في طريق العودة إلى هنا يا عزيزي.

- كما تريد. أجابت ماريا جورجيانا رغمًا عن انزعاجها من معارضة هيتور قرارها.

- الطقس دافئ في هذه الأيام حتى بالنسبة إلينا نحن البرازيليين. قال هيتور وهو يتقدّم برفقة بيل إلى الشانزليزيه بعد أن مرت عشرون دقيقة على خروجهما من الشقة.

- هل ما زلت تستمتعين بباريس؟

- لا، بل وقعت في حبها. أجابته بيل متأثرة.

- سمعت أنك تستقصين الشوارع البوهيمية للمدينة إذا صح القول.

نظرت بيل إلى هيتور وهي تشعر بالذنب:

- أنا...

- رأيت صديقتك مارجريدا في ورشة لاندوفسكي أمس، وسمعتها تتحدث إلى مساعده الشاب حول وجبات الغداء التي تشاركتماها في مقهى لاكلوزيري دي ليلاس.

شعرت بيل بانكماش لدى سماعها ذلك. لكن هيتور، ما إن رأى الخوف في تعابيرها، حتى سارع إلى طمأنتها وهو يربّت ذراعها.

- لا تقلقي، سرّك في أمان. فضلًا عن أنني أجد مارجريدا فتاة عاقلة وهي تعرف باريس. طلبت مني أن أخبرك بأنها ستمر لاصطحابك غدًا عند العاشرة لترافقيها إلى المشغل، فكما تعرفين السيّد بروبي يرغب في نحتك. على الأقل، وجودك هناك سيبقيك بعيدة عن المتاعب وحينها سنعرف أين تقضين كامل وقتك.

رأت بيل هيتور يرفع حاجبه، مع أنها كانت واثقة من أنه قال ذلك على سبيل المزاح.

أجابته بعد أن تردّدت قليلًا:

- شكرًا على إخباري. ثم غيّرت الموضوع إخفاءً لمدى سعادتها بسماع ذلك.

- هل أنت سعيد بعمل البروفيسور لاندوفسكي على تمثالك؟

- ما زلت لغاية الآن واثقًا من قراري في هذا الشأن، كما أنني ألمس التوافق بين رؤية لاندوفسكي ورؤيتي للتمثال. لكن الوقت ما يزال مبكرًا لأقول إننا وصلنا إلى التصميم النهائي. كما أنني غارق حاليًا في حل مشكلات أخرى، أهمها المواد التي سنكسو بها الكريستو. سبق أن فكرت في خيارات كثيرة لكنني لم أصل بعد إلى الأنسب بينها سواء من الناحية الجمالية أو العملية. حسنًا، ما رأيك لو نذهب من هنا، فقد تجدين هدية أمك في هذا الممر. ذات مرة، عثرت فيه على وشاح من الحرير قدّمته لماريا جورجيانا.

وبعد أن انعطف الاثنان إلى غاليري أنيقة تقع في وسط الممر، أشار هيتور إلى المتجر الذي اشترى منه هديته.

- سأنتظرك هنا. قال لها وهي تدخل المتجر. فاختارت بيل وشاحًا ناعمًا بلون الخوخ ومنديلًا مطابقًا له لكونهما يتماشيان مع بشرة والدتها.

دفعت ثمنهما وخرجت. فرأت هيتور يقف عند نافورة صغيرة تقع في وسط الغاليري ويحدّق إلى قاعها.

اقتربت ووقفت بجانبه. وعندما شعر بعودتها أشار بأصبعه إلى بلاط الموزاييك الذي يُزيّن أرض النافورة.

سألها:

- ما رأيك بهذا؟

- سامحني يا سينيور، لم أفهم ماذا تقصد؟

- ماذا لو كسونا الكريستو بالفسيفساء؟ فحينها لن تتعرض القشرة الخارجية للتشقق لأن كل بلاطة ستكون منفصلة عن الأخرى. حسنًا، عليّ أن أفكر في نوع الحجر الذي سيناسبنا أكثر، نوع يكون فيه مسام ولديه القدرة على مقاومة العوامل الخارجية، مثل حجر ميناس جيرايس الأملس، فلونه فاتح وهذا أكثر ما يلائمنا. سآتي بسينيور ليفي إلى هنا على الفور ليراه قبل انطلاقه غدًا إلى ريو، علينا أن نسرع في اتخاذ القرار.

لاحظت بيل تعابير هيتور المبتهجة، فتبعته وهو يخرج بسرعة البرق من الغاليري.

- إيزابيلا، هل تنزعجين إذا انفصلنا هنا وتركتك تعودين وحدك إلى المنزل؟

- بالطبع لا أنزعج. قالت إيزابيلا.

ودّعها هيتور وهو يهزّ برأسه وراح يبتعد بخطى واسعة.

22

- أهلًا وسهلًا يا آنسة. قال لوران لبيل وهو يُقبّلها على خديها بعد دخولها المشغل برفقة مارجريدا.

- تعالي معي لنخمّر القهوة. أما أنت يا آنسة مارجريدا.. قال لها وهي تتخطاهما لتذهب وترتدي مريولها...

- فيقول البروفيسور إن الكوع الأيسر الذي نحتّه البارحة يحتاج إلى مزيدٍ من التنقيح، ولو أن محاولتك كانت جيدة بالإجمال.

- شكرا يا سيّد. أجابت مارجريدا.

- أما بالنسبة إلى ما قاله البروفسور فسأعتبرها مجاملة.

- والآن إيزابيلا، رافقيني إلى المطبخ لنرى كيف تخمّرين القهوة في بلادك، لا بد من أن تكون قوية وداكنة. قال وهو يمسك بيدها ويسحبها معه إلى المطبخ. وهناك سحب كيسًا بنيًا من الورق كان موضوعًا على أحد الرفوف وفتحه ثم شمّ البن الذي في داخله.

- هذه حبوب برازيلية طُحنت هذا الصباح، اشتريتها خصيصًا لك من متجر أعرفه في مونبارناس لتساعدك على الاسترخاء وتذكّرك ببلادك.

استنشقت بيل رائحة البن البرازيلي التي حملتها على أجنحة السرعة إلى ما يبعد حوالى خمسة آلاف ميل فوق البحار من المشغل.

- أريد أن أعرف مذاق قهوتك المفضّلة. أصرّ لوران وهو يناولها ملعقة صغيرة تساعدها في التحضير.

لم يسبق لبيل أن حضّرت فنجان قهوة واحدًا في حياتها، إذ كان الخدم في منزلها يهتمون بذلك. فتركت الماء تغلي فوق الموقد الصغير، رافضةً الاعتراف بذلك.

ثم سألته:

- لديك أكواب؟

مدّ يده إلى الخزانة ليسحب من داخلها أكوابًا وهو يقول:

- تفضّلي، أعتذر منك، ليست من الطقم الصيني الفاخر الذي تحبينه. في كل الأحوال، فإن ذلك لن يؤثّر في طعمها.

- بالطبع لن يؤثر في طعمها. قالت وهي تشعر بالتوتّر.

وعندما سكبت مسحوق القهوة داخل الأكواب، حاول الوصول إلى الرف ليسحب عنه إناءً صغيرًا من الفضة، ومن ثمّ قال لها:

- في الواقع يا آنسة، نحن في باريس نستخدم إناءً في تخمير القهوة.

احمرت وجنتاها من كثرة الحرج بعد أن أدركت الخطأ الذي ارتكبته بإضافة الماء الساخن إلى البن بعد أن سكبته في الأكواب. ثم تابع قائلًا:

- وبعد أن تتخمّر هذه، نجلس لنتحدّث.

بعد بضع دقائق عاد لوران برفقة بيل إلى قاعة العمل، حيث كانت مارجريدا قد جلست في مكانها وباشرت العمل على منحوتتها. فالتقط لوران لوحة قد رسمها قبل مجيئها وأرشدها إلى المقاعد التي تحيط بالمنضدة حيث جلسا لتناول الغداء في المرة الماضية، وشدّ الستارة وراءهما.

- اجلسي هناك من فضلك. قال لها وهو يشير إلى الجهة المقابلة حيث جلس. ثم قال وهو يضع كوبه على شفتيه:

- والآن، حدّثيني عن حياتك في البرازيل.

تفاجأت بيل بطلبه وراحت تحدّق إليه.

- ولمَ تريدني أن أحدّثك عن البرازيل؟

- لأنك الآن يا آنسة تجلسين قبالتي مثل لوح من الخشب الصلب وتبدين مشدودة الأعصاب كأنك تسندين سقفًا على وشك الهبوط منذ أكثر من مئة عام.

أريدك أن تسترخي لتعود عضلات وجهك إلى طبيعتها، ويزول التوتّر عن شفتيك، وتشرق عيناك بالنور من جديد. وإذا لم يحصل هذا كلّه، فإن منحوتتي ستكون الأسوأ على الإطلاق. هل فهمتِ قصدي؟

- حسنًا، سأحاول. أجابت بيل.

قال لوران:

- لكن يبدو لي أنك لم تقتنعي بما قلته، سأحاول أن أشرح لك». يعتقد معظم الناس أن النحت هو إعادة بناء الهيكل الخارجي للشخص المنحوت. حسنًا، من الناحية التقنية هذا ما هو عليه، لكن أيّ نحّات عظيم يعرف أن النحت يقوم أيضًا على نقل جوهر الجسم الذي يعيد نحته.

نظرت بيل إليه في حيرة وقالت:

- فهمت.

تابع:

- مثال بسيط على ذلك، إذا كنتُ اليوم سأنحت فتاة صغيرة، وشعرت بمجرد النظر إلى عينيها بأن قلبها الرقيق قد نزف كثيرًا، فقد أنحتها وهي تمسك في يدها حمامة أو ما شابه، وأجعلها تقبض عليها بحنان. لكن إذا شعرت بالجشع وأنا أنحت امرأة، فقد أضع حول معصمها سوارًا ثمينًا أو في أصبعها خاتمًا كبيرًا. لذلك أريدك أن تحدثيني عنك وأنا أرسمك.

- قال لوران وهو يفتح لوحة ويُهيِّئ قلم الرصاص ليبدأ بالرسم.

- أخبريني أين نشأت؟

- حسنًا، أمضيت طفولتي في مزرعة في الجبل. قالت بيل وهي تستحضر إلى ذهنها صورة فازيندا التي لطالما أحبتها، وسرعان ما بانت الابتسامة على شفتيها.

- كنا نربّي الخيول، وكنت كل صباح أركب على ظهر مهرتي لأتنزّه في الروابي ثم أقصد البحيرة لأسبح هناك.

قاطعها لوران وهو يراقص قلمه فوق الورقة:

- يا لتلك الشاعرية.

- بالفعل. لاحقًا انتقلنا للعيش في ريو، في منزل يقع في أسفل جبل كوركوڤادو. فالكريستو الذي تعمل عليه الآن سوف يتخذ ركيزة على قمة ذلك الجيل. وعلى الرغم من أنه أجمل وأعظم من الجبال المحيطة بفازيندا، لكنني أشعر بأنه مظلم. حتى أنه أشعرني مرارًا أثناء إقامتي في ريو....

توقفت فجأة في محاولة للعثور على الكلمات الصحيحة التي تصف شعورها بدقة.

- وكأنني لا أستطيع التنفس.

- وكيف تشعرين هنا في باريس؟ هل تشعرين بالاختناق مثلما تشعرين في ريو؟

- آه، لا. قالت بيل وهي تهز برأسها. وسرعان ما اختفى ذلك العبوس الذي ظهر على جبهتها قبل قليل.

- أنا أعشق هذه المدينة، لاسيما شارع مونبارناس.

- حسنًا، فهمت. ليست الأماكن التي تؤثّر فيك لكنها حالتك النفسية. لأن باريس مدينة خانقة أيضًا ومع ذلك تقولين إنك تعشقينها.

- أجل، أنت على حق. قالت وهي مقتنعة بتحليله.

- أساس المشكلة في ريو في الحياة التي أعيشها هناك وليس في المدينة نفسها.

- وما المشكلة في تلك الحياة؟ قال لوران وهو يواصل رسمه الدقيق لتعابير وجهها.

- لا شيء، أعني... وحاولت العثور على الكلمات التي تنقل له واقعها، لكنها عبثًا تفعل.

- أعتبر نفسي محظوظة لأن تلك الحياة تمنحني امتيازات كثيرة. وبعد عام من اليوم، سأتزوج لأعيش في قصر جميل فأحظى بكل ما تتمنّاه أي امرأة.

- ولمَ أرى تعاسة في عينيك وأنتِ تتحدثين عن المستقبل؟ هل السبب هو زواجك الذي يقوم على العقل وليس القلب؟ فهذا ما لمّحت إليه في المرة الأولى التي التقينا فيها.

بقيت بيل صامتة بعد أن شعرت بسخونة في خديها عند كشف لوران تلك الحقيقة. أجابته:

- يا سيّد بروبي، أنت لا تفهم شيئًا لأن الأمور في ريو مختلفة تمامًا عن هنا. زواجي من رجل نافذ هو رغبة والدي. فهو من اختار لي خطيبًا من العائلات الأكثر نفوذًا في البرازيل. أما أنا فلا أملك موهبة مثلك لأكسب رزقي وأقرّر الانتفاض على ذلك الوضع. أنا أعتمد كليًّا على والدي، وعمّا قريب سأبدأ بالاعتماد على زوجي.

- أجل يا آنسة، أفهمك تمامًا وأتعاطف معك، لكن لا أحد سيقدر على تغيير ذلك الوضع إلا أنت.

قال وهو يتنهّد، ثم وضع قلمه على الأرض وراح يتأمل رسمته لدقائق في حين بقيت هي ثابتة في مكانها تشعر بالتوتّر والاضطراب والإحباط الذي تسبّبت به تلك المحادثة الصريحة.

وفي النهاية رفع لوران نظره إليها وقال:

- حسنًا، بالنظر إلى هذه، أؤكد لك أنك قادرة على كسب قوتك اليومي من عملك كعارضة لفناني مونبارناس. أنت لا تتمتعين بوجهٍ جميلٍ فحسب، وأنا على ثقة بأنك تخفين تحت الطبقات التي تغطين بها جسدك، أنوثة آسرة.

وراح ينظر إليها من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها، فشعرت مرة أخرى بالسخونة تنبع من صدرها لتعلو وجهها.

- لمَ شعرت بالإحراج؟ نحن في باريس نُثني على جمال المنحنيات الأنثوية. ألم نولد عراة في الأساس؟ المجتمع هو من فرض علينا ارتداء الملابس، طبعًا بالإضافة إلى صقيع الشتاء في باريس. ضحك ثم نظر إلى الساعة وقال:

- لا تقلقي من جهتي لأنني سأنحتك بما ترتدينه اليوم، فهو يليق بك تمامًا».

حينها شعرت بيل بالارتياح وأومأت إليه في صمتها.

«والآن بعد أن أرهقتك في الكشف عما في داخلك، وقد بلغنا الثانية عشرة ظهرًا، سأعدّ لك بعض الخبز والجبن وأكافئك ببعض النبيذ».

ثم أمسك لوران بفناجين القهوة ومشى عائدًا إلى المطبخ. وفي طريقه إلى هناك، توقّف عند مارجريدا ليدعوها إلى الانضمام إليهما على الغداء.

- شكرًا لك. قالت له ثم نهضت من مكانها لتدخل إلى الحمام وتغسل يديها من الطين. فبقيت بيل وحدها في القاعة، تحدّق عبر النافذة إلى حقل الخزامى وهي لا تزال تشعر بالاضطراب بعدما دفعها لوران إلى الكشف عن حقيقة مشاعرها تجاه المستقبل التي ينتظرها في ريو.

- هل أنت بخير يا إيزابيلا؟ سألتها مارجريدا عندما عادت إلى القاعة لتجلس بجانبها. ثم وضعت يدها على كتفها عندما شعرت بالقلق لدى رؤيتها تعابير وجهها.

- لقد سمعت مقتطفات من حديثكما، وآمل ألا يكون السيّد بروويي قد أجهدك كثيرًا في سعيه إلى التعرّف إلى جوهرك من أجل عمله، وأتمنى أيضًا... تابعت وهي تخفض صوتها:

- بأن يكون الدافع وراء ذلك مهنيًا بحتًا.

- ماذا تقصدين؟

لم يتسنَّ لمارجريدا أن ترد على سؤالها إذ كان لوران قد عاد إليهما بصينية طعام.

بقيت بيل على صمتها طوال الغداء، تنصت إلى حديث مارجريدا ولوران الذي دار بمجمله عن معارفهما المشتركة وعن التصرّفات الخارجة عن المألوف لبعض الناس.

- كوكتو جهّز غرفة خلفية في مبنى في شارع دي شاتودان ليدعو أصدقاءه إليها فيشربون الكوكتيلات التي يُحضّرها بنفسه ويطلق عليها أسماء من ابتكاره. سمعت أنها مدمّرة. قال لوران وهو يأخذ جرعة كبيرة من النبيذ.

- وهل سمعت ببدعته الجديدة؟ يبدو أنه يعقد جلسات لتحضير الأرواح.

- ما معنى ذلك؟ سألت بيل بعد أن أصيبت بالانبهار.

- هي جلسات تحاولين فيها التواصل مع الموتى. أوضحت لها مارجريدا.

- ولا أحبّذها مطلقًا. تابعت قولها بعد أن انتابتها قشعريرة.

- كما أنه يقوم بجلسات تنويم مغنطيسي على الصعيد الجماعي، يريد اختبار إمكانية وصوله إلى العقل الباطني. برأيي هذا مثير للاهتمام لأنني أنجذب إلى النفس البشرية بقدر ما أنجذب إلى الشكل الظاهري. قال لوران وهو ينظر إلى بيل.

- وأعتقد أنك لاحظت ذلك هذا الصباح يا آنسة. حسنًا، حان الوقت لنعود إلى العمل. أقترح عليك، بينما أقوم بوضع كرسي في الزاوية لأن الإنارة أقوى هناك، أن تخرجي إلى الحديقة وتتنزّهي قليلًا، لأنني سأبدأ بنحتك على الفور. ومجددًا أعتقد أنك لا تزالين متحجّرة مثل الحجر الذي سأنحتك فيه.

- أنا سأرافقها يا سيّد بروبي، لأنني بحاجة إلى بعض الهواء النقي. هيّا بنا يا إيزابيلا. قالت مارجريدا.

نهضت الفتاتان لتخرجا إلى الحديقة. وهناك وقفتا بجوار حقل الخزامى حيث عبق العطر بقوة.

- الصوت الوحيد الذي أسمعه الآن هو طنين النحل وهو يمتص رحيق الأزهار. قالت مارجريدا وهي تتنهّد مبتهجة وتمسك بذراع بيل وتلف ذراعها حولها.

- هل أنت بخير يا إيزابيلا؟

- نعم، شكرًا. أجابت بيل بعد أن هدأ توتّرها من كأس النبيذ الذي شربته على الغداء.

- حسنًا، عديني بأنك لن تسمحي له بإزعاجك.

- لا، بالتأكيد لا. قالت بيل لتُطمئنها. ثم قالت مارجريدا وهما تتنزّهان على حافة الحديقة المحاطة بخشب السرو المقصوص بدقة متناهية.

- غريب كيف أن طبيعة البرازيل بالرغم من ثرواتها النباتية والحيوانية، تختلف عن طبيعة فرنسا وطاقتها وأجوائها. فهناك أجد صعوبة في التأمل أو

الشعور بسلام داخلي. بينما هنا أشعر بأنني قادرة على ذلك حتى وأنا في مونبارناس». قالت بيل:

- هيا بنا إلى المشغل ليبدأ السيّد بروبي بالعمل على تحفته.

بعد مرور ثلاث ساعات، كانت بيل في طريق عودتها إلى الشقة عندما شعرت بالإرهاق، بسبب جلوسها على ذلك الكرسي إلى ما لا نهاية وهي تضع يديها على ركبتيها وتعرض أصابعها كما رغب فيها لوران أن تكون.

وبدلًا من أن تستمتع بأنوثتها، شعرت وكأنها عانس تظهر في صورة فوتوغرافية من تلك التي لونها بني داكن. وبدأ ظهرها يؤلمها من كثرة جلوسها منتصبة، ومن ثمّ شعرت برقبتها متيبّسة. حتى أنها تجرّأت أثناء جلوسها أمامه على نفض أحد أصابعها وضبطه في وضعية أكثر راحة على مرأى من لوران الذي خرج من خلف حجر النقش واقترب منها ليعيد يدها إلى وضعيتها الأصلية.

- إيزابيلا، استيقظي يا *querida*، لقد وصلنا إلى شقتك. فنهضت محرجة من مارجريدا بعد أن غفت لاإراديًا على مقعدها.

- أنا آسفة. قالت وهي تُجلّس قعدتها بينما كان السائق يفتح لها باب السيارة.

- لم أدرك أن الأمر سيكون متعبًا إلى هذا الحد.

- لقد كان يومًا طويلًا ولا شك في أنه كان شاقًا بالنسبة إليك، على كل الصُّعُد. فكل شيء جديد عليك وهذا بحدّ ذاته مرهق. هل ترغبين في المجيء إلى المشغل غدًا؟

- نعم. قالت بيل وهي تترجّل من السيارة.

- ليلة سعيدة يا مارجريدا. أراك في الغد عند العاشرة.

في تلك الليلة، اعتذرت بيل عن جولة لعب الورق التي كانت تعقب كل عشاء. وما إن وضعت رأسها على الوسادة حتى راحت تفكّر في أن اقتراح لوران بالعمل عارضةً لفناني مونبارناس لكسب لقمة عيشها لن يكون سهلًا كما ظنّته في البدء.

23

طوال الأسابيع الثلاثة التالية، بقيت بيل ترافق مارجريدا كل صباح إلى مشغل لاندوڤسكي في بولون بيلانكور. وكان هيتور دا سيلفا كوستا يرافقهما في بضع مناسبات ليقوم بجولته المعتادة على التصاميم والرسوم التي كانوا يُحضّرونها له.

وما إن يصلوا إلى المشغل، حتّى يسارع هيتور إلى الخروج من السيارة، متلهفًا إلى معرفة ما إذا كان لاندوڤسكي قد أنهى نُسخه الحديثة فيقول لبيل: «يقوم لاندوڤسكي بتطوير نموذج آخر في محاولة لتحسين السابق».

وكان لاندوڤسكي يجد نفسه في كل مرة مجبرًا على إنجاز نموذج جديد بسبب تعديلات إضافية يفرضها عليه هيتور، فيجلس على منضدة العمل ويهمس مغمغمًا: «يا لجنون ذلك البرازيلي. ليتني رفضت أن أكون جزءًا من حلمه المستحيل». لكنه كان يقولها بمودّة مخفيًا إعجابه بحجم المشروع.

ورويدًا رويدًا، بدأ نحت بيل يتّخذ شكلًا واضحًا بعد أن تشكّلت صورتها النهائية تحت أصابع لوران المبدعة. ومع الوقت، تعلّمت كيف تسافر في خيالها أثناء تجمدها فوق ذلك الكرسي الممل وكأنها المنحوتة بذاتها، لتفكر في لوران الذي أشبعت نظرها منه بشكل مرضٍ من أقصى زاويتها، بينما كان هو يركّز على أمكان وقوع شاكوشه ومبرد النقر.

ذات يوم من أيام تموز الحارة، وضع لاندوڤسكي يده على كتف لوران وهو يعمل وقال له:

- عدت لتوّي من مكتب دا سيلڤا كوستا، وبعد أن سلّمته أحدث نسخة عن تمثال كريستو، طلب مني ذلك البرازيلي المجنون أن أصنع نموذجًا مقاسه أربعة

أمتار، وعلينا أن ننفّذه على الفور. لذلك سأحتاج إلى مساعدتك يا بروبي. والآن كفاك لعبًا، أمامك يوم واحد لتنهي منحوتتك هذه.

- فورًا بروفيسور. أجابه لوران وهو ينظر إلى بيل معلنًا استقالته. حاولت بيل ألا تُظهر اليأس الذي شعرت به إثر ما سمعته. ومن ثمّ نظر لاندوڤسكي إليها فشعرت بأنّه يقيّمها. وسرعان ما قال لبروبي:

- تستطيع البدء بقولبة أصابع الآنسة الجميلة. سأحتاج إلى رؤية نموذج أمامي لأبدأ بالعمل على يدي المسيح، وعليها أن تكون بنعومة أصابعها وأناقتها. فالأيادي التي ستحمي أبناءها من فوق لا يمكن أن تكون أيادي خرقاء متصلّبة.

- نعم بروفيسور. أطاعه لوران من دون اعتراض.

أمسك لاندوڤسكي بيد بيل ليجعلها تنهض عن الكرسي ثم قادها إلى المقعد ووضع يدها على طوله بحيث استراح أصبعها الصغير بمحاذاة الحافة. ثم فتح أصابعها على طولها وقرّبها، الواحد من الآخر، وألصق إبهامها بحافة راحتها.

- عليك أن تقولب يدي الآنسة على هذا النحو. أنت تعرف كيف يكون النموذج يا بروبي. حاول أن يكون الأقرب إلى الواقع. وقولِب أيضًا يدي الآنسة مارجريدا، فأصابعها أنيقة أيضًا. عليّ أن أقارن بينهما قبل أن أقرّر أي قالب يليق أكثر بالتمثال.

أجابه لوران:

- حسنًا، لكن هل تسمح لنا بالبدء صباح الغد؟ أنا واثق من أن الآنسة إيزابيلا متعبة لأنها بقيت فترة طويلة جالسة على المقعد مثل الصنم.

- إن كان بمقدور الآنسة التحمّل أرجو أن تنهيا هذا على الفور. أريد أن تجف القوالب بحلول الصباح لأباشر العمل عليها في الغد. أنا واثق من أنكِ لن تمانعي يا آنسة؟

نظر لاندوڤسكي إلى بيل كما لو أنّه، في الواقع، لا يأبه للرد، فهزّت برأسها وهي تقول:

- هذا شرف لي يا أستاذ.

قال لوران بمجرّد أن غلّف يدي بيل بمعجون أبيض:

- والآن عديني بأنك لن تحركي ساكنًا إلى أن يصبح المعجون متماسكًا وإلا سنضطر إلى البدء من جديد.

جلست بيل تتجاهل الحكّة المزعجة التي أصابتها في كفّها الأيسر. وراحت تراقب لوران وهو يكرّر المحاولة مع مارجريدا. وعندما انتهى من الإثنتين، نظر إلى الساعة ليتفقد الوقت، ثم راح ينقر برفق على الجص الذي يغلّف يدَي بيل.

- ما زال أمامنا خمس عشرة دقيقة. قال وهو يبتسم.

- أتمنى لو أنني أحمل معي كاميرا لأصوّركما وأنتما بهذا الشكل تجلسان وأيديكما مغطاة بالجص. يا له من مشهد مسلٍّ. والآن أرجو المعذرة أيتها الآنستان، سأترككما لبعض الوقت وأبحث عن ماء أروي عطشي به. لا تقلقا، سأعود إليكما... حتمًا قبل حلول الظلام.

ثم غمزهما ومشى إلى المطبخ، فتبادلت الفتاتان النظرات وهما تشعران برعشة في شفتيهما من شدة رغبتهما في الضحك. لكنهما نجحتا في ضبط نفسيهما خوفًا من أن يؤثّر أيّ ارتجاج في جسمهما على يديهما المزروعتين في الجص.

- غدًا عندما ننظر إلى قمة كوركوڤادو، سنتذكر حتمًا هذه اللحظة السخيفة. فكرت مارجريدا بصوت عالٍ وهي تبتسم.

- هذا صحيح. أجابت بيل وهي تشعر بالحزن.

عندما عاد لوران ليسحب أصابع بيل من داخل الجص، بدأ بإحداث شقوق صغيرة بسكّينٍ حاد، فاستغرق ذلك بضع دقائق من الجرأة والدقة في العمل. وبعد أن انتهى وضع القالب على الطاولة وراح ينظر إليه، فبدا راضيًا عن النتيجة.

- رائع، سيسر البروفيسور بالنتيجة، قولي لي كيف تجدين نسخة يديك بالجص؟ سأل بيل عندما انتقل إلى مارجريدا وبدأ يخرج يديها من الجصّ.

- لا تشبه يديّ بشيء. قالت بيل وهي تتفحص لونه الأبيض.

- والآن هل أستطيع أن أغسلهما؟

- نعم، الصابون وفرشاة الفرك بجانب الحوض. قال وهو ينصحها باستخدامهما.

عندما عادت بيل إلى القاعة، كانت قد مسحت الغبار والشحوم والجصّ عن يديها فتحسّن مزاجها قليلًا، على عكس لوران الذي ظهر العبوس فجأة على وجهه عندما أوشك أحد أصابع الجص على الانكسار أثناء سحبه ليد مارجريدا.

- لا بدّ من أن أنجح، ولو أنني لن أتفادى شقًّا برفع الشعرة عند المفصل، لكن لا بأس بذلك، سيظل يفي بالغرض.

وما أن انتهى الأمر، حتى ذهبت مارجريدا لتغسل يديها وأسرع هو إلى تنظيف المشغل قبل أن يهبط الليل، ثم قال لبيل ساخرًا:

- يؤسفني أن يطلب البروفيسور مساعدتي بهذه السرعة، كنت بحاجة إلى مزيدٍ من الوقت لأنهي تمثالك. لكن على الأقل حصلت على أصابعك.

- علينا المغادرة. قالت مارجريدا بعد أن عادت من الحمام. سائقي ينتظرنا في الخارج وقد مضت ساعات على وصوله، كما أن بال سينيورا دا سيلڤا كوستا سينشغل على بيل إذا تأخرنا أكثر.

- قولي لها إنني اختطفتها ولا أرغب في إعادتها لها قبل انتهاء المنحوتة. قال لوران ممازحًا.

أحضرت الفتاتان قبعتيهما ثم مشتا باتجاه الباب.

- إيزابيلا، ألم تنسي شيئًا؟ قال لوران بينما كانت بيل تخطو عتبة المدخل. وإذا بها ترى خاتم خطوبتها يتدلى من خنصره.

- عليك أن تعيديه إلى مكانه كي لا يعتقد الآخرون أنك خلعته عن قصد. قال لها وهي تسير باتجاهه عائدة إلى الداخل.

- دعيني أضعه في مكانه. وأمسك لوران بيدها ليعيد إلى أصبعها الخاتم من دون أن يبعد نظره عن عينيها.

- وأخيرًا عدتما مجددًا خطيبين. إلى اللقاء يا آنسة، ولا تقلقي. سأجد طريقة لإنهاء ذلك النحت.

ركبت الفتاتان السيارة التي انطلقت بهما عائدة إلى وسط العاصمة. وطوال الرحلة، بقيت بيل تحدّق من النافذة وهي تشعر بالبؤس.

- إيزابيلا.

التفتت بيل إلى مارجريدا ووجدتها تنظر إليها.

- هل لي أن أطرح سؤالًا شخصيًا؟

فأجابت بيل بحذر:

- قولي ماذا هناك.

- حسنًا، سأقسم سؤالي إلى جزءين، قلت لك إنني سمعت حديثكما بينما كان يرسمك، وقد أعربت له عن مخاوفك بشأن العودة إلى ريو والزواج بخطيبك؟

- صحيح، لكن أرجوك يا مارجريدا لا أريد لأحد أن يسمع بذلك، أخاف من أن يصل ذلك الكلام إلى البرازيل.

- لا تقلقي، لكن ما أريد أن أعرفه هو إذا كانت رغبتك بالزواج من خطيبك قد خفّت خلال الأسابيع القليلة الماضية؟

مدّت بيل أصبعها لتتفحّص خاتم الخطوبة وذهنها شارد في ذلك السؤال.

- يوم غادرت ريو، كنت أشعر بالامتنان لغوستافو لأنه سمح لي بالمجيء إلى أوروبا قبل الزواج. فحينها لم أتوقّع ذلك منه، وكان بالنسبة إليّ أروع هدية أحصل عليها. أما الآن وقد استُهلكت تلك الهدية، واقترب موعد عودتي إليه، أشعر بطريقة مختلفة. فباريس غيرّت وجهة نظري في أمور كثيرة. قالت متنهّدة.

- هذا لأنك مثلي تحبّين الحرية التي توفّرها لك. أجابت مارجريدا.

- بالضبط. قالت بيل وقد ظهرت في صوتها غصّة.

- أما الأسوأ فهو أنني بعد أن ذقت طعمًا مختلفًا للحياة، أجد صعوبة في التفكير بالمستقبل الذي رُسم لي. جزءٌ مني يتمنّى لو لم أحضر إلى هنا وأكتشف كل ما كان باستطاعتي الحصول عليه ولن يحصل.

- وهذا هو الجزء الثاني من سؤالي. واصلت مارجريدا كلامها بهدوء.

- كنت أراقبكما طوال الوقت وهو ينحتك. وسأكون صادقة معك. في البدء اعتقدت أن تلميحاته مجرد كلام متملّق يقوله أي فنان عند توددّه إلى عارضته الجميلة. لكن في الأيام القليلة الماضية لاحظت نظراته إليك، وطريقة عمله على حجر النحت، فهو لا يطرق عليه كما يُفترض بل يداعبه وكأنك أنت بين يديه وليس الحجر. سامحيني يا إيزابيلا. قالت مارجريدا وهي تهز برأسها.

- أنا واقعية جدًّا في مسائل القلب، وأفهم طبيعة الرجال خصوصًا هنا في باريس، لذلك أشعر بأنّ من واجبي أن أحذّرك. أخشى أن يكون لوران الذي لا أشك للحظة في شغفه بك، قد نسي أنك مرتبطة ولم يبقَ أمامك وقت طويل هنا.

- وعليّ أن أذكّره بذلك. أجابت بيل مارجريدا بالرد الوحيد الذي وجدته مناسبًا.

- وهل تقدرين على فعل ذلك؟ سألتها بنبرة شكّاكة.

- ففضلًا عن الطريقة التي ينظر هو إليك بها، رأيت أيضًا كيف تتصرفين أنت معه. حتى أنني في الواقع، أدركت ذلك لحظة مجيئه إلى طاولتنا في مقهى لاكلوزيري دي ليلاس في أول زيارة لنا إلى هناك. ولأكون صادقة معك شعرت بالقلق عليك منذ البداية. في ذلك الوقت اعتقدت أنه ينوي التلاعب بمشاعرك بالنظر إلى براءتك وقلّة خبرتك. فهناك فنّانون كُثُر في باريس، يفتقدون إلى الضمير الحي. وهؤلاء ينظرون إلى الحبّ على أنه تسلية، وإلى قلب المرأة على أنه دمية يتلاعبون بها. وما إن يغووا فريستهم بألسنتهم الذهبية ويوقعوها في حبائلهم يأخذوا منها ما يريدون. وبعد أن يحقّقوا هدفهم، وتنتقل العلاقة إلى مرحلة أكثر جدية، يرحلون باحثين عن فريسة جديدة.

لاحظت بيل ملامح مارجريدا تنكمش من الألم، وهي تتحدّث عن ذلك الموضوع، حتى أنها رأت عينيها تدمعان.

- أجل يا إيزابيلا. قالت مارجريدا وهي ترمقها بنظرة مؤلمة.

- ما تفكرين فيه صحيح. عندما كنت في إيطاليا وقعت في حب رجل من هذا النوع. إذ كنت عندما وصلت إلى هناك قادمة من بيئة ريو المحافظة، ما أزال بريئة

في الحب تمامًا مثلك الآن، لذلك نجح في إغوائي. لكن بعد أن انتقلت للعيش في باريس، انقطعت أخباره عني.

صعقت بيل ممّا سمعته وراحت تقيّم في صمتها ما حدث لمارجريدا.

- أردت أن أشاركك أكبر سر لديّ. قالت مارجريدا وهي تتنفس بارتياح.

- لأنني ببساطة أتمنّى أن يستفيد أحدهم من ذلك السواد الرهيب الذي غرقت فيه، ومن اليأس الذي عشته طوال ذلك الوقت. أنا لا أكبرك بكثير، لكن ما حدث لي جعلني أكثر حكمة. وها أنا أراك الآن في الموقف نفسه الذي وُضعت فيه سابقًا، امرأة شابة جميلة تقع في الحب للمرة الأولى.

في تلك اللحظة شعرت بيل باستعدادها للبوح بالمشاعر التي تكنّها للوران. فقبل ذلك، لم تكن قادرة على مصارحة أحد غير لوين بها. لكن بالنظر إلى السر الذي شاركته مارجريدا معها، قررت بيل أن تثق بها.

قالت لها:

- نعم أنا أحبه. وأحبه من كل قلبي. ولست قادرة على تصوّر حياتي بعد اليوم من دونه.

وانفجرت بيل بالبكاء إثر شعورها بالارتياح بعد أن باحت بمشاعرها الحقيقية لمارجريدا من دون أي احتياطات.

- بيل، أنا آسفة جدًّا، لم أقصد أن أزعجك. قالت مارجريدا وهي تنظر من النافذة.

- لقد اقتربنا من المنزل ولا يمكن لك البقاء بهذه الحالة. دعينا نذهب إلى مكان هادئ، ففي كل الأحوال تأخرنا في العودة، وبضع دقائق إضافية لن تحدث فرقًا كبيرًا.

أعطت مارجريدا توجيهاتها إلى السائق، وبعد ثوانٍ قليلةٍ توقفت السيارة في جادة دو مارينيي بجوار حديقةٍ صغيرةٍ محاطةٍ بالدرابزين. ترجّلت الفتاتان من السيارة وقادت مارجريدا بيل إلى أحد المقاعد، فجلست وراحت تمتّع نظرها

بالشمس وهي تغيب خلف أشجار الدلب التي تحيط بالحديقة وتزيّن كل الشوارع التي زارتها في باريس.

- من فضلك، سامحيني على التحدث معك بهذه الصراحة. قالت مارجريدا.

- أعرف تمامًا أن مشاعرك تخصك وحدك، لكنني شعرت بأن من واجبي أن أقول هذا، خصوصًا وأنني أراكما تتورّطان في قصة حالمة ليس لها مستقبل.

- الظروف التي أمرّ بها الآن مختلفة عن الظروف التي مررت بها في إيطاليا. أصرّت بيل.

- وقد قلتِ ذلك بنفسك في السيارة. كما أنني أشعر بأن لوران يكنّ لي المشاعر، ويجوز أنه يُحبّني.

- وأنا أيضًا كنت متأكّدةً ذات يوم من حب مارسيلو لي، أو على الأقل أردت أن أصدّق ذلك. المهم يا إيزابيلا، أن لوران، ومهما يحاول أن يقنعك، تذكّري دائمًا أن لا مستقبل لكما مهما اعتقدت العكس. فلوران لا يستطيع أن يقدم لك منزلًا ولا أن يشعرك بالأمان. آخر شيء سيتمنّاه لنفسه هو أن يتقيّد بزوجة وأطفال، صدّقيني. المشكلة في هؤلاء الفنانين تكمن في أنهم يقعون في الحب لمجرّد الوقوع في الحب. لكن حبهم نادرًا ما يقود إلى شيء ملموس، مهما تكن عواطفهم جيّاشة. هل تفهمينني؟

كانت بيل تسمع كل ما يُقال لها وهي تنظر إلى حاضنة كانت في الحديقة برفقة قاصرين، وقد خلا المكان من الزوار باستثنائهما. قالت لمارجريدا:

- سأكون صادقة معك، على الرغم من أن أذنيّ تسمعانك جيدًا وعقلي يدرك تحذيراتك، لكن قلبي عاجز عن الاقتناع بما تقولينه.

- لا، بالطبع لن يفعل. اعترفت لها مارجريدا.

- لكن من فضلك، لا تنسي ولو لحظة ما قلته لتوّي. لا أريد لحياتك أن تتدمّر في ثوانٍ، بسبب قرارٍ تتّخذينه بقلبك وليس بعقلك. إن اكتشف خطيبك الذي وضع ثقته بك عندما سمح لك بالمجيء إلى هنا، سرّك هذا، فستكون بمنزلة خيانة عظمى له، ولن يغفر لك مدى الحياة.

- أعرف ذلك. قالت بيل وهي تعضّ شفتها إثرَ شعورها بالذنب.

- شكرًا لك يا مارجريدا، أنا ممتنّة لك على كل هذه النصائح. أعتقد أن علينا العودة وإلا لن تسمح لي ماريا جورجيانا بالابتعاد عنها مرة أخرى.

وصلت مارجريدا إلى شقة دا سيلڤا كوستا برفقة بيل لتشرح بكل تهذيب لماريا جورجيانا التي تصلّبت ملامحها من الغضب كيف أبقاهما لاندوڤسكي في مشغله ليقوم مساعده بقولبة أيديهما من أجل تمثال الكريستو.

- هل تتخيّلين كيف تشوّش ذهني وأنا أفكّر بالأسوأ؟ احرصا على ألّا يتكرّر ذلك مرة أخرى.

- أعدك بذلك. قالت لها بيل، ثم رافقت مارجريدا إلى الباب وهناك تبادلت الشابتان الاحتضان بمودّة.

- تصبحين على خير يا إيزابيلا، أراك في الغد.

لاحقًا، شعرت بيل بالبهجة عندما دخلت فراشها، بدلًا من أن تفكّر في ما وصفته مارجريدا بالمصير المروّع إذا ما استسلمت لمشاعرها تجاه لوران.

هي تعتقد أن لوران يحبني... يحبني...

وفي تلك الليلة، سرحت بيل في خيالها الواسع قبل أن تغطّ في نوم عميق. وإذا بابتسامةٍ رائعةٍ تظهر على وجهها عاكسةً الفرحة التي خبّأتها في داخلها.

24

قال لوران:

- ما إن وصلت الفتاتان إلى المشغل في صباح اليوم التالي، حتى تحدّثت إلى البروفيسور وشرحت له أنني ببساطة لا أستطيع إنهاء منحوتتك في يوم واحد. فاتفقنا أن تأتي من الآن وصاعدًا في ساعات المساء الأولى، أي بعد أن أنهي عملي على الكريستو. سأتحدّث إلى سينيور دا سيلڤا كوستا لأشرح له الظرف إذا اضطرّ الأمر.

شعرت بيل بالارتياح لسماع ذلك، بعدما وصلت إلى الورشة بحالة متوتّرة، وعلى الفور أومأت برأسها معبّرة عن موافقتها.

- قاطعته مارجريدا عابسةً بعد أن قلقت مما قاله: لكن يا سيّد برويي لن أتمكّن من اصطحاب إيزابيلا إلى هنا في تلك الساعة من اليوم. فأنا أيضًا عليّ أن أعود إلى المنزل في السادسة من كل ليلة لأتناول العشاء مع أمّي.

- لا تقلقي يا آنسة، لن تكون في وضع غير مناسب. قال لوران.

- فالبروفيسور سيكون حاضرًا، وعائلته كلها في المنزل الذي يقع على مرمى حجر من هنا.

ألقت بيل نظرة على صديقتها، ورأت الاستسلام في عينيها.

- حسنًا لا بأس. المعذرة، سأغيّر ملابسي.

- والآن، هيّا إلى العمل. قال لوران وهو يبتسم لبيل.

في ذلك المساء، أخبرهم هيتور على العشاء بأن لوران برويي اتصل به في المكتب ليوضح له الظروف المستجدّة والتي تتطلّب ذهاب بيل إلى المشغل في المساء. وأضاف:

- وبالنظر إلى ضرورة إنهاء مشروعي أولًا الذي فرض تهميش مشروع نحتك، أجد نفسي مجبرًا على الموافقة. لذلك يا إيزابيلا، سيرافقك سائقي إلى المشغل في الخامسة من مساء كل يوم، ويعود بك إلى هنا في تمام التاسعة.

- لا بدّ من وجود حافلة نقل تأخذني إلى هناك؟ لا أريد أن أسبب لك المتاعب، سينيور دا سيلڤا كوستا. اقترحت بيل.

- حافلة؟ صرخت ماريا جورجيانا وقد شعرت بالرعب من ذلك الاقتراح.

- أشك في أن والديك سيقبلان أن تستخدمي وحدك وسائل النقل المشترك في المساء. فليرافقك سائقنا الخاص ذهابًا وإيابًا.

- شكرًا لكما. قالت بيل.

- سأدفع كل النفقات التي تتكبّدها رحلاتي إلى هناك. قالت وهي تحاول إخفاء مدى فرحها وارتياحها لسماع ذلك.

قال هيتور وهو يبتسم:

- إيزابيلا، إنّ وجودك في ذلك المشغل يناسبني كثيرًا، لأنني أريدك أن تبلغيني بكل تقدّم يُحرزونه في تطوير نموذج الأمتار الأربعة.

- ربما أرافقك ذات مساء لأشاهد كيف يقوم المساعد بنحتك. قالت ماريا إليسا وهما تدخلان إلى فراشهما في وقتٍ لاحق.

- سأطلب الإذن من السيّد برويي، لنرى إذا كان سيمانع. قالت بيل.

أما زلت تستمتعين بعملك في المستشفى؟ قالت ذلك لتغيّر الموضوع آملةً بأن تنسى ماريا إليسا لاحقًا رغبتها في الذهاب إلى هناك.

فأجابتها ماريا إليسا:

- إنني أستمتع كثيرًا. قبل أيام، حدّثت والديّ عن رغبتي في ممارسة التمريض كمهنة في المستقبل. ماي لم تكن سعيدة ويمكنك تخيّل ذلك، لكن پاي أبدى لي دعمه الكامل وقد تمنّى على ماي أن تكف عن تصرّفاتها الرجعية. الذنب ليس ذنبها...

وسارعت ماريا إليسا إلى المراوغة وكما هي عادتها، أظهرت استعدادها للتسامح قائلة:

- لقد نشأت في عصر مختلف. وأنا الآن حريصة على العودة إلى ريو لاختيار الدروس التي سأنضمّ إليها. من المؤسف أننا سنمضي عامًا آخر هنا ريثما ينهي پاي عمله. لذلك أجدك محظوظة يا بيل لأنك ستعودين إلى ريو في غضون أسبوعين. تصبحين على خير.

- وأنت أيضًا. أجابت بيل.

استلقت داخل فراشها لتفكّر في ما قالته ماريا إليسا. وعلى الرغم من أن النعاس قد غلبها، بقيت تتمنّى كانت تستطيع تبديل موقعها مع ماريا إليسا، علمًا أنها كانت مستعدة لبيع روحها حتى تبقى سنة أخرى في باريس.

بعد يومين، وجدت بيل نفسها تجلس عند الغسق داخل مشغل لاندوڤسكي. ومن طرف عينها، كانت قادرة على رؤية سطح هيكل التمثال الذي بلغ ارتفاعه أربعة أمتار مسيطرًا تمامًا على القاعة. كانت مارجريدا قد غادرت المشغل ما إن وصلت بيل، أما لاندوڤسكي فكان يهم بالخروج لتناول العشاء مع عائلته في البيت المجاور. لذلك خلا المكان من أي همهمة إلى درجة قدرت بيل على سماع صمتها فيها. فجأة سألها لوران:

- «بمَ تفكرين؟

رأت بيل يداه تعملان على جذعها العلوي، تشكّلان خطوط ثدييها العريضة تحت قميص الموسلين بالقبّة العالية التي كانت ترتديها.

فأجابته:

- في الأجواء التي تختلف هنا في الليل.

- صحيح، هذا المكان يتمتع بالصفاء في ساعة الغروب. وغالبًا ما أقصد العمل في المساء لأستمتع به. ففي هذا الوقت يعود لاندوڤسكي إلى عائلته؛ يقول إنه لا يستطيع النحت بعد أن يخفت النور.

سألها:

- وأنتِ؟

ثم أردف:

- إيزابيلا، حتى وإن لم تجلسي أمامي، أنا قادر على نحتك بشكل دقيق. لقد حدقت بك مطولًا في السابق إلى درجة أن أصبحت تفاصيلك الدقيقة محفورة في ذاكرتي.

- إذًا، لم تعد بحاجة إلى وجودي بعد الآن لتكمل منحوتتك؟

- صحيح، أنت محقّة. قال وهو يبتسم.

- لكنني أتّخذ هذه المنحوتة عذرًا لأقضي بعض الوقت معك. ألا توافقين على ذلك؟.

كانت تلك المرة الأولى التي يدلي فيها لوران بتعليق يؤكد فيه رغبته بحضورها بعيدًا عن الأسباب الفنية.

أخفضت عينيها وأجابته بنعم. ثم انقطع عن الكلام وتابع عمله بصمتٍ طوال الساعة التي تلت. لاحقًا تذرّع بأن الوقت قد حان لأخذ استراحة فذهب إلى المطبخ، وبقيت بيل تتجوّل وحدها في القاعة لعلّها تليّن ظهرها الذي تيبّس من كثرة الجلوس. حينها راحت تنظر إلى المنحوتة التي لم تكتمل بعد، فأُعجبت بخطوطها البسيطة.

عندما عاد لوران وهو يحمل إبريقًا من النبيذ مع وعاء من الزيتون، سألها وهي تتبعه إلى المنضدة:

- هل تعرّفْتِ إلى نفسك؟

- ليس حقًّا. أجابت بصراحة وهي لا تزال تدرس التمثال بعينيها فيما يقوم هو بسكب الخمر داخل الكأسين.

- ربما سأتعرف إلى نفسي بعد أن تنتهي من نحت وجهي، لأنني حاليًّا أبدو مثل فتاة ناشئة بسبب الوضعية التي جعلتني أتّخذها.

أجابها لوران:

- هذا ممتاز، لأن صورتك التي في ذهني تشبه برعم زهرة لم يتفتح بعد، وأنت في الواقع لا تزالين في مرحلة ما بين الطفولة والأنوثة، تقفين على عتبة تلك الأخيرة وتتأملين المسرّات التي تحملها في طياتها.

- لكنني لست طفلة. أجابت بيل التي لمست في شرحه هذا محاسبة لها.

- كما أنك لم تصبحي امرأة. قال وهو ينظر إليها ويحتسي النبيذ.

لم تعرف بيل كيف تجيبه. ثم ارتشفت كأسها مرة أخرى لتشعر بارتفاع في معدل ضربات قلبها.

- هيّا نعدْ إلى العمل قبل أن يتلاشى الضوء نهائيًّا. قال لوران بعد أن استعاد نشاطه.

بعد انقضاء ساعتين نهضت بيل عن الكرسي وقد حان وقت الرحيل. فتبعها لوران إلى الباب.

- أتمنّى لك رحلة آمنة يا إيزابيلا. سامحيني على ما قلته إذا لم يكن مناسبًا، فأنت لم تتلفظي تقريبًا بأي كلمة من ذلك الحين.

- أنا...

- دعيني أكمل من فضلك. قال لوران وهو يضع أصبعه بلطف على شفتيها.

- أنا أتفهمك جيدًا وأعرف ظروفك ولا يسعني إلا أن أتمنى لو كان الوضع مختلفًا. تصبحين على خير، يا أجمل بيل.

في طريق العودة إلى الشقة، راحت بيل تفكّر في ما قاله لوران، ففهمت أنه كان يخبرها، بطريقته الخاصة، بأنها لو كانت حرّة لتمنّى حتمًا أن يكون معها. ولأنّه رجل نبيل فهو لن يتخطّى الحدود.

«على الرغم من أنه يرغب في ذلك...». تمتمت بيل في السرّ وقد أشعرها ذلك بالغبطة.

على مدار الأمسيات التي تلت، لم يلمّح لوران أي تلميحات إضافية. لم يتحدّث إلا بخصوص النحت بالإضافة إلى بضع ثرثرات عن مونبارناس وسكانها. فتسببت محادثته الحيادية لبيل بتوتّر شديد وتشنّج في الأعصاب. وكانت هي من تطرّقت إلى المواضيع الشخصية بإبداء رأيها فيه بعد أن لاحظت كم أن القميص الجديد الذي ارتداه في ذلك اليوم يليق به، فضلًا عن إشادتها بموهبته كنحات.

وتفاقم إحباط بيل بمرور الأيام إلى أن بلغ ذروته بعد أن توقّف لوران قطعيًّا عن مغازلتها ما أشعرها باليأس. فزادت التساؤلات في ذهنها حول غايته من تلك التصرفات.

وعلى الرغم من عدد المرات التي طرحت فيها الأسئلة على نفسها ليجيبها ذهنها بأنها كلّما أسرعت في ركوب تلك الباخرة التي ستعيدها إلى البرازيل كان أفضل لها، بقي وضعها على حاله بسبب الساعات الطويلة التي كانت تقضيها بحضوره، ناهيك بالمسافة القريبة، البعيدة التي حدّدها بنفسه، والتي شكّلت لروحها عذابًا لم تقدر على مقاومته.

وذات مساء، خرجت بيل إلى السيارة التي ستعود بها إلى الشقة بعد أن تمنّت له ليلة سعيدة. إلا أنها قبل أن تصعد إلى المقعد الخلفي توقفت في الحديقة لتستجمع أنفاسها، وإذا بنظرها يقع على خرق بالية كانت مرمية تحت سياج السرو. حاولت أن تتذكر إذا كانت قد رأتها عندما خرجت للتنزّه وقت الاستراحة، فأدركت أنها لم تكن حينها موجودة. فاقتربت منها بخطى متردّدة وركلتها بطرف حذائها.

تحرّكت الخرق وتسبّبت لبيل بالذعر فقفزت إلى الوراء. وعلى الرغم من المسافة التي حافظت عليها خوفًا من المجهول، رأت عند طرف الحزمة قدم إنسان قذرة، وعند الطرف الآخر رأسًا تغطيه خصل شعر متسخة. وإذا بصبي في السابعة أو الثامنة من العمر تقريبًا يكشف عن نفسه من تحتها. فذهلت بيل بعينيه المرهقتين اللتين فتحهما لثوانٍ ثم أغلقهما من جديد ليعود ويغطّ في نومه.

- يا آلهي. همست بيل وقد سالت دموعها لدى رؤيته.

وبينما كانت تفكّر في ما عليها فعله، اقتربت متردّدة منه وركعت بهدوء خوفًا من إخافته. ثم وضعت أصابعها عليه فاستيقظ فور إحساسه بلمستها وعدّل جلسته على الفور لشعوره بالذعر.

- أرجوك لا تخف منّي، لن أؤذيك، هل تتكلّم الفرنسية؟

كان وجه الصبي قذرًا إلى درجة مخيفة. إلا أن خوفه منها كان أكبر، فرفع ذراعيه في وجهها ليحمي نفسه وابتعد عنها متراجعًا تحت السياج.

- من أين أنت؟

حاولت الاستفسار مجدّدًا، وهذه المرة باللغة الإنجليزية. فبقي صامتًا يحدّق إليها بنظراته المذعورة مثل حيوان محاصر. ثم لاحظت بيل جرحًا على ساقه بدا لها عميقًا وقد جف فوقه الدم على شكل كتل داكنة. ولدى رؤيتها ذلك المنظر سالت الدموع من عينيها الواسعتين المذعورتين، ما جعل الصبي ينكمش قليلًا. ثم مدت ذراعها لتضع يدها على خده وهي تبتسم، بعد أن وعت لضرورة كسب ثقته بدلًا من إخافته. وما إن تقوّست أصابعها الناعمة على حافة وجهه، حتى شعر الصبي بالاسترخاء.

- ماذا الذي جرى لك؟ قالت وهي تحدّق إلى عينيه.

- مهما يكن ما حصل، فأنت صغير جدًّا على هذا الألم». وفجأة هبط رأس الصبي على راحتها، لكن شعوره بالقلق جعله يرفعه من جديد. وأخيرًا عندما أدرك أنها باقية على عناقها المريح عاد ليغطّ في النوم.

أبقت يدها في مكانها كي لا تزعجه، وزحفت بجسمها إلى أن أصبحت بموازاته، وراحت تهمس في أذنه تعابير حب باللغات الثلاثة التي تتقنها، وهي

تلفّ ذراعها الأخرى حوله. وأخيرًا سحبته إليها بهدوء من تحت الشجيرات، فبدأ يئن على الرغم من ارتياحه لها. وعندما ألقت بجسمه النحيل على ركبتيها، تحركت ساقه اليمنى الجريحة فقفز من الألم.

عندما أصبح الصبي في أحضانها، أخذ نفسًا عميقًا ومال برأسه فوق رأسها. وعلى الرغم من رائحته الكريهة التي أشعرتها بمرارة في فمها، بذلت قصارى جهدها لتتحمّلها وبقيت تهزّه بين ذراعيها وتضمّه إلى صدرها.

- إيزابيلا. سمعت صوتًا يناديها من الخلف.

- ماذا هناك، لمَ تجلسين على العشب؟ سألها لوران.

- اصمت! همست له وهي تداعب وجه الصبي النائم في حركات مطمئنة.

- سوف توقظه.

- أين وجدته؟ همس لوران بدوره.

- تحت السياج. لا أعتقد أنه قد تخطّى السبع سنوات أو الثماني، لكنه نحيل جدًّا إلى درجة أنه يزن أقل من وزن طفل صغير. ماذا سنفعل؟ سألته وهي تنظر إليه بعينين متألمتين.

- لا يمكننا تركه هنا. لديه إصابة بالغة في ساقه تستدعي الحذر، لأنها قد تتحوّل قيحًا، وإذا تسرّب السم إلى دمه سيتسبّب له بالموت.

نظر لوران إلى بيل وبين ذراعيها ذلك الطفل القذر وهزّ برأسه.

- إيزابيلا، لا بدّ من أن تعرفي أنّ شوارع فرنسا مليئة بأمثاله من الأطفال المشرّدين. ومعظمهم يعبرون الحدود الروسية البولندية بشكل غير قانوني.

- أجل. همست بيل.

- وهذا يحدث أيضًا في البرازيل. لكن هذا الصبي هنا الآن وأنا من وجدته. لذلك لن ألقي به بجانب الطريق خارج أرض لاندوفسكي ليلقى حتفه. سأشعر بالذنب طوال حياتي.

رأى لوران دموعها تنهال على خديها وعينيها العطوفتين تتألّمان على الطفل. فانحنى فوقها ومد يده لمداعبة شعر الصبي الذي اشتد نعاسه.

- سامحيني. همس مجدّدًا:

- لقد جعلني تكرار مثل هذه المشاهد في شوارع باريس محصّنًا ضد المعاناة. إلا أن اللّه وضع ذلك الطفل في طريقك لتساعديه، لذلك عليك أن تفعلي ما أمكن. لكن الآن تأخر الوقت حتى نزعج لاندوڤسكي، لذلك سأتركه يبيت الليلة على أرض المطبخ. فمفتاح الباب بحوزتي وسأقفل الباب من الداخل حتى لا يقترب من تمثال لاندوڤسكي الثمين. إذ لا يمكنني تكهّن ما قد يخطر ببال فتى ضالّ مثله. وسأبيت أنا أيضًا هنا لأحرس المشغل. هل أنت قادرة على حمله إلى الداخل؟

- نعم. قالت بيل وهي تشعر بالامتنان.

- شكرًا، لوران.

- سأذهب لأنذر سائقك، ربّما ما زال أمامك بعض الوقت.

ساعد لوران بيل في الوقوف على قدميها والصبي لا يزال بين ذراعيها.

- هو خفيف كالريشة. همست بيل وهي تنظر إلى وجه الصبي البريء بعد أن أصبحت واثقة من قرارها بالاعتناء به، إذ لم يتوفر أمامها حلٌّ آخر لإنقاذه.

وتحت أنظار لوران، نقلت بيل الطفل إلى المشغل آخذة حذرها كي لا توقظه. ثم راح لوران ليتحدث إلى سائقها، فشعر بعينيه توشكان على ذرف الدموع.

انتظرت بيل عودة لوران على الكرسي الذي تجلس عليه كل يوم أثناء نحتها، والطفل لا يزال بين ذراعيها.

وعندما عاد قال لها:

- سأعد له الفراش في المطبخ. أتساءل فقط ماذا سيقول لاندوڤسكي عندما يصل باكرًا في الغد مع شروق الشمس، ويجد ذلك المتشرّد القذر داخل مشغله.

وعلى الرغم من ذلك فقد رغب في مساعدتها. وبعد بضع دقائق حملت بيل الطفل إلى المطبخ ووضعته داخل الفراش الذي جهّزه له لوران.

- عليّ أن أغسل وجهه على الأقل وأحاول تنظيف جرحه. هل لديك مطهّر وبعض القماش؟

- لا بد من وجودهما في مكان ما.

قال لوران وهو يبحث داخل الخزائن إلى أن وجد المطهّر أولًا. ثم اختفى خارج الغرفة ليعود بقطعة شاش مصنوعة من القطن الأبيض، يستخدمونها عادة في صناعة الجص، فأعطاها لبيل لتنظّف بها جرح الطفل.

سألته:

- هل لديك ضمّادة؟

فأجابها لوران وهو يراقبها تربط الجرح برفق بقطعة الشبك لتحميه، بأنه لم يعثر على واحدة داخل الخزائن. ثم شعرت بالصبي يرتجف بين يديها وهو لا يزال غافيًا.

على الرغم من أن الطقس كان دافئًا في تلك الليلة، بقي الصبي يرتجف طوال الوقت من الحمّى.

- نحن بحاجة إلى بطانية». قالت بيل.

فأسرع لوران إلى إحضار واحدة كان سيضعها حول كتفيه في تلك الليلة.

- سأبقى هنا لبعض الوقت لأحضّر لبخات مياه باردة تخفّض حرارته ولن أرحل قبل أن أتأكد من تخطيه مرحلة الخطر. قالت للوران وهو ما يزال داخل المطبخ الصغير.

فأومأ برأسه ثم خرج ليحضّر اللوح الذي سينام عليه في القاعة المجاورة.

- يا لك من طفل جميل. همست بيل للصبي وهي تمسح جبينه بخرق غطّستها بمياه باردة وتربّت شعره بيدها.

- عندما ستستيقظ في الغد لن تجدني بجانبك، لكن لا تخف. أعدك بأنني سأعود وسأحرص على سلامتك. أما الآن، فعليك أن تبقى وحدك. لذلك نمْ جيدًا أرجوك.

وما إن نهضت بيل لترحل حتى مدّ الصبي يده من تحت البطانية وأمسك بتنورتها. فرأته يفتح عينيه على وسعهما وهو يحدّق إليها.

ثم قال لها بفرنسية متقنة:

- لن أنسى يومًا ما فعلته من أجلي هذه الليلة، أيتها الآنسة. ثم تنفّس الصعداء وأغمض عينيه مجدّدًا ليغطّ هذه المرة في نوم عميق.

- عليّ الذهاب. قالت بيل للوران وهي تخرج من المطبخ، وسرعان ما أضافت ساخرة

- أين مفتاح السجن؟

- إيزابيلا، تعلمين جيدًا أنني أفعل ذلك لحماية البروفيسور وعائلته. هذا منزلهم، وفيه أعمال فنية قيّمة. قال وهو يذكّرها بتمثال الكريستو.

- لست معترضة. أجابت بيل.

- لكن، عدني بأن تخبر الصبي ما إن يستيقظ في الغد بأنه في أمان هنا. وسأتحدّث شخصيًّا إلى البروفيسور لأشرح له أنني المسؤولة عن هذا. والآن عليّ أن أغادر. لا أستطيع تخيّل الوجه الذي ستقابلني فيه سينيورا دا سليفا كوستا في الصباح.

- إيزابيلا... بيل... ناداها لوران وهو يمسك بذراعها، بينما كانت تتقدّم نحو الباب. ثم سحبها إليه ليلفّ ذراعيه حولها.

- أنت حقًّا جميلة، من الداخل ومن الخارج. لم أعد قادرًا على مواصلة هذه المهزلة وهذا الوضع الزائف بيننا. أرجوك قولي لي إذا كنت تريدينني أن أحرّرك من بين ذراعيّ، على الرغم من أنني لن أتحمّل ذلك، بعد أن رأيتك تتعاطفين مع ذلك الصبي هذه الليلة...

قال وهو يهزّ برأسه:

- كل ما أريده الآن هو أن أشعر بشفتيك تلامسان شفتيّ.

كانت بيل تحدّق إلى وجهه وفي الوقت نفسه كانت مدركة أنها بلغت حافّة الهاوية، إلا أنها لم تأبه ولو قليلًا لهبوطها، فتمتمت قائلة:

- أنا كلّي لك. حينها وضع لوران شفتيه على شفتيها.

أما في المطبخ المجاور، فقد غطّ الصبي في نومٍ عميقٍ لم يذق طعمه منذ شهور.

25

في مساء اليوم التالي، عادت بيل إلى المشغل عند الساعة الخامسة وكان ينتابها خوف شديد. كانت قلقة على مصير الصبي، وكان لديها خشية من أن تكتشف بأنّ ما قام به لوران لم يكن سوى رد فعل على النشوة العاطفية التي شعر بها في الليلة السابقة.

- قال لها لاندوڤسكي وهو ينظّف نفسه بعد أن أنهى عمله في ذلك اليوم:

- أهلًا بالقديسة إيزابيلا!

- كيف حالك بروفيسور؟ سألت وهي تشعر باحمرار وجنتيها خجلًا من ذلك التعليق.

- يتيمك يجلس الآن مع صغاري وهم يتناولون العشاء. قال لاندوڤسكي.

- لأنني عندما ناديت زوجتي لتراه نائمًا مثل الفأر الهزيل على أرض المطبخ، أشفقت عليه على الفور، وأصرت أن يأخذ حمامه في الحديقة تحت خراطيم المياه. فنظّفته من رأسه حتى أخمص قدميه بالصابون الكاربوليكي خوفًا من القمل، ثم لفّته في بطانية ووضعته في الفراش داخل بيتنا.

- شكرًا يا بروفيسور، أنا آسفة لوضعك أنت وعائلتك في هذا المأزق.

- لو عاد الأمر لي لطردته إلى الشارع، إلى حيث ينتمي في الأصل، لكن، أنتنّ النساء قلوبكنّ رقيقة، ونحن الرجال نشكر اللّه على ذلك». أضاف بنبرةٍ لطيفة.

- هل قال لكم من أين أتى؟

- لا، لم ينطق بكلمة واحدة منذ أن بدأت زوجتي الاعتناء به. حتى أنها تعتقد أنه أخرس.

- لا أيها السيّد، ليس أخرس. لقد تحدث معي قبل أن أغادر في الليلة الماضية.

- هل تكلّم؟ يا للدهشة! قال لاندوڤسكي وهو يومئ برأسه.

- إنه ما يزال يرفض مشاركتنا موهبته في الكلام. كان في حوزته حقيبة من الجلد تدلت من جسمه، اكتشفتها زوجتي عندما خلعت عنه ملابسه القذرة. وعندما حاولت نزعها قبل الحمام نبح مثل كلب مجنون رافضًا السماح لها بأخذها. حسنًا، سنفهم سرّه عاجلًا أم آجلًا. أخمّن أن يكون من بولندا، فالطيور على أشكالها تقع. تصبحين على خير.

ما إن غادر لاندوڤسكي المشغل، حتى التفتت بيل إلى لوران ووجدته يبتسم لها وهو يطوي ذراعيه على صدره.

- آمل أن تكوني سعيدة الآن، فقد قام أحدهم بالاعتناء بيتيمك الصغير.

- نعم، وأشكرك على المساعدة.

- كيف حالك اليوم يا بيل؟

- أنا بخير أيها السيّد همست وهي تتحاشى النظر إليه.

- هل أنت نادمة على ما حصل أمس؟ قال وهو يرفع يديه إليها، فقامت بالمثل على الرغم من شعورها بالخجل.

- لا، لم أندم للحظة.

- الحمد للّه على ذلك. قال وهو يأخذ نفسًا عميقًا.

ثم سحبها إلى المطبخ إلى زاوية بعيدة عن النوافذ لئلا يراهما أحد، وبدأ يقبّلها بشغف كما فعل ليلة أمس.

هكذا بدأت علاقة الحب البريئة بينهما بصرف النظر عن تلامس شفاههما، وكان كلاهما يعرف المخاطر التي تحيط بهما في حال قبض عليهما لاندوفسكي متلبسين، إذ كان يعود أحيانًا في ساعات متأخرة لدراسة تمثال الكريستو الذي لم يكتمل بعد. ومن حينها بدأت يدا لوران تعملان بسرعة على منحوتتها أسرع من أي وقت انقضى، حتى يتفرغا لحبّهما في الوقت المتبقي لهما.

- إيزابيلا، لم يتبقَّ لنا سوى القليل من الوقت. ففي مثل هذا اليوم بعد أسبوع، ستكونين على ظهر تلك الباخرة التي ستخرجك من حياتي إلى الأبد. قال لها ذات ليلة بينما كانت بين ذراعيه تلقي برأسها على كتفه وهو ممسك بها.

- كيف سأقدر على تحمّل ذلك؟

- أنا التي لن أقدر على تحمّله.

«عندما رأيتك لأول مرة، سُحرت بجمالك، وأعترف بأنني كنت أغازلك لمجرد المغازلة. قال وهو يرفع ذقنه لينظر مباشرة في عينيها.

- لكن بعد ذلك، عندما بدأت تجلسين قبالتي يومًا بعد يوم ورحت أتعرّف إلى روحك الحلوة، وجدت نفسي أفكر فيك لساعات طويلة كلّما غادرت هذا المكان. وأخيرًا في تلك الليلة، عندما رأيتك تتعاطفين مع ذلك الصبي، عرفت أنني قد أحببتك لما أنت عليه بالفعل. قال وهو يتنهّد ويهزّ برأسه.

- لم يسبق لي أن عشت ذلك من قبل، حتى أنني لم أفكر يومًا في أنني قد أشعر على هذا النحو تجاه أي امرأة. ولسخرية القدر، ها أنا أشعر بالعشق تجاه امرأة موعودة لغيري، فضلًا عن أنني لن أراها مجدّدًا في حياتي. يا لذاك الوضع المأسوي الذي اعتقدت أنني لن أجده خارج روايات أصدقائي الكتّاب وقصائدهم، لكنه أصبح أمرًا واقعًا بالنسبة إليّ.

- نعم هو كذلك. تنهدت بيل يائسة.

- عزيزتي، علينا أن نستغل كل دقيقة من الوقت الذي تبقى لنا معًا.

أمضت بيل أسبوعها الأخير في باريس، تطير من البهجة والسرور لدرجة أنها نسيت فيها رحلة عودتها الوشيكة. وعندما أحضرت الخادمة حقيبتها إلى الغرفة

لتعدّها لها، تصرّفت بيل وكأنها لم تكن حقيبتها. وبالحديث عن طريق عودتها إلى ريو، أعربت ماريا جورجيانا عن خوفها من صعود بيل إلى متن السفينة من دون مرافقة.

- بالطبع لا نستطيع فعل أي شيء، إذ عليك العودة في أقرب وقت لتحضّري لزفافك. لذلك أقسمي لي أنك لن تنزلي من الباخرة عندما سترسو في أيّ ميناء، لا سيما في أفريقيا.

- بالطبع لا. أجابت بيل من دون تفكير.

- كوني واثقة من أنني سأكون في أمان.

- في كل الأحوال، اتصلت بشركة الشحن فقالوا لي إن المتابع سيجد لك سيدة متقدّمة في السن لترافقك طوال الرحلة.

- شكرًا لك يا سينيورا.

أجابتها بيل وهي تثبّت قبّعتها فوق رأسها وتستعد للخروج إلى المشغل. إلا أن ذهنها كان مشتّتًا في تلك اللحظة، فبالكاد سمعت ما قيل لها بعد أن سبقها تفكيرها إلى لوران.

- أخبرني هيتور بأن منحوتتك أوشكت على الانتهاء، هذا يعني أن هذه الليلة هي الأخيرة لك في مشغل لاندوڤسكي، لذلك نرغب في التحضير لعشاء وداعك غدًا مساءً. قالت ماريا جورجيانا وهي تبتسم لها.

نظرت إليها بيل متفاجئة. وبعد أن شعرت بفظاظة ما فعلت، أنقذت نفسها في اللحظة الأخيرة وهي تقول:

- شكرًا لك يا سينيورا، أتشرّف بذلك.

في طريقها إلى الورشة، مرّت بيل بنوبة هلع بعدما أدركت أن تلك الليلة هي الأخيرة مع لوران. وعندما وصلت إلى هناك، وجدته بانتظارها سعيدًا وفخورًا بما أنجزه.

- بعدما غادرت في الليلة الماضية، بقيت مستيقظًا لغاية الفجر حتى أنهيه بالكامل، قال وهو يشير إلى التمثال وقد غطّاه بملاءة تحميه من الغبار.

- هل ترغبين في رؤيته؟

- نعم، كثيرًا. أجابته بتمتمةٍ وهي ترفض السماح لبؤسها بأن يفسد على لوران شعوره بالحماس. فنزع الغطاء الحامي عنه ليكشف عن منحوتة مزخرفة بشكل متقن.

راحت بيل تحدّق إلى نفسها كما لو أنها تدقّق في شيء ولا تعرف أي رد فعل تُظهر. فبالنسبة إليها، كان واضحًا أنه نجح في إعادة بناء شكلها الخارجي، لأن الوجه الذي كانت تحدّق إليه هو وجهها بالفعل. لكن أكثر ما أثار دهشتها كان الجمود الذي عكسه التمثال، كما لو أنه التقط صورتها في لحظة تأمّلٍ عميق.

علّقت عليه:

- أبدو... وحيدة جدًّا... وحزينة جدًّا. أشعر بالقساوة وأنا أنظر إليه... فهو بعيد عن العبثية كل البعد.

- هذا هو أسلوب لاندوڤسكي في العمل، لذلك أنا موجود هنا. لقد رآه قبل أن يخرج هذا المساء وقال لي إنه أفضل عمل قمت به حتى الآن.

أجابته بيل:

- وأنا سعيدة من أجلك يا لوران.

- ذات يوم، قد ترين هذا التمثال معروضًا مع باقي أعمالي في متحفٍ ما، وستتذكّرين الأيام الجميلة التي صرفناها معًا في باريس.

- لا تفعل ذلك من فضلك! اشتكت له وهي تفقد السيطرة على نفسها وتضع رأسها بين يديها.

- لن أستطيع تحمّل ذلك.

- إيزابيلا، من فضلك لا تبكي. قال وهو يقترب منها ويلف ذراعه حول كتفها ليطمئنها.

- لو كان بإمكاني تغيير هذا الوضع لفعلت، أقسم لك. تذكّري دائمًا أنني حر في حبّي لك، بينما أنت لست كذلك.

- أعرف ذلك. أجابته بيل.

- إنها ليلتنا الأخيرة معًا. وأنا أغادر الشقة، أخبرتني ماريا جورجيانا بأن عائلة دا سيلڤا كوستا ستقيم عشاءً ليلة الغد على شرفي. وفي اليوم التالي، سأصعد إلى تلك الباخرة التي تعيدني إلى ريو. وأنت قد أنهيت عملك معي. قالت بيل وهي تشير إلى منحوتتها بيأس.

- بيل، ثقي بأننا ما نزال في البداية.

طمرت بيل رأسها في كتفه وهي تقول:

- ماذا نستطيع أن نفعل؟ ماذا يمكن فعله؟

ثم ساد الصمت للحظة قبل أن يتابع لوران:

- لا تعودي إلى البرازيل يا إيزابيلا. ابقي معي في باريس.

فجأة شعرت بيل بانقطاع أنفاسها إذ لم تصدّق ما سمعته منه.

قال وهو يمسك بيدها ويقودها إلى المقعد ويجلس بجانبها:

- تعرفين جيدًا أنني لا أستطيع أن أقدّم لك شيئًا مقارنة بما سيقدّمه لك خطيبك الغني هناك. كل ما لديّ الآن هو غرفة فوق السطوح في مونبارناس، وهي كالجليد في الشتاء والفرن الحامي في الصيف. لا أملك سوى هاتين اليدين لأغيّر الظروف التي أعيشها الآن. لكنني أقسم لك بأنني سأحبك يا إيزابيلا بطريقة خاصة لن يقدر عليها أي رجل آخر.

استمعت إليه بيل وهي لا تزال بين أحضانه، وشعرت بكلماته ترويها مثل قطرات الماء تنزل في فم عطشان. وكانت ذراعه لا تزال حولها عندما بدأت تتصوّر مستقبلهما معًا لأول مرة، فبدت صورته في ذهنها مثالية بطريقة خيالية، وعلى الرغم من كل ما قاله شعرت بضرورة محو تلك الصورة من عقلها.

- لوران، تعرف جيدًا أنني لا أستطيع. سوف أدمّر والديّ اللذين ينتظرانني الآن في ريو. زواجي من غوستافو هو أهم حلم عند أبي الذي، قضى عمره

بالكامـــل يعمـــل من أجل تحقيقه. لذلك لا أســـتطيع أن أخيّـــب أمله فيّ ولا أمل أمي الجميلة.

- أفهم أنك لا تستطيعين، لكنني أريدك أن تفهمي قبل أن تغادري كم أتمنّى أن تبقي معي.

- نحن لسنا متشابهين يا لوران. قالت بيل وهي تهزّ برأسها.

- ربّما لأننا نأتي من عالمين مختلفين، أو لأنك ببساطة رجل وأنا امرأة. أريدك أن تفهم أنّني كبرت في بلدي على فكرة أن العائلة تأتي قبل كل شيء.

- أنا أحترم ذلك. أجابها لوران.

- بالرغم من أنني أعتقد أن المرء عليه، في مكانٍ ما، أن يتوقّف عن التفكير في الآخرين ليركّز قليلًا على نفسه. سوف تتزوّجين من رجلٍ لا تحبينه لترمي نفسك في حياة لا ترغبين فيها. وهذا يعني أنك تضحّين بسعادتك الخاصة من أجل والدك، وهذه برأيي خطوة جبّارة بالنسبة إلى ابنة بارّة لم أرَ مثيلًا لها في حياتي.

- ليس لديّ خيار آخر. أجابت بيل.

- أتفهّم السبب الذي يجعلك تعتقدين ذلك. إلا أنني أؤمن بأن كل إنسان يتمتّع بإرادة حرّة، وهذا ما يميّزنا عن الحيوان. ثم توقّف لوران للحظة ليفكر في ما قد يضيفه: «وماذا عن خطيبك؟ لقد قلت لي إنه مولع بك؟».

- نعم، بحسب ما أعتقد.

- وكيف سيتعامل مع زوجةٍ لن تبادله يومًا المشاعر نفسها؟ وكيف سيسمح للامبالاتك، كونه يعرف بأنك تتزوجينه من باب الواجب، بأن تقضي على روحه؟

- تقول أمي إن الحب يأتي بعد الزواج، ولا أملك خيارًا سوى تصديقها.

قال لوران وهو يسحب ذراعه عن كتفها:

- إذًا ليس بوسعي إلا أن أتمنّى لك التوفيق وأن تعيشي حياة سعيدة. أعتقد أن حديثنا ينتهي هنا. ثم نهض بسرعة وعاد إلى القاعة الرئيسة.

- أرجوك يا لوران، لا تتصرّف هكذا. لا تفوّت علينا هذه اللحظات الأخيرة. توسّلت إليه بيل.

- إيزابيلا، قلت كل ما يسعني قوله. لقد أفصحت لك عن حبي وإخلاصي وطلبت منك ألا تعودي إلى ديارك، وأن تبقي هنا معي. أجابها لوران وهو يهزّ بكتفيه حزينًا.

- ليس بوسعي الذهاب أبعد من ذلك. سامحيني لأنني لن أتحمّل سماعك وأنت تقولين لي إنك ذات يوم قد تحبين زوجك.

شعرت بيل ببعض التشويش من جراء كل تلك التناقضات، كما شعرت بقلبها ينبض بسرعة كبيرة لدرجة أحست فيها بالمرض. إلا أنها بقيت تراقب لوران وهو يعيد الغطاء الحامي إلى تمثالها كما يغطي المرء قريبًا له بعد أن توافيه المنيّة. لكنها لم تفهم إذا قام بذلك ليلمّح إلى موتها بالنسبة إليه، فوجدت نفسها تنهض عن المقعد لتسير إليه.

- لوران من فضلك، عليك أن تمنحني بعض الوقت، فأنا بحاجة إلى التفكير. قالت له وهي تبكي وتضع أصبعيْها على صدغيْها.

تردّد لوران لثانية ثم قال لها:

- أعرف أنك لن تقدري على المجيء إلى المشغل مرة أخرى. لذلك لديّ طلب أخير، أريد أن نلتقي غدًا بعد الظهر في باريس؟

- وما الداعي؟

- أتوسّل إليك يا إيزابيلا، أخبريني فقط بالمكان والزمان.

نظرت إيزابيلا في عينيه وعرفت أن لا حول ولا قوة لها لتقاوم ذاك الطلب.

- قابلني في تمام الثالثة بعد الظهر، عند مدخل الحديقة الجنوبي، حيث تتقاطع جادة دو مارينيي مع شارع غابرييل.

- لن أتأخر في المجيء. تصبحين على خير يا حبيبتي. قال وهو ينظر إليها ويومئ برأسه.

غادرت بيل المشغل على الفور لأنها لم تجد ما تضيفه إلى ما قالته في ذلك اليوم. وبينما كانت تمشي في الحديقة، رأت الصبي يجلس بمفرده وينظر إلى النجوم فراحت تراقبه. ثم مشت إليه وما إن رآها حتى بدأ يبتسم.

قالت له:

- مرحبًا، تبدو بحالٍ أفضل. كيف تشعر الآن؟

هزّ برأسه وعرفت أنه فهم ما قالته له.

- سأغادر فرنسا بعد غد عائدة إلى البرازيل، فأنا من هناك. ثم أخرجت بيل دفترًا صغيرًا وقلم رصاص كانت تحملهما في حقيبتها وكتبت: «إذا احتجت يومًا إلى أي شيء، تستطيع الاتصال بي، هذا اسمي وعنوان منزل والديّ». ثمّ نزعت الورقة من دفتر الملاحظات وأعطتها له، وراحت تراقبه وهو يقرأها بشيء من الصعوبة. ثم بحثت مجددًا داخل محفظتها، وأخرجت ورقة نقدية من فئة العشرين فرنكًا لتزجّها بين يديه الصغيرتين، ثم انحنت فوقه وقبّلته على رأسه.

- وداعًا كيريدو *querido* (عزيزي)، أتمنّى لك كل التوفيق.

في تلك الليلة، استرجعت بيل في ذهنها الوقت الذي قضته في باريس، وأول ما تذكّرته بوضوح كان الليالي الطويلة التي قضتها مستيقظة. وبينما كانت ماريا إليسا تغطّ في نومها العميق، وقفت بيل عند النافذة وشقت ستائرها ثم أحضرت كرسيًّا جلست عليه لتراقب الشوارع تحتها وتحلم مجدّدًا بكل الملذات الموجودة في الخارج.

راحت تضغط بجبهتها الساخنة على الزجاج البارد، وهي تشعر بأن تلك الليلة هي الأطول على الإطلاق، بعد أن طرحت على نفسها أسئلة عديدة من شأنها أن تُحدّد مستقبلها.

وفي النهاية، توصّلت إلى اتخاذ قرارها النهائي فعادت إلى فراشها عازمةً على النوم، بعد أن شقّ الفجر ظلمة الغرفة بنوره الرمادي عبر فجوة الستائر، عاكسًا مزاجها.

- جئت أودّعك. قالت للوران الذي اضمحلّ أمله وتلاشى مثل الغبار الذي يهبط فوق الصخور على وقع كلماتها.

- لن أستطيع خيانة والديّ، عليك أن تفهم ذلك.

بقي لوران ينظر إلى قدميه وهو يواجه صعوبة في النطق.

- أفهمك تمامًا.

- من الأفضل لي أن أذهب، شكرًا لقدومك وأتمنّى لك كل السعادة في هذه الحياة. أنا واثقة من أنني ذات يوم سأسمع عنك وعن التماثيل التي تنحتها. كما أنني واثقة من أن أعمالك ستكون مرجعًا لأناسٍ كُثُر.

ثم نهضت وهي تشعر بتصلّب في عضلات جسمها من شدة التوتّر جراء كبحها مشاعرها الجامحة، ووضعت قبلة على خدّه قبل أن ترحل.

- وداعًا لوران، باركك اللّه.

لم تمر ثوانٍ قليلةٍ حتى شعرت بيد تلمس كتفها من الخلف.

- أرجوك يا بيل، إذا شاء القدر أن تغيّري رأيك، ثقي بأنني سأكون في انتظارك. وداعًا يا حبيبتي.

واستدار في الاتجاه المعاكس وأخذ يركض مثل حصان.

26

لم تعرف بيل كيف مرت عليها الأربع وعشرون ساعة الأخيرة والعشاء الذي أعدته لها عائلة دا سيلڤا كوستا.

بينما كانوا يودّعونها بالشامبانيا، قال لها هيتور:

- للأسف لن نكون في ريو أثناء احتفالك بزفافك، لكننا نتمنى لك ولخطيبك كل السعادة الموجودة في هذا العالم.

وبعد العشاء، قدّموا لها طقم «ليموج» فاخر لتقديم القهوة، كذكرى من باريس. وبعد أن انسحب الواحد تلو الآخر عن المائدة، ابتسم هيتور لبيل وقال:

- هل أنت سعيدة بالعودة إلى ديارك، يا إيزابيلا؟

- أتطلّع بشوقٍ إلى رؤية عائلتي من جديد، وخطيبي بالطبع. أضافت على وجه السرعة:

- لكنني في الوقت نفسه سأفتقد إلى باريس.

- ذات يوم، عندما سترين تمثال كريستو في أعلى قمة كوركوڤادو، ستخبرين أولادك بأنك كنت شاهدة على بنائه.

- بالتأكيد، وأنا أشعر بالفخر لكوني حصلت على ذلك الامتياز. قالت بيل.

- وكيف تسير الأمور معه؟

- أصبحت تعرفين أن لاندوڤسكي أوشك على إنهاء نموذج الأربعة أمتار. لذلك بات عليّ أن أعثر على مساحة أوسع لنبدأ بتنفيذ نموذج الثلاثين مترًا. في الأسبوع المقبل سيبدأ لاندوڤسكي بالعمل على الحجم الحقيقي للرأس واليدين.

قال لي عندما رأيته آخر مرة إنه جعل سينيور بروبي يعمل على قولبة يديك ويدي سينيوريتا لوبيز دي ألميدا كنماذج أوّلية مُحتمَلة.

أضاف هيتور:

- من يدري؟ ربما ينتهي الأمر بأصابعك أن تعطي بنفسها البركة لريو من أعلى قمة جبل كوركوڤادو.

أصرّت ماريا جورجيانا على مرافقة ماريا إليسا أثناء توصيلها بيل إلى الباخرة التي ستنطلق بها إلى ريو. وحالما استقرت بيل في مقصورتها، تركت ماريا جورجيانا الفتاتين وحدهما لبضع دقائق ريثما تقوم بجولة تفقدية تتحقّق فيها من الترتيبات التي قام بها المنسّق. ثم ودّعت ماريا إليسا بيل وهي تقول لها:

- استمتعي برحلتك يا عزيزتي.

- سأحاول. أجابتها، فيما كانت صديقتها تحدّق إلى وجهها عن قرب.

- هل من خطب؟

- لا، أنا فقط... لنقل إنني متوتّرة قليلًا بشأن حفل زفافي. أجابت بيل.

- حسنًا، كاتبيني وأخبريني بكل ما يحدث معك، سأراك عندما أعود إلى ريو. بيل، أنا...

- ما بالك؟

لكن بوق الباخرة اشتغل لينذر بإبحار السفينة بعد ثلاثين دقيقة.

- لا شك في أنني أريدك أن تستمتعي بالذكريات التي جمعتها في باريس، لكن من فضلك حاولي أن تتقبّلي المستقبل الذي ينتظرك مع غوستافو.

حدّقت بيل إلى ماريا إليسا وقد فهمت على الفور ما كانت تلمّح إليه.

- أعدك بذلك.

وعندما عادت ماريا جورجيانا إلى المقصورة قالت لهما:

- هناك زحمة أمام باب المنسّق فلم أتمكّن من التحدّث إليه. لذلك احرصي يا بيل على تقديم نفسك إليه، فهو يعرف أنك تسافرين بمفردك وأنا واثقة من أنه سيجد لك المرافقة المناسبة.

- لا تقلقي، سأفعل ذلك بالتأكيد. وداعًا سينيورا دا سيلڤا كوستا، وشكرًا على استضافتك لي.

- أقسمي بأن قدمك لن تطأ اليابسة إلا بعد أن ترسو السفينة في بيير ماوا، وحالما تصلين إلى ريو أتمنى عليك أن ترسلي لي برقية على الفور.

- أؤكد لك أنني سأفعل ذلك في اللحظة التي أصل فيها إلى المنزل. ثم رافقتهما بيل إلى ظهر السفينة لتودّعهما الوداع الأخير. وما إن نزلتا إلى الرصيف حتى ذهبت تتكئ على الدرابزين وتلقي نظراتها الأخيرة على ميناء لوهافر، وعلى فرنسا بالتحديد.

ها هي باريس تقع في مكانٍ ما في الجنوب، وفي مكانٍ ما في باريس يعيش لوران. ثم رُفعت مرساة الباخرة وبدأت تتحرك بسلاسة. إلا أن بيل بقيت تحدّق إلى الشاطئ حتى اختفى عن أنظارها وراء الأفق.

«وداعًا يا حبّي، وداعًا إلى الأبد». همست وهي تشعر بالتعب من حزنها الكبير على فراقه.

في ذلك المساء فضّلت بيل تناول العشاء في مقصورتها، بعد أن عجزت عن تحمّل تلك البهجة التي تعمّ قاعة الطعام، والتي تعكس سعادة المسافرين بتلك الرحلة. بعد العشاء، استلقت فوق سريرها وتركت نفسها تترجّح مع الباخرة على وقع الأمواج إلى أن هبط الليل ورأت كوّتها تتحوّل ظلمة تشبه تلك التي في قلبها.

راحت تفكّر في ألمها وتتساءل إذا كان سيخفّ بعد مغادرتها تيرا فيرما. فهي، كانت عائدة إلى والديها الحبيبين وإلى حياتها المألوفة، حتى أنّ التحضيرات لزفافها كانت سارية وفق ما ذكره أنطونيو في رسالته الأخيرة، التي أوضحت لها اختيار

كاتدرائية ريو الجميلة ليُعقد قرانهما فيها، ونادرًا ما كان يُمنح ذلك الشرف لأحد.

وما إن اتسّعت المسافة بينها وبين لوران، حتى شعرت بثقل في قلبها وكأنّ صخرةً من صخور لاندوڤسكي رُميت عليه.

سالت دموعها فوق وسادتها، فشعرت بحاجة إلى الصلاة لعلها ترتاح: «أيّتها العذراء المقدّسة، أعطني القوة لأعيش بعيدًا عنه. لأنني في هذه اللحظة غير قادرة على تحمّل البعد».

مايا

حزيران 2007

اكتمال القمر

13: 44: 49

27

عندما أنهيت قراءتي الرسالة الأخيرة، انتبهت إلى الساعة وقد تخطّت منتصف الليل. كانت إيزابيلا بونيفاسيو قد ركبت الباخرة التي ستعيدها إلى ريو لتعيش مع رجلٍ لا تحبه، بعد أن اتّخذت قرارها بالتخلي عن لوران برويي.

لور...

ثم شعرت بالحماسة ما إن تنبّهت إلى ما ترمز إليه الأحرف الثلاثة الأولى التي تظهر على البلاطة الملساء. وأخيرًا تبيّن أنها تعود للوران، حب بيل السري. وأدركت أن منحوتة المرأة التي تجلس على الكرسي، والتي رأيتها في حديقة ذلك المنزل تعود في الزمن إلى الأيام التي قضتها بيل في باريس، لكن كيف شقت طريقها عبر البحر إلى البرازيل؟ لم تكن لديّ أدنى فكرة.

قرّرت أن أعاود في الغد قراءة الرسائل وقد أصبحت متشوّقة أكثر لمعرفة تتمة القصة التي لم أغص في تفاصيلها بعد. ولن أكتفي بذلك ولكنني سأبحث في الإنترنت عن السيد لوران برويي، وقد بدا لي اسمه مألوفًا. حينها كنت أشعر بأنني منهكة، فخلعت ملابسي ثم سحبت الملاءة فوقي واستسلمت للنوم وأنا أشعر بأنني أخيرًا وضعت رجلي على السكّة التي ستقودني إلى ماضيّ.

استيقظت مرتبكة على صوتٍ صاخب، لكنني احتجت إلى بضع ثوانٍ لأدرك أن ذلك الصوت المتنافر ليس سوى جرس الهاتف الموضوع على الطاولة بجوار سريري. وبعد أن بلغت السماعة، وضعتها على أذني وتمتمت: مرحبًا!

- مايا، هذا أنا فلوريانو، كيف تشعرين؟

- أفضل بكثير. أجبته على الفور وأنا أشعر بالذنب لأنني كذبت عليه في الليلة الماضية.

- حسنًا، هل أستطيع أن ألقاك؟ لديّ أشياء كثيرة لأخبرك بها.

- وأنا... أنت... لكنني تراجعت عن الإفصاح عن أيّ شيء.

- طبعًا نستطيع أن نلتقي.

- الطقس جميل، دعينا نتجوّل على الشاطئ. هل نلتقي عند الحادية عشرة في بهو الفندق؟

- نعم، لكن من فضلك يا فلوريانو. إذا كان لديك انشغالات أخرى، أنا...

- مايا، أنا روائي وأي عذرٍ سيمنعني من الجلوس وراء مكتبي ويلهيني عن ممارسة عملي يكون دائمًا موضع ترحيب. أراك بعد ساعة.

طلبت الفطور إلى الغرفة، ثم رحت أقرأ الرسائل الأولى حتى يتوضّح مضمونها في ذهني. وعندما انتبهت إلى الوقت، استحممت بسرعة ونزلت في تمام الحادية عشرة إلى بهو الفندق.

كان فلوريانو ينتظرني هناك، وهو يقرأ صفحة يسندها إلى محفظة بلاستيكية منتفخة يضعها على حجره.

- صباح الخير.

- صباح النور. أجاب وهو ينظر إليّ.

- تبدين بحال أفضل.

- أجل، أنا بخير. قلت له وأنا أجلس بجانبه وأفكّر في أن أبوح له بالحقيقة. ومن دون تردّد قلت له:

- فلوريانو، بقائي في الغرفة الليلة الماضية لم يكن بسبب معدتي فحسب. السبب الحقيقي هو أن يارا الخادمة العجوز، سلّمتني قبل أن نغادر أمس طردًا، وجعلتني أقسم على ألّا أخبر أحدًا عنه.

- حقًّا؟ قال فلوريانو وقد أثار ما قلته دهشته.

- وما الذي يحتويه ذلك الطرد؟

- رسائل كتبتها إيزابيلا بونيفاسيو إلى خادمتها، وهي امرأة تُدعى لوين فاغونديس وتكون والدة يارا.

حقًّا؟

- آسفة لأنني لم أخبرك عنها أمس، أردت فقط أن أقرأها أولًا، وأقسم لك أنني لم أذكر شيئًا عنها لأحد. بدت لي يارا مرعوبة من أن تعرف سينيورا كارفالو بأنها سلّمتني تلك الرسائل.

- بالطبع، لا مشكلة في ذلك. أفهمك تمامًا. قال وهو يومئ برأسه.

- ففي النهاية هذا ماضي عائلتك أنت ولا علاقة لي به. أعتقد أنك من النوع الذي يجد صعوبة في الوثوق بالآخرين. وأنا واثق من أنك تحتفظين بأسرار كثيرة غير هذا السر. هل تريدين مشاركتي محتوى الرسائل أم تفضّلين الاحتفاظ به لنفسك؟ القرار لك وتأكدي أنك إذا رفضت فلن أشعر بالإهانة.

- نعم، بالطبع أريد أن أشاركك مضمونها. أكدت له على الرغم من أنني انزعجت من تقييمه الثاقب لي، وقد عكس جوهر ما قاله پاي في رسالته.

- إذًا هيّا نكمل الحديث ونحن نتنزّه في الخارج.

تبعت فلوريانو إلى الشارع وعبرنا الطريق إلى المتنزّه الكبير الذي يقابل الشاطئ. فوجدنا أكشاكه الكثيرة التي تبيع عصير جوز الهند الطازج والجعة والوجبات الخفيفة لرواد الشاطئ، مكتظة بالزبائن.

- هيا بنا إلى كوباكابانا بالاس لأريك أين أقيم زفاف جدتك الكبرى.

- وحفلة عيد ميلادها الثامن عشر.

- أجل، ولديّ بعض الصور عن تلك الحفلة، وجدتها في أرشيف المكتبة الوطنية. ثم قال:

- حسنًا، إذا كنت مستعدّة بالفعل للكشف عن محتوى الرسائل، فأخبريني بكل التفاصيل يا مايا. فأخبرته بكل ما استطعت أن أعرفه من تلك الرسائل ونحن نتجوّل على طول شاطئ إبانيما.

عندما وصلنا إلى ما سمّاه فلوريانو بكوباكابانا بيتش توجّهنا إلى الفندق الشهير، وكانوا قد جدّدوه مؤخّرًا، فما كان بالإمكان تفويته، إذ كان يبرق ببياضه الناصع تحت أشعة الشمس الساطعة، مثل جوهرة مميزة بين جواهر ريو المعمارية.

- لا شك في أنه مثير للإعجاب. قلت لفلوريانو وأنا أحدّق إلى واجهته.

- أفهم الآن لمَ كان خيارًا واضحًا لعرس بيل وغوستافو. حتى أنني قادرة على تخيّلها تقف هناك في فستان زفافها الرائع وسط مجتمع ريو الراقي.

كانت شمس الصباح قد اشتدّت في تلك الساعة، ما اضطرّنا إلى اختيار كرسيين موضوعين تحت مظلّة للجلوس في أحد أكشاك الشاطئ. ثم طلب فلوريانو الجعّة لنفسه وعصير جوز الهند لي.

- دعيني أخبرك أولًا بأن صديقي الذي يعمل في قسم الأشعة فوق البنفسجية في المتحف الوطني أخبرني عن الاسمين المحفورين على ظهر البلاطة الملساء، على الرغم من أنه لا يزال يعمل على كشف التاريخ والنقش. الاسم الأول هو إيزابيلا آيريس كابرال والآخر هو لوران برويي. وبفضل تلك الرسائل أصبحنا نعرف من كان حبيب بيل في باريس، وقد انتهى الأمر بأن أصبح نحّاتًا مشهورًا في فرنسا. خذي هذه.

قال فلوريانو وهو يسحب بضع صفحات من محفظته البلاستيكية ويسلمها لي.

- هذه بضعة أعمال من توقيعه.

رحت أنظر إلى الصور المشوّشة غير الواضحة لما نحته لوران برويي. كانت في الغالب أشكالًا بشرية بسيطة على غرار تلك التي رأيتها في حديقة ذلك المنزل بالإضافة إلى منحوتات لرجال يرتدون بدلات عسكرية قديمة.

- لقد صنع اسمًا لنفسه في فضاء النحت خلال الحرب العالمية الثانية التي قاتل فيها على جبهة المقاومة. أوضح فلوريانو.

- وتقول صفحته على ويكيبيديا إنه كُرِّم على شجاعته. لا شك في أنه كان رجلًا مثيرًا للاهتمام. خذي هذه صورته ولاحظي كم كان جذّابًا.

رحت أحدّق إلى وجه لوران الوسيم. فبدا لي بملامحه القوية، وفكّه المنحوت، وعظام وجنتيه الحادتين، وكأنه آتٍ من بلاد الغال.

- أما هذه فصورة لغوستافو وإيزابيلا في يوم زفافهما.

حدّقت إلى الصورة الثانية متجاوزة أولًا إيزابيلا لأعاين غوستافو وأقارنه بلوران، فوجدت أن التباين بينهما لا يمكنه أن يكون أكثر وضوحًا. وبالنظر إلى هيكله النحيل وملامحه الصغيرة والمدبّبة، فهمت لماذا شبّهته بيل وماريا إليسا بالنمس. لكنني كنت قادرة على لمس الطيبة في عينيه. ثم ألقيت نظرة خاطفة على إيزابيلا ففوجئت إلى أي حدٍّ كانت ملامحي تشبه ملامحها. كنت على وشك إعادة الصورة إلى فلوريانو عندما لاحظت القلادة التي كانت تضعها على صدرها.

- يا إلهي!

- ماذا؟

- انظر هنا. قلت له وأنا أشير إلى المكان الذي يُفترض أن يركّز فلوريانو عليه في الصورة، ثم وضعت أصبعي على حجر القمر الذي حول رقبتي.

حدّق فلوريانو إلى الصورة ثم إلى رقبتي وقال:

- أجل يا مايا، يبدو أنهما واحد.

- أفهم الآن لماذا أعطتني يارا الرسائل، حتى أنها قالت لي إنها تعرّفت إلى القلادة.

- هل صدّقت الآن أن هناك ما يربطك بعائلة آيريس كابرال؟ قال وهو يبتسم.

- نعم، أنت محق. وهذه المرة، قلتها عن قناعة.

- هذا دليل غير قابل للجدل.

- لا بدّ من أنك سعيدة.

- وأنا كذلك، لكن... قلت وأنا أترك الصفحات التي كنت أمسكها بيدي وتنهّدت، فأشعل فلوريانو سيجارة وراح يحدّق إلى وجهي وقال:

- والآن ماذا؟

- من المحزن أن تكون إيزابيلا قد تخلّت عن الرجل الذي أحبّته بالفعل لتتزوّج من غوستافو آيريس كابرال، على الرغم من أنها لم تكنّ له أيّ عاطفة.

- كم أنت رومنسية يا مايا!

- كلا، لا أقول ذلك من باب ال رومنسية. لو قرأت الرسائل التي كتبتها إيزابيلا لخادمتها لتخبرها عن ولعها بلوران برويي، لتأثّرت حتمًا بالقصة.

- حسنًا، آمل أن تسمحي لي بقراءتها قريبًا.

- بالطبع سأسمح لك على الرغم من أن مشاعر إيزابيلا للوران قد لا تزيد عن الإعجاب.

- صحيح. وافق فلوريانو.

- إنْ كان الأمر كذلك، فلماذا أعطاك والدك البلاطة الملساء كدليل على تاريخ عائلتك؟ لكان أسهل بكثير لو ضمّ إليها صورة لإيزابيلا مع زوجها.

- لا أعرف. قلت له وأنا أتنهّد مرة أخرى.

- وربما لن نعرف أبدًا. أقصد أن الرسالة الأخيرة التي في حوزتي يعود تاريخها إلى تشرين الأول 1928، وهو الشهر الذي غادرت فيه بيل باريس سالكةً طريق العودة إلى ريو. لذلك علينا أن نفترض أنها تزوجت غوستافو واستقرت هنا معه.

- أعتقد أننا لم نمسك بعد بجميع الخيوط. قال فلوريانو وهو يُخرج نسخة عن صورة فوتوغرافية جديدة.

- انظري إلى هذه، التُقطت في كانون الثاني 1929، وتُظهر القالب الذي صُنع لرأس الكريستو بعد إنزاله مباشرة من الباخرة التي نقلته من فرنسا. وهذا الشيء الغريب بجانبه هو في الواقع كفّ عملاق. وهناك أيضًا رجلان، أحدهما هو هيتور

ليفي مدير مشروع بناء تمثال الكريستو. لكن انظري جيدًا إلى الرجل الآخر. قال فلوريانو وهو يشير بأصبعه إلى الشخص الثاني الذي يظهر في الصورة.

رحت أحدق إلى ملامح ذاك المتكئ على يد التمثال. حتى أنني عاينته مرتين لأقارنه بأول صورة أعطاها لي فلوريانو قبل دقائق.

- يا إلهي، هذا لوران برويي!

مكتبة
t.me/soramnqraa

- أجل، هو بنفسه.

- وهل جاء إلى ريو؟

- يبدو أن الأمر كذلك. أعتقد أنه جاء برفقة التمثال، لسنا بحاجة إلى أن نكون عباقرة لنفهم ذلك.

- وربما لرؤية إيزابيلا؟ فكّرت بصوتٍ عال.

- نصيحتي كمؤرخ أن لا تضعي مثل هذه الافتراضات، خصوصًا أنك قرأت عن مشاعر إيزابيلا تجاه لوران، وما تزالين لا تعرفين شيئًا عن مشاعره تجاهها. قال فلوريانو.

- أنت محق، لكنها تحدّثت مطوّلًا في رسائلها عن الوقت الذي قضته في مشغل بول لاندوڤسكي ريثما ينتهي لوران من المنحوتة الموضوعة اليوم في حدائق كازا داس أوركيدياس، كما أخبرت لوين بأن لوران توسّل إليها كثيرًا لتبقى في فرنسا وتنسى فكرة العودة إلى البرازيل. لذلك أتساءل إذا كان قد تبعها إلى هنا... وكيف نعرف إذا التقيا مرةً أخرى لدى مجيئه إلى ريو؟

- نسأل صديقتك يارا، الخادمة العجوز. قال فلوريانو وهو يهز كتفيه.

- أليست هي من أعطتك الرسائل، إذًا هي تريدك أن تعرفي الحقيقة، لا أدري لماذا، لكنني واثق مما أقوله.

- لكنها تخاف من سيدتها. لذلك أعتبر أن مسألة إعطائي الرسائل أمر، والتحدث معي بما تعرفه عن ماضي عائلتي الخاص أمر آخر.

- قال فلوريانو بصوت حازم:

- مايا، لا تستسلمي بسهولة. لقد وثقت بكِ بما يكفي لتسلمك الرسائل. والآن ما رأيك لو نعود إلى الفندق لنقرأها معًا؟

- موافقة.

تركت فلوريانو في جناحي يقرأ الرسائل، وعدت إلى شاطئ إيبانيما لأسبح في المياه المنعشة، وأغوص في أمواج المحيط الأطلسي العاتية. تمدّدت لاحقًا تحت أشعة الشمس لأجفّف جسمي وأنا أفكّر في أن فلوريانو محق؛ فليس عليّ أن أخاف من ملاحقة القصة التي جبت العالم من أجل اكتشافها.

بينما كنت مستلقية على الرمال الدافئة رحت أفكر في ذلك السلوك المتردّد الذي أظهره وأنا أحاول اكتشاف هوية الثنائي الذي أنجبني، لعلني كنت مدركة اقترابي أكثر فأكثر من الحقيقة. وعلى الرغم من أنني لا أعرف بعد إذا كانا على قيد الحياة، ولا أعرف السبب الذي جعل پا سولت يعطيني دليلًا يقودني إلى ماضٍ بعيد، أبعد بكثير من ذلك الذي يجب أن أرجع إليه، وفق ما يقوله المنطق.

«لماذا ترفض سينيورا كارفالو الاعتراف بأن ابنتها قد أنجبت بالفعل؟ المرأة شابة وعمرها يتيح لها أن تكون أمي...».

مرة أخرى، تذكرت الكلمات المحفورة على الاسطرلاب الكروي الخاص بپا سولت.

لا أقدر على الهروب وإن كان باستطاعتي ذلك.

لدى عودتي إلى جناحي سألت فلوريانو:

- هل أنت مستعد لمرافقتي إلى ذلك المنزل لنعرف إذا كانت يارا ستخبرنا أكثر مما أخبرتنا؟

- بالتأكيد.

أجابني وهو لا يزال ينظر في الرسالة التي يقرأها.

- بقي أمامي بضع رسائل.

- سأستحم بينما تنهي قراءتها.

- تمام.

دخلت الحمام وأغلقت الباب خلفي لأخلع ملابسي وأستحم. وأنا تحت المياه رحت أفكر كيف سمحت لفلوريانو بالبقاء في الغرفة المجاورة بينما أستحم. فقبل يومين فقط كان ما يزال غريبًا عني، إلا أن طباعه الهادئة وأسلوبه المريح في التعاطي قد جعلاني أشعر بأنني أعرفه منذ فترة أطول.

توقّعت في البدء أن ألتقي شخصًا يأخذ نفسه على محْمل الجد، إذ أن الكتاب الذي أصدره، والذي ترجمته له، يعدّ فلسفيًّا بعض الشيء ومليئًا بالمخاوف البشرية. لكن الرجل الذي كان يجلس في الغرفة المجاورة على بعد خطوات مني كان مختلفًا تمامًا.

عندما خرجت من الحمام، رأيته يحدّق عبر النافذة إلى الشاطئ بعدما أعاد الرسائل بالترتيب إلى الرزمة.

- هل ترغبين في الاحتفاظ بها داخل الخزنة؟

- نعم، من فضلك. وأخذت الرسائل منه ورحت أضعها في الخزنة.

- شكرًا يا مايا. قال فجأة.

- على ماذا؟ سألته وأنا أنقر الرمز لأفتحها.

- لأنك سمحت لي بالاطلاع عليها. تأكدي أن كثيرًا من زملائي يرغبون في نيل ذلك الامتياز. فحقيقة أن تكون جدتك الكبرى قد شهدت على بناء تمثال الكريستو، أو أقامت تحت سقف واحد مع هيتور دا سيلڤا كوستا وعائلته، أو جلست في مشغل لاندوڤسكي أثناء تحضير القوالب، هو بالفعل أمر مذهل. لذلك أعتبره شرفًا لي حقًّا. قال وهو يحيّيني بالانحناء أمامي.

- لكنك تستحق الشكر أكثر منّي لأنك تساعدني على جمع الأجزاء المفقودة لهذه الأحجية.

- حسنًا، دعينا نعدْ إلى ذلك المنزل لنرى إذا كان بإمكاننا العثور على مزيدٍ من المعلومات.

- لكنني أفضّل أن تنتظرني في الخارج، فقد وعدت يارا بألّا أخبر أحدًا ولا أريد أن أزعزع ثقتها بي.

- لا بأس، سيسرّني أيضًا أن أقوم بدور السائق للسينيوريتا. قال وهو يظهر ابتسامة عريضة على وجهه.

- فلنذهب.

خرجنا من جناحي نمشي باتجاه المصعد ثم ضغط فلوريانو على الزر ليسحبه إلينا. عندما فتحت الباب ودخلنا المقصورة رأيته يحدّق إلى انعكاسي على جُدُره اللماعة. وحين فتح الباب مجدّدًا ووجدنا أنفسنا في بهو الفندق، قال لي وهو يتقدّم بخطى ثابتة إلى الهدف:

- هذا الاسمرار يليق بك.

* ۞ *

دامت رحلتنا إلى ذلك المنزل عشرين دقيقة، وعندما وصلنا إلى هناك توقفنا على حافّة الطريق قبالته. وسرنا أنا وفلوريانو إلى البوابات الحديدية المغطّاة بالصدأ فوجدناها قد أُقفلت بإحكام بعد زيارتنا الأخيرة.

- ماذا حدث؟ قلت له ونحن نترجّل من السيارة.

- هل تعتقد أن سينيورا كارفالو توقّعت عودتنا؟

- قد يكون ظنّك في مكانه، كنت أفكر بالمثل. أجاب فلوريانو وهو يسبقني في المشي على طول السياج النباتي المتشعب.

- سأتحقق من وجود طريقة أخرى للدخول، بالقانون أو بغيره.

رحت أحدّق عبر القضبان الحديدية إلى المنزل الذي يقع في الخلف وأنا أشعر بخيبة أملٍ وإحباطٍ في الوقت نفسه. لعلّ ما يحدث الآن مجرّد مصادفة، إذ قد تكون السيدة العجوز ويارا قد خطّطتا للمغادرة من قبل، ربما لزيارة بعض

الأقرباء. وفي تلك اللحظة أدركت كم كنت متشوّقة لمعرفة الماضي الذي بتّ مقتنعة بأنه يخصّني.

عاد فلوريانو إلى حيث كنت واقفة. المكان مثل القلعة. لقد مشيت على طول الطريق المحيط بالمنزل باستثناء الفراغ الذي يتخلل السياج من هنا وهناك، فلم أجد مجالًا للدخول. كما أنني استرقت النظر عبر الشقوق في الخلف فرأيت النوافذ الخلفية مُغلقة على مصراعيها. يبدو أن المنزل مغلق تمامًا ولا يوجد أحد في الداخل.

- ماذا لو رحلتا إلى الأبد؟ سألته وأنا أسمع صوتي المحبط.

- لا شيء يشير إلى أنهما لن تعودا، قد يكون الأمر مسألة توقيت سيّئ. انظري يا مايا، هناك صندوق بريد خاص بالمنزل، أقترح أن تتركي ليارا ملاحظة فيها عنوان الفندق الذي تنزلين فيه ورقم هاتفك.

- لكن ماذا لو عثرت المرأة العجوز عليها أولًا؟

- تأكّدي أن سينيورا كارفالو عندما تعود إلى منزلها لن تبحث فورًا في صندوق بريدها. تلك السيدة تنتمي إلى عصر مختلف، وهذه وظيفة خادمتها. قال فلوريانو وهو يرسم ابتسامة على وجهه.

- حسنًا، أنت على حق.

قلت على مضض وأنا أبحث عن دفتر ملاحظاتي داخل حقيبتي كي أكتب ملاحظة ليارا بناء على نصيحة فلوريانو.

- ليس بوسعنا القيام بشيء آخر، تعالي معي. قال وأنا أفتح الغطاء المعدني المغطّى بالصدأ لأسقط الورقة داخل الصندوق.

وأثناء عودتنا إلى وسط المدينة التي استغرقت عشرين دقيقة أخرى، بقيت صامتة طوال الوقت، إذ شعرت بالانكماش إثر الحماسة الكبيرة التي ولّدتها فيّ تلك الرسائل، واشتداد رغبتي في معرفة الباقي.

- آمل أنك لا تفكرين في الاستسلام. قال فلوريانو وهو يحاول قراءة أفكاري، بعد أن أصبحنا بموازاة شاطئ إيبانيما.

- بالطبع لا، لكنني أجهل الاتجاه الذي يجب عليّ سلوكه.

- الصبر مفتاح الفرج يا مايا. كل ما علينا القيام به الآن هو الانتظار لنعرف إذا كانت يارا ستستجيب للملاحظة التي تركتها لها. بالطبع علينا العودة إلى ذلك المنزل لنتأكد من أنهما لم ترحلا إلى الأبد. في ظروف مماثلة، يفترض علينا أن نفكر بمنطق في سبب اختفائهما، بعيدًا عن الألغاز. لذلك أقترح عليك أن نفكر سويًا في ما يمكن أن يكون التفسير.

- كأن تكونا قد ذهبتا لزيارة بعض الأقرباء؟ ردّدت بصوت عالٍ ما فكرت فيه قبل قليل.

- إنه احتمال. لكن بالنظر إلى مدى ضعف العجوز ومرضها، أشك في أنها قادرة على القيام برحلات طويلة، أو على إجراء أي محادثة ولو قصيرة فورًا بعد وصولها.

- إذًا ربما غادرتا خوفًا من عودتنا؟

- هذا احتمال آخر لكنه غير مرجّح. فسينيورا كارفالو عاشت في هذا المنزل طوال حياتها، وحتى لو لم تبدِ أي استعداد لمناقشة علاقتك المُحتمَلة بعائلتها، فإننا لم نأتها بالبندقيات والسكاكين. قال وهو يواصل القيادة باتجاه وسط المدينة.

- برأيي هناك سبب وحيد لغياب سيدة المنزل أو خادمتها عن المنزل في الوقت الحاضر.

- وما هو؟

- أن تكون سينيورا كارفالو قد أصيبت بمرض ما اضطرّ خادمتها لنقلها إلى المستشفى. لذلك فأنا أفكّر في الاتصال بالمستشفيات المحلية لمعرفة إذا ما تم قبول عمتي العزيزة في أي منها خلال الأربع وعشرين ساعة الماضية.

نظرت إلى فلوريانو بإعجاب.

- هناك احتمال كبير أن تكون على حق.

- سنعود إلى شقتي لأبحث عن أرقام المستشفيات المحلية ثم أتصل بها.

قال هذا وهو ينعطف إلى اليمين عند جادة فييرا سوتو بدلًا من متابعة سيره على طول الواجهة البحرية وصولًا إلى فندقي.

- أرجوك فلوريانو، لا أريد أن أزعجك أكثر. أستطيع فعل ذلك عبر كمبيوتري المحمول.

- اسكتي يا مايا، من فضلك. الرسائل التي سمحت لي بقراءتها هذا الصباح هي من أكثر المسائل المثيرة للاهتمام بالنسبة إلى أي مؤرخ. كما أنني وجدت أمرًا آخر فيها لم أخبرك عنه بعد، وهذا الأمر يجعلها بعد أكثر أهمية، وقد يحلّ لغزًا قديمًا حول تمثال كريستو. لذلك من فضلك، صدّقي أننا نتبادل المساعدة. غير أنني سأنبّهك إلى أن منزلي لا يشبه الكوباكابانا بالاس بشيء. قال لي ونحن نواصل طريقنا بعد أن تخطينا الشاطئ.

بعد ذلك لم يتأخّر فلوريانو في الانعطاف يمينًا، ثم أوقف سيارته على مسار أسفلتي أمام مبنى سكني يشعرك بأنه على وشك الانهيار. وعلى الرغم من أننا لم نبتعد عن الفندق أكثر من مسافة خمس دقائق إلى عشر سيرًا على الأقدام، إلا أنه بدا لي وكأننا أصبحنا في عالمٍ مختلف.

عندما نزلنا من السيارة وصعدنا بضع درجات إلى باب المدخل قال لي:

- أهلًا بك في منزلي، وآسف لأنه لا يوجد مصعد. ثم فتح الباب وبدأ يصعد السلالم الضيقة درجتين، درجتين.

تبعته إلى الطابق الأول فالثاني ثم الثالث، إلى أن أصبحنا في ممر صغير، حيث فتح الباب.

- لست مرجعًا في كيفية إدارة المنازل لكنني أشعر بأنه منزلي. حذّرني للمرة الثانية.

- تفضّلي بالدخول.

وعبر فلوريانو الباب في حين بقيت جامدة للحظة عند العتبة بعد أن شعرت بخوف من فكرة أنني أدخل في الواقع شقة رجل ما يزال غريبًا عني. ثم رحت أحارب أفكاري وأنا أتذكّر الليلة الأولى التي التقينا فيها عندما وجب عليه العودة إلى هنا ليدخل الفتاة التي كان تعيش معه، فتبعته إلى الداخل وأنا أشعر بارتياح أكبر.

كانت غرفة الجلوس التي دخلنا إليها شبيهة بما لمّح إليه فلوريانو، مزدحمةً بأغراضٍ مبعثرةٍ استُخدمت عند الحاجة إليها من دون أن تُعاد إلى مكانها. وكانت عبارة عن أريكة قديمة من الجلد وكرسي بذراعين، تفصلهما طاولة صغيرة مغطّاة بالكتب والأوراق ووعاء يحتوي على الطعام ومنفضة مليئة بالسجائر.

- سأرافقك إلى الطابق العلوي، انتظري فهو أكثر متعة. قال وهو يمشي على طول الممر.

صعدنا مجموعة أخرى من السلالم إلى أن بلغنا ممرًا آخر رأيت فيه بابين. ففتح فلوريانو أحد البابين وبانت خلفه شرفة شبه مسقوفة بسطح مائل وضعت تحته أريكة وطاولة وكراسٍ، وفي الزاوية مكتب وضع عليه جهاز كمبيوتر محمول، وخلفه رف من الكتب. أما الناحية المطلّة من الشرفة فلم تكن مسقوفة، ورأيت على طول حافتها أواني مليئة بالزهور التي تزيّن الغلاف الجوي بألوان حيّة.

- هذا هو المكان الذي أعيش وأعمل فيه. تستطيعين أن تستريحي. قال وهو يمشي إلى المكتب ليجلس وراءه ويشغّل جهاز الكمبيوتر.

اقتربت من حافّة الشرفة وإذا بالشمس تلفح وجهي. اتكأت على مرفقيّ لأنظر أمامي، ورأيت عند تلّة تبعد بضع مئات الأمتار، مدينة صغيرة تعجّ بالمباني الموزّعة عشوائيًا. ثم رأيت طائرات ورقية تسبح فوق سطوح المباني وسمعت قرعًا لما بدا لي وكأنها طبول.

خلافًا لجناحي العقيم، شعرت فجأة بأنني أضع أصبعي على نبض المدينة الحي.

المكان جميل هنا. قلت لفلوريانو وأنا أتنشّق كمية كبيرة من الهواء.

- هل هذه فاڤيلا؟ سألته وأنا أشير في الفراغ إلى مجموعة المنازل التي تقع خلفنا على سفح الجبل.

- نعم بالضبط. قبل بضع سنوات كانت ما تزال تُعدّ من الأحياء الأكثر خطورة، إذ انتشرت فيها جرائم المخدرات والقتل. وعلى الرغم من قربها من حي إيبانيما الذي يُعدّ من بين الأحياء المميزة في ريو، فلا أحد كان يرضى بالعيش في الشوارع المجاورة. أوضح لي فلوريانو وأضاف:

- قامت الحكومة مؤخرًا، بتنظيفها وببناء مصعد لسكانها. علمًا أن بعضهم كان يفضّل لو استُخدم ذلك المال لتقديم الرعاية الصحية لهم. برأيي ما زلنا في البداية.

- لكن، ألم تحقّق البرازيل ازدهارًا في السنوات الماضية؟ سألته.

- بلى، لكن كما هو حال أي اقتصاد سريع النمو، بدأت نسبة ضئيلة فقط من السكان بالاستفادة من الثروات الجديدة، أما التغييرات التي تلحق بالغالبية العظمى وهم الأكثر فقرًا فطفيفة جدًا. الوضع لا يختلف كثيرًا عمّا تمر به الهند وروسيا حاليًا. في أي حال. دعينا لا نتطرق إلى موضوع الظلم الاجتماعي في البرازيل، لأنه موضوعي المفضّل وسأسترسل في الحديث عنه إلى ما لا نهاية، ونحن لدينا أشياء أهم نناقشها هنا». ثم أعاد تركيزه على شاشة الكمبيوتر وقال:

- أفترض أن سينيورا كارفالو هي واحدة من القلائل الذين يحظون بامتياز اجتناب المستشفيات العامة في ريو. لذلك سأبحث عن قائمة المستشفيات الخاصة ومن ثمّ أتصل بها. ها قد وجدتها. حينها ابتعدت عن الحافة ووقفت خلف ظهره ونظرت من فوق كتفه إلى الشاشة التي تعرض القائمة.

- لدينا حوالى عشر مستشفيات. سأطبع قائمة بأرقام هواتفها.

اقترحت عليه:

- لمَ لا نتقاسم القائمة، ويتصل كل منا بخمس مستشفيات؟ فوافق على الفور.

- تذكّري أن تقدّمي نفسك كقريبة لها من الدائرة الأولى كحفيدتها مثلًا. قال فلوريانو وهو يرمقني بنظرةٍ ساخرة.

- وإلا لن يعطوك أي معلومات.

وخلال الخمس عشرة دقيقة التالية، انسحب فلوريانو إلى الطابق السفلي حاملًا معه هاتفه المحمول، وبقيت وحدي على الشرفة أمسك بهاتفي وأتصل بالأرقام التي تركها لي. لم يشعرني أيٌّ من تلك الاتصالات بالاطمئنان، لأن كل الذين تحدّثت إليهم أكدوا لي أنهم لم يستقبلوا سينيورا كارفالو في الأربع وعشرين ساعة الماضية. وعندما عاد فلوريانو إلى الشرفة وهو يحمل صينية بيده، فهمت من تعابير وجهه أنه سوف ينقل لي الخبر نفسه.

- لا تستسلمي للإحباط يا مايا. قال وهو يضع على الطاولة طبقًا يحتوي على الجبن والسلامي الطازجة والخبز الفرنسي.

- دعينا نأكل لنفكر جيّدًا.

أكلت بشهية بعدما أدركت أن الساعة قد تجاوزت السادسة مساءً، وأنا لم أتناول شيئًا منذ الفطور.

ما هو الأمر الغامض الذي اكتشفته وأنت تقرأ رسائل بيل؟ سألته وهو ينهي طعامه ثم ينهض إلى الناحية غير المسقوفة من الشرفة ليشعل سيجارته.

قال وهو يتكئ على الحافة ويحدق بعيدًا إلى الغسق وقد بدأ يهبط تدريجًا:

- حسنًا، تلك الشابة التي تذكرها بيل في رسائلها، مارجريدا لوبيز دي ألميدا، لطالما اعتقد الجميع أنها النموذج الذي اختاره لاندوڤسكي في بناء يدي الكريستو. ورسائل بيل تؤكد أنها كانت بالفعل تتردّد إلى مشغل لاندوڤسكي، وأنها عازفة بيانو موهوبة. حتى أن مارجريدا لم تكذّب يومًا الشائعات التي تقول إن يدي تمثال الكريستو هما نسخة عن يديها. علمًا أنها قبل بضع سنوات اعترفت وهي على فراش الموت، بأن اليدين اللتين اختارهما لاندوڤسكي في النهاية ليستا يديها.

راح فلوريانو ينظر إلى عيني ليتأكد من أنني قادرة على متابعته في الحديث. فأجبته:

- وفق رسائل بيل، فإن لاندوڤسكي قام بقولبة يديها أيضًا بالإضافة إلى يدي مارجريدا.

- بالضبط، وهذا يرجّح أن يكون لاندوڤسكي قد استخدم قالبًا مختلفًا في نحته الأخير، ولعل مارجريدا كانت تعلم بذلك منذ البداية، من يدري؟ وذاك القالب المختلف قد يعود إلى إيزابيلا الشابة بدلًا من تلك الآنسة التي كانت تتدرّب في ورشته في ذلك الوقت.

- يا إلهي. قلت له وأنا آخذ نفسًا عميقًا، وأجد صعوبة في تقييم الاحتمال الذي يقترحه فلوريانو.

- هذا يعني أن يدي الكريستو الممتدتين فوق بكل حب لتحميا العالم قد تكونان في الواقع يدي جدتي الكبرى.

- حسنًا، أشك في أن نكون قادرين على التحقّق من صحة الأمر. المهم أنك الآن أصبحت تعرفين لماذا سررت بقراءة الرسائل. قال فلوريانو.

- تلك الرسائل التي ستسرّ كُثُرًا غيري، إذا وافقت يارا أن تنشريها. لذلك علينا ألّا نيأس وأن نحاول مرارًا إلى أن نعرف ما حدث بالفعل، ليس فقط من أجل اكتشاف ماضيك، ولكن من أجل توثيق التاريخ في البرازيل.

- لا، بالطبع لن نيأس. قلت وأنا أوافق على كلامه.

- لكننا وصلنا إلى طريق مسدود.

- لذلك علينا التوقّف قليلًا لنفكّر في المسار الجديد الذي علينا سلوكه.

- حسنًا، هناك أمر آخر فكّرت فيه سابقًا. قلت له.

- ما هو؟ قال فلوريانو وهو يحثّني على المتابعة.

- تذكر عندما أوضحت لنا يارا أن سينيورا كارفالو مريضة وتحتضر. في البدء اعتقدت أن يارا تستخدم تلك الذريعة للتخلّص منا. لكنّ شكّي هذا سرعان ما زال بعدما رأيت الطاولة بجوارها والتي كانت مغطّاة بالعقاقير والأدوية. ما أحاول قوله الآن هو أن الناس في سويسرا، عندما يصلون إلى نهاية عمرهم وهم يعانون من ألم رهيب، يختار معظمهم الذهاب إلى مأوى. فهل لديكم مثل تلك الأماكن للعجزة هنا في البرازيل؟

- الأثرياء. نعم لديهم أماكن مثل هذه. وفي الواقع هناك واحد يقع خارج ريو تديره الراهبات. ولما كانت عائلة آيريس كابرال هي عائلة كاثوليكية متديّنة، فقد تكونين على حق يا مايا. ثم عاد فلوريانو إلى كمبيوتره المحمول، وإذ بالباب يفتح فجأة وبقوة. ودخلت منه طفلة صغيرة داكنة العينين، ترتدي قميص «هيللو كيتي» مع سروال قصير وردي اللون، لتركض عبر الشرفة وترمي بنفسها بين ذراعيّ فلوريانو.

- پاپاي!

- مرحبًا *minha pequena*، كيف كان يومك؟ سألها وهو يبتسم.

- جيّد جدًا، لكنني اشتقت إليك. نظرت إلى الباب الذي بقي مفتوحًا فوجدت عنده شابة رشيقة تنظر إليّ. رحّبت بي بابتسامة عريضة ثم نظرت مجدّدًا إلى الطفلة وقالت:

- تعالي يا فالنتينا، والدك مشغول وعليك أن تستحمي. بعد المدرسة ذهبنا إلى الشاطئ لأن الطقس دافئ». ولم تكن توجّه كلامها لأحد.

- هل أستطيع البقاء برفقتك لبعض الوقت، پاپاي؟ قالت فالنتينا عابسة بعد أن أعادها والدها إلى الأرض.

- اذهبي واستحمي أولًا وما أن تصبحي جاهزة لدخول الفراش، أحضري كتابك وسأقرأ لك الفصل التالي. ثم قبّلها على شعرها الأسود ودفعها برفق نحو تلك الشابة.

- أراك لاحقًا، *querida*.

عندما أغلقا الباب خلفهما قلت له وأنا أنهض:

- أنا أيضًا عليّ الرحيل، لقد أخذت ما يكفي من وقتك.

- ليس قبل أن نتصل بذلك المأوى الذي أفكّر فيه. قال فلوريانو وهو ما يزال أمام شاشة الكمبيوتر.

- ابنتك جميلة، وهي تشبهك إلى حدٍّ بعيد. كم عمرها؟

- ست سنوات. أجاب وهو ينقر على لوحة المفاتيح.

- حسنًا، ها هو الرقم، على الرغم من أنني أشك في أن يكون لديهم عاملة هاتف في هذه الساعة. مع ذلك، سأحاول.

رحت أراقبه وهو ينقر الرقم على شاشة هاتفه المحمول ثم يضع الجهاز على أذنه. مرت ثوانٍ قليلة قبل أن ينهي المكالمة.

- كما اعتقدت، هناك رقم طوارئ لخارج ساعات الخدمة. يفضّل ألا نصرّ على الاتّصال كي لا نثير الشكوك حولنا. لأن بحث الأقرباء القلقين في المستشفيات عن عزيز لهم فقدوا أثره فجأة أمر شائع. لكن جهل أفراد الأسرة الواحدة لانتقال قريبهم

إلى العيش في مأوى أمر غير وارد ومثير للشكوك. لذلك أقترح بأن نذهب شخصيًا إلى هناك صباح الغد».

- قد يكون طريقًا مسدودًا آخر.

- ربما يكون كذلك، لكن إحساسي يقول إنه السبب المنطقي الوحيد وراء اختفائهما الفجائي. أحسنت يا مايا. قال لي وهو يرسم على شفتيه ابتسامة دافئة.

- قد أجعل منك يومًا باحثة في مادة التاريخ.

- سنتأكد في الغد. أما الآن فسأتركك بسلام. قلت له.

- سأعيدك إلى الفندق. ونهض فلوريانو ليرافقني لكنني رفضت إزعاجه أكثر، فقلت له:

- أستطيع الذهاب مشيًا.

- تمام، هل نلتقي في تمام الثانية عشرة ظهرًا؟ لديّ اجتماع للأهل في المدرسة عند التاسعة والنصف. قالوا لي إن فالنتينا تعاني من عسر في القراءة. أخبرني متحسرًا.

- آسفة لسماع ذلك. لكن اعلم أنّ إحدى أخواتي، إلكترا، تعاني أيضًا من عسر في القراءة. لكنها من أذكى الناس الذين أعرفهم. طمأنته قائلةً:

- ليلة سعيدة، فلوريانو.

28

عندما استيقظت في صباح اليوم التالي، أخرجت الحزمة التي أعطتها لي يارا من الخزنة، وعاودت قراءة الرسائل التي بعثتها بيل إلى لوين من باريس. هذه المرة، وبدل أن أحاول العثور يائسة على أدلة تكشف لي عن تاريخ عائلتي، قرأتها من منظار فلوريانو، أي من منظار مؤرخ، وفهمت سبب الحماسة التي اعترته إثر اطّلاعه عليها. ثم تركت الرسائل جانبًا واستلقيت على السرير أفكر فيه وفي ابنته الجميلة وأمها التي بدت لي في أوائل العشرينيات من عمرها على الأكثر. ولسببٍ ما تفاجأت من ذوق فلوريانو في اختيار تلك الشابة شريكةً له.

ربما شعرت بوخزةٍ صغيرةٍ في قلبي ناتجةٍ على الأرجح عن الغيرة التي شعرت بها لدى ظهور الأم وابنتها في شقته الليلة الماضية. إذ أحيانًا كنت أرى العالم بأثره في حالة حبٍّ، باستثنائي أنا.

استحممت وارتديت ملابسي ونزلت إلى الردهة لأقابل فلوريانو. وهذه المرة لم أجده هناك على غير عادته، فجلست أنتظر إلى أن وصل بعد مرور خمس عشرة دقيقة، وكان منزعجًا على غير طبيعته.

- أعتذر منك يا مايا. طال اجتماعي في المدرسة أكثر مما توقّعت.

- لا مشكلة على الإطلاق. أكدت له وقد أصبحنا داخل سيارة الفيات.

- هل سارت الأمور على ما يرام؟

- وهل يمكن أن تسير على ما يرام عندما تكتشفين أن طفلك الغالي يعاني من مشكلة؟ أجابني وهو يتنهّد بعمق.

- المهم أن التشخيص حصل في مرحلة مبكرة، لذلك آمل أن تحصل فالنتينا على كل الدعم والمساعدة اللذين ستحتاج إليهما. يا لسخرية القدر، فأنا روائي وكاتب وابنتي ستواجه مشكلة في تعاطيها مع الكلمات طوال الحياة، وهذا يحزنني.

- أنا أشعر بألمك. صدّق أنني حقًّا آسفة. قلت له من دون أن أعرف ماذا أضيف.

- هي فتاة بريئة وحياتها لم تكن سهلة منذ البداية.

- حسنًا، لقد رأيتكما كيف تحتضنانها الليلة الماضية، يكفي أن يكون لها أبوان محبّان مثلكما.

- أب محبّ. قال فلوريانو مصحّحًا معلوماتي وأضاف:

- زوجتي متوفية منذ كانت فالنتينا طفلة. دخلت المستشفى لتجري عملية جراحية بسيطة، وبعد يومين عادت إلى المنزل، لكن جرحها سرعان ما أصيب بالتهاب. وبالطبع، عدت بها إلى المستشفى لتلقى المساعدة الطبية فقيل لها إنها بحاجة إلى وقت قبل أن تشفى نهائيًا. وبعد أسبوعين، ماتت أندريا من تسمّم في الدم. هل تفهمين الآن لماذا أتناول الخدمات الصحية البرازيلية بالنقد اللاذع.

- آسفة حقًّا يا فلوريانو. الليلة الماضية اعتقدت...

- أن تلك الفتاة پترا هي والدتها. استفسر فلوريانو بعد أن ليّنت ابتسامته الساخرة ملامحه قليلًا.

- وكيف تفكرين على هذا النحو يا مايا، فهي لم تبلغ حتى العشرين من عمرها. لكنني الآن أشعر بالإطراء لكونك فكرت في أن رجلًا عجوزًا مثلي ما زال قادرًا على جذب امرأة شابة وجميلة مثلها.

- آه، أنا حقًّا آسفة. قلت وأنا أشعر بالخجل.

- پترا طالبة جامعية، تقيم مجانًا في إحدى الغرف في منزلي مقابل الرعاية التي تقدّمها لطفلتي خصوصًا أثناء العطل المدرسية. أعتبر نفسي محظوظًا من هذه الناحية لأن جدَّي فالنتينا يعيشان بالقرب منّا وهي تبقى عندهما معظم الأحيان، خصوصًا عندما أكون غارقًا في الكتابة. حتى أنهما بعد وفاة زوجتي، عرضا

أن تبقى فالنتينا عندهما بشكل دائم لكنني رفضت. قد تتعقّد الأمور أحيانًا لكن سرعان ما تعود المياه إلى مجاريها. كما أن فالنتينا طفلة عاقلة وهذا يسهّل عليّ المهمة كثيرًا.

نظرت إلى فلوريانو مرة أخرى بعينين جديدتين، وفهمت أن ذلك الرجل لن يتوقف عن مفاجأتي، وقد جعلني أفكر كم أن حياتي فارغة مقارنة بحياته المعقّدة.

سألني:

- هل لديك أطفال يا مايا؟

أجبت:

- لا.

- وهل تخطّطين للإنجاب في المستقبل؟

- أشك في ذلك. لا أعرف شخصًا مميّزًا لأرغب في الإنجاب منه.

- وهل سبق لك أن وقعت في الحب؟

- ذات مرة، نعم. لكن العلاقة لم تنجح بيننا.

- أنا واثق من أنك ذات يوم ستلتقين شخصًا ترتبطين به. فمن الصعب أن يبقى المرء وحيدًا في هذا العالم. على الرغم من أن فالنتينا تشغل حيّزًا كبيرًا من حياتي، إلا أنني أعاني من الوحدة في بعض الأحيان.

- لكنك على الأقل تشعر بالأمان. غمغمتُ قبل أن أنجح في كبح لساني.

- الأمان؟ قال وهو يرمقني بنظرة غريبة. يا إلهي! لقد مرّت حياتي بلحظات طويلة من الألم العميق، خصوصًا عندما توفيت زوجتي. لذلك فإن «الأمان» الذي تتحدثين عنه ليس ما أطمح إليه.

- لم أقصد ذلك. قلت له وقد احمرّت وجنتاي من الخجل والإحراج.

- لا، بل هذا ما قصدته بالضبط، وأشعر بالحزن حيال ذلك. فضلًا عن أن اختباءك خلف ظلك ليس بمهرب، لأنك لن تنجحي في الاختباء من نفسك وأنت تنظرين في المرآة كل صباح. وإلا سأعتبرك مقامرة فظيعة.

فجأة ابتسم لي بعد أن استشعر توتّري فرغب في التخفيف عني.

- والآن، ما هي الخطة بعد وصولنا الى الدير؟

- ماذا تقترح؟ سألته وأنا ما أزال متأثّرة من حديثه.

- نبدأ بالاستفسار إنْ تمّ قبولها، وفي ما بعد نقرّر ماذا نفعل.

- تمام.

بقينا صامتين طوال الوقت المتبقي للرحلة، وأنا ما أزال نادمة على ذلك التعليق الذي أدليت به ومتألّمة من رد الفعل الذي قام به فلوريانو. فرحت أنظر عبر النافذة وأتأمل المناظر الطبيعية بعدما خرجنا من المدينة وبدأت الطريق بالارتفاع.

وفي النهاية انعطفنا عند مسار متعرّج مليء بالحصى لنواصل تقدّمنا إلى أن بلغنا مبنى كبيرًا من الحجر الرمادي الداكن. كان ذلك المبنى الذي تم بناؤه قبل مئتي عام، دير ساو سيباستياو شفيع ريو. وتبيّن لي أنه لم يخضع لأي ترميم منذ ذلك الحين.

- هل ندخل؟ سألني فلوريانو وهو يضغط على يدي في حركة مطمئنة.

- نعم. أجبته. وترجّلنا من السيارة ثم توجّهنا إلى المدخل.

حين دخلنا المبنى، وجدنا أنفسنا في رواق شبه مهجور يتردّد فيه الصدى عاليًا. فنظرت إلى فلوريانو بعد أن اعتراني الشك.

- المكان هو دير في الأساس وليس مأوى للعجزة، ويحتمل أن يشتمل أيضًا على جناح مستشفى. آه، انظري إلى هذا.

قال ونحن نتوقف عند جرس من الطراز القديم، مثبت في الحائط بالقرب من الباب.

ضغط فلوريانو عليه فأصدر رنينًا طنانًا تردّد في مختلف أنحاء المبنى. وما هي إلا بضع ثوان حتى أطلّت راهبة من الداخل آتية باتجاهنا.

- كيف أساعدكما؟

- نعتقد أن جدة زوجتي دخلت إلى هنا. قال فلوريانو.

- لم نكن نتوقع أن تأتي بهذه السرعة ونحن قلقون على حالتها الصحية.

- ما اسم المريضة؟

- سينيورا بياتريس كارفالو، وأعتقد أنها جاءت برفقة خادمتها يارا. أجابها فلوريانو.

نظرت إلينا الراهبة وهي تدقّق النظر إلينا ثم أومأت برأسها قائلة:

- نعم هي وخادمتها هنا. لكنها ليست ساعة الزيارات للأقارب، كما أن سينيورا كارفالو طلبت أن ندعها تستريح. لا شك في أنكما تعرفان مدى مرضها.

- بالطبع. قال فلوريانو محافظًا على هدوئه.

- ولا نرغب بأي شكل من الأشكال في إزعاجها، لكن من فضلك اسمحي لنا بالتحدث إلى خادمتها يارا، فقد تكون بحاجة إلى أي شيء يمكننا إحضاره لها من منزلها؟ لقد جئنا لتقديم المساعدة.

- انتظر هنا، سأرى إذا كان بإمكاني العثور على سينيورا كانتيرينو.

ثم استدارت الراهبة وعادت إلى الداخل، فنظرت إلى فلوريانو بإعجاب وقلت له:

- أحسنت.

- انتظري لنرى إذا كانت يارا ستقبل التحدّث إلينا. أقول لك منذ الآن إنني أفضّل مجابهة عصابة من قطاع الطرق المسلحين على مجابهة راهبات يحمين إحدى رعاياهن بينما تقضي أيامها الأخيرة على الأرض.

- على الأقل بتنا نعرف مكانها.

- أجل، هل رأيت يا مايا؟ قال مشجعًا.

- عندما تثقين بإحساسك، لا بد من أن يثبت لك أنك على حق.

بينما كنا ننتظر عودة الراهبة، خرجت إلى الباحة لألتهي قليلًا، وجلست على أحد المقاعد الموضوعة في الناحية التي تشرف على مناظر ريو الجميلة. فبدت

شوارعها المضطربة، من ذلك الموقع، وكأنها حلم بعيد المنال. ومن ثمّ دق جرس الدير معلنًا حلول الظهيرة وداعيًا الراهبات إلى الصلاة، فأشعرني بسلام داخلي ودعاني إلى التفكير بمدى السعادة التي سأشعر بها لو سنحت لي الفرصة بقضاء أيامي الأخيرة في هذا المكان. فالدير هنا معلّق بين الأرض والسماء.

فجأة شعرت بيد تربّت كتفي وتعيدني إلى الواقع. عندما التفتُّ إلى الخلف رأيت فلوريانو برفقة يارا إلى جانبه، وقد بدا الاضطراب واضحًا على وجهها.

قال فلوريانو بنبرة لطيفة:

- سيدتاي، سأترككما وحدكما لبعض الوقت. وخرج يمشي عبر الحدائق.

نهضت وقلت لها:

- مرحبًا يارا، شكرًا لأنك قبلت الخروج لرؤيتي.

- كيف وجدتنا؟ همست يارا كما لو أن سيّدتها قادرة على سماعنا من غرفتها عبر جُدُر الدير السميكة.

- سينيورا كارفالو ستشعر بالحزن الشديد إن عرفت أنك هنا.

- ألن تجلسي؟ قلت لها وأنا أشير إلى المقعد.

- لا أستطيع البقاء إلا لبضع دقائق، فلو اكتشفت سينيورا كارفالو أنني أتحدث معك...

- أعدك بأنني سأدعكما بسلام حالما أقدر. لكن الآن أرجوك، عليك أن تفهمي مدى يأسي بعد قراءتي الرسائل التي أعطيتها لي، من فضلك أن تخبريني بما حصل بعد ذلك؟

حينها رمت بجسمها فوق المقعد وقالت لي وهي تتنهّد:

- أجل، ثم ندمت لاحقًا لأنني أعطيتها لك.

- ولماذا فعلت؟

- لأنني... قالت وهي تهز بكتفيها العريضتين.

- لأنني تبعت إحساسي. شيء ما في داخلي قال لي افعلي ذلك. لكن عليك أن تفهمي أن سينيورا كارفالو لا تعرف إلا شيئًا قليلًا عن ماضي والدتها. فوالدها قد حجبه عنها ليحميها... قالت وهي تمسّد بيديها الرفيعتين تنورتها بحركة عصبية.

- وبعد ذلك؟ سألتها وأنا أصرّ على معرفة ما حصل. إلا أنها هزّت برأسها وقالت لي:

- لا أستطيع التحدث إليك هنا. من فضلك أنت لا تفهمين أن سينيورا كارفالو أتت إلى هنا لترحل بسلام، فهي مريضة جدًّا، ولم يبقَ أمامها إلا أيام قليلة. علينا أن ندعها بسلام.

- أنا أفهم ذلك وأرجوك يا سينيورا أن تفهميني أنت أيضًا. قولي لي إذا كنت على علم بما حدث بعد عودة إيزابيلا بونيفاسيو من باريس؟

- تزوجت من جدك الكبير غوستافو آيريس كابرال.

- أعرف ذلك، لكن ماذا عن لوران بروبي؟ عرفت أنه كان هنا في البرازيل بعد أن رأيت صورة له في ريو بجانب تمثال الكريستو. فأنا...

- اصمتي لو سمحت! قالت يارا. وأحسست على الفور بنظراتها القلقة.

- لا نستطيع التحدث بهذه الأمور هنا.

- إذًا قولي لي أين ومتى؟ وهذه المرة شعرت بصراعها مع نفسها. كانت متمسكة بولائها لسيّدتها، وفي الوقت نفسه كانت ترغب بالفعل في التحدّث عن ذلك الماضي.

- أرجوك يا يارا، وأقسم لك، أنني لست هنا لإثارة أي مشكلة، كل ما أريده هو التعرّف إلى أصلي، وبالتأكيد هذا من حق أي إنسان يعيش على الأرض؟ فإذا كنت تعرفين أي شيء أتوسّل إليك بأن تخبريني. وبعد ذلك أعدك بأن أرحل.

ثم رأيتها تحدّق إلى البعيد باتجاه تمثال الكريستو وقد تلثّم رأسه ويداه بالغيوم.

- حسنًا، لكن ليس هنا. سأعود غدًا إلى المنزل لأحضر الأغراض التي طلبتها سينيورا كارفالو. نتقابل هناك عند الثانية بعد الظهر. والآن من فضلك ارحلي! قالت لي وهي تنهض عن المقعد، فلحقت بها.

- شكرًا.

- قلت لها وهي تمشي بسرعةٍ هربًا مني إلى أن اختفت داخل الدير.

رأيت فلوريانو متكئًا على سيارته فمشيت إليه.

- قولي إنك نجحت.

أجبته وهو يفتح لي الباب:

سنتقابل غدًا بعد الظهر في ذلك المنزل.

- هذه أخبار رائعة يا مايا. قال وهو يشغّل المحرك. وحين اقتربنا من المدينة شعرت برغبة في البكاء.

- هل أنت بخير؟ سألني فلوريانو عندما وصلنا إلى الفندق.

- نعم، شكرًا. أجبته بإيجاز وأنا عاجزة عن الكلام بعد أن أحسست بارتجاف صوتي داخل أذنيّ.

- هل ترغبين في زيارتي في وقت لاحق؟ يبدو أن فالنتينا ستحضّر لي العشاء بنفسها هذا المساء، لذلك أرحب بفكرة انضمامك إلينا.

- لا، لا أريد التطفّل عليكما.

- لا، لن تفعلي. اليوم في الواقع هو عيد ميلادي. أضاف فلوريانو وهو يهزّ بكتفيه.

- في كل الأحوال، قلت لك إنك ستكونين على الرحب والسعة.

- عيد ميلاد سعيد.

أجبته وأنا غير واثقة من ذلك الشعور الذي خالجني فجأة. أكان شعورًا غير مبرر بالذنب لأنه لا يُفترض بي أن أعرف متى عيد ميلاده؟ أم شعورًا بالحزن لكونه لم يخبرني من قبل.

- شكرًا لك. حسنًا، إذا قرّرت ألّا تنضمي إلينا في المساء، هل أمرّ بك غدًا لأرافقك إلى ذلك المنزل؟

- فلوريانو، لقد قمت بما يكفي حتى الآن. وأنا أشعر بالامتنان لك ولا أريد أن أزعجك أكثر. أستطيع الذهاب في سيارة أجرة.

- مايا من فضلك، سيكون ذلك من دواعي سروري. طمأنني قائلًا:

- أستطيع أن أرى أنك مستاءة، هل ترغبين في التحدث؟

- لا، أحتاج إلى قضاء ليلة هانئة فحسب، وأنا واثقة من أنني سأكون غدًا أفضل بكثير. ثم فتحت باب السيارة لأترجّل منها، وأحسست فجأة بيده تمسك بمعصمي.

- تذكّري أنك ما زلت في فترة حداد، فلم يمر إلا أسبوعان على وفاة والدك. ولا بدّ لرحلة البحث عن ماضيك من أن تتسبّب لك ببعض القلق والتحسّس. لذلك خفّفي عن نفسك يا مايا. قال فلوريانو بهدوء.

- وإذا شعرت بأنك تحتاجين إلى التحدّث، تعرفين أين تجدينني.

- شكرًا لك. أجبته وأنا أخرج من السيارة وأسير بسرعة البرق عبر بهو الفندق لأركب المصعد فيأخذني إلى الطابق الذي يقع فيه جناحي. وعندما أصبحت داخل غرفتي استسلمت للبكاء، على الرغم من أنني لم أكن أعرف لماذا أبكي.

غططتُ في نوم عميق، واستيقظت لاحقًا وأنا أشعر براحةٍ كبيرة. كانت الساعة قد تخطّت الرابعة، فقررت النزول إلى الشاطئ لأغوص داخل أمواج المحيط الأطلسي. وفي طريق العودة إلى الفندق، فكّرت بفلوريانو وبعيد ميلاده. لقد كان لطيفًا جدًّا معي لذلك أفضّل أن أشتري زجاجة من النبيذ على الأقل، وأنضمّ إليه على العشاء.

وأنا أستحم، رحت أتخايل فالنتينا ابنة فلوريانو البالغة من العمر ست سنوات، وهي تحضّر العشاء بمناسبة عيد ميلاد والدها. فحرّكت صورتها مشاعري ولم

أستطع تحمّلها. ثم رحت أفكر كيف أن فلوريانو اختار تربية ابنته بمفرده ولم يترك تلك المهمة لجدّيْها.

كنت أعرف تمامًا أنّ مشهد الأب مع ابنته والحب المتبادل بينهما كان وراء زعزعة استقراري، ناهيك عن تعليقات فلوريانو الذكية بينما كنا في طريقنا إلى الدير.

لذلك قلت في نفسي وأنا أقسو قليلًا عليها: مايا، حان الوقت لتكفي عن التباهي بنفسك، بعدما أدركت أنّ كل ما حدث لي، أو كان يحدث حينها، كان يشعرني وكأن أحدًا ينزع القشور الواقية عني، الواحدة تلو الأخرى، ليكشف عن ضعفي المخبأ في أعماقي. وقد حان الوقت لأبدأ التعامل معه.

ارتديت ملابسي ورحت أستمع إلى الرسائل الصوتية التي وصلتني، لأول مرة منذ ثلاثة أيام. حينها فهمت أن تيجي وآلي قد عرفتا من ماي برحيلي المفاجئ، لذلك تركتا لي رسالة صوتية كي أعاود الاتصال بهما لأخبرهما عن المكان الذي أكون فيه. فقررت أن أقوم بذلك إثر مقابلتي يارا في الغد، لأتمكّن حينها من إخبارهما عن مكاني المحدّد وعن سبب وجودي فيه.

أرسلت إليهما رسالة نصية قصيرة أعلمتهما فيها بأنّني بخير وبأنّني سأرسل إليهما بريدًا إلكترونيًّا أكشف فيه عن كل أخباري. وكما قرّرت جديًّا أثناء وجودي على الشاطئ، غادرت الفندق ورحت أغوص في شوارع إيبانيما إلى أن وجدت سوبر ماركت واشتريت منه زجاجتي نبيذ أحمر من أفضل الأنواع، وبعض الشوكولا لفالنتينا. ومن ثمّ عبرت ميدانها الصاخب حيث الأسواق الليلية التي تجذب السكان المحليين، ومنه شققت طريقي إلى منزل فلوريانو.

حين صعدت الدرجات القليلة عند المدخل، انتبهت إلى وجود خمسة أجراس. فضغطت على أول واحد لكنني لم ألقَ جوابًا. ضغطت على الثاني وعلى الثالث، ثم ضغطت على آخر جرس، وككل مرة لم ألقَ إلا الصمت. وأنا على وشك المغادرة لأعود إلى الفندق سمعت فلوريانو يصرخ لي من فوق.

- مايا، اضغطي على أعلى جرس لأفتح الباب لك. فأجبته وأنا أصرخ من جهتي «حسنًا». وبعد بضع ثوان كنت أقف عند باب شقته المفتوح.

ما إن دخلت، حتى سمعته يقول بصوتٍ عالٍ:

- نحن في المطبخ، اصعدي إلى الشرفة وسألحق بك». فنفّذت التعليمات وأنا أحسّ برائحة الطعام المحترق تفوح في الطابق السفلي. وقفت على الشرفة أتأمّل غروب الشمس خلف التلال حيث الفاڤيلا. أخيرًا ظهر فلوريانو أمامي وهو يتصبّب عرقًا.

- آسف على ما يحصل، لكن فالنتينا مصرّة على ألّا يساعدها أحد في تسخين، الباستا التي حضرتها خلال اليوم مع بترا لتقدّمها لي على العشاء. وللأسف سخّنتها على نار قوية، فاحترق ما يُفترَض أن يكون طبقي الرئيسي على العشاء هذا المساء. لا تزال في المطبخ وتريد أن تعرف إذا كنت ترغبين في العشاء معنا. أنصحك بأن تفكري مرتين قبل القبول. قال لي بصراحة.

- إذا كانت الباستا تكفي للجميع، فسأقبل بكل سرور.

- آه بالطبع، هناك ما يكفي للجميع. قال لي وقد انتبه إلى زجاجتي النبيذ والشوكولا التي أحضرتها.

- وهذه لأتمنّى لك عيد ميلاد سعيدًا. قلت له.

- وفي الوقت نفسه لأشكرك على كل المساعدة التي قدّمتها لي.

- هذا لطف منك يا مايا، وأنا أقدّر ذلك. سأذهب لأحضر كأسًا أخرى وأتفقّد الطبّاخة في الطابق السفلي، وعليّ أن أعلمها بانضمام ضيفتنا إلى العشاء. ارتاحي من فضلك.

أشار إلى الطاولة ثم غادر الشرفة، فوجدتها مفروشة بغطاء دانتيل أبيض وعليه صحنان. كما رأيت في وسطها بطاقة معايدة كبيرة رُسِم عليها رجل له ذراعان وساقان من الخشب وقد كُتِب عليها «عيد ميلاد سعيد يا أبي!».

عاد فلوريانو وهو يحمل صينية عليها كأس نبيذ وصحن مع لوازمه لي، وطبقان فيهما الباستا. «أمرتنا فالنتينا أن نبدأ بالأكل». قال وهو يضع ما احتوت

عليه الصينية على الطاولة ثم يمسك بزجاجة النبيذ التي أحضرتها معي ليفتحها. فقلت له وهو يقرّب كرسيًّا من المائدة ويجلس في مكانه:

- شكرًا لك، آمل ألا أكون قد أزعجتكما. وألا تنزعج فالنتينا من تطفّلي واختراقي لعشائها الخاص مع والدها.

- على العكس تمامًا، لقد شعرت ببهجةٍ كبيرة. رغم أنني أنبهك منذ الآن إلى أنها لن تكف عن مناداتك بصديقتي. لذلك أرجوك أن تتجاهلي الأمر لأنها تحاول، من دون كلل، أن تجد رفيقة لوالدها العجوز المسكين! في صحتك! قال وهو يرفع كأسه ليشرب نخبي.

- في صحتك أنت وعيد ميلاد سعيد. قلت له وأنا أرفع بدوري الكأس وأشرب نخبه.

ثم أطلت فالنتينا من خلف الباب تمسك بصحن آخر فاقتربت بخجل لتضعه أمامي على الطاولة.

- مرحبًا، قال لي باپاي إنّ اسمك مايا؛ يا له من اسم جميل! وأنت أيضًا جميلة أليس كذلك يا باپاي. قالت وهي تلتفت إلى والدها وتحشر نفسها لتجلس بيننا.

- صحيح، مايا جميلة جدًّا. أجابها فلوريانو بجرأة.

- كما أن هذا العشاء يبدو لذيذًا جدًّا. شكرًا لك يا *querida*.

- باپاي، كلانا يعرف أنه احترق لذلك فإن مذاقه سيكون فظيعًا، ولن أمانع إذا فضّلت رميه وتناولت الشوكولا بدلًا منه. أجابت فالنتينا بفطنةٍ وهي تنظر إلى الهدية التي أحضرتها.

- لست طباخة ماهرة. قالت وهي تهزّ بكتفيها وتنظر بعينيها الداكنتين إليّ.

- هل أنت متزوّجة؟ سألتني ونحن نرفع الشوك عن المائدة لنبدأ بالأكل.

- لا، لست كذلك يا فالنتينا. وأحسست بها تشدّ على نفسها لتخفي فرحتها عند سماعها إجابتي الصريحة.

- وهل لديك صديق؟

- لا، ليس في الوقت الحاضر.

- إذًا هناك احتمال في أن يصبح پاپاي صديقك؟ قالت وهي تدخل الشوكة في فمها وتمضغ الطعام لبضع ثوان ثم تبصقه في الصحن بدون تكلّف.

- فالنتينا! هذا مقرف! وبّخها فلوريانو بنبرة قاسية.

- تمامًا مثل هذا. أجابته وهي تشير إلى وعائها.

- حقًّا فأنا أحببته، ولطالما أحببت حفلات الشواء. قلت لها وأنا أغمزها.

- أنا آسفة حقًّا، لا تجبرا نفسيكما على تناوله. في أي حال هناك شيء لذيذ للتحلية. لماذا أنت هنا يا مايا؟ سألتني وهي تغيّر الموضوع من دون كلل.

- هل تساعدين پاپاي في العمل؟

- نعم، لقد ترجمت كتابًا لوالدك إلى الفرنسية.

- لكنك لا تبدين فرنسية، اعتقدت أنك برازيلية. أليست كذلك يا پاپاي؟

- نعم، أنت محقّة تمامًا.

- وهل تعيشين في باريس؟ سألت فالنتينا.

- لا، بل في سويسرا، على ضفاف بحيرةٍ كبيرةٍ جدًّا.

وضعت فالنتينا راحة يديها تحت ذقنها وسألتني:

- لم أخرج يومًا من البرازيل، فهل تصفين لي المكان حيث تعيشين؟

بذلت قُصارى جهدي لأصف لها سويسرا. وعندما ذكرت الثلوج التي تتساقط بكثرةٍ في الشتاء رأيت نورًا يشع في عينيها.

- لم أرَ الثلوج في حياتي إلا في الصور. ربما أقوم بزيارتك ذات يوم ونصنع معًا ملائكة الثلج التي صنعتها في صغرك مع أخواتك.

- فالنتينا، من الوقاحة أن نفرض أنفسنا على الآخرين. والآن أعتقد أن الوقت قد حان لنرمي هذه الأطباق. قال فلوريانو وهو يشير إلى الأوعية شبه الفارغة.

- حسنًا پاپاي، سأفعل ذلك بنفسي وعلى الفور، أما أنت فابقَ هنا لتحادث صديقتك.

غمزتنا بابتسامة ثم جمعت الأطباق فوق الصينية وحملتها وهبطت السلالم بسرعة وبطريقة غير منضبطة.

حينها قال فلوريانو:

- أعتذر منك يا مايا. ثم نهض عن الطاولة وعاد يتكئ مجدّدًا على الشرفة ليشعل سيجارته.

- أشعر أحيانًا أنها أكثر نضجًا ممّن هم في سنها، ربما لأنها وحيدة.

- لا داعيَ للاعتذار يا فلوريانو، لأن أسئلتها ذكية ونابعة من اهتمامها الزائد بالعالم الذي يحيط بها. فضلًا عن ذلك، أعرف من تجربتي الخاصة أن النضج المبكر لا يطال الأبناء الوحيدين فحسب. فأنا لديّ ست أخوات والأصغر بيننا كانت واعية مثلها. لذلك أجد ابنتك مسلّية.

- أخاف دائمًا من أن أفسدها كوني أعطيها اهتمامًا كبيرًا لأعوّضها عن حرمانها من أمها. قال فلوريانو وهو يتنهّد.

- إلا أنني أجد، وبغض النظر عما تقوله الثقافات الحديثة بهذا الخصوص، أن الرجال ببساطة لا يملكون غريزة الأمومة لأنني بذلت قصارى جهدي في اكتسابها.

- برأيي ما دام الطفل يشعر بأنه محبوب، لن يهم كثيرًا إذا كان المربّي ذكرًا أم أنثى، الوالد الطبيعي أم الوالد بالتبني. وأنت تعرف عمّا أتحدث، أليس كذلك؟ قلت له وأنا أهز بكتفيّ.

- نعم، أظن ذلك. لا شك في أن نشأتك لم تكن عادية يا مايا. كان ذلك واضحًا في كل ما قلته الآن عن فالنتينا. كما أنني لا أشك في أنك واجهت التعقيدات بقدر ما كانت لديك امتيازات.

- حسنًا ما تقوله جائز. قلت وأنا أبتسم بحزن.

- ذات يوم، أريد أن أتعرّف أكثر إليك، وأعرف مزيدًا عن أبيك، إذ بدا لي من حديثك أنه كان رجلًا مثيرًا للاهتمام.

- أجل هذا ما كان عليه.

- والآن أخبريني، تبدين أكثر هدوءًا مما كنت عليه في الصباح.

- نعم أهدأ بكثير، وأرى أنك كنت محقًّا في ما قلته عن أنني ما أزال تحت تأثير الصدمة بعد خسارة أكثر شخص أحببته في هذا الكون. لكن وجودي هنا يسهل عليّ الأمر قليلًا.

- أُتيح لي تخيّل پا وكأنه ما يزال موجودًا في البيت. ولأكون صادقة معك مجرّد التفكير في أنه لم يعد هناك يشعرني بالمرض.

- في هذه الحال، أنصحك بأن تطيلي إقامتك. قال وهو يشجّعني على البقاء.

- حسنًا، سأقرّر ذلك بعد أن ألتقي غدًا يارا. أجبته لأهرب من إصراره.

- لكن إن لم يوصلني ذلك اللقاء إلى أي مكان، اتخذت قرارًا بألّا أقاتل من أجل اكتشاف هذه الحقيقة. ففي النهاية رغبة سينيورا كارفالو بعدم الاعتراف بي حفيدة واضح تمامًا.

- أتفهّم لمَ تنظرين إلى الموضوع من تلك الزاوية. لكنك ما تزالين لا تعرفين ماذا حدث في الماضي لتفهمي رد فعلها هذا، أو كيف كانت طفولتها مثلًا.

- مايا. نادتني فالنتينا من خلف الباب.

- هل أستطيع طلب مساعدتك؟ سألتني بصوتٍ عالٍ.

- بالطبع. قلت لها وأنا أنهض عن المائدة وأتبعها عبر السلالم إلى المطبخ. وسط فوضى القدور المحروقة، رأيت قالب الحلوى وقد غُرزت فيه الشموع. فأمسكت به فالنتينا بحذر.

- هل يمكن لك أن تشعليها؟ فپاپاي لا يسمح لي باستخدام أعواد الكبريت. أضفت إليه اثنتين وعشرين شمعة لأنني لا أعرف كم سنه.

ابتسمت لها وقلت:

- أعتقد أن الاثنتين وعشرين ستكفي، دعينا نشعلها فوق في أعلى السلم حتى لا تنطفئ على الطريق.

عندما وصلنا إلى باب الشرفة في أعلى السلم، قرفصنا أنا وفالنتينا لنشعل الشموع، فأحسست بعينيها تحدقان إليّ وأدركت كم أنها تتمتّع ببصيرة والدها نفسها.

وأنا أشعل آخر شمعة قالت لي:

- شكرًا يا مايا. ثم ابتسمت لتضيف وهي تعبر الباب وفي يدها قالب الحلوى:

- أنا مسرورة لأنك هنا.

- وأنا أيضًا. أجبتها بعد أن أدركت شعوري بالسرور.

بعد نصف ساعة، غادرت شقة فلوريانو بعد أن بدأت فالنتينا تتثاءب، وأنا أعرف أنها تنتظر والدها ليقرأ لها قصة.

- حسنًا، هل أمرّ غدًا لاصطحابك أم تفضّلين الذهاب وحدك إلى ذلك المنزل؟ سألني وهو يفتح باب شقته.

فأجبته بصراحة:

- أودّ حقًّا أن تأتي معي لأني سأكون بحاجةٍ إلى بعض الدعم.

- إذًا أراك غدًا عند الواحدة. وطبع قبلة على خدّيّ ليودّعني.

- تصبحين على خير.

29

نمت نومًا عميقًا في تلك الليلة بعدما تآلفت ذهنيًا وبدنيًا مع التوقيت المحلي. وفي صباح اليوم التالي، استيقظت عند التاسعة ونزلت إلى الشاطئ لأسبح قليلًا بعد أن تعوّدت ذلك كل يوم منذ وصولي إلى هنا. ثم عدت إلى جناحي لأقرأ مجددًا الرسائل وأدوّن الملاحظات والأسئلة التي سأطرحها على يارا. صعدت إلى الشرفة على سطح الفندق، وشربت كأسًا من النبيذ على الغداء لعلني أهدّئ أعصابي. وهناك رحت أفكر في احتمال أن ترفض يارا الإفصاح عما جرى لاحقًا، أو أن تكون جاهلة كيف انتهى بي المطاف عند پا سول، فحينها لن أجد مكانًا آخر أذهب إليه.

- هل لديك أمل؟ سألني فلوريانو عندما ركبت سيارة الفيات.

- نعم، أو على الأقل أحاول التمسك به.

- أحسنت، عليك أن تصدقي أن يارا قادرة على مساعدتك إلى أن تثبت لك العكس.

- المشكلة أنني أدركت فجأة إلى أي مدى أنا مهتمة بالأمر.

- أعرف ذلك وأستطيع لمسه.

عندما وصلنا إلى ذلك المنزل، ارتحت عندما رأيت أن القفل قد أُزيل على الرغم من أن البوابات كانت ما تزال مغلقة.

- لغاية الآن الأمور جيدة. قال فلوريانو.

سأنتظرك هنا إلى أن تنتهي».

- هل أنت متأكّد؟ لا أمانع مرافقتك لي إن كنت ترغب في ذلك.

- متأكد تمامًا. برأيي من الأفضل أن يتم ذلك من امرأة لامرأة. بالتوفيق. قال وهو يضغط على يدي عندما ترجّلت من السيارة.

- شكرًا لك.

أخذت نفسًا عميقًا وعبرت الطريق لأقف قبالة البوابة العالية. دفعت أحد المصراعين وسط صرير هائل يعكس إهمالًا كبيرًا للمكان. وبعد أن عبرتها، التفت إلى فلوريانو فوجدته يحدق إليّ من داخل سيارته. استدرت بسرعة وأكملت طريقي وصعدت السلم الى الباب الأمامي.

لم تتأخر يارا في فتح الباب ففهمت أنها كانت بانتظاري. أشارت إليّ بالدخول، وأغلقت الباب خلفنا.

- ليس لديّ وقت طويل. قالت بتوتّر وهي تقودني إلى أسفل الممر المظلم، ومن ثمّ إلى الغرفة التي قابلنا فيها أنا وفلوريانو سينيورا كارفالو.

هذه المرّة كانت النوافذ مغلقة على مصراعيها بإحكام، وعلى الرغم من ذلك رأيت مصباحًا يلقي بظلاله الخافتة داخل الغرفة.

قالت لي:

- تفضّلي بالجلوس.

- شكرًا لك. أجبتها وأنا أجلس، ثم نظرت إليها فوجدتها تجلس متوتّرة قبالتي على الكرسي. قلت لها:

- أنا حقًا آسفة إذا كان ظهوري المفاجئ قد تسبّب لك ولسينيورا كارفالو ببعض القلق، لكنني واثقة من أنك أعطيتني تلك الرسائل لسبب وجيه، وكنت مدركة أنني سأرغب في معرفة مزيدٍ بعد قراءتها.

- أجل، أجل... أجابت يارا وهي تفرك جبينها.

- سينيوريتا عليك أن تفهمي أن جدّتك تحتضر. وأنا أجهل المصير الذي سألقاه بعد رحيلها، وإذا كانت ستترك لي شيئًا لأعيش منه.

وعلى الفور خطر في بالي أنها تريد أن تشاركني المعلومات مقابل المال. لكن إذا كانت تلك نيتها بالفعل، فكيف أثق بأن المعلومات التي ستزوّدني بها صحيحة. إلا أن يارا فور انتباهها إلى عبوس وجهي سارعت إلى طمأنتي.

- أرجوك، لا تفكري في أنني سأطلب منك المال. ما أقصده هو أن سينيورا كارفالو قد تقرّر أن تحرمني من المال الذي فكّرت في تركه لي بعد وفاتها، إذا اكتشفت أنني أتحدث إليكما الآن.

- لكن لماذا؟ ما الذي لا تريدني أن أعرفه؟

- سينيوريتا مايا، الأمر يتعلق بوالدتك كريستينا. لقد غادرت هذا المنزل منذ أكثر من أربعة وثلاثين عامًا. لا أرغب في أن تحزن سينيورا كارفالو في أيامها الأخيرة بسبب ذلك، هل تفهمين الآن؟

- لا، ليس تمامًا. أجبتها وأنا أشعر بوخزٍ في كل ناحية من جسمي إثر لفظها لاسم أمي...

- ومن ثمّ لمَ أعطيتني تلك الرسائل التي كتبتها جدتي الكبرى قبل ثمانين عامًا، ما يعني أن هناك ثلاثة أجيال قد وُلِدت قبلي!

- لكي تفهمي ما حدث لك، عليك أن تعرفي ماذا حدث في البدء. شرحت يارا.

- على الرغم من أنني غير قادرة على تكرار إلا ما أخبرتني به أمي لوين، لأنني أنا أيضًا كنت مولودة جديدة عندما أنجبت سينيورا إيزابيلا سينيورا كارفالو.

- أرجوك، أتوسّل إليك يا يارا، أخبريني بكل ما تعرفينه. قلت لها وأنا أحثها على التحدث قبل أن تخونها الشجاعة، فكل ثانية كانت تمر وأنا معها كانت ثمينة بالنسبة إليّ.

- أقسم لك أنني لن أضحي بك وأخبر سينيورا كارفالو بأنك تحدّثت إليّ.

- ولا حتى إذا عرفت أنك الوريثة الوحيدة لهذا المنزل؟ قالت يارا وهي تحدّق اليّ.

- أؤكد لك أن الرجل الذي تبنّاني ثري جدًّا، لذلك أنا لا أبحث عن أي شيء مادي، أرجوك يا يارا. فحدّقت إلى وجهي لبضع ثوان، ثم تنهدت مستسلمة.

- الرسائل التي قرأتها والتي بُعثت في الأساس إلى أمي تنتهي بعودة سينيورا إيزابيلا إلى ريو، صح؟

- صحيح، فآخر رسالة معي، أُرسلت بعد أن رست الباخرة في إفريقيا وهي في طريق عودتها إلى البرازيل، لذلك فهمت أن بيل عادت في النهاية إلى ريو، كما أنني رأيت صور زفافها على غوستافو آيريس كابرال المحفوظة في الأرشيف.

- حسنًا، إذًا سأخبرك بما حدث مع إيزابيلا في الشهور الثماني عشرة التي تلت، بحسب ما روته لي أمي.

إيزابيلا

ريو دي جنيرو

تشرين الأول 1928

30

- إيزابيلا، يا ابنتي الحبيبة، أخيرًا عدت إلينا سالمة.

بكى أنطونيو عندما أطلت بيل من على سلّم السفينة لترمي بنفسها في أحضانه. ثم قبض عليها بكفّيه الضخمين ومال إلى الخلف ليحدّق إليها جيدًا.

- ما هذا، لمَ أصبحت هكذا؟ تبدين مثل العصفور الصغير. ألم تتغذّي هناك؟ ولمَ أراك شاحبة يا أميرتي؟ أفترض أنه طقس شمال أوروبا. أنت بحاجة إلى شمس بلادنا الحارقة لتعيد الألوان إلى خديك. تعالي معي، رأيتهم يحمّلون أمتعتك في السيارة، فهي مركونة على مسافة قريبة من الرصيف.

- أين ماي؟ سألته بيل وهي تسير بجانبه. وكانت السماء رمادية قاتمة على غير عادتها في شهر تشرين الأول. فتمنّت لو كانت على الأقل أكثر إشراقًا لتحسّن قليلًا من مزاجها.

- أمّك ترتاح في المنزل. أجاب أنطونيو.

- لم تكن في الآونة الأخيرة على ما يرام.

- ولِمَ لمْ تخبراني في رسائلكما. قالت بيل عابسة بعد أن اعتراها القلق.

- أنا متأكد من أن رجوعك سيسرّع في شفائها. وفجأة توقف والدها عند سيارة فضية فخمة، ففتح السائق باب المقعد الخلفي.

- ما رأيك بهذه؟ سألها أنطونيو وهو يجلس على مقعدها الرمادي المصنوع من جلد العجل الناعم. لقد شحنتها من أميركا وتُدعى رولز رويس من طراز «فانتوم»

أعتقد أنها الوحيدة في ريو. سأشعر بفخرٍ كبيرٍ عندما سأركبها مع أميرتي وأنا أرافقها إلى الكاتدرائية يوم زفافها.

- يا لروعتها، هي بالفعل سيارة جميلة. قالت بيل وهي لا تزال تفكر بوالدتها.

- اسلك طريق الشاطئ لننعش ذاكرة ابنتي بالمناظر الجميلة التي فاتتها كل هذا الوقت. قال أنطونيو للسائق.

- هناك أشياء كثيرة لنتحدث بها، ولا أعرف من أين نبدأ. المهم أن تعلمي بأنّ أعمالنا تسير على خير ما يُرام. فسعر البن يرتفع يومًا بعد يوم بفضل الطلب المتزايد عليه في أميركا، وهذا ما دفعني إلى امتلاك مزرعتين إضافيتين. بالإضافة إلى أن إسمي طُرِح كمرشّحٍ لمجلس الشيوخ. قال متفاخرًا.

- موريسيو والد غوستافو هو الذي رشّحني. لقد انتهوا لتوّهم من تشييد مبنى رائع في شارع مونكورفو فيلهو وزيّنوا أرضياته والكورنيش بحبوب البن. انظري إلى ما باتت تمثّله حبوب البن هنا في البرازيل.

- أنا سعيدة من أجلك يا پاي. قالت له بيل أثناء عبورهم الشوارع التي ألفتها.

- هل تعلمين أنني لا أشك للحظة في أن حفل زفافك سيكون الأفخم في ريو على الإطلاق. وقد تحدثت مع غوستافو وموريسيو عن ضرورة ترميم منزل العائلة، مادمت ستعيشين هناك بعد زواجك. فأنت تعرفين أنه على الرغم من جماله إلا أنه قديم وتصميمه الداخلي بما فيه الأثاث بحاجة إلى تحديث. وقد اتّفقت معهما على أن يكون الترميم جزءًا من «الدوطة»، لذلك باشرنا على الفور بالأعمال الترميمية. وعندما يصبح جاهزًا ستعيشين يا أميرتي في قصر.

- شكرًا يا پاي. أجابت بيل والدها بابتسامة عريضة لعلها أرادت إقناعه أو ربما إقناع نفسها بأنها ممتنة على كل ما يفعله من أجلها.

- اتّفقنا على إقامة حفل الزفاف في بداية العام الجديد، أي قبل انطلاق الكرنفال. لذلك عليك أنت ومنزلك الجديد أن تكونا جاهزين في غضون ثلاثة أشهر. وهذا يعني أنك ستكونين مشغولة جدًّا يا *querida* في المرحلة القادمة.

كانت بيل تتوقع أن يقودها والدها إلى المذبح فور عودتها إلى ريو. لذلك حين مرت سيارتهم أمام فندق كوباكابانا بالاس، فكرت، وهي تحدّق إلى البحر الرمادي الهادر، الذي يتحطّم على شكل رغوة بيضاء فوق الرمال، بالإرجاء البسيط الذي حظيت به.

- عندما سترتاحين من الرحلة، سنقيم مأدبة عشاء لتخبري أصدقاءك عن كل الروائع والثقافة التي اكتشفتها في ذلك العالم القديم.

- لقد عشقت باريس يا پاي عشقًا كبيرًا. قالت بيل لوالدها.

- فهي مدينة رائعة الجمال. أما بروفيسور لاندوڤسكي الذي يصنع الغلاف الخارجي لتمثال سينيور دا سيلڤا كوستا، فلديه مساعد نحت تمثالًا لي.

- حسنًا، إذا كان التمثال متقنًا، عليّ أن أتّصل به لأشتريه وأحضره إلى البرازيل. علّق أنطونيو.

- أشك في أن يكون التمثال للبيع. قالت بيل.

- *querida*، أي شيءٍ يصبح للبيع إذا دُفع فيه السعر المناسب. أجابها أنطونيو وهو واثق مما يقوله.

- اقتربنا من المنزل، ولا بد من أن أمك قد خرجت من سريرها لتسلّم عليك.

الصدمة التي تلقّاها أنطونيو لدى رؤيته بيل نحيفةً وشاحبة، لم تكن شيئًا مقارنةً بالصدمة التي تلقتها بيل لدى رؤيتها والدتها. إذ أن كارلا لطالما كانت رشيقة، لكن بدا لبيل وكأنها خسرت نصف وزنها خلال الثمانية أشهر ونصف الشهر التي غابت فيها بيل عن المنزل.

ماي! صاحت بيل وهي تحتضن أمها وتعانقها بشدة.

- ماذا فعلت بنفسك؟ لا تقولي لي أنك تتبعين حمية!

بذلت كارلا قُصارى جهدها لتبتسم لابنتها، ما جعل بيل تلاحظ ضخامة عينيها البنيتين نسبة إلى وجهها الهزيل.

- أرغب في أن أبدو على الموضة في زفاف ابنتي. مازحتها كارلا.

- ألا تعتقدين أن فقدان الوزن يناسبني؟

نظرت بيل إلى كارلا، وقد تعوّدت على ثدييها الكبيرين اللذين لطالما استندت إليهما وهي طفلة، وأدركت كم أن أمها قد تقدّمت في السن وهي بهذا المظهر. فكذبت عليها:

- نعم ماي، أعتقد ذلك بالفعل.

- ممتاز، والآن. قالت وهي تلف ذراعها حول ذراع ابنتها وتسيران إلى الداخل.

- لديّ أشياء كثيرة لأخبرك بها، لكنّني متأكّدة من أنك بحاجة أولًا إلى بعض الراحة.

الأيام التي أمضتها بيل على متن تلك الباخرة لم تقدّم لها سوى الراحة، لذلك لم تشعر بيل للحظة بأنها متعبة. لكن عندما رأت أمها تتقدم بصعوبة في مشيها، فهمت أنها هي من كانت بحاجة إلى الراحة وليس بيل، إلا أنها اتخذتها ذريعةً لتخفي عنها تعبها.

- بالطبع، يمكننا أن نأخذ قيلولة أولًا وسنتحدث لاحقًا. قالت بيل لأمها، ثم رأت على وجهها ذلك الوميض الذي عكس شعورها بالارتياح. وعندما وصلتا إلى باب الغرفة، لم تقدر بيل إلا أن تقول لأمها:

- أنت من تبدين مرهقة يا ماي، هل أساعدك في العودة إلى السرير؟

- لا، شكرًا. أجابتها كارلا.

- غابرييلا في الداخل وستهتمّ بي، أراك لاحقًا. ثم أومأت برأسها وهي تفتح باب الغرفة وأغلقته خلفها.

وعلى الفور بحثت بيل عن والدها فوجدته في المكتب.

- باي، من فضلك قل لي الآن ما مدى مرض ماي؟

رفع أنطونيو نظره عن أوراقه وأنزل النظّارة إلى أنفه، وكانت تلك أول مرة تراه بيل فيها.

- *querida*، والدتك لم ترغب في أن تتسبّب لك بالقلق، إذ حينها كنت بعيدة عنّا، لكن قبل شهر خضعت لعملية جراحية لإزالة ورم من صدرها. العملية تكلّلت

بالنجاح والجراحون متفائلون بشأن تعافيها. ما رأيته هو أثر العملية فحسب، وسيزول بمجرّد أن تتعافى تمامًا.

- پاي، تبدو ضعيفة جدًا! من فضلك أخبرني بالحقيقة، ولا تخفي عنّي مدى مرضها.

- أقسم لك يا إيزابيلا أنني لا أخفي شيئًا. تستطيعين أن تسألي أطباءها إذا كنت لا تصدّقينني. كل ما تحتاج إليه الآن هو الراحة والغذاء لتتعافى من الجراحة.

- وهل أنت متأكد من أنها ستتعافى؟

- أنا متأكد تمامًا.

- الآن وقد عدت، سأعتني بها بنفسي.

اعتناء بيل برفاهية أمها ساعدها بشكل كبير في الأيام التي تلت، وانشغالها بأمها ساعدها في إبعاد تركيزها على بؤسها. إذ راحت تشرف بنفسها على الطعام الذي يُحضّر لها، مؤكّدةً على الطاقم في المطبخ اختيار الأطباق المغذّية التي يسهل بلعها وهضمها. كما راحت تجلس معها كل صباح لتخبرها عمّا رأته في ذلك العالم القديم، وعن لاندوڤسكي ومدرسة الفنون الجميلة، وعن مشروع كريستو الرائع الذي يعدّه سينيور دا سيلڤا كوستا.

- لقد بدأوا بحفر الأساسات على القمة في جبل كوركوڤادو. أخبرتها كارلا.

- أود يومًا أن أصعد إلى فوق لأرى ما ينجزونه.

- وستسرّني مرافقتك. قالت بيل متمنية أن تتحسّن صحة أمّها لتتمكّنا من تحقيق ذلك.

- علينا بالطبع أن نتحدّث عن خطة زفافك. قالت كارلا بعد أن شعرت بالتحسّن ورغبت في الخروج إلى الشرفة التابعة لغرفة نومها للجلوس في الهواء الطلق على كرسيٍّ موضوع هناك.

- هناك أمور كثيرة لنناقشها.

- كل شيء في وقته يا ماي، سنفعل ذلك ما إن تستعيدي عافيتك. أصرّت بيل.

بعد ثلاث ليالٍ من عودة بيل إلى ريو، كان الثلاثة يتناولون العشاء معًا عندما أبلغهما أنطونيو أنه تلقى مكالمة من غوستافو.

- يريد أن يعرف متى يستطيع لقاءك.

- لنرجئ ذلك إلى أن تشعر ماي بتحسن. اقترحت بيل.

- إيزابيلا، لقد طال غيابك عنه طوال تسعة أشهر، لذلك اقترحت عليه أن يتصل بك بعد ظهر الغد. يمكن لغابرييلا أن تجالس والدتك أثناء زيارته. لا أريده أن يعتقد أنك لا ترغبين في لقائه.

- حسنًا، باي. وافقت بيل من دون اعتراض.

- كما أنني واثق من أنك، أنت أيضًا، متلهّفة لرؤيته؟

- بالطبع.

بعد ظهر اليوم التالي، وصل غوستافو إلى منزل عائلة بونيفاسيو في تمام الساعة الثالثة. وقبل وصوله، كانت كارلا تصر على بيل لترتدي أحد الفساتين التي أحضرتها من باريس.

- عليك أن تطلي عليه بصورة أجمل من تلك التي طُبعت في ذهنه، لأننا لا نتمنّى بعد فراقكما الذي طال، أن يكون قد غيّر فكره عنك خصوصًا أنك تبدين هزيلة مثلي في هذه الأيام». تابعت كارلا إغاظة ابنتها. في حين كانت لوين تساعدها على ارتداء فستان جديد وتقوم بتصفيف شعرها بعقدة أنيقة.

- كيف تشعرين حيال رؤيته من جديد؟ سألتها لوين بعد تردد.

- لست أدري. صارحتها بيل.

- أنا متوتّرة على ما أظن.

- وماذا عن الرجل الآخر الذي تركته في باريس وذكرته في رسائلك؟ هل نسيته الآن؟

نظرت بيل إلى الصورة التي تظهر أمامها في المرآة وقالت:

- أبدًا يا لوين، أبدًا.

بعدما أصبحت بيل جاهزة، انتظرت غوستافو في غرفة الرسم في الطابق السفلي، وإذا بجرس الباب يدق معلنًا عن وصوله. مشت غابرييلا عبر القاعة لتفتح له، وعندما سمعت بيل صوته، راحت طوال الثواني القليلة التي فصلتها عن لقائه، تتضرّع إلى السماء وتصلي كي لا يشعر باضطراب قلبها.

- إيزابيلا. قال وهو يدخل الغرفة ويقترب منها فاتحًا ذراعيه.

- غوستافو. أجابت بيل وهي ترفع يديها إليه فيشبك يديه بيديها وهو يتفحّصها.

- يا إلهي، أعتقد أن أوروبا قد ناسبتك كثيرًا فأنت أكثر إشراقًا مما أتذكرك عليه. لقد أصبحت امرأة جميلة. قال وهو يتلذّذ بالنظر إلى كل شبر منها.

- أرجو أن تكوني قد استمتعت بالروعة هناك؟.

- بالتأكيد. أجابت بيل وهي تشير إلى غابرييلا لتحضر إبريقًا من عصير المانجو الطازج ثم تدعو غوستافو إلى الجلوس وتضيف:

- باريس على وجه الخصوص.

- آه، أنت محقة، فهي عاصمة الحب. وأنا حزين جدًا لأنني لم أرافقك إلى هناك لنستمتع معًا بها. ربما نعاود الذهاب معًا ذات يوم. والآن أخبريني بكل ما حصل في هذه الرحلة.

وبينما كانت تخبره بكل ما رأته في الأشهر القليلة الماضية، بدا لها أكثر تفاهة مما تتذكّره، فأجبرت نفسها على النظر إلى عينيه البنيّتين الدافئتين والإحساس باللطف الذي ينبع من داخلهما.

بعد أن ارتشف العصير قال لها:

- أفهم منك أنك استمتعت بالفعل هناك، على الرغم من أنك لم تذكري في رسائلك إلا قليلًا من التفاصيل. اعتقدت حينها أن رحلتك لم تكن موفقة، لأنك على سبيل المثال، لم تذكري فيها أن نحّاتًا طلب منك الجلوس أمامه ليقوم بنحتك.

- كيف عرفت؟ سألته بيل بعد أن شعرت بخضّة لبلوغه الخبر.

- من والدك بالطبع، ففي الأمس تحدثت إليه عبر الهاتف. لا بد من أنها كانت تجربة ممتعة.

- أجل ممتعة جدًّا. أجابته وهي تبتسم.

- هل تعرفين يا إيزابيلا؟ قبل ستة أسابيع تقريبًا، أي بينما كنت تستعدين لمغادرة باريس، خالجني شعور غريب بأنك لن تعودي إليّ. فاتصلت حينها بوالدك لأتأكّد من أنك صعدت إلى الباخرة. كان مجرد شعور بالخوف والقلق من أن تكوني قد تعرفت إلى شاب أفضل مني، لكنك الآن هنا يا إيزابيلا. قال وهو يمد لها يده.

- وهل اشتقت إليّ كما اشتقت أنا إليك؟

- نعم، كثيرًا.

- من المؤسف ألّا نستطيع الزواج قريبًا، أتفهم ذلك. إذ علينا أن نمنح أمّك الوقت لتتعافى كليًّا، وكيف حالها الآن؟

- ضعيفة، إنما تتحسّن ببطء. قالت إيزابيلا.

- ما زلت غاضبة لأنهم لم يخبروني بمرضها أثناء غيابي. لكنت عدت بالطبع في وقت مبكر.

- حسنًا يا إيزابيلا، هناك بعض الأخبار التي يُفضّل ألا تنقل في رسالة، ألا توافقين؟

وعلى الفور شعرت بيل باحمرار وجنتيها من خجلها، وكأنه كان يلمح بكلماته تلك إلى معرفته بالسر الذي تخبئه عنه.

لكنها أجابته بفظاظة:

- حتى وإن كانت نيّتهم حمايتي، كان عليهم أن يخبروني.

- قال غوستافو وهو يترك يدها: حسنًا، الآن وقد عدت إليّ سالمة وأصبحنا معًا من جديد وأمك تتحسن بشكل ملحوظ، فإنّ ما تبقّى لا يهم، أليس كذلك؟ إنّ أمي تصرّ على رؤيتك لتناقشا ترتيبات حفل الرفاف. لم ترغب في إزعاج سينيورا كارلا في مرضها، لكن هناك بعض التفاصيل التي تحتاج إلى لمستك الأخيرة. فعلى

سبيل المثال، لم نحدّد بعد تاريخ الزفاف، هل لديك يوم مميّز في شهر كانون الثاني لنحدد الموعد فيه؟

- أفضّل أن يكون في نهاية الشهر لتحظى بأمي بأطول وقت ممكن لتعافيها.

- حسنًا، ما رأيك لو تزورينا في المنزل في الأيام المقبلة لتتناقشي مع أمي الترتيبات المتبقية، وتراجعي أيضًا المخطّطات التي قمت بها مع والدك لتجديد منزلنا. لقد باشرنا بالأعمال فوالدك وجد مهندسًا معماريًّا صاحب ذوق عصري، وقد اقترح علينا إعادة تشكيل الطوابق العليا لنتمكن من إضافة الحمامات إلى غرف النوم الرئيسية. فأنا واثق من أنك سترغبين في إعطاء رأيك في التصميم الداخلي لجناحنا الخاص. فأنتن السيدات لديكنّ أفكار في الديكور تفوق أفكار الرجال بكثير.

إلا أن مجرد التفكير في غرفة نوم وسرير مشترك مع غوستافو أشعرها بالخوف وأصابها برعشة في عمودها الفقري.

- يسرني أن آتي إليكم في الوقت الذي يناسب أمك أكثر. أجابت بيل.

- حسنًا، وهل يناسبك الأربعاء المقبل؟

- يناسبني جدًا.

- تمام، وإلى ذلك الحين، آمل أن تسمحي لي بالاستمتاع برفقتك. هل أتصل بك غدًا بعد الظهر؟

- سأكون بانتظار مكالمتك. قالت بيل وهي ترافق غوستافو إلى الباب.

- إلى الغد يا إيزابيلا. قال مغمغمًا ثم قبّل يدها.

- أتوق إلى ذلك اليوم الذي لن أحتاج فيه إلى حجز موعد لرؤيتك.

بعد مغادرة غوستافو، صعدت بيل إلى غرفتها لتجمع أنفاسها قبل أن تتفقّد أمها. فوقفت بجانب النافذة واسترسلت في التفكير. غوستافو طيّب ولطيف ورقيق، وليس ذنبها ألا تقدر على مبادلته الحب الذي يكنّه لها، كما أنه ليس ذنبها أن تحب شخصًا آخر...

وعلى الفور تذكّرت كلام لوران التحذيري ومفاده بأن مشاعرها الحقيقية ستنكشف ذات يوم من تلقاء نفسها. فأصيبت بارتجاف، ثم دخلت تغسل وجهها بالمياه الباردة قبل أن تتوجّه إلى غرفة أمها.

بعد مرور أسبوع، رأت بيل أمها تستعيد عافيتها رويدًا رويدًا، فشعرت بالسعادة على الرغم من أنها كانت لا تزال تعاني من بعض الوهن.

تنهّدت كارلا بعد ظهر أحد الأيام، بينما كانت تستمع إلى ابنتها وهي تقرأ «مدام بوفاري» لجوستاف فلوبير، وتترجمها لها من الفرنسية إلى البرتغالية لتتمكّن من فهم المقصود.

- كم أن ابنتي ذكية! من كان ليفكر بذلك؟ ونظرت كارلا إلى بيل باعتزاز ثم داعبت خدها.

- أنت تجعلينني فخورة بك.

- أما أنا فسأشعر بالفخر عندما تنهين طبقك على العشاء. أجابتها بيل.

كانت فترة الظهيرة وكان الطقس مشمسًا، فنظرت كارلا عبر النافذة لتراقب الظلال تتمايل تحت أوراق النبات المتفتحة في الحديقة.

قالت لابنتها:

- هذا النور الساطع يجعلني أتوق إلى مزرعتنا الحبيبة. لطالما اعتبرت هواء الجبل منعشًا، والأجواء هناك مهدّئة للأعصاب.

- وهل ترغبين في الذهاب إلى هناك يا ماي؟

- أنت تعرفين كم أحب ذلك المكان يا إيزابيلا، لكن والدك دائم الانشغال ولن يقبل الابتعاد عن ريو.

- كل ما يهمنا الآن هو صحتك وما سيساعدك على التعافي أسرع. لذلك اتركي الأمر لي. أجابتها بيل.

- وفي ذلك المساء، تطرقت بيل أثناء العشاء إلى موضوع ذهابهما هي وكارلا إلى المزرعة.

- أعتقد أن هذه الرحلة ستحسّن معنوياتها لتؤثّر بالتالي إيجابًا على صحتها. فهل تسمح لنا يا پاي بالذهاب إلى فازيندا لبضعة أسابيع فقط؟ خصوصًا أن الجو حار حاليًّا في ريو.

- إيزابيلا. قال أنطونيو بعد أن عبس.

- لقد عدت لتوّك من تلك الرحلة الطويلة والآن عدت تطلبين الإذن للمغادرة من جديد. هذا سيدفع أيًا كان إلى الاعتقاد بأنك لا ترغبين في البقاء هنا.

- هذا غير صحيح يا پاي. كل ما في الأمر أنني لست مرتاحة لتحديد موعد للزواج قبل التأكد من حالة ماي الصحية. تعرف تمامًا أنني متشوّقة لفعل ذلك، لكن إذا كان الوقت الذي ستصرفه ماي في المزرعة سيسرع من شفائها، فأفضّل مرافقتها أولًا.

- وأبقى وحدي هنا، من دون زوجة ولا ابنة لأعود إليهما في آخر اليوم؟ اشتكى أنطونيو.

- أنا واثقة من أن لا شيء سيمنعك من زيارتنا في عطلات نهاية الأسبوع أو في أيام عطلك.

- ربما تكونين على حق، لكن ليس أنا من عليك إقناعه، ولكن خطيبك الذي قد لا يرغب في اختفائك مجدّدًا عن أنظاره.

- حسنًا، سأتحدث بنفسي إلى غوستافو. قالت بيل.

* * *

قال لها غوستافو بعد أن أوضحت له السبب، بعد ظهر اليوم التالي:

- أؤيد أي شيء من شأنه أي يسرّع سيرنا إلى المذبح. وهذا أفضل ما قد تقومين به لصحة والدتك. لكن قبل ذهابك، علينا اتخاذ بعض القرارات.

عندما أخبرت بيل أمها بأنهما ستغادران إلى فازيندا في الأسبوع المقبل، ابتهجت كارلا فور سماعها الخبر. حتى أنها لم تكن الوحيدة التي رحّبت في ذلك المنزل بالفكرة، لأن وجه لوين استنار أيضًا ما إن طلبت بيل منها أن ترافقهما إلى هناك، على الرغم من أنهما لم تكونا بحاجة فعلية إليها، لأن فابيانا وساندرو اللذين يعيشان أساسًا في المزرعة، قادران وحدهما على تلبية كل احتياجاتهما. لكن بيل كانت تعرف تمامًا أنها بذلك الطلب ستقدّم للوين فرصة صرف بعض الوقت مع حبيبها.

- آه، سينيوريتا بيل. قالت لوين وقد توهجت عيناها من كثرة السرور.

- لا أصدق أنني سأراه مجددًا! لأنه لا يجيد القراءة أو الكتابة، فنحن لم نتحدث منذ آخر مرة رأيته فيها».

Obrigada! Obrigada!

وقامت لوين بمعانقة سيدّتها قبل أن تخرج من تلك الغرفة وقد دبّت فيها الحماسة. فبيل كانت مدركة تمامًا بأنها لن تجتمع مجددًا مع الذي تحبه، لذلك قررت أن تعيش بفرحة اللقاء بالحبيب من خلال لوين.

في اليوم التالي، قامت بيل بواجبها وذهبت للقاء والدة غوستافو في منزلها لتناقشا خطط الزواج.

- يؤسفني أن تغيب أمك عن اجتماعات التنظيم لحدث رائع مثل هذا بسبب مرضها. قالت لويزا آيريس كابرال لبيل بنبرة مستفزّة.

- لذلك علينا أن نبذل قُصارى جهدنا لئلّا يفوتنا شيء أثناء التخطيط».

شعرت بيل برغبة ملحّة في صفع لويزا المتعجرفة على وجهها، لكنها بالطبع كبحت نفسها.

- أنا واثقة من أنها ستكون أفضل بكثير عما قريب، بعد أن تتلقّى جرعة كبيرة من هواء الجبل النقي. أجابتها بيل.

- حسنًا، لو أمكننا على الأقل تحديد موعد الزواج كي لا يبدو لأهل ريو أننا نقوم بمزيدٍ من التأجيل، بالنظر إلى أنك أمضيت فترة طويلة في الخارج. والآن... قالت لويزا وهي تضع نظارتها لتراجع مذكراتها.

- أبلغني رئيس الأساقفة بالتواريخ المتاحة لديه. تصوري أن جدوله محجوز مسبقًا لبضعة أشهر. وقد أخبرني غوستافو بأنك تتمنين أن يتم الزواج في نهاية شهر كانون الثاني. أجد أن اختيار يوم من عطلة نهاية الأسبوع لإقامة العرس فيه أمر مبتذل وعامي.

- بوسعك اختيار ما ترينه الأفضل. قالت لها بيل بدون تردد.

- والآن بالنسبة إلى حفل الاستقبال الذي سيلي الزفاف، والدك يرغب في تنظيم فطور في كوباكابانا بالاس. اعلمي أنني لا أوافقه الرأي لأنني أجد أن ذلك الفندق يحظى بشهرته من تقييم العامة. كنت سأفضّل انتقاء مكان أصغر مساحة، كأن نقيمه هنا في منزلنا وفق تقاليد عائلتنا. حسنًا والدك قرّر تجديد المرافق التي برأيي لم تكن بحاجة إلى أي تجديد فأصبح ذلك غير ممكن. لن نجازف بالأمر لأن الأعمال قد لا تنتهي في موعدها وحينها سيكون المنزل مزدحمًا بالعمال. بالتالي علينا اختيار مكان آخر.

- سأكون سعيدة بأي قرار تتّخذينه. أجابتها بيل.

- أما بالنسبة إلى الإشبينات والملازمين، فقد تقدمت أمك بأسماء أبناء عمومتك الذين يعيشون في ساو باولو، وعددهم ثمانية. قالت لويزا.

- أجد نفسي غير قادرة على تجاهل الاثني عشر اسمًا خاصتنا، فهم أولادنا بالمعمودية ونرغب في أن يقوموا بواجبهم في هذه المناسبة. لن نكون بحاجة إلى أكثر من ثمانية كي لا يتحوّل الوضع إلى مهرجان. وأريد أن أعرف منك إذا كانت لديك تفضيلات لتكون جزءًا من تلك القائمة المختصرة؟

أعطتها بيل اسم فتاتين صغيرتين من أقرباء أمها واسم فتى من أقرباء أبيها.

- وسيسرني أن أتيح ما تبقى من مكان لأقارب غوستافو.

قالتها وهي تخطف نظرة إلى خطيبها الذي بادلها بابتسامة لطيفة ومتعاطفة.

وطوال الساعتين التاليتين بقيت لويزا تستجوب بيل في كل تفصيل يتعلق بحفل الزفاف. وكانت بيل كلما غامرت في اقتراح أمرٍ ما، تُقابل بالرفض على وجه السرعة لتصميم حماتها المستقبلية على القيام بالأمور على طريقتها.

أما المسألة الوحيدة التي تمسّكت بها بيل وأصرت عليها، على الرغم من اعتراض لويزا، فكانت مرافقة لوين لها بعد الزواج لتكون خادمتها الشخصية في منزلها الجديد.

وعندما تجرأت على إثارة الموضوع، رمتها لويزا بنظرة مستخفة وهي تلوّح بيدها.

- هذا أمر سخيف، إذ لدينا ما يكفي من الخدم وهم قادرون على تلبية احتياجاتك.

- ولكن...

قاطع غوستافو أمه أخيرًا دفاعًا عن بيل:

- ماي، كل ما تتمناه إيزابيلا هو إحضار خادمتها التي ترافقها منذ طفولتها، لا أفهم لمَ تجدين في ذلك مشكلة.

رمقته لويزا بنظرة غاضبة بانت في حاجبيها، ثم قالت باقتضابٍ وهي تومئ برأسها:

- حسنًا، فليكُنْ. قبل أن تعود إلى بيل وتقول لها:

- والآن بات لدينا مما ناقشناه اليوم، ما نعمل على إنجازه قبل أن تنطلقي مع أمك في الأسبوع المقبل. بالنظر إلى الوقت الطويل الذي صرفتِه بعيدًا عن ابني، لا عجب إن شكّ أحدهم بأنك غير مهتمة بهذا الزواج.

ومرة أخرى تدخّل غوستافو:

- باللّه عليك يا ماي، لست عادلة في ما تقولينه. إيزابيلا قلقة على صحة والدتها وتريد أن تطمئن عليها، ليس أكثر.

- لا مشكلة، وسوف أذكرها في صلواتي غدًا أثناء مشاركتي في القداس. كما أنني سأقوم بواجبي وأتولّى زمام الترتيبات إلى أن تعودي أنت وسينيورا بونيفاسيو إلى ريو فنتقاسم العبء. أما الآن... قالت لويزا وهي تنظر إلى الساعة الموضوعة في أعلى المدفأة.

- أستأذنكما لأن لديّ اجتماعًا مع لجنة دار أيتام راهبات الرحمة بعد أقل من نصف ساعة. لذلك يا غوستافو أنا واثقة من أنك سترافق إيزابيلا في جولة عبر الحدائق لتستنشق بعض الهواء وترى ما وصلت إليه التحديثات الجارية. أتمنى لك يومًا سعيدًا».

غادرت لويزا الغرفة تحت أنظار بيل التي شعرت بفوران دمها داخل عروقها، وكأنها جلست فوق الموقد لمدة طويلة.

- لا تبالي بها. قال غوستافو الذي شعر بتوتّرها بعد أن اقترب ليضع يده على كتفها.

- ثقي بأنها تستمتع بكل ثانية تُشغلها في إنجاز تلك التحضيرات، رغم اشتكائها هذا. فخلال الأشهر التسعة الماضية، لم تتحدث بشيء آخر سوى التجهيزات. والآن اسمحي لي بأن أرافقك إلى الحديقة».

- غوستافو. قالت بيل وهما يغادران المنزل.

- أين سيعيش والداك بعد أن نتزوج وأنتقل إلى هنا؟».

دهش غوستافو من ذلك السؤال فأجابها:

- بالطبع هنا، سيستمران في العيش معنا. أين تريدينهما أن يذهبا؟

في صباح اليوم التالي، دخلت كارلا لتجلس على مقعد سيارة الرولز رويس الخلفي، تحت أنظار بيل التي بقيت حريصة على راحتها. وركبت هي بجانبها. كما جلست لوين على المقعد الأمامي بجانب السائق قبل أن ينطلقوا جميعًا في رحلة طويلة كانت ستدوم خمس ساعات، إلى جبال منطقة باتي دو ألفريس الشهيرة بهوائها المنعش. أما مزرعة سانتا تيريزا فكانت طوال مئتي عام ملكًا لبارون باتي دو ألفريس، وهو أحد نبلاء البرتغال وقريب لعائلة آيريس كابرال كما أشار أنطونيو قبل مغادرتهم في ذلك الصباح.

كان الطريق المؤدي إلى هناك مريحًا على عكس اعتقادهم. والسبب في ذلك يعود إلى أن مالكي الأراضي الزراعية الأثرياء، ساهموا في تمويل مشروع

تحسين ذلك الطريق لحاجتهم إلى نقل حبوب البن، وهذا الأمر يستدعي تنقلهم عليه بشكل مستمر. لذلك نجحت كارلا في النوم طوال الرحلة من دون الشعور بأي انزعاج. أما بيل فبقيت تنظر عبر النافذة كلما تقدموا صعودًا في مسارهم المطل على منحدرات تهبط بقوة إلى أسفل الوديان وقد تفجّرت داخل شقوقها الضيقة ينابيع عذبة.

- لقد وصلنا، يا ماي. قالت بيل لتوقظ أمها، ما إن بدأت السيارة تترجّح على طول المسار المغبّر المؤدي إلى مدخل المنزل الرئيسي.

عدّلت كارلا وضعيتها ما إن شعرت بتوقف السيارة. وما إن ترجّلت بيل حتى راحت تستنشق الهواء النقي الذي اشتهرت به المنطقة. كان الغسق قد بدأ يهبط تدريجًا وصرير الزيزان قد بلغ أوجه. وإذ بالكلبتين المتشردتين فانيلا ودونا - اللتين ظهرتا فجأة قبل سبع سنوات أمام باب مطبخ العائلة، فاضطرت إلى إيوائهما استجابة لتوسّلات بيل - تظهران أمامهما وتحومان حوله ساقيهما وسط نباحٍ شديد.

- أخيرًا أشعر أنني في منزلي. تنهدت بيل لدى رؤيتها فابيانا وساندرو اللذين يعتنيان بالمزرعة وبالكلبتين.

- سينيوريتا إيزابيلا! قالت فابيانا وهي تعانقها بشدّة.

- لقد زدت جمالًا عن آخر مرة رأيتك فيها. أرجو أن تكوني بخير؟

- نعم أنا كذلك، شكرًا لك. قالت لها ثم أخفضت صوتها وهي تتابع:

- أعتقد أنك ستصدمين لدى رؤية أمي، حاولي ألا تظهري ذلك. حذّرتها بيل.

أومأت فابيانا برأسها وهي ترى السائق يساعد كارلا على خروجها من السيارة. حينها ربّتت ذراع بيل ومشت نحو سيدتها لتلقي التحية عليها. وعلى الفور فكّرت بيل في أنه لو كان هناك أحد سينجح في إعادة الصحة إلى والدتها، فستكون فابيانا. لأنها لن تصلي من أجلها في تلك الكنيسة الصغيرة تحت الكوة قبالة غرفة الرسم فحسب، ولكنها ستقدّم لها كل العلاجات التقليدية مثل الخلطات النباتية والأزهار التي تنمو بكثرة في الأرجاء وتشتهر بمنافعها الطبية.

ومن طرف عينها، تمكّنت بيل من رؤية برونو ابن فابيانا وساندرو، صاحب العينين الداكنتين، يحوم في الخلف. كما رأت لوين، أثناء اقترابهم من المدخل الرئيسي، وهي ترميه بابتسامة خجولة يبادلها بها على الفور.

تبعت بيل فابيانا وكارلا إلى الداخل ورأت كيف كانت مدبرة منزلهم تلف ذراعها بحنان حول كتف سيّدتها. فتنفست الصعداء بعد أن فكّرت كثيرًا في كيفية تقديم الرعاية الصحيحة لوالدتها، وتبيّن لها أن فابيانا ستكون أهلًا لتلك المسؤولية. وبينما دخلت فابيانا برفقة كارلا إلى غرفة النوم لتفريغ الحقائب، عبرت بيل غرفة الرسم المصمّمة بأرضية خشبية ومزيّنة بأثاث من الماهوجني وخشب الورد الثقيل، إلى باب غرفة نومها.

كانت النوافذ في الغرفة مرفوعة والأبجورة مفتوحة، فشعرت، وهي تضع مرفقيها عند الحافة وتسترسل في تأمل ذلك المنظر الجميل الذي لطالما حنّت إليه، بالنسيم العليل يداعبها. ثم وقع نظرها على مهرها لوتي ووالده الفحل لوبا يرعيان في أسفل الحلبة. وبعيدًا رأت المنحدر وعليه الشجيرات التي تحمل حبوب البن قد نجحت في البقاء على قيد الحياة رغم الإهمال الذي لحق بها. ورأت عند المنحدر قطيعًا من الأبقار البيض الموشّحة، وانتبهت إلى الرقع القاحلة التي كشفت عن التربة الحمراء التي يغطيها العشب المتشابك. عادت بيل لاحقًا عبر غرفة الرسم لتقف عند الباب الرئيسي المحاط بنخلتين معمّرتين مهيبتين، كانت المنطقة قد اتخذت اسمها منهما، وجلست على الشرفة فوق المقعد الحجري تستنشق رائحة الكركديه الزكية التي تنمو بكثرة هناك، وتحدق عبر النبات إلى البحيرة العذبة التي تعوّدت أن تسبح فيها كل يوم. وبينما كانت تستمع إلى حشرات اليعسوب وهي تحوم حول الأزهار، وتراقب فراشتين صفراوين وهما تتراقصان أمام عينيها، شعرت أولًا بتوترها الداخلي يتلاشى. لكن سرعان ما فكّرت في لوران وكم كان سيحب المكان، فغرقت مجدّدًا في الحزن. وعلى الرغم من القرار الذي اتّخذته حياله، اغرورقت عيناها بالدمع. كانت تعرف تمامًا أن قرارها بمغادرة باريس كان بمنزلة وضع حد لعلاقتهما، إلا أن ناحية من ذهنها بقيت تحلم بأن يتصل بها. لذلك كانت كل صباح تتفقّد بنفسها الرسائل التي تصلهم عبر البريد ويتم وضعها فوق صينية

فضية على مائدة الفطور، لعلها تجد بينها رسالة منه يتوسّل إليها بالعودة إليه، بحجّة أنه لا يستطيع العيش من دونها.

لكن ذلك لم يحدث بالطبع، ما دفعها مع الأيام إلى التفكير في مدى صدقه عندما اعترف لها بحبه، وفي احتمال أن يكون اعترافه جزءًا من خطته لإغوائها وفق رأي مارجريدا. وراحت تطرح على نفسها الأسئلة؛ إذا كانت ما تزال تخطر في باله حتّى اليوم أو إذا كان نسي أمرها تمامًا بعد أن مرّ ذلك الوقت القصير الذي أمضاه معها مرور الكرام؟

وهل كانت معرفتها الحقيقة ستغيّر واقعها؟ فهي من وضعت بنفسها حدًّا لتلك العلاقة، باختيارها العودة إلى البرازيل والزواج بشخص آخر، لتبقى أجواء لاكلوزيري دي ليلاس ومذاق شفتيّ لوران ذكرى جميلة من الماضي، أو رقصة عابرة في حلم اختارت أن تنهيه بنفسها. واليوم مهما تتمنّ وتأملْ فلن تقدر على تغيير مسار الحياة التي رسمتها بنفسها لنفسها.

31

باريس، تشرين الثاني 1928

- أخيرًا، بات التمثال جاهزًا. وخبط البروفيسور لاندوڤسكي المنضدة بيده بعد أن شعر بالارتياح.

- والآن، يريدني ذلك البرازيلي المجنون أن أعمل على نموذج مصغًّر للرأس واليدين. هذا يعني أنّ حجم الرأس سيبلغ حوالى الأربعة أمتار، وبالتالي قد لا يسع داخل المشغل، في حين أنّ الأصابع ستبلغ بطولها العوارض الخشبية، وسنشعر كلّنا في هذه الورشة بأنّنا تحت حماية يدَيه. قال لاندوڤسكي ممازحًا. وأضاف:

- ومن ثمّ، ما إن أنتهي من عملي، سيقوم دا سيلڤا كوستا بحسب ما قال، بتقطيع منحوتتي مثلما يُقطّع اللحم ليتمكّن من شحنها إلى ريو دي جنيرو. لم يسبق لي أن عملت هكذا». قال لاندوڤسكي وهو يتنهّد. «ربّما عليّ الوثوق بجنونه.

- قد لا تملك خيارًا آخر. قال لوران.

- حسنًا، ليس بوسعي دفع فواتيري إلّا بالقبول يا برويي، على الرغم من أنّني غير قادر على قبول مهمّات أخرى قبل أن يخرج ربّنا رأسه ويديه من مشغلي، لأنّه بكلّ بساطة يسيطر على المكان. ولذلك عليّ أن أبدأ على الفور، فأحضر لي القوالب التي صبَبتَها على يدَي الآنستين قبل بضعة أسابيع، أحتاج إلى شيء ملموس أنطلق منه.

خرج لوران لإحضار القوالب من المخزن، ثمّ وضعها على المنضدة أمام لاندوڤسكي. وراح الرجلان يمعنان النظر إليها.

- كلتاهما تتمتعان بأصابع جميلة ورقيقة، لكن عليّ تصوّر كيف ستبدو ما إن تمتدّ على علو يزيد على ثلاثة أمتار. قال لاندوڤسكي.

- والآن برويي، أليس لديك منزل تذهب إليه؟

فهم برويي على الفور أن لاندوڤسكي يرغب في البقاء وحده، فأجابه:

- بالطبع بروفيسور، أراك في الغد.

حين خرج لوران من الورشة، رأى الفتى يجلس على مقعدٍ حجريٍّ عند الشرفة في الهواء الطلق. كان المساء باردًا في ذلك اليوم على الرغم من صفاء السماء المرقّطة بالنجوم. فجلس لوران بجانبه وراح يحدّق هو أيضًا إليها.

- هل تحب النجوم؟ تجرّأ لوران على سؤاله وهو يتوقّع ألّا يحصل على إجابة.

فابتسم الصبي وأومأ له برأسه.

قال له لوران وهو يشير بأصبعه إلى السماء:

- انظر إلى هذا، إنّه حزام أوريون. وهناك بالقرب منه، تظهر الأخوات السبع برفقة والديها أطلس وبليون اللذين يحرسانها.

لاحظ لوران أن الصبي يتبع أصبعه بعينيه ويستمع له باهتمام.

- لطالما كان والدي مهتمًّا بالفلك، حتّى أنّه كان يحتفظ بتلسكوب في إحدى العلالي التي في قصرنا، وأحيانًا في الليالي الصافية، كان ينقله إلى السطح ليحدّثني عن النجوم. وذات مرة رأيت شهابًا يمرّ من أمامي، كان ذلك أكثر شيء ساحر أراه في حياتي.

نظر لوران إلى الصبي الصغير وسأله:

- هل لديك والدان؟

تظاهر الصبي بعدم سماعه وواصل تحديقه إلى السماء.

- حسنًا، عليّ الذهاب. قال وهو يربّت بيده رأس الصبي.

- تصبح على خير.

لم يتأخّر لوران في العثور على دراجة نارية كانت مارّة من أمام منزل لاندوڤسكي، فأوصلته لغاية مونبارناس. دخل غرفة السطوح، فرأى جسمًا متكتّلًا فوق سريره وآخر ينام فوق مرتبة مفروشة على الأرض. لم يرَ في ذلك شيئًا غير اعتيادي خصوصًا أنّه أقام في الآونة الأخيرة مطوّلًا في مشغل لاندوڤسكي.

كان في العادة يترك النائم وشأنه لبضع ساعات بينما يذهب للقاء أصدقائه في ملاهي مونبارناس، ثمّ يعود في وقت لاحق ليخرجه من السرير فيتمكّن من دخوله بدوره. أما في تلك الليلة فقد شعر بالتعب على غير عادته، كما أنّه لم يكن يتمتّع بمزاج يلائم اللقاءات الاجتماعية. حتّى أنّه في الواقع، بدا له وكأنّه متخاصم مع المرح، وذلك منذ اللحظة التي صعدت إيزابيلا بونيفاسيو فيها إلى الباخرة لتعود إلى البرازيل.

حتّى لاندوڤسكي لاحظ ذلك. فبعد أن شعر بهدوئه غير الاعتيادي، لم يقدر إلّا أن يعلّق على الموضوع.

- هل أنت مريض يا برويي أم هو الاشتياق؟ سأله ذات مرةٍ بطريقةٍ مباشرةٍ وقد ظهر بريق في عينيه عكس إدراكه الأمور.

أجابه لوران ناكرًا الموضوع:

- لا.

- حسنًا، مهما يكن ما تمرّ به اليوم، تذكّر أنّ المعاناة مرحلية وستمضي.

شعر لوران بالارتياح لإدراك لاندوڤسكي حالته وفرح بكلماته المتعاطفة، إذ لطالما حسبه غارقًا في عالمه الخاص لا علم له بما يدور من حوله. كما أنّه كان يعتقد أنّه حتّى لم يكن يلاحظ وجوده، ناهيك عن مزاجه المتقلّب. وها هو الآن يشعر وكأن أحدهم قد اقتلع قلبه من صدره، وفوق ذلك كلّه داس عليه بقدميه.

اقترب لوران من سريره ليهزّ الجسم الملقى عليه، فتأوّه الرجل ثمّ فتح فمه وهو يتدحرج إلى الخلف وأطلق صفيرًا فاحت منه رائحة الكحول. ففهم أنّه لن يقدر على إيقاظه. لذلك قرّر وهو يتنهّد بعمق أن يسمح له بمتابعة نومه

لبضع ساعات إضافية حتّى يستيقظ من سكره، بينما يذهب هو لتناول شيءٍ على العشاء.

كانت شوارع مونبارناس الضيّقة كعادتها تنبض بالحياة، فعمّت فيها أصداء ثرثرة الناس المبتهجين احتفالًا بالحياة. وعلى الرغم من أنّها كانت ليلة باردة، إلّا أن المقاهي على الأرصفة كانت مزدحمة، كما شعر بأن نشاز الموسيقى المختلفة التي اخترقت جُدُر الملاهي، يهاجم حواسه. كانت مونبارناس النابضة بالحياة تشعره بالبهجة، لكنها في الآونة الأخيرة أصبحت تشعره بالانزعاج. كيف يستطيعون أن يكونوا سعداء وهو غير قادر على الوقوف مستقيمًا من ثقل النعاس والتعب اللذين يصيبانه؟

تجنّب دخول لاكلوزيري دي ليلاس، خوفًا من الالتقاء بمعارفه الذين كانوا سيجرّونه إلى محادثات سطحية. فشقّ طريقه إلى مكان أكثر هدوءًا وجلس على كرسيٍّ راغبًا في كرع كأس أفسنتين دفعة واحدة. ثمّ راح ينظر إلى الطاولات من حوله، فلاحظ وجود امرأة سمراء داكنة البشرة سرعان ما ذكّرته بإيزابيلا. لكنّه عاد وانتبه بعدما حدّق إليها جيّدًا، إلى أن ملامحها لم تكن بجمال ملامح إيزابيلا، فضلًا عن القسوة التي تعكسها نظراتها. فبدا له أنّه بات يراها مؤخرًا في كلّ مكان يذهب إليه.

طلب لوران كأسًا أخرى من الأفسنتين وراح يفكّر في وضعه الحالي مقارنة بما كان عليه في الماضي، هو من اشتهر باسم كازانوفا، وبسحره وجاذبيّته اللذين لطالما حسده عليهما أصدقاؤه، إذ كان قادرًا على جذب أي امرأة يشير إليها بأصبعه، بطرفة عين ليدخلها إلى فراشه فتدفئه له. وهو بالطبع كان يستغلّ وسامته إلى أقصى حدود كونه كان يحب معاشرة النساء، ليس فقط على صعيد الجسد إنّما على صعيد الفكر أيضًا.

أما بالنسبة إلى الحب... فقد سبق له أن اعتقد مرّتين أنّه يمرّ بذلك الذي صرف أعظم الكتاب والفنانين حياتهم في وصفه. لكنه في المرتين، اضمحلّ ما كان يشعر به سريعًا، وإثر ذلك راح يقنع نفسه أنّه ليس مقدّرًا له التعرّف إلى ذلك الشعور.

إلى أن ظهرت إيزابيلا...

عندما التقى بها للمرّة الأولى، استخدم حيَله المعتادة ليقوم بإغوائها، واستمتع بمشاهدة وجنتيها تحمرّان خجلًا وهي تقع رويدًا رويدًا في شباكه. فلوران كان بارعًا في ممارسة تلك اللعبة، وفي كلّ مرة كان يوقع طريدته في شركه فتبدأ بتنفيذ كلّ رغباته. كانت حماسته تزول على وجه السرعة، بعد أن يُصاب بالملل فيقرّر المضي قُدُمًا.

أما مع إيزابيلا فكان الأمر مختلفًا. عندما أدرك أنّها سترحل بعيدًا، كان قد فهم أن ذاك الذي يشعر به وربّما لأول مرة في حياته، كان حقيقيًّا. لذلك باح لها بمشاعره الصادقة وطلب إليها البقاء في باريس.

إلّا أنّها رفضت.

في الأيام القليلة الأولى التي تلت مغادرتها فرنسا شعر بالبؤس، فأعاده إلى كونها المرأة الأولى التي تعانده. وأكثر ما استفزّه في الموضوع كان فكرة بعدِها عن مناله، كما أن إبحارها إلى الجهة الأخرى من العالم ليتمّ تقييدها بالسلاسل لبقية عمرها برجل لا تحبّه عظّم المأساة في ذهنه.

لكن بمرور الوقت تبيّن له أن الأمور لم تكن على ذلك النحو.

فبعد انقضاء حوالى ثمانية أسابيع، وعلى الرغم من دخوله الفراش مع نساء أخريات ليساعد نفسه على نسيانها، لم ينجح في التغلّب على بؤسه، حتّى أنّه أصبح يشرب الكحول إلى حد الثمالة ليتمكّن من الغرق في النوم طوال اليوم التالي، فيمتنع عن التفكير بها. ما أثار غضب لاندوڤسكي.

بقي يفكّر بإيزابيلا في كلّ لحظة من لحظات يقظته، وكم من مرّة وجد نفسه في المشغل يحدّق إلى الفضاء ويتذكّرها وهي جالسة بصفاء قبالته. حينها كان قادرًا على إمتاع نظره بها يومًا بعد يوم، لساعات طويلة في كلّ مرة... لكنّه في ذلك الوقت لم يقدّر تلك الفرصة. لقد كانت مختلفة عن أي امرأة قابلها في حياته؛ كانت بريئة جدًّا، ورائعة جدًّا... فضلًا عن ذلك الشغف الذي يسكنها حتّى العظام، والذي اكتشفه فيها عندما استجوبها يوم رسمها للمرة الأولى، وفضولها الكبير لمعرفة كلّ

ما تخبّئه لها الحياة. ناهيك عن اللطف الذي أظهرته في تلك الليلة عندما حملت الصبي بين ذراعيها بحنان، غير آبهة لما يجوز القيام به أو لا يجوز...

وبينما كان لوران يفرغ كأسه ويطلب كأسًا أخرى، راح يفكّر في كلّ تلك المواصفات التي تجعل منها إلهة حقيقية.

غالبًا ما كان يستعيد في ذهنه ليلًا بعد دخوله الفراش، محادثاتهما الطويلة، فيندم على تلاعبه بمشاعرها ويتمنّى لو كان قادرًا على سحب كلّ التلميحات التي حملت في طيّاتها معاني خفية، وقد تجاوز حدّه مرارًا بتوجيهها إليها بهدف إحراجها، لأنّها لم تكن تستحق ذلك.

لكنّ الأوان قد فات لأنّها رحلت إلى الأبد.

إلى جانب ذلك، راح يفكّر مكتئبًا بما كان قادرًا على تقديمه لامرأة مثلها، هو الذي يتشارك غرفة قذرة فوق السطوح مع آخرين، حتّى أنّه يستأجر السرير الذي ينام عليه بالساعة، وليس لديه دخل ثابت، كما أن سمعته في التعاطي مع النساء ليست طيّبة، ومن المؤكد أنّها بلغتها أثناء زيارتها مونبارناس. فقد رأى مارجريدا لوبيز دي ألميدا تراقبه عن معرفة، لذلك هو واثق من أنّها شاركت إيزابيلا كلّ ما تعرفه عنه.

طلب لوران طبق حساءٍ قبل أن يتغلغل الأفسنتين في خلايا دماغه فيسقط عن كرسيّه أرضًا، وراح يفكّر للمرة الألف إذا ما كان عليه إرسال تلك الرسالة التي كتبها في رأسه كلّ ساعة منذ لحظة مغادرتها. لكنّه بالطبع كان يخشى إن فعل، أن تقع بين اليدين الخطأ فتذهب ضحيّة تلك المبادرة.

عذّب نفسه مرارًا في التفكير إذا ما كانت قد تزوّجت بعد وصولها على الفور فضاعت عليه فرصته معها إلى الأبد. وأراد أن يسأل مارجريدا عنها، لكنّ دورة التدريب التي التحقت بها في المشغل كانت قد انتهت بعد انقضاء الشهرين، ومنذ ذلك الحين لم تعد تظهر هناك. فضلًا عن أنّه سمع في مونبارناس بذهابها مع والدتها إلى سان پول دي ڤانس حيث الطقس أكثر دفئًا.

- بروبي.

فجأةً شعر بيد على كتفه فالتفت بعينيه الحمراوين باتجاه ذلك الصوت الذي ناداه باسمه.

- كيف حالك؟

- بخير يا ماريوس، وأنت؟

- على حالي، فقير، ثمل، وبحاجةٍ إلى امرأة تواسيني. إنّما حاليًا يمكن أن تفيَ بالغرض كأس أخرى.

بقي لوران ينظر إلى ماريوس وهو يسحب الكرسي العالي الذي بجواره. كان ماريوس نكرة أخرى من فنّاني مونبارناس الذين يقضون أيّامهم باحتساء المشروبات الرديئة وممارسة الجنس الرخيص والحلم بمستقبل أكثر إشراقًا. ثمّ عاود التفكير في تلك الجثة الهامدة المرمية على سريره في غرفة السطوح الحقيرة، حينها فضّل البقاء في البار لغاية الفجر والنوم لاحقًا في الشارع حيث ستقوده ساقاه.

- أجل. قال موافقًا على التثنية.

- أفسنتين من فضلك.

كانت تلك ليلةَ جمعة بدأت إثرها عطلة نهاية الأسبوع، لذلك اختار أن يدفن أحزانه فيها. ذهب لوران مباشرةً إلى مشغل لاندوفسكي بعينين زائغتين وهو لا يزال يترجّح، ولا يذكر شيئًا مما حصل له طوال ذلك الوقت.

- انظر إلى ما تجرّه إلينا القطة. قال لاندوفسكي للصبي الذي يجلس على كرسيٍّ قبالته ويراقبه يعمل بشغف.

- يا إلهي أيها البروفسور، لقد أنهيت جزءًا كبيرًا منه! قال لوران وهو يحدّق إلى يد التمثال الضخمة، رافضًا التصديق أنّ لاندوفسكي عمل بدون انقطاع طوال الثماني والأربعين ساعة الماضية لينهي هذا الجزء من التمثال.

- حسنًا، لقد مرّت خمسة أيام على غيابك، فكان على أحدهم أن يواصل العمل هنا. أوشكنا أنا وهذا الفتى الصغير على إرسال دوريّة للبحث عنك في مونبارناس، لعلّنا نجدك في أحد أزقّتها.

- وهل اليوم هو الأربعاء؟ تساءل لوران في صدمة.

- هذا صحيح. أجاب لاندوڤسكي وهو يعيد انتباهه إلى ذلك الشكل الأبيض الكبير ليغرس مشرطه داخل الجص الذي لا يزال رطبًا.

- والآن سأقوم بتقليم الأظفار. خاطب الصبي وهو يتجاهل لوران.

عندما عاد لوران من المطبخ بعد أن غسل وجهه وشرب كوبي ماء لعلّها تخلّصه من ألم الرأس، نظر إليه لاندوڤسكي وقال:

- كما ترى، وجدت لنفسي مساعدًا جديدًا. وغمز الصبي قبل أن يتابع:

- على الأقل هو لا يختفي طوال خمسة أيام ثمّ يعود فجأة ثملًا من الليلة السابقة.

- أعتذر منك، يا بروفيسور، فأنا...

- كفاك يا برويي! افهم أنّني لن أتساهل إزاء سلوك مماثل بعد اليوم. كنت بحاجة ماسّة إلى مساعدتك لكنّك لم تظهر أمامي. والآن، قبل أن تتجرّأ على لمس يد المسيح، اذهب إلى زوجتي وأخبرها أنّني أمرتك بالنوم هناك إلى أن يختفي أثر الخمر عنك.

- حالًا يا بروفيسور.

ترك لوران المشغل بوجه أحمر وهو يوبّخ نفسه كيف حدث ذلك. فقامت زوجة لاندوڤسكي، أميلي، وكانت سيّدة متفهّمة جدًّا، بوضعه داخل الفراش.

بعد أربع ساعات، استيقظ من نومه وأخذ حمامًا باردًا ثمّ تناول الحساء الذي قدّمته له أميلي، وعاد إلى المشغل.

- هذا أفضل. أومأ البروفيسور وهو يحدّق إلى لوران من رأسه إلى أخمص قدميه.

- لقد عدت تليق بالعمل معي.

وجد لوران أن يد المسيح العملاقة بات لديها سبابة، كما وجد الصبي ما يزال على ذلك الكرسي حيث رآه آخر مرة، يراقب عمل لاندوڤسكي عن قرب.

- سأبدأ الآن بنحت البنصر، هذا هو النموذج الذي أعمل وفقه. وأشار لاندوڤسكي إلى أحد القوالب التي صبّها لوران على يدي إيزابيلا ومارجريدا.

تقدّم لوران منها وسأل لاندوڤسكي:

- وأي واحدة اخترت؟.

- ليس لديّ أدنى فكرة فهي لا تحمل اسمًا عليها. وربّما هذا أفضل. ففي النهاية، أريدها أن تكون يدي المسيح دون سواه.

لكن لوران راح يبحث عند مستوى الأصبع الصغير عن الشقّ الرفيع الذي ثبّته أثناء إزالة القالب عن يد مارجريدا، فلم يجده. حينها شعر بالسرور إذ فهم أنّ لاندوڤسكي اختار من دون شكّ يدَي إيزابيلا ليصنع منهما اليدين اللتين ستحميان ريو.

32

مكتبة
t.me/soramnqraa

بالي دو ألفريس، البرازيل، تشرين الثاني 1928

خلال الأسبوعين اللذين قضتهما بيل برفقة والدتها في الفازندا في أعلى الجبال، نجحت كارلا في استرجاع قوّتها بشكل ملحوظ. لعلّ الهواء النظيف هو الذي ساعدها على ذلك، أو لعلّه جمال الطبيعة وصفاء المكان، وربّما كانت رعاية فابيانا هي التي ساعدتها في ذلك، لم يكن لدى بيل أيّ فكرة. وبالتالي استعادت كارلا بعض الوزن الذي خسرته أثناء مرضها، ما أحيا النشاط فيها وأتاح لها الخروج من البيت للتنزّه في جولات قصيرة عبر الحدائق من دون طلب المساعدة.

كان الطعام الذي يتناولونه يأتيهم من مزرعتهم أو من المناطق التي تحيط بها؛ فاللحوم كانت تأتي من ماشيتهم والجبن والحليب من الماعز الذي يرعى في أرضهم، والخضر والفاكهة من المزارع المحلية هناك. وكانت المنطقة مشهورة بإنتاجها للطماطم، وفابيانا تقسم بصفاتها العلاجية، لذلك كانت تقطّعها وتفرمها وتغربلها لتضيفها إلى جميع الوصفات التي تحضّرها.

شعرت بيل هي أيضًا بالتعافي مع كلّ يوم جديد، إذ كانت تستيقظ كلّ صباح، وترتدي ملابس السباحة، وتخرج مباشرة إلى البحيرة لتغوص فيها قبل أن تجلس إلى المائدة لتتناول كعكة الباوند اللذيذة التي لم تكفّ فابيانا عن تحضيرها على الفطور وكأنّها دواء. كما كانت تقصد في كثير من الأحيان الشلال الذي تسقط مياهه العذبة من أعلى الجبال لتصبّ في أرضهم. كانت تجلس تحته وتسترسل

في التحديق إلى الجبال فتشعر ببرودته الجليدية وهي تدلّك ظهرها في تموّجات متتالية.

وخلال النهار، كانت تستلقي على الشرفة بينما تستريح أمها في غرفتها، وتغوص في القراءة، وكانت تفضّل كتب الفلسفة وتلك التي تعلّم كيفية العيش بسلام مع الذات على القصص الرومنسية التي كانت تفضّلها عندما كانت أصغر سنًّا، لكنّها في النهاية أدركت أنّها من محض الخيال، وأنّ الحب في الواقع لا تكون نهايته دائمًا سعيدة.

أما بعد الظهر، فكانت في معظم الأوقات تسرج حصانها لوتي لتسرح على ظهره عند المسارات الوعرة وعبر المنحدرات إلى أن تبلغ قمّة التل فتستقرّ هناك لتستريح هي وحصانها قليلًا وتمتّع عينيها بالمنظر الرائع.

أما الأمسيات في المزرعة فكانت تقضيها في لعب الورق مع والدتها. وعندما تشعر بالنعاس، كانت تنسحب إلى غرفتها لتغط في نوم عميق. ولكن قبل أن تغمض عينيها، كانت توجّه صلاة صغيرة إلى اللّه طالبة منه أن يعيد الصحة إلى والدتها، ويوفّق والدها في أعماله وأن يعثر لوران، الذي ما تزال تشعر بدفئه في قلبها رغم المسافة التي تفصل بينهما، على السعادة في المستقبل.

تلك كانت الهدية الوحيدة القادرة على تقديمها له، وكانت تقوم بذلك لأنّها تشعر به، وليس من باب تأنيب الضمير.

إلا أن رؤيتها للوين وبرونو يتنزّهان كلّ مساء وهما يتعانقان لم يساعدها في نسيانه. وذات مرة رأتهما عند البحيرة يسترقان القبلات في الخفاء، فاحترق قلبها من الغيظ.

وفي إحدى الليالي، بينما كانت مستلقية على سريرها تتذكر لمسات لوران الحارّة، راحت تفكّر كيف أن الحياة خارج المزرعة تبدو بعيدة المنال. وتذكّرت إقامتها في باريس عندما بدا لها زواجها من غوستافو والحياة التي كانت تعيشها في ريو بعيدة جدًّا منها، خصوصًا عندما كانت تغوص في متاهات مونبارناس، متخيّلة لوران في أحد أزقّتها.

خلال إقامتهم في المزرعة التي امتدّت ثلاثة أسابيع، جاء أنطونيو ليقضي عطلة نهاية الأسبوع معهم. وعلى الفور، تبدّلت الأجواء هناك؛ إذ قامت فابيانا بحفلة تنظيف كبيرة، كما قام زوجها بتقليم العشب وتلميع اللوازم النحاسية المعلّقة على الحائط في غرفة الطعام.

- كيف حالها؟ سأل أنطونيو ما إن وصل في ذلك العصر وكارلا تأخذ قسطًا من الراحة.

- لقد تحسّنت كثيرًا يا پاي. أعتقد أنّها بعد أسابيع قليلة، ستعود إلى ريو بكامل قواها. ففابيانا تقوم برعايتها كما يلزم.

- حسنًا، سأتأكّد من ذلك بنفسي عندما تستيقظ. لكن يا إيزابيلا. قال أنطونيو.

- زواجك في نهاية كانون الثاني، وما زال هناك أشياء كثيرة لتقومي بها. فإذا كانت أمّك تتعافى بفضل رعاية فابيانا كما تقولين، أشعر بأنّ عليك أن تتركيها هنا وتعودي معي إلى ريو.

- لكن يا پاي، أنا متأكّدة من أنّ ماي تفضّل أن تبقى ابنتها بالقرب منها.

- أما أنا فمتأكّد تمامًا من أنّ أمّك تدرك أنّك على وشك الزواج، لذلك ستتفهّم مسألة عودتك إلى ريو في هذا الوقت لتنهي تحضيرات العرس. أجابها أنطونيو.

- ناهيك عن ضرورة بقائك بجانب خطيبك. وأعتقد أنّ غوستافو كان صبورًا للغاية حتّى الآن بالنظر إلى الظروف الراهنة. ولا أشكّ في أنّه بات يشعر برغبتك في الهروب منه عند أول فرصة. كما أنّني أعرف أنّ والديه قلقان بشأن الترتيبات، تمامًا مثلي. لذلك ستعودين حالًا معي إلى ريو، هذا آخر كلام عندي.

وعندما غادر أنطونيو الغرفة ليتفقّد زوجته، شعرت بيل بالهزيمة.

قالت بيل وهي تقبّل أمّها بعد مرور يومين على حديثها مع أنطونيو لتودّعها:

- ماي، من فضلك. إذا شعرت بحاجة إلى وجودي هنا، تأكّدي أنّني سأكون مسرورة بالعودة. لقد طلبت من فابيانا أن تخبرني عن تطوّر حالتك عبر الهاتف الموجود في القرية.

- لا تقلقي عليّ يا Piccolina (صغيرة). أجابت كارلا وهي تداعب وجنة ابنتها بلمسة حنونة.

- ثقي بأنّني أسير على طريق الشفاء بخطًى ثابتة. بلّغي تحيّاتي إلى سينيورا آيريس كابرال وانقلي اعتذاري لها، وأخبريها بأنّني أنتظر بفارغ الصبر عودتي إلى ريو. والآن اقتربي لتعانقي أمّك.

بعد ذلك، وقفت كارلا عند المدخل تلوّح بيدها لزوجها وابنتها. وبعد أن قبّل أنطونيو زوجته، انطلقت السيّارة بهما سالكةً ببطء الطريق الصخري.

- شعرت بالارتياح لتحسّن حالتها الصحية. قال أنطونيو:

- لا أدري ماذا كنت سأفعل من دونها.

فوجئت بيل بالضعف الذي عكسته عينا والدها، كانت تلك أوّل مرّة تراهما فيها إذ لطالما تراءى لها أنّه بالكاد يشعر بوجودها إلى جانبه.

انقضى الشهر التالي وبيل تقوم بزيارات متتالية إلى كازا داس أوركيدياس للقاء لويزا والاتفاق معها على أدق التفاصيل المتعلّقة بالزفاف. وعلى الرغم من أن بيل كانت مصمّمة على عدم السماح لتلك المرأة بإغاظتها، إلّا أن أسلوبها المتعالي والمتعجرف في التعاطي مع الآخرين دفعها إلى عض لسانها في مناسبات عديدة.

بدأت بيل باقتراح الترانيم المفضّلة لديها، ومن ثمّ اختارت فساتين وصيفات الشرف المناسبة للفستان الرائع الذي كانت سترتديه، ولاحقًا اقترحت قائمة طعام محتملة لتقدَّم على الفطور الذي كان سيلي مراسم الزفاف. وفي كلّ مرة، كانت لويزا تعارضها بإيجاد أسباب تجعل من خياراتها غير ملائمة. وفي النهاية، وجدت أنّ الحل الوحيد لتوقف ذلك الألم الذي تتسبّب لها به، كان بالموافقة على كلّ ما تقترحه هي.

وكان غوستافو ينضمّ إليهما أحيانًا في غرفة الرسم، فيظهر تعاطفه معها بالضغط على يدها ما إن تغادر والدته الغرفة.

- شكرًا لك على حسن التعامل مع أمّي. أعرف أنّها قادرة على أن تكون مستبدّة».

بعد كلّ زيارة، كانت بيل تعود إلى المنزل منهكة ومصابة بصداعٍ أليمٍ من شدّة التوّتر الناتج عن وقوفها أمام لويزا والموافقة على كلّ ما تقوله. وكم تساءلت كيف ستنجح في السيطرة على نفسها عندما تعيش معها تحت سقف واحد.

وعندما بلغ الصيف أوجه في ريو، وجدت بيل نفسها وحيدة في المنزل من دون والدتها التي كانت ما تزال بعيدة، ووالدها الذي كان يطول بقاؤه في المكتب من الفجر إلى الغسق، لكن ذلك أتاح لها التمتّع بحرية أكبر من السابق. أما لوين التي شعرت باليأس منذ مغادرتها للمزرعة وابتعادها عن برونو، فكانت ترافق بيل إلى محطة القطار لتصعدا سويًّا إلى أعلى الجبل وتتفقّدا ما وصل إليه مشروع كريستو. من منصة المشاهدة، كان بإمكانهما رؤية الموقع يتحوّل إلى حركة أعمال ناشطة، بعد أن وضعت القضبان الحديدية الضخمة في مكانها فرسمت الصليب بشكل واضح.

هذا الأمر أشعر بيل بالارتياح. فمنذ إقامتها في الفازندا، باتت تشعر بسلام أكبر في داخلها بعد أن قرّرت بأنّ تواصل حبّ لوران مهما تكن حقيقة شعوره تجاهها. كانت قد فهمت أنّ محاولتها للقتال من أجله هي أمر مستحيل، لذلك استسلمت للواقع وتقبّلت فكرة أن تحبّ لوران في الخفاء ما تبقّى من حياتها.

33

باريس، كانون الأول 1928

- انتهى وأصبح جاهزًا للتقطيع والشحن عبر البحار إلى أرض البنّ اللذيذ. قال لاندوڤسكي وهو يمعن النظر إلى رأس الكريستو ويديه، وقد بات الآن يشغل كلّ شبر فراغ من مساحة المشغل.

قام لاندوڤسكي بجولة أخرى حول الرأس ليدرسه مجدّدًا.

- ما زال الذقن يثير قلقي. بالنظر إليه من هنا، يبدو وكأنّه ناتئ خارج الوجه مثل زلّاقة عملاقة، لكن البرازيلي المجنون يقول بأنّه يرغب فيه هكذا.

- تذكّر يا بروفيسور أنّه سيُنظر إليه من مسافة بعيدة. علّق لوران.

- وحده أبوه الذي في السماء يعرف إن كان سيبلغ ريو دي جنيرو سليمًا معافى. قال لاندوڤسكي بنبرة متذمّرة.

- يعمل البرازيلي على ترتيب مكان له على باخرة شحن. لنأمل أن تكون البحار هادئة أثناء نقله حتّى لا يصطدم بحاوية مرافقة. كنت لأوصله بنفسي لو استطعت لأشرف على طريقة شحنه وأراقب مراحل بنائه الأولى، لكن لا وقت لديّ لأخصّصه له. فهذا المشروع قد استغرق ضعف الوقت المتوقّع له وأنا لم أنتهِ بعد من منحوتة صن ياتسن، كما أنّني تخطّيت موعد تسليمها من زمن بعيد. حسنًا». قال وهو يتنهّد.

- لغاية الآن فعلت ما بوسعي، وبعد ذلك تخرج الأمور عن إرادتي.

بينما كان لوران يستمع إلى لاندوڤسكي، لمعت في ذهنه فكرة صغيرة، لكنه احتفظ بها لنفسه إذ أرادها أن تنمو قليلًا قبل أن يخرجها إلى العلن.

في اليوم التالي، جاء إلى المشغل هيتور دا سليفا كوستا وتناقش الرجلان في مكان تقطيع الرأس وطريقة تنفيذ ذلك. فاستمع لوران له كما استمع لاندوڤسكي الذي أعرب مرة أخرى عن مخاوفه بشأن سلامة القوالب أثناء النقل إلى ريو.

وعلى الفور وافق هيتور قائلًا:

- أنت على حق. كنت أفضّل أن يرافق أحدهم التمثال إلى هناك ليتحقّق بانتظام من سلامته أثناء الشحن، لكنّني في الوقت الحاضر لا أستطيع الاستغناء عن أحد من فريقي، لأنّ الرسّامين لم ينتهوا بعد من عملهم.

فجأة قال لوران لهما:

- أنا أذهب. ليفصح عن تلك الفكرة التي لمعت في ذهنه في اليوم السابق.

التفت إليه الرجلان متفاجئين.

- أنت يا برويي؟ اعتقدت أنّك لن تتخلّى بهذه السهولة عن شوارع مونبارناس وعن حياتك الاجتماعية المحمومة. قال لاندوڤسكي.

- يحزنني القول إنّه لم تتَح لي بعد فرصة السفر خارج فرنسا، يا بروفيسور. إن صرف بضعة أشهر في مثل تلك البلاد الغريبة عن محيطي ستوسّع آفاقي الفنّية وتلهمني أثناء العمل.

- وبعد ذلك يتراءى لي أنّك ستعود إلى هنا لتعمل على منحوتة رائعة من حبوب البن. قال لاندوڤسكي ساخرًا.

قاطعه هيتور:

- سينيور برويي، إذا كنت جادًا في اقتراحك، أعتقد أنّها فكرة ممتازة، لأنّك كنت شاهدًا منذ البداية على بناء الهيكل. كما أنّ يديك ساهمتا في تصميم أجزاءٍ كبيرة منه. إذا استطاع البروفيسور الاستغناء عن خدماتك لبعض الوقت، ستكون أنتَ عينيه في ريو بينما يُقام التمثال.

- واحرص على ألّا ينتهي أصبع سيّدنا عالقًا في أنفه. تمتم لاندوڤسكي حابسًا أنفاسه.

- سأكون سعيدًا بالذهاب إلى هناك إذا رغبتما أنتما في ذلك. كرّر لوران:

- متى نبحر يا سيّد دا سيلڤا كوستا؟

- لديّ حجز على الباخرة المبحرة في الأسبوع المقبل، ما يعطينا الوقت الكافي لتقطيع القوالب ولفّها بإحكام داخل صناديقها. اعلم أنّك كلّما وصلت إلى ريو مبكرًا وسلّمتهم الأجزاء بأمان، شعرت أنا بسعادة أكبر. هل يمكن لك الاستعداد للسفر على الرغم من هذا الإشعار السريع؟ سأله هيتور.

- أنا واثق من أنّه سيتعيّن عليه مراجعة مفكّرته أوّلًا ليرى إذا كان بإمكانه تأجيل بعض الأعمال. قال لاندوڤسكي وهو يرمق لوران بنظرة تأمره بالصمت.

- كما أنّني أفترض أنّه سيحظى بمكافأة مالية على قيامه بهذه الرحلة وعلى وقته الضائع؟ كأن يحظى مثلًا بسرير ينام عليه وبالوجبات الثلاث؟

- بالطبع. وافق هيتور على وجه السرعة.

- حتّى أنّك ذكّرتني بأمر. فقد تلقّيت مكالمة هاتفية قبل أيام من غوستافو آيريس كابرال، خطيب إيزابيلا بونيفاسيو. لقد سمع بالتمثال الذي نحتّه لها يا سينيور بروِيي، ويودّ أن يقدّمه لزوجته بمناسبة زفافهما. لذلك فكّرت في أن أسألك إذا كنت على استعداد لبيعه؟

- أنا...

كان لوران يوشك أن يقول إنّه لن يبيع تمثال حبيبته إيزابيلا لخطيبها بأي شكل من الأشكال، عندما قاطعه لاندوڤسكي قائلًا:

- يا للأسف، لقد وجد ذلك التمثال مشتريًا ثريًا، هل قبلتَ عرضه يا بروِيي؟

فأجاب لوران في حيرة من أمره:

- لا، أنا...

- حسنًا، إذًا ربّما سيقدّم خطيب الآنسة بونيفاسيو فيه عرضًا أفضل، حينها ستقرّر إلى من تبيعه. قلتَ لي إنّه عرض عليك ألفي فرنك، أليس كذلك؟

ورمق لاندوڤسكي لوران بنظرة أخرى أشارت إلى رغبته في أن يجاريه في اللعب.

- نعم.

- لذلك يا هيتور، أخبِر ذلك السيّد آيريس كابرال أنه إذا كان على استعداد لدفع مزيد من النقود فيه وتغطية تكاليف الشحن إلى ريو، حينها سيكون التمثال ملكه.

أجاب هيتور:

- سأفعل. على الرغم من أنّ تعابير وجهه لم تظهر أنّه كان مهتمًّا ولو قليلًا بالمفاوضة في سعر منحوتة لا تعنيه بشيء بينما هو غارق في التفكير بمنحوتته الخاصّة.

- أنا متأكّد من أنه لن يكون هناك مشكلة. سأعود غدًا لأرى أين وصلتم في تقطيع تمثالنا العملاق. أتمنّى لكما نهارًا سعيدًا». وأومأ هيتور لهما ثمّ غادر الورشة.

ما إن أصبح في الخارج، سأل لوران لاندوڤسكي:

- بروفيسور، ما هذا كلّه؟ لا يوجد مشترٍ أو ما شابه لمنحوتة الآنسة إيزابيلا، حتّى أنّني في الواقع لم أفكر في بيعها.

- بروِيي، ألّا ترى أنّني كنت أقدّم لك معروفًا بلعب دور الوكيل؟ عليك أن تشكرني على ذلك. لا تفكّر في أنّني صدّقت شغفك المفاجئ بالسفر، وحجّتك في اجتياز نصف العالم لمجرّد مرافقة القوالب المجزّأة للمسيح. وفي حال قرّرت البقاء في البرازيل، فستحتاج إلى بعض المال ليساعدك على المضي قدمًا. ما حاجتك إلى منحوتة ثمينة عندما تكون قريبًا من الشخص الحيّ الذي ألهمك نحتها؟ دَع خطيبها يخلّدها بمنحوتة من الحجر ويكتفي بعبادة جمالها الخارجي، لأنّني أظن أنّه لن يحظى بروحها، فمن الواضح أنّك سبقته إليها. وأنا شخصيًّا أعتقد أنّها مبادلة موفّقة. قال لاندوڤسكي وهو يضحك.

- والآن، هيّا إلى العمل.

في تلك الليلة، استلقى لوران على لوح التحميل الذي في المشغل، حاشرًا نفسه بين رأس المسيح وأصبعه الضخم، يفكّر مليًا بما كان ينوي فعله.

فإيزابيلا كانت واضحة تمامًا بشأن مستقبلها، ولا بدّ من أنّ زواجها قد أصبح وشيكًا حتّى أنّه يرجّح أن يكون قد تمّ بحلول الوقت الذي سيصل فيه إلى ريو. فما الذي يأمل في تحقيقه بسفره إلى هناك؟ لم يبدُ على لوران أنّه كان واثقًا من ذلك.

لكنّه مثل باقي العاشقين، كان من أشدّ المؤمنين بالقدر. وبينما كان يلقي نظرة خاطفة على الكف العملاق قبل أن يغطّ في نومه، أمل فقط أن يتدخّل القدر هذه المرّة لصالحه.

34

ريو دي جنيرو، كانون الثاني 1929

جاء اليوم الذي سيُعقد فيه قران غوستافو مَوريسيو آيريس كابرال على إيزابيلا روزا بونيفاسيو. فبدا من ساعات الصباح الأولى أنّه يوم دافئ ومشرق، إذ كادت سماؤه تخلو من السحاب. للمرة الأخيرة، قفزت بيل على مضض خارج السرير الذي لطالما دخلته وحيدة والوقت لا يزال مبكرًا، وخرجت من غرفتها على صوت قعقعة المقالي الصادرة من بعيد، من داخل المطبخ.

راحت تتجوّل في الطابق السفلي حافية القدمين، فدخلت غرفة الرسم، ومن ثمّ ذهبت إلى الكوّة الصغيرة لتصلّي في الكنيسة.

هناك أشعلت شمعة عند المذبح، ثمّ هبطت فوق المركع المغطّى بقماش مخمليّ أحمر، وأغمضت عينيها وشبكت يديها لتتلو صلاتها.

«أيّتها العذراء المقدّسة، اليوم سيُعقد قراني، لذلك أعطني القوة والثبات لأسير إلى المذبح بقلبٍ كبيرٍ فأكون الزوجة الطيّبة والمحبة لغوستافو، والكنّة الصبورة والحنونة للسيّد والسيّدة آيريس كابرال». قالت متأثّرة بصلاتها. «امنحيني أبناءً أصحّاء واجعليني أقدّر النعم التي لديّ بدلًا من التركيز على المشكلات التي سأواجهها. زيدي من ثروة والدي، وأعطي أمّي الحبيبة كامل الصحّة، آمين».

وعندما فتحت عينيها، نظرت إلى وجه العذراء الباهت فاغرورقت عيناها بالدموع.

ثمّ همست قائلةً: «أنت امرأة، لذلك آمل أن تغفري لي الأحاسيس التي أعجز عن اقتلاعها من قلبي».

وبعد بضع دقائق، نهضت على ركبتيها وأخذت نفسًا عميقًا وغادرت الكنيسة لتنطلق في ما يُفترض أن يكون أسعد يومٍ في حياتها.

من الناحية التقنية، لا شيء في ذلك اليوم يمكن أن يكون أفضل ممّا بدا عليه. فقد اصطفت الحشود في الشوارع لتشاهد إيزابيلا بونيفاسيو وهي تصل برفقة والدها إلى كاتدرائية ريو. فما إن خرجت من سيّارة الرولز رويس بفستانها المذهل المصمَّم في باريس بدانتيلا الشانتيّي من توقيع جاين لانفين، حتّى بدأت تلك الحشود تهتف لها. أمّا الكاتدرائية فكانت مكتظّة بالمدعوّين، وقد سارت بيل ممسكة بيد والدها وهما يتقدّمان بكلّ فخر في الممر الرئيسي باتجاه غوستافو. ومن خلف حجابها الأبيض الشاش، راحت تسترق النظر يمينًا ويسارًا إلى الوجوه المألوفة التي شكّلت أرقى الطبقات الاجتماعية في بلادها.

وبعد ساعة من الوقت، قاد غوستافو عروسه الجديدة على طول الممر الرئيسي إلى خارج الكاتدرائية على وقع رنين الأجراس.

ومرّة أخرى، هلّلت الحشود لهما وهما يركبان عربة الخيول التي نقلتهما عبر شوارع ريو إلى فندق كوباكابانا بالاس. وهناك وقفت بيل بجانب زوجها يتلقّيان تهنئة ثلاثمئة ضيفٍ توافدوا إلى الصالون الضخم للاحتفال معهما.

بعد تقديم الأطباق العديدة خلال الفطور الذي نظّم للزفاف، انسحبت بيل وغوستافو إلى جناحهما في الفندق ليرتاحا قليلًا قبل أن يحين موعد الحفلة الراقصة لاحقًا في المساء.

وبمجرد أن أغلق الباب خلفهما، أمسك غوستافو بيل بين ذراعيه.

- أخيرًا. غمغم وهو يحفر وجهه في رقبتها.

- بات لي الحقّ في تقبيلك. تعالي إلى هنا.

وسحب رأسها باتجاهه وقبّلها مثل رجل جائع. ثمّ تحرّكت يداه لتتلمّسا طبقة الدانتيلا الرقيقة التي تغطي صدرها وراح يداعبها بشدّة.

- لحظة. قالت وهي تشهق.

- أنت تؤلمني.

- سامحيني يا بيل. ثمّ حرّرها من بين يديه وهو يضغط على نفسه لاستعادة رباطة جأشه.

- أرجو أن تتفهّميني لأنّني أنتظر هذه اللحظة منذ زمن بعيد. حسنًا، لا يهم. قال وهو يغمزها.

- بقي بضع ساعات وستستلقين حينها عارية بين ذراعيّ. هل أحضر لك مشروبًا؟». سألها وهو يبتعد عنها، فشعرت بيل بأنّها ترتجف من دون إرادتها.

راحت تراقبه وهو يتّجه نحو الدورق الموضوع بجانب الطاولة ويصبّ لنفسه كأسًا كبيرة من شراب البراندي.

- لا، شكرًا.

- ربّما هذا أفضل، لأنّني لا أريد لحواسك أن تتلاشى هذه الليلة. ثمّ ابتسم ورفع لها كأسه.

- نخب زوجتي... الجميلة. أضاف وهو يكرع البراندي كرعةً واحدة.

كانت بيل، في المرات القليلة الماضية التي رافقت فيها غوستافو في مناسبات اجتماعية، قد شعرت بأنّه يميل إلى شرب الكحول. وكان بحلول المساء، أي مع انتهاء موعد الحفلة، يدخل في حالة سكر خفيفة.

- أريد أن أخبرك بأنّني اشتريت لك هديّة مميّزة بمناسبة زفافنا، لكنّها لم تصل في الموعد. من المقرّر أن تكون هنا عندما نعود من شهر العسل.

ثمّ سألها:

- هل تريدين مساعدتي في خلع ملابسك كي ترتاحي قليلًا؟

نظرت بيل إلى السرير المزدوج الهائل الذي أمامها وشعرت بنفسها تتوق إلى رمي جسمها فوقه. كانت قدماها ما تزالان داخل حذائها الساتان ذي الكعب العالي، وتاجها المرصّع بالماس لا يزال مشكوكًا داخل خصلها في أعلى رأسها، ما يعني أنّها كانت بقامتها الطويلة تفوق عريسها بثلاث بوصات. ناهيك عن المشدّ غير المريح الذي ربطته لوين بإحكام في الصباح تحت الدانتيلا. كلّ ذلك أشعرها بتعب شديد، لكنّ فكرة أن يحرّرها غوستافو من ذلك القيد بأصابعه الرفيعة الشاحبة لم تكن بالخيار الجذّاب.

- سأذهب إلى الحمام. قالت وهي تحمّر من الخجل.

فأومأ غوستافو برأسه بعد أن صبّ لنفسه كأس براندي أخرى.

دخلت بيل إلى القاعة الفخمة ذات المرايا الكبيرة، وجلست على الكرسي يخالجها شعور بالامتنان. ثمّ أغمضت عينيها وراحت تفكّر في سخرية القدر، وكيف أنّ مجرّد خاتم في أصبعها وبضع جملٍ قصيرةٍ كانت ستغيّر حياتها تغييرًا جذريًّا.

التناقض بين وضعها كأنثى غير متزوجة مُلزمَة بحماية طهارتها بأي ثمن من أي ذكرٍ مفترس، ووضعها الجديد الذي ستصبح عليه بعد ساعات فقط عندما ستنفرد في غرفة النوم برجل غريب لتمارس معه الأفعال الأكثر حميمية، بدا لها سخيفًا جدًّا. ثمّ راحت تنظر إلى انعكاسها في المرآة وتتنهّد.

- ما زال غريبًا عنّي. همست لنفسها وهي تفكّر مرة أخرى في المحادثة التي أجرتها مع والدتها في الليلة السابقة.

كانت كارلا التي استعادت كامل عافيتها منذ ذهابها إلى فازيندا، قد دخلت إلى غرفة نومها قبل أن تطفئ بيل النور، وأمسكت بيديها لتقول:

- *querida*، سأخبرك الآن بما سيحدث ليلة الغد.

فأجابتها بيل محرجة:

- ماي، أعتقد أنّني أعرف.

عندئذٍ أبدت كارلا ارتياحها على الرغم من محاولة إخفائها لذلك، فأصرّت على المتابعة في حديثها.

- هذا يعني أنك تدركين أنّ المرّة الأولى ستكون مزعجة بعض الشيء، وأنّك قد تنزفين؟ على الرغم من أن بعضهم يقولون إنّ المرأة التي تركب الخيول مرارًا معرّضة لفقدان الأنسجة الرقيقة التي تشير إلى عذريّتها، وأنت قد ركبتها كثيرًا أثناء وجودنا في المزرعة.

- آه، لم أكن أعرف ذلك. أجابت بيل بصراحة.

- سيستغرق الأمر بعض الوقت قبل أن يتحوّل إلى عادة بالنسبة إليك. وأتخيّل أنّ يكون لغوستافو بعض الخبرة، لذلك أثق بأنّه سيكون لطيفًا في البداية.

- ماي، وهل... يليق بسيّدة محترمة أن تستمتع أثناء قيامها بذلك؟ سألت بيل أمّها بعد تردّد.

وأطلقت كارلا ضحكة عالية.

- بالطبع *querida*، عندما تكونين متزوجة، فإنّ زوجك لن يتمنّى أكثر من شعورك بالمتعة أثناء استكشافك للملذات داخل غرفة النوم. هكذا ستحافظين عليه في المستقبل، وهكذا حافظت على زوجي حتى اليوم. وبان على وجنتيها أثر طفيف للخجل.

- تذكرّي أنّك تقومين بذلك لإنجاب الأطفال، لذلك فإنّ العلاقة الزوجية محلّلة من عند اللّه، هو من جعلها مقدّسة. والآن، تصبحين على خيرٍ يا إيزابيلا، نامي جيّدًا ولا تقلقي بشأن الغد. كلّ شيء سيكون أفضل ممّا نتوقّعه، أعدك بذلك».

عندما تذكّرت بيل المحادثة شعرت باشمئزاز من فكرة ملامسة غوستافو لها، وإن بلطف، مثلما وصفتها أمّها. ثمّ نهضت عن الكرسي لتعود إلى الغرفة، وهي تأمل أن يكون توترها ذاك ناتجًا عن كونها تخوض التجربة للمرة الأولى، وأن تصبح الأمور فيما بعد عادية كما تقول كارلا.

ما إن دخلت إيزابيلا بثوبها الأبيض المتلألئ الرائع الذي أبرز منحنياتها ليتساقط في نهايته على الأرض مثل ذيل سمكة، حتّى ساد صمت رهيب في القاعة. وبعد أن احتضنها غوستافو انهال الضيوف عليهما بالتصفيق.

- تبدين جميلة يا حبيبتي، وكلّ رجل في هذه القاعة يشعر الآن بالغيرة منّي لأنّني سأشاركك السرير هذه الليلة. همس غوستافو في أذنها.

باستثناء الرقصة الأولى، لم تجتمع بيل بغوستافو خلال الساعات الثلاث التالية إلّا نادرًا، فقد بقي كلّ منهما بجوار عائلته. كما أنّ بيل راقصت رجالًا غرباء عديدين أعربوا لها عن غيظهم من غوستافو الذي حالفه الحظ لكونها علقت في شراكه. إلّا أنّها لم تشرب كثيرًا في تلك الليلة، إذ كانت متوترة بشدّة مما كان سيحصل بعد بضع ساعات، وقد اشتدّ ذلك الشعور بقوّة ما إن تجمّع الضيوف قرب الدرَج الرئيسي ليودّعوهما أثناء صعودهما إلى الطابق العلوي.

- لقد حان الوقت. قال غوستافو وهو يقف بجانبها بينما كانا يسيران في مقدّمة الحشد.

ثمّ تمنّى غوستافو عليهم الصمت وقال:

- أيها السيدات والسادة والأصدقاء، أريد أن أشكركم على حضوركم الاحتفال معنا بهذا اليوم العظيم. والآن حان الوقت لأمسك بيد زوجتي وأقودها إلى الطابق العلوي.

أعقبت كلمته موجة من الصفير والصيحات البذيئة فأضاف:

- لذلك، أتمنّى لكم أمسية جميلة وتصبحون على خير. تعالي يا إيزابيلا.

قال ذلك وهو يمدّ لها ذراعه، فأمسكت بها وأدارا ظهريهما للمدعوّين وتابعا صعود السلّم.

وهذه المرة بمجرّد أن انغلق باب الجناح وراءهما، خلا أسلوب غوستافو في مقاربتها من اللطف. ومن دون التلفّظ بأي كلمة، دفعها على السرير وقام بتثبيت معصميها فوق المرتبة، ثمّ بدأ بتقبيل وجهها ورقبتها مثل المجنون ممرّرًا مخالبه فوق ثوبها الجميل.

- لحظة من فضلك، من الأفضل أن تفكّ الأزرار. قالت وهي تتدحرج قليلًا لتبعد نفسها عن رائحة الكحول التي تخرج من أنفاسه النتنة.

أحسّت بيديه المرتبكتين تعجزان عن التقاط حبيبات اللؤلؤ الصغيرة التي تعقد فستانها من الخلف. وسرعان ما أصيب بالإحباط فأمسك الفستان بوحشيّة ومزّقه وسحبه بعيدًا عن جسدها، ثمّ فكّ حمّالة الصدر ودحرج بيل إلى الجهّة الثانية ووضع شفتيه مباشرةً على حلمتيها. لاحقًا حطّت يده فوق جوربها وتحرّكت صعودًا عند فخذها من الجهة الداخلية إلى أن بلغت مثلث الحرير الذي يغطيّ جزءها الحميم وراح يحرّكها هناك ذهابًا وإيابًا.

لم تمرّ إلّا ثوانٍ قبل أن يمزّق المثلّث، ويجثو على ركبتيه ويفكّ أزرار بنطاله ويخرج قضيبه. كان غوستافو لا يزال يرتدي ملابسه، فضغط بثقله على بشرتها الرقيقة، وعندما لم يجد مدخلها عاد يئن من الإحباط. وفي النهاية، استخدم يده متحايلًا لإيجاد المدخل إلى أن عثر عليه وغرز قضيبه فيه.

بقيت بيل مستلقية تحته تعضّ شفتها من الألم. في تلك اللحظة، أغلقت عينيها وهي تأخذ نفسًا عميقًا يضع حدًّا للذعر الذي يصيبها، فرأت العالم سوادًا في سواد. ولحسن الحظ لم يستغرق ذلك إلّا ثواني، أطلق إثرها غوستافو صرخة غير مألوفة من رجل، قبل أن يسقط فوقها.

أمّا بيل فلم تحرّك ساكنًا، وبقيت في مكانها تستمع إلى صوت نفَسه الثقيل داخل أذنها. إذ أنّ رأسه بجانب رأسها ووجهه ينظر إلى اللحاف، وقد رمى بكلّ وزنه عليها حتّى تثبت تحته، وركبتاها مطويّتان فوق حافة السرير. وما إن تحرّكت قليلًا لتحرّر نفسها، حتى رفع رأسه ونظر إليها.

- أخيرًا، أصبحت ملكي إلى الأبد. ثمّ ابتسم وهو يلمس خدّها.

- اذهبي ونظّفي نفسك، تفهمين ماذا أقصد، مادامت المرة الأولى.

وقبل أن تتيح له فرصة التوضيح أجابته:

- بالطبع، أفهم. وأسرعت إلى الحمام.

حينها شعرت بيل بأنّها محظوظة في إجراء تلك المحادثة مع والدتها قبل ليلة من الزفاف. فعلى الرغم من شعورها بالألم أثناء الجماع، إلّا أن المنديل الورقي بقي نظيفًا بعدما مسحت نفسها به. فكّت تسريحتها وارتدت ملابس النوم وفوقها البنوار الذي علّقته خادمة الفندق خلف الباب في وقتٍ سابق، وعادت إلى الغرفة لتجد غوستافو يستلقي عاريًا فوق السرير، وعلى وجهه تعابير حيرة.

- قال لها وهو ينظر إليها:

- تحقّقت من الشرشف، لم أجد دماءً عليه.. كيف يُعقل ذلك؟

قالت لي والدتي: «إذا لم نرَ شيئًا، فالسبب هو ركوبي المتكرّر للخيل في صغري». أجابته وهي تشعر بالحرج من سؤاله المريع.

- حسنًا، قد يكون هذا هو السبب. لكنّك عذراء، أليس كذلك؟

- غوستافو، أنت تهينني! قالت بيل وهي تشعر بغضبها يتصاعد.

- بالطبع، بالطبع. قال وهو يربّت المرتبة بجانبه.

- تعالي وانضمّي إلى زوجك في السرير.

وعلى الفور نفّذت بيل تعليمات زوجها، وهي لا تزال تتلوّع من تلميحه.

وشعرت بذراعه تلتفّ حولها وتسحبها نحوه لتصل إلى الإنارة وتطفئها.

- أعتقد أنّنا الآن أصبحنا رسميًّا زوجًا وزوجة.

- نعم.

- أحبّك يا إيزابيلا. هذه أسعد ليلة في حياتي.

- وأنا أيضًا. قالت وهي تجهد في العثور على الكلمات التي يرغب في سماعها، على الرغم من اعتراضها الصامت الذي تردّد صداه في أعماق روحها.

وبينما كانت بيل مستلقية بجانب زوجها وهي ما تزال مستيقظة على الرغم من تقدّم ساعات الليل، كانت سفينة الشحن التي تحمل رأس الكريستو ويديه ولوران برويي ترسو على الرصيف في ضواحي ريو دي جنيرو.

35

بعد أن استغرقت الرحلة في البحر ستة أسابيع، نهض لوران في صباح اليوم الأوّل من سريره ليجد ملابسه التي نام فيها والشراشف كلّها مبلّلة بالعرق. لم يسبق له أن عرف مثل ذلك الطقس الحار حتّى في الأيام الأكثر دفئًا التي قضاها في مونبارناس.

توجّه مترنّحًا إلى الطاولة حيث تركت له الخادمة إبريقًا، والتقطه ليبلّ حلقه بالماء بعدما شعر بعطشٍ شديد. دخل الحمام الصغير الذي كان بجانب باب الغرفة، وفتح الصنبور ووضع رأسه داخل المغسلة، ثمّ لفّ جسمه العاري بمنشفة. ولما شعر مجددًا بالنشاط، عاد إلى الغرفة وفتح النافذة على مصراعيها.

كان لوران في الليلة السابقة قد وصل إلى ذلك الفندق الذي نصحه به هيتور ريثما يعثر على مكان إقامة دائم، بعد منتصف الليل، لذلك منعه الظلام من رؤية ما هناك. لكنّه حين استلقى على السرير، سمع ارتطام الأمواج بالشاطئ فعرف أنّه قريب من البحر.

وما إن طلع الصباح، حتى استيقظ على روعة المكان. فالأفق كان مفتوحًا أمامه، أمّا البساط الذي امتدّ تحته على الجانب الآخر من الطريق فكان من أروع الشواطئ التي رآها في حياته، إذ غطّت الرمال البيضاء النقية والمهجورة في تلك الساعة المبكرة من الوقت مسافة أميال عديدة، وبلغ ارتفاع الأمواج، التي كانت تتقلّب بلا انقطاع لتشكّل رغوة بيضاء تنشر عند تكسّرها رذاذها في كلّ مكان، حوالى المترين.

سرعان ما شعر بالاسترخاء. إذ كان لعائلة لوران منزل صيفي بالقرب من سان رفال وقد تعوّد السباحة في البحر الأبيض المتوسط. لذلك شعر برغبة في الخروج من الفندق وعبور الطريق ليغطس في البحر. لكنه فكّر في الاستفسار أولًا عما إذا كان آمنًا، فلربّما احتوى على أسماك قرش أو غيرها من تلك التي تأكل الإنسان. فقبل أن يأتي إلى هنا، سمع تحذيرات كثيرة مفادها أنّ مضاعفة الحذر في المناطق الاستوائية لا تعدّ من باب المبالغة.

كانت رائحة الهواء جديدة عليه، لم يألفها من قبل. فهو، مثل مواطنين فرنسيين كُثُر لم يغرِه يومًا السفر خارج بلادهم، لما كانت تتوافر لهم من مواسم مختلفة، مثل الثلوج المنعشة التي تغطّي المنحدرات في جبال الألب والمناظر الخلابة والمناخ الرائع الذي يشتهر به الجنوب.

وها هو الآن يقف هنا ويشعر بالخجل لاعتقاده ذات مرّة بأنّه لن يجد بلدًا آخر يقدّم له أكثر مما يفعله بلده.

أراد أن يخرج ليستكشف ريو، لكنّه كان على موعد مع هيتور ليفي، مدير موقع بناء الكريستو الذي يعمل عليه السيّد دا سيلڤا كوستا. فقد ترك له رسالة في الفندق يعلمه بأنّه سيمرّ لاصطحابه في تمام الحادية عشرة. أما رأس الكريستو ويداه فكانت قد حمّلت عن ظهر الباخرة في الليلة السابقة ما إن رست في الميناء الرئيسي، ووضعت كلّها في أرض مكشوفة بالقرب من الميناء حيث يملك السيّد ليفي مزرعة صغيرة.

كان لوران قد قلق كثيرًا على أجزاء القوالب الرقيقة وأمل أن تكون قد سلِمت من مشقّة الرحلة. لذلك كان خلال الرحلة، يقصد العنبر أربع مرات في اليوم ليتفقّدها. أما الآن فقد أصبح يصلّي أن تكون قد نجت من التفريغ. وبينما كان يرتدي ملابسه، لاحظ على ساقَيه ما يشبه الكدمات الدائرية الصغيرة التي حكّته فجأة فخدشها قليلًا ثمّ سحب بنطاله وهو يفكّر بتلك البعوضة البرازيلية التي جاعت ليلًا فأتته لتمصّ دمّه.

نزل إلى الطابق السفلي ليتناول الفطور. وما إن دخل غرفة الطعام، حتى وقع نظره على تشكيلةٍ منوّعةٍ من الفاكهة الاستوائية التي وُضعت على السفرة الطويلة.

لم يكن لديه أدنى فكرة عمّا تكون تلك الفاكهة، لذلك أخذ حبّة من كلّ نوع، بقصد احتضان الثقافة الجديدة. كما أخذ شريحة من الكعك الشهيّ بعد أن فاحت رائحتها لخروجها لتوّها من الفرن. ثمّ جاءت النادلة لتقدّم له القهوة الساخنة، فتلذّذ بها بعدما شعر بالارتياح لوجوده في مكان يذكّره بدياره. وفي تمام الساعة الحادية عشرة، قصد قاعة الاستقبال، فوجد رجلًا يقف عند المنضدة وينظر إلى ساعته. خمّن أن يكون السيّد ليفي، لذلك مشى إليه وعرّفه بنفسه.

- أهلًا بك في ريو، سينيور بروبي. كيف كانت رحلتك؟ سأله الرجل بلغة فرنسية لائقة.

- مريحة للغاية، شكرًا لك. حتّى أنّني تعلّمت كلّ ألعاب الورق والنكات البذيئة في البرازيلية من البحّارة، قال لوران مبتسمًا.

- ممتاز، والآن سيّارتي في الخارج، لنذهب فورًا إلى مزرعتي.

وبينما كانت السيّارة تقلّهما عبر شوارع المدينة، اكتشف لوران، على عكس توقّعاته، أنّ ريو مدينة معاصرة. حينها فهم أنّ لاندوڤسكي أراد مضايقته عندما أخبره أنّ سكّانها الأصليّين يركضون في الشوارع شبه عراة وفي أيديهم رماح يصطادون بها الأطفال ليأكلوهم. وها هو الآن يكتشف أنّها مدينة متحضّرة وطابعها غربيّ مثل كثير من مدن فرنسا.

مع ذلك، استغرب شدّة سمار بشرة العديد من السكان المحليّين الذين كانوا يرتدون نسخًا طبق الأصل عن الموضة الحديثة الشائعة في بلاده.عندما بلغت السيّارة ضواحي المدينة، استحالت المناظر على يمينه بيئة أكثر فقرًا، فقال ليفي وهو يحدّق إليه:

- هذه تدعى فاڤيلا، وهي للأسف مكتظّة بالسكان.

راح لوران يفكّر كيف أنّ الفقر يختبئ عندهم في باريس وراء الجُدُر، في حين يظهر مثل أشعة الشمس هنا في البرازيل، إذ لن تغفل عن التفريق بين المناطق الغنية وتلك الفقيرة.

- أجل يا سينيور بروِيي. ردّد ليفي بصوت عالٍ وهو يهزّ بكتفيه، كأنّه كان يقرأ في أفكار لوران.

- الأغنياء في البرازيل فاحشو الثراء، بينما الفقراء معدمون ويتضوّرون جوعًا.

- هل أنت برتغالي يا سيّدي؟

- لا، أنا يهودي من أم إيطالية وأب ألماني. هذا أكثر ما يميّز البرازيل عن غيرها من البلدان. فهي تحتضن مختلف الجنسيات، مع العلم أنّ البرتغاليين يعتبرون أنفسهم برازيليّين حقيقيّين. ستجد بيننا مهاجرين من إيطاليا وإسبانيا، وهناك بالطبع الأفارقة الذين أتى بهم البرتغاليّون أساسًا مُستعبَدين ليعملوا في مزارع البن. كما أن ريو في الوقت الحاضر، تشهد نزوحًا هائلًا إليها من الجالية اليابانية. الجميع يأتون إلى هنا بحثًا عن نصيبهم من الذهب. بعضهم يجدونه وبعضهم الآخر يفشلون، فينتهي بهم الأمر في الأحياء الفقيرة.

- أنتم مختلفون تمامًا عنّا في فرنسا. فمعظم السكان هناك وُلدوا وترعرعوا في بلدهم الأم. علّق لوران.

أجابه ليفي:

- سينيور بروِيي، أهلًا بك في العالم الجديد. نحن كما نحن، ونجعل من العالم ما هو عليه، بغض النظر عن المكان الذي ولدنا فيه أصلًا.

عندما وصل لوران إلى فازيندا، وقعت عيناه على مشهد لن ينساه في حياته. كان رأس الكريستو الضخم مرميًا في الحقل ومن حوله بضع دجاجات تنقر في التربة، بينما كان الديك الكبير يقف على أنفه ويتباهى بنفسه.

- اتّصل بي سينيور دا سيلڤا كوستا في الخامسة صباحًا، كان قلقًا على الكريستو، وأراد أن يعرف إذا خرج آمنًا من تلك الرحلة. لذلك قرّرت أن أعيد جمع الأجزاء هنا لأتأكّد من سلامتها، ولغاية الآن كلّ شيء على ما يرام، أكّد ليفي.

آخر مرّة رأى فيها لوران رأس الكريستو قطعة واحدة كان في مشغل لاندوڤسكي، وها هو الآن وهو على بعد آلاف الأميال من باريس، يراه مجدَّدًا مجموعًا في قطعة واحدة، فشعر بكتلة في حلقه.

- يبدو أنّه نجا من الرحلة بفضل العناية الإلهية. قال ليفي وقد تأثّر هو أيضًا من ذلك المشهد.

- لم أحاول جمع اليدين بعد، لكنّني تفقّدت الأجزاء وبدت لي هي أيضًا سليمة من الخدوش. سيأخذ أحد العاملين صورة لنا جميعًا احتفالًا بوصولها إلى برّ الأمان. وسأرسلها بالطبع إلى سينيور دا سيلڤا كوستا ولاندوڤسكي.

أُخذت الصورة حسب الاتفاق. وبعد التأكّد مرّة أخيرة من سلامة الرأس واليدين ليتمكّن لوران من مراسلة لاندوڤسكي وطمأنته على التمثال، أمل في أن يكون تمثال بيل قد حظي بالحظ نفسه، إذ كان لا يزال موجودًا داخل الصندوق في مكان ما على الرصيف في الميناء الرئيس.

بعد الصراع الداخلي الذي مرّ به قبل اتّخاذ القرار حول بيع التمثال لغوستافو آيريس كابرال، عمل لوران في النهاية بنصيحة لاندوڤسكي وقرّر قبول عرضه وبيعه التمثال بألفين وخمسمئة فرنك. لقد كان لاندوڤسكي محقًّا عندما قال له إنّه قادر على نحت تمثال آخر، عندما سيوفّر له هذا مكسبًا لم يكن في الحسبان. فعرض مثل هذا يستحيل رفضه، خصوصًا أن المرء لا يعرف ماذا يخبّئ له المستقبل.

- إلى هنا يمكن القول إنّ مهمّتك الأوّلية قد تمّت بنجاح، على الرغم من أنّني واثق من رغبتك في رؤية موقع البناء على قمّة جبل كوركوڤادو، تابع ليفي.

- ثِقْ بأنّه مكان جدير بالزيارة. أنا أعيش هناك مع العمال، فالوقت قصير نسبيًّا وعلينا الانتهاء من بنائه ضمن المدّة المحدّدة له.

- بالطبع أريد رؤية ذلك المكان. قال لوران متلهّفًا.

- ما زلت غير قادر على تصوّر طريقة بنائكم لمثل ذاك النصب التذكاري على قمة جبل.

- وبكلّ برودة أعصاب، أجابه ليفي:

- حسنًا، هذا ما حصل لنا في البدء، لكن ثِق بأنّنا سننجح. والآن، أخبرني سينيور دا سيلڤا كوستا بأنّك تبحث عن مكان ثابت لأنّ إقامتك ستطول هنا، وسألني إذا كنت قادرًا على مساعدتك في العثور على واحد، بما أنّك لا تعرف كلمة واحدة في البرتغالية.

- لا يا سيّدي، أنا لا أعرف.

- حسنًا، لديّ شقة فارغة في منطقة تدعى إيبانيما، وهي ليست بعيدة عن شاطئ كوباكابانا حيث تنزل الآن. كنت قد اشتريتها في أيّام العزوبية ولم يطاوعني قلبي في التخلّي عنها. سيسرّني لو بقيت فيها طوال إقامتك في ريو. كما أنّ سينيور دا سيلڤا كوستا سيتكفّل بدفع الفواتير مثلما اتفقتما في فرنسا. أعتقد أنّك ستحبّها لأنّها تتميّز بإطلالة رائعة تتيح للنور الدخول إليها، وأعتقد أنّها مثاليّة بالنسبة إلى نحات مثلك.

- شكرا لك يا سيد ليفي. أنت تغمرني بكرمك.

- حسنًا، هيّا بنا نزرها. إذا أعجبتك يمكنك الانتقال إليها في وقتٍ لاحقٍ من اليوم.

وفي وقتٍ لاحقٍ من بعد ظهر ذلك اليوم، شعر لوران بالفخر لإقامته في شقة فسيحة مهوّاة تمامًا تقع في الطابق الثالث من مبنى جميلٍ قريبٍ من شاطئ إيبانيما. كانت غرفها عالية السقف وأثاثها أنيقًا وفاخرًا، وما إن تفتح باب شرفتها الظليلة حتّى تجد نفسك على مسافة قريبة من الشاطئ، لتجلب إليك رائحة المحيط ما إن تهبّ الرياح الدافئة.

ترك ليفي لوران يستقر في الشقّة بعد أن أحضر حقيبته من الفندق، وأخبره أنّه سيعود إليه لاحقًا برفقة خادمة ستطبخ له وتنظّف المكان طوال إقامته.

راح لوران يتجوّل بين الغرف ويفتح عينيه على الترف الذي وفّرته له تلك المساحة بعد أن حطّت غرفة السطوح في مونبارناس من قدره. ناهيك بفكرة الحصول على خادمة تلبّي كلّ طلباته، لذلك بالكاد استطاع أن يستوعب ما يحدث

له. استلقى لاحقًا على سرير الماهوجني الكبير، وبقي على ظهره يستمتع بالهواء الآتي من مروحة السقف التي لفحت وجهه وكأنّها أجنحة صغيرة. فتنفّس الصعداء وغفا بعدها على الفور.

وكما وعده ليفي، عاد إليه في المساء برفقة مونيكا، وكانت امرأة أفريقية في منتصف عمرها.

- قلت لها إنّك لا تتحدّث البرتغالية. إذا وافقت عليها ستبقى لتنظّف لك الشقة، وتتبضّع احتياجاتك من السوق المحلية، وتعدّ لك وجبات العشاء. وإذا احتجت إلى أيّ شيء آخر، ستجد الهاتف في غرفة الرسم، فلا تتردّد في الاتصال بي في أي وقت.

- لا أستطيع أن أشكرك بما يكفي يا سيّد ليفي. أجابه لوران وقد شعر بالامتنان.

- أنت الآن في البرازيل، لذلك نعتبرك ضيفًا كريمًا ولن نسمح بأن تبلغ سينيور لاندوفسكي وغيره في باريس أنّنا مثل الوثنيّين. قال ليفي وهو يبتسم، ويرفع حاجبه دالًا على أنّه لم يكن يستبعد ذلك.

- أبدًا يا سيدي، ما رأيته حتى الآن يشير إلى أنّكم أكثر تحضّرًا منّا.

- بالمناسبة، هل وصلت منحوتتك سالمة؟ سأله ليفي.

- نعم، وما تزال داخل الصندوق في المرفأ. قالت لي السلطات إنّها ستُعلم المشتري بوصولها وترتّب معه موعد التسليم.

- لا أستغرب أن تكون عائلة آيريس كابرال بعيدة الآن عن العاصمة، لا بدّ من أنّهما الآن يقضيان شهر العسل، فقد تزوّجا أمس.

صُدِم لوران ممّا سمعه من ليفي وراح يحدّق إليه.

- الآنسة إيزابيلا تزوجت أمس؟

- نعم. لقد تصدّرت صورهما الصحف هذا الصباح. وبدت سينيورا إيزابيلا في غاية الجمال وسط مجتمع ريو الراقي. يبدو أنّ موضوع نحتك لها قد أفادها كثيرًا.

شعر لوران بتوعّك إثرَ سماعه لذلك، إذ لم يقدر على تحمّل فكرة أنّه وصل إلى ريو في اليوم الذي تزوجت فيه إيزابيلا، وكأنّ القدر يسخر منه.

- حسنًا، حان وقت الذهاب. تصبح على خير سينيور برويي.

رحل ليفي بعد أن أكّد على موعدهما في الغد، قائلًا بأنّه سيمرّ به عند الثانية بعد الظهر لاصطحابه إلى موقع البناء في قمة جبل كوركوڤادو. وبقيت مونيكا في المطبخ تجهّز المقالي التي انبعثت منها رائحة شهيّة، في حين شعر لوران بحاجة إلى مشروب. فسحب زجاجة نبيذ فرنسي من حقيبته وفتحها، ثمّ خرج بها إلى الشرفة.

هناك رفع ساقيه ووضعهما على الطاولة، ثمّ سكب أوّل كأس وشربها، فذكّره مذاقها بدياره. وراح يشاهد غروب الشمس وراء الجبال بقلب ثقيل.

ثمّ همس في الهواء: «إيزابيلا، أنا هنا، في بلدك الجميل. جئت باحثًا عنك، لكن يبدو أنّني وصلت متأخرًا».

36

بعد مرور أسبوع على زواجها، عادت بيل إلى ريو مرهقةً من شدّة التوتر، بعد أن صرفت شهر العسل في منزل جميل، قديم البناء، كان يملكه أقرباء غوستافو في منطقة تدعى ميناس جيرايس. هناك شعرت بالاختناق من الطقس الجاف الذي يفتقد إلى نسيم البحر العليل، ومن ارتفاع درجات الحرارة لوقوع تلك المنطقة على مستوى سطح البحر. كما أنّ الجو كان حارًّا لدرجة شعرت فيها كلّما حاولت استنشاق الهواء باحتراق أنفها.

فضلًا عن ذلك، كانت مجبرة كلّ مساء على تلبية دعوة عشاء جديدة ليتعرّف إليها أفراد عائلة غوستافو الكبار في السن، الذين منعتهم صحّتهم من حضور حفل الزفاف. لكنّها كانت قادرة على التعامل مع كلّ هذا، لولا ما كان يحدث في الليل.

الأمر الوحيد الذي لم تخبرها والدتها به كان عدد المرات التي يفترض بها أن تختلي بزوجها. في البدء، فكّرت أنّها ستكون مرّة واحدة في الأسبوع، لكنّ شهية غوستافو على ذلك كانت مفتوحة. وعلى الرغم من أنّها بذلت قصارى جهدها للاسترخاء وحاولت مرارًا الاستمتاع بتلك الحميميّة التي فرضها غوستافو عليها، لم تنجح، لأن هناك أمورًا لم يشرحها لها أحد، ومجرّد التفكير فيها كان يشعرها بالخجل.

كان غوستافو ينقضّ عليها كلّ ليلة ما إن يغلَق باب عليهما، فيمزّق ملابسها وهو ينزعها عنها. حتّى أنّه في بعض المناسبات لم يكن يتكلّف عناء القيام بذلك. أما هي فكانت تبقى مستلقية تحته تنتظر أن ينتهي، بينما يسحقها هو بشدّة متسبّبًا لها أحيانًا بظهور بعض الكدمات على سطح بشرتها. ولحسن حظها، ما

إن ينتهي، حتى ينام على الفور. وفي بعض الأحيان، كانت تستيقظ في الصباح وتشعر بأنّ يده تمتدّ إليها، فلا تمرّ إلّا ثوانٍ حتّى تشعر مرة أخرى بثقل جسمه فوقها.

في الليلة الماضية، حاول إدخال عضوه في فمها رغمًا عن إرادتها، فشعرت برغبة في التقيّؤ، فقال لها وهو يضحك إنّها قريبًا ستتعوّد على ذلك، وأفهمها أنّ كلّ الزوجات يفعلن ذلك لإرضاء أزواجهن ومنحهم المتعة بعيدًا عن الخجل.

شعرت بيل باليأس بعد أن رغبت في طلب النصيحة من أحدهم، لكنها لم تعثر على الشخص الذي يبدّد لها شكوكها بقوله إنّه أمر طبيعي وإنّ عليها أن تتحمّل الأمر من الآن صاعدًا. فأين هو ذلك الحنان الذي حدّثته عنها أمّها؟ سألت نفسها عندما دخلت غرفة النوم الزوجية التي جُدّدت قبل أن تنتقل إلى كازا داس أوركيدياس، وفجأة شعرت، وهي تجلس على الكرسي، بأنّها مثل دمية خرقاء يقوم زوجها بدفعها وسحبها كما يشاء ومتى يشاء.

كان في منزل والديها غرفة ملابس خاصّة بوالدها تحتوي على سرير ينام فيه متى شاء، في حين أن منزل زوجها لم يتّصف بتلك الرفاهية. وعندما دخلت الحمّام الذي أضيف حديثًا إلى غرفتها، فكّرت من يأسها في وجوب الإسراع في الإنجاب ليتركها غوستافو وشأنها.

حاولت بيل أن تواسي نفسها بالتفكير بحب غوستافو الكبير الذي كان يظهره خلال اليوم، إذ غالبًا ما كان يمسك بيدها ويضع ذراعه حول كتفيها وهما يسيران جنبًا إلى جنب، ويخبر أيّ شخص يلتقي به عن مدى سعادته بقربها. لكن، لو ينتهي ذلك الرعب الليلي، لشعرت أنّها قادرة على التعامل مع ظروفها الجديدة. وإلى أن يصل ذلك اليوم، كان عليها أن تستيقظ كلّ صباح وقلبها يشعر بذلك الخوف.

خلال العشاء، قالت لها لويزا:

- تبدين شاحبة يا عزيزتي، لعلّ السبب طفل في طريقه إلينا؟

فأجابها غوستافو وهو يشعر بفخر:

- ربّما ماي، سنرى عمّا قريب.

- أفكّر في الذهاب غدًا لزيارة والدتي في كوزمي فيلهو. تجرّأت بيل على القول بصوت منخفض.

- أريد أن أطمئنّ عليها.

- بالطبع يا إيزابيلا. أجابها غوستافو.

- كنت أفكّر في الذهاب إلى النادي، لذلك سأوصلك بالسيّارة في طريقي وأعود لاصطحابك عند عودتي إلى هنا.

- شكرًا لك. قالت بيل وهما يمشيان إلى غرفة الرسم لتناول القهوة هناك بعد العشاء. وبينما كانت تحادث مَوريسيو، رأت زوجها يسكب لنفسه كأس براندي أخرى كبيرة.

قاطعتها لويزا:

- أريدك في الصباح أن تنضمّي إليّ في المكتبة لنراجع معًا الميزانية. أنا واثقة من أنّكم لم تحتاجوا إليها في منزلكم، أمّا نحن هنا فلا نحبّ التبذير.

- بالطبع لويزا.

أرادت بيل أن تذكّرها بأنّ والدها هو من يدفع التحديثات في ذلك المنزل، لكنّها امتنعت في آخر لحظة. فضلًا عن ذلك، لقد عرفت بالمبلغ النقدي السخي الذي حصل عليه غوستافو قبل الزواج لتغطية المصاريف، مثل نفقات معيشتها وملابسها.

وما إن قال لها غوستافو، «حان وقت النوم يا حبيبتي» حتّى بدأ قلبها يخفق بسرعة مقلقة لتوقّعها ماذا سيحدث بعد ذلك. ومن ثمّ شعرت بثقل في معدتها من الوجبة المالحة التي أعدّها طبّاخ العائلة المسن.

- تصبحان على خير، ماي وپاي. قال وهو يحني لهما رأسه:

- أراكما في الصباح.

وقادها غوستافو إلى السلّم ليصعدا إلى الطابق العلوي، فأخذت بيل نفسًا عميقًا قبل أن تتبع زوجها إلى غرفة النوم.

- *querida*. قالت كارلا لبيل وهي تستقبلها عند الباب الأمامي.

- لقد اشتقت إليك. تعالي إلى الداخل وأخبريني عن كلّ ما حدث في شهر العسل. لا بدّ من أنّه كان رائعًا؟

ما إن رأت بيل والدتها حتّى شعرت بالارتياح وبرغبة في رمي نفسها بين ذراعيها للبكاء على كتفها.

- نعم. أجابت بهدوء. وعندما قادتها كارلا إلى غرفة الرسم قالت بيل:

- لقد تصرّف أقرباء غوستافو معي بلطف.

- ممتاز. أجابتها كارلا، عندما دخلت غابرييلا عليهما بالقهوة.

- وكيف حال غوستافو؟ هل هو بخير؟ لا بدّ من أنّه سعيد؟

- نعم هو بخير، لقد ذهب إلى النادي ليقضي فترة بعد الظهر. بصراحة، ليس لديّ أيّ فكرة عما سيفعله هناك.

أجابتها كارلا:

- لعلّه سيناقش الأعمال مع السادة. ويحتمل أن يكون قد ذهب ليتحقّق من أسهمه وحصصه. فإذا كان يملك ما يملكه والدك، فاعلمي بأنكما حاليًّا في وضع ممتاز، لأنّ تجارة البن تحلّق في ازدهارها. حتّى أنّ أباك اشترى في الأسبوع الماضي مزرعتين إضافيّتين. وذات يوم ستكونان من نصيبك وبالتالي من نصيب غوستافو. والآن أخبريني كيف وجدت الحياة الزوجية؟

- أنا... أتآلف معها.

عبست كارلا ما إن سمعتها تقول ذلك.

- ماذا تقصدين بأتآلف؟ ألست سعيدة بوضعك الجديد؟ فأجابتها بيل:

ماما... مستخدمةً، عن غير قصد، الكلمة التي تعوّدت مناداتها بها في طفولتها. أنا...

- من فضلك يا إيزابيلا، أخبريني بكلّ ما ترغبين في قوله.

- بحاجة إلى معرفة ما إذا كان غوستافو سيرغب في... ممارسة ذلك... في غرفة النوم كلّ ليلة؟ فحدّقت كارلا أوّلًا إلى ابنتها ثمّ انفجرت ضحكًا.

- الآن فهمت. لديك زوج دمه حامٍ ويتمنّى الاستمتاع مع زوجته الجميلة التي تزوّجها حديثًا. هذا أمر جيّد يا إيزابيلا، لأنّه يدلّ على أنّ زوجك يحبّك ويرغب فيك. عليك أن تفهمي ذلك.

رغبت بيل بشدّة في سؤالها عن الأمور الأخرى التي يفعلها غوستافو أو يطلبها منها، لكنها لم تعثر على الكلمات التي تساعدها على التعبير عنها بارتياح.

- لكن يا ماي، أنا متعبة جدًّا.

- لأنّك لا تنامين كثيرًا، وهذا متوقّع. أجابت كارلا بذلك، إما لرفضها الجازم بالاعتراف بأن ابنتها متوتّرة، وإما لكونها عمياء غير قادرة على رؤية الحقيقة أمامها.

- أتذّكر أنّني كنت هكذا مع والدك في الأيام التي أعقبت زواجنا. الأمر طبيعي يا *querida*، ولا تقلقي لأنّ الأمور بعد فترة وجيزة ستكون أهدأ. ربّما بعد أن تصبحي حاملًا، وإذا بقيتما على هذه الحال فلن تتأخري في ذلك». أضافت مبتسمة.

- لطالما رغبت في أن أكون جدّة.

- وأنا أيضًا أريد أن أصبح أمًّا.

- كيف هي الحياة في منزلك الجديد؟ هل تتصرّف سينيورا آيرس كابرال بلطف معك؟

- كانت مرحّبة عند وصولي. على الرغم من ذلك، تحدّثنا صباح اليوم عن ميزانية العائلة، يبدو أنّهم أكثر اقتصادًا منّا.

- لكن ذلك سيتغيّر بالتأكيد الآن، وقد منح والدك غوستافو مثل ذلك المبلغ. في الواقع، لديّ ما أخبرك به، لكنّني سأنتظر عودة والدك لنخبرك به معًا.

- هل أنت بخير يا ماي؟ سألتها بيل وهي تغيّر الموضوع بعد أن أدركت أنّها غير جاهزة لمعرفة أو سماع أي شيء عن المشكلات التي قد تعاني منها ابنتها. كما أنّها فكّرت في أنّ كارلا ما زالت تبدو نحيفة ولونها باهت.

فأجابتها كارلا على الفور:

- أنا بحالة جيدة. على الرغم من أن المنزل يبدو لي فارغًا من دونك. صحيح أنّك قمت قبل اليوم بجولة طويلة في العالم القديم، لكنّني حينها كنت أعرف أنّك ستعودين قريبًا. أمّا الآن فأنا أعرف أنّك لن تعودي إلينا. مع ذلك، أنت لست بعيدة وآمل أن نرى بعضنا بعضًا أكثر.

- بالطبع سنفعل. قالت بيل وقد انتابها شعور بالاكتئاب بسبب تلك المسافة التي ظهرت فجأة بينها وبين أبويها. كما أنّها شعرت من حديث أمّها بأنّها تقبّلت أخيرًا أنّ ابنتها لم تعد ملكًا لها بل لزوجها وعائلته.

- آه، ها هو والدك قد وصل. لقد أخبرته أنّك قادمة لزيارتنا ووعدني بأن يعود باكرًا ليراك.

وصل أنطونيو كعادته بوجهه الودود، وما إن دخل المنزل حتّى عانق ابنته بشدّة وجلس بجانبها يمسك بيديها.

- أردت انتظار عودتك من شهر العسل لأخبرك عن الهديّة التي نرغب في تقديمها إليك بمناسبة زواجك. لقد قمت أمس يا إيزابيلا بنقل ملكيّة فازيندا سانتا تيريزا إليك.

- پاي! قالت بيل وهي تحدّق إلى والدها بفرحة حقيقية.

- هل تخبرني الآن بأن المزرعة أصبحت لي؟ أنا وحدي؟

- نعم يا إيزابيلا. مع ذلك... تابع أنطونيو.

- هناك تعقيد بسيط عليك أن تعرفيه. ثمّ توقّف عن الكلام وراح يفرك ذقنه في لحظة تأمل.

- ربّما لا تعرفين أن الزوج في البرازيل بموجب القانون يكتسب حقوقًا قانونية على ممتلكات زوجته. لكنّ أمّك كانت مصرّة على أن تكون تلك المزرعة ملكك وحدك، لذلك كان عليّ أن أبتدع حيلة، فقمت بإعداد توكيل لمحامٍ حتّى يدير المزرعة باسمك فيجمع لك كلّ ما تكسبه، وسيكون لديك الحق بأن تعيشي فيها إلى أن تموتي. وقبل أن يحدث ذلك، علينا أن نأمل بأن يتم تغيير القوانين البالية في بلادنا حتّى تمتلكي المزرعة بالكامل. وستجدين فيه بندًا يتيح تمرير التوكيل تلقائيًا لأي طفل تنجبينه.

- فهمت، شكرًا لكما على ذلك. همست بيل وقد تأثّرت لدرجة عجزت فيها عن الكلام.

- لا شيء يجعلني اليوم سعيدة أكثر مما قمتما به الآن. ونهضت بيل لاحتضان أمّها التي عرفت أنّها أساسًا وراء تلك الفكرة.

- شعرت بأن والدك قد بالغ في كرمه مع عائلة زوجك. قالت كارلا.

- إن علم غوستافو بهذا، وأعرف أنّه لم يعلم، فلن يحقّ له الاشتكاء من رغبة أنطونيو في أن يكون سخيًّا مع ابنته بقدر ما كان معه، خصوصًا أنّه عمل بجهد طوال حياته ليوفّر لك حياة رغيدة.

أدركت بيل أنّ أمّها كانت تلمّح إلى عدم الموافقة على ما يقوم به أنطونيو مع عائلة زوجها، وأدركت أن جزءًا من كارلا كان مستاءً من إحسان أنطونيو إلى عائلة لم تعمل يومًا في حياتها.

- والآن...» قال أنطونيو وهو يخرج بعض المستندات من مغلّف أحضره معه.

- تعالي لتوقّعي على هذه بحضور الشاهدتين، أمّك وغابرييلا.

وضعت بيل اسمها على المستندات تحت توقيع والدها، ثمّ قامت كارلا وغابرييلا بالتوقيع كشاهدتين. وبمجرّد التفكير في أنّها باتت تمتلك منزلًا خاصًا بها، شعرت بيل بانتعاش أحيا روحها.

كانت المزرعة ستصبح ملكًا لها وحدها، وهذه الحقيقة منحتها إحساسًا بالأمان كانت بأمسّ الحاجة إليه، وسط الخوف الذي يطال حاليًا زواجها.

ابتسم أنطونيو لما ولّدته لفتته الكريمة من شعور بالسعادة لم يسبق له مثيل.

- سأعطيها للمحامي في أقرب وقت ممكن. قال وهو يخفي المستندات في درج مكتبه.

جاء غوستافو بعد ساعة ليصطحب بيل إلى منزلهما. وبعد إلقاء تحيّة رسميّة على حمَويْه، استعجل بيل في المغادرة حتّى لا يتأخرا عن موعد العشاء مع والديه.

- سأعود لرؤيتك في أقرب وقت ممكن يا ماي. ربّما في المرّة القادمة نصعد بالقطار إلى قمّة كوركوڤادو لنرى أين أصبحوا في بناء الكريستو.

وافقت كارلا على الفور:

- أودّ ذلك كثيرًا يا إيزابيلا، ما رأيك بالخميس المقبل؟

- تمام، أراك حينها. قالت إيزابيلا، ثمّ تبعت غوستافو إلى السيّارة.

عندما انطلق السائق عائدًا إلى المنزل، قرّرت بيل ألّا تخبر زوجها عن هدية والديها. كانت سرًّا جميلًا رغبت في الاحتفاظ به لنفسها. وأثناء مرورهم بمحطة إستاساو دو كوركوڤادو، نظرت إلى القطار وراحت تحدّق إلى الركّاب الذي ينزلون منه إلى الرصيف. هناك رأته.. كان يتقدّم باتجاهها في الممرّ الضيّق، كان هو... ما إن لمحته حتى أُصيبت بتوتّر شديد، لكنّه انعطف بسرعة إلى الشارع فلم يتسنَّ لها التأكّد من أنّه هو بنفسه.

أغمضت عينيها وهزّت برأسها. لا يمكن أن يكون لوران، هو شبهه بالتأكيد. وماذا سيفعل لوران هنا في البرازيل؟

- هديّتي لك بمناسبة زفافنا ستصل في الغد إلى المنزل. قال غوستافو وهو يضع كفّه على يدها ويعيدها إلى الواقع.

- لقد رأيتها بنفسي وبرأيي هي جميلة جدًّا. أتمنّى أن تعجبك أنت أيضًا.

- أتطلّع إليها بفارغ الصبر. أجابت بيل وهي تستجمع كلّ حماستها لتبادله إحساسه.

في وقت لاحق من ذلك المساء، وبعد انتهائهم من العشاء شعرت بيل بالإرهاق. فشبح لوران الذي رأته في المحطّة قد أزعجها وأخلّ باستقرارها وتسبّب لها بتشنّج آلمها في معدتها. وعندما دخلت هي وغوستافو غرفة النوم، ذهبت على وجه السرعة إلى الحمام وحبست نفسها فيه. هناك ارتدت ملابس النوم وقامت بتنظيف أسنانها، ثمّ سرّحت شعرها وفتحت لاحقًا الباب لتعود إلى الغرفة. كان غوستافو قد خلع ملابسه ودخل ينتظرها في الفراش. عندما حاول الوصول إليها، تراجعت قليلًا وهزّت برأسها.

- أنا آسفة لكنّني الليلة غير قادرة على ذلك، بسبب العادة الشهرية. عندئذٍ أومأ غوستافو برأسه وقفز من السرير ثمّ ارتدى ثوبه وقال لها:

- إذًا سأنام في غرفتي القديمة وأدعك ترتاحين. ليلة سعيدة يا عزيزتي. وما إن أغلق الباب، حتى جلست بيل على السرير تضحك في سرّها. وفكّرت في أنّها ستحظى كلّ شهر ببضعة أيام تنام فيها وحدها من دون أن يزعجها أحد.

بعد يومين، وصلت بيل إلى منزل والديها لتصطحب أمّها إلى قمة كوركوڤادو كما اتّفقتا مسبقًا. وما إن صعدتا في إحدى العربتين وانطلق بهما القطار، حتى أمسكت كارلا بذراع ابنتها بعدما شعرت بالخوف.

- هل القطار آمن؟ المنحدر عالٍ كيف سيصل إلى فوق؟

- لا تخافي يا ماي. الرحلة تستحق العناء، سترين عندما نصل إلى الشرفة ونطلّ على مناظر ريو الجميلة.

عندما أصبحتا فوق، صعدت بيل السلالم وهي تمسك بأمّها بعد أن رأتها تتوقّف بين الحين والآخر لالتقاط أنفاسها، ثمّ قادتها إلى الشرفة.

- أليست جميلة؟ قالت وهي تبتسم.

- انظري كيف يبنون الكريستو هناك. ما زلت لا أصدّق أنّني رأيتهم بأمّ عينيّ يصمّمونه وينحتونه في مشغل بروفيسور لاندوڤسكي. حتّى أنّهم صبّوا قالبًا ليديّ كنموذج قبل أن يباشرا بنحت اليدين.

وحين حوّلت بيل نظرها عن المناظر الطبيعية التي في أسفل الجبل إلى هيكل الكريستو، رأت رجلين يبتعدان عن التمثال وهما مأخوذان بحديث لا ينتهي. فحدّقت جيّدًا ولم تصدّق عينيها. وما إن نظر هو إلى الأعلى ورآها حتى كاد قلبها يتوقّف.

حدّق الواحد إلى الآخر لبضع ثوان، ثمّ ابتسم لها وأدار انتباهه إلى السلالم ليتبع رفيقه إلى تحت، إلى أن اختفى عن نظرها.

- من هذا؟ سألت كارلا التي كانت تراقب ابنتها باهتمام.

- أنا... هذا سينيور ليفي، مدير مشروع هيتور دا سيلڤا كوستا.

- أجل، تعرّفت إليه من الصورة التي تصدّرت الصحف. لكن ماذا عن الرجل الآخر؟

- آه، لا يمكنني الجزم، لكنّني أعتقد أنّه مساعد بروفيسور لاندوڤسكي.

- فهمت. حسنًا، بدا لي وكأنّه يعرف من تكونين.

فأجابتها بيل في محاولة يائسة لتهدئة نفسها:

- سبق والتقينا في باري». ومن ثمّ شعرت بيل بكلّ أعصاب جسمها تشدّها بقوّة بعيدًا عن الشرفة وتقودها إلى السلالم لتلقي بنفسها بين أحضان لوران. إلّا أنّها ضبطت نفسها جاهدة لئلا تقوم بذلك.

وبعد خمس عشرة دقيقة، أخبرتها كارلا بأنّها شعرت بالتعب من شدّة الحرارة، فعادتا متمهّلتين إلى أسفل السلالم ووقفتا عند المنصّة تنتظران وصول القطار. إلّا أنّها لم تجده في أي مكان.

وعندما عادتا إلى المنزل، دعتها كارلا إلى الدخول لشرب المرطبات، فاعتذرت منها وطلبت من السائق إعادتها مباشرة إلى المنزل. لقد احتاجت إلى البقاء بمفردها لبعض الوقت حتّى تستجمع أنفاسها. كانت تعرف أنّها لو بقيت مع والدتها لكانت فضحت نفسها على الفور.

أيعقل أن يكون هنا؟ ما الذي أتى به؟

ولأنّ لوران كان برفقة سينيور ليفي، افترضت بيل أن يكون لاندوڤسكي قد أرسله ليشرف شخصيًّا على مشروع الكريستو.

أجل هذا صحيح، فكّرت بيل وهي تترجّل من السيّارة وتسير على مضض إلى المنزل، لا بدّ من أن يكون ذلك هو السبب، لا يوجد سرّ في ذلك. وشقّت طريقها مباشرة إلى الطابق العلوي لتدخل غرفة نومها. كانت تعلم أن غوستافو لن يعود من النادي قبل ساعتين على الأقل لذلك شعرت بارتياح كبير.

استلقت بيل على السرير وراحت تتنفّس بعمق وتحاول التفكير بعقلانية. كان احتمال أن تراه مجدّدًا ضئيلًا جدًا، إذ من الصعب أن يلتقي مسارهما في ريو؛ فسينيور ليفي ليس جزءًا من دائرتها الاجتماعية، وهيتور دا سيلڤا كوستا ما زال في باريس، وما حصل اليوم ليس سوى سخرية من القدر. ثمّ راحت تتذكر ابتسامته الجميلة عندما حدّق كلٌّ منهما إلى الآخر، وتمنّت من صميم قلبها لو أنّها لم تلتقِ به.

في مساء اليوم التالي، عاد غوستافو باكرًا من النادي وطلب إليها ألّا تدخل غرفة الرسم قبل أن يخبرها. ففهمت من تعابير وجهه أنّه كان متحمّسًا للمفاجأة التي يحضّرها لها بمناسبة زواجهما، بغضّ النظر عمّا هي عليه. لذلك شعرت بضرورة الاستعداد نفسيًّا لإظهار التقدير ما إن تكتشف مضمون الهديّة، مهما ستكن عليه.

- سينضم إلينا والداك على العشاء هذه الليلة، وهناك ضيف آخر سأتركه مفاجأة، لذلك ارتدي أجمل ما عندك. اقترح غوستافو.

لوران أيضًا تأثّر برؤيته لإيزابيلا عندما كانت تقف عند الشرفة على قمّة الجبل، وتزعزع كيانه هو أيضًا. كان قد نظر إليها في اللحظة التي أنارتها الشمس من الخلف، لذلك ظهرت أمامه بصورة ملائكية. وكانت الإثارة التي شعر بها لدى وصوله

إلى ريو قد تحوّلت معاناة فور سماعه بخبر زواجها. وكان قد قرّر أن يقرّب موعد زيارته لمشروع البناء حتّى يطمئن لاندوڤسكي على منحوتته، ومن ثمّ كان سيزور مزيدًا من معالم ذلك البلد الذي أتاه سائحًا، ليعود سريعًا إلى فرنسا. فبعد أن أيقن أن إيزابيلا لا يمكن أن تكون ملكه، وجد أنّه لم يعد لديه ما يبقى من أجله في ريو. كما راح يوبّخ نفسه على قراره المتهوّر بالصعود إلى تلك الباخرة. إلّا أنّه بالرغم من كلّ هذا، بقي هناك طوال الشهر لمعرفته الضمنية بأن إيزابيلا ستعود من شهر العسل عاجلًا أم آجلًا، ولإحساس داخلي كان يؤكّد له بأنّهما سيلتقيان بالصدفة.

ثمّ أخبره سينيور ليفي بأن سينيور دا سيلڤا كوستا اتّصل في الليلة السابقة ليطلب منه رقم هاتف لوران.

- يبدو أن غوستافو آيريس كابرال يرغب في مقابلة النحّات الذي نحت تمثال زوجته. يريد أن يدعوك لتناول العشاء في منزلهم الجميل مساء الغد. أعتقد أنّه يرغب أيضًا في دفع مستحقّاتك. أضاف ليفي.

- سيتصل بك لتتّفقا معًا على وقت مناسب.

- شكرًا لك. في البداية، قرّر لوران أن يرفض تلك الدعوة ويكتفي بترتيب لقاء معه في النادي ليقبض ثمن المنحوتة ويرحل، إذ لم يكن يرغب في أن تكون له أي علاقة بزوج إيزابيلا.

إلى أن رآها بعد ظهر البارحة...

وبعد صراع داخلي، فكّر في أنّه سيكون من دواعي سروره أن يحدّق إلى وجهها الجميل مرّة أخرى، سواء كان زوجها حاضرًا أم لا. لذلك عندما اتصل به غوستافو آيريس كابرال، قبِل دعوة العشاء على الفور.

بينما كانت سيّارة الأجرة تسير في شوارع إيبانيما لتخرج بعد ذلك من ازدحام المدينة باتجاه الضواحي، فكّر لوران في الأمر الذي يدفعه إلى القيام بذلك. كان يعلم بأنّ صرف بضع ساعات بحضور إيزابيلا سيكون انتحارًا لقلبه، ولن يحقّق من ذلك إلّا إشعال النار في داخله من جديد. وحين انعطفت سيّارة الأجرة وسلكت الممر المؤدّي إلى ذلك المنزل الأنيق المصمّم على الطراز الكولونيالي، قرّر أن

يستمتع بأمسيته قدر المستطاع. وعندما توقّف التاكسي، نزل لوران بعد أن دفع للسائق أجرته، ووقف في مكانه ليمتّع نظره بالواجهة الأمامية التي اعتبرها من أكثر الأماكن المثيرة للإعجاب في ريو حتى الساعة. ثمّ صعد الدرج الرخاميّ العريض إلى أن بلغ الباب ودقّ الجرس.

فتحت له الخادمة وقادته إلى غرفة الرسم. هناك رأى زوجان في منتصف العمر يجلسان منتظرَيْن. وفي زاوية الغرفة، تعرّف على الفور إلى منحوتته الملفوفة بالقماش.

- آه، لقد وصلت! قال له رجل نحيف ذكّرته ملامحه بالحيوان القارض، دخل الغرفة خلفه.

- هذا هو النحّات بلحمه ودمه!». ثمّ تابع وهو يبتسم ويمدّ له يده الشاحبة.

- أنا غوستافو آيريس كابرال، ولا بدّ من أنّك سينيور لوران بروييي.

- أنا بذاته. يسرّني التعرّف إليك سينيور. أجابه لوران وهو يركّز على مصافحة الرجل التي بدت له مصافحةً ضعيفة، ثمّ ينتبه إلى قصره وفارق الأربع بوصات بينهما.

- لا يمكن لذلك الرجل الهزيل غير الجذّاب أن يكون زوج إيزابيلا الجديد. فكّر لوران بينما كان غوستافو يقوده إلى الحاضرين في الغرفة ليعرّفه إليهم.

- شامبانيا سينيور؟ سألته الخادمة وهي تقدّم له كأسًا على صينية.

- شكرًا. أجاب لوران بينما كان يصافح والديّ غوستافو، ويتعرّف لاحقًا إلى والدة إيزابيلا ووالدها.

صافحه أنطونيو بونيفاسيو، وكان رجلًا طويل القامة، جذّابًا بالشيب الذي يظهر في شعره الأسود، بمودّة، في حين رحّبت به كارلا بابتسامة دافئة. بدت له امرأة جميلة، واستطاع أن يفهم من أين ورثت إيزابيلا سمارها وجاذبيتها. وكان الإثنان لا يتحدّثان الفرنسية، فقام غوستافو بترجمة الكلام لهما.

- يقول سينيور بونيفاسيو إن إيزابيلا أخبرته كثيرًا عن بروفيسور لاندوڤسكي والوقت الذي قضته في مشغله بينما كنت تنحتها. وهو الآن ينتظر بفارغ الصبر ليرى إذا كنت وفيًّا لجمالها في منحوتتك. قال غوستافو.

- أعتقد أنّني كنت منصفًا كفاية. أجاب لوران وهو يشعر بعيني الأمّ عليه، تقيّمه وهو يتحدّث. وكان لوران قد تعرّف إليها على الفور بعدما رآها أمس برفقة إيزابيلا على قمة جبل كوركوڤادو.

- تقول سينيورا كارلا إنّ إيزابيلا لا تعرف بوجود التمثال هنا وبوجودك أنت أيضًا. تابع غوستافو.

- لذلك ستكون مفاجأة كبيرة عندما تنضمّ إلينا.

- لا أشكّ في ذلك. أجاب لوران متأثّرًا.

- هل أنت جاهزة؟ سأل غوستافو بيل وهو يدخل غرفة النوم ويجدها تجلس متأملة على السرير.

فاستدارت إليه وقالت مبتسمة:

- نعم. متّع غوستافو نظره بجمال زوجته وهي ترتدي ثوبًا أخضر من الحرير يليق كثيرًا بها، خصوصًا بعدما وضعت طقم الزمرد الذي قدّمه لها والدها في عيد ميلادها الثامن عشر في أذنيها وحول عنقها.

- تبدين مشرقة يا *querida*. قال وهو يمدّ لها ذراعه.

- هل نذهب؟

- لا أفهم سبب كلّ هذا الاستعداد. قالت بيل وهي تنزل السلالم.

- حسنًا، ستفهمين بعد قليل. قال غوستافو مصرًّا على إبقاء الأمر مفاجأة ثمّ فتح باب الغرفة ودخل.

- ها إنّ الجميع موجودون هنا. فابتسمت بيل لأمّها واقترب منها والدها ليحيّيها، ثمّ قادها غوستافو باتجاه والديه اللذين كانا يتحدّثان إلى ضيف ثالث.

- هذا هو الجزء الأول من المفاجأة، وأنا واثق من أنّه سيساعدك على تخمين الجزء الآخر. أقدّم لك سينيور لوران برويي، الآتي مباشرة من باريس إلينا.

نظرت بيل إلى لوران وهو يستدير باتجاهها، وغوستافو يبتسم مبتهجًا من تحضير ذلك اللقاء المفاجئ، وسعيدًا بنجاح مخطّطه.

حدّقت بيل إلى لوران مصدومة على الرغم من أنّها كانت مدركة بأن كلّ العيون تنصبّ عليها لتكتشف ردّ فعلها. إلّا أنّها لم تستطع التفكير في أي شيء تقوله. كانت صدمتها كبيرة، لذلك شعرت بصمتها يدوم إلى الأبد على وقع تكتكة الثواني.

- مدام آيريس كابرال. قال لوران وهو يمسك بيدها لينقذ الموقف.

- ثقي بأنّه من دواعي سروري أن ألتقي بك مجددًا. وقبّل يدها قبل أن يلتهمها بنظراته.

- سألني والدك قبل قليل إذا كنت قد أنصفتك في نحتي. الآن، وأنا أراك مجدّدًا، أشعر بأنّني لم أنصفك.

- أنا... أجبرت بيل نفسها على قول شيء ما بالفرنسية.

- سينيور برويي! ما أجمل هذه المفاجأة. لم أتوقّع لحظة واحدة رؤيتك في ريو.

تدخّل غوستافو قائلًا: حسنًا، هي صدفة سعيدة لأنّ سينيور برويي جاء إلى البرازيل من أجل مشروع الكريستو. والآن، أعتقد أنّك عرفت ما هي هديتي لك.

كان عقل بيل مأخوذًا كلّيًا بلوران، لذلك لم تربط بين وجوده والهدية التي أراد زوجها أن يفاجئها بها. لحسن الحظ قبل أن تتسنّى لها الإجابة، أدارها غوستافو نحو شيء كان ملفوفًا بقماش عند الزاوية التفّ حوله الجميع، وسألها:

- هل أرفع القماش؟

- نعم. قالت بيل وهي تبلع بريقها بعد أن فهمت أخيرًا ما هي تلك الهدية.

ما إن كشف عن منحوتة لوران حتى شهق الجميع مبتهجين. وعلى الفور

راحت بيل تشكر اللّه على كون لوران قد صبّ كلّ عفّتها في تلك المنحوتة، بحيث لا يرى أحدٌ أي شيء غير مناسب وهو يحدّق إلى التمثال.

- إذًا؟ جالت عينا غوستافو في مختلف أنحاء الغرفة، راغبًا في معرفة آراء الناظرين إليها.

كان أنطونيو أول من أبدى رأيه فيها.

- تهانينا يا سينيور بروبي، لأنّني أرى جيّدًا أنّك نحتّها كما هي.

- بالفعل، أرى فيها صورة ابنتي. قالت كارلا.

وترجم غوستافو كلتا الإجابتين للوران وهو ينحني له تقديرًا.

- لست واثقة من أنّك أصبت شفتيها. قالت لويزا بالفرنسية، وقد كانت حريصة كعادتها على استنباط أي شيء سلبي لتقوله.

- لأنّهما في الواقع أكثر امتلاءً ممّا تبدوان عليه في المنحوتة.

أجابها لوران:

- حسنًا يا سينيورا، إنّني أرى مجدّدًا كنّتك بعد الزواج، وأجد أنّها أصبحت منتعشة أكثر مما كانت عليه عندما رأيتها لآخر مرة. لا بدّ من أنّ الزواج وملذاته يناسبانها.

سرّعت إجابة لوران على انتقادات لويزا وتيرة أنفاس بيل. صحيح أنّها في الظاهر بدت لطيفة، لكنّ إساءتها المبطّنة كانت واضحة لدرجة لا يمكن أن تفوت أحدًا في الغرفة. ومن ثمّ عرفت لويزا كيف تترك نفسها تحمرّ خجلًا.

- وما رأيك في هديّتي يا إيزابيلا؟ سأل غوستافو بيل وهو يلفّ ذراعه حول وسطها في حركة تملّكية.

- أعتقد أنّني غير قادرة على الحكم على صفاتي في هذه المنحوتة من دون أن أبدو متعجرفة. عدا ذلك، لقد أحسنت في اختيار هديّتك يا غوستافو، وأنا سعيدة جدًّا بها.

وبعد أن جاءت كلمات بيل تلقائية، طبعت قبلة على خدّ زوجها، وهي تتخيّل عينيْ لوران تحترقان من الغيرة.

دخل رئيس الخدم العجوز إلى الغرفة ليعلن عن بدء تقديم العشاء. فجلسوا كلّهم إلى المائدة. وارتاحت بيل لجلوس لوران بين لويزا وكارلا، بينما جلست هي بين والدها وحماها، وجلس غوستافو على رأس الطاولة. ولسوء الحظ، شاء القدر أن يكون لوران مباشرة قبالتها، وهذا يعني أنّها كانت تراه ينظر إليها كلّما نظرت أمامها. وراحت تفكّر في مشيئة القدر بأن يضعهما مجددًا متقابلين بعد الساعات الطويلة التي جلسا فيها وجهًا لوجه، في مشغل لاندوڤسكي في فرنسا.

بعد أن شربت جرعة كبيرة من النبيذ الذي سكبه لها رئيس الخدم لتهدّئ أعصابها، التفتت بيل إلى يمينها وبدأت محادثة طويلة مع موريسيو حول أوّل شيء خطر إلى ذهنها. عندما سمعهما أنطونيو يتناقشان في ارتفاع أسعار البن، ضمّ نفسه إلى الحديث وراح الرجلان يتكلّمان عن زيادة كمية إنتاج البن في البرازيل التي خلقت فائضًا أدّى إلى انخفاض السعر.

- أصدقائي في مجلس الشيوخ اقترحوا البدء بالتخزين. علّق موريسيو.

أكّد أنطونيو:

- نعم، وأنا من جهتي أخطط للسير على خطاهم في ما يطال محصول مزارعي، فالسعر قد انخفض كثيرًا في غضون شهر والأرباح لم تعد كافية.

عندما انحصر الحديث بين الرجلين، لم تجد بيل خيارًا سوى إلقاء ظهرها على الكرسي وترك الرجلين يتحاوران عبرها. حينها وجدت نفسها تحدّق مرارًا أمامها إلى لوران.

وفي لحظة سريعة نظر كلٌّ منهما إلى الآخر، فعرف كلاهما أن لا شيء تغيّر.

وأثناء تناول القهوة في غرفة الرسم، وجدت بيل نفسها متورطة في حديث مع غوستافو ولوران في الوقت نفسه.

- متى تعود إلى باريس؟ سأله غوستافو.

- لم أقرّر بعد، هذا يعتمد على كيفية سير الأمور هنا، وعلى الفرص التي ستتاح لي. أجاب لوران وهو يلقي نظرة خاطفة على بيل.

- وعدتني والدتك بتقديمي إلى زبائن سيرغبون في أن أنحت أفراد عائلتهم. لذلك من يدري؟ قال وهو يبتسم.

- وربّما أقع في حب بلدكم الجميل وأقرّر البقاء هنا إلى الأبد.

- حسنًا، إذا حصلت على دعم والدتي ورعايتها، فثق بأنّك ضمنت العمل. قال له غوستافو.

- أتريد مزيدًا من البراندي؟ سأله وهو ينهض عن الأريكة من جوار بيل.

- لا، شكرًا لك يا سينيور. قال لوران.

وابتعد غوستافو تاركًا الاثنين وحدهما لأول مرة في ريو.

- كيف حالك يا إيزابيلا؟

بقيت بيل تحدّق إلى الطاولة والألواح الخشبية التي كانت تغطّي الأرض، وإلى أيّ مكان يبعد عينيها عن لوران. أرادت أن تقول له أشياء كثيرة لكنّها لم تستطع. وفي النهاية تمكّنت من قول:

- أنا... متزوّجة.

ثمّ نظرت إليه منتظرةً الإجابة، فرأته يتفحّص في الخفاء إذا كانت هناك عيون تنظر إليهما، وبعد ذلك همس وهو يميل بنفسه إليها فوق كرسيه بقدر ما تجرّأ عليه:

- عليك أن تعرفي أنّني جئت إلى هنا باحثًا عنك. عليك أن تعرفي ذلك. كرّر مجددًا.

- إذا رغبتِ الآن في أن أدير ظهري وأصعد إلى الباخرة عائدًا إلى فرنسا، تأكّدي أنّني سأفعل. لكن أريد أن أسمع ذلك منك، الآن. قال وهو يضغط عليها لتجيبه على الفور في الوقت الذي كان غوستافو يسكب لنفسه كأس براندي أخرى من الدورق.

- هل أنت سعيدة مع زوجك؟

خانتها الكلمات ولم تتمكّن من الإجابة عن سؤاله. وعندما رأت غوستافو يعيد سدّادة الكريستال إلى الدورق، شعرت بالوقت ينفد منها وكلّ ما استطاعت قوله هو:

- لا أستطيع.

- إذن ما زلتِ تحبّينني؟

- نعم. ثمّ رأت غوستافو ينحني فوق والدته ويهمس في أذنها.

- إذًا قابِليني بعد ظهر يوم الغد في هذا العنوان «روا فيسكوندي دي بيراخا 17». إنّه المبنى السكني الذي أقيم فيه في إيبانيما، ستجدينني في الشقّة رقم ستّة في الطابق الأخير.

حفظت بيل العنوان في ذاكرتها وهي تشاهد غوستافو يعود إليهما، ولاحظت أنّ لوران قد انتبه إلى حالة السكر التي أصابت زوجها. لذلك ما إن عاد غوستافو وجلس بجانبها ولفّ ذراعه حولها ثمّ سحبها بعنف إليه ليقبّلها، بدأت ترتجف.

- أليست زوجتي جميلة؟ قال للوران.

- لا، بل رائعة الجمال يا سينيور.

- أحيانًا أشعر بأنّني لا أستحقّها. وتناول غوستافو جرعة أخرى من البراندي.

- كما تعلم، أعيش أسابيعي الأولى من الحياة الزوجية لذلك أحاول الاستمتاع بها قدر المستطاع.

- أجابه لوران:

- آه، أستطيع تخيّل ذلك. والآن اسمحا لي لأن وقت الرحيل قد حان. ووقف فجأة ثمّ ابتعد عنهما ليودّع باقي المجموعة.

- هل انتهيت من عادتك الشهرية؟ همس غوستافو في أذنها وهي تشاهد لوران يقبّل يد أمّها.

- لا للأسف، ربّما في الغد.

- يا للعار، كنت أرغب في زوجتي الجميلة هذه الليلة.

ثمّ عاد لوران إليهما وقال:

- تصبحان على خير وشكرًا لضيافتكما.

وعندما نهض غوستافو وبيل ليودّعاه، صافح لوران غوستافو بيده ثمّ أمسك بيد بيل وقبّلها.

- إلى اللقاء، مدام آيريس كابرال.

- ليلة سعيدة، سينيور برويي.

وما إن غادر لوران حتّى تفرّق باقي المدعوّين.

عندما بلغت كارلا عتبة الباب قالت لابنتها:

- تصبحين على خير يا *querida*، تعالي لزيارتي قريبًا. ورمقتها بنظرة فضوليّة، ثمّ نزلت الدرج خلف أنطونيو.

في الطابق العلوي، وقف غوستافو يقبّل بيل بشغف أمام باب غرفتهما، ثمّ قال لها:

- لا يسعني الانتظار حتى مساء الغد.

دخلت بيل بعد ذلك الغرفة وأغلقت الباب خلفها ونزعت ملابسها، ثمّ دخلت الفراش وهي تشكر اللّه على مساعدتها في النوم وحيدةً في تلك الليلة.

37

في صباح اليوم التالي، استيقظت بيل مستاءة ممّا حصل في الليلة السابقة. لم تعرف إن كانت قد أفرطت في الشرب أو تصرّفت بغباء، وإلّا لما كانت ستوافق على مقابلة لوران بعد ظهر اليوم في شقته، فراحت تتقلّب داخل السرير وهي تتأوّه. لقد شعرت بالفرح في الليلة الماضية، وهي تتذكّر في فراشها كلّ نظرة وكلّ كلمة تبادلتها مع لوران، لكنها استفاقت اليوم على شعور رهيب خلّفه لحاق لوران بها إلى ريو.

لم يمرّ شهر على زواجها بغوستافو، وها هي تعترف له بأنّها غير سعيدة معه، وبأنّها ما تزال تحبّه... ما ذلك الجنون الذي استحوذ عليها؟

لا شكّ في أنّه الحب...

في كلّ الأحوال إنّها مصيبة سيكون لها عواقب وخيمة، لو عرف غوستافو بالعلاقة التي ربطت بينهما في فرنسا، خصوصًا إذا كانت ستستمرّ هنا في ريو.

نهضت بيل من سريرها ودخلت الحمّام. عندما نظرت إلى المرآة، راحت تسأل نفسها عمّا يجب فعله. فالخيار الأكثر أمانًا هو عدم اللقاء بلوران في تلك الشقة. ولو حافظت على مسافة بينهما، لا بدّ من أن يتقبّل لوران الأمر، ولن يزعجها بعد ذلك.

نظرت إلى المرآة فرأت عيني لوران تبثّانها الحب والوعود والوفاء، فارتجفت من السرور رغمًا عنها.

عندما خرجت من الحمام كانت لوين في الغرفة.

- كيف حالك سينيورا بيل؟ سألتها وهي تعلّق فستانها الحريري الجميل الذي تركته على الأرض الليلة الماضية، في الخزانة.

- متعبة قليلًا. أجابتها بصراحة.

- كان هنا الليلة الماضية، أليس كذلك؟ ذلك النحّات؟ سألتها لوين وهي تواصل ترتيب الغرفة.

- نعم كان هو، أنا... آه يا لوين. ورمت بيل بنفسها على السرير باكية، تمسك رأسها بيديها، فاقتربت لوين منها وجلست بجانبها لتلفّ ذراعها حول سيّدتها.

- من فضلك لا تبكي. لا بدّ من أنّك شعرت بقليل من السعادة لمجيئه إلى البرازيل؟

- نعم... لا... ونظرت بيل إلى لوين.

- قمت بشيء رهيب. قالت لها.

- أخبرته بأنني سأقابله في شقّته في إيبانيما بعد ظهر اليوم.

- فهمت. أومأت لوين بهدوء.

- وهل ستذهبين؟

- وكيف أفعل ذلك؟ أنا امرأة متزوجّة ولا أستطيع أن أوافق على لقاء رجل غريب في شقّته! ماذا أفعل يا لوين؟ أرجوك قولي لي.

تنهّدت لوين قائلة: لا أعرف. طبعًا سيكون من الخطأ فعل ذلك. أما لو كان المقصود برونو، فأشكّ في أنّني لن أذهب، خصوصًا إذا كنت أعرف أنّه سيكون هنا لفترة قصيرة.

قالت بيل وهي تنظر إلى خادمتها:

أنت تشجعينني يا لوين في الوقت الذي أحتاج إلى من يقول لي إنّه عمل جنوني.

- هو بالفعل كذلك. وها أنت مدركة أنّه كذلك، لكن ربّما يكون من الأفضل أن تقابليه مرّة وتخبريه بأنك لا تستطيعين رؤيته مجدّدًا، وتودّعيه نهائيًا.

- وكيف أفعل ذلك؟ سينيورا آيريس كابرال تراقب كلّ تحرّكاتي.

أجابتها لوين:

- لديك موعد في إيبانيما عند الثانية من بعد ظهر اليوم مع مدام دوشين لتصمّم لك ملابس الموسم الجديد لذلك يمكننا الذهاب إليها، وهناك تدّعين أنّك تشعرين بتوعّك ونغادر على الفور لتتسنّى لك فرصة لقاء النحات ما لا يقلّ عن ساعتين.

- لوين، ماذا تفعلين بي؟ قالت بيل يائسة، لمعرفتها بأنّ تلك الخطّة سهلة التنفيذ.

«أتصرّف معك كصديقة يا بيل، كما كنتِ دائمًا معي. أرى البؤس في عينيك يومًا بعد يوم منذ أن تزوّجت. وأريدك أن تكوني سعيدة. فالحياة قصيرة جدًا، لكنّ الزواج من رجل لا تحبّينه سيجعلها طويلة لا تنتهي. لذلك... تابعت لوين وهي تنهض عن السرير:

- خذي القرار الذي تريدينه، وسأفعل ما بوسعي لأساعدك.

- شكرًا لك، سأفكّر في الأمر. قالت بيل موافقة.

صباح الخير. قالت لها لويزا عندما نزلت لتناول الفطور.

- هل نمت جيدًا يا عزيزتي؟

- نعم، شكرًا لك.

- وصلتني رسالة هذا الصباح من صديقة لي تبحث عن شابات مثلك يجتمعن في كنيسة المجد التي تقع قرب منزل والديك. قرّر سينيور دا سيلڤا كوستا، مهندس تمثال الكريستو أن يزيّنه بفسيفساء الحجر الأملس، وهو الآن يبحث عن عدد من

المتطوّعات ليساعدن في لصق مثلثات الحجر الأملس بالشبكة، الواحد بجانب الآخر.

أضافت لويزا:

- ستستغرق المَهَمّة بعض الوقت، لكنّ صديقتي أخبرتني بأنّ المتطوّعات شابات من عائلات مرموقة. وقد لاحظت أنّه ليس لديك كثير من المعارف الإناث في ريو، لذلك أجدها طريقة مثالية لتكوّني صداقات جديدة.

وافقت بيل على الفور.

- نعم بالطبع، يسعدني تقديم المساعدة، خصوصًا من أجل قضية نبيلة مثل هذه ومشروع قريب من قلبي.

- سأؤكّد لها تطوّعك. يمكنك أن تبدأي في الغد.

قالت بيل بينما كانت الخادمة تقدّم لها القهوة:

- نعم.

خرجت بيل بعد الفطور إلى حديقة المنزل لتتجوّل، وراحت تفكّر بأن تلك الفسيفساء ستعطيها على الأقل شيئًا إيجابيًا تملأ وقتها به، بعد أن اتّضح لها بأنّها لن تكون سيّدة ذلك المنزل في الوقت الحالي. فعلى الرغم من أن لويزا رمت لها عظمة بإخبارها كيف تدير حسابات العائلة، إلّا أنّها واصلت تنظيم كلّ شيء بنفسها. فهي ليس لها حتّى أن تقترح قائمة للعشاء، لأنّه سيتمّ رفضها على الفور. وحين سألت أمس إذا كان بإمكانهم استخدام طقم الليموج بدلًا من الويدجوود، قيل لها إنهم يخرجونه في الاحتفالات الكبرى فحسب، مثل أعياد الميلاد واحتفالات الذكرى السنوية.

أما غوستافو فكان يذهب كلّ يوم مباشرة بعد الغداء إلى النادي، ما يجعلها تقضي ساعات طويلة بعد ظهر كلّ يوم وحدها. وفجأة شعرت بانكماش في بطنها ما إن عادت تطرح ذلك السؤال على نفسها: ماذا ستفعل بعد ظهر ذلك اليوم؟

بحلول ساعة الغداء شعرت بيل بزيادة توتّرها. وما إن أشارت الساعة إلى الواحدة والنصف، حتّى طلبت السيّارة لتذهب إلى موعدها.

بحثت عن لويزا فوجدتها في غرفة الرسم تكتب رسائل فتوجّهت إليها بالقول:

- أنا ذاهبة إلى المدينة عند مدام دوشين، فأنا أجهّز لملابس الشتاء. لوين سترافقني، وقد أتأخّر لبعض الوقت.

- حسنًا، لكنّني سمعت بأنّ أسعارها غالية وبأنّها ليست بارعة كثيرًا في الخياطة. أستطيع أن أعطيك اسم خياطة أخرى يمكن الوثوق في خياطتها ولن تدفعي كثيرًا عندها.

- في الواقع، أنا أتعامل مع مدام دوشين منذ مدّة، ولا أذكر أنّها خذلتني يومًا. أراكِ على العشاء. وقبل أن ترمقها لويزا بنظرة تشير إلى تفاجئها من تلك الجرأة التي أبدتها في التشكيك في حكمها، مشت إلى الباب واعتمرت قبّعتها.

كانت لوين تنتظرها هناك.

- ماذا قرّرت؟ همست لها أثناء توجّههما إلى السيّارة.

- لست أدري. قالت وهي تتأوّه.

- إذًا سنذهب إلى مدام دوشين، وإذا تظاهرت هناك بإصابتك بالصداع، سأجاريك في الكذبة. قالت لها وهما تركبان السيّارة.

انطلق السائق بهما، فراحت بيل تنظر عبر النافذة في الفراغ وقلبها يكاد ينفجر داخل صدرها. عندما وصلتا إلى صالون مدام دوشين، وقبل أن تترجّلا من السيّارة، قالت بيل للسائق:

- خورخي، لا داعي لانتظاري هنا، سأتأخر قليلًا. اذهب الآن، وعُدْ عند السادسة لاصطحابنا.

- نعم، سينيورا.

راحت تشاهده يبتعد عن الرصيف، ثمّ دخلت برفقة لوين إلى الصالون. بعد مرور عشر دقائق، وجدت بيل نفسها تنظر إلى انعكاسها في المرآة الطويلة من دون أي اهتمام إلى ما تراه فيها، إذ كانت تشعر بالارتباك. وراحت مدام دوشين تجاملها وهي تدور من حولها ممسكة بالماسورة والدبابيس. كانت لا تزال متردّدة،

وهذا ما سبّب لها عذابًا شديدًا، فشعرت بانزعاج في بطنها. كانت تعلم بأنّ عليها أن تأخذ قرارها حالًا وإلّا سيفوت الأوان.

تابعت مدام دوشين الدوران حول بيل تتفقّد تصميمها في المرآة من أسفل الفستان إلى الكتفين، وعندما نظرت بعينيها الزرقاوين إلى وجه بيل، ظهر عبوس على وجهها.

- لا تبدين بحالة جيّدة يا سينيورا، لونك باهت. ربّما تضرّرت من شيء ما؟

- أشعر ببعض الوهن. أجابتها بيل.

- حسنًا، ربّما علينا أن نؤجّل الجلسة إلى يوم آخر؟ من الأفضل لك أن ترتاحي. قالت وهي تنظر خلسةً إلى بطن زبونتها في المرآة.

وفي تلك الثانية، وقع نظر بيل على لوين، فعرفت أنّها اتّخذت قرارها.

- نعم، ربّما أنت على حق. سأتّصل غدًا لنحدّد موعدًا آخر. هيّا بنا يا لوين، فلنغادر.

عندما أصبحت المرأتان في الشارع، نظرت بيل إلى لوين ثمّ قالت لها:

- حسنًا، اتّخذت قراري، لا بدّ من أنّني فقدت عقلي لكنّني سأقابله. تمنّي لي الحظّ من فضلك.

- بالتوفيق، احرصي على أن تكوني هنا في تمام السادسة حتى تقلّنا السيّارة إلى المنزل. وأضافت بهدوء:

- سينيورا، حتى لو قرّرت أنّك لن تريه مرّة أخرى، برأيي أنّكِ اتّخذت اليوم القرار الصحيح.

- شكرًا لك.

سارت بيل بسرعة عبر شوارع إيبانيما باتجاه روا فيسكوندي دي بيراخا. استدارت مرّتين، وهي في طريقها إلى هناك عائدة أدراجها، بسبب حالة الشكّ التي تصارعها. لكنها عادت وتقدّمت في سيرها إلى أن وجدت نفسها أمام المبنى الذي يسكن فيه لوران.

«نعم». قالت لنفسها. «سأدخل الآن لأخبره بأنّني لن أستطيع رؤيته مرّة أخرى، تمامًا كما فعلت في باريس، ثمّ أرحل».

دفعت بنفسها إلى داخل المبنى ثمّ مشت نحو السلالم وصعدتها درجة درجة، وهي تتحقّق من الأرقام المدوّنة على الأبواب.

عندما وصلت إلى الرقم السادس، تردّدت قليلًا قبل أن تقرع الجرس. ومن ثمّ أغلقت عينيها وتلت صلاة سريعة في صمتها قبل أن تنقر على الباب.

سمعت أولًا طرطقة أقدام فوق أرضية الخشب، ثمّ شُقّ الباب وأطلّ لوران من خلفه.

- بونجور مدام آيريس كابرال، تفضّلي بالدخول.

ابتسم لها وهو يمسك بالباب حتّى تتمكّن من الدخول، ثمّ أغلقه خلفها وأغلق بعد ذلك القفل مرّتين حتّى لا يتفاجأ بقدوم مونيكا، الخادمة، غير المتوقّع. فقد نجح أخيرًا في الانفراد ببيل، لذلك لم يكن يرغب في أن يضايقه أحد.

- يا لذلك المنظر الرائع. قالت بيل بعصبيّة وهي ما تزال واقفة في غرفة الرسم تحدّق إلى المحيط.

- نعم، هو كذلك.

- لوران...

- إيزابيلا...

وابتسما معًا عندما لفظ كلٌّ منهما اسم الآخر في الوقت نفسه.

- هل نجلس؟ سألته وهي تمشي باتجاه كرسيّ وتتخذه مكانًا لنفسها، محاولة عبثًا التحكّم في تنفّسها السريع.

سحب لوران كرسيًّا آخر ووضعه في مواجهة كرسيّها وجلس عليه.

- ما الذي تريدين قوله؟

هزّت برأسها وتنهّدت قبل أن يقول:

- ما أقوم به الآن ليس مناسبًا، لا ينبغي أن أكون هنا.

- ولا أنا. قال موافقًا.

- على الرغم من عزمنا على ألّا نكون هنا، يبدو أنّ هناك قوّةً ما جلبتنا إلى هنا.

- نعم. قالت وهي تأخذ نفسًا عميقًا.

- جئت لأخبرك أنّنا لن نلتقي مجدّدًا.

- هذا ما قلته في الحديقة في باريس، وانظري إلى ما يحصل.

- لكنّني لم أطلب منك المجيء إلى ريو.

- لا، لم تفعلي. وهل أنت آسفة لأنّك لم تفعلي؟

- نعم... لا... تنهّدت بيل في يأس.

فقال لها:

- أنت متزوّجة.

- أجل، لذلك اعلم أن الوضع قد أصبح مستحيلًا بالنسبة إلينا.

بيل... وقف لوران على قدميه ثمّ اقترب منها وركع على ركبتيه، وأمسك بيدها.

- سألتك في الليلة الماضية إذا كنتِ سعيدة، وأجبتني بأنك لست كذلك.

- لكن.

- ثمّ سألتك إذا كنت ما تزالين تحبّينني، وقلت بأنّك كذلك.

- أنا...

- دعيني أكمل من فضلك. أنا أتفهّم ظروفك وأعرف أنّ مجيئي إلى هنا في هذا الوقت المعاكس غير ملائم. لذلك أعدك بأنّك لو طلبت منّي الآن الرحيل كما فعلت في باريس، أقسم بأنّني سأترك ريو ما إن أحجز مكانًا على الباخرة. أخبريني بما تريدين لأنّني أعتقد أنّني وضّحت من ناحيتي ما أريده.

- أن أكون حبيبتك. نظرت إليه.

- هل هذا ما تريده، لأنّني غير قادرة على تقديم شيء آخر. افهم أنّك لا تستحقّ ذلك.

- لا تتذرّعي بما أستحقه، لأن القدر قد أصدر حكمه وأنت المرأة التي أريدها. حاولت قدر المستطاع أن أمضي في حياتي من دونك لكنّني لم أستطع. لذلك نعم، أرغب في أن أخطفك الآن وأضعك في حقيبتي وأحملك إلى فرنسا حتى نتمكّن من العيش معًا بقيّة حياتنا. لكنّني مستعدّ لتقديم التنازلات. وماذا عنك؟ قال وهو ينظر بشوق إلى وجهها، راغبًا في معرفة ما يجول في خاطرها، ممتّعًا نظره بملامحها.

نظرت بيل إليه وهي تسأل نفسها كيف أمكنها أن تشك لحظة في مشاعره تجاهها. فها هو يترك حياته في فرنسا، ويتبعها عبر المحيط إلى ريو على الرغم من أنّه لم يكن ضامنًا العثور عليها. ولسخرية القدر، كان زوجها المسكين من جمع شملهما. وما إن فكّرت في غوستافو حتى عادت إلى رُشدها، فقالت له بحزم:

- ما مضى قد مضى. لا أجد من العدل أن تصل إلى هنا وتحيي فيّ ذكراك بعد أن فعلت كلّ ما في وسعي لأودّعك في باريس وأحاول أن أنساك. أنا... ثمّ سالت الدموع من عينيها وبدا صوتها مخنوقًا.

- سامحيني يا عزيزتي، آخر ما كنت أريده هو أن أجعلك تبكين. أنت على حق، لقد طلبت منّي أن أتركك وشأنك ولم آخذ رغبتك بعين الاعتبار، لذلك أعترف بأن الخطأ يقع عليّ ولا ذنب لك في أي شيء.

- أخبرني من أين آتي اليوم بالقوّة لأودّعك مرّة أخرى؟ وما إن لفّ ذراعه حولها انهالت مجددًا بالبكاء.

- أنت لا تعرف ما استغرقه توديعك في المرة الماضية، فكيف أقوم به مرّة أخرى...

- إذًا لا تفعلي، قولي لي فقط أنّك تريدينني أن أبقى فأبقى.

- أنا...

ثمّ أثنى لوران رأسه متمهّلًا وبدأ يقبّلها في عنقها بكلّ لطف لدرجة شعرت وكأنّ جناح فراشة يداعبها مكان القبل، فتأوّهت.

- من فضلك، أرجوك، لا تصعّب الأمر أكثر ممّا هو عليه.

- بيل كفّي عن تعذيب نفسك. اسمحي لنا بأن نكون معًا عندما تكون الفرصة سانحة. فأنا أحبّك... وكثيرًا. غمغم قائلًا وهو يمسح الدموع عن خدّيْها بأطراف أصابعه.

مدّت يدها وشبكتها بيده.

- ليس لديك فكرة عن مدى اشتياقي إليك. وبكت مجددًا.

- وأنا بالمثل. ثمّ انحنى صوبها ووضع شفتيه على شفتيها، فذابت بين ذراعيه بعد أن ضعفت عزيمتها ولم تعد قادرة على المقاومة.

قال بعد أن انفصلت شفاههما:

- عزيزتي، دعيني أحملك إلى الفراش. أقبل فقط أن أتمدّد بجانبك، على الرغم من أنّني أحتاج إلى ضمّك. وقبل أن تجيبه رفعها عن الكرسي وحملها إلى غرفة النوم، وهناك وضعها بكلّ هدوء على السرير.

توقّعت بيل أن يهجم عليها كالمسعور كما يفعل غوستافو، لكن ذلك لم يحدث. وبدلًا من ذلك، استلقى لوران بجانبها وضمّها بين ذراعيه وراح يقبّلها مرة ثانية، وثالثة، ورابعة، كما راح يرسم بأصابعه الحنونة ملامح ثدييها وخصرها عبر ثيابها، إلى أن عجزت عن التفكير في أي شيء آخر سوى رغبتها بالإحساس بجسده العاري فوق جسدها.

همس في أذنها:

- هل أطلق سراحك، أم أنّك مرتاحة؟

عندئذٍ دحرجت نفسها عن طيب خاطر لتسمح له بفكّ أزرار ثوبها من الخلف. أما هو فراح يأخذ وقته في فك كلّ زرٍّ وتقبيل بشرتها العارية تحته، إلى أن انزلق كمّا الفستان إلى أسفل ذراعيها. ثمّ جاء دور حمّالة الصدر. وبمجرّد أن نزعها عن جسدها ورماها على الأرض، دحرجها مجددًا بكلّ لطف وراح ينظر إليها.

- أنت جميلة جدًّا. همس لها فالتوت صوبه وجسدها يتألّم من لمساته. وعندما لمست شفتاه حلَمتيها أخرجت لاشعوريًّا من فمها أنينًا.

راحت يده تتحرّك ببطء فوق بطنها المسطّح، وقبل أن يذهب أبعد، رفع رأسه عن صدرها ونظر إليها بانتظار أن يحصل على إذن. وعندما أخذه، فكّ حمّالتها ليدحرج الجوارب نزولًا، ثمّ مرّر أصابعه على بشرتها فراحت تشعر بوخز تيّارات كهربائية حارّة. وأخيرًا استلقت عارية أمامه.

توقّف لحظة وكان يتنفّس بصعوبة، فمسح بعينيه جسدها الرائع.

- سامحيني، لكنّني أرغب في نحتك.

- لا، أنا...

لكنّه أسكتها على الفور بقبلة، ثمّ قال:

- لا عليك يا جميلتي، فأنا أعاكسك. الآن لا أرغب بشيء سوى ممارسة الحب معك. وما إن تعرّى حتى رمقته بيل بنظرات خجولة رغبة منها باكتشاف جسمه الجميل. وبعد أن التصق جسده بجسدها وتأكّد من أنّها باتت جاهزة، دخلها على الفور فقبله جسدها عن طيب خاطر. وحينها شعرت بالنشوة وفهمت على الفور ما كانت والدتها تقصد بما وصفته لها في تلك الليلة السابقة للزواج.

بقي الاثنان ممدّدين الواحد بين ذراعي الآخر، وبيل مستسلمة لرغبتها الملحّة في لمسه ومداعبة كلّ شبر منه، وهي تحاول اكتشاف كيانه الحسّي. حتّى أنّها رغبت في أن يفعل الأمر نفسه معها.

لاحقًا غفا لوران بجانبها. في البدء حاولت ألّا تقارن بين هذا الذي استمتعت به الآن وما كانت تتحمّله من غوستافو أثناء ممارسة الجنس، إلّا أنها لم تستطع منع نفسها. فراحت تفكّر بذهول كيف يمكن لتلك الممارسة أن تلقى استجابة مختلفة من عقلها وجسمها كل مرّة.

وفجأة تذكّرت ما قاله لوران عندما نصحها بعدم الزواج بغوستافو، وأدركت كم كان على حقّ، لأنّ لا شيء سيغيّر من حقيقة أنّها لم تحبّ زوجها ولن تحبه بالطريقة التي يحبّها هو بها.

أما عن ذلك الاشمئزاز الذي شعرت به تجاهه جسديًا فلم يكن خطأً منه، لأنّه في الأساس ليس رجلًا سيئًا أو طاغية يهمل أمرها. بل على العكس، إذا كان فيه شيء إيجابي فسيكون اهتمامه بها والذي يظهره بالطريقة الوحيدة المتاحة له.

- ماذا هناك؟ قال لوران بعد أن استيقظ من نومه وراح يحدّق إليها باهتمام.

- كنت أفكر في غوستافو.

- حاولي ألّا تفكّري يا حبيبتي، لأنّك لن تحصلي من ذلك إلّا على وجع القلب.

- لا، أنت لا تفهم. تنهّدت قائلة وهي تتدحرج بعيدًا عنه وتستقرّ على جنبها. ثمّ شعرت بيده من الخلف تلامس حدود وركها الناعمة وتنزلق إلى الفجوة عند خصرها. لاحقًا شدّها نحوه إلى أن انحنى جسد الواحد فوق جسد الآخر وأصبحا واحدًا.

- أعرف ذلك يا عزيزتي، أعرفه تمامًا. إنّها فوضى رهيبة، وعلينا ألّا نزجّ بزوجك فيها لحمايته.

عندما وضع كفّه حول ثديها ليتفقّد حجمه، تنهّدت من المتعة واستدارت إليه بغنج. وما إن عاود ممارسة الحبّ معها حتى تلاشت كلّ أفكارها حول غوستافو، وتركت نفسها تسافر إلى عالم من المتعة لم يسبق لها أن عرفته من قبل.

بعد ذلك، غفت وهي تشعر بالرضا وبعد قليل قفزت من نومها وهي تنظر إلى الوقت.

- يا إلهي! عليّ المغادرة، لا بدّ من أنّ سائقي ينتظر أمام صالون مدام دوشين.

كانت تلهث مذعورة وهي تدفع بنفسها خارج السرير، وتجمع ملابسها المشتبكة بالشراشف أو المتناثرة على الأرض، ثمّ ارتدت فستانها بأسرع ما يكون، تحت أنظار لوران الذي بقي يشاهدها بهدوء من داخل الفراش.

- متى سأراك مجددًا؟

- ليس غدًا، لأنّني سأذهب إلى الكنيسة لأساعد في كساء الكريستو بالفسيفساء. ربّما يوم الاثنين؟

ثمّ استعجلت في ترتيب شعرها واعتمرت قبّعتها وتحرّكت نحو الباب.

حينها كان لوران قد أصبح بجانبها فطوّقها بذراعيه.

- سأفتقدك كلّ ثانية. ارتجفت بيل بعدما شعرت بجسده العاري يضغط عليها.

- وأنا أيضًا.

- إلى ذلك الحين، يا عزيزتي، تذكّري أنّني أحبّك.

نظرت إليه بيل للمرة الأخيرة، ثمّ غادرت.

38

خلال الأشهر القليلة التالية، أمضت بيل أيّامها غارقة في مشاعرها المتزايدة. بدا الأمر لها كما لو أنّ أيّامها، قبل ظهرِ ذلك اليوم من شهر شباط الذي أمضته في شقّة لوران، فارغة لا طعم لها ولا لون. أمّا اليوم فقد أصبحت تشعر، كلّما استيقظت في الصباح وفكّرت بلوران، بالأدرينالين يضخّ وينتشر في كلّ أنحاء جسمها. حتى أن زرقة السماء بدت لها عبر النافذة أكثر إشراقًا وظهرت الأزهار في الحديقة أمام عينيها مثل قوس قزح.

كانت، كلّما هبطت السلالم في الصباح وجلست قبالة لويزا بوجهها المتجهّم وروحها الثائرة لتناول الفطور، تفكّر بلوران، فترتسم ابتسامة خجولة على شفتيها. لم يعد أيّ شيء قادرًا على مسّها ولا أيّ شخص قادرًا على أذيّتها. باتت تشعر بالحماية والصفاء بسبب حبّهما المتبادل.

وعندما تمرّ أيام طويلة تعجز فيها عن زيارته في شقته، كانت تغرق في يأسها وتعذّب نفسها بالتفكير في مكان وجوده وفي ما كان يقوم به ومع من. كانت تشعر بخوفٍ شديدٍ يتسبّب لها بجمود الدم في عروقها وبقشعريرة، بينما يسيل العرق على جبينها بسبب لهيب الحرّ في الخارج. هذا لأنّها كانت تعتبره حرًّا في حُبّ من يريد، بينما الوضع لا ينطبق عليها.

- يا إلهي أيتها العزيزة. تنهّد لوران بينما كانا معًا في سريره الكبير المصنوع من خشب الماهوجني قبل بضعة أيام.

- أعترف بأنني أواجه صعوبة متصاعدة في مشاركتك مع أحد. أنا منزعج من فكّرة أنّ هناك رجلًا غيري يلمسك، ناهيك بفعل ما أفعله أنا.

أضاف وهو يمرّر أصابعه برفق فوق ثديها العاري:

- اهربي معي يا بيل، دعينا نعدْ إلى باريس. هناك لن نضطرّ إلى الاختباء، وسنمضي حياتنا في شرب النبيذ وتناول الخبز والطعام الجيد، وفي محادثات لا تنتهي وممارسة الحب... عندئذ راح صوته يخفت حدّ الهمس حتى غطّت شفتاه شفتيها.

لسخرية القدر، كانت حماتها هي التي أدّت دورًا في إبقاء حبيبها إلى جانبها طوال تلك المدّة، ومن دون أن تعلم بشيء. فكما وعدته، قامت لويزا بتقديم لوران إلى كثيرين من أصدقائها الأثرياء في ريو. فبعد أن رأوا منحوتة بيل، أرادوا بدورهم تخليد أفراد أسرهم بالطريقة نفسها. لذلك بدأ لوران ينحت كلب شيواوا برغبة من مالكيه الأثرياء. وهكذا دعمت حماتها لوران في فنّه، وفهمت بيل أنّ القدر كان يتدخّل لجمع شملهما.

- هذا العمل ليس بالضبط النوع الذي أرغب في القيام به. اعترف لها.

- لكنّه يبقيني بعيدًا عن المشاكل عندما لا تكونين هنا.

وعندما كانت بيل تعجز عن التسلّل إليه في فترة بعد الظهر، كان لوران يعمل على نزع الحجر الأملس الذي اشترته لويزا من منجم أحد أقربائها. كما أن اقتراح لويزا بتطوّع بيل للمساعدة في كسو الكريستو بفسيفساء الحجر الأملس في كنيسة المجد، كان بالنسبة إلى بيل حجّة مثالية لتغيب عن المنزل. وكانت كلّما انغلقت يداها على مثلث ناعم من تلك المادة التي يعمل عليها لوران، شعرت براحة داخلية.

لويزا هي الوحيدة التي كانت على علم بتحرّكات بيل، وبساعة خروجها ودخولها إلى المنزل، لأنّ غوستافو كان يقضي مزيدًا من الوقت في النادي ويعود إلى المنزل ثملًا عند العشاء. حتّى أنّه نادرًا ما كان يسأل عن روتين زوجته اليومي.

راحت بيل تفكّر وهي تعتمر قبعتها وتطلب من لوين مناداة خورخي سائق العائلة، في أنّ غوستافو لم يعد يلاحظ وجودها في هذه الأيام. فذلك الاهتمام

الذي أبداه في بداية علاقتهما قد تلاشى، ما إن بدأت علاقتها الغرامية مع لوران قبل أربعة أشهر.

على الرغم من ذلك، بقيت تدخل فراشه ليلًا وهي مذعورة من رغبته الجامحة في ممارسة الجنس معها. إلّا أنّه في كثير من الأحيان كان ينتهي الأمر بعجزه عن الممارسة. والسبب، برأي بيل، يعود إلى بقائه ثملًا طوال الوقت، غير قادر حتّى على الوقوف جالسًا أثناء دخوله الفراش. وكم من مرّة غفا وهو يحاول دخولها، فتدحرجه عنها وتبقى مستلقية على ظهرها تسمع شخيره وسط رائحة حموضة كريهة تفوح داخل الغرفة. وكانت في معظم الأحيان، تنهض في الصباح، وترتدي ملابسها، وتنزل لتناول الفطور قبل أن يستيقظ من نومه. وعلى الرغم من أنّ والديه لاحظا إدمانه، إلّا أنّهما لم يناقشاه في الموضوع. المرّة الوحيدة التي ذكرت فيها لويزا شيئًا لكنّتها كانت عندما أرادت الاستفسار عن موضوع حملها المنتظر. عندئذٍ أكّدت لها بيل بأنّ لا خبر عن الموضوع وحينها شعرت باستيائها.

ونظرًا لشغفها بلوران وللعلاقة الحميمة التي جمعت بينهما، انتاب بيل بعض القلق عندما وجدت أن جسمها لا يستجيب لأي محاولة من محاولات غوستافو في إنتاج وريث، وشعرت بالخوف من استسلامها بكل سهولة للمسات لوران اللطيفة. حبيبها كان أوّل من رأى عبوسها في التجاعيد التي علت جبينها بعد ظهر ذلك اليوم. فراح يشرح لها كيف يمكنها تجنّب الحمل، كما وصف لها الطريقة التي يعمل بها جسمها مثلما لم تفعل أمّها من قبل، وعلّمها كيف تراقبه وكيف تشعر بالأوقات التي تكون فيها أكثر خصوبة.مكتبة سُر مَن قرأ

- الطريقة ليست سالمة من الفشل يا عزيزتي، لهذا السبب نجد عائلات كاثوليكية ما تزال تنجب الأولاد بكثرة. قال وهو يبتسم رغم قلقه.

- وهناك أيضًا طرائق يمكن لي أن أطبّقها بنفسي لأساعدك على تفادي الحمل في مرحلة الخصوبة.

نظرت بيل إليه مندهشة من معرفته لكل تلك التفاصيل.

- كيف تعرف كل هذا؟

- معظم الفنّانين أمثالي في مونبارناس، يسعون وراء مثل تلك الملذّات، لكن لا أحد منّا يرغب في أن ينتهي به المطاف مع امرأة تلاحقه مدّعيةً بأنّها تحمل طفله. وعندما رأى لوران حزنًا على وجهها، أسرع إلى مدّ ذراعه ليلفّه حولها وسحبها إلى صدره. «آسف يا عزيزتي، لكنّك تعرفين الوضع الذي نمرّ به حاليًا، ولا أرغب في أن أضحّي بك، ولا أريد أن يأتي طفلي إلى هذا العالم ويربّيه ذلك الرجل الذي هو زوجك. لذلك علينا أن نأخذ حذرنا في الوقت الحالي».

خرجت بيل من ذلك المنزل وركبت السيّارة وهي تحدّق عبر النافذة إلى الخارج. قادها خورخي إلى منزل والديها في كوزمي فيلهو فلم تستغرق الرحلة مسافة طويلة. كان قد مرّ على بيل أكثر من شهر لم تزر فيه والديها نظرًا إلى أنّها كانت تصرف أي وقت فراغ بإمكانها سرقته مع لوران. وأمس فقط، سألتها لوين عن موعد زيارتها المقبلة لأمّها.

- قريبًا، قريبًا جدًّا. أجابت بيل وهي تشعر بالذنب.

- أعرف أنّك... مشغولة، لكن ربّما حان الوقت لتذهبي إليها. قالت لوين وهي تساعد بيل في ارتداء فستانها.

- أمّي تشعر بالقلق عليها.

- وهل هي مريضة؟

- لا أعرف. أجابتها بحذر.

- سأذهب إليها في الغد وأراها بنفسي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

وعندما دخلت السيّارة الممرّ المؤدّي إلى مانساو دا برنسيسا، طلبت من خورخي أن يأتي لاحقًا إلى كوباكابانا بالاس ليأخذها من هناك عند السادسة والنصف مساءً.

كانت بيل قد أخبرت لويزا في وقت سابق من الصباح أنّها بعد زيارة والدتها، ستقابل صديقتها الجديدة هيلواز، التي تجلس بجانبها أثناء العمل على الفسيفساء، لتناول الشاي في كوباكابانا بالاس. وكانت بيل تعرف أن لويزا ستوافق، إذ هي مَن شجّعتها أوّلًا على مصادقة شابات من خلفيات مرموقة يتناسبن مع وضعها الجديد، وهيلواز كانت من عائلة أرستقراطية عريقة. وعلمًا منها بأن لويزا

تجد عظمة ذلك الفندق المتوهجة مقيتة، استنتجت من تلقاء نفسها أنّها لن تطلب الانضمام إليها.

بينما كانت بيل تتوجّه نحو باب منزلها السابق، شعرت بانزعاج في معدتها من خوفها بأن يكتشف أمر خداعها المستمرّ في أي لحظة. كانت في الشهرين الماضيين قد أصبحت كاذبة بارعة رغمًا عن إرادتها، ولم تكن راضية عمّا تفعله، لكن لم يكن لديها خيار آخر.

ما إن فتحت غابرييلا الباب حتى استنار وجهها:

- سينيورا، يسعدني أن أراك، والدتك ترتاح في غرفتها، لكنّها طلبت مني أن أوقظها فور وصولك.

- هل هي مريضة؟ عبست بيل وهي تتبع غابرييلا إلى غرفة الرسم.

- قالت لي لوين إنّكِ قلقة عليها.

أجابت غابرييلا متردّدة:

- لا أعرف إذا كانت مريضة أم لا، لكنّها بالتأكيد متعبة.

استجمعت بيل قواها لتقول:

- أنت تعتقدين أنّ مشكلتها قد عادت، أليس كذلك؟

- سينيورا، لا أعلم. ربّما عليك أن تسأليها بنفسك، وتقنعيها بمراجعة الطبيب. والآن ماذا أقدّم لك؟

عندما ابتعدت غابرييلا لتحضر عصير البرتقال ولتوقظ كارلا من نومها، سيطر القلق على بيل، فبقيت جالسة في مكانها داخل الغرفة التي قضت فيها وقتًا طويلًا من حياتها. وعندما دخلت كارلا عليها لاحظت بيل على الفور التعب والشحوب على أمّها، وقد غطّت بشرتها بقعة صفراء لم تكن ظاهرة في آخر مرة رأتها فيها.

- ماي، سامحيني لأنّني غبت عنك طويلًا، كيف حالك؟ قالت لها وهي تحاول إحباط خوفها وشعورها بالذنب لعدم مجيئها من قبل، واقتربت من كارلا لتحيّيها بقبلة.

- أنا بخير، وأنت؟

- وأنا أيضًا، يا ماي...

- هل نجلس؟ قالت كارلا وهي تهبط بجسمها فوق الكرسي كما لو أنّ ساقيها لم تعودا قادرتين على حمل ثقلها.

- ماي، من الواضح أنّك لست بخير، هل تشعرين بألم؟

- قليلًا، لكنّني واثقة من أنه ليس بشيء مهم، أنا...

- من فضلك، لا بدّ من أنّك تعلمين بأنه مهمّ. ولا أشكّ أيضًا في أن ﭘاي قد لاحظ أنّك لست على طبيعتك؟

- لدى والدك أشياء أخرى يقلق عليها في الوقت الحاضر. تنهّدت كارلا قبل أن تتابع:

- مزارع البن لم تعد تحقّق له المدخول نفسه كما في السابق، وخطّة التخزين التي اقترحتها الحكومة لا تبدو ناجحة.

- لا أعتقد أن مخاوف ﭘاي التجارية أهم من صحة زوجته. أجابتها بيل.

- *querida*، والدك متوتّر جدًّا، ولا أرغب في رمي عبء إضافي عليه.

اغرورقت عينا بيل بالدموع.

- قد لا يكون الوقت مناسبًا، لكن ألا ترين أنّه لا يوجد شيء أهم من صحّتك؟ فضلًا عن أنّنا قد نخشى الأسوأ.

- هذا جسمي وأنا من يعيش فيه، وأنا قادرة على فهمه والشعور بما يحدث له. قاطعتها كارلا بنبرةٍ حازمة.

- لا أريد أن أجعل نفسي أو أجعلك تعيشين مرحلة مؤلمة نهايتها معروفة، ولا أريد ذلك لوالدك.

قالت بيل وهي تشعر بثقل في حلقها بسبب معاناتها:

- ماي، من فضلك دعيني على الأقل أحجز موعدًا عند الطبيب الذي عالجك في المرة السابقة. أنت تثقين به، أليس كذلك؟

- نعم كلّ الثقة، وأعتقد أنه الأفضل في ريو. لكن ثقي يا بيل بأنّه لم يعد قادرًا على مساعدتي.

- لا تقولي ذلك! فأنا أحتاج إليك هنا، وكذلك پاي.

- ربما أنت على حقّ. قالت كارلا وقد ظهرت على وجهها ابتسامة قاتمة.

- لكنّني يا إيزابيلا، لست حبّة بن أو ورقة نقدية. تلك هي حبّه الأول والحقيقي.

- أنت مخطئة يا ماي! من فضلك، قد لا ترين ذلك لكنّني أرى. أنت كل شيء بالنسبة إليه، ومن دونك حياته لا تساوي شيئًا.

جلست المرأتان في صمت لبضع دقائق إلى أن تكلّمت كارلا:

- إذا كان ذهابي إلى الطبيب سيريحك يا إيزابيلا، تستطيعين حجز موعد ومرافقتي إليه. وأنا واثقة من أنّك ستعاودين سماع ما قلته لتوّي. لكن، لديّ طلب واحد لأوافق على رؤية الطبيب.

- ما هو؟

- في الوقت الحاضر، لا أريدك أن تخبري والدك بشيء. لن أتحمّل رؤيته يعاني مرّة أخرى.

* * *

بعد نصف ساعة، غادرت بيل منزل والديها برفقة السائق، بعد أن أخبرتها كارلا بحاجتها إلى الاستلقاء. فطلبت منه أن يأخذها إلى إيبانيما وهي لا تزال تترنّح من الصدمة، وتفكّر في أنّ أمّها من دون شكّ تبالغ في خوفها.

غادرت بيل السيارة على بعد مبنيين من شقّة لوران، وبدأت تركض بكل طاقتها إلى الشخص الوحيد الذي اعتقدت أنّه قادر على منحها الراحة النفسية.

- عزيزتي! اعتقدت أنّك لن تأتي. يا إلهي! ما خطبك؟ ماذا حدث؟ قال لوران ما إن أطل من خلف الباب واحتضنها.

تمكّنت بيل من الإجابة وهي تحاول أن تلتقط أنفاسها: أمي... تعتقد أنّها تحتضر. وبكت على كتفه.

- ماذا؟ وهل أخبرها الطبيب بذلك؟

- لا، لكنّها كانت مريضة بالسرطان قبل عام، وهي متأكّدة من أنّه عاودها. والأسوأ أنّها مقتنعة بأنّها النهاية. لكنّها لا تريد أن تُقلق والدي الذي يواجه مشاكل في عمله. بالطبع أصررت عليها لتراجع الطبيب، لكن... منذ آخر مرة رأيتها فيها قبل شهر، أشعر بأنّ حالتها تدهورت كثيرًا.

ثمّ نظرت بيل إلى عيني لوران وتابعت:

- أنا خائفة جدًّا من أن يكون إحساسها صائبًا.

قال لوران وهو يمسك بيديها ويسحبها إلى جواره حيث يجلس على الأريكة:

- بيل، عليك أن ترافقيها أوّلًا لتستشيرا الاختصاصي. فعندما نُصاب بمرضٍ عضالٍ ونشفى منه، من الطبيعي أن نشكّ، ما إن نشعر بأنّنا لسنا بخير، في معاودة ظهور المرض، حتّى ولو لم يكن الأمر كذلك في الواقع. وهل تقول أمّك إنّ والدك يعاني من مشكلات في العمل؟ اعتقدت أنّه ثريّ مثل كرويسوس.

- هو كذلك، وإذا كانت لديه مخاوف فأنا واثقة من أنّه يبالغ في التقدير. قالت وهي تشدّ على نفسها من أجل استجماع قواها.

- هل أنت بخير يا لوران؟

- نعم، يا عزيزتي، أنا بخير، وأعتقد أنّنا تجاوزنا تلك الشكليات. اشتقت إليك كثيرًا في الأيام الماضية. قال لها.

- وأنا أيضًا. أجابته وهي تلوي برأسها فوق صدره في محاولة لإيقاف الألم الذي شعرت به خلال الساعتين الماضيتين.

راح لوران يمسّد شعرها ليحاول صرف تفكيرها، وإن مؤقّتًا، عن المسألة التي تزعجها.

- كنت جالسًا في الصباح أتساءل عمّا سأفعله في الأيام المقبلة بعد أن أنتهي من نحت الكلب اللعين، وإذ بمدام سيلفيرا وابنتها أليساندرا تتّصلان بي. الأم ترغب في أن أنحت لها ابنتها أليساندرا، كهدية تقدّمها إليها في عيد ميلادها الحادي والعشرين.

- أليساندرا سيلفيرا؟ أنا أعرفها. قالت بيل وقد انتابها القلق.

- إنهم أقرباء من بعيد لعائلة آيريس كابرال، وقد حضروا حفل زفافي. أتذكّر أنّها فتاة جميلة.

- حسنًا، هي بالتأكيد أكثر جاذبية من الشيواوا. قال لوران بعيدًا عن المزاح.

- وحتمًا سيتخلّل جلسة النحت محادثات معقولة. حتّى أنّها تحدثت إليّ اليوم بفرنسية جيدة.

- وهي غير متزوجة بحسب ما أعتقد. قالت بيل بصوتٍ خافتٍ بعد أن تسلّل الخوف إلى قلبها.

- في الواقع هي كذلك. أجاب لوران وهو يواصل في تمسيد شعر بيل.

- ربما يأمل والداها بأن يتمكّن تمثالي من الترويج لجمالها ورقيّها لجذب زوج مناسب.

- أو ربّما رأوا فيك نحّاتًا فرنسيًّا شابًّا وموهوبًا يصلح لأن يكون زوجًا لابنتهم. أجابت بيل وهي تبعد نفسها عنه، وتلفّ ذراعيها حول نفسها لتغلق المجال أمامه.

- إيزابيلا! وبّخها لوران وهو ينظر إليها باهتمام.

- لا تقولي لي إنّك تغارين.

لا، بالطبع لا أغار. أجابت وهي تعضّ على شفتها. لكن مجرّد فكرة أنّ امرأة أخرى ستجلس أمامه يومًا بعد يوم كما فعلت هي في بولون بيلانكور، أثارت في نفسها الحسد ورفعت من حرارة جسمها.

- لا تستطيع أن تنكر أنّك دُعيت مؤخّرًا إلى مناسبات اجتماعية كثيرة، وبالتالي فإن صيتك قد ذاع في المدينة.

صحيح، لكنّني لا أعتقد أنّهم يرونني مناسبًا لبناتهم الشابات، فأنا مجرّد وجه حديث بالنسبة إليهم.

لوران، حقيقة أنّك فرنسيّ مقيم في ريو ومن العالم القديم، فضلًا عن دعم حماتي لفنّك، كل هذا يجعلك في نظرهم أكثر من مجرّد وجه حديث.

عندما قالت ذلك، ألقى لوران برأسه إلى الخلف وضحك.

- حسنًا، إذا كنتِ فعلًا على حق، فاعلمي أنّني مسرور بذلك. أجابها في النهاية.

- أصبحت تعلمين أنّ أيّ فنّان مثلي ومثل أصدقائي في فرنسا يعدّ من قاع المجتمع الباريسي. وقد قلت لك في السابق: الأمهات الفرنسيّات يفضّلن موت بناتهنّ على تزويجهنّ من فنّانين مكافحين.

- حسنًا، أعتقد أن عليك أن تعرف بأنّ نظرة الآخرين إليك هنا مختلفة. قالت بيل وهي تعرف مدى سخف تصرّفها ذاك، لكنّها عجزت عن ضبط نفسها.

أمال لوران رأسه جانبًا وراح يحدّق إليها من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها ثمّ قال:

- أنا أفهم استياءك يا عزيزتي، خصوصًا الآن بعد سماعك ذلك الخبر السيئ عن والدتك، لكنّني واثق من أنّك تعرفين أن ردّ فعلك هذا باعث للسخرية، أليس كذلك؟ لأنّني لست أنا من يعود إلى زوجه حين ينتهي لقاؤنا هذا. ولست أنا من يتقاسم السرير مع شخص آخر كلّ ليلة. ولست أنا من يرفض قبول فكرة تغيير هذا الوضع الذي نحن فيه حاليًا. لا، لكنّني أنا وحدي أتحمّل كل هذه الأمور. وأنا من أشعر بألم في معدتي كلّما فكّرت في زوجك وهو يمارس الحب معك. وأنا من عليّ أن أكون متفرّغًا كلّما أشرت أنت بأصبعك لتقولي إنك آتية لزيارتي. وأنا من عليّ أن أملأ ساعات فراغي لئلا أفقد عقلي في التفكير بك!

عندئذٍ أحنت بيل رأسها إلى ركبتيها وهي تشعر بضيق مما قاله لها، إذ كانت تلك أوّل مرّة يتحدّث فيها لوران عن وضعهما بتلك الصراحة والغضب، وتمنّت لو كانت قادرة على حجب كلماته عن قلبها وعقلها، لأنها كانت مدركة كم هو محقّ في ما يقوله.

جلس الاثنان في صمتٍ لفترةٍ من الوقت إلى أن شعرت بيل في النهاية بيد تلمس كتفها.

- عزيزتي، أفهم أنَّ الوقت حاليًّا ليس مناسبًا لنناقش مثل هذه الموضوعات. لكنني أؤكد لك أنّني ما زلت هنا في البرازيل لا أبارح مكاني لسببٍ واحدٍ فقط، وذلك السبب هو أنت.

- سامحني يا لوران. تمتمت ورأسها لا يزال فوق ركبتيها.

- لقد قلتها لتوّك، أنا اليوم أشعر بعجز كبير. ولا أدري ماذا أفعل.

- الآن ليس الوقت المناسب لمناقشة ذلك، لأنّ عليك أن تهتمّي بصحّة والدتك. على الرغم من أنّني أكره ما سأقوله الآن، لكن عليك أن تركبي فورًا سيّارة أجرة وتذهبي إلى كوباكابانا بالاس ليبدو أنّك تناولت فعلًا الشاي مع صديقتك. لقد تجاوزت الساعة السادسة مساءً.

- يا إلهي! قالت بيل وهي تنهض مسرعةً إلى الباب. عندئذٍ أمسكها لوران بذراعها وسحبها من ظهرها إليه.

قال وهو يربّت خدها:

- بيل، أرجوك. تذكّري أنّني أحبّك أنت، وأنّك أنت من أريد». ثمّ قبّلها بحنان فاغرورقت عيناها بالدموع.

- والآن، أسرعي قبل أن أختطفك وأحبسك هنا في شقتي لتبقي لي أنا وحدي.

39

بعد يومين، خرجت بيل من مدخل المستشفى وحدها، بعدما أصرّ الطبيب الذي عاين أمّها على إبقاء كارلا في المستشفى لبعض الوقت حتّى يجري لها الفحوصات الطبّية، فكان على بيل العودة في السادسة مساءً لاصطحابها إلى البيت.

لويزا وغوستافو كانا يعلمان بأنها ستكون في المستشفى، لذلك كان بإمكان بيل أن تذهب إلى لوران لتقضي بين ذراعيه فترة بعد الظهر ريثما تنتهي كارلا من فحوصاتها، لكنّها لم تفعل. فقد شعرت بالذنب لكونها تصرّفت بأنانية في السابق، وأهملت أمّها بسبب انشغالها بلوران. وبينما كانت كارلا تخضع للاختبارات اللازمة، جلست بيل مخدَّرة تراقب درب المعاناة التي يسلكها الإنسان عندما يدخل عبر باب المستشفى ويخرج منه.

عند الساعة السادسة، أبلغت الممرّضة كما طُلب منها في الصباح بأنّها وصلت من أجل أمّها، فقالت لها الممرّضة:

- الطبيب طلب مقابلتك فور وصولك، اتبعيني من فضلك.

- كيف حالها؟ سألت بيل وهي تتبع الممرضة في الرواق.

- تجلس على كرسي وتحتسي الشاي. قالت الممرضة وهي تطرق باب العيادة بخفّة.

ثمّ دخلت بيل وقادها الطبيب إلى الكرسي الموضوع أمام مكتبه.

بعد خمس عشرة دقيقة، خرجت بيل من العيادة وهي ترتعش ومشت تائهة في الممر المؤدي إلى غرفة أمّها. لقد أكّد لها الطبيب أنّ السرطان قد

انتشر داخل الكبد ومن حوله، ما يعني أنّ إحساس كارلا كان في مكانه، لم يعد هناك أمل.

في طريق العودة إلى المنزل، بدت كارلا أكثر ارتياحًا لمغادرتها المستشفى، حتّى أنّها راحت تطلق النكات التي وجدت بيل صعوبة في التفاعل معها، لكنّها تمنّت أن يتذكّر الطباخ بأنّ أنطونيو قد طلب تناول السمك على العشاء في ذلك المساء. وعندما وصلتا إلى المنزل، حضنت كارلا ابنتها وشبكت يديها بيدي بيل.

- لست مضطرّة إلى الدخول يا *querida*. أعلم أنّك قابلت الطبيب وأعرف أيضًا ما قاله لك لأنّه تحدّث إليّ قبل أن يطلب رؤيتك. ذهبت معك فقط لأنّني شعرت بأنّ عليّ إقناعك بوضعي. والآن بعد أن علمت بالحقيقة، لا أريد أن أتحدّث في هذا الموضوع بعد الآن، ولا سيما أمام والدك.

شعرت بيل بالحرارة تعلو عيني أمّها وباليأس الذي كان مخبأً داخلهما. «لكنّك بالتأكيد...

- سنخبره عندما يصبح ذلك ضروريًا. أجابتها كارلا. فعلمت بيل أنّ تلك كانت كلمتها الأخيرة في هذا الموضوع.

في تلك الليلة، عادت بيل إلى ذلك المنزل وهي تشعر بعالمها ينهار. هذه أول مرّة في حياتها تواجه حقيقة وفاة أمّها. وبالتالي، موتها هي. وبينما كانت تجلس إلى مائدة العشاء في المساء، ألقت نظرة خاطفة على غوستافو، قبل أن تحدّق إلى مَوريسيو وبعد ذلك إلى لويزا. كان كلّ من زوجها وحماتها على علم بالمكان الذي قضت فيه يومها، ورغم ذلك لم يفكّر أيّ منهما في الاستفسار عن صحّة كارلا أو عمّا حدث في المستشفى. كان غوستافو ثملًا غير قادر على إجراء محادثة معقولة، أمّا لويزا، فلعلّها فكّرت بأنّ التطرّق إلى موضوع مؤلم مثل هذا سيزعج معدتها ويمنعها من هضم شريحة اللحم، التي تتحدّى بصلابتها قواطع آكلي لحوم البشر الأكثر وحشيّة.

بعد العشاء وبعد انتهاء جولات لعب الورق اللامتناهية والتي طابق عددها كؤوس البراندي التي احتساها غوستافو، رافقت بيل زوجها إلى الطابق العلوي.

- هل ستأتين إلى الفراش *querida*. سألها غوستافو بعد أن خلع ملابسه ودخل إلى السرير.

نعم. أجابت بيل وهي تدخل الحمام.

- سأكون معك في غضون دقائق.

أغلقت الباب خلفها ثمّ جلست على حافة حوض الاستحمام ووضعت رأسها بين كفّيها، تأمل أن يكون غوستافو قد غفا وبدأ يشخر عند خروجها من الحمّام. وبينما كانت تغلق على نفسها في الحمّام، تذكّرت كارلا وهي تخبرها قبل زواجها أنّها اضطرت إلى تعوّد طباع أنطونيو وإلى التعلّم كيف تحبّه.

وبالرغم من أنّ بيل سخرت ضمنيًا في الماضي من خضوع والدتها لأبيها، لطالما تساءلت كيف كان بإمكانها أن تسامح غطرسته ورغبته اللامتناهية في السعي وراء القبول الاجتماعي، ولأوّل مرّة، فهمت قوّة حبّ أمّها لزوجها.

فأعجبت بيل بها أكثر من أي وقت مضى.

- كيف حالها؟

سألها لوران بعد مرور بضعة أيام، وقد ظهر القلق على وجهه عندما استقبلها عند باب الشقّة. ثمّ دعاها إلى الدخول.

- إنها تحتضر كما أخبرتني بنفسها.

- آسف جدًا يا عزيزتي. وماذا سيحدث الآن؟ قال وهو يقودها إلى غرفة الرسم.

- أنا... لست أدري. فأمي لا تزال ترفض إخبار والدي. تمتمت وهي تجلس على كرسي.

- آه يا بيل، صعب جدًّا ما تمرّين به الآن. ما زلت صغيرة على ذلك فأنت لم تبلغي حتّى عيد ميلادك العشرين، وها هو ثقل كبير يُرمى على كتفيك. ولا أشكّ في أن تكون تلك الأخبار السيئة قد جعلتك تفكّرين في حياتك الخاصة.

لم تكن بيل واثقة مما يجب أن تشعر به إثر تلك الرعاية، أو ربّما كان عليها أن تشعر بالراحة من تعليقه على ما يحدث لها. لكنّها أجابته:

- أجل، بالفعل.

- وأظنّ أنّك الآن تشعرين بالذنب بسبب ما عرفته مؤخّرًا، وبضرورة تحديد أولويّاتك بين القيام بواجبك كزوجة مخلصة وابنة حنونة وإنسانة صالحة أو الاستفادة من الوقت الذي يُمنح لك بعدما أدركت فجأة كم هي الحياة قصيرة، وأنّك تريدين أن تعيشي حياتك بما يمليه عليك قلبك.

راحت بيل تحدّق إليه وهي متفاجئة ممّا تسمعه.

- كيف عرفت ما كنت أفكّر فيه؟

هزّ لوران بكتفيه وقال:

- أنا إنسان مثلك. وأعتقد أنّ هناك قوى جبّارة ترمي في وجهنا كل أنواع التحدّيات لتجبرنا على التفكير في احتياجاتنا الحقيقية. لذلك لا أحد غيرك سيعرف ما عليك فعله.

علّقت بيل:

- يا لك من شخصٍ حكيم.

- قلت لك أنا مجرّد إنسان، ولأنّني أكبر منك سنًّا، اضطررت في الماضي إلى اتّخاذ بعض القرارات التي كانت تخصّني وحدي بعد أن طرحت على نفسي أسئلة كثيرة. واليوم أستطيع أن أقول لك بأنّني سأتفهمك جيّدًا، وبأنّني لن أكون مجحفًا في حقّك مهما يكن القرار الذي ستتّخذينه. وأريدك أن تطمئنّي إلى أنّني سأبقى في البرازيل إلى جانبك طوال هذه الأوقات العصيبة إذا طلبت منّي ذلك. هذا لأنّني أحبّك وأريد أن أكون إلى جانبك، فحبّي لك قد غيّرني كثيرًا وجعلني نسخة أفضل عن نفسي. لكنّه علّمني أيضًا درسًا! قال لوران وهو يبتسم ساخرًا.

- علّمني ألّا أنسى نفسي. لذلك إن بقيت هنا، عليك أن تعديني بأنّك عندما... ستنتهي مشكلة والدتك، ستتّخذين قرارًا بشأن مستقبلنا. وبالطبع لا أنتظر منك أن

تقومي بذلك اليوم. تعالي إليّ، دعيني أضمّك. ثمّ فتح لوران ذراعيه على وسعهما، فنهضت بيل عن الكنبة على مهل وتركته يحضنها.

قال لها وهو يمسّد شعرها بحنان:

- أحبّك يا حبيبتي، وسأكون إلى جانبك عندما تحتاجين إليّ.

أجابته:

- شكرًا. وتشبّثت به.

- شكرًا لك.

بمرور شهر حزيران وحلول شهر تموز، عادت بيل إلى منزلها ذات يوم بعد انتهائها من العمل على الفسيفساء في كنيسة المجد، ووجدت لوين بانتظارها لتُخبرها بأنّ والدها موجود في غرفة الرسم.

- كيف يبدو؟ سألتها بيل وهي تنزع القبعة عن رأسها وتضعها في يد لوين.

- لقد فقد بعض الوزن، عليك أن تريه بنفسك.

أخذت نفسًا عميقًا وفتحت باب غرفة الرسم ورأت والدها غير قادر على الجلوس في مكان واحد من شدّة التوتّر. وما إن وطأت قدمها أرض الغرفة حتّى استدار إليها، ولاحظت أنّه فقد وزنًا بالفعل. وليس هذا فقط، فقد بدا وجهه الوسيم نحيلًا، وظهرت على بشرته تجاعيد صغيرة. أمّا الخصل الفضّية التي كانت تتخلّل شعره الأسود المموج عند الصدغين، فقد اجتاحت رأسه بالكامل وجعلته رماديًا فبدا لها فجأة وكأنّه أكبر سنًّا بعشر سنوات ممّا رأته عليه في آخر مرّة.

- أيتها الأميرة. قال لها وهو يدنو منها ليعانقها.

- لقد مرّ وقت طويل منذ أن تقابلنا في آخر مرة.

- أجل، ربّما أكثر من ثلاثة أشهر. وافقت بيل على الفور.

- السبب واضح، فقد أصبحت امرأة متزوجة لها حياتها الخاصة، ولا وقت لديها لوالدها العجوز. قال ممازحًا.

- لقد زرت ماي مرّات عدة في المنزل في الأسابيع القليلة الماضية ولم تكن هناك، لذلك يبدو لي أنّك أنت من لا وقت لديه لابنته يا باي.

- نعم، أنت محقّة. لقد كنت مشغولًا بعض الشيء. لكنّني واثق من أنّ حماك قد أخبرك بأنّنا نواجه حاليًا بعض المشكلات في تجارة البن.

- حسنًا، لا عليك. المهم أنّني سعيدة برؤيتك الآن. تفضّل. قالت له وهي تشير إلى الكرسي ليجلس.

- سأطلب لك بعض المرطّبات.

- لا، لا أريد شيئًا. قال لابنته.

- إيزابيلا، ما خطب أمّك؟ لقد أمضت يوم الأحد معظم وقتها في الفراش. ادّعت أنها مصابة بصداع نصفي، ولم تكن تلك المرّة الأولى، فقد سبق لذلك أن حدث عدّة مرات في الأشهر القليلة الماضية.

- باي، أنا...

- لقد عاودها المرض، أليس كذلك؟ لاحظت هذا صباح ونحن نتناول الفطور لون بشرتها الرهيب، كما أنّها لم تأكل شيئًا.

حدّقت بيل إلى والدها لبرهة ثمّ قالت له:

- باي، هل تقول لي أنّك لم تلاحظ ذلك إلّا الآن؟».

- لقد كنت مشغولًا طوال الوقت لدرجة أنّني غالبًا ما كنت أغادر المنزل قبل أن تنهض أمّك في الصباح، ولم أكن أعود من المكتب إلّا بعد أن تخلد إلى الفراش. لكن، نعم... هزّ أنطونيو برأسه.

- ربّما لاحظت، لكنّني لم أرغب في أن أصدّق. قال بحسرة وهو يشعر باليأس:

- وهل تعرفين ما مدى مرضها؟

- نعم يا باي.

- هل...؟ هل هو... لكن أنطونيو لم يقوَ على نطق تلك الكلمات.

- نعم، هو كذلك. أكّدت له بيل.

وقف أنطونيو ثمّ ضرب صدغه بكفه وقد كربه الغمّ:

- يا إلهي. بالطبع كان عليّ أن أرى ذلك! أيّ نوع من الرجال أنا؟ وأيّ نوع من الأزواج؟

- پاي. أفهم أنّك تشعر بالذنب، لكن ماي كانت مصممة على ألّا تتسبّب لك بالقلق، كانت تعرف المشكلات الكثيرة التي تواجهك في العمل، لذلك تصرّفت معك كما كان عليها أن تفعل.

- وما أهمّية العمل أمام صحّة زوجتي! لا بدّ من أنّها تعتقد أنّني وحش، لذلك أخفت مرضها عنّي! ولمَ لمْ تقولي أنت شيئًا لي من قبل، يا إيزابيلا؟ صرخ عليها غاضبًا.

- لأنّني وعدت ماي بألا أفعل. كانت مصرّة على عدم معرفتك بالموضوع قبل أن يحين الوقت.

- حسنًا، الآن وقد علمت. قال أنطونيو بعد أن استجمع قواه قليلًا.

- علينا أن نعثر لها على أفضل الأطباء والجراحين وكل ما تحتاج إليه لتستعيد عافيتها.

- لقد قلت لك إنّني رافقتها إلى الطبيب، وقال لي لا أمل في شفائها. لذلك أنا آسفة يا پاي، علينا أن نتقبّل الحقيقة لننجح في مواجهة الواقع.

راح أنطونيو يحدّق إلى ابنته وملامحه تعكس تعابير اختلط فيها الكفر بالغضب والانهيار.

- وهل تقولين لي أنّها تحتضر؟ تمكّن أخيرًا من الهمس.

- نعم، وأنا آسفة لقول ذلك.

سقط أنطونيو على الكرسي ووضع رأسه بين يديه وأجهش بالبكاء.

- لا، لا... لا يا كارلا، من فضلك لا.

نهضت بيل عن مقعدها واقتربت منه لتواسيه. ثمّ وضعت ذراعها حول كتفيه المنحنيتين والمرتجفتين من الحزن.

- لقد تحمّلت كل ذلك العبء بمفردها طوال الوقت. لم تكن واثقة من حبّي لها بما يكفي لتخبرني عن معاناتها.

- پاي، أقسم لك أنّه حتى لو أخبرتك من قبل، ليس هناك ما يمكن القيام به. كرّرت بيل. «هذه أمنيتها، ماي لا تريد أن تخضع لأيّ علاج هذه المرّة. وهي متصالحة مع واقعها وتتقبّل قدرها وأنا أصدّقها. لذلك من فضلك، علينا أن نحترم رغباتها، من أجلها. لقد رأيت في النهاية كم هي مريضة، وهذا جيّد لك. أما الآن فكل ما تحتاج إليه منّا هو الحب والدعم.

فجأة أرخى أنطونيو كتفيه بعد أن استنفد كل طاقته. على الرغم من هول فكرة أنّه استغرق كل ذلك الوقت ليلاحظ تدهور صحة زوجته، شعرت بيل بالتعاطف مع والدها. ثمّ نظر إليها بعينين متألمتين.

لا أعرف كيف تريانني أنت وهي، لكن اعلمي أنّها كل شيء بالنسبة إليّ وأنّني ببساطة لا أتخيّل الحياة من دونها.

راحت بيل تراقب والدها وهو ينهض عن كرسيّه ويستدير ليغادر الغرفة، وهي لا حول لها ولا قوة لديها لفعل شيء يحسّن حاله.

40

ما خطبك هذه الأيام؟ قال غوستافو لبيل وهي تخرج من الحمام بعد أن ارتدت ملابس نومها.

- بالكاد تنطقين كلمة على العشاء، ونادرًا ما تتحدّثين إليّ عندما نكون بمفردنا.

بقي ينظر إليها بينما كانت تستقرّ إلى جانبه على السرير.

كان قد مرّ أسبوع على مجيء أنطونيو إلى ذلك المنزل ومغادرته مدمّرًا بعد أن سمع تلك الأخبار الصاعقة. وفي اليوم التالي، زارت بيل والدتها فوجدت أنطونيو هناك جالسًا على الكرسي بجانب سريرها، يمسك بيدها ويبكي بصمت.

ما إن دخلت عليهما، حتى استقبلتها كارلا بابتسامة باهتة وقالت لها وهي تشير إلى زوجها:

- طلبت منه أن يذهب إلى المكتب، إذ لا يوجد شيء يمكنه فعله من أجلي ولا تستطيع غابرييلا القيام به، لكنّه يرفض ويواصل القرقرة مثل الدجاجة.

على الرغم مما قالته عن زوجها، فرحت بيل بارتياح أمّها وامتنانها لوجود أنطونيو إلى جانبها. لكنّ طريقتها في الكلام بعد ظهر ذلك اليوم، أخافت بيل وجعلتها تدرك بأنّ العدّ العكسي قد بدأ. فبعدما اقتنع أنطونيو بالذهاب إلى المكتب لبضع ساعات، وتركهما وحدهما، قالت كارلا لبيل بكل هدوء:

- الآن وقد عرف بوضعي، أريد أن أخبرك بما أتمنّى أن يحصل في الوقت المتبقّي لي...

منذ ذلك الحين وبيل تحاول إيجاد طريقة لتخبر غوستافو برغبة أمّها في قضاء أيامها الأخيرة في المزرعة. فبطبيعة الحال كان عليها أن ترافقها، وكانت تعرف بأن ابتعادها عن ذلك المنزل لن يُرضي زوجها.

جلست على حافة السرير ونظرت إليه وهي واعية لاحمرار عينيه وتضخّم بؤبؤيهما من كثرة إفراطه في الشرب، ثمّ قالت له:

- غوستافو، أمّي تحتضر.

أدار رأسه إليها.

- ماذا؟ وتقولين هذا لي الآن. منذ متى تعرفين بالموضوع؟

- منذ بضعة أسابيع، لكن والدتي أصرّت على عدم إخبار أحد.

- ولا حتّى زوجك؟

- ليس قبل أن تخبر زوجها.

- فهمت، أفترض أنّه السرطان، قد عاود الظهور؟

- أجل.

- كم بقي لديها؟

- مدّة قصيرة. ارتجف صوت بيل لتأثّرها من برودة أعصابه. فتحاملت على نفسها لتخبره بما تحتاج إليه أمّها.

- لقد طلبت منّي أن أصطحبها إلى الجبال لتقضي أيّامها الأخيرة هناك في مزرعتها الحبيبة. فهل تسمح لي بمرافقتها؟

كان غوستافو يحدّق إليها بعينين زجاجيتين.

- كم من الوقت؟

- لست أدري. قد يكون لبضعة أسابيع أو إن شاء اللّه لشهرين.

- وهل ستعودين بحلول بداية الموسم؟

- أنا... كان يستحيل على بيل أن تحدّد عدد الأيّام الأخيرة التي ستقضيها مع والدتها فقط لإرضاء زوجها، لكنّها في النهاية تمكّنت من القول:

- أعتقد ذلك، نعم.

- حسنًا، لن أستطيع منعك. لا يمكن لي فعل ذلك، على الرغم من أنّني أفضّل أن تبقي هنا بجانبي، خصوصًا أنّ الوريث الأوّل لم يأتِ بعد، وهذا يعني أن الوريث الثاني سيتأخّر أيضًا في الوصول. ووالدتي منزعجة، وبدأت ترجّح احتمال أن تكوني عاقرًا. قال لها من دون أي رحمة.

- أنا أعتذر. خفضت بيل عينيها وهي تشعر برغبة في القول له إنّ المسؤولية لا تقع عليها وحدها. فقد مرّ شهران على الأقل منذ أن نجح آخر مرّة في مجامعتها. إلّا أنّها كانت مدركة أنه قد لا يتذكّر حتّى أنّه في بعض الأحيان يكون عاجزًا عن دخولها.

- دعينا نحاول الليلة. قال لها.

وفجأة أمسك بها ورماها على السرير. ثمّ بحركة سريعة أصبح فوقها وحاول على نحو أخرق نزع ملابس النوم عنها. وأثناء رحلة بحثه عن مدخلها، شعرت بعضوه المتصلّب، لكنه فشل في بلوغ هدفه. ومن ثمّ أحسّت به يتحرّك فوقها وكأنّما اعتقد أنه دخلها. وكالعادة بقيت بيل تشعر بجسم غوستافو الثقيل عليها إلى أن أصبح يئن من الارتياح وفي النهاية تدحرج عنها. فتخثّرت مادّته اللزجة على فخذيها وأصيبت باشمئزاز كما شعرت تجاهه بالشفقة.

- لعلّنا سننجح أخيرًا في إنجاب طفل. قال قبل أن تقضي عليه حالة السكر.

نهضت بيل لتذهب إلى الحمام وتنظّف أثر غوستافو عن بشرتها. كيف يمكن له أن يعتقد أن عذرًا مثل مجامعتها قادر على تحقيق معجزة إنجاب طفل؟ لم تتجرأ حتّى على طرح السؤال على نفسها. فالعشق الذي أظهره لها ذات مرة قد ضاع، حتّى أن ذاكرته قد غرقت في مستنقع الثمالة.

بالرغم من ذلك، واست نفسها وهي تعود إلى الغرفة بأنّ ما تحمّلته لتوّها كان ثمن إذنه لها بمغادرة ريو مع أمّها كل الوقت الذي سيتطلّبه الأمر. فشعرت بالارتياح لتسديد دينها مسبقًا.

في صباح اليوم التالي، تركت بيل غوستافو نائمًا ونزلت لتناول الفطور. فوجدت كلًّا من لويزا ومَوريسيو يجلسان إلى المائدة.

قالت لها لويزا:

- صباح الخير يا إيزابيلا.

- صباح الخير، لويزا. أجابتها بأدب وهي تجلس في مكانها.

- ألن ينضمّ غوستافو إلينا؟

- سيلحق بي بعد قليل. أجابتها إيزابيلا وهي تشعر بضرورة حماية زوجها من والدته.

- هل نمت جيدًا؟

- نعم، شكرًا.

كان حديثهم وقت الفطور يقتصر على هذا كلّ صباح، أما في باقي الوقت فكانت تسمع بعض الأصوات التي يصدرها مَوريسيو لتشير أحيانًا إلى رضاه أو اعتراضه عما كان مكتوبًا في الصحيفة.

- لويزا، عليّ أن أخبرك أن والدتي ليست بصحّة جيّدة. قالت بيل وهي تحرّك قهوتها.

- حتّى أنّني في الحقيقة، أشكّ في أنّها ستبقى معنا إلى الصيف المقبل.

- أنا آسفة لسماع ذلك يا إيزابيلا. أجابت لويزا وهي تكتفي برفع حاجبها عند تفاجئها من سماع ذلك الخبر.

- هذا خبر مفاجئ، وهل أنت متأكّدة من ذلك؟

- للأسف نعم. عرفت ذلك منذ بعض الوقت، لكنّ أمّي تمنّت إلّا أقول شيئًا لأحد قبل أن يحين الموعد. الآن وقد أتى ذلك الوقت، طلبت أن تقضي ما تبقّى لها من الأيّام في مزرعتنا التي، كما تعلمين، تستغرق الرحلة إليها خمس ساعات. وقد طلبت مني أن أرافقها لأعتني بها... إلى النهاية. تحدّثت إلى غوستافو الليلة الماضية وقد وافق على ذهابي معها.

- حقًّا؟ وتجعّدت شفتا لويزا الرفيعتان من الاستياء.

- هذا كرم منه. وإلى متى ستبقين هناك؟ طرحت نفس السؤال الذي طرحه عليها ابنها.

- أنا... وشعرت بيل بأن الدموع قد بدأت تنهمر من عينيها.

- بالتأكيد يا عزيزتي، يمكنك البقاء كل الوقت الذي يحتاج إليه الأمر. صدر صوت مَوريسيو فجأة من أعلى جريدته، وهو يعطيها إيماءة تعاطف.

- ومن فضلك قدّمي أطيب تمنيّاتي لأمك العزيزة.

- شكرًا لك. همست بيل بعد أن تأثّرت من تعاطف حماها المفاجئ معها والدعم الذي حاول تقديمه. فأخرجت منديلها ومسحت به عينيها خلسة.

- على الأقل قولي لنا متى ستغادرين. قالت لويزا.

- في نهاية هذا الأسبوع، سيرافقنا أبي ويبقى معنا لبضعة أيام. بعد ذلك، عليه أن يعود إلى مكتبه في ريو.

أجاب مَوريسيو بنبرةٍ جدّية:

- نعم، أستطيع أن أفهم أنّ الأمور باتت صعبة بالنسبة إليه في هذا الوقت، لقد أصبحت صعبة علينا جميعًا.

بعد مرور يومين، وبينما كانت تجلس إلى الطاولة في كنيسة المجد مع باقي النساء اللواتي يلصقن مثلّثات الحجر الأملس الصغيرة على قماش الشبك، راحت بيل تفكّر في الساعات التي كانت تقضيها في تلك الكنيسة الرائعة وتجعلها تنعم بلحظات تأمل هادئة. وعلى الرغم من أنّ المشاركات هنا نساء ومتمرّنات بشكل ممتاز على الثرثرة، لكنّ حديثهنّ لم يتعدّ يومًا ما كان يلزم قوله وبدلًا من ذلك، كنّ يركّزن على مهمتهنّ المشتركة. وقد ساد بينهنّ شعور متبادل بالوئام والسلام.

كانت هيلواز، الصديقة التي استخدمتها بيل ذات مرةٍ ذريعةً لتتمكّن من زيارة لوران، تجلس بجانبها. فلاحظت بيل انشغالها بالكتابة على ظهور مثلّثات الحجر الأملس التي بين يديها، لذلك انحنت بيل فوقها لتتحقّق ممّا كانت تكتبه.

- ماذا تفعلين؟ سألتها بيل.

- أكتب اسم كل فرد من عائلتي واسم حبيبي، لتصبح جزءًا من تمثال كريستو وجبل كوركوڤادو. معظم النساء هنا يفعلن ذلك يا إيزابيلا.

- يا لها من فكرة رائعة. قالت بيل وهي تتنهّد، وتنظر بحزن إلى اسم والدة هيلواز واسم والدها وإخوتها وأخواتها... ثمّ إلى اسم حبيبها. ثمّ نظرت بيل إلى أسفل أحجارها الخاصة التي كانت على وشك أن تغطّيها بالغراء، وفكّرت في أن لا فرد من عائلتها سيكون حاضرًا ليرى تنصيب تمثال كريستو في مكانه، فامتلأت عيناها بالدموع.

- عندما تنتهين من ذلك، هل لي أن أستعير قلمك؟ سألت بيل هيلواز.

- بالطبع.

وعندما سلّمتها هيلواز القلم، كتبت بيل على أحجارها اسم والدتها الحبيبة ثمّ والدها ثمّ اسمها هي. ثمّ راح القلم يحوّم تحت الأسماء، ورغم محاولتها الجاهدة إلّا أنّها لم تستطع حمل نفسها على كتابة اسم زوجها.

وبعد أن تأكّدت من أن الحبر قد جفّ تمامًا، قامت بإضافة الغراء السميك إلى البلاط للصقه بالشبكة. في هذه الأثناء، جاءت السيّدة المسؤولة لتخبرهن عن بدء وقت الاستراحة. وما إن رأت بيل المتطوّعات ينهضن عن مقاعدهنّ، حتى أمسكت بمثلّث من كومة الأحجار الملساء الموجودة في وسط الطاولة ووضعته خلسة في حقيبتها الصغيرة الموضوعة تحت الطاولة عند قدميها. ثمّ نهضت لتنضمّ إلى المجموعة التي خرجت تشرب القهوة خلف الكنيسة.

وبعد أن رفضت تناول القهوة التي قدّمتها لها الخادمة، التفتت إلى المرأة المسؤولة وقالت لها.

- سينيورا، أريد أن أستأذنك، حان وقت مغادرتي.

- بالطبع، اعلمي يا سينيورا آيريس كابرال أنّ اللجنة ممتنّة لك على المساعدة التي تقدّمينها هنا. أرجو منك أن تكتبي اسمك كالعادة لتخبرينا متى يمكنك العودة إلى هنا.

- سينيورا، آسفة للقول إنّ ذلك لن يكون ممكنًا لبعض الوقت. فأمي مريضة جدًّا ويجب أن أبقى بجانبها في أيّامها الأخيرة. أوضحت بيل.

- أفهمك، وأرجو أن تقبلي عزائي لك. ثمّ مدّت المرأة ذراعها لتضعه على كتف بيل في لفتة مواسية.

- شكرًا لك.

غادرت بيل الكنيسة مسرعة إلى خورخي الذي كان ينتظرها في السيارة، ثمّ قفزت إلى الخلف وطلبت منه أن يأخذها إلى منزل مدام دوشين في إيبانيما.

وصلت إلى هناك بعد خمس عشرة دقيقة، وطلبت منه أن يعود لاصطحابها عند السادسة. مشت إلى باب الصالون وتظاهرت بالضغط على الجرس إلى أن رأت خورخي، وهي ترفع رأسها خلسةً إلى اليسار، يبتعد بالسيارة على طول الطريق. انتظرت عند عتبة الباب دقيقتين أو ثلاث، ثمّ أسرعت في الذهاب إلى شقة لوران.

ونظرًا إلى أنها كانت آخر مرة ستراه فيها، وربما لشهرين، لم ترغب في تضييع الوقت بمناقشة فساتين الموسم الجديد مع خيّاطتها. كانت تعرف أنّ ما تقوم به يعني غياب عذر لساعاتها الضائعة، لكن بينما كانت تصعد السلالم إلى شقة لوران شعرت لأول مرة بأنّها لا تهتم للأمر.

- عزيزتي، أنت شاحبة! تعالي بسرعة ودعيني أحضّر لك شرابًا. قال لوران عندما وصلت إلى منزله وهي تلهث من الإجهاد وترتجف من شدّة التوتّر. سمحت له بأن يقودها إلى الداخل لتجلس على الكنبة.

- أريد فقط بعض الماء من فضلك. تمتمت وهي تشعر فجأة بأنّها على وشك الإغماء. وعندما ذهب لوران ليحضر لها الماء وضعت رأسها على ركبتيها محاولة الحدّ من شعورها بالدوار.

- هل أنت على ما يرام؟

- لا... لكنّني سأشعر بتحسّن بعد قليل. قالت وهي تتناول كوب الماء وتشربه بسرعة.

- بيل، ماذا حدث؟ سألها وهو يجلس بجانبها ويمسك بيديها.

- أنا... لديّ ما أقوله لك.

- ماذا هناك؟

- طلبت منّي والدتي الذهاب إلى مزرعتنا في الجبال لتقضي أيّامها الأخيرة هناك وعليّ أن أرافقها.

ثم انفجرت في البكاء إذ كانت كل أنواع التوتّر قد تكدّست لديها في الأسابيع القليلة الماضية.

- أنا آسفة يا لوران، ليس لديّ خيار آخر. أمي تحتاج إليّ وأتمنّى أن تسامحني وتتفهّم سبب غيابي لبعض الوقت.

- بيل، ماذا تعتقدينني؟ بالطبع عليك أن تكوني إلى جانب والدتك. لمَ تعتقدين أنّني سأغضب؟

- لأنّ... لأنّك أخبرتني أنّك في ريو من أجلي، وها أنا الآن أرحل عن ريو. نظرت إليه بيأس.

- حسنًا هذا ليس بالوضع المثالي بالنسبة إليّ، أوافقك الرأي. لكن إذا كنت ترغبين في معرفة ما أفكّر به الآن، فاعلمي أنّ فكرة عدم مشاركتك سريره لمدّة طويلة، حتى وإن كنت سأعجز عن رؤيتك طوال تلك الفترة، تناسبني أكثر ممّا تعتقدين. قال لوران وهو يحاول طمأنتها.

- على الأقل سأشعر خلال هذا الوقت بأنّك ملكي أنا. وبالتأكيد سنتراسل، حتّى أنني قادر على توجيه الرسائل إلى خادمتك وأنا أبعث بها إلى المزرعة.

وافقت بيل وهي تفرغ أنفها داخل المنديل.

- أجل. سامحني يا لوران لكنّني عندما أخبرت غوستافو ولويزا بالأمر، تصرّفا بلامبالاة جارحة، لذلك فكّرت في أنّك قد تقوم بالمثل». اعترفت له بيل.

- دعيني لا أعلّق على زوجك ووالدته. ثقي من فضلك بأنّني أتعاطف معك كلّ التعاطف. ومن جهة أخرى... قال وقد لمعت عيناه فجأة وظهرت ابتسامة على شفتيه:

- سأكون في هذا الوقت بصحبة الفاتنة أليساندرا سيلفيرا، إلى أن تعودي!

- لوران!

- إيزابيلا، تعلمين أنّني أمازحك أليس كذلك؟ قد تكون جذابة من الخارج، لكنّ شخصيّتها بالنسبة إليّ لا تفرق كثيرًا عن الصخرة التي سأنحتها فيها. قال وهو يضحك.

- رأيت صورتك في الجريدة قبل يومين، كنت في ضيافة الشهيرة غابرييلا بيزانزوني، في ذلك الحفل الخيري الذي أقيم في «بارك لاج». علّقت بيل وهي تشعر بالغضب.

- نعم، يبدو أنّني في الوقت الحالي أصبحت شخصية مهمّة جدًّا في ريو. لكنّك تعرفين أنّ كلّ هذا لا يعني لي شيئًا وأنت غائبة عني يا عزيزتي. وأتمنّى أن تكوني مثلي، تشعرين بعبثية الحياة عندما لا نكون سويًّا.

- هو كذلك.

- وكيف حال والدك؟

هزّت بيل كتفيها وقالت بحزن شديد:

- مكسور الخاطر، لذلك فإن السبب الأهم وراء رغبة ماي في الذهاب إلى المزرعة هو تجنيبه عذاب رؤيتها وهي تموت ببطء. لكنّه سيزورنا عندما يستطيع. لو كنت مكانها لوددت الشيء نفسه لأنّكم أنتم الرجال ضعفاء أمام المرض.

- قد يكون معظم الرجال كذلك، أنت على حق. لكن من فضلك لا تضعينا جميعنا في الخانة نفسها. أجابها لوران.

- فلو كنت مكانه وكنتِ أنتِ من تحتضرين، لرغبت في أن أبقى بجانبك طوال الوقت. هل سأراك مجدّدًا قبل أن تغادري؟

- لا، سامحني يا لوران، لن أستطيع. لديّ أمور كثيرة يجب أن أنهيها قبل رحيلي، وأهمّها موعدي مع طبيب والدتي لآخذ منه دواءها والمورفين الذي لن تتأخر في الاحتياج إليه.

- إذًا دعينا لا نضيّع الوقت ونقضي ساعاتنا القليلة الأخيرة ونحن غارقان في التفكير. ونهض لوران عن الكنبة وجرّها معه إلى غرفة النوم.

41

شعرت بيل باقتراب النهاية عندما رأت والدها يساعد أمها الضعيفة في الجلوس على مقعد الرولز رويس الخلفي. ثمّ جلس وراء المقود وجلست لوين إلى جانبه، بينما جلست بيل إلى جانب والدتها مع كل الوسائد التي أحضروها لها لتسند إليها جسمها الهشّ خلال الرحلة. عندما شغّل أنطونيو المحرّك وانطلق في طريقه إلى الفازندا، رأت بيل والدتها وهي تمدّ عنقها لتلقي نظرة على منزلهم، فأدركت أنّها تقوم بذلك لعلمها بأنّ هذه آخر مرة ستراه فيها.

حين وصلوا إلى المزرعة، استقبلتهم فابيانا التي وجدت صعوبة في رسم ابتسامة مشرقة على شفتيها أثناء إلقاء التحيّة على سيّدتها المنهكة من الرحلة الطويلة. أما كارلا فترنّحت عندما ساعدها أنطونيو على النزول من السيارة. وعلى الفور أحاط زوجته بذراعيه وحملها إلى الداخل.

خلال الأيام القليلة التالية، شعرت بيل وكأنّ لا حاجة إليها هناك، إذ أنّ أنطونيو الذي كان عليه أن يغادر قريبًا إلى ريو ليتابع أعماله المتدهورة عن قرب، كان يقضي كل لحظة إلى جانب كارلا وهي مستيقظة.

وقد تسبّب كلّ ذلك التفاني الذي أظهره لزوجته ببكاء كلّ من فابيانا وبيل، اللتين كانتا تجلسان سويًا في المطبخ طوال الوقت الذي يتم استبعادهما فيه من قبل المريضة وممرّضها، الذي لم يكفّ عن مفاجأتهما.

- من كان يقول إنّ والدك يخبّئ في داخله كل هذا الحبّ؟ قالت فابيانا للمرة المئة وهي تمسح عينيها.

- قلبي ينفطر عليه.

تنهّدت بيل وقالت: وقلبي أيضًا.

الشخص الوحيد في المزرعة الذي كان يشعر بالسعادة ويبذل قصارى جهده في ظل الظروف الراهنة لإخفائها هو لوين التي اجتمع شملها مع برونو. وكانت بيل قد منحتها إجازة لبضعة أيام، كونهم لم يحتاجوا إليها بوجود أنطونيو الذي كرّس كل وقته لرعاية زوجته، ولمعرفتها بأنّه مع اقتراب وقت رحيل كارلا ستحتاج إليها أكثر.

راحت بيل تراقبها مجددًا بعين حاسدة كلّما قضت وقتًا مع برونو. وقد دفعها ذلك الحبّ إلى التفكير بكل ذلك التغيير الذي طرأ على حياتها منذ أن كانت هنا في المزرعة آخر مرة. كما تسنّت لها فرص متعدّدة لكتابة رسائل حبّ طويلة للوران، كانت تسلّمها خلسة إلى لوين لترسلها في البريد عندما تذهب للتنزّه مع برونو في القرية المجاورة. أمّا لوران فكان يجيبها على كلّ رسالة، وهو يوجّهها إلى لوين مثلما اتّفقا من قبل. وكانت بيل كلّما قرأت رسالته شعرت باشتياقها إليه أكثر من أي وقت مضى.

أما بالنسبة إلى زوجها فقليلًا ما كانت تفكّر فيه. وعلى الرغم من الظروف المروِّعة التي كانت تمرّ بها، شعرت بالارتياح لبعدها عنه وعن البؤس والخوف الذي يحوم حول ذلك المنزل، وسرعان ما أدركت أنّها كانت متزوّجة من رجل تحتقره.

بعد انقضاء عشرة أيّام منذ وصولهم إلى المزرعة، عاد أنطونيو الذي بدا لابنته مرهقًا من شدّة المعاناة، إلى ريو. وقبل أن ينطلق، أمسك بيدها وهو على وشك البكاء وقبّلها على خدّيها.

- سأعود مساء الجمعة المقبل، لكن باللّه عليك يا إيزابيلا، اتّصلي بي كل يوم لتخبريني عن حالها. وإذا أردتِني أن أعود على الفور فلا تتردّدي في إخباري. اتّفقنا ألّا يكون هناك بيننا أسرار.

- كما تريد يا پاي، ولا تقلق لأن وضع ماي يبدو لي حاليًا مستقرًّا.

وبعد أن أومأ لها من يأسه، ركب أنطونيو الرولز رويس وانطلق على وجه السرعة عائدًا إلى ريو، فتطاير الغبار والحصى في الهواء من سرعة دوران العجلات.

جلس غوستافو في النادي يقرأ الصحيفة. ولاحظ بعد ظهر ذلك اليوم، أنّ المكتبة كانت شبه فارغة من روّادها. يبدو، أنّ الرئيس واشنطن لويس قد دعا كبار مزارعي البن إلى اجتماع طارئ لمناقشة أسعار البن، لذلك فإن المطعم كان بدوره مهجورًا ساعة الغداء.

وبينما كان ينهي كأس الويسكي الثالثة، راح يفكّر في زوجته وملامحها الشاحبة أثناء توديعها له قبل ثلاثة أسابيع. فشعر باشتياقه إليها بعد أن طالت غيبتها عنه منذ رحيلها قبل بضعة أسابيع، خصوصًا أنّه عاد يشعر بالوحدة في ذلك المنزل، كما كان يحصل قبل الزواج.

فأمّه التي بقيت تعامله مثل طفلٍ صغيرٍ غير مسؤول، استغلّت فرصة غياب زوجته لتزعجه مرّة أخرى برعاياتها الخانقة. كما بقي والده، الذي كان ما يزال يعتبره غير كفء في الإدارة المالية، يتجاهل استفساراته السطحية عن وضع خزينة العائلة كما لو أنّه حشرة متطفّلة.

بينما كان يطلب كأسًا أخرى، تجهّم وجهه فجأة وهو يتذكّر ردّ الفعل الذي أظهره عند سماعه بخبر مرض حماته، هو الذي كان يفتخر بطبيعته المتعاطفة التي كانت تزعج أمّه في صغره، ما إن يبكي على طائر يجده ميّتًا في الحديقة أو حين يضربه والده، فتقول له:

- أنت حسّاس جدًا يا غوستافو، وهذا لا يليق بصبيٍّ مثلك، احرص على ألّا تظهر مشاعرك.

فكّر في نفسه وكم تسبّب له الكحول بعدم الشعور بالتعاطف. وكان قد اعتقد أنّ الزواج سيغيّر من حاله ويزيد من ثقته بنفسه، لكنّ التغيير الوحيد الذي حصل

بعد زواجه بإيزابيلا كان تبدّد احترامه لنفسه بدل أن ينمو. وهذا ما جعله يلجأ إلى الشرب حدّ الثمالة.

تنهّد غوستافو عميقًا. فعلى الرغم من معرفته بأنّ إيزابيلا لم تبادله منذ البداية الحبّ نفسه، إلّا أنّه كان يأمل بأن تنمو المودّة بينهما وتتحوّل بعد الزواج إلى حبّ. لكنّه تفاجأ بمقاومتها له بعد أن بدأ يعاشرها. حتّى أنّه أصبح يرى شفقة في عينيها في الأيام الأخيرة كلّما نظر إلى وجهها، وأحيانًا كانت شفقتها تتحوّل إلى كراهية صارخة. فزادت خيبة ظنّ زوجته فيه وخيبة ظنّ والديه من كراهيته لنفسه.

فضلًا عن أنّ حقيقة تأخّر إيزابيلا في إنجاب طفل له زاد من إحساسه بالعجز والفشل، فنظرة أمه إليه كانت تخبره في كلّ مرة بأنّه غير قادر حتى على أداء واجبه كرجل. وعلى الرغم من أنّ زواجه من إيزابيلا جعله ربًّا لتلك العائلة، كما جعلها سيّدة ذلك المنزل، إلّا أنّ غوستافو كان مدركًا بأنّه لم يفعل شيئًا لفرض سلطته، أو كبح حاجة والدته إلى السيطرة.

مرّ النادل وبيده صينية ليجمع الكؤوس الفارغة عن الطاولات، فسأله من دون تفكير:

- هل ترغب في مزيدٍ يا سيدي؟» وتوقّع أن يقوم بإيماءته المعتادة، لذلك تابع تقدّمه قبل أن يستجمع غوستافو قواه ليجيبه.

- لا شكرًا. أحضر لي القهوة من فضلك؟

- بالطبع يا سيدي.

وبينما راح يحتسي قهوته المرّة الساخنة، بدأ يفكّر في الوقت القصير الذي مرّ على زواجه، وللمرة الأولى اعترف لنفسه بأنّ العلاقة بينه وبين إيزابيلا ليست على ما يرام. وقد بلغت ذلك الحدّ من السوء لدرجة أنّهما يعيشان منفصلين تحت سقف واحد بعد ستة أشهر على انتقالها إلى ذلك المنزل. فاعتبر نفسه مسؤولًا عن جزءٍ كبيرٍ ممّا يحصل كونه يقضي معظم وقته هنا في النادي يشرب الكحول، هربًا من تلك الأحاسيس التي تشعره بالنقص.

استطاع غوستافو فجأة أن يرى ما الذي أوصله إلى خذلان زوجته. لا عجب في أن تبدو له غير سعيدة بزواجها منه. فبين معاملة والدته الفاترة لها وإدمانه على الكحول وشعوره بالشفقة على نفسه، لا بدّ من أنّها تفكّر الآن بأنّها ارتكبت خطأً فظيعًا بالزواج به.

ومن يأسه، همس غوستافو في قاع فنجان القهوة:

- لكنّني أحبها.

ثمّ فكّر في أنّ الأوان لم يفت بعد ليُصلح الأمور بينهما، نظرًا إلى المودة التي كانت بيل تكنّها له قبل الزواج، بعد أن تذكّر كيف عاملته بمحبّة في ذلك الوقت. فتعهّد وهو يوقّع على الفاتورة، أن يتولّى زمام الأمور. ثمّ خرج إلى السيارة التي كانت في انتظاره، مصمّمًا على التحدّث إلى والديه فور وصوله إلى المنزل. كان يعرف تمامًا أنّه إذا لم يفعل ذلك الآن، سيفقد زوجته إلى الأبد.

قبل رحيل كارلا بأسبوعين، راحت فابيانا تتناوب هي وبيل ولوين على مجالستها ولا يتركنها وحدها. وذات مساء، كانت كارلا في لحظة وعي وصفاء ذهني نادرين، فأمسكت بيد ابنتها رغم حالتها الضعيفة وقالت بصوت يكاد يشبه الهمس:

- *querida*، «يجب أن أقول لك أمرًا لأنّني ما زلت قادرة على الكلام». وكان على بيل أن تقترب أكثر من أمّها لتتمكّن من سماع ما أرادت قوله.

- أفهم تمامًا أنّ الحياة الزوجية لم تكن حتى اليوم سهلةً عليك، لذلك أشعر أنّ من واجبي تقديم نصيحة لك.

قاطعتها بيل قائلة وهي تحاول يائسة أن تطمئنها:

- ماي، من فضلك. صحيح أنّنا أنا وغوستافو نواجه أحيانًا بعض المشكلات، مثل جميع الأزواج، لكن لا داعي لأن تقلقي علينا، فنحن بخير.

- ليس تمامًا. قالت كارلا وهي تصرّ على المتابعة.

- أنت ابنتي وأنا أعرفك أكثر ممّا تعتقدين، لذلك لم تفتني حقيقة وجود بعض المشاعر تجاه شخص غير زوجك. لقد رأيتك في تلك الليلة، عندما جاء النحات إلى ذلك المنزل ليكشف عن هديّة غوستافو لك بمناسبة زواجكما.

- ماي، صدّقي أنّ لا شيء بيننا. هو... مجرّد صديق. قالت بيل وهي تشعر بالصدمة من اكتشاف أمّها الموضوع.

أجابتها كارلا بابتسامة باهتة:

- أشكّ في ذلك، أذكّرك بأنّني كنت شاهدة أيضًا على ما جرى بينكما في ذلك اليوم على قمّة جبل كوركوڤادو، حين تظاهرت بأنّك لا تعرفينه، وقد نجحت في ذلك بامتياز. واليوم أجد من واجبي أن أحذّرك من سلوك ذلك المسار لأنّه سيؤدي بكل الأطراف المعنيّة إلى وجع القلب. أتوسّل إليك يا إيزابيلا، لم تتزوّجي إلّا منذ فترة قصيرة، لذلك امنحي غوستافو فرصة ليجعلك سعيدة.

لم ترغب بيل في التسبّب بضغط إضافي لوالدتها، لذلك أومأت لها بإذعان وهي تقول على مضض:

- هذا ما سأفعله، أعدك بذلك.

بعد مرور يومين، جاءت فابيانا إلى غرفة بيل عند شروق الشمس لتقول لها:

- سينيورا، أعتقد أن الوقت قد حان لتتّصلي بوالدك».

وعلى الفور حضر أنطونيو ليقضي مع زوجته ساعاتها الأخيرة، فلم يغب عنها لحظة واحدة. ولحظة رحيل كارلا بسلام عن هذه الدنيا، وقف أنطونيو بجانب بيل عند حافة السرير، يبكيان بصمت وكل منهما يمسك بذراع الآخر.

وبعد الجنازة ودفن كارلا في مقبرة صغيرة في باتي دو ألفريس بناءً على رغبتها، عاد الاثنان محطّمين إلى ريو.

- پاي، من فضلك. قالت بيل لوالدها عندما وصلا إلى مانساو دا برنسيسا وقبل أن يصل خورخي لاصطحابها إلى منزل زوجها:

- إذا احتجت إلى أيّ شيء، أخبرني على الفور. سآتي لزيارتك في الغد، انظر إلى حالك، هل تريدني أن أبقى معك بضعة أيّام؟ أنا واثقة من أن غوستافو لن يمانع.

- لا، *querida*، لا من فضلك. اذهبي وعيشي حياتك، عليك أن تهتمي بنفسك أنت أيضًا. أمّا أنا... قال أنطونيو وهو ينظر من حوله أثناء وجوده في غرفة الرسم التي أمضى فيها ساعات طويلة مع زوجته في السابق.

- فقد بقيت وحيدًا.

- باي، من فضلك لا تقل هذا، عليك أن تحقّق لماي أمنيتها الأخيرة بأن تجد السعادة ما تبقّى لك من عمر على هذه الأرض.

- أعرف هذا يا أميرتي، وأعدك بأنّني سأفعل. لكن أعطني بعض الوقت، ففي هذه اللحظة لست قادرًا على فعل ذلك. انظري إلى هذا الفراغ الذي من حولي، أنا لست قادرًا على تحمّله.

عندما لمحت بيل خورخي ينعطف بالسيارة عند أوّل الممر، اقتربت من والدها وعانقته بشدّة.

- تذكّر دائمًا أنّني ما أزال هنا معك، وأنّني أحبّك كثيرًا يا باي.

ثم غادرت غرفة الرسم، وعندما أصبحت في القاعة الكبرى، رأت لوين وغابرييلا تتهامسان فيما بينهما. فقالت للوين:

- وصل خورخي، علينا المغادرة.

ثمّ التفتت إلى غابرييلا وقالت لها:

- لا شكّ في أنّك لاحظت أن لا حول ولا قوة لوالدي.

- سأبذل قصارى جهدي لتهدئته يا سينيورا. بمساعدة اللّه سيشفى. فهو الوحيد القادر على إراحتنا من الألم.

- شكرًا لك، سأعود غدًا لرؤيته. هيّا بنا يا لوين.

وعندما ودّعت الابنة أمّها بحنان تحت أنظار سيّدتها، فهمت بيل مدى فداحة خسارتها.

ما إن اقتربت السيّارة من مدخل ذلك المنزل، حتّى فكّرت بيل في ما ينتظرها هناك بعد أن تصل. فأثناء وجودها في المزرعة تجرأت مرّات عدّة على تجاهل مكالمات غوستافو الهاتفية، بعد أن طلبت من فابيانا إخباره بانشغالها مع أمّها، ولم تكن تحدّثه إلّا عندما تُضطرّ إلى ذلك. وعندما أخبرته بوفاة والدتها، اندهشت من ردّ فعله المتعاطف الذي لم تتوقّعه منه. حتّى أنّه أبدى لها تفهّمه عندما أكّدت عليه بعدم الحضور إلى الجنازة إذ أرادتها كارلا أن تكون عائلية صرفة. فأعرب لها حينها عن تفهّمه وعن تطلّعه بشوق إلى عودتها بعد الانتهاء من واجب عزاء أمّها.

وأثناء مرافقة بيل لأمّها في أيّامها الأخيرة، لم تخصّص وقتًا كافيًا للتفكير في مستقبلها. والآن مع اقترابها من منزل الزوجية، أدركت أنّه بات واجبًا عليها أن تبدأ بالمواجهة، خصوصًا في ما يتعلّق بالجزء الذي ناقشته مع خادمتها لوين قبل أسبوع من الآن، والتي طمأنتها إلى أن تلك الأشياء يكون في الغالب سببها الإجهاد. وبناءً على نظرية خادمتها، سمحت لنفسها بالاطمئنان إذ لم تكن الفرصة سانحة لها للتفكير في بديل وقلبها مليء بالحزن.

ما إن دخلت بيل ذلك المنزل، حتّى لاحظت الفرق بين الأجواء الخارجية الدافئة والبرودة التي كانت تسيطر على المكان في الداخل. ما تسبّب لها بارتجاف لاإرادي. وعندما ساعدتها لوين في خلع قبعتها تساءلت: هل ينبغي لها أن تصعد مباشرة إلى غرفة نومها، أو أن تبحث عن زوجها ووالديه لتلقي التحيّة عليهم. على الرغم من أنّها كانت واثقة من أنّها لن تلقى الترحيب أو التعاطف من اللجنة التي كانت تنتظرها في الداخل.

- سأصعد بحقيبتك إلى غرفتك، لأرتّب ملابسك في الخزانة وأحضّر لك الحمّام. قالت لها لوين بعد أن شعرت بعدم الارتياح من تلك الأجواء، ثمّ ربّتت قليلًا كتفها في لفتة متفهّمة قبل أن تنتقل إلى الطابق العلوي.

مرحبًا؟ قالت بيل وهي لا تزال وحدها في الردهة.

لم تلقَ أيّ رد. فكرّرت المحاولة، ولم تلقَ أيضًا أي ردّ. لذلك قرّرت اللحاق بلوين.

فجأة أطلّت لويزا من داخل غرفة الرسم.

- أرى أنّك عدت أخيرًا إلى المنزل.

- نعم، لويزا.

- اقبلي تعازيّ، وتعازي زوجي.

- شكرًا لك.

- سنقدّم العشاء في الوقت المعتاد.

- سأصعد إلى غرفتي لأستعدّ له.

وعندما لمْ تلقَ بيل سوى فظاظة لويزا، صعدت السلالم وهي تُسرع بخطواتها التلقائية. ثمّ دخلت غرفة نومها، فارتاحت لوجود لوين المألوف والمريح على الأقل. تركت بيل خادمتها تساعدها في خلع ملابسها، بعد أن تناست تلك العادة القديمة في المزرعة إثر انشغالها بأمّها وتركيزها على احتياجاتها فقط. فجأة انتبهت إلى تعابير وجه لوين المتفاجئة وهي تقف عارية أمامها.

- ماذا هناك؟

نظرت لوين إلى بطنها وقالت: «لا شي سينيورا بيل، لا شيء. لقد جهّزت لك الحمام، فلمَ لا تدخلين الحوض ما دامت المياه دافئة؟».

وهذا ما فعلته بيل، دخلت حوض المياه الدافئة واستلقت فيه. فجأة أدركت التغيير الذي أظهره جسمها. ففي الفازندا، لم يكن هناك حمامات، إنّما فقط دلاء ماء تدفئها الشمس كانت تسكبها على نفسها، لذلك بالكاد سنحت لها الفرصة أن تنظر إلى نفسها في المرآة طوال تلك الأسابيع.

يا إلهي! قالت بيل وهي تلمس بأصابعها بطنها المسطّح في الأساس وها هو قد انتفخ فجأة ليصبح شبه ملحوظ، فظهر تحت المياه التي تحيط به مثل حلوى السوفليه المنتفخة نصفيًّا. حتّى ثدياها بدَوَا أكثر امتلاءً وأثقل من العادة.

فهمست في نفسها:

- أنا أحمل طفلًا. وبدأ قلبها ينبض بسرعة.

وقبل أن يتّسع لها الوقت للتفكير في ما رأته لتوّها، أو لتؤنّب نفسها لأنها أخذت بنصيحة لوين بأن تفويتها عادتها الشهرية سببه الإجهاد، سمعت صوت غوستافو الرفيع وهو يتحدّث إلى لوين في الغرفة المجاورة. فاغتسلت بسرعة وخرجت من المياه لترتدي ثوبها وتربطه بطريقة غير مُحكَمة تحسّبًا من أن يلاحظ زوجها التغيير الطفيف الذي طرأ على شكلها، ثمّ خرجت إلى الغرفة.

وقف غوستافو هناك بتعابير حذرة وخجولة بعض الشيء.

- شكرا لك يا لوين، تستطيعين الخروج. فغادرت لوين الغرفة وبقيت بيل في مكانها تنتظر غوستافو أن يبادر إلى الحديث.

- تعازيّ يا إيزابيلا. قال وهو يردّد كالببغاء كلام والدته.

- شكرًا لك، أعترف بأنّ الأمر لم يكن سهلًا.

- لم يكن سهلًا هنا أيضًا في غيابك.

- أعرف ذلك، وأنا آسفة.

- من فضلك، لا تعتذري». قاطعها قائلًا:

- أنا سعيد بعودتك. ابتسم في تردّد.

- وقد اشتقت إليك كثيرًا يا إيزابيلا.

- شكرًا لك يا غوستافو. يجب أن أستعد للعشاء، وأنت أيضًا.

هزّ برأسه موافقًا، وشقّ طريقه إلى الحمّام ثمّ أغلق الباب خلفه.

مشت بيل إلى النافذة، فانتبهت إلى التغيير الذي لحق بالنور مع انتقالهم إلى فصل جديد. كانت الساعة تشير إلى السابعة مساءً، والشمس بدأت لتوّها بالغروب. فتذكّرت بيل أنّهم في منتصف شهر تشرين الأول وهذا يعني أنّ الربيع قد بلغ أوجّه في ريو. عادت إلى السرير وهي لا تزال تحت صدمة ما اكتشفته داخل الحمام، فرأت أنّ لوين جهّزت لها فستانًا نادرًا ما ارتدته في السابق، بسبب تصميمه الواسع، لأنّ غوستافو كان يحبّها أن ترتدي الملابس الضيّقة التي تظهر تضاريسها الجميلة، فامتلأت عيناها بالدموع من دقّة ملاحظة خادمتها. بعد أن

ارتدت ملابسها، تركت غوستافو وحده في الغرفة ونزلت إلى الطابق السفلي، مفضّلة البقاء مع حموَيْها على مواجهة زوجها بمفردها. ما إن وصلت إلى القاعة الكبرى، حتى نظرت إلى باب المدخل، وتمنّت من كلّ قلبها لو أمكنها فتحه والهروب إلى لوران. فذهنها لم يشكّ لحظة واحدة في أن الطفل الذي تحمله في داخلها كان ابنه.

خلال العشاء، لاحظت بيل أن لا شيء قد تغيّر في ذلك المنزل منذ آخر مرّة كانت هنا. لويزا ما زالت على طباعها الباردة غير المتسامحة، بالكاد أظهرت لها بعض التعاطف لخسارتها والدتها. أمّا مَوريسيو فكان أكثر قربًا منها، لكنه قضى المساء يتحدّث مع غوستافو عن التعقيدات المالية التي تطال وول ستريت، وذلك الذي يسمّى مؤشر داو جونز الذي شهد على ما يبدو عمليات بيع أسهم جماعية الخميس الماضي.

- أشكر اللّه أنّني قرّرت الشهر الماضي بيع الأسهم التي كنت أحتفظ بها. قال مَوريسيو.

- وآمل أن يكون والدك قد فعل الشيء نفسه. لحسن الحظ، لم يكن لديّ الكثير منها، كما أنّني لم أثق يومًا باليانكييز. هم يحاولون دعم السوق في الوقت الحالي وآمل أن تستوي الأمور في عطلة نهاية الأسبوع كحدّ أقصى، لكنّني أشك في أنّنا بلغنا الأسوأ. أخشى على المدى الطويل أن تنهار السوق لأنّه سيكون لها تأثير سلبي على زراعة البن. فالطلب الأميركي يوازي معظم المحصول الذي لدينا، ومن المؤكد أنّ انهياره سيكون مثل سقوط صخرة على رأسنا، خصوصًا مع الفائض الذي تنتجه البرازيل منذ بضع سنوات. أضاف بمرارة.

- يبدو أنّ عائلتنا كانت محظوظة بالخروج من السوق الأميركية في الوقت المناسب. قالت لويزا وهي ترمق بيل بنظراتها المليئة بالمعاني المبطّنة وأضافت:

- لطالما اعتقدت أنّ الجشع يعود بالعقاب على أصحابه.

عندما قالت ذلك، كانت بيل تنظر بالصدفة إلى زوجها فرأت على وجهه فجأة ابتسامة متعاطفة مقابل ما لمّحت إليه والدته.

- ربّما لم نعد أغنياء يا عزيزتي لكنّنا أكثر استقرارًا، وهذا أهمّ. قال حموها.

في ذلك المساء، سألت بيل غوستافو أثناء توجّههما إلى غرفة النوم:

- هل لديك فكرة عن مدى سوء الوضع في أميركا؟ أنا قلقة على والدي. لقد غاب عن ريو طوال الأسبوع الماضي، لذلك قد لا يكون على علم بكل ما يحصل هناك.

- لا بدّ من أنّك لاحظت أنّني لم أكن أتابع الأسواق من قبل. قال غوستافو وهو يفتح لها باب الغرفة.

- لكن ممّا يقوله والدي، وبناءً على الوقائع التي بدأت أفهمها مؤخرًا، فإنّ ما يحصل هنا جدّي ومخيف.

دخلت بيل الحمام وهي لا تزال تفكّر في أحداث الساعة الأخيرة. عندما خلعت ملابسها لم يسعها إلّا التحديق مجددًا إلى انتفاخ بطنها شبه المرئي وهي تأمل أن تكون قد أخطأت بطريقة ما في وقت سابق. ارتدت ملابس نومها، وهي لا تعلم كيف عليها أن تتصرّف من الآن وصاعدًا. الأمر الوحيد الذي كانت واثقة منه هو أنّها لن ترغب في أن يلمسها زوجها الليلة. لذلك أطالت بقاءها في الحمام، وعندما أرادت الخروج راحت تصلّي بأن يكون غوستافو قد غفا. إلّا أنّها تفاجأت به وهو لا يزال مستيقظًا ينتظر عودتها وهو مستلقٍ على السرير.

- اشتقت إليك يا إيزابيلا، تعالي اقتربي منّي. فتسلّقت السرير لتستقر بجانبه، وهي تفكّر في كل الأعذار المتاحة التي قد تمنعه من الاقتراب منها. لكنها لم تعثر على أي عذر يبرّر رفضها لاقترابه منها بعد غياب عنه دام شهرين.

فجأة أدركت بيل أن غوستافو كان يُحدّق إليها.

- إيزابيلا، تبدين مرعوبة. هل أخيفك إلى هذا الحد؟

- لا... بالطبع لا.

- *querida*، أفهم أنّك ما زلت حزينة وربّما تحتاجين إلى وقت إضافي لتشفي ممّا مررت به، لذلك اسمحي لي فقط هذه الليلة باحتضانك.

جاءت كلمات غوستافو مفاجأة لها. ونظرًا للحالة التي كانت تمرّ بها والألم الذي نتج عن مشاهدتها لوالدتها وهي تحتضر، بالإضافة إلى الأخبار التي سمعتها على العشاء عن الوضع في أميركا، نجح التعاطف الذي أظهره غوستافو لها في إثارة أحاسيسها وبالتالي دفعها إلى البكاء.

- أرجوك يا إيزابيلا، لا تخافي منّي. أعدك بأنّني لا أرغب في أكثر من مواساتك الليلة. كرّر وهو يحاول الوصول إلى النور ليطفئه.

سمحت له بأن يسحبها إلى ذراعيه ويتركها تنام على صدره، لكنّها أبقت عينيها مفتوحتين على وسعهما في الظلام. ثمّ شعرت بيده تمسّد شعرها. وبينما كانت تفكر في القلب الصغير الذي ينبض داخلها، شعرت بالذنب.

ثمّ سمعت غوستافو يقول لها بكل هدوء:

- بينما كنت بعيدة، تسنّى لي أن أفكّر في زواجنا، فتذكّرت كيف كنّا في البداية، أوّل ما التقينا، نتحدّث عن الفن والثقافة ونضحك سويًّا. لكن بعد أن تزوّجنا، شعرت بأنّنا تباعدنا وأنا أتحمّل كامل المسؤولية في ذلك، إذ كنت أقضي معظم وقتي في النادي. أنا بصراحة كنت أهرب من هذا المنزل. كلانا يعرف كيف هو الجو هنا... صارم ومقيت.

بقيت بيل تستمع إلى ما كان يقوله في الظلام، بعدما قرّرت إلّا تقاطعه لتعلّق على ما يقول.

- وأعترف مرّة أخرى بأنّه خطأي. كان عليّ أن أكون أكثر حزمًا مع أمي عندما تزوجت بك، وأن أخبرها بكل صراحة أنّك أنت من ستديرين هذا المنزل، وأنّه حان الوقت لتتقاعد وتفسح لك المجال للقيام بواجبك كربّة منزل. سامحيني يا إيزابيلا، لقد كنت ضعيفًا ولم أقف في وجهها من أجلك ومن أجل نفسي.

- غوستافو، لست مسؤولًا عن كره لويزا لي.

- أشك في أن تكوني أنت من تكره. أجابها بمرارة.

- هي تكره أيّ شخص يهدّدها بأخذ موقعها في هذه العائلة. حتّى أنّها في الحقيقة اقترحت عليّ، ما دمتِ لم تنجبي الوريث بعد، أن تتحدّث إلى الأسقف ليلغي زواجنا، لاعتقادها بأنّنا لم نقم علاقة حميمة بعد.

لم تقدر بيل أن تمنع نفسها من التعبير عن الرعب الذي أصابها بعد سماعها كلمات غوستافو، بالنظر إلى ذلك السرّ الذي ما يزال مختبئًا في داخلها. فاعتبر غوستافو رد فعلها صدمة على تفكير والدته اللعين المروّع، وسحبها إليه.

- بالطبع شعرت بالغضب منها وأخبرتها أنّها إذا فكّرت في ذلك مرة أخرى، فهي من ستجد نفسها في الشارع، وليس زوجتي. ثمّ تابع غوستافو:

- بعد ذلك، قرّرت أن أتصرّف، فطلبت من والدي أن ينقل ملكية المنزل إليّ كما ينصّ عليه العرف، وهو أمر كان عليّ أن أصرّ عليه منذ لحظة زواجنا، فوافق على الفور. كما أنّه سيمرّر لي إدارة الشؤون المالية للعائلة ما إن أصبح جاهزًا لتولّي تلك المسؤولية. لذلك، سأرافق والدي في الأسابيع القليلة القادمة في كلّ مكان لأتعلّم منه كل شيء بدلًا من تضييع وقتي في النادي. وعندما أستلم أنا، ستنتقل إليك جميع المهام التي عليك تولّيها، ولن يكون أمام أمّي خيار آخر سوى تقبّل الواقع.

- فهمت. قالت بيل وهي تلاحظ إصرارًا جديدًا في صوته فتمنّت لو تقدر على إيجاد الراحة فيه.

- حسنًا، وإن تأخّر الوقت قليلًا، سنتمكّن أخيرًا، أنا وأنت، من فرض سيطرتنا ضمن العائلة. أما بالنسبة إلى إدماني على المشروب، فأنا مدرك أنّني بالغت فيه مؤخرًا، وأقسم لك يا إيزابيلا أنّني خلال الأسابيع القليلة الماضية كنت أكتفي بشرب القليل من النبيذ مع العشاء. هل أنت قادرة على مسامحة زوجك الذي تأخّر في تولّي مهامه بمسؤولية؟ ثقي بأنّني أفهم مدى صعوبة الأشهر الماضية التي مرّت عليك، لكن كما قلت لك، أنا مصمّم على البدء معك من جديد، وأتمنّى أن تكوني أنت أيضًا قادرة على ذلك، لأنّني أحبّك كثيرًا.

- بالطبع أنا أسامحك. تلعثمت بيل بعد أن عجزت عن قول أي شيء آخر أمام كلماته الصادقة.

- من الآن فصاعدًا، لن أجبرك على أي شيء لا ترغبين فيه داخل غرفة النوم. وعندما ستخبرينني أنّك لا ترغبين في ممارسة الحب، سأتقبّل الأمر ببساطة. على الرغم من أنّني أتمنّى في المستقبل، أي بعد أن تلمسي ما قصدته بذلك التغيير الذي أرغب فيه لكلينا، أن ترغبي فيه من تلقاء نفسك. هذا كلّ ما أردت قوله. والآن *querida*، بعد كل تلك الأسابيع الحزينة التي مررت بها، آمل أن أتمكّن من احتضانك بين ذراعيّ إلى أن تنامي.

لم تمرّ سوى دقائق حتّى سمعت بيل غوستافو يشخر، فسحبت نفسها من بين ذراعيه وتدحرجت على جنبها. راحت تفكّر في وضعها الجديد فشعرت بقلبها يقفز داخل صدرها وأحسّت كأنّ هناك فراشات تطير حول تلك النقطة الصغيرة في بطنها. هل هناك من فرصة أن يكون ذلك الطفل من زوجها؟ لذلك عادت بذهنها، وهي تشعر باليأس، إلى آخر مرة نجحا في ممارسة الحب، فلم تتذكّر أي واحدة.

بقيت طوال الليل تتقلّب على جانبيها في بؤس. كانت تعرف أنّ عليها أن تأخذ قرارًا فوريًا. وكانت واثقة من أنّ لوران سيشعر بالرعب عندما ستخبره بأنّها حامل وبأن الطفل منه. فحملها لم يكن للحظة جزءًا من خطة أي منهما، وهذا ما جعله يأخذ أقصى احتياطاته ليُجنّبها ذلك. فعادت بها الذاكرة إلى ما حذّرتها منه مارجريدا: «أولئك الرجال أمثال لوران لا يرغبون في أي نوع من الروابط الدائمة».

ما إن بدأ الفجر يلوح، حتى عادت إلى بيل كل المخاوف القديمة بشأن لوران وكأنّها كانت تقصد الانتقام. فقرّرت في النهاية أن تذهب إليه في أقرب وقتٍ ممكن.

42

- إلى أين ستذهبين اليوم، يا حبيبتي؟ قال غوستافو وهو يبتسم لزوجته بينما كان يسكب لنفسه مزيدًا من القهوة من القدر الفضي الموضوع على المائدة.

- سأذهب إلى مدام دوشين من أجل المقاسات النهائية قبل بداية الموسم الجديد. قالت وعلى وجهها ابتسامة مشرقة.

- آمل أن تجهز في نهاية الأسبوع لأتمكّن من إحضارها معي».

- ممتاز.

- وإذا سمحت لي، أريد أن أغيب عن الغداء اليوم لأزور والدي. اتصلت به في وقت سابق وقالت لي غابرييلا إنه ما يزال في ملابس النوم ولا يريد الذهاب إلى المكتب. قالت بيل عابسة.

- أنا قلقة على حالته النفسية.

- وافق غوستافو قائلًا: بالطبع تستطيعين الذهاب إليه وأنا سأرافق والدي إلى مجلس الشيوخ. لقد دعا الرئيس واشنطن لويس جميع منتجي البن إلى اجتماع طارئ لمناقشة الأزمة في أميركا.

- اعتقدت أن والدك لم يعد مهتمًا بزراعة البن؟ سألته بيل.

- صحيح لم يعد مهتمًا به، لكن بصفته عضوًا بارزًا في مجتمع ريو، طلب منه الرئيس الحضور.

- إذًا، أعتقد أن والدي سيحضر أيضًا؟

- بالطبع، عليه أن يفعل ذلك. الوضع يتدهور يومًا بعد يوم. وقولي له إنّه سيسرّني أن أخبره بإيجاز عمّا قيل في الاجتماعات السابقة. أراك قبل العشاء، *querida*. وطبع غوستافو قبلة على خدّ بيل ثمّ نهض عن المائدة.

بعد أن غادر غوستافو المنزل برفقة والده ليذهبا إلى اجتماع مجلس الشيوخ، أسرعت بيل بينما كانت لويزا في المطبخ تنظّم مع الطاهي قوائم الطعام للأسبوع التالي، إلى الطابق العلوي، لتبحث عن دفتر عناوينها. ثمّ عادت إلى القاعة في الطابق السفلي والتقطت سمّاعة الهاتف بيد مرتجفة لتطلب أن يوصلوها بالرقم الذي أعطاه لها لوران.

- أرجو أن تكون في المنزل، همست في نفسها وهي تسمع الهاتف يرنّ.

- معك لوران برويي.

ما إن سمعت صوته حتّى شعرت بتشنّج في معدتها، خوفًا من خروج لويزا فجأة من المطبخ، فقالت على الفور:

- أنا إيزابيلا آيريس كابرال هل أستطيع حجز موعد بعد ظهر اليوم عند الساعة الثانية؟

ساد صمت لبرهة عبر السماعتين قبل أن يجيب لوران:

- سيّدتي، أعتقد أنّني قادر على استقبالك. هل ستأتين إلى هنا؟

- نعم.

- إذًا سأكون في انتظارك.

شعرت بيل عبر السماعة بابتسامته السخيفة وهو يجاريها في اللعبة.

- مع السلامة.

إلى اللقاء يا عزيزتي. همس لها بينما كانت تعيد السماعة إلى مكانها.

بقيت تمسك بها لبضع ثوان وهي تفكّر في الاتصال بمدام دوشين لحجز موعد كذريعة لخروجها من المنزل، لكنها فكّرت في أنّ بطنها المستدير لن يفوتها

حتمًا وستبدأ بالثرثرة مع الآخرين. لذلك اتّصلت بها لتحجز موعدًا بعد يومين. ثمّ تناولت قبّعتها وقالت للويزا إنّها ذاهبة أولًا لرؤية والدها ومن ثمّ إلى الخياطة، وركبت السيّارة طالبة من خورخي اصطحابها إلى مانساو دا برنسيسا.

كانت غابرييلا تنتظرها عند المدخل، وقبل أن تصعد السلالم لاحظت القلق على وجهها.

- كيف حاله؟ سألت بيل وهي تدخل المنزل.

- ما زال قابعًا في السرير، يقول إنه ليس لديه طاقة للخروج منه. هل أخبره بأنّك هنا يا سينيورا؟

- لا، سأذهب إليه بنفسي.

عندما طرقت باب الغرفة على والدها ولم تتلقّ الردّ، فتحته على الفور ودخلت من دون استئذان. كانت الشبابيك ما تزال مغلقة على مصاريعها لتحجب شمس الظهيرة الساطعة عن الغرفة، فعجزت بيل عن رؤية ذلك الشكل الذي يتقوقع تحت الأغطية.

- باي، هذه أنا إيزابيلا. هل أنت مريض؟

لم تسمع بيل غير نخر يصدر من داخل الأغطية.

- سأفتح الشبابيك لأتمكّن من رؤيتك. قالت وهي تتّجه إلى النوافذ وتفتحها على وسعها. ثمّ استدارت إلى والدها ورأته يتظاهر بالنوم، فجلست على السرير.

- باي، من فضلك قل لي ما خطبك؟

- لن أستطيع الاستمرار من دونها». قال أنطونيو متذمّرًا.

- ما الهدف من العيش إذا لم تكن هنا؟

- باي، لقد وعدت ماي وهي على فراش الموت بأن تواصل كفاحك في هذه الحياة رغم كل شيء. يحتمل أن تكون، في هذه اللحظة بالذات، تنظر إليك من فوق، وتصرخ بأعلى صوتها: اخرجْ من هذا الفراش!

- أنا لا أؤمن بالسماء ولا باللّه. زمجر بصوتٍ حزين.

- أي نوع من الإله هو من يقبض على روح مثل روح عزيزتي كارلا التي لم تؤذ يومًا أحدًا؟

- حسنًا، لقد كانت مؤمنة، وأنا كذلك. قالت بيل.

- كما أنّ الأسباب تعدّدت والموت واحد، كلانا يعرف ذلك. لقد عشتما معًا حياة جميلة طوال اثنتين وعشرين سنة، عليك أن تشكر اللّه عليها. أرجوك، حاول أن تحقّق لها رغبتها في مضيّك قدمًا إحياءً لذكراها.

على الرغم ممّا قالته لم يستجب أنطونيو لها. لذلك حاولت بيل مجددًا بطريقة أخرى.

- پاي، يجب أن تعرف ما يحدث في أميركا حاليًّا؟ لقد أعرب مَوريسيو في الليلة الماضية عن خوفه من انهيار وول ستريت الكلّي في أي لحظة. لذلك سيعقد مجلس الشيوخ اجتماعًا طارئًا لمناقشة تأثير ما قد يحدث على البرازيل. وسيشارك فيه أهمّ منتجي البن. لذلك يجب عليك أن تكون هناك أنت أيضًا!

- لا يا بيل، لقد فات الأوان. تنهّد أنطونيو.

- لم أبعْ أسهمي عندما كان عليّ أن أبيعها، ظننت حينها أنّ الآخرين مصابون عبثًا بالهلع. أمس بعد مغادرتك، اتّصل بي سمسار البورصة ليخبرني أنّ الأسهم قد انخفضت مجدّدًا وأن أسهمي بمجملها لم تعد تساوي شيئًا. كما قال لي إن الأيام القادمة ستكون أسوأ. إيزابيلا، لقد استثمرت معظم أموالنا في وول ستريت، لذلك اعلمي أنّنا فقدنا كلّ شيء.

- پاي، لا تقل ذلك فهو ليس صحيحًا. حتى وإن فقدت أسهمك قيمتها، ما تزال تمتلك مزارع كثيرة، وهذه قيمتها عالية. لذلك حتى وإن تدهورت أسعار البن اليوم أو في المستقبل، فإنّ قيمة ممتلكاتك ستبقى هي نفسها، أليس كذلك؟

تنهّد أنطونيو قائلا:

- إيزابيلا، أرجوك ألّا تطلبي منّي الآن أن أفسّر لك تلك الأمور. لقد اقترضت المال من البنوك لشراء تلك المزارع. في ذلك الحين كانوا مستعدّين لإقراضي مزيدًا لأنّ سعر البن كان عاليًا جدًّا. وبعد أن بدأ بالانخفاض، قمت بمجهود كبير لأقدر

على السداد. وقد رهنت هذا المنزل لأقدّم للبنوك الضمانات التي كانت بحاجة إليها. هل تفهمين يا إيزابيلا؟ الآن سيأخذون منّي كل ما أملك لسداد ديوني، وإذا انهارت تلك الأسهم نهائيًّا، فلن يبقى لي شيء، ولا حتى سقف يأويني.

ذُعِرت بيل ممّا سمعته من والدها، ووبّخت نفسها لفهمها المحدود بالشؤون المالية. إذ اعتبرت أنّها لو كانت ضليعة أكثر في تلك الأمور، لكانت عرفت ما تقوله لأنطونيو لتمدّه بالأمل الذي يحتاج إليه.

- لكن يا باي، أليس هذا سببًا إضافيًّا لتكون معهم الآن في مجلس الشيوخ؟ فأنت لست الوحيد الذي يعاني من تلك الأزمة. أذكر أنّك أخبرتني في السابق أن اقتصاد البرازيل يقوم في الأساس على إنتاج البن. لذلك أنا واثقة من أنّ الحكومة لن تسمح بالانهيار.

- *querida*، المعادلة بسيطة وواضحة، إن لم تجد أحدًا يملك المال ليشتري حبوبنا، فلا تقدر الحكومة على إنقاذنا. الأميركيون أنفسهم يبحثون حاليًّا عن طرائق تبقيهم على قيد الحياة لذلك لا أحد يرغب في الاستمتاع بفنجان قهوة. فرك أنطونيو جبينه من كثرة توتّره قبل أن يتابع قائلًا:

- بالطبع، سيحاول مجلس الشيوخ الظهور بأنّه يتحرّك إزاء الأزمة، لكنّهم يعرفون تمامًا أن الأوان قد فات. في كل حال، أشكرك على إخباري بالاجتماع، لكن اعلمي أن مبادرتك عقيمة.

- على الأقل سأطلب من مَوريسيو أن يخبرك بما يتناقشون فيه. قالت بيل.

- علاوة على ذلك، حتى وإن ولم يبقَ لك شيء في الحقيقة، تذكّر أنّني أنا من أملك المزرعة. لذلك لن تبقى بلا مأوى يا باي. وأنا متأكدة من أنّك مثلما دفعت ذلك المبلغ السخي لغوستافو عندما تزوّجني، سيكون هو أيضًا مستعدًا لمساعدتك حتى لا تموت من الجوع.

سألها أنطونيو:

- وماذا سأفعل وحدي في المزرعة، في غياب عمل أو زوجة غالية أستأنس بها؟

- پاي، كفاك أرجوك! لقد قلت بنفسك إنّ أناسًا كُثُرًا سيتأثرون بهذا الوضع وسيعودون إلى العدم، لذلك اعتبر نفسك محظوظًا لأنك في الواقع لن تعود إلى العدم. كما أنّك ما زلت في الثامنة والأربعين من عمرك ولديك متّسع من الوقت للبدء من جديد.

- إيزابيلا، سمعتي تدمّرت كليًّا. حتى لو رغبت فعلًا في البدء من جديد، لن يرضى أي بنك في البرازيل بإقراضي المال. لقد انتهيت.

رأت بيل والدها يغلق عينيه مرة أخرى. فعادت بذاكرتها إلى ما قبل بضعة أشهر عندما قادها بكل فخر إلى المذبح. وعلى الرغم من أنّها كانت تكره طريقة والدها في التباهي بثروته مثل حديثي النعمة، تمنّت في تلك اللحظة من كلّ قلبها لو أمكنها استعادتها له. الآن فقط أدركت أنّه بنى احترامه لذاته على ثروته. أضف إلى ذلك أنّه خسر لتوّه زوجته المحبوبة، لذلك تمكّنت من فهم السبب وراء شعوره بأنّه لم يبقَ له شيء.

- پاي، لكنّك لم تخسرني، وأنا الآن بحاجة ماسّة إليك. هل تصدّقني إذا قلت لك إنني لا أهتم إذا كنت تملك شيئًا أم لا، فأنا ما زلت أحبك وأحترمك لأنّك أبي.

حينها ومضت عينا أنطونيو فرأت بيل ابتسامة خجولة تختبئ خلفهما.

- نعم أنت على حق، أنا أبوك. وأنت، برينسيسا، الشيء الوحيد الذي أفتخر به في هذه الحياة.

- إذًا صدّقني عندما أقول لك، ما كانت ماي تقوله، أنت لم تُهزم بعد. من فضلك يا پاي، انهض من جديد، فمعًا يمكننا التخطيط لما يجب القيام به. سأساعدك بأي طريقة. لديّ مجوهراتي الخاصة ومجوهرات ماي، وأنت تعلم أنّها تركتها لي. إذا بعناها سنجمع مبلغًا كبيرًا يمكنك استثماره في أعمال جديدة.

- إذا بقي لأحدٍ نقود يشتري بها أي شيء بعد الانهيار التام. قال أنطونيو منتفضًا. «أمّا حاليًا يا إيزابيلا فأشكرك على قدومك وأنا محرج لأنّني سمحت لنفسي بأن تريني بهذا الوضع. لكن أعدك بأنّني سأخرج من السرير بعد مغادرتك. أمّا الآن فاسمحي لي بأن أبقى وحدي. أريد أن أفكّر جيّدًا في المرحلة التالية».

- هل هذا وعد يا باي؟ اعلم أنّني سأتّصل بغابرييلا لأتأكّد من التزامك بوعدك. كما أنّني سأعود في الغد لأطمئنّ عليك. وأحنت بيل رأسها لتقبّله فبادلها بابتسامة.

- شكرًا لك يا برينسيسا، أراك في الغد.

عند المغادرة، تحدّثت بيل باختصار مع غابرييلا وأعلمتها بأنّها ستتصل بها لاحقًا للاطمئنان على والدها، ثمّ ركبت السيّارة التي كانت تنتظرها في الخارج وانطلق بها خورخي إلى إيبانيما إلى صالون مدام دوشين. كالمعتاد طلبت منه أن يعود في تمام السادسة، وانتظرت على أحرّ من جمر أن يبتعد، ثمّ هرعت من عند عتبة الباب مسرّعة خطاها إلى المبنى الذي يقيم فيه لوران.

- عزيزتي، قال لوران وهو يضمّها إليه، وهي لا تزال عند الباب، ويغطّي وجهها وعنقها بالقبل.

- ليتك تعرفين مدى اشتياقي إليك.

شعرت بيل بالارتياح لذلك الاستقبال، وعلى الفور استسلمت له، حتّى أنّها لم تقاوم عندما حملها إلى غرفة النوم. وما هي إلّا دقائق حتى شعرت بنشوة انفرادها مجدّدًا، وتبخّرت كل الأفكار المروِّعة التي كانت تدور في رأسها.

بعد ذلك، بقيا مستلقيين في الفراش، فراحت تجيبه عن الأسئلة التي كان يطرحها عليها عن الأسابيع القليلة الماضية التي غابت فيها عنه. وفي النهاية سألته بدورها:

- وماذا عنك يا لوران؟ كيف شغلت نفسك طوال هذا الوقت؟

- للأسف، منذ انتهاء عملي مع أليساندرا سيلفيرا، لم أنجح في الحصول على عمل آخر. الكل مشغولون بانهيار أسعار البن في البرازيل وسوق الأوراق المالية في نيويورك. يبدو أنّهم ينتبهون إلى ما ينفقونه خصوصًا إذا تعلّق الأمر بنفقات ثانوية مثل نحت تماثيل. لذلك تقريبًا اقتصر الشهر الماضي على الأكل والشرب والسباحة في البحر. إيزابيلا»، قال لوران بعد أن تجهّم وجهه.

بغض النظر عن وضع البرازيل الذي يزداد سوءًا يومًا بعد يوم، أشعر بأنّ إقامتي قد طالت هنا. كما أنّني أفتقد إلى فرنسا وقد حان الوقت لأضع حدًّا لخمولي. سامحيني يا عزيزتي، لكن بات عليّ أن أعود الى دياري. ثمّ أمسك بيدها ليقبّلها.

- يبقى السؤال: هل ستأتين معي إلى هناك؟

عجزت بيل عن الردّ على ذلك السؤال، وبقيت راقدة في صمت بين ذراعيه وهي تغلق عينيها بإحكام وتشعر بأنّ حياتها برمّتها تنهار فوق رأسها بشكل لا يُحتمل.

- لقد حجز لي سينيور دا سيلڤا كوستا مقصورة على الباخرة التي تغادر يوم الجمعة. وتابع لوران بنبرة ملحّة:

- عليّ أن أسافر لأن أكثر شركات الشحن أميركية، وقد لا أجد بواخر تغادر ميناء ريو في الأشهر المقبلة في حال ساء الوضع المالي أكثر.

عندما سمعت بيل ما قاله لوران أدركت أخيرًا مدى أهمّية تلك الأزمة التي تمرّ بها أميركا، وفي النهاية تمكّنت من الهمس:

- هل ستغادر يوم الجمعة؟ أي بعد ثلاثة أيّام؟

- نعم، وأتوسّل إليك يا حبيبتي أن تأتي معي. أعتقد أن الوقت قد حان لتتبعيني. فمهما أكن أحبّك، لا يوجد شيء لأقوم به هنا، ولا حياة لي هنا. وبالتأكيد لا يمكننا العيش سويًّا هنا نظرًا لظروفك الراهنة. أشعر بالذنب لأنّني أجبرك على اتخاذ قرار سريع الآن ولم يمرّ وقت على رحيل أمّك بعد. آمل أن تتفهّمي سبب رغبتي في الرحيل. قال ذلك وهو ينظر إلى وجهها لعلّه يعثر فيه على الردّ.

- أنت محقّ، لقد انتظرتني لفترة طويلة. قالت بيل وهي تعدّل جلستها وتسحب الملاءة لتغطّي ثدييها العاريين.

- لوران، هناك أمر عليك أن تعرفه...

***

خرج غوستافو من مبنى مجلس الشيوخ ليرتاح من كثرة الازدحام. فالقاعة في الداخل كانت تغلي من درجة الحرارة المرتفعة وشدّة توتّر منتجي البن الذين كانوا متلهّفين لمعرفة ما ستقوم به الحكومة لإنقاذ ثرواتهم. لذلك شهدت بعض المشاجرات التي تورّط فيها رجال متحضّرون تحوّلوا إلى مشاغبين لاحتمال أن تضمحلّ ثرواتهم بين ليلة وضحاها.

كان غوستافو قد تحمّل البقاء في الداخل أطول وقت ممكن، لأنه رغب بإظهار دعمه، لكنّه أدرك أنّه ما يزال بحاجة إلى معرفة وخبرة ليستطيع تقديم النصح. شعر برغبة ملحّة في تناول كأس، فمشى باتجاه النادي. وما كان أمامه سوى خطوات قليلة حتّى يصبح في الداخل، تذكّر الوعد الذي قطعه على إيزابيلا الليلة الماضية بإصلاح نفسه، فأدرك أنّ عليه المقاومة وإلا سيعود إلى نقطة البداية.

ثم تذكّر أنّها قالت له أثناء الفطور إنّها ذاهبة إلى الخياطة في إيبانيما من أجل المقاسات النهائية. وكان صالون مدام دوشين يبعد عشر دقائق فقط سيرًا على الأقدام من هناك، ففكّر بأنّه لو ذهب لملاقاتها ستكون مفاجأة سارّة بالنسبة إليها. لعلّهما يتمشّيان بعد ذلك على طول الكورنيش ويجلسان في أحد المقاهي المطلة على الشاطئ ليستمتعا بمراقبة المارّة. كانت تلك عادة كثير من الأزواج الذين يحبّون القيام بذلك.

استدار يسارًا ومشى باتجاه إيبانيما. وبعد خمس عشرة دقيقة، خرج غوستافو من صالون مدام دوشين مرتبكًا. كان يقسم على نفسه بأنّ إيزابيلا قالت بالفعل في وقت سابق أنّها آتية إلى هنا بعد زيارة والدها، لكن ها هي السيّدة دوشين تؤكد أنّها لم تضرب لها موعدًا بعد ظهر ذلك اليوم. فهزّ كتفيه، وسار على طول الشارع وأوقف سيارة أجرة تقلّه إلى المنزل.

***

حدّق لوران إليها والصدمة بادية على وجهه.

- هل أنت متأكّدة من أنّه طفلي؟

- حاولت كثيرًا تذكّر عدد المرّات التي نجح فيها غوستافو بدخولي، وما دمت تقول إنّه من غير دخول يستحيل إنجاب طفل، فهذا يؤكّد على أنّه طفلك. قالت بيل وهي تحمرّ خجلًا أثناء التحدّث بتفاصيل علاقتها بزوجها مع لوران. أضافت:

- وفي الشهرين اللذين سبقا ذهابي إلى المزرعة مع والدتي... لم يحصل شيء. أرجو ألّا يكون زوجي قد لاحظ ذلك بطريقة أو بأخرى.

- إذًا تقولين أنّك حامل في الشهر الثالث؟

- وربّما أكثر، لا أعرف. لم أستطع الذهاب إلى طبيب العائلة قبل التحدّث إليك.

- اسمحي لي برؤية بطنك.

- نعم، على الرغم من أنّه بالكاد يظهر. وراحت بيل تراقب لوران وهو يرفع الملاءة عن جسدها ويضع يده برفق فوق النتوء الصغير عند بطنها. ثمّ عادت عيناه تجولان صعودًا إلى وجهها.

- وهل تقسمين لي بأنّه لا يمكن أن يكون إلّا طفلي؟

قالت بيل وهي تنظر إليه:

- ليس لديّ أدنى شك في ذلك، وإلّا لما كنت هنا الآن.

لا... حسنًا. قال وهو يتنهّد.

- بالنظر إلى الظروف التي كنا نتناقش فيها قبل قليل، فهذا سيدفعني إلى الإلحاح عليك أكثر لتغادري معي إلى باريس في أقرب وقت ممكن.

- وهل هذا يعني أنّك تريد هذا الطفل؟

- قال وهي يشير إلى بطنها: أنا أريدك أنت يا إيزابيلا. وإذا كان هذا جزءًا منّا نحن الاثنين، وإن جاء في وقتٍ غير متوقع، سأريده بالطبع.

سالت الدموع من عيني بيل وهي تقول له:

- اعتقدت أنّك لن تفعل. كنت أعدّ نفسي لسماع ذلك.

- أعترف لك بأنّه لو أتى إلى هذا العالم يشبه النمس حينها سأعيد التفكير بالأمر. لكنّني بالطبع أصدّقك يا بيل، لأنّني لا أستطيع التفكير في سبب وجيه يجعلك تكذبين عليّ، بالنظر إلى الحياة التي سأقدّمها له مقارنة بما يمكن لزوجك أن يقدّمه. ثمّ أنزل لوران نظره عنها وتنهّد.

- اعلمي أنّه ليس لديّ أدنى فكرة كيف سنعيش، حتى أنّني أفكّر في أنّ تربية طفل في غرفة على السطوح في مونبارناس ليست مناسبة له، ولا حتّى لك.

- لديّ مجوهرات وأستطيع لي بيعها. قالت بيل للمرّة الثانية في ذلك اليوم.

- ونستطيع أن نبدأ بقليل من المال.

نظر إليها لوران بذهول وقال:

- يا إلهي! لقد سبق أن فكّرت بذلك.

- كنت أفكّر بنا كلّ دقيقة منذ أن تأكّدت من الموضوع، ولكن...

- بالطبع هناك دائمًا (ولكن)، ما الموضوع؟

- رأيت والدي قبل أن آتي إليك. لم ينهض من سريره، كان مكتئبًا. قال لي إنّه فقد كل ما يملك في سوق الأسهم الأميركية. وهو مدمّر ومكسور الخاطر بعد وفاة أمي.

- إذًا، لم تعودي الآن تشعرين بالذنب تجاه زوجك، إنّما لترك والدك؟

- صحيح! قالت بيل محبطة لأنه لم يبدُ لها أنّه فهم فداحة القرار الذي عليها اتّخاذه.

- فإذا ذهبت معك، حينها سيشعر پاي بأنّه حقًّا فقد كل شيء.

- وإذا لم تفعلي، سيخسر طفلنا أباه. وسأخسرك وتخسرينني. أجابها لوران.

- عزيزتي، لن أستطيع مساعدتك في اتخاذ القرار. كلّ ما أستطيع قوله الآن هو أنّني سافرت نصف العالم لأكون هنا معك، وقد أقمت في هذه الشقة طوال تسعة أشهر فقط لنعيش سويًّا تلك اللحظات القليلة. بالطبع سأفهم لو قرّرت البقاء، لكن يبدو لي أنّ هناك دائمًا سببًا يجعلك لا تفكّرين بسعادتك.

- لقد أحببت والدتي كثيرًا، وأحب والدي بالقدر نفسه. من فضلك تذكّر أنّ من أعادني إلى ريو من باريس ليس غوستافو. توسّلت إليه بيل وبعد أن غرقت عيناها بالدموع أضافت:

- لم أكن أرغب في كسر قلب والديّ.

- أعتقد يا إيزابيلا أنّك بحاجة إلى مزيدٍ من الوقت لتفكّري بالموضوع. قال لوران وهو يقرّب ذقنها إليه ليقبّلها على شفتيها.

- لأنّك ما إن تتخذي قرارك، فلن تقدري بعد ذلك على العودة عنه.

- أعترف بأنّني حاليًّا لست واثقة من الطريق الذي عليّ المضي فيه.

- للأسف، أشك في أنّك ستجدين لحظة أفضل من هذه في المستقبل لتتخذي قرارًا مثل هذه اللحظة.

- ومع ذلك... تنهّد قبل أن يتابع:

- أقترح أن نلتقي مرة جديدة هنا بعد يومين لتخبريني بما قرّرت ونضع إثر ذلك خطة.

كانت بيل قد خرجت من السرير وبدأت بارتداء ملابسها، ثمّ ثبّتت قبعتها على رأسها وأومأت له.

- مهما حدث *querida*، ستجدينني هنا عند الساعة الثانية من يوم الخميس.

عندما عادت بيل إلى المنزل، اتّصلت بغابرييلا لتسأل عن والدها، فأخبرتها بأنّه نهض من السرير وغادر المنزل، وأنه سيصرف بعد الظهر في المكتب. فقرّرت أن ترتاح قليلًا على الشرفة بدلًا من الصعود مباشرة إلى الطابق العلوي، وطلبت من لوين أن تحضّر لها عصير المانجو لتتلذّذ بمذاقه، بينما تستمتع بمداعبات شمس المساء.

- هل تحتاجين إلى شيء آخر، سينيورا بيل؟ سألتها لوين وهي تضع الكوب والإبريق على الطاولة بجانب سيّدتها. أرادت بيل أن تخبرها عن المأزق الرهيب الذي وجدت نفسها فيه لفرط ثقتها بها، ولأنها كانت أقرب صديقة إليها، لكنها لم تشأ أن تثقل كاهلها بالحقيقة.

- نعم من فضلك يا لوين أن تجهّزي لي الحمّام؟ سألحق بك بعد عشر دقائق.

ورأتها بيل تذهب إلى خلف المنزل باتجاه المطبخ. الآن قد رحلت والدتها، وبات عليها اتّخاذ القرار بمفردها. فراحت ترتشف عصير المانجو وهي تحاول وزن الحقائق. على الرغم من أنّ سلوك غوستافو خلال الأربع وعشرين ساعة الماضية

قد تحسّن بشكل ملحوظ بالنسبة إلى الأشهر القليلة الماضية، لكن ذلك في نظرها كان أمرًا مؤقتًا. فبغض النظر عمّا وعدها به، كانت تشكّ في أنّ زوجها صلب كفايةً ليقف في وجه لويزا.

والأهمّ من ذلك، أنّها لم تعد تشعر بشيء تجاهه، ولا حتى بالذنب. وإذا قرّرت أن تتركه، فإنّ والدته ستجد على الفور تبريرًا لفشل زواجهما. إذ هي من اقترحت إبطال الزواج بسبب عدم الإنجاب ليتمكّن غوستافو من العثور على فتاة مناسبة أكثر له. وكانت بيل على يقين بأنّ لويزا هي من ستختار له العروس التالية. أمّا والدها فكان موضوعه مختلفًا، لأنّ فكرة عدم مسامحة أمّها لها في حال تخلّت عن أنطونيو، وهو بأمسّ الحاجة إليها، كانت ستعذّبها. وسرعان ما تذكّرت كلمات والدتها وهي على فراش الموت عندما حذّرتها من أنّها إذا تبعت قلبها فسينتهي الأمر بكارثة.

أما الآن فقد دخل على حياتها طرف ثالث، وكان عليها أن تحسب له ألف حساب، وأن تفكّر في ما هو الأفضل لذلك الصغير الذي ينمو في داخلها. فإذا بقيت مع غوستافو، ستتمكّن من أن توفّر له اسم العائلة والأمان طوال حياته. وراحت تتخيّل وجه والدها وهي تخبره بأنّها تنتظر حفيده الأول. فهذا وحده كان سيعطيه أملًا بالعيش.

من جهة أخرى، لن تتمنّى لطفلها أن يُربّى في منزلٍ خالٍ من المشاعر أو على قساوة عائلة آيريس كابرال، مع أم ستقضي بقية حياتها تأسف لقرار بقائها هنا وتحلم سرًّا بعالمٍ آخر رفضته، وبأب سيكون له بالاسم فقط...

تنهّدت بيل بيأس، بعد أن قلّبت الموضوع في رأسها بكلّ الاتّجاهات لكنّها لم تقدر على الوصول إلى حل جذري.

- مرحبًا إيزابيلا. قال غوستافو وهو يظهر على الشرفة من خلف زاوية البيت.

- ماذا تفعلين في الخارج؟

- أستمتع ببرودة الهواء هذا المساء. وفجأة شعرت بعجزها عن الاحمرار خجلًا من الأفكار التي كانت تخفيها داخل رأسها.

- معك حق. قال وهو يجلس.

- لقد اشتعلت الأجواء في مجلس الشيوخ اليوم. يبدو أنّهم أطلقوا اسم «الثلاثاء الأسود» على هذا اليوم في وول ستريت. إذ فقد مؤشر داو جونز ثلاثين نقطة إضافية عن أمس، فقامت عائلة روكفلر بشراء كميات كبيرة من الأسهم لدعم السوق. لكنني لا أعتقد أنّها نجحت، ولن نعرف قبل الغد مدى الخسارة. في أي حال، يبدو أنّ والدي كان يتّخذ قرارات معقولة في السنوات القليلة الماضية، على عكس الآخرين. وكيف كان والدك اليوم؟

- بحالة مروِّعة. أعتقد أنّه من بين أولئك الذين راهنوا وخسروا كما قلت الآن.

- حسنًا، ليس عليه أن يشعر بالخجل، لأنّه ليس الوحيد الذي ركب ذلك القارب. لم يكن أحد يعرف ما سيحصل، ولا حتّى نحن.

التفتت بيل إليه مقدّرة كلماته المهدِّئة والحكيمة وقالت:

- ربّما عليك أن تذهب وتراه لتقول له بنفسك ما أخبرتني به لتوّك.

- بكل تأكيد.

- لقد قاربت الساعة السابعة وسيبرد حمّامي. قالت وهي تنهض عن الكرسيّ. شكرًا لك يا غوستافو.

- على ماذا؟

- على تفهّمك

ومشت باتجاه زاوية المنزل لتدخل من الخلف.

- بالمناسبة، كيف كان لقاؤك مع الخياطة؟ سألها، ورآها تقف في مكانها عند سماعها السؤال وتجيبه قبل أن تستدير.

- كان موفّقًا، شكرًا على السؤال. ثمّ استدارت إليه وابتسمت قبل أن تختفي عن أنظاره.

43

بعد انقضاء ليلة أخرى لم تغفُ فيها قبل طلوع الفجر، استيقظت بيل من نومها وهي تشعر بإرهاق شديد وكأنّها مريضة. فوجدت غوستافو قد صحا من نومه وغادر الغرفة. نهضت إلى الحمام مستغربة، فلم يكن من عادته أن يستيقظ قبلها ويخرج من الغرفة في وقت مبكر. لعلّه كان صادقًا في ما قاله عن الصفحة الجديدة التي يريد أن يفتحها. وعندما نزلت إلى الطابق السفلي لتناول الفطور، وجدت لويزا وحدها هناك.

- زوجي وزوجك معًا في المكتب يقرآن الصحف. لا بدّ من أنّك سمعت من غوستافو أمس أنّ أسهم وول ستريت انهارت مجدّدًا. هذا يعني أنّهما سيذهبان اليوم أيضًا إلى مجلس الشيوخ لمناقشة خطط الإنقاذ عقب تلك الكارثة. هل ستذهبين إلى «إيغريجا دا غلوريا» اليوم؟ سألتها لويزا بأعصاب باردة وكأنّ لا شيء حدث في الليلة الماضية، ولم يستيقظ نصف العالم على الإفلاس هذا الصباح.

- لا، سأذهب لرؤية والدي. كما تعلمين، هو ليس بأفضل حال. أجابت بيل بنبرة قريبة إلى الحياد.

- من الطبيعي ألّا يكون بأفضل حال، فكما قلت من قبل كلّ واحد يحصد ما يزرع. أجابت وهي تنهض من مكانها.

- حسنًا، سأضطر إلى تولّي مَهمّة القيام بواجباتنا العائلية بنفسي في غيابك. لذلك سأذهب إلى الكنيسة.

نظرت بيل إلى تلك المرأة بينما كانت تخرج من غرفة الطعام، وهي تشعر بضيق في نفسها لدهشتها من مدى انعدام إحساسها، ومن إنكارها فضل أنطونيو

وعمله الشاق في الاستقرار المالي الذي تعيشه حاليًا، وفي المنزل الذي تمّ تحديثه مؤخّرًا.

أمسكت برتقالة كانت في الوعاء الموضوع أمامها وقذفت بها إلى الجدار من شدّة غيظها، لحظة دخول غوستافو عليها.

- صباح الخير يا إيزابيلا. قال متفاجئًا عندما ارتدّت البرتقالة إلى الخلف وتدحرجت تحت الطاولة. ثمّ ركع ليلتقطها ويعيدها إلى الوعاء.

- هل تتدرّبين على لعب التنس؟

- سامحني يا غوستافو، لكن والدتك تفوّهت بكلام يؤكّد لي انعدام إحساسها.

- آه فهمت، لا بدّ من أنّها تقوم بردّ فعل على ما أبلغها به والدي هذا الصباح قبل الفطور، بأنّك من الآن فصاعدًا ستتولّين حسابات العائلة. من الطبيعي ألّا تتقبّل الأمر بشكل جيد. لذلك ينبغي أن تتجاهلي نوبات الغضب التي قد تثيرها مثل هذه الأخبار.

- سأبذل قصارى جهدي. سمعت أنّك ذاهب إلى مجلس الشيوخ مرة أخرى هذا الصباح؟

- نعم، الأخبار تصلنا تدريجًا من نيويورك. يبدو أنّ الدماء قد سالت هناك أمس. وتنهّد غوستافو.

- ويقال إنّ بعض الرجال رموا بأنفسهم من النوافذ على طول شارع وول ستريت، بعدما فقدت الأسهم حوالى ثلاثين مليار دولار من قيمتها، وهبط سعر رطل البن إلى الأرض في غضون ساعات قليلة.

- هذا يعني أنّ والدي كان محقًّا عندما قال إنّ الأمر قد انتهى بالنسبة إليه.

- إنّها كارثة بالتأكيد بالنسبة إلى منتجي البن، والأهم من ذلك إلى اقتصاد البرازيل، أوضح غوستافو، وأردف:

- أقترح أن ينضمّ والدك إلينا هذا المساء على العشاء. لا بدّ لي من أن أجد وسيلة لمساعدته. وعلى أقل تقدير، نخبره أنا ووالدي عمّا يجول في خاطر الحكومة، لأنّه لا يتحمّل الوقوف أمام مجلس الشيوخ.

- هذا لطف منك يا غوستافو. سأذهب لزيارته في وقت لاحق وأقترح عليه ذلك. أجابته بيل وهي تشعر بالامتنان له.

- ممتاز. اسمحي لي أن أقول لك إنّك تبدين جميلة جدًّا هذا الصباح. قال وهو يقبّلها بحنان على رأسها.

- أراك عند الغداء.

اتّصلت بيل بغابرييلا، التي أخبرتها أنّ أنطونيو خرج في الصباح إلى المكتب، فطلبت منها أن تبلغه الدعوة إلى العشاء في منزل آيريس كابرال. وبينما كانت تصعد السلالم لتعود إلى غرفتها، رأت عبر النافذة خورخي يعود إلى المنزل بعدما أقلّ مَوريسيو وغوستافو إلى مجلس الشيوخ. وبعد عشرين دقيقة، غادرت السيّارة مرة أخرى المنزل لتقلّ لويزا إلى الكنيسة.

نزلت بيل إلى الطابق السفلي وراحت تتجوّل في القاعة الكبرى مسرورة لبقائها وحدها في المنزل. فجأة رأت رسالة موجّهة إليها موضوعة على الصينية الفضية. فأمسكت بها وفتحت باب المدخل لتجلس على المقعد في الشرفة الخلفية وتقرأها.

شقة 4
48 شارع دو مارينيي
باريس
فرنسا

5 أتشرين الأول 1929

عزيزتي بيل،

لا يسعني أن أصدّق أنّ أكثر من عام مضى على آخر لقاء لنا قبل مغادرتك باريس. أكتب لك هذه الرسالة لأخبرك أنّنا في طريق العودة إلى ريو. لقد انتهى پاي من حسابات بناء الكريستو، ويرغب الآن في العودة

للإشراف على مراحل البناء النهائية. عندما ستقرأين هذه الرسالة، نكون قد أصبحنا في وسط المحيط الأطلسي. يسرتي أن أقول لك إنّني أصبحت قادرة على محادثتك باللغة الفرنسية، فالدروس التي أخذتها بالإضافة إلى عملي في المستشفى يجعلانني اليوم أتحدّث بها ببراعة، إن لم يكن بطلاقة. اعلمي أنّني أغادر باريس بمشاعر مختلطة! ما زلت أذكر كم كنت خائفة في البدء عندما وصلت إليها. أما اليوم فيمكنني القول بصراحة مطلقة أنّني سأفتقدها رغم كلّ تعقيداتها، وقد أجد ريو خانقة مقارنة بها. مع ذلك، هناك أشياء كثيرة أتطلّع إليها هناك، بما فيها رؤيتك يا صديقتي العزيزة.

أخبريني عن صحّة والدتك؟ هل تخلّصت من المخاوف التي حدّثتني عنها، آمل أن تكون قد تعافت بالكامل. بالحديث عن الصحة، لقد راسلت مستشفى سانتا كاسا دي ميزريكورديا وسأنضم إلى دورة تدريب الممرضات التي تنظّمها فور عودتي إلى هناك. هذا سيبقيني على الأقل بعيدة عن المشكلات.

للأسف، لم ألتقِ كونتًا فرنسيًا أثناء وجودي هنا، ولم يُظهر أيّ شخص اهتمامًا بي، لذلك قرّرت أن أهب نفسي في الوقت الحالي لمهنتي.

كيف حال غوستافو؟ هل سنسمع قريبًا طقطقة أقدام صغيرة؟ لا بدّ من أنّك تتوقين لتصبحي أمًّا، فهذا هو الجزء الوحيد من الزواج الذي أتوق إليه أنا. باخرتنا ترسو في ريو في منتصف شهر تشرين الثاني. سأتّصل بك فور عودتي، إذ هناك الكثير من الأخبار لنتبادلها.

مارجريدا ترسل تحيّاتها إليك. لا تزال في باريس تطوّر مواهبها الفنية. تقول إنّ البروفيسور لاندوفسكي سألها عنك. كما سمعت أنّ مسيو برويي يعمل الآن في ريو على مشروع الكريستو، فهل رأيته؟

مع أطيب تحيّاتي،

صديقتك ماريا إليسا.

بعد انتهائها من القراءة، شعرت بيل بالحزن على الحياة التي كانت تعيشها عندما غادرت إلى باريس قبل ثمانية عشر شهراً. عندما كان والداها ما يزالان بصحّة جيدة، وكلاهما على قيد الحياة، راضيين بالنعم التي كانا يغرقان فيها. وعندما كان مستقبلها واضحًا، وإن لم يكن على مزاجها. ثمّ نظرت إلى نفسها الآن، فأدركت أنّها متزوّجة من شخص وتعشق شخصًا آخر، وأنّها فقدت أحد والديها بينما أفلس الآخر وهو الآن مكسور الخاطر، وأنّها تحمل في داخلها طفلاً وعليها حمايته بأيّ ثمن، وأنّ الحياة ترجّحها بين اللذة والألم، بعدما تغيّرت بين ليلة وضحاها، ولم تعد واثقة ممّا يخبّئ لها المستقبل.

لكنّها فكّرت بآلاف الأشخاص أو ربّما بالملايين الذين كانوا ينامون قبل أيّام وهم يشعرون بالأمان والسعادة لما يملكونه من مال، وها هم يستيقظون اليوم على خبر إفلاسهم. بينما هي تجلس في هذا المنزل الجميل مع زوج قد لا يشبه الأمير الوسيم الذي حلمت به في صغرها، لكنّه يقدّم لها كلّ ما تريد. فكيف لها، بحق السماء، أن تتذمّر؟ وكيف يمكن لها أن تفكّر في ترك والدها المسكين بعد أن عمل طوال حياته بجهد ليجعل منها ما هي عليه اليوم.

أما بالنسبة إلى طفلها، فإن فكرة الهروب إلى باريس من دون خطة مستقبلية آمنة ستعرّض طفلها للفقر في الوقت الذي يمكن لبقائها هنا أن يضمن له مستقبلاً آمنًا، فأدركت فجأة كم أنّ حبّها للوران جعلها أنانية.

وعلى الرغم من أنّ كلّ تلك الأفكار زادت من حيرتها، لكنّ عقلها أجبرها على التفكير في البقاء هنا. لقد كانت على يقين بأنّ الطفل ليس من غوستافو لكنّها تعرف كيف تجعله يعتقد أنّه منه. ثمّ راحت تتخيّل وجهه وهي تخبره بأنّها حامل. فمثل ذلك الخبر سيدعم البداية الجديدة التي حدّثها عنها، كما أنّه سيضع حدًّا للويزا إلى الأبد.

راحت تحدّق إلى الأفق وهي تفكّر في أنّ هذا القرار سيعني أيضًا تخلّيها عن الشخص الوحيد الذي أحبّته في حياتها أكثر من أي شيء آخر، وعن شعورها

بالسعادة التي حلمت بها طوال الوقت. وهل تقتصر الحياة على سعادتنا الشخصية فحسب؟ وما مدى السعادة التي ستشعر بها إذا هجرت والدها الأرمل وهو في أشدّ الحاجة إليها؟ حينها لن تقدر على مسامحة نفسها.

- سينيورا بيل، هل أحضر لك مشروبًا؟ فالشمس حارة جدًّا هذا الصباح. قالت لوين وهي تطلّ فجأة على الشرفة.

- شكرًا يا لوين، أريد بعض الماء.

- بالطبع. وهل أنت بخير يا سينيورا؟

أخذت بيل نفسًا عميقًا قبل أن تجيب:

- سأكون بخير بعد قليل يا لوين.

في المساء، حضر أنطونيو إلى ذلك المنزل ملبّيًا الدعوة إلى العشاء. وبعد أن رحّب به غوستافو، قضى الرجال الثلاثة ما يقارب الساعة داخل مكتب مَوريسيو، يتناقشون في الأوضاع الراهنة. لاحقًا خرج أنطونيو من الاجتماع أكثر ارتياحًا، يتبعه غوستافو.

- زوجك اقترح عليّ بعض الأفكار لمساعدتي على النهوض مجددًا، وقد بدت لي واعدة. هذا يعني أنّني سأبدأ من جديد يا إيزابيلا. قال لابنته ثمّ انحنى احترامًا لغوستافو وتابع القول:

- كما أنّني ممتنّ لك يا سينيور.

- لا تفكّر بهذه الطريقة يا أنطونيو، ففي النهاية نحن عائلة واحدة.

أخذت بيل نفسًا عميقًا استعدادًا للبوح بما كان عليها قوله، قبل أن تغيّر رأيها بعد ذلك.

- غوستافو، أريد أن أحدّثك على انفراد قبل العشاء.

- بالطبع يا عزيزتي.

تابع مَوريسيو وأنطونيو سيرهما إلى غرفة الطعام، أما بيل فقادت غوستافو إلى غرفة الرسم وأغلقت الباب عليهما.

- ماذا هناك؟ قال غوستافو بعد أن تجعّد جبينه من العبوس قلقًا.

- من فضلك، لا داعيَ للقلق. سارعت بيل إلى طمأنته.

- في كلّ الأحوال آمل أن يكون خبرًا سارًّا بالنسبة إليك. أردت فقط أن أخبرك به الآن قبل العشاء لنتمكّن من إعلانه للجميع بعد قليل. غوستافو، أنا أنتظر مولودًا.

راقبت بيل ردّ فعل زوجها الذي انفرجت أساريره فور سماعه الخبر.

- إيزابيلا، هل تخبرينني بأنّك حامل؟

- نعم.

- يا إلهي! لا أستطيع التصديق! أنت فتاتي الذكية الفطنة! قال وهو يقترب لاحتضانها.

- هذا الخبر سوف يسكت أمّي إلى الأبد.

- آمل أن يسعد ابنها أوّلًا. أجابته وهي تبتسم له.

- بالطبع سيسعدني يا *querida*. ثمّ بانت ابتسامة غوستافو وسع أذنيه.

أشك في أنّني شعرت من قبل بسعادة مثل هذه. لقد أتى هذا الخبر في حينه فكلّنا كنّا بحاجة إليه، خصوصًا أنت يا إيزابيلا بعد كلّ تلك الأحزان التي عشتها والخسارة التي مررت بها حديثًا. وكذلك بالنسبة إلى أبيك، فضلًا عن أنّني اتفقت مع والدي على مساعدته للنهوض مجدّدًا. وقد أصررت على ذلك. أضاف قائلًا:

- فهذا من واجبنا، خصوصًا تجاه الكرم الذي أظهره لنا في الماضي. لكن، هل أنت واثقة من أنّك حامل يا إيزابيلا؟

- نعم، لقد أكّد الطبيب لي ذلك. ذهبت إليه أمس، وقد اتّصل بي اليوم في وقت سابق ليؤكّد لي ذلك.

- إذًا هذا يفسّر ما حصل البارحة!. قال غوستافو بعد أن تبدّلت مجدّدًا ملامحه فبدا أكثر ارتياحًا.

- بعد ظهر أمس، ذهبت لآخذك من عند مدام دوشين بعد انتهائي من اجتماع مجلس الشيوخ، فقالت إنّك لم تذهبي إليها، وبأنّكما لم تكونا على أي موعد. إذًا كنت تقابلين الطبيب، أليس كذلك؟

- نعم. كذبت بيل بعد أن تملّكها الخوف.

- وقفت خارج الصالون بضع دقائق وأنا أتساءل عمّا يدفعك إلى الكذب عليّ، حتّى أنّني شككت في أن يكون لديك عشيق. ثمّ ضحك غوستافو وهو يقبّلها على جبينها.

- كم كنت على خطأ. هل تعلمين متى يحين موعد الولادة؟

- بعد ستة أشهر.

- هذا يعني أنّك تجاوزت مرحلة الخطر، إذًا بات بإمكاننا أن نعلن الخبر. قال وهو يقودها مثل طفل متحمّس إلى الباب.

- يا جميلتي إيزابيلا، لقد جعلتني أسعد رجل في الدنيا. أقسم بأنّني سأفعل ما في وسعي لأكون والدًا حقيقيًّا لهذا الطفل. اذهبي إلى غرفة الطعام، سأنزل إلى القبو لأفتح أفضل زجاجة شمبانيا لدينا!

رمى غوستافو لزوجته قبلة في الهواء ثمّ خرج، فوقفت بيل في مكانها بضع ثوانٍ تفكّر في المسار الذي قامت باختياره لتوّها. ومن الآن فصاعدًا عليها أن تتعايش مع تلك الازدواجية إلى يوم وفاتها.

في تلك الليلة، عمّ الاحتفال ذلك المنزل بعد العشاء، كما عادت الفرحة إلى والدها بعد أن أعلن غوستافو الخبر، فاتضّح لبيل أنّها اتّخذت القرار الصحيح. أما لويزا فقد تبدّلت ملامحها القاتمة في ظلّ تلك المعمعة، وأظهرت شيئًا من التوهّج الداخليّ عكس بعض الرضا. بعد انتهاء العشاء، التفت غوستافو إلى بيل.

- إنّها العاشرة يا عزيزتي، لا بدّ من أنّك مرهقة، فهيّا بنا. قال لها وهو يسحب الكرسي من خلفها ويساعدها على النهوض.

- سأرافقك إلى الطابق العلوي.

- حقًّا. تمتمت بيل محرجةً.

- أشعر أنّني بخير.

- وإن يكنْ، لقد مررت أنت والطفل بأسابيع صعبة، لذلك علينا الآن أن نعتني بك، جميعنا. أضاف وهو ينظر مباشرة إلى والدته.

تمنّت بيل للجميع ليلة سعيدة، ثمّ مرّت من حول الطاولة لتعانق والدها بشدة غير آبهة للأصول.

- تصبح على خير يا پاي.

- نامي جيدًا يا حبيبتي، وأعدك بأنّ ذلك الصغير سيجعل جدّه فخورًا. همس وهو يشير إلى حملها.

- لا تتأخّري عليّ في الزيارة.

- سآتي قريبًا يا پاي.

في الطابق العلوي، تبع غوستافو زوجته إلى غرفة النوم، وهناك وقف متردّدًا.

- إيزابيلا، الآن وقد أصبحت... في هذا الوضع، عليك أن تخبريني بصراحة إذا كنت تفضلّين النوم بمفردك إلى أن يولد الطفل. أعتقد أنّ الأزواج في العادة ينفصلون ليلًا في ظلّ ظروف كهذه.

- إذا شعرت أن هكذا أفضل، عندئذ أنا موافقة.

- من الآن فصاعدًا، عليك أن ترتاحي قدر المستطاع، وألّا تتعبي نفسك.

- غوستافو، تأكّد أنّني لا أعاني من شيء، أنا حامل فقط، وأرغب في الاستمرار في حياتي بشكل طبيعي إذا أمكن. غدًا بعد الظهر، عليّ أن أذهب إلى مدام دوشين وأطلب منها تصميم ملابس جديدة لتناسب شكلي الجديد. ابتسمت له بخجل.

- نعم بالطبع. حسنًا. قال وهو يقترب منها ويقبّلها على الخدين.

- تصبحين على خير.

- تصبح على خير يا غوستافو. قالت بيل وهي تراقب ابتسامته العريضة أثناء مغادرته الغرفة. عندئذ ذهبت تجلس على حافة السرير وفي قلبها مشاعر متضاربة.

فحملتها أفكارها إلى عند لوران كونهما اتّفقا على اللقاء في شقته غدًا بعد الظهر. نهضت ومشت إلى النافذة ثمّ راحت تنظر إلى النجوم في الخارج، فتذكّرت تلك الليالي التي لمعت فيها النجوم بشدة فوق ورشة لاندوڤسكي في بولون- بيلانكور. كما تذكّرت على وجه الخصوص الأمسية التي قضتها في المشغل عندما وجدت الصبي المتشرّد في الحديقة، وكيف بدأت علاقة الحبّ التي تجمعها بلوران في تلك الليلة.

«سأحبك دائمًا». همست للنجوم.

وقبل أن تخلد إلى الفراش، جلست إلى المكتب الموضوع تحت النافذة وأرادت أن تكتب رسالة. فما دام غوستافو تبعها إلى صالون مدام دوشين أمس، وإن بدافع الحبّ وليس بدافع الشك، لم تشأ المجازفة في لقاء لوران في شقته يوم غد.

بدلًا من ذلك، كانت ستذهب إلى موعدها مع الخياطة وترسل إليه مع لوين رسالة ستكتبها الآن.

سحبت ورقة وقلمًا من الدرج، وجلست تحدّق إلى السماء المستنيرة بالنجوم، وتطلب من اللّه أن يساعدها على إيجاد الكلمات الأخيرة التي ستقولها للوران.

وبعد ساعتين من الوقت، قرأت الرسالة مرّة أخيرة.

عزيزي،

ما دمت قد استلمت لتوّك هذا المظروف من لوين، فهذا يعني أنّك عرفت بأنّني لن أستطيع الذهاب معك إلى باريس. بقلب محطّم، أكتب لك هذه الرسالة، لكنّني اخترت الواجب. فأنا غير قادرة على الرغم من حبّي الكبير لك، أن أهرب منه. آمل فقط وأدعو اللّه أن يساعدك على فهم هذا القرار الذي اتّخذته من باب الواجب وليس من منطلق التقليل من حبّي لك أو رغبتي في أن أكون معك. فأنا أتوق كلّ لحظة إلى أن أكون معك وإلى الأبد. أنا جالسة الآن تحت النجوم، أنظر إليها وأتمنّى من كلّ قلبي لو أنّنا التقينا في وقت مختلف، لكنّا، من دون شك، معًا إلى الأبد.

لكنّ ذلك لم يُكتب لنا، فأتمنّى أن تتقبّل الأمر كما تقبّلته بنفسي. وتأكّد من أنّني سأستيقظ كلّ يوم في حياتي وأنا أفكّر فيك، وأصلّي من أجلك، وأحبّك من كلّ قلبي.

أنا خائفة فقط من أن يتحوّل حبّك الحاضر لي إلى كره لاعتبارك لي أنّني خائنة. أتوسّل إليك يا لوران، لا تكرهني بل ادفنّي في قلبك، وابدأ بالنظر إلى المستقبل الذي آمل أن يجلب لك السعادة والقناعة إلى ما لا نهاية.

الوداع يا حبيبي،

حبيبتك بيل.

طوت بيل الرسالة ووضعتها داخل مظروف جديد وختمته، إلّا أنّها لم تضف إليه أي اسم خوفًا من أن يُكتشف أمرها. ثمّ فتحت الدرج وزجّته في القاع تحت كومة من المظاريف الجديدة.

وهي تغلق الدرج، وقع نظرها على مثلّث من الحجر الأملس كانت تستخدمه لتسند إليه المحبرة. فأمسكت به وأغلقت عليه بقبضتها الناعمة، ثمّ قلبته من دون تفكير وغمّست قلمها في الحبر مرة أخرى.

30 تشرين الأول 1929

إيزابيلا آيريس كابرال

لوران برويي

ثم بحثت عن أحد الاقتباسات المفضّلة لديها من أقاويل جيلبرت باركر لتكتبها تحت اسميهما.

حين جفّ الحبر أخفت الحجر في أسفل كومة المظاريف. فعندما ستأتي

لوين في الصباح لتساعدها في ارتداء ملابسها، ستخبرها بما عليها القيام به. وإذا تعذّر وضع الحجر على الكريستو، فسيكون على الأقل بمثابة ذكرى منها للوران عن الوقت الذي تشاركاه معًا ذات مرة.

نهضت لتذهب إلى السرير، وهناك التفّت حول نفسها كحال الجنين الذي في داخلها، كما لو أنّ الذراعين اللتين لفّتهما حول صدرها كانتا قادرتين على تحمّل ثقل قلبها المكسور.

44

- ألن تنضمّ إيزابيلا إلينا على الفطور هذا الصباح؟ سألت لويزا غوستافو.

- لا، طلبت من لوين أن تحمله إليها على صينية. أجاب غوستافو وهو يجلس إلى مائدة الفطور مع والدته.

- هل هي مريضة؟

- لا يا ماي، لكنّها بقيت تخدم والدتها المسكينة على مدار الساعة طوال شهرين. تخيّلي الإرهاق الذي أصابها.

- آمل ألّا تتدلّل كثيرًا خلال حملها. قالت لويزا.

- كما لم أفعل أنا خلال حملي.

- حقًّا؟ كنت أتحدّث إلى أبي في الليلة الماضية، وأخبرني بأنّك مرضت لأسابيع عندما كنت حاملًا بي وبأنّك نادرًا ما كنت تنهضين من السرير. أجابها وهو يسكب لنفسه القهوة.

- في كلّ حال، ألم تتوقي إلى سماع ذلك الخبر؟ لذلك عليك أن تكوني سعيدة الآن.

- أنا، لكن...

رأى غوستافو لويزا تشير إلى الخادمة كي تخرج من غرفة الطعام.

- أغلقي الباب خلفك إذا سمحت.

- سألها غوستافو وهو يتنهّد بعد أن ملّ من تصرفاتها:

- والآن ما الأمر يا ماي؟

- قضيت طوال الصباح أصلّي وأصلّي حتى ينيرني اللّه فأعرف إذا ما كان عليّ أن أخبرك أم لا.

- حسنًا، لقد طلبت من الخادمة أن تتركنا على انفراد، وهذا يعني أنّك اتخذت القرار بإخباري، وأفترض أنّ الأمر يتعلّق بذنب اقترفته زوجتي. هل أنا على حق؟

سرعان ما بالغت لويزا في إظهار تعابير الألم على وجهها.

- آسفة للقول إنّك محقّ.

- حسنًا، هيّا قولي ولا تتركيها عالقة في حلقك، فأمامي يوم حافل.

- أعتقد أنّ زوجتك لم تكن مخلصة لك بعد الزواج، ولديّ سبب وجيه لأعتقد ذلك.

- ماذا؟ صاح غوستافو غاضبًا.

- ماي، أعتقد أنّك فقدت عقلك! وما هي أدلّتك على ذلك؟

- غوستافو، أفهم غضبك وعدم تصديقك لي، لكنّني أؤكّد لك أنّني بكامل قواي العقليّة. نعم، لديّ أدلّة.

- حقًّا؟ وما هي؟

- سائقنا خورخي، تعلم أنّه يعمل لدينا منذ سنوات عديدة، وقد رأى إيزابيلا تدخل شقة أحد الرجال الشبّان. قالت لويزا وهي تأخذ نفسًا عميقًا.

- هل تقصدين أن خورخي اصطحبها إلى المدينة فقامت هناك بزيارة صديق، وأنت الآن تحوّرين القصّة بتوجيه أصبع الاتهام إليها؟ قال غوستافو وهو ينهض عن المائدة.

- أتمنى ألّا أسمع مزيدًا من أخبارك اللاذعة! أتساءل ما الذي تأملين في تحقيقه الآن؟

- من فضلك يا غوستافو، أتوسّل إليك أن تجلس وتسمعني جيّدًا. قالت لويزا وهي تتوسّل ابنها.

- زوجتك لم تطلب من خورخي أن يأخذها مباشرة إلى عنوان ذلك الشاب. كانت في الواقع تطلب منه أن يصطحبها إلى صالون مدام دوشين، وذات مرّة علقت سيّارة خورخي في الزحمة، حينها رأى إيزابيلا تغادر صالون الخياطة بعد دقائق قليلة، وتتجه راكضة إلى شارع إيبانيما.

هبط غوستافو بثقله فوق المقعد.

- وقد جاءك خورخي بهذه المعلومات بملء إرادته، أليس كذلك؟

- كلا. اعترفت له لويزا.

- لقد أثارت شكوكي ذات مرّة. كنّا في شهر أيار وذهبت بنفسي بعد ظهر أحد الأيام إلى كنيسة المجد. كانت زوجتك قد أخبرتني بأنّها ذاهبة إلى هناك قبل ساعة من مغادرتي للمنزل، إلّا أنّني لم أجدها هناك. في ذلك المساء، سألت خورخي إلى أين طلبت إيزابيلا أن يصطحبها. فأخبرني أنّه أوصلها إلى صالون مدام دوشين، ثمّ اعترف لي بما قلته لتوّي. حينها أمرته عندما ستطلب منه في المرة القادمة أن يقودها إلى هناك، ويراها تغادر بعد دقائق، بأن يتبعها ليكتشف إلى أين تذهب.

- هل تقصدين أنّك طلبت من خورخي أن يتجسّس على زوجتي؟

- إذا كنت ترغب في فهمها هكذا، فليكن. ومع ذلك، أردت فقط أن أحميك يا بنيّ، وعليك أن تصدّق حسن نيّتي في ذلك، إذ لطالما شعرت بقلق منذ البداية.

- عن أيّ قلق تتحدّثين؟

قالت لويزا، التي تملك نعمة الخجل:

- أنا... أنا أمّك يا غوستافو؛ لذلك أردت في ليلة زفافك أن أطمئنّ على زواجك وأتأكّد من أن كلّ شيء تمّ كما يجب. لذلك طلبت من الخادمة في كوباكابانا بالاس أن تخبرني بأنّ الليلة الأولى مرّت وفق كلّ التوقّعات.

- ماذا فعلت؟ قال غوستافو بعد أن وقف على قدميه والتفّ حول المائدة باتجاه والدته، وعيناه تتّقدان غيظًا.

- من فضلك يا غوستافو! رفعت لويزا ذراعيها لتحمي نفسها.

- زوجتك أمضت شهورًا عديدة في باريس. لذلك شعرت أنّ من واجبي التأكّد من أنّها ما تزال طاهرة. كما أنّ الخادمة أخبرتني بأنّها لم تر أي بقعة دم على الملاءات أو الشراشف.

- هل قمت برشوة خادمة لتخبرك عن مدى طهارة زوجتي؟ هزّ غوستافو رأسه محاولًا امتصاص غضبه كي لا يخطئ بحقّ والدته، على الرغم من أنّه كان يعلم بأنّها الحقيقة.

- حسنًا. نظرت إليه لويزا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- وهل كانت الملاءات ملطّخة بالدم؟

- وكيف تجرئين على سؤالي؟ انتفض غوستافو.

- هذه مسألة تخصّني أنا وزوجتي فحسب!

قالت له لويزا:

- أفهم منك أنّها لم تكن كذلك، وبالتالي هل تريدني أن أكمل يا غوستافو؟ أستطيع أن أرى كيف أصبحت مضطربًا. يمكننا الوقوف عند هذا الحدّ إذا رغبت.

- لا يا ماي، لقد تماديت كثيرًا. أنا واثق من أنّك متلهّفة لتخبريني اسم ذلك الذي كانت تجتمع به إيزابيلا سرًّا.

- ثقْ بأنّني لا أشعر بالفخر للقيام بذلك. قالت على الرغم من أنّ تعابير الانتصار التي عكستها عيناها كانت توحي بالعكس.

- لكنّنا أنا وأنت نعرف ذلك الشخص.

بحث غوستافو في عقله ليخرج باسم قبل أن تسبقه والدته إلى ذلك، لكنّه عجز فسأل:

«ومن يكون؟».

- رجل شاب حظي بضيافتنا هنا في هذا المنزل. هو الشخص نفسه الذي دفعت له قدرًا كبيرًا من المال لتقدّم لزوجتك هدية مميّزة بمناسبة زواجكما. الشقة التي كانت إيزابيلا تزورها بانتظام لم تكن سوى شقّة سينيور لوران برويي، النحات الفرنسي.

فتح غوستافو فمه لينطق بكلمة واحدة، لكنّه لم يقدر.

- أتفهّم تمامًا إذا شكّل ذلك الاسم صدمة كبيرة لك يا غوستافو، لكن بالنظر إلى حقيقة حمل زوجتك بعدما تأخّرت لأشهر عدّة، شعرت أن من حقّك أن تعرف بالحقيقة.

صرخ غوستافو:

- كفى! ربّما زارت إيزابيلا بالفعل ذلك الرجل أثناء إقامته هنا في البرازيل، فهما صديقان منذ زيارتها لباريس. وأنت بنفسك أرسلت إليه أليساندرا سيلفيرا ليقوم بنحتها. أنت قادرة على كلّ شيء يا ماي، لكن ليس لدرجة أن تعرفي إذا ما دخلا سويًّا غرفة النوم. لذلك، فإنّ مجرّد التلميح إلى أن الطفل الذي تحمله زوجتي غير شرعي، هو سفالة منك!

قالت لويزا بهدوء:

- أستطيع أن أفهم ردّ فعلك. وماذا إن كنت أنا على حق؟ سيكون ذلك أمرًا فظيعًا.

راح غوستافو يتحرّك داخل الغرفة ذهابًا وإيابًا كي يهدّئ نفسه.

- إذًا قولي لي لماذا وضعت ذلك الرجل الذي اشتبهت بأن يكون عشيقًا لزوجتي تحت رعايتك؟ أنت من عرّفته إلى مجتمعنا وساعدته في الحصول على عملٍ بفضل توصياتك. وإذا لم تخنّي الذاكرة، قدّمت له الأحجار الملساء من مناجم عائلتنا لتمكّنيه من مواصلة العمل! أنت من أطلت إقامته هنا في ريو. لماذا بحق السماء فعلت كلّ هذا إذا كنت في الأساس تشكّين بوجود علاقة بينه وبين إيزابيلا؟ قال غوستافو وهو ينظر إليها مثل حيوان مفترس، وأضاف:

- لأنك يا ماي أردت تشويه سمعة زوجتي، فهي لم تنل إعجابك منذ البداية. لقد حرصت منذ أن تزوّجنا، على ألّا تهنأ بيوم واحد في هذا المنزل، وعاملتها كما لو أنّها حشرة مثيرة لأعصابك. أعرف تمامًا في أنّك ترغبين في أن يفشل زواجي منها قبل أن يبدأ! صرخ غوستافو عبر الطاولة في وجه لويزا.

- لذلك لن أستمع لك أكثر. واعلمي أنّني سأحرص على أن تتولّى إيزابيلا أمور هذا المنزل في أقرب وقت ممكن، وإذا تدخلت بعد ذلك في زواجنا، ستغادرين هذا المنزل على الفور! هل فهمت؟

- نعم. أجابت لويزا من دون أن يرفّ لها جفن.

- بالمناسبة، ليس عليك أن تقلق بعد الآن بشأن سينيور برويي لأنّه سيعود غدًا إلى باريس.

- ما زلت تتجسّسين عليه؟ قال غوستافو مغتاظًا.

- لا على الاطلاق، أنهيت رعايتي له فور مغادرة زوجتك إلى المزرعة مع أمّها. كنت واثقة من أنّه، في غياب المدخول وبرحيل زوجتك عن ريو، لن يمر وقت طويل قبل أن يقرّر العودة إلى باريس. استلمت منه رسالة قبل يومين، يبلغني فيها برحيله ويشكرني على المساعدة. «تفضّل». ومدّت لويزا المظروف لغوستافو وهي تقول:

- تستطيع قراءتها بنفسك، ولاحظ عنوان الشقّة في إيبانيما في أعلى المظروف.

أمسك غوستافو بالمظروف وهو يحدّق إلى والدته بكره. كانت يداه ترتجفان لدرجة أنّه وجد صعوبة في زجّ المظروف داخل جيب بنطاله.

- على الرغم من أنّك تقولين إنّك فعلت كلّ هذا بدافع حبّك لي، لكنّني لست قادرًا على تصديق ذلك. لا أريد سماع كلمة إضافية عن هذا الموضوع، هل فهمتِني بشكلٍ واضح؟

- نعم.

رأت لويزا ابنها يغادر الغرفة فلمعت ابتسامة فوق شفتيها.

نجح غوستافو في الحفاظ على هدوئه أمام إيزابيلا وهي تغادر المنزل برفقة خادمتها لزيارة مدام دوشين. وأثناء رؤية السيّارة تبتعد على طول الممرّ راح يفكّر

في ضرورة استجواب خورخي ليكتشف صحّة أقوال أمّه. لكن خورخي عمل في خدمة لويزا أكثر من ثلاثين عامًا، لذلك لم يكن محطّ ثقة. فشعر بحاجة إلى كأس ويسكي وذهب إلى غرفة الرسم، لكنّه قاوم نفسه. إذ كان يعرف أنّ كأسًا واحدة لن تكفيه وأنّه الآن بأمسّ الحاجة إلى البقاء واعيًا ليفكّر مليًّا.

عاد يجول في الغرفة ذهابًا وإيابًا، يتساءل كيف تحوّلت تلك الفرحة التي استيقظ عليها في الصباح إلى غضبٍ وشكٍّ في غضون ساعتين. حاول تبرير ما قامت به أمّه، فراح يفكر في نفسه، حتى لو أن تلك القصّة التي ألّفتها كان فيها شيء من الصحّة، لكن اتهام إيزابيلا بالحمل من رجل آخر ضرب من الجنون. ففي النهاية، كلّ النساء المتزوجات لديهنّ معجبون، وغوستافو ليس أحمق ليفكّر في أنّ زوجته الجميلة لن تحظى بواحد. ربّما أولع برويي بها في باريس، وطلب إليها هنا في ريو أن يجتمع بها، لكنّه لا يستطيع التصديق أنّها استسلمت له جسديًّا.

مع ذلك، بقي هناك الأمر الذي ذكّرته به أمّه وأبقاه مضطربًا، وهو عدم رؤية الدم على الشراشف في ليلة الزفاف. فغوستافو ليس طبيبًا، ويجوز أن تكون إيزابيلا على حقّ في ما قالته في تلك الليلة، لم يكن يدري...

رمى غوستافو بنفسه على الكرسي وألقى برأسه المشوّش بين يديه.

لكن ماذا لو كانت تكذب؟ إنّ هذا يعدّ من أفظع أنواع الخيانة، لأنّه عندما شجّعها على الذهاب إلى باريس كان ذلك من باب الحب وأقصى درجات الثقة.

فكّر في أنّ من الأفضل للجميع أن يغلق هنا هذا الموضوع القذر وإلى الأبد. الرسالة التي بعث بها برويي إلى والدته تؤكّد أنّه عائد إلى باريس على الباخرة المبحرة في الغد، وإذا كان قد حصل شيء بينهما، فبرحيله كان سينتهي بالتأكيد.

مشى غوستافو قاصدًا دخول مكتب والده لقراءة الصحف كي ينسى كلّ الهراء الذي أخبرته به والدته. وجلس هناك ليركّز على المصائب المالية التي وقعت على كلّ من البرازيل وأميركا، لكنّه لم يقدر. فوالدته قد تعمّدت زرع الشكّ في نفسه ويبدو أنّها نجحت في ذلك. عرف أنّه لن يشعر بالراحة قبل أن يكشف الحقيقة.

وعندما رأى خورخي يعود إلى المنزل من رحلته إلى المدينة، أمسك بقبّعته وركب السيارة ليتبع بزوجته.

وقفت بيل تنظر إلى نفسها في المرآة عند مدام دوشين التي راحت تمطرها بالتبريكات والتهاني، ثمّ أكّدت لها على سهولة تعديل ملابسها حسب جسمها في الأشهر المقبلة.

- لطالما اعتقدت أنّ شكل المرأة الحامل فيه سحر، بغض النظر عن جمال المرأة نفسها. قالت مدام دوشين لبيل، التي كانت تحدّق إلى لوين لتعطيها الإشارة في السرّ. نهضت لوين عن كرسيها واقتربت من سيّدتها قائلة:

- سينيورا، سأذهب إلى الصيدلية لأشتري المنشّطات التي وصفها الطبيب. الصيدلية لا تبعد كثيرًا عن هنا، لذلك سأعود على الفور.

وعندما قامت لوين بتكرار ما لقّنتها إيّاه بيل مثل الببغاء، خنقت ابتسامة مرّة في صدرها.

- لا تقلقي، سأكون بخير هنا عند مدام دوشين.

- بالتأكيد، لا داعي أبدًا للقلق. قالت مدام دوشين بلطف وهي تبتسم لبيل.

أومأت لوين برأسها وغادرت الصالون، وسرعان ما لاحظت بيل الخوف في عينيها الكبيرتين. كانت تعرف أنّ ما تطلبه من خادمتها حمل ثقيل عليها لكن لم يكن لديها خيار آخر، فهمست في سرّها: «اذهبي في أمان اللّه». ثمّ أخذت نفسًا عميقًا وعادت تنظر إلى المرآة.

كان غوستافو قد أمر خورخي باصطحابه إلى النادي الذي يبعد مسافة بضع دقائق سيرًا على الأقدام عن صالون مدام دوشين، وعن عنوان الشقة التي يسكنها برويي، كما تبيّن له في آخر الأمر. وعندما انتبه إلى أنّه لم يمرّ على خروج زوجته من

البيت إلّا عشرون دقيقة تقريبًا، غادر النادي وراح يسير على طول الشارع بعد أن قرّر التوجّه مباشرة إلى مبنى بروبي. وهناك وجد مقهى على الجانب الآخر من الطريق، فجلس فيه عند زاوية الشرفة المطلّة على الرصيف. ومثل الأحمق اختبأ وراء صحيفته، وراح يجول بعينيه ذهابًا وإيابًا على طول الشارع. وعندما جاءت النادلة طلب فنجان قهوة من دون أن يصرف نظره عن الطريق.

مرّت عشرون دقيقة لم تظهر فيها زوجته وهي تأتي راكضة إلى أحضان عشيقها، فشعر برغبة في الرحيل ونسيان المسألة برمّتها. لكنّه عاد وفكّر ثانية؛ ماذا لو أنّ بيل تذرّعت بموعدها مع مدام دوشين وذهبت فعلًا إليها أوّلًا لتغطّي سبب وجودها هنا. لذلك بقي جالسًا في مقعده.

ما هي إلّا دقائق حتّى رأى غوستافو وجهًا مألوفًا، كان يتقدّم بسرعة على طول الشارع. لم يكن وجه زوجته، بل وجه خادمتها لوين. نهض عن الكرسي ورمى بكوب القهوة على الطاولة التي سُمع طرق البورسلين عليها، كما رمى ببضع نقود معدنية على الطاولة، ليخترق بعد ذلك حركة المرور منتقلًا إلى الجانب الآخر من الطريق ومتخطّيًا بسرعة المبنى السكني كي لا تراه لوين، التي تمهّلت في تقدّمها، وهي تتوقّف بين الحين والآخر وكأنّها لم تكن واثقة من تحديد العنوان. واختبأ غوستافو داخل المبنى المجاور للمبنى الذي يسكن برُويي في إحدى شققه.

راح يصلّي أن تكون مصادفة، لكنه فهم أنّها لم تكن كذلك. فما هي إلّا ثوانٍ حتّى توقّفت لوين في الخارج أمام مدخل المبنى المجاور أي على بعد بضع خطوات منه. وما إن رفعت قدمها لتخطو إلى المبنى، حتى خرج غوستافو أمامها.

قال لها بسرور أجهد نفسه على إظهاره:

- مرحبًا لوين، إلى أين تذهبين؟

كان غوستافو يبحث عن دليل يؤكد خيانة زوجته، فوجد الرعب الذي بدا على وجه خادمتها لدى رؤيته.

- أنا...

- ماذا؟ قاطعها غوستافو وهو يعقد ذراعيه منتظرًا ردّها.

- أنا...

لاحظ أنّها كانت تضع إحدى يديها داخل جيب مئزرها على نحو ملفت للنظر، كأنّها تخفي فيه شيئًا.

- ربّما أرسلتك سيّدتك لتسلّمي شيئًا لأحد؟

- سينيور، اعتقدت أنّه مدخل صيدلية. أنا... لقد أخطأت في العنوان، سامحني...

- حقًّا؟ وهل تحملين معك وصفة طبية لزوجتي؟

- أجل. فجأة أصبحت نظراتها أكثر ارتياحًا عندما أمدّها بالتبرير.

- إذًا ستجدينها قريبة من هنا على طول الشارع، حتّى أنّني في الواقع، أعرف عنوانها. فلمَ لا تعطينني الوصفة وأنا سأسلّمها بنفسي إلى الصيدلي؟

- سينيور، جعلتني سينيورا بيل أقسم بأن أسلّم هذه... الوصفة الطبية بيدي.

- أنا زوجها، لذلك أعتقد أنّها ستشعر بأمانٍ أكثر لو سلّمتها أنا بيدي، أليس كذلك؟

- نعم بالطبع. خفّضت الخادمة عينيها مستسلمة.

وفتح غوستافو كفّه فسحبت لوين المظروف من جيبها وعيناها تتألّمان وتتوسّلان إليه بألّا يأخذه منها.

قال لها:

شكرًا لك. ودسّ المظروف في جيب سترته العلوي.

- أعدك بأنّني سأسلّمها بكلّ أمانة إلى المرسل إليه. والآن، عودي إلى سيّدتك التي لا أشكّ للحظة في أنّها تتساءل أين أنت.

- سينيور، من فضلك...

لكن غوستافو وضع حدًّا لاحتجاجاتها.

- سينيوريتا، لا أعتقد أنّك ترغبين في أن تجدي نفسك في الشارع من دون توصيات لحظة عودتي إلى المنزل، لذلك أقترح عليك ألّا تخبري زوجتي بهذا اللقاء.

ما أهمّية إخلاصك لها عندما أكون أنا من يقرّر من سنوظّف في بيتنا. هل تفهمينني؟

أجابت الخادمة بصوت مرتعش:

- نعم يا سينيور، مفهوم. وفاضت عيناها بالدموع.

- والآن، أقترح عليك أن تعودي بالأدوية اللازمة إلى صالون مدام دوشين، فالصيدلية لا تبعد أكثر من بضعة أبواب عن الصالون، لكي يكون لديك حجّة.

- نعم، سينيور.

أحنت لوين رأسها احترامًا لغوستافو وهي ترتعش، ثمّ عادت أدراجها من حيث أتت.

وعلى الفور، أوقف غوستافو أوّل سيّارة أجرة عبرت أمامه وطلب من السائق أن يقلّه إلى النادي. وعلى الرغم من أنّه لم يكن يملك أي فكرة عمّا يحتويه ذلك المظروف، كان يعلم بأنّه لن يتجرأ على فتحه قبل أن يحتسي كأسًا من الويسكي.

كانت لوين قد اختبأت عند المنعطف، بعدما شعرت بوهن في ركبتيها لارتعاشها مثلما ترتعش الأشجار عندما يهبّ إعصار، فجلست على الأرض في مدخل أحد المباني القريبة. وبعد أن رأت غوستافو في مؤخرة سيارة الأجرة التي مرّت بجانبها، دفنت رأسها بين ركبتيها وأخذت نفسًا عميقًا لتفكّر مليًّا في ما كان عليها أن تفعله الآن. صحيح أنّها لم تكن تعرف ما يحتوي عليه المغلف، لكنّها كانت قادرة على التصوّر. لم يكن لديها أدنى فكرة عمّا كان عليها فعله، فتمنّت لو أنّ برونو كان حاضرًا معها لتستشيره. فهي أيضًا كانت تواجه المشاكل في حياتها، لكنّها لم تزعج سيّدتها بها نظرًا لحالة الحزن التي أصابتها عند رحيل والدتها، ومن ثمّ اكتشافها بأنّها حامل.

سينيورا بيل لم تكن الأنثى الوحيدة في ذلك المنزل التي وجدت نفسها في مأزق. فلوين أيضًا علمت بحملها قبل ثلاثة أسابيع، وأخبرت برونو قبل أن تغادر المزرعة. فأصرّ على أن تصارح بيل وتطلب منها العمل في المزرعة بشكل دائم

حتى يتمكّن الاثنان من الزواج والاستقرار هناك لتربية طفلهما. وهي كانت تعتزم على مصارحة سيّدتها بذلك، لكنّها تريّثت قليلًا إلى أن يعتدل حالها.

ولأنّ لوين لم يكن لديها أدنى فكرة عن هوّية مالك فازيندا، تذكّرت أنّ الرجل في العادة يرث أصول زوجته بعد الزواج، لذلك اعتقدت أنّ غوستافو كان لديه السلطة لطردها هي وبرونو منها أيضًا. وهذا يعني أنّ كلّ ما خطّطا له للمستقبل كان سيتبخّر في ثانية ليصبحا بعد ذلك مجرّد زوجين أسودين مفلسين مرميين في الشارع مع طفل ينمو في أحشائها، فيضطر إلى الانتقال للعيش في الأحياء الفقيرة التي كانت تتسّع يومًا بعد يوم للمتشردين أمثالهم.

كلّ هذا كان سيحدث... لو أخبرت سيّدتها بما حصل الآن.

ما إن بدأ نفَسها يتباطأ وتمكّنت مجددًا من التفكير بهدوء، وضعت كفّها على بطنها وتلمّست الطفل الذي كان ينمو في أحشائها. لا بدّ لها أن تسرع في اتّخاذ القرار، تمامًا مثلما حصل مع بيل. فسيّدها قد طلب منها أن تلتزم الصمت، بمعنى آخر أن تخون الثقة التي كانت تضعها فيها سيّدتها. لو اختلفت الظروف، لما كانت أذعنت له مهما يكن الثمن. كانت ستعود مباشرة إلى الصالون وتطلب من سينيورا بيل أن ترافقها إلى الخارج لتبلغها بما حدث معها، فتستعدّ لما قد تواجهه إثر عودتها إلى المنزل.

ففي النهاية، هي كانت تعرف سينيورا بيل منذ طفولتها، وهي مدينة لها بكلّ ما وصلت إليه اليوم، تمامًا مثلما كانت والدتها مدينة لعائلة بونيفاسيو.

لكن الوضع الجديد، وللأسف، قد فرض على لوين أن تفكّر أكثر في مصلحتها. ثمّ انتقل كفّها إلى الجيب الآخر من مئزرها، وراحت تداعب الحجر الأملس الذي في داخله. ربّما سيسهل عليها الكذب لو أكملت على الأقل نصف مهمّتها. فقرّرت ما كان عليها فعله بعد أن فكّرت في أنّ سينيور غوستافو لن يعود في الدقائق القليلة التالية، ونهضت تركض إلى شقة لوران برويي.

ما هي إلّا دقائق قليلة حتّى وصلت إلى أمام الشقّة وهي تلهث فطرقت على الباب بقوّة. وحين فُتح امتدّت ذراعان لتلتفّا حولها.

- عزيزتي، كنت قد بدأت أشعر بالقلق، لكن...

ما إن أدرك لوران أنّ الطارق ليس بيل، انكمشت أساريره على الفور مستغربًا.

- هل أرسلتك نيابة عنها؟ قال مذهولًا وهو يشدّ بقبضته على الباب ليسند نفسه من هول المفاجأة.

- نعم.

- هذا يعني أنّها لن تأتي؟

- لا يا سينيور، وأنا آسفة. لقد طلبت منّي أن أحضر لك شيئًا.

أمسكت لوين بالحجر الأملس وقدّمته إليه وراقبته وهو يأخذه منها.

- أعتقد أن هناك رسالة على الظهر. همست.

قلّبه لوران بين يديه ليقرأ النقش على الظهر. وسرعان ما رأت لوين الدموع تنهمر من عينيه.

- شكرًا، أقصد إلى اللقاء. ثمّ أغلق الباب في وجهها.

جلس غوستافو في إحدى زوايا المكتبة الهادئة. كانت القاعة شبه فارغة، كما هو حالها منذ أن ضربت الأزمة المالية وول ستريت، وكان بأمسّ الحاجة إلى تهدئة نفسه. طلب كأسًا من الويسكي وراح يحدّق إلى المظروف الموضوع على الطاولة بجانبه. أفرغ المشروب داخل حلقه جرعة واحدة ثمّ طلب كأسًا أخرى. وعندما حضرت، أخذ نفسًا عميقًا ثمّ فتح الرسالة.

وبعد دقائق طلب من النادل أن يأتيه بالثالثة، وبقي جالسًا في مكانه يحدّق إلى الفراغ.

بغض النظر إذا كانت الرسالة تثبت صحّة ما لمّحت إليه والدته أم لا، ها هي تخبره بأنّ زوجته مغرمة برجل آخر. لقد وقعت في الحب وفكّرت في الهروب مع حبيبها إلى باريس، وهذا بحدّ ذاته أمر مروّع. فضلًا عن أنّ هناك ما يُقرأ بين

السطور وقد أخبر غوستافو بأمر آخر. فإذا كانت لدى إيزابيلا النيّة الجادّة في الهروب مع بروبي، فهذا يعني أنّ حبيبها على علم بحالتها الجسديّة الجديدة، وأنّ الطفل الذي تحمل به زوجته هو من عشيقها...

عاود غوستافو قراءة الرسالة مرّة ثانية، وهذه المرّة حاول تفسير الواقع بطريقة مختلفة، قد تكون تلك الرسالة وسيلة للتخلص من بروبي إلى الأبد، بعيدًا عن الإحراج وكشف المستور. فهي كانت تعلم بأنّها ستحبّه إلى الأبد، وبأنّ أيّ علاقة بينهما كانت مستحيلة، لذلك أتت تلك الرسالة المكتوبة، بحبّ يائس، واقعيّةً للغاية لتجعل بروبي يغادر من تلقاء نفسه بعد أن يدرك أنّها لن تكون ملكه يومًا.

تنهّد غوستافو بعدما شعر بأنّه يحاول عبثًا حلّ المعضلة. ثمّ تذكّر مظهر بروبي بلياقته البدنية ووسامته الجليّة. هو بلا شك رجل ساحر ويمكن لأي امرأة أن تنجذب إليه، حتّى أنّ موهبته ستعزّز سحره في نظرهنّ. من يدري ماذا حدث بينه وبين بيل عندما جلست بيل قبالته لساعات في ذلك المشغل في باريس... وحده اللّه يعرف ذلك.

كان هو من أرسلها إلى هناك مثل الحمل الذي يُرسل إلى الذبح، حسب ما قالته له أمّه.

بقي طوال نصف الساعة التالية، يشرب كؤوس الويسكي الواحدة تلوَ الأخرى، ويشعر بتعاقب المشاعر المختلطة مثل الحزن واليأس والغضب الشديد. كيف تجرّأت زوجته أن تضعه في موقف الديّوث. كان يعلم أنّ من حقّه أن يعود إلى المنزل ويبرز لها الرسالة ثمّ يرميها في الشارع. هو الذي عرض أمس على والدها مبلغًا من المال ليساعده في تسديد ديونه والنهوض مجدّدًا من إفلاسه، لقد قدّم له فرصة ليعيد بناء ما هدمته الأزمة. أمّا الآن، ومع تلك الرسالة التي تعتبر دليلًا على الخيانة، كان بإمكانه أن يدمّر سمعتها هي ووالدها ويتّهمها بالزنا فيتطلّق منها.

نعم بالطبع هو قادر على ذلك، فكّر غوستافو. لأنه في الواقع ليس ذلك الصبي الصغير الوديع المتردّد الذي ربّته والدته على أن يكون كذلك.

من جهة أخرى، لم يكن قادرًا على تحمّل تلك النظرة المتعجرفة التي سترمقه بها لويزا عندما سيخبرها أنّها كانت على حق بشأن إيزابيلا...

كان يستطيع الذهاب لمواجهة برويي، ألم يعرف في النهاية أين يعيش؟ من كان سيلومه لو أطلق النار عليه، حتّى أنّه كان سيعرف الحقيقة على الأقلّ. وما الذي كان سيخسره برويي أكثر من إيزابيلا بعدما اختارت البقاء مع زوجها.

اختارت أن تبقى معي...

فجأة تذكّر غوستافو ذلك، فهدأ باله قليلًا. صحيح أنّ الرسالة تخبره عن عشقها المجنون لبرويي، لكنّ زوجته لم تتخلَّ عنه بالهرب مع عشيقها إلى باريس. ربّما لم يعلم برويي بحمل إيزابيلا. ولو كانت بيل تعتقد أنّ برويي هو في الحقيقة والد طفلها لكانت ذهبت معه بالرغم من كلّ شيء.

بحلول الوقت الذي كان سيغادر فيه غوستافو النادي، تمكّن من إقناع نفسه بأنّه مهما يكن ما حدث بين زوجته والنحّات، فقد اختارته هو، زوجها. وبرويي سيكون غدًا في طريقه إلى باريس ليختفي من حياتهم إلى الأبد. هبط السلالم وهو يخرج من النادي مترنّحًا يمينًا ويسارًا، ثمّ عبر الشارع باتجاه الشاطئ ليستعيد وعيه، وهناك توصّل إلى قرار نهائي.

بغض النظر عمّا فعلته زوجته، لن ينتفع في شيء إذا كشف لها بأنّه عرف سرّها وطردها من المنزل. فهذا سيتيح لها الإسراع إلى أحضان برويي في باريس، وستكون نهاية زواجهما.

ثمّ راح يخفّف عن نفسه ويقنعها بأنّ نساءً كثيراتٍ في مجتمعهم عشن مغامرات من هذا النوع. بل حتّى الرجال... يخطر ذلك على باله عندما يتذكر نزوةً لوالده، التقى بها في إحدى الحفلات الخيرية، وقد أظهرت تصرّفاتها بشكل لا ريب فيه أنّ العلاقة التي ربطتها به كانت أكثر من مجرّد صداقة.

في النهاية، أدرك أنّه سيشعر برضا أكبر لو عاد إلى المنزل وأخبر والدته بأنّه تحقّق من الأمر، ولم يعثر على ذرّة خيانة، ممّا لو عاد إلى المنزل وواجه إيزابيلا بالرسالة.

نظر غوستافو إلى الأمواج التي كانت تهدر فوق الرمل قبل أن يتنهّد مستسلمًا. مهما فعلَت به كان ما يزال يحبّها. لذلك أخذ الرسالة من جيبه واقترب أكثر من الشاطئ، ومزّقها أشلاء وألقى بها في الهواء، وبقي يشاهدها ترفرف مثل الطائرات الورقية الصغيرة، قبل أن تهبط في النهاية وتختفي في البحر.

45

باريس، كانون الثاني 1929

قال لاندوڤسكي عندما رأى لوران يدخل من باب المشغل:

- إذًا يا برويي، لقد عدت إلينا سليمًا معافى.

- كنت قد شطبتك من حساباتي لاعتقادي أنّك انضممت إلى إحدى قبائل الأمازون وتزوّجت من ابنة القائد.

- نعم، عدت مجددًا.

- أجابه لوران. «هل بقي لديك مكان شاغر لي؟

أدار لاندوڤسكي عينيه عن رأس سون يا تسين وحدّق إلى مساعده السابق قائلًا: ربّما. ثمّ التفت إلى الصبي الصغير الذي كبر وامتلأ جسمه منذ آخر مرّة رآه لوران.

- ما رأيك أنت؟ هل بقي لديه عمل معنا؟

شعر لوران أوّلًا بعيني الصبي تحدّقان إليه، ثمّ رآه يلتفت إلى لاندوڤسكي ويومئ بابتسامة.

- الصبي يقول نعم. أرى جيّدًا أنّك على وشك الاختفاء فلم يبقَ منك شيء، وقد أتى دورك لأغذّيك، هل هو الحب أو مشكلة في الأمعاء؟ سأله لاندوڤسكي.

هزّ لوران كتفيه من البؤس.

- أعتقد أن مريولك ما زال معلّقًا حيث تركته في آخر مرّة. اذهب وارتدِه وتعالَ ساعدني في مقلة العين هذه التي أجهدت نفسك فيها قبل أن تغادرنا إلى الغابة.

- نعم بروفيسور. ثمّ مشى لوران إلى الباب ليأخذ مريوله.

- بروبي؟

- نعم بروفيسور.

- أنا واثق أنّك من الآن فصاعدًا، ستصبّ كلّ خبراتك الحديثة، الجيدة منها والسيئة، على النحت. قبل مغادرتنا كنت كفؤًا، والآن عليك أن تكون أستاذًا. المعاناة هي التي تدفع بالمرء إلى تحقيق العظمة. هل تفهمني؟ قال لاندوڤسكي بعيدًا عن التهكّم والمزاح.

فأجابه لوران بصوتٍ عالٍ:

- نعم بروفيسور، أفهمك جيدًا.

حل المساء، وكان لوران قد أنهى عمله لتلك الليلة فمسح يديه بمريوله وهو يتنهّد. وكان لاندوڤسكي قد غادر المشغل قبل ساعات لينضمّ إلى زوجته وأولاده. مشى لوران إلى المطبخ على ضوء الشموع المشتعلة ليغسل يديه من الطين. فجأة سمع عزفًا خافتًا على الكمان ينبع من مكان قريب. كان العازف يعزف بمهارة افتتاحية (The Dying Swan) الحزينة.

شعر لوران بشللٍ في يديه وهما تحت مياه الصنبور وبدموع تسيل من عينيه. هنا في هذا المطبخ، رأى إيزابيلا تهتمّ بالطفل المتشرّد وتقدّم له حبّها وحنانها، وهنا في هذا المكان عرف لأوّل مرّة أنّه يحبّها، فانهار مجددًا في البكاء على نفسه، وعليها، وعلى كلّ ما كان يجب أن يكون، لكنّه لن يكون بعد اليوم.

عندما وصلت الموسيقى إلى نهايتها، جفّف دموعه بقطعة قماش، وخرج متأثرًا يبحث عن ذلك العازف الماهر الذي ساعده على انشراح صدره وإفراغ كلّ ما احتقن في داخله منذ أن سلّمته لوين الحجر الأملس في ريو.

فجأة سمع الكمان يعزف لحنًا آخر بعنوان (Grieg's Morning Mood) الذي لطالما أثار في لوران الإحساس ببدء يوم جديد أو انطلاق بداية جديدة. فزاد ذلك من ارتياحه. حمل شمعة وتبع مصدر الصوت إلى الخارج، كان في الحديقة، وهناك ما إن رفع الشمعة وصوّبها إلى المشغل، حتى تفاجأ بذلك الصبي يجلس على المقعد وفي يده كمان محطّم. كان الصوت الذي يصدره يغطّي على مظهره المتهالك؛ صوت نقي وعذب.

ما إن أنهى المعزوفة حتى سأله مندهشًا:

- أين تعلّمت العزف بهذه الطريقة؟

وكالعادة ردّ عليه الصبي بنظرة ثاقبة.

- من أعطاك الكمان؟ لاندوڤسكي؟

فأجاب بإيماءة.

راح لوران ينظر إلى الصبي من رأسه إلى أخمص قدميه بعينين حريصتين، ويتذكّر الكلمات التي قالها له لاندوڤسكي.

- حسنًا، أنت مثل أيّ فنّان تتحدّث من خلال فنّك. أنت حقًّا موهوب. عليك أن تقدّر موهبتك، لا تنسَ.

فأومأ الصبي برأسه ورسم ابتسامة امتنان على شفتيه. عندئذ وضع لوران يده على كتفه ثمّ لوّح له مودّعًا ليعود إلى ملاهي مونبارناس ويسرح فيها غارقًا في بؤسه.

مايا

حزيران 2007

الربع الأخير

16: 54: 44

46

عندما توقّفت يارا عن الكلام، رحت أحدّق إليها، ومن ثمّ نظرت إلى الصورة المعلّقة على الحائط فوق الموقد وأنا أفكّر في الموقف الذي وجدت جدّتي إيزابيلا نفسها فيه بعد أن أُجبرت على اتّخاذ مثل ذلك القرار. لو كنت مكانها، لما كنت أعرف ماذا أفعل. وعلى الرغم من فارق الزمن والثقافة بيننا، ما تزال النساء حتّى اليوم تواجه مثل تلك المعضلات...

في النهاية سألت يارا:

- ألم يقل غوستافو لبيل إنّه اكتشف أمرها؟

- لا، أبدًا. لقد كتم السرّ في داخله. لكنّ والدتي كانت تقول إنّ عينيه لطالما عكستا العذاب الذي كان يعيشه، خصوصًا عندما كان ينظر إلى ابنته.

- تقصدين سينيورا كارفالو، صحّ؟ اسمها بياتريس، أليس كذلك؟

- نعم. ما أزال أذكر كيف كان سينيور غوستافو ينظر إليها كلّما دخل غرفة الرسم ووجدنا هناك. كنّا حينها في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرنا. كان يجلس على مقعده ويحدّق إليها طويلًا وكأنّها ليست ابنته. لم أفهم سبب نظراته تلك إلّا لاحقًا، عندما عرفت بالحقيقة. لعلّه كان يبحث عن دليل يثبت نسبها الحقيقي. فسينيورا بياتريس مولودة بعينين خضراوين، وشكلها منذ صغرها لطالما ذكّر والدتي بسينيور لوران.

- إذًا والدتك اشتبهت بأن تكون ابنته الطبيعية؟

- عندما أخبرتني بالقصة الكاملة قبل وفاتها، قالت إنّها لم تشكّ في ذلك لحظة واحدة. فسينيورا بياتريس كانت صورة طبق الأصل عن سينيور بروبي. هذا فضلًا عن المواهب الفنّية التي كانت تتمتّع بها. لقد رسمت هذه الصورة لإيزابيلا عندما كانت في سنّ المراهقة. قالت يارا وهي تشير إلى اللوحة المعلّقة على الحائط.

- ما زلت أذكر أنّها قالت إنّها سترسمها لتحيي ذكرى والدتها المتوفّاة.

- وهل ماتت إيزابيلا عندما كانت بياتريس طفلة؟

- نعم. أومأت يارا:

- كنّا أنا وهي نبلغ من العمر ثمانية عشر شهرًا. وقد حصل ذلك عندما قاموا بتنصيب تمثال الكريستو على قمّة جبل كوركوڤادو عام 1931. في تلك السنة، كان وباء الحمّى الصفراء منتشرًا في ريو وقاموا بحجرنا أنا وسينيورا بياتريس في المنزل لأيّام طويلة. لكنّ سينيورا إيزابيلا أصرّت على المشاركة في حفل التنصيب، نظرًا لأهمّية الحدث وما كان يمثّله بالنسبة إليها. وبعد ثلاثة أيام، أُصيبت بالحمّى الصفراء ولم تشفَ منها، فتوفّيت في الواحد والعشرين من عمرها.

شعرت بغصّة لقدرها. على الرغم من أنّ فلوريانو ذكر أمامي تاريخ ميلادها ووفاتها من السجّلات الرسمية، إلّا أنّني لم أعر انتباهًا لموتها المبكر.

- عدا عن أنّها عاشت حياة مضطربة مليئة بالمآسي، لقد ماتت في سنّ مبكرة. قلت وأنا أشعر بخنقة في صدري.

- هذا صحيح، وسامحني يا رب على ما سأقوله. تابعت يارا.

- الأمر الإيجابي الوحيد الذي حدث في ذلك الوقت هو إصابةُ لويزا أيضًا بالحمّى الصفراء، وقد حصل ذلك في غضون أيام، وتوفيت هي أيضًا على الفور فأقيمت الصلاة عليهما معًا في جنازة واحدة ودُفنتا جنبًا إلى جنب في مقبرة العائلة.

- يا إلهي، مسكينة بيل، لقد حتّم عليها القدر أن ترقد إلى جانب تلك المرأة إلى الأبد. تمتمت قائلة.

- وأن تترك ابنتها الصغيرة يتيمة الأم لتعيش وحدها في بيت كلّه رجال. تابعت يارا.

- وبالتالي تستطيعين أن تتصوّري مدى انهيار والدها بعد وفاة زوجته. فعلى الرغم من كلّ ما حدث، بقي يحبّها إلى الأبد. وهذا ما دفعه إلى الهروب من الواقع فغرق مجددًا في إدمانه على الكحول. وكان سينيور مَوريسيو قد بذل قصارى جهده في الاعتناء بحفيدته. لطالما كان ذاك الرجل لطيفًا خصوصًا بعدما توفّيت زوجته. كان هو من وجد لسينيورا بياتريس معلّمًا ليعطيها الدروس في المنزل وليس والدها.

- هل كنت تعيشين معهم في المنزل في ذلك الوقت؟

- نعم. فعندما أخبرَت والدتي سينيورا إيزابيلا بأنّها حامل هي أيضًا، وطلبت نقلها إلى المزرعة لتكون بجانب والدي، لم تتحمّل إيزابيلا فكرة ابتعادها عنها. لذلك، وبدلًا من السماح لها بالرحيل رتّبت لمجيء والدي برونو إلى هنا كي يعمل سائقًا عند العائلة بعد أن أوشك خورخي على التقاعد. يمكن لك أن تقولي إنّني قضيت طفولتي في هذا المنزل. أعتقد أنّ عدد ذكرياتي السعيدة يفوق عدد ذكريات سيّدتي.

- يدهشني أن يكون غوستافو قد وافق على طلب إيزابيلا بإبقاء لوين هنا وإحضار برونو للعمل مع العائلة. فهي الشخص الوحيد الذي كان يعرف تلك الحقيقة المرّة عن إيزابيلا غيره هو.

- ربّما شعر بضرورة الموافقة عليهما. قالت يارا وقد بدا لي أنّها كانت تعني ما كان يحصل في ذلك الوقت.

- بغض النظر عن كونه كان هوّ السيّد وهي الخادمة، فقد أعطى ذلك السرّ سلطة لكلّ واحد على الآخر.

- إذًا أنت نشأت مع بياتريس؟

- نعم أو بالأحرى هي التي نشأت معنا. كانت تقضي وقتًا أطول في منزلنا الصغير، الذي أصرّت سينيورا إيزابيلا على بنائه لعائلتنا في أسفل الحديقة، من

الوقت الذي كانت تمضيه في منزلها. وهكذا أصبحت عائلتي أقرب إليها من عائلتها. كانت في صغرها فتاة جميلة، حنونة، ومحبّة، لكنّها كانت وحيدة. قالت يارا بصوت حزين.

أضافت: ولأنّ والدها كان يبقى طوال الوقت ثملًا، لم يكن واعيًا إلى مكان وجودها، أو ربّما كان يتجاهلها عن قصد بسبب شكوكه في إخلاص زوجته قبل وفاتها. وعندما مات، كانت سينيورا بياتريس قد بلغت السابعة عشرة، فأتى موته في صالحها، لأنّها ورثت هذا المنزل وكلّ الأسهم والأموال النقدية التي كانت تملكها العائلة. وكان سينيور غوستافو قد رفض السماح لها بمتابعة شغفها الفنّي، لذلك لم يعد أمامها أيّ عائق عندما توفّي.

- أفهم لماذا عارض غوستافو مواهب ابنته الفنية. يبدو أنّها كانت تصبّ الملح على جرحه المفتوح. في الواقع لا يسعني إلّا أن أشعر بالتعاطف معه. اعترفت ليارا.

- لم يكن رجلًا سيئًا سينيوريتا مايا، بل كان ضعيفًا. وعندما بلغت بياتريس الثامنة عشرة، أخبرت جدّها بأنّها ترغب في الذهاب إلى باريس لتدرس في المدرسة الوطنية العليا للفنون الجميلة، مثلما فعلت والدتها من قبل. وهناك، قضت أكثر من خمس سنوات، ولم تعد إلى ريو إلّا بعد أن عرفت بوفاة جدّها مَوريسيو.

رأيت يارا تبتسم وهي تقول:

- أعتقد أنّها عاشت مغامرات كثيرة هناك، وكنت سعيدة من أجلها.

الصورة التي رسمتها يارا عن تلك المرأة التي التقيتها في الحديقة قبل خمسة أيام، اختلفت تمامًا عمّا استحضرته في ذهني. كنت أتخيّلها شبيهة بلويزا، ربّما لأنّها كانت متقدّمة في السن ومصمّمة على عدم الاعتراف بي.

- وماذا حدث لأنطونيو؟

- آه، لقد نجح في تخطّي المحنة التي مرّ بها، كما توقّعت له أمّي. قالت يارا مبتسمة.

- انتقل للعيش في الفازندا سانتا تيريزا، ومع المساعدة المالية القليلة التي حصل عليها من غوستافو، تمكّن من شراء مزرعة طماطم. هل تذكرين؟ لقد أخبرتك من قبل أنّها كانت الركيزة المالية لباتي دو ألفريس. وتبيّن أن سينيور أنطونيو كان يتحلّى بذهن مبرمج على إدارة الأعمال، لذلك بحلول ساعة وفاته، كان قد بنى ما يمكن اعتباره إمبراطورية طماطم، بعد أن امتلك من جديد معظم المزارع المحلية التي كانت تحيط بالمزرعة. وكانت سينيورا بياتريس مثل أمّها سينيورا إيزابيلا، تحبّ الذهاب كثيرًا إلى هناك. كان جدّها يعشقها، فعلّمها ركوب الخيل والسباحة. وترك لها كلّ المزارع، هي اليوم مصدر دخلها الوحيد منذ وفاة زوجها. وعلى الرغم من أنّها لا تدرّ عليها المال الوفير لكنّه يكفي لدفع الفواتير.

- ومن كان زوج بياتريس، أي جدّي؟

- إيفاندرو كارفالو. كان عازف بيانو موهوبًا جدًّا ورجلًا صالحًا يا سينيوريتا مايا، وقد بُنيت علاقتهما على حب حقيقي. فبعد الطفولة الصعبة التي عاشتها سينيورا بياتريس، سررنا كثيرًا في العائلة برؤيتها سعيدة، ربّما لأوّل مرّة في حياتها. وكانا هما من أعادا الحياة إلى هذا المنزل، بعد أن أصبحا يقيمان الأمسيات الفنّية فيه ويدعوان كلّ مجتمع ريو إليها. كما أنّهما أسّسا جمعية خيرية لجمع التبرّعات، ومن ثمّ وهبها إلى الأحياء الفقيرة في المدينة. أؤكد لك يا سينيوريتا مايا، أنّ تقدّمها في العمر ومعاناتها المزمنة من الألم قد أثّرا عليها كثيرًا وسلبًا، ويؤسفني القول إنّه لم يبقَ أمامها وقت طويل. لقد كانت جميلة جدًّا في شبابها، وكلّ من عرفها أحبّها كثيرًا واحترمها أيضًا.

- يؤسفني أنّني لم أحظَ برؤية ذلك الجانب منها. فكّرتُ بصوتٍ عالٍ.

- أجل. تنهّدت يارا بعمق وقالت:

- لكنّ الموت حقّ وكلّنا سنرحل عن هذه الدنيا.

- وهل رُزقت بياتريس بطفل؟ تجرّأت أخيرًا على طرح السؤال الذي بقي يدور في ذهني طوال عشر دقائق.

رأيت عينَي يارا تجولان في ريبة داخل الغرفة قبل أن تجيب: نعم.

- واحد فقط؟

- في الحقيقة لقد رُزقا بطفلين، لكنّ أحدهما مات وهو رضيع. لذلك يمكننا القول إنّهما رُزقا بطفلٍ واحد.

- وهل كانت فتاة؟

- نعم.

- اسمها كريستينا، صحّ؟

- نعم، سنيوريتا مايا. كنت أنا من ساعد في تربيتها.

توقفت عن الكلام للحظة، إذ لم أكن واثقة مما كان عليّ قوله بعد ذلك. وفي الوقت نفسه، شحّت الكلمات التي بقيت تتدفّق طوال الساعة الماضية من فم يارا مثل جدول مياه. فنظرت إليها بترقّب وأنا أرغب في أن تواصل مثلما بدأت.

- سينيوريتا، لا أعتقد أنّني أخطأت بحقّ أحد عندما أخبرتك بما حصل في الماضي، لكن ليس من حقّي أن أقول أكثر، فالباقي ليس قصّتي لأرويها لك.

توسلتُ إليها:

- إذًا قصة من هي؟

- تلك هي قصة سينيورا بياتريس.

شعرت باليأس لأنني كنت أضغط عليها أكثر، وتمكّنت من رؤية ذلك بأم عيني عندما بدأت تنظر بقلقٍ إلى عقارب الساعة التي تدقّ على الحائط.

ثمّ وضعت يدها في أحد جيوبها الضخمة وسلّمتني أربعة مظاريف بعد أن قالت:

- لديّ شيء لك». وكأنّها كانت تعوّض بها عجزها عن المواصلة في الحديث.

- هذه هي الرسائل التي أرسلها لوران بروويي من خلال والدتي لوين إلى سينيورا إيزابيلا، عندما أقاموا في المزرعة قبل وفاة سينيورا كارلا، لا بدّ من أن تظهر لك مدى حبّهما، أكثر ممّا وصفته لك أنا.

- شكرًا. قلت لها وهي تنهض عن الكرسي. وقمعت رغبتي الجامحة في احتضانها للامتنان الكبير الذي شعرت به بعد أن عرّفتني أخيرًا إلى عائلتي، وجعلتني أكتشف القصة المأسوية التي عاشتها.

- والآن حان الوقت لأعود إلى سينيورا بياتريس.

- بالطبع. أجبتها وأنا أنهض بدوري وأشعر بتجمّد الدم في عروقي من شدّة التوتّر، بعدما حاولت استيعاب كلّ كلمة قالتها لأتقرّب أكثر من أجدادي.

- سأرافقك إلى الباب يا سينيوريتا.

- إذا رغبت في أن أرافقك إلى الدير، تأكّدي من أنّ ذلك لن يزعجني. اقترحت عليها ونحن نمشي في الممر عائدتين إلى القاعة الكبرى الموجودة عند المدخل.

- هناك سيّارة تنتظرني في الخارج» أضفت عندما فتحت الباب.

- شكرًا لك، لكن ما زال أمامي مهامّ لأنهيها. قالت وهي تحدّق إليّ وتنتبه إلى تردّدي.

- شكرًا على ما أخبرتني به. هل تسمحين لي بسؤال أخير؟

- هذا يعتمد على مضمون السؤال. وشعرت بأنّها كانت تدفعني بعينيها إلى عتبة الباب لتستعجلني الرحيل.

- هل أمّي لا تزال حيّة؟

تنهّدت يارا وقالت:

- لا أعرف يا سينيوريتا مايا. حقًّا لا أعرف، ولا أقول ذلك من باب التهرّب.

فهمت أنّ لقاءنا قد وصل إلى نهايته ولم تكن تريد قول مزيد.

- وداعًا يارا. قلت لها وأنا أهبط السلالم على مضض.

- من فضلك انقلي تحيّاتي إلى سينيورا بياتريس.

في البدء، لم تردّ، وبعد أن أصبحت عند النافورة الحجرية المهترئة سمعتها تقول:

- سأتحدّث إليها يا سينيوريتا، مع السلامة.

وسمعت الباب يُغلق بقوّة. مشيت في الممرّ إلى أن بلغت البوابة الحديدية الصدئة وفتحتها بيدي ثمّ أغلقتها خلفي وعبرت الطريق وأنا أنظر إلى السماء الغائمة التي تنذر بهبوب عاصفة.

- كيف كان اللقاء؟ سألني فلوريانو الذي كان يجلس على العشب في الظل عند حافة الطريق، وتحت أقدامه كومة من أعقاب السجائر المتناثرة في كلّ مكان.

- عرفت الكثير من التفاصيل.

- ممتاز. قال وهو ينهض عن الأرض ويفتح باب السيّارة.

انطلقنا على الفور، وبقينا صامتين طوال الطريق ونحن عائدان إلى إيبانيما، وشعرت بأنّني كنت بحاجة إلى الوقت لأعود من ذلك الماضي المرير إلى حاضري. بقيت أفكّر في القصة إلى أن بلغنا فناء الفندق.

التفت فلوريانو إليّ وقال: «أنا متأكّد من أنّك تشعرين بالإرهاق وتحتاجين إلى البقاء على انفراد لبعض الوقت. تعرفين أين تجدينني إذا احتجت في وقتٍ لاحقٍ إلى مشاركة وجبة طعام مع أحد أو إلى رفقة. وأضاف ممازحًا: أعدك بأنّني سأكون أنا الطاهي هذه الليلة وليس ابنتي». أجبته وأنا أترجّل من السيّارة: «شكرًا على كلّ شيء». فأومأ برأسه ثمّ انطلق مغادرًا على وجه السرعة.

عندما دخلت إلى الفندق، شعرت بأمر غريب لم أفهمه في البدء، شعرت بساقيّ كأنهما شجرة متجذّرة في الأرض وكنت مضطرّة إلى رفعهما بصعوبة كلّما أردت أن أخطوَ خطوة واحدة لأتقدّم إلى الأمام. عبرت الردهة على مهل، ثمّ أخذت المصعد إلى الطابق العلوي، ومشيت إلى جناحي مثل شخص أفرط في الشرب. وعندما وصلت إلى الباب بذلت ما تبقّى لي من قوّة لأفتحه. فدخلت الغرفة ورميت بنفسي فوق السرير، وغفوت.

استيقظت بعد ساعتين وأنا أشعر بصداع أليم، وكأنّي أستيقظ بعد إفراطي في الشرب. أخذت إيبوبروفين مع الماء لأعالج الصداع، وبقيت مستلقية في مكاني

أستمع إلى هدير العاصفة وهي تقترب بعد أن تلبّدت السماء بالغيوم الرمادية. كنت من شدّة الإرهاق، عاجزة عن الحركة، لذلك غفوت مجددًا واستيقظت بعد ساعة، فوجدت أنّ العاصفة حلّت ضيفة على ريو، بعد أن تفاجأت من وميض البرق وهدير الرعد وانشقاق السماء المظلمة نصفين فوق الأمواج العاتية.

حين سمعت طقطقة قطرات المطر فوق زجاج نافذتي، نظرت إلى ساعتي فوجدتها قد قاربت السابعة مساءً. أمسكت بكرسي ووضعته قبالة النافذة وجلست هناك أشاهد هطول المطر. كانت حباله غزيرة لدرجة أنها كانت ترتد من فوق السطوح الصلبة على الطرقات والأرصفة فتتجمّع وتتحوّل تيّارات متموّجة. فتحت النافذة لأخرج رأسي فأشعر بالقطرات الباردة تبلّل شعري وتلتف حول كتفيّ.

فجأة بدأت أضحك بصوتٍ عالٍ. كنت مسرورة ممّا ولّدته قوة الطبيعة عندي من شعور رائع. في تلك اللحظة، تخيّلت أنّني جزء من تلك الزوبعة التي تصل الأرض بالسماء، ولم أفهم سبب ذلك. كلّ ما كان يهمّني هو أنّني كنت مبتهجة لشعوري بأنّني جزء منها.

مرّت لحظات تراءى لي بعدها أنّني إن تأخرت في إغلاق النافذة سأغرق، فسحبت رأسي إلى الداخل، وركضت إلى الحمام لأستحمّ، وإذ بقطرات المطر التي بلّلتني تتناثر فوق السجادة. خرجت من الحمّام أشعر بتعافيّ من الصداع وبانتعاش ولّدته تلك العاصفة الهوائية التي شعرت بها من حولي. فاستلقيت على السرير مجددًا ورحت أنظر إلى الرسائل التي أعطتها لي يارا، وحاولت أن أفهم كلّ ما أخبرتني به. وعلى الفور تذكّرت فلوريانو، فرحت أفكّر في صبره الطويل الذي جعله ينتظرني كلّ فترة بعد الظهر في السيّارة وإلى الحسّ المرهف الذي أظهره بعد ذلك. ثمّ فكّرت في نفسي، مهما احتوت تلك المظاريف أريد أن أشاركه مضمونها. بحثت عن هاتفي واتّصلت به.

- مرحبا فلوريانو، هذه أنا مايا.

- مايا، كيف تشعرين الآن؟

- أراقب العاصفة، لم أرَ شيئًا مثل هذا من قبل.

- هي بالتأكيد واحدة من الأشياء التي يمكننا نحن الكاريوكا أن نتباهى بها على خلاف الآخرين. هل ترغبين في المجيء إلى منزلي لتناول العشاء؟ يؤسفني القول إنّه لن يكون هناك شيء مميّز، يكفي أن نتشارك اللقمة.

- إذا توقف المطر، نعم سآتي. تسرّني دعوتك.

- بالنظر إلى السماء الآن، لن يطول المطر أكثر من بضع دقائق، لذلك سأنتظرك بعد عشرين دقيقة، اتّفقنا؟

- نعم، شكرًا لك يا فلوريانو.

- استمتعي ببرك المياه وأنت في طريقك إلى هنا. وسمعت ضحكة عبر السمّاعة.

- وداعًا.

بعد تسع دقائق، نزلت من غرفتي وخرجت من الفندق، فغرق شبشبي «الهاڤانياس» إلى كاحليّ في برك المياه المتناثرة في الخارج والتي كانت لا تزال تتدفق فوق الأرصفة إلى أسفل مصارف المجاري. فشعرت مجددًا بانتعاش الهواء، كما انتبهت إلى عودة السكان المحليّين إلى الشارع.

نقرت على زر هاتف المبنى الذي يحمل اسم فلوريانو، وعندما صعدت السلالم، وجدته أمام مدخل الشقّة يستقبلني وهو يضع أصبعه على شفتيه ويهمس:

- لقد نجحت لتوّي في جعل فالنتينا تنام، إذا شعرت بوجودك ستستيقظ على الفور.

أومأت له برأسي من دون أن أنطق بكلمة، وتبعته إلى الشرفة في الطابق العلوي، فتفاجأت بأنها ما تزال دافئة وجافة تحت السقف المائل.

- اسكبي لنفسك كأسًا من النبيذ بينما أنزل إلى تحت لأحضّر العشاء.

صببت لنفسي قليلًا من النبيذ الأحمر وأنا أشعر بالذنب لأنّني لم أحضر في يدي شيئًا، فعاهدت نفسي بأن أدعوه في المرّة القادمة إلى العشاء في الخارج لأردّ له حسن الضيافة. كان فلوريانو قد أشعل الشموع الموضوعة على الطاولة بعد

أن حلّ الظلام، وكان قد شغّل موسيقى الجاز التي كانت تخرج بصوتٍ خافتٍ من مكبرات الصوت الموضوعة في مكان ما فوقي. وعلى الرغم من أنّنا كنّا في وسط مدينة تغلي من كثرة الازدحام، إلّا أنّ الجو كان هادئًا نسبيًّا.

- هذا المساء لدينا أنشيلاداس مع المقبّلات. قال وهو يعود حاملًا صينية بين يديه.

- عندما زرت المكسيك قبل بضع سنوات، وقعت في حب أطباقهم.

نهضت لأساعده في مدّ طبق الأنشيلاداس وكاسات الجواكامولي وصلصة القشدة الحامضة على المائدة، وأنا أفكّر إذا ما كانت تلك وجبته المعتادة كلّ مساء.

- تفضّلي، أنت في منزلك. قال ليشجّعني وهو يجلس.

كنت أشعر بالجوع لذلك التهمت طبقي، فتفاجأت ببراعته في تحضير الطعام. أشكّ في أنّني سأكون قادرة على تحضير وجبة بسيطة مثل هذه بسرعة وسهولة متناهية. وتذكّرت بأسى أنّني لم أحضّر لدعوة عشاء منذ زمن بعيد أي منذ أن انتقلت إلى جنيف قبل ثلاث عشرة سنة.

قال فلوريانو وهو يشعل سيجارته، بعد أن انتهينا من الطعام:

- إذًا، هل اكتشفت كلّ ما كنت بحاجة إلى معرفته؟

- عرفت أمورًا كثيرة لكنني لم أجد ما جئت من أجله إلى البرازيل.

- أفترض أنّك تقصدين والدتك، صحيح؟

- نعم. قالت لي يارا إنّ تلك ليست قصّتها لترويها لي.

- أفهمها. وافق فلوريانو.

- خصوصًا إذا كانت والدتك ما تزال على قيد الحياة.

- عندما سألتها إذا كانت حيّة أجابت بأنّها لا تعرف، وصدّقتها.

- حسنًا... قال فلوريانو وهو ينظر إليّ باهتمام.

وماذا ستفعلين؟

- لست واثقة، لكنني أتذكّر قولك لي إنّك لم تعثر على وثيقة وفاة باسم كريستينا في السجلات الرسمية.

- كلّا، لم أجد شيئًا من هذا، لكنّنا لا نعرف إذا كانت قد غادرت البرازيل وتعيش في الخارج. مايا، هل من مشكلة إذا أخبرتني بالقصة التي روتها لك يارا اليوم؟ أعترف، بعد كلّ ما وصلنا إليه، أنّني حريص على اكتشاف كامل القصة.

- كلّا، ولكن بعد أن تعدني بأنك لن تنفّذ ما هدّدت به وتنشرها في إحدى رواياتك. قلت له وأنا ألمّح إلى حقيقة شعوري بمزاح.

- أنا أؤلّف الروايات الخيالية يا مايا. وهذه القصة من محض الواقع، لذلك أعدك بأنّه لن يحصل.

وخلال النصف ساعة التالية، أطلعت فلوريانو على كلّ ما تذكّرته من رواية يارا. ثمّ مددت يدي إلى حقيبتي وأخرجت المظاريف الأربعة التي أعطتها لي قبل أن أغادر ذلك المنزل.

- لم أفتحها بعد، ربّما لأنّني أشعر بالتوتّر نفسه الذي شعر به غوستافو عندما فتح الرسالة التي انتشلها من لوين. قالت يارا إنّ لوران كتبها لإيزابيلا خلال فترة إقامتها في المزرعة قبل وفاة والدتها. أريدك أن تبدأ بقراءة الرسالة الأولى.

- يسرّني ذلك. أجابني وقد أشرقت عيناه من البهجة.

- كنت أعرف أنّ ذلك سيكون بمنزلة اكتشافه دليلًا قاطعًا على حلقة مفقودة من لغز تاريخي.

رحت أشاهده وهو يسحب الرسالة المصفرّة من المظروف الأول ويباشر بالقراءة. وعندما أنهاها، نظر إليّ فشعرت بتأثّره.

- حسنًا، قد يكون لوران برويي نحّاتًا عظيمًا، لكنني، بقراءتي لهذه الرسالة، اكتشفت أن لديه ملكة الكتابة أيضًا. غريب كيف أنّ كلّ ما يُكتب بالفرنسية يبدو أكثر شاعرية؟». قال وهو يعيد إليّ الرسالة.

- اقرئي هذه بينما أقرأ الثانية لعلّها تحيي ذاكرتي في الفرنسية مثل تلميذ الثانوية.

- يا إلهي، هذه الرسائل توشك على أن تجعل عجوزًا متهكّمًا مثلي يذرف الدموع. قال بعد مرور بضع دقائق، وكأنّه كان يقرأ أفكاري.

- أنت على حقّ. فعلى الرغم من أنّ يارا قد أخبرتني مطوّلًا عن علاقة الحبّ التي ربطت بيل بلوران، لكن قراءة هذه الرسائل توثّقها بطريقة أدقّ. كم أحسد بيل على الرغم من أنّ قصّتها انتهت بمأساة. اعترفت له وأنا أسكب لنفسي كأسًا أخرى من النبيذ.

- هل سبق لك أن عشت قصة حب؟ سألني فلوريانو بطريقته المباشرة.

- نعم مرّة واحدة. قلت له بإيجاز.

- أعتقد أنّني ذكرت ذلك من قبل وأخبرتك أنّ الأمر لم ينجح بيننا.

- آه نعم. يبدو لي أنّ تلك التجربة تركت فيك ندوبًا لمدى الحياة.

- كانت تلك القصة أكثر تعقيدًا ممّا تبدو عليه. قلت لأبرّر نفسي.

- كلّ قصص الحبّ معقّدة، ومثال على ذلك حبّ بيل ولوران. وإذا قرأت هذه الرسائل، فيمكن لك أن تفترض أنهما مجرّد رجل وامرأة وقعا في حب واحدهما الآخر.

- حسنًا، أول علاقة غرامية لي بدأت هكذا، لكنّها لم تنتهِ على المنوال نفسه. قلت، وأنا أهزّ كتفيّ. ثمّ رأيته يمدّ ذراعه ليسحب سيجارة أخرى فقلت له:

- هل تمانع إذا دخّنت معك؟

- مُطْلَقًا. قال وهو يقدّم لي العلبة.

أشعلت سيجارة ورحت أدخّنها ثمّ قلت له وأنا أبتسم:

- هذه أوّل سيجارة أدخّنها منذ أيّام الجامعة.

- حسنًا، أتمنّى لو كنت قادرًا على قول الأمر نفسه. فالنتينا تحاول إقناعي بالإقلاع عنها، فربّما أنجح ذات يوم. قال وهو يسحب نفسًا عميقًا.

- ذلك الحب الذي حطّم قلبك... هل تودّين أن تخبريني عنه؟

بعد أن التزمت الصمت حول الموضوع طوال أربعة عشر عامًا، وحرصت بشتّى الطرائق على اجتناب التطرّق إليه، وجدت نفسي جالسة على سطح أحد مباني ريو مع رجل غريب، على استعداد لإخباره بكلّ شيء.

قبل أن أجيب قال فلوريانو:

- لا تعتبري نفسك مجبرة على فعل ذلك يا مايا. لعلّه قال ذلك بعد أن رأى الخوف في عينيّ.

في الصميم، كنت أعلم أنّ ذهابي إليه في تلك الليلة كان رغبتي في مفاتحته بالموضوع. فالقصة التي سمعتها في الأيام القليلة الماضية، ووفاة پا سولت التي لم يمرّ عليها وقت، قد أحيتا ألمي وشعوري بالذنب لما ارتكبته ذات يوم. ومن ثمّ، كنت أعرف واقع فلوريانو وظروف حياته التي يعيشها والتي عكست صورة شبيهة بما كانت على حياتي أن تكون.

- سأخبرك. قلت له قبل أن أبدأ بالانهيار.

- عندما كنت في الجامعة، تعرّفت إلى شخص ما. كان يكبرني بعامين، قابلته في الفصل الأخير من سنتي الدراسيّة الثانية، ومن سنته الأخيرة قبل أن يتخرّج ويحصل على شهادته. فوقعت في حبّه وأنا لا أزال غير ناضجة وغير مسؤولة. وعندما عدت إلى البيت لأقضي العطلة الصيفية، اكتشفت أنّني حامل، وكان الأوان قد فات للقيام بأي شيء. لذلك... تنهّدت وأنا أفكّر في أنّه يجب عليّ أن أختصر في الكلام قبل أن أنهار.

- ساعدتني مارينا، المرأة التي ذكرتها لك، والتي ربّت الفتيات الستّ، ورتّبت لرحلة بعيدة حتّى أتمكّن من إنجاب الطفل في الخفاء. ومن ثمّ... توقّفت عن الكلام مؤقتًا لأستجمع قواي وأنجح في المتابعة.

- ما إن وُلِد الطفل حتى تخلّيت عنه على الفور.

بعد أن شربت جرعة كبيرة من النبيذ، ضغطت بقبضتيّ على عينيّ لأمنع سيل دموعي التي كانت على وشك أن تنهمر.

- مايا، تستطيعين البكاء إذا أردت. قال فلوريانو بهدوء.

- أنا أحترم حزنك كثيرًا.

- المشكلة أنّني... لم أخبر يومًا أحدًا بذلك. اعترفت له وأنا أشعر بقلبي وكأنّه سيخرج من صدري.

- وأنا محرجة وأشعر بالخجل ممّا فعلت...

بدأت الدموع تنهمر على الرغم من أنّني بذلت قصارى جهدي لإيقافها. فاقترب فلوريانو منّي وجلس بجواري على الأريكة، ثمّ أخذني بين ذراعيه، وراح يمسّد شعري وأنا أتفوّه بكلمات غير مترابطة فحواها أنّه كان عليّ أن أتحلّى بالقوّة لأحتفظ بالطفل مهما يكلّف الأمر، وأنّني مع كلّ يوم جديد، أعيش تلك اللحظة المروّعة التي سلخوا فيها طفلي عنّي بعد دقائق على ولادته.

- قلت له باكية: لم يسمحوا لي برؤية وجهه... قالوا إنّ هذا...

لم يظهر فلوريانو لي أيّ تعاطف، ولم يقل أيّ تفاهة، وبقي يستمع إليّ حتّى فجّرتني آخر ذرّة من يأسي مثل البالون المعبأ بالهواء، وتركتني في حالة من الإرهاق العاطفي. كنت ما أزال ألقي برأسي على صدره، وأنا أتساءل. ما الذي يدفعني بحقّ السماء إلى إخباره بسرّي الرهيب.

بقي فلوريانو صامتًا حتّى النهاية، فسألته:

- هل صُدِمت؟

- لا، بالطبع لا. ولماذا سأُصدم؟

- ولماذا لا تُصدم؟

قال وهو يتنهّد لحزنه من أجلي:

- لأنّك فعلت ما كنت تعتقدين أنّه الأصحّ في ذلك الوقت، في ظل الظروف التي كنت تواجهينها. ولا جريمة في ما قمت به.

- هذا يعنى أنّ القَتَلَة أيضًا يحقّ لهم أن يعتقدوا بأنّ ما فعلوه كان صحيحًا. أجبته بنبرة حازمة.

- مايا، كنت صغيرة حينها وخائفة، وأفترض أنّ الأب لم يكن موجودًا ليصحّح ذلك الوضع أو حتّى ليدعمك؟

قلتُ له وقد انتابتني قشعريرة: «لا»، بعدما تذكّرت آخر محادثة لي مع زيد في نهاية ذلك الصيف.

- بالنسبة إليه كانت مجرّد علاقة عابرة. كان على وشك التخرّج والبدء ببناء مستقبله. فأخبرني بأنّه لا يؤمن بالعلاقات من بعد، وبأنّنا استمتعنا كثيرًا وكان على علاقتنا أن تقف عند ذلك الحدّ الجميل لكي لا تسوء الأمور بعد ذلك. فبقينا أصدقاء.
قلت له وأنا أكتم ضحكة قاتمة في صدري.

- ألم تقولي له إنّك حامل؟

- لم أدرك أنّني حامل إلّا بعد أن وصلت إلى المنزل ورأتني مارينا فأخذتني إلى الطبيب ليؤكّد لنا الخبر. في ذلك الوقت، كنت مستعدّة للقيام بأيّ شيء باستثناء إنجاب هذا الطفل. كنت ما أزال ساذجة وغير ناضجة. كنت غارقةً في الحب وعلى استعداد لفعل أي شيء يرضيه. وقد وبّخت نفسي على تلك الغلطة.

- أفترض أنّك تقصدين عدم إفساد متعته وهو معك بوسيلة منع الحمل؟

- نعم. أجبته وأنا أخبّئ احمرار وجهي داخل قميصه.

- مع ذلك كان عليّ أن آخذ حذري أكثر، ففي النهاية لم أكن طفلة. أعتقد أنّني استبعدت أن يحدث لي ذلك.

- لست الشابة الوحيدة التي كانت تفتقر إلى الخبرة يا مايا. هناك كثيرات من مثيلاتها خصوصًا عندما تكون علاقة الحبّ هي الأولى في حياتهنّ. هل حدّثت والدك عنها؟ إذ بدا لي أنّك كنت قريبة منه.

- كنّا قريبَيْن صحيح، لكن ليس لدرجة أن أخبره بهذه التفاصيل. ربّما سيصعب عليّ أن أشرح لك، لكنّني كنت صغيرته الجميلة، وأوّل طفلة تبنّاها. وقد بنى آمالًا كبيرة عليّ لأنّني كنت أحلّق في دراستي في جامعة السوربون وأحصل على أعلى الدرجات. ولأكون صريحة أكثر، فضّلت الموت على إخباره بما اقترفته من عمل غبي.

- وماذا عن مارينا؟ ألم تحاول إقناعك بإخباره؟

- بلى حاولت كثيرًا، لكنّني رفضت قطعيًّا. لم أجرؤ على كسر قلبه.

- وبدلًا من ذلك، كسرت قلبك.

- في ذلك الوقت، لم يكن لديّ خيار أنسب.

- أفهمك.

بعد ذلك، صمتنا لبعض الوقت ونحن لا نزال جالسَيْن على الأريكة. كنت أحدّق إلى الشمعة التي تومض في الظلام وتخفّف من ذلك الألم الذي نتج عن القرار الذي اتّخذته قبل سنوات.

- لا بدّ من أنّك فكّرت سابقًا في أنّ والدك تبنّى بدوره ستّ بنات وربّاهنّ بمفرده. قال فلوريانو.

- لذلك أرجّح أنّه كان سيفهم أكثر من غيره المأزق الذي وجدت نفسك فيه».

- لقد حدث بالفعل، لكن في وقت متأخّر. قلت وأنا أُرخي كتفيّ من اليأس. منذ وفاته وأنا لم أكفّ عن التفكير في ذلك. لا أستطيع شرح ما كان يمثّله پاي بالنسبة إليّ، كنت أتطلّع إليه بهيبة وأتوق إلى رضاه في كلّ ما أفعل.

- أكثر من توقك إلى مساعدته. قال فلوريانو.

- لم يكن خطأه، إنّما خطأي أنا. أجبته وأنا أرمي في وجهه الحقيقة.

- حينها لم أكن أثق به أو بحبّه لي. أمّا اليوم فأنا متأكدة من أنّني لو أخبرته حينها لكان وقف إلى جانبي، ولكان... تلاشى صوتي إلى حدّ الهمس وعادت الدموع تنهمر مجدّدًا من عينيّ.

- عندما أراك أنت وفالنتينا معًا أفكّر في حياتي التي كانت ستشبه حياتكما الآن، لو تحلّيت بالشجاعة وقوّيت نفسي، لئلا أتسبّب بالفوضى التي أحدثتها في حياتي.

أجاب فلوريانو بنبرة حزينة:

- ومن منّا لا يرتكب الأخطاء ولا يأسف عليها لاحقًا يا مايا. كم أتمنّى اليوم لو كنت أكثر جزمًا مع الأطباء عندما طلبوا منّي إخراج زوجتي من المستشفى وأنا على يقين بأنّها كانت ما تزال مريضة. ربّما لو تصرّفت على ذلك النحو لكانت ابنتي اليوم

تعيش مع أمّها وأنا مع زوجتي. لكن هل سينفعني ندمي هذا في شيء؟

قلت له:

- لكنّني تخلّيت عن طفلي بسبب أنانيّتي وليس لأنّني كنت فقيرة أو بسبب الحرب، وهذه أبشع جريمة قد يرتكبها المرء.

- كلّ واحد منّا يعتبر خطأه الأسوأ على الإطلاق. من منّا لا يشعر بالذنب تجاه أخطائه يا مايا؟ خصوصًا إذا اخترنا أن ندفنها في أعماقنا لوقت طويل مثلما تفعلين أنت. أنا أشعر بالحزن عليك من دون أن ألومك. وأعتقد أنّ أيّ شخص يسمع هذه القصة سيشعر مثلي. لا أحد سيلومك مايا، أنت وحدك تلومين نفسك. أرجو أن تكوني مدركة الأمر؟

- بلى، أنا مدركة ذلك. لكنّني لست قادرة على فعل شيء حياله؟

- بل عليك أن تسامحي نفسك بكلّ بساطة، لأنّك إذا لم تفعلي، لن تنجحي في المضيّ قُدُمًا. وأنا أقصد حرفيًّا ما أقوله الآن لأنّني مررت بالتجربة نفسها.

- لا يمرّ يوم واحد إلّا وأفكر فيه أين يمكن لابني أن يكون. هل هو سعيد؟ هل حظي بوالدين حنونين؟ وأحيانًا أسمعه يبكي في منامي، من دون أن أقدر على رؤيته...

- أفهمك تمامًا، لكن ألست أنت أيضًا ابنة بالتبنّي؟ إذًا، هل عانيت يومًا بسبب ذلك الوضع؟ سألني فلوريانو.

- لا، لأنّني لم أعرف حياة أخرى.

- بالضبط، أنت الآن تجيبين نفسك بنفسك. قلت لي في السابق إنّه لا يهمّ من يربّي الطفل طالما أنّه محاط بالحبّ. وهذا ينطبق على ابنك أيضًا بغض النظر عن المكان الذي هو فيه. أراهن أنّك الشخص الوحيد الذي يعاني هنا بسبب ما حدث. والآن أشعر برغبة في تناول كأس براندي. ثمّ نهض وذهب إلى رف ضيّق وأخرج منه زجاجة.

- هل تريدين كأسًا؟ سألني وهو يسكب قليلًا.

- لا، شكرًا. ثمّ مشى باتجاه الشرفة ليشعل سيجارة، وبقي هناك ينظر إلى الظلام في الخارج. شعرت حينها بشيء من الضعف والخوف، فنهضت على الفور لألحق به.

- هل تدركين أنّ كلّ ما عرفتِه مؤخّرًا عن عائلتك هو السبب في تنشيط عذابك تجاه ابنك؟

- نعم. قلت له.

- خصوصًا أن پا سولتّ أراد لنا، نحن بناته بالتبنّي، أن نعرف أصلنا إذا رغبنا في ذلك. وهذا ما دفعني إلى التفكير في أنّ لطفلي أيضًا الحق في معرفة أصله؟

- أو على الأقلّ الحقّ في الاختيار. أظهرت لي في السابق أنّك كنت متحفّظة بشأن الغوص في ماضيك، علمًا أنّك كنت تعرفين منذ صغرك بأنّك ابنة بالتبنّي. ربّما لا يعرف ابنك شيئًا عن قدره.

- أتمنّى فقط أن أراه ولو مرّة واحدة لأتأكّد بنفسي من أنّه يعيش في بيئة آمنة، وأنّه سعيد في حياته.

- بالطبع ستتمنّين ذلك، لكن فكّري في مصلحته، فقد لا يكون ذلك هو الأفضل له. قال فلوريانو بلطف.

- لقد تجاوزنا الواحدة صباحًا وعليّ أن أستيقظ باكرًا من أجل السينيوريتا الصغيرة التي تنام في الطابق السفلي.

- بالطبع. قلت له وأنا أبتعد عن الشرفة لأعثر على حقيبتي الموضوعة تحت الطاولة.

- سأذهب على الفور.

- في الواقع مايا، كنت سأقترح عليك البقاء هنا. لست مرتاحًا إلى بقائك وحدك هذه الليلة. فأجبته وأنا أسرع إلى الباب لشعوري بالذعر من اقتراحه:

- سأكون بخير.

- انتظري. ضحك فلوريانو وهو يلحق بي.

- لم أقصد أن تقضي الليلة معي، يمكنك النوم في غرفة پترا، فقد ذهبت إلى السلفادور لتزور عائلتها طوال الأسبوع. أرجوك، ابقي هنا الليلة وإلّا سأكون قلقًا طوال الوقت.

- حسنًا. قلت له.

- أشعر بالإرهاق لدرجة أنّني غير قادرة على مجادلتك. لذلك شكرًا لك.

أطفأ فلوريانو الشموع وأغلق الكمبيوتر، ثمّ نزلنا إلى الطابق السفلي ليرشدني إلى الغرفة التي تنام فيها پترا.

- يسرّني القول إنّني بعد مغادرتها، غيّرت الملايات ونظفت الغرفة بالمكنسة الكهربائية لذلك فالغرفة جاهزة لاستقبال نزيل جديد. أمّا الحمّام فتجدينه في نهاية الممر إلى اليمين، سأدعك تدخلين أوّلًا. تصبحين على خير يا مايا. قال وهو يقترب منّي ويطبع قبلة حنونة على جبيني.

- ليلة سعيدة.

اختفى فلوريانو بسرعة بعد أن رأيته يصعد إلى الطابق العلوي. أمّا أنا فذهبت إلى الحمام وبعد بضع دقائق، عدت إلى غرفة پترا ورحت أنظر إلى الكتب العلمية المكدّسة على الرفوف فوق المكتب، وإلى مجموعة مستحضرات التجميل المتناثرة عشوائيًّا فوق منضدة الزينة، وكان هناك بنطال جينز مرميٌّ على الكرسي. خلعت القميص عنّي وصعدت إلى السرير المفرد. فأنا أيضًا كنت يومًا طالبة تعيش مثل هذه الحياة الورديّة وتتطلّع إلى المستقبل المشرق الذي ينتظرها كما تنتظر اللوحة القماشية البيضاء ريشة الفنّان لتزيّنها بالألوان، وذات يوم عرفت أنّني حامل.

ومن كثرة التفكير بذلك، غفوت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

47

استيقظت على أحدٍ يفتح باب الغرفة عليّ، وقبل أن أفتح عينيّ شعرت بأنّه أصبح في الداخل. كانت فالنتينا تقف عند حافة السرير وتحدّق إليّ.

- إنّها العاشرة صباحًا. حضّرنا أنا وپاي كيك باوند لنتناولها على الفطور. ألن تنضمّي إلينا؟

- بلى. أجبتها، وأنا لا أزال شبه نائمة أحاول أن أسحب نفسي من النوم العميق الذي نمته تلك الليلة. فأومأت فالنتينا إليّ بكلّ سرور وغادرت الغرفة. نهضت على الفور وارتديت ملابسي، وما إن أصبحت في الممر الضيق حتى فاحت رائحة خبز لذيذة في أنفي ذكّرتني بمطبخ كلوديا في أتلانتيس. سمعت ثرثرة فالنتينا في الطابق العلوي، فصعدت لأنضمّ إليها هي ووالدها. كانا جالسين على الشرفة حول قالب كيك وضعاه وسطهما على الطاولة.

- صباح الخير يا مايا. كيف نمت؟ سألني فلوريانو وهو يمسح فتات الطعام عن شفتيه ويسحب لي كرسيًّا خشبيًّا قديمًا.

- في الواقع نمت جيّدًا. قلت له مبتسمة وهو يقطع لي شريحة كيك ويمسحها بالزبدة.

- تريدين قهوة؟

- نعم من فضلك. أجبته وأنا أقضم الكيك الذي ما يزال ساخنًا.

- هل تتناولين الكيك كلّ صباح على الفطور يا فالنتينا؟ لأنّه أفضل بكثير من رقائق الفطور والخبز المحمّص الذي أتناوله في منزلي.

تنهّدت بعمق.

- لا، اليوم فقط. أعتقد أنّ باي حضّرها ليتباهى أمامك. قالت وهي تهزّ بكتفها غير مبالية لفضح والدها.

رفع فلوريانو حاجبيه عندما سمع ذلك فلم يعرف بما يجيب، لكنّني لاحظت أنّ لون خدّيه تغيّر. قلت لفالنتينا:

- حسنًا، أنت تحتاجين إلى المرح واللهو في هذا الوقت.

- نعم يا مايا، لو أنّ باي هو الذي ذهب إلى الجنّة، كنت سأحزن كثيرًا مثلك وسأحتاج إلى من يواسيني.

- لذلك، فكّرنا بخطّة. قال فلوريانو.

- لا باي، أنت من فكّرت بها. قالت فالنتينا عابسة.

- أنا اقترحت أن نذهب إلى مكان مرح ومن ثمّ نشاهد فيلم ديزني، لكن باي لم يوافق، وبدلًا من ذلك عرض خطّة مملّة». قالت وهي ترفع كفّيها الصغيرين في وجهي وتتنهّد مرّة أخرى.

- لذلك لا تلوميني.

- حسنًا، ربّما نقوم بالاثنين. لأنّني أنا أيضًا أحبّ أفلام ديزني.

- لكنني لن أتمكّن من مرافقتك لأنّ باي ذاهب إلى باريس في الغد من أجل كتابه ويحتاج إلى إنهاء بعض المهام قبل المغادرة. أمّا أنا فسأبقى مع جديّ آفو وڤوڤو.

من وقع المفاجأة، سألت فلوريانو وأنا أشعر بخوفٍ غير مبرر:

- هل أنت ذاهب إلى باريس؟

- نعم، ألّا تذكرين البريد الإلكتروني الذي أرسلته لك قبل بضعة أسابيع؟ أنت أيضًا مدعوّة، هل نسيت؟ قال وهو يبتسم.

أجبته بعد أن تذكّرت رسالته:

- آه، صحيح.

قالت فالنتينا عابسة:

- وأنا لست مدعوّة؟ يعتقد پاي أنّني سأعترض طريقه.

- لا يا *querida*، بل أعتقد أنّك ستُصابين بالملل الشديد. ألا تذكرين كم كنت تكرهين مرافقتي إلى الندوات التي كنت أحييها، وإلى حفلات التوقيع؟ كنت دائمًا، ما إن نصل إلى هناك، حتى تشدّيني من ذراعي وتسأليني: متى سنعود إلى البيت.

- أجل، لأننا كنا هنا في ريو، وليس في باريس. أنا أيضًا أريد زيارة باريس. قالت فالنتينا بنبرة حزينة.

- ذات يوم. أجابها فلوريانو وهو ينحني إليها ليقبّلها على شعرها الداكن اللمّاع.

- أعدك أنّني سآخذك إلى هناك، اتّفقنا. والآن هيّا استعدّي، فجدّاك سيكونان هنا بين لحظة وأخرى. هل جهّزت حقيبتك؟

- نعم پاي.

- مايا، بينما أرفع الفطور عن المائدة هل تذهبين مع فالنتينا لتتحقّقي من أنّها رتّبت ملابس كافية لأسبوعين ووضعت فرشاة أسنانها في الحقيبة؟ سألني فلوريانو.

- إنّها لا تزال صغيرة... ويمكن أن تكون قد حزمت حقيبتها بشكلٍ عشوائي.

- بالطبع. قلت له. وتبعت فالنتينا إلى غرفة نومها الصغيرة في أسفل السلالم.

كلّ شيء فيها كان باللون الوردي، الجُدُر، غطاء اللحاف، حتّى الدببة التي اصطفّت في أسفل سريرها. أشارت فالنتينا إليّ لأجلس على السرير وأرفع الحقيبة لأتفقّد محتوياتها، فابتسمت على ما قامت به وفي الوقت نفسه شعرت بالارتياح. يبدو أنّ اللون الوردي جزء لا يتجزّأ من التركيبة الجينية الأنثوية. إذ كان لوني المفضّل أنا أيضًا في صغري. وعندما فتحت الغطاء، قالت فالنتينا وهي تطوي ذراعيها الصغيرتين:

- كلّ ما سأحتاج إليه موجود هنا، ثقي بي. فوجدت الحقيبة محشوة بدمى باربي وبعض الأقراص المدمجة وكتب التلوين مع الأقلام. كما وجدت فيها قميصًا واحدًا، وبنطال جينز وبعض الأحذية الرياضية.

- ألا تعتقدين أنّك ستحتاجين إلى بعض الملابس الداخلية؟ تجرّأت على سؤالها.

فأجابتني وهي تتّجه إلى الدرج:

- آه صحيح. نسيت ذلك.

- وقد تحتاجين أيضًا إلى ملابس للنوم؟ اقترحت عليها وأنا أحاول الوصول إلى ما رمته أرضًا وهي ترتدي ملابسها في الصباح، وأضفت:

- وإلى مزيد من الملابس.

بعد عشر دقائق، سمعت رنين هاتف المبنى وطقطقة أقدام فلوريانو على السلالم.

- لقد وصلا، أرجو أن تكوني جاهزة يا فالنتينا. صرخ من الممر.

- لا أريد أن أذهب. قالت لي وهي تنظر من أعلى الصورة التي لوّنتها بأقلامها ووضعتها أمام عينيّ لأراها.

مددت ذراعي لألفّها حول كتفيها الصغيرتين وقلت لها:

- أنا متأكّدة من أنّك ستستمتعين هناك. أراهن بأنّ جدّيك يدلّلانك كثيرًا.

- هذا صحيح، لكنّني سأفتقد پاي.

- بالطبع ستفتقدينه. أنا أيضًا كنت أحزن عندما كان والدي يرحل بعيدًا. وكان يفعل ذلك مرارًا».

- لكن كان لديك أخوات يبقين معك. أمّا أنا فليس لديّ أحد. ثمّ تنهّدت مستسلمة، ونهضت من مكانها وأغلقت حقيبتها.

راحت تراقبني وأنا أنزل الحقيبة عن السرير، وأسحبها بمقبضها وأجرّها على الأرض باتجاه الباب.

- والآن، أصبحت جاهزة للرحيل.

- هل سأراك عندما أعود إلى المنزل؟ سألتني بحزن.

- أنت أكثر لطفًا من پترا، فهي تصرف وقتها بالتحدّث إلى صديقها على الهاتف.

- آمل ذلك يا *querida*، حقًّا. والآن. قلت لها وأنا أقبّلها.

- هيّا اذهبي واستمتعي بوقتك قدر المستطاع.

- سأحاول. ثمّ أمسكت بمقبض الحقيبة ومشت إلى الباب.

- باي معجب بك. أنا أعرف ذلك.

- حقًّا؟ ابتسمت لها.

- نعم، لقد قال لي ذلك بنفسه. وداعًا مايا.

راقبتها وهي تغادر غرفة النوم فذكّرني مظهرها، وهي تجرّ حقيبتها، باللاجئين في أيامنا هذه. لم أرغب في التطفّل على لحظة وداع أب لابنته، أو في إحراج فلوريانو أمام حمويْه، جلست على السرير وأنا أضع يديّ في حضني. رحت أفكّر مرّة أخرى بصعوبة ما يعيشه هذان الاثنان، وأعجبت بفلوريانو وقدرته على الاعتناء بابنته وعمله في الوقت نفسه. فجأة شعرت بفرح داخلي لما قالته فالنتينا عن والدها بأنّه معجب بي، فاعترفت لنفسي بأنّني أنا أيضًا معجبة به.

ما هي إلّا دقائق حتّى طرق فلوريانو الباب وزجّ رأسه عبر الشقّ.

- حسنًا، يمكنك الخروج. اعتقدت أنّك سترافقين فالنتينا إلى الباب لتقابلي جيوفاني وليفيا، وتفاجأت بأنّك بقيت في الداخل. في كلّ حال... تابع وهو يمسك بيدي ويشدّني بعيدًا عن السرير.

- كما قلت لك على الفطور، أعتقد أنّك بحاجة إلى بعض المرح. هل ما زلت تذكرين الخطّة؟

- بالطبع!

- ممتاز. ونحن في طريقنا إلى هناك، ستخبرينني بأحدث شيء قمت به وكان ممتعًا للغاية.

- فلوريانو، أرجوك. لست مضطرًّا إلى رعايتي! صارحته وأنا أتبعه إلى الخارج. فجأة توقّف في الممر واستدار إليّ فكدت أن أصطدم به.

- مايا، لا تأخذي كلّ ما أقوله على محمل الجد من فضلك، أنا فقط أمازحك. حتّى أنا الذي يميل طوال الوقت إلى التفكير العميق والتأمّل الذاتي، أعرف أنّه

يجب أن لا آخذ نفسي دائمًا على محمل الجد. لقد بقيت وحيدة لفترة طويلة وأنت بحاجة إلى الترفيه، هذا كلّ ما في الأمر. أنا على الأقل لديّ ابنتي لتواسي وحدتي. كلّ ما أطلبه منك الآن هو أن تنسي كلّ مشاكلك وتعيشي كما يجب ليوم واحد فقط. اتّفقنا؟

أحنيت رأسي وأنا أشعر بالإحراج وعدم الارتياح في الوقت نفسه، فأدركت أنّه مرّ وقت طويل على آخر مرّة سمحت فيها لإنسان غريب أن يكسر الحواجز بيننا، ويلقي عليّ محاضرة عمّا أخفقت به في حياتي.

- أريد فقط أن أريك ريو التي أحبّها أنا. ثقي بأنّني أحتاج مثلك إلى الخروج والترفيه. أضاف فلوريانو عندما فتح لي باب المدخل وأشار إليّ للخروج.

- حسنًا. وافقت في النهاية.

- ممتاز. قال وهو ينزل السلالم ويصل إلى باب المدخل، ثمّ يمدّ لي ذراعه لأمسك بها.

- هل ننطلق؟

- نعم.

قادني فلوريانو إلى خارج المبنى، ثمّ على طول شارع إيبانيما إلى مقهى كان يعجّ بالزوّار المحليّين الذين يشربون الجعّة.

هناك ألقى التحية على النادل الذي تبيّن أنّه يعرفه حقّ المعرفة، ثمّ طلب لنا الكايبيرينيا تحت أنظاري المصدومة.

- الساعة لم تتخطَّ الحادية عشرة والنصف صباحًا! قلت له وهو يمدّ لي الكأس.

- أعرف ذلك. لكن اليوم سننسى أنفسنا ونستمتع بتهوّر إلى حدّ الفساد. ثمّ أومأ برأسه وهو يرفع كأسه ويطرقها بكأسي ويقول:

- والآن، اشربيها جرعة واحدة.

عندما شربناها وانزلق السائل الحلو بمذاقه الحمضي عبر حلقي إلى معدتي، شكرت اللّه على وجود الكيك هناك لتمتصّه كلّيًا فلا يؤثّر بي. ثمّ سحبني فلوريانو عن كرسي البار وقال:

- هيّا بنا. ونادى سيّارة أجرة لتقلّنا.

- إلى أين؟

- أجابني باختصار: «لمقابلة صديق. أريدك أن تتعرّفي إلى ذلك المكان قبل مغادرة ريو.

بقيت سيّارة الأجرة تسير بنا باتجاه الضواحي إلى أن وصلنا بعد عشرين دقيقة إلى ما تراءى لي أنّه مدخل فاڤيلا. فقال لي وهو يدفع الأجرة للسائق:

- لا تقلقي يا مايا، لن يقوم أحد برميك بالرصاص ولن يجبرك أحد من كبار تجّار المخدّرات المحلّيين على تناول جرعة من الكوكايين. ثمّ لفّ ذراعه حول كتفي وبدأنا نصعد السلالم إلى القرية.

- سترين أنّ صديقي رامون متحضّر مثلنا.

كنت قادرة على سماع قرع الطبول الخافت يقوى كلّما اقتربنا من القمة ودخلنا إلى قلب الأحياء الفقيرة. كانت الأزقّة ضيّقة إلى درجة أنّني كنت قادرة، إذا مددت ذراعي، على لمس الأكواخ المبنية من الطوب على جانبي الطريق المظلم. ثمّ رفعت رأسي لألقي نظرة على المباني الغريبة، وهي ترتفع فوق الطوابق الأرضية.

لاحظ فلوريانو اتجاه نظراتي فأومأ برأسه: «سكّان الطوابق الأرضية هؤلاء باعوا مساحات الهواء لعائلات أخرى». قال موضحًا ونحن نواصل سيرنا صعودًا إلى الشوارع المتعرّجة.

حتّى أنا التي كنت أفتخر بقدرتي على تحمّل الحرارة العالية، وجدت نفسي أتعرّق بشدّة، وأشعر بالاختناق من ضيق المساحة، وبالدوار من جفاف الطقس. لاحظ فلوريانو ذلك على الفور، وعندما وصلنا إلى قمّة أحد الأزقّة، أبطأ سيره ثمّ دخل وهو يجرّني خلفه إلى مكان مظلّل، فتبيّن أنّه متجر بقالة. كان عبارة عن مساحة من الخرسانة فيها عدد من الرفوف تحتوي بمعظمها على سلع معلّبة،

كما رأيت ثلّاجة موضوعة في أحد الأركان. بعد أن دفع ثمن زجاجة الماء التي اشتراها لي وشربتها دفعة واحدة من كثرة العطش، واصلنا صعودنا إلى أن بلغنا أخيرًا بابًا مطليًا بألوان زاهية. طرق فلوريانو الباب ففتح لنا رجل داكن البشرة. رحت أراقب الاثنين وكلٌّ منهما يحتضن الآخر بشدّة ويضرب ظهره أو يلطم ذراعه. ثمّ دخلنا وهناك تفاجأت برؤية كمبيوتر يومض في إحدى زوايا الغرفة الضيقة وشاشة تلفزيون كبيرة. كانت الغرفة شبه خالية من الأثاث لكنّها نظيفة ومرتّبة.

- مايا، أقدّم لك رامون. هو من سكّان الأحياء الفقيرة منذ ولادته، لكنّه حاليًّا يعمل لدى الحكومة مصلحًا اجتماعيًّا. قال فلوريانو وهو يحدّق إلى صديقه الذي يحاول استلهام ما يقول.

لمعت أسنان الرجل البيض ما إن انشقّت شفتاه وألقى برأسه إلى الوراء من كثرة الضحك.

- يا صديقي. قال له بصوت قوي وعميق.

- لا عجب في أنّك روائي. سينيوريتا... تابع وهو يمدّ لي يده.

- يسرّني التعرّف إليك.

رحنا نجول في الجوار خلال الساعتين التاليتين، ثمّ تناولنا الطعام وشربنا الجعّة في أحد المقاهي التي افتتحها رواد أعمال مقيمون هناك على مساحات صغيرة كانوا يمتلكونها. هكذا عرفت أشياء كثيرة عن سكّان الأحياء الفقيرة.

- بالطبع، هناك شوارع ما تزال تعاني من الفقر الشديد والجرائم المخيفة. شرح رامون عن الأحياء المعدمة في ريو، وأضاف:

- وهناك أحياء لا أجرؤ حتّى أنا على الاقتراب منها خصوصًا في الليل. لكنّني أؤمن بأنّ الأمور ستتحسّن مع الوقت، ولو أنّ ذلك سيتمّ ببطء. هذا لأنّ الجميع يحظون اليوم بفرصة التعلّم وبالتالي باتوا يشعرون بقيمتهم الذاتية. آمل أن يعيش أحفادي ذات يوم طفولة أفضل من تلك التي عشتها أنا.

كيف تقابلتما؟ سألته وأنا أشعر بالاحتراق من شدّة الحرارة.

- حصل رامون على منحة دراسية في جامعتي فتخصّص في العلوم الاجتماعية، لكنّ رأسه كان ميّالًا إلى التاريخ، فهو يتمتّع بذكاء أعلى من ذكائي. لذلك لا أكفّ اليوم عن تشجيعه على كتابة سيرته الذاتية.

- كلانا يعرف أن لا أحد في البرازيل سينشرها. قال رامون.

- ربّما ذات يوم، عندما أتقدّم في السن ويكون الوضع السياسي قد تغيّر، أفعل ذلك. والآن، سآخذكما إلى مشروعي المفضّل.

بينما كنّا نتبع رامون داخل المتاهة التي شكّلتها الأزقّة، أخبرني فلوريانو بصوتٍ خافتٍ أنّ والدة رامون أُجبرت على ممارسة البغاء من والده الذي اشتُهِر بتجارة المخدّرات، وهو اليوم يقضي حكمه بالسجن لمدى الحياة لاقترافه جريمة قتل مزدوجة.

- لرامون ستّة إخوة وأخوات ربّاهم وحده بعدما توفّيت والدته من جرعةٍ زائدةٍ من الهيروين. هو إنسان رائع، ومن النوع الذي يعطيك أملًا في الطبيعة البشرية. رامون يمارس اليوم ضغطًا مستمرًّا على الحكومة، بالنيابة عن السكّان، لتؤمّن لهم الرعاية الصحية والمرافق للأطفال. فهو يكرّس حياته لتحسين أوضاع الأحياء الفقيرة. أضاف فلوريانو وهو يمسك بذراعي ويرشدني إلى الدرجات الحجرية غير المستوية.

كنت قادرة على سماع قرع الطبول يقوى من بعيد ويجري أسرع داخل عروقي كلّما اقتربنا من أسفل السلالم. ومن ثمّ شهدت على الاحترام والمودّة اللذين كان سكّان ذلك الحيّ يكنّونهما لرامون. وعندما وصلنا إلى القاع، وقادنا عبر باب خشبي تحيط به جُدُر عالية، تضاعف احترامي له. رحت أفكّر كيف أنّه استغلّ ظروف حياته بطريقة إيجابية ليحسّن حياة الآخرين هنا، فشعرت بتواضع أمام تفانيه وقوّة شخصيّته.

انتبهت فجأة إلى أنّنا قد أصبحنا في فناء يضمّ حوالى عشرين طفلًا، بعضهم أصغر من فالنتينا، كانوا كلّهم يرقصون على إيقاع طبول قويّ. فقادنا رامون من دون لفت الأنظار على طول الحائط باتجاه الظلال التي وفّرها المبنى، وهو يشير إلى الأطفال.

- هؤلاء يستعدّون للكرنفال. تعرفين أنّ كلّ ما يخصّ الكرنفال بدأ في الأحياء الفقيرة». همس وهو يقدّم لي كرسيًّا بلاستيكيًّا لأجلس وأشاهد التمارين، وسرعان ما انتبهت إلى أنّ أجسامهم الصغيرة تتمايل لاشعوريًّا على وقع الطبول. ثمّ رحت أحدّق إلى وجوههم المبتهجة فلاحظت أنّ كثيرًا منهم كانوا يتمايلون بأجسامهم على الأنغام الموسيقية وهم يغلقون أعينهم.

- هم يتعلّمون الآن ما نسمّيه Samba no pé. وهذا ما أنقذني من البؤس عندما كنت طفلًا. همس رامون في أذني وهو يقف خلفي.

- وهم أيضًا يرقصون من أجل إنقاذ حياتهم.

تمنّيت لاحقًا لو أنّني كنت قادرة على التقاطهم في صورة فوتوغرافية لأحتفظ بها للذكرى، على الرغم من أنّني كنت واثقة من أنّ الصورة لن تلتقط النشوة التي رأيتها في وجوههم. ففهمت أنّ تلك اللوحة التي أراها الآن قد انطبعت في ذاكرتي إلى الأبد.

في النهاية، أشار رامون إلى أنّ الوقت قد حان للمغادرة. فنهضنا على مضضٍ ولوّحنا للأطفال نودّعهم، ثمّ خرجنا عبر الباب الخشبي الكبير الذي دخلنا منه.

- هل أنت بخير؟ سألني فلوريانو مرّة أخرى وهو يلفّ ذراعه حول كتفي.

- نعم. أجبته بصوتٍ يكاد أن ينفجر من الأحاسيس الإيجابية.

- هذا أجمل ما رأيته في حياتي.

غادرنا الأحياء الفقيرة بعد أن ركبنا مجددًا سيارة أجرة أقلّتنا إلى المدينة. كنت أشعر بفرح في قلبي وبحواسي تتراقص على وقع خطوات أولئك الأطفال.

عاود فلوريانو السؤال وهو يلتصق بي ويمسك بيدي:

- هل أنت متأكدة من أنّك على ما يرام يا مايا؟

- نعم، أنا حقًّا بخير. قلت له.

- هل أحببت مشاهدة السامبا؟

- كثيرًا.

- ممتاز، لأنّ هذا ما سنقوم به الليلة.

نظرت إليه برعب:

- فلوريانو، لا أستطيع الرقص!

- بالطبع تستطيعين يا مايا. الجميع هنا يرقصون وخصوصًا الكاريوكا. فالرقص في دمك. والآن... قال وهو يوقف سيّارة الأجرة في ميدان إيبانيما المليء بالأكشاك.
- نحن بحاجة إلى شراء ملابس مناسبة... آه، وزوج أحذية للسامبا.

تبعته مثل خروف وهو يتنقّل داخل السوق عبر رفوف الفساتين ويختار ما يراه مناسبًا لي ويتأكّد من أنّه يعجبني.

- أعتقد أنّ اللون الخوخي مناسب أكثر للون بشرتك. قال وهو يسحب فستانًا موضّبًا مصنوعًا من الحرير الناعم.

عبست قليلًا، إذ كان من النوع الذي لن أختاره أبدًا لنفسي، فتصميمه كان كاشفًا إلى درجة مبالغ فيها.

- هيّا يا مايا، لقد وعدتني بأن تتركي نفسك اليوم لتعيشي قليلًا! كما أنّك في هذه اللحظة ترتدين ملابس تذكّرني بأمّي.

أجبته: «شكرًا». وأصرّ على البائع أن يدفع في الفستان أقل من الثمن المطلوب.

- حسنًا، والآن سنبحث عن حذاء. قال وهو يمسك بيدي ويجرّني في شوارع إيبانيما إلى أن توقّفنا أمام متجر صغير يشبه محلّ الإسكافي.

بعد عشر دقائق، خرجت منه وأنا أنتعل حذاءًا جلديًّا بكعب كوبي يثبّت في القدم بشريط في آخره زر، يُقفل بإحكام عند الكاحلين.

- هذه الملابس تليق بمارينا أكثر منّي. قلت له وأنا أضغط عليه ليأخذ منّي ثمن الحذاء الباهظ، لكنّه رفض. وبدلًا من ذلك، توقّف أمام كشك آيس كريم كان يعرض تشكيلة منوّعة من النكهات الشهية. سألني:

- ماذا تريدين؟ أؤكّد لك أنّه الأفضل في ريو. فأجبته:

- لا يهمّ، أي شيء. وعندما حصلنا على القرنين، رحنا نتجوّل في الأرجاء إلى أن جلسنا في النهاية على مقعد يطلّ على الشاطئ، نلعق الآيس كريم اللذيذ قبل أن يذوب.

- حسنًا. قال ونحن نمسح فانا اللزجين.

- لقد تخطّت السادسة مساءً، لمَ لا تذهبين إلى الفندق لتستعدّي لأوّل رقصة سامبا سترقصينها الليلة؟ أمّا أنا فيجب أن أذهب إلى المنزل وأرسل بعض الرسائل الإلكترونية وأحزم حقيبتي من أجل باريس غدًا. سأنتظرك في بهو الفندق عند الثامنة والنصف مساءً.

- حسنًا، شكرًا لك على هذا اليوم الجميل. قلت له وأنا أعبر الشارع لأعود إلى الفندق.

- لم ينتهِ الأمر بعد يا مايا. صرخ في وجهي مرة أخرى مع ابتسامة عريضة.

عندما طلبت مفتاح غرفتي من مكتب الاستقبال، قوبلت بوجهٍ قلق.

- سينيوريتا داپلياز، لقد قلقنا عليك لأنّك لم تعودي في الليلة الماضية.

- لا، لقد مكثت الليلة عند صديق.

- حسنًا، أتتك مكالمة هاتفية، ولم نتمكّن من الوصول إليك، لذلك قامت المتّصلة بترك رسالة قالت إنّها عاجلة. وأعطتني المضيفة مظروفًا.

- شكرًا لكِ. قلت وأنا آخذه منها.

- أتمنّى عليك في المرة القادمة، عندما تقرّرين قضاء الليلة خارج الفندق، أن تُعلمينا بذلك؟ فريو غير آمنة على الزوّار الأجانب، ولو تأخّرت قليلًا في العودة إلينا كنّا سنتّصل بالشرطة.

- حسنًا. قلت لها وأنا أشعر ببعض الإحراج.

توجّهت إلى المصعد وأنا أفكّر في ما قالته قد تكون ريو بالفعل غير آمنة على الأجانب، لكنّني مواطنة برازيلية ولم أشعر يومًا بالأمان مثلما شعرت به هنا. ما إن

دخلت الغرفة، حتى مزّقت المظروف وأنا أفكّر في من قد يترك لي رسالة عاجلة إلى أن قرأت محتواها.

سينيوريتا مايا،

سينيورا بياتريس ترغب في رؤيتك. للأسف وضعها الصحّي يسوء يومًا بعد يوم، لذلك تفضّل لو كنت تستطيعين المجيء في أقرب وقت، غدًا عند العاشرة صباحًا مثلًا.

يارا كانتيرينو.

كنت بعد أن أن صرفت ذلك اليوم بكامله في الخارج، قد نسيت لبضع ساعات ماضيّ المجهول ومستقبلي غير الواضح، لذلك لزمني وقت ليتمكّن عقلي من إدراك فحوى الرسالة. ركضت إلى الحمام ودخلت أستحمّ بالمياه الدافئة فتركتها تتدفّق فوقي بانسياب، ثمّ قرّرت أنّه مهما يحصل لي غدًا من مفاجآت، سأفكّر فيه لاحقًا، وليس الليلة.

ارتديت الفستان الذي اشتراه لي فلوريانو وأنا لا أزال واثقة من أنّه سيبدو مروّعًا عليّ، ثمّ انتعلت الكعب العالي ووقفت أنظر إلى نفسي في المرآة، يا للمفاجأة!

كان الجزء العلوي من الفستان قد أبرز صدري ونحافة خصري، أمّا التنورة التي التفّت حول خصري فتدلّت في طيّاتٍ ناعمةٍ فوق فخذيّ وأبرزت طول ساقيّ خصوصًا مع الكعب الكوبي الأنيق.

كان الوقت الذي قضيته في ريو قد زوّد بشرتي بلون جميل. بعد أن جفّفت شعري ورفعته فوق رأسي، أضفت الكحل إلى عينيّ والماسكارا إلى رموشي. وذلك الأحمر الداكن الذي اشتريته سابقًا، من باب النزوة، ولم أستخدمه قط، لوّنت به شفتيّ. رحت أضحك على نفسي وأنا أفكّر في أنّ أخواتي لو رأينني هكذا قد لا يعرفنني. وعلى الرغم من أنّ ملاحظة فلوريانو على أسلوبي في اللبس قد لسعتني،

لكنني أدركت أنّها كانت في مكانها. كان أسلوبي في اللبس رصينًا، وكنت دائمًا أختار ما لا يلفت الأنظار إليّ ولا يميّزني عن الآخرين. ففي حين كنت أخفي نفسي داخل ملابسي لسنوات طويلة، شعرت بأن معظم النساء في ريو يتباهين بأنوثتهنّ وأجسادهنّ المثيرة.

قبل أن يحين موعد لقائي بفلوريانو بنصف ساعة، رحت أكتب الرسائل الإلكترونية إلى أخواتي لأخبرهنّ عن الوقت الرائع الذي أقضيه هنا وعن مدى تحسّن شعوري في الأيّام الأخيرة.

وبعد أن احتسيت كأس نبيذ من زجاجة كانت موضوعة في ميني بار الغرفة، اندهشت لعمق معاني الكلمات التي كنت أكتبها. فجأة، شعرت بسقوط ثقل بوزن صخرة عن كتفيّ، وبأنّني أصبحت بخفّة النسيم. لعلّ السبب في ذلك كان الاعتراف الذي بحت به لفلوريانو، وفي الوقت نفسه كان هناك صوت داخلي يقول لي إنّه أكثر من ذلك.

إنّه فلوريانو.

إنّ طاقته الإيجابية وحسّه الواقعي، ناهيك عن الطريقة التي يتعامل فيها مع ابنته، وإدارته لمنزله ببراعة ملفتة، كلّ ذلك كان بالنسبة إليّ درسًا كنت بأمسّ الحاجة إلى تعلّمه. لقد دلّني على الأقلّ إلى نموذج يُحتذى به، فشعرت برغبة شديدة في اتباعه في حياتي الخاصّة. وأنا إلى جانبه، بدت لي حياتي مثل صورة قاتمة باهتة، وعلى الرغم من أنّ تعليقات فلوريانو في بعض الأحيان كانت مؤلمة، إلّا أنّه جعلني أدرك أن كلّ ما قمت به الآن هو محاولة للبقاء على قيد الحياة وليس العيش فعليًّا.

شعرت بأنّ ذلك الرجل وتلك المدينة قد كسرا ذلك الغلاف الواقي الذي كنت أختبئ في داخله، فضحكت على نفسي وأنا أشبّهها بعصفور خرج لتوّه من بيضته.

أجل، أعترف بأنّني أعيش مشاعر حب لطيفة تجاه فلوريانو. وعندما نظرت إلى ساعتي أدركت أنّ الوقت قد حان لأنزل إلى الطابق السفلي. حينها قرّرت أنّني حتّى لو لم يكتب لي أن أراه مجدّدًا، فقد أعادني إلى الحياة وهذا يكفيني.

أمّا الليلة فسأحتفل بولادتي من جديد من دون أن أفكّر في الغد أو حتّى أخاف منه.

- واو! حدّق فلوريانو إليّ بإعجاب ما إن ظهرت أمامه في ردهة الفندق.

- أشعر بأنّك طائر فينيق بُعث من رماده.

وبدلًا من أن أخجل من إطرائه وأحاول الهروب من مجاملته، ابتسمت له بحرارة وقلت:

- شكرًا لك على الفستان. لقد كنت على حق، فهو يناسبني تمامًا.

- مايا، تبدين مذهلة. صدّقيني. قال لي وهو يمسك بذراعي لنخرج.

- كلّ ما فعلته هو إبراز ما كنت مصرّة على إخفائه.

كنت ما أزال واقفة في أعلى السلالم، فبقي يحدّق إليّ ثمّ قال:

- هل نذهب؟

- نعم.

ركبنا سيّارة الأجرة فطلب فلوريانو من السائق أن يقودنا إلى حيٍّ يُدعى لابا، وقال لي إنّه واحد من أكثر الأحياء القديمة في ريو التي تتسكّع فيها الفئات البوهيمية حتّى اليوم.

- حذارِ، فهي ليست آمنة لتأتي إليها بمفردك. قال لي عندما ترجّلنا من السيّارة ورحنا نسير في الشارع المرصوف بالحصى، والذي اصطفّت إلى جانبيه مبانٍ قديمة من الطوب.

- لكنّني هنا الليلة لحمايتك»، قال لي وأنا أمسك به وأخطو بحذر فوق الأرض غير المستوية خوفًا من تعثّري بالكعب العالي.

كانت المقاهي على الأرصفة تكتظّ بالزبائن الذين أتوا إمّا من أجل تناول كأس وإما من أجل تناول عشاء، لكنّ فلوريانو قادني خارج الشارع الرئيسي إلى أن نزلنا أحد السلالم الذي أوصلنا إلى ما يشبه قبو.

- هذا أقدم نادي سامبا في ريو. لن تجدي فيه سيّاحًا، ولكن يأتي إليه كاريوكا أصليون ليرقصوا على أفضل أنغام السامبا في المدينة.

ابتسمت له النادلة وقبّلته على خدّيه ثمّ قادتنا إلى كشك كان مغطّى بالجلد في إحدى الزوايا. فطلب الجعّة لكلينا بعد أن اطّلع على القائمة التي أعطتها له النادلة، وقال لي إنّ النبيذ غير صالح للشرب.

- من فضلك يا فلوريانو، أرغب في دعوتك هذه الليلة. قلت له وأنا أخطف نظرة إلى حلبة الرقص، حيث اجتمع الموسيقيّون خلف آلاتهم.

- شكرًا لك. وأومأ برأسه موافقًا على دعوتي له.

- بالمناسبة يا مايا، إذا أردت أن تقولي أي شيء، عليكَ أن تقوليه خلال الساعة التالية. فبعد ذلك لن يسمع أحدنا الآخر.

بعد أن طلبنا الأطباق التي يتميّز بها المكان والتي نصحني بها فلوريانو، وصلتنا الجعّة وتبادلنا الأنخاب.

- مايا، سررت كثيرًا بصرف الوقت معك. وأنا آسف لاضطراري إلى قطعه بسبب رحلتي إلى باريس غدًا.

- وأنا أيضًا أريد أن أشكرك على ذلك. كان رائعًا بالنسبة إليّ أيضًا يا فلوريانو، حقًّا.

قال ممازحًا:

- إذًا، هل ستوافقين على ترجمة كتابي التالي؟

فأجبته:

- كنت سأشعر بالإهانة لو لم تسألني. بالمناسبة... قلت له عندما وصل طبق الفاصوليا ووُضِع أمامنا.

- عندما عدت إلى الفندق قبل قليل اكتشفت أنّ يارا تركت لي رسالة عند مكتب الاستقبال. يبدو أن سينيورا بياتريس ترغب في رؤيتي صباح غدٍ. أخبرته وأنا أشعر بارتياح كبير.

- حقًّا؟ قال فلوريانو بعد أن فرغ فمه من الطعام.

- وكيف تشعرين حيال ذلك؟

أجبته ممازحة:

- ألم تقلْ لي إنّ اليوم هو من أجل المتعة فحسب، لذلك لم أفكّر حقًّا في ما شعرت به.

- جيّد. لكن لا يسعني القول إلّا أنّني كنت أتمنّى أن أرافقك إلى هناك. أو على الأقل أن أتظاهر بأنّني سائقك الخاص وأقودك إلى هناك. لقد كانت مغامرة شيّقة ما قمنا به في الأيام القليلة الماضية، واستمتعت كثيرًا بمرافقتك خلال كلّ تلك الرحلات. هل تعدينني بأنّك ستخبرينني بكل ما ستقوله؟

- سأرسل لك بريدًا إلكترونيًّا.

فجأة، شعر كلٌّ منّا ببعض التوتّر، فأخفاه عن الآخر بإنهاء طبق الحساء اللذيذ الذي وُضع أمامنا. طلب فلوريانو جعّة أخرى من النادلة التي بقيت تهتمّ بنا طوال الوقت، لكنّني فضّلت تناول كأس نبيذ «غير صالح للشرب» بدلًا منها. وفي هذه الأثناء، كانت الفرقة الموسيقية قد بدأت تعزف موسيقى التلال، وما إن بدأت، حتى دخل زوج إلى الحلبة وبدآ بالرقص. فرحت أركّز على خطواتهما، وشعرت بأن حركاتهما الدقيقة قد عكست ذلك التوتّر الذي ظهر فجأة بيني وبين فلوريانو.

عندما زاد عدد الأزواج الذين دخلوا إلى الحلبة للرقص قلت له:

- إذًا هل ستعلّمني رقصة السامبا؟ ومددت ذراعي فوق الطاولة.

من دون أن يقول شيئًا، نهض عن الطاولة وسحبني معه لننضمّ إلى الباقين. وضع إحدى ذراعيه حول خصري ورفع الأخرى ليقبض بها على أصابعي.

- والآن ما عليك سوى الاستسلام للإيقاع والشعور به وهو يجري في عروقك يا مايا، هذا كلّ شيء.

وهكذا فعلت، فتركت نبضي يحرّكني. ثمّ بدأ وركاي يترجّحان بالتزامن مع قدمي فلوريانو. في البدء، راحت أقدامنا تتحرّك على نحو أخرق، بينما كنت أدرس

خطوات الراقصين الآخرين من حولي. لكن سرعان ما أصبحت تلقائية، فشعرت بالاسترخاء وتركت جسمي يتحرّك مع الإيقاع.

لم أحسب المدّة التي رقصنا فيها تلك الليلة، ولكن حين ازدحمت الحلبة، شعرت بأنّنا تحوّلنا كلّنا كتلةً متجانسةً تتحرك بوتيرة واحدة، بأنّنا مجموعة من الكائنات البشرية، أتينا جميعنا إلى هنا لنحتفل بفرحة الحياة. كنت واثقة من أنّني، بالنسبة إلى أيّ راقص سامبا محترف، مجرّد هاوية مبتدئة. لكن، ولأوّل مرّة في حياتي، لم أهتمّ بما قد يعتقد الآخرون. راح فلوريانو يحرّكني ويلفّني حول نفسي ثمّ يقرّبني منه إلى أن ضحكت بصوتٍ عالٍ في لحظة ابتهاج.

في النهاية، وبعد أن تعرّقنا بغزارة، قادني فلوريانو خارج حلبة الرقص، وأمسك بقنّينة المياه الموضوعة على الطاولة، وخرجنا إلى الشارع لننعش أنفسنا ببعض الهواء النقي الذي لم يتأخّر فلوريانو بإشعال سيجارة لتلويثه.

- يا إلهي، مايا! بالنسبة إلى مبتدئة، أداؤك لا يصدق! فأنت كاريوكا أصيلة.

«هذا بفضلك، لقد شعرت بذلك حقًا هذه الليلة، شكرًا لك». وحرّكت أصابعي نحوه لأسحب منه السيجارة وأنفخها، فشعرت به يراقبني وأنا أفعل بالمثل.

- تبدين جميلة في هذه اللحظة. تمتم قائلًا.

- أجمل بكثير من جدّتك الكبرى. الليلة، هناك نور يشعّ من داخلك.

- أجل، وهذا بفضلك يا فلوريانو.

- أنا لم أفعل شيئًا يا مايا. بل أنت من قرّر أن يعود إلى الحياة من جديد.

فجأة شدّني بين ذراعيه وقبل أن أدرك ما يحصل راح يقبّلني فاستسلمت له.

- من فضلك. همس لي ما إن تباعدنا قليلًا لالتقاط أنفاسنا.

- رافقيني إلى منزلي هذه الليلة.

غادرنا النادي. وما إن صعدنا السلالم المؤدّية إلى شقّته حتّى شدّ ثوبي عن كتفيّ وراح يسحبني إليه في الممرّ الضيّق، وصدى موسيقى التلال لا يزال يتردّد في أذنيّ. في النهاية، صعدنا إلى سريره ومارسنا الحب مرّة أخرى، وهذه المرّة ببطء لكن بالشغف نفسه.

عندما انتهينا، استند إلى مرفقيه وراح يحدّق إليّ بنظراته الثاقبة المألوفة.

- لقد تغيّرت كثيرًا يا مايا. قال لي.

- عندما التقيتك لأوّل مرّة، وجدتك جميلة كأيّ رجل، لكنّك كنت منغلقة على نفسك، وشديدة التوتّر. أمّا الآن، انظري إلى نفسك... قال وهو يقبّلني في ذلك الجوف في أسفل عنقي، ثمّ يتحرّك فوقي ليعانق ثدييّ.

- أنت لذيذة جدًّا. كنت أنتظر رحلتي إلى باريس طوال أشهر، وها أنا الليلة، وعلى بعد ساعات من موعد إقلاع الطائرة، أشعر برغبة في البقاء هنا معك. مايا أنا أعشقك. ثمّ تحرّك فوقي مجددًا ليلصق جسده العاري بجسدي وهو يحدّق إلى وجهي. ثمّ قال بإلحاح:

- تعالي معي إلى باريس.

- فلوريانو، دعنا نَعِشْ هذه الليلة بعمق. أنت من علّمني أن أعيش كلّ لحظة بلحظتها. لكنّك تعرف أنّني لا أستطيع.

- لا، ليس غدًا، لكن من فضلك بمجرد أن تتحدّثي إلى السيّدة العجوز، اركبي أوّل طائرة وتعالي إليّ لنقضي معًا بضعة أيام رائعة مثل هذا اليوم.

لم أجب، وحتّى لم أرغب في التفكير بالغد، كلّ ما كان يهمّني في تلك اللحظة كان ما أعيشه فيها. في النهاية، غفا بجواري ورحت أراقبه وهو غارق تحت ضوء القمر الذي كان يسطع عبر النافذة. فمددت ذراعي لألمس خدّه بأصابعي.

- شكرًا لك. همست في أذنه.

- شكرًا لك.

48

لم أنم في السرير إلى جانب أي شخص منذ أكثر من أربعة عشر عامًا، لذلك استيقظت وأنا في الوضعية نفسها التي غفوت عليها. شعرت فجأة بيد تهزّ كتفي بلطف، ففتحت عينيّ على فلوريانو وهو ينظر إليّ. كان يرتدي ملابسه ويشير إلى كوب القهوة الذي وضعه على الطاولة بجانب السرير.

- حضّرت لك القهوة.

أجبته وأنا ما أزال أشعر بالنعاس:

- شكرًا لك. كم الساعة؟

- الثامنة والنصف. سأخرج فورًا إلى المطار، فرحلتي بعد ثلاث ساعات.

- وأنا أيضًا سأسرع إلى الفندق لأغيّر ملابسي. قلت له وأنا أتأهّب للخروج من السرير.

- يُفترض أن أكون في الدير عند العاشرة.

فجأة وضع فلوريانو يده على ذراعي ليستمهلني.

- *querida*، لا أعرف ما هو مشروعك بعد لقائك بياتريس، لذلك سأكرّر ما قلته في الليلة الماضية؛ تعالي إلى باريس، أرغب بشدّة في أن نمضي بعض الوقت سويًّا هناك. عِديني بأنّك ستفكّرين في الأمر.

- حسنًا، أعدك بذلك.

- ممتاز. قال فلوريانو وهو يحكّ أنفه ويبتسم.

- أكره أن أقول ذلك، لكن لا أدري لمَ تذكّرت الآن بيل ولوران. أرغب في تحقيق نهاية سعيدة في هذه العلاقة. ومدّ أصابعه ليزيل خصل الشعر الهابطة فوق جبيني ثمّ انحنى فوقي ليقبّلني.

- إلى اللقاء، وأتمنّى لك كلّ التوفيق في المقابلة. يجب أن أنطلق.

- أتمنّى لك رحلة آمنة. أجبته بينما كان يتوجّه إلى الباب.

- شكرًا لك. من فضلك أغلقي الباب خلفك وأنت تغادرين. پترا ستعود بعد يومين. وداعًا *querida*.

سمعت صوت انغلاق الباب فقفزت من السرير وارتديت ملابسي وغادرت الشقة على الفور لأركض في شوارع إيبانيما باتّجاه الفندق. عبرت الردهة برأس مرفوع وطلبت مفاتيحي من مكتب الاستقبال، غير آبهة لنظرات موظّفة الاستقبال إلى مظهري الأشعث. سألتها إذا كان بييترو متاحًا بعد عشرين دقيقة ليأخذني إلى الدير.

في جناحي، أخذت حمامًا سريعًا على الرغم من أنّني كنت مسرورة برائحة فلوريانو على جسدي، وارتديت شيئًا أكثر ملاءمة، وبعد خمس عشرة دقيقة، عدت إلى الردهة لأرى بييترو ينتظرني في الخارج وهو يبتسم، فركبت السيّارة.

- سينيوريتا داپلييز، كيف حالك؟ لم أركَ منذ أيّام. نحن ذاهبان إلى مستشفى الدير، أليس كذلك؟

- أجل من فضلك. قلت له ونحن ننطلق، قبل أن أعيد انتباهي المشتّت إلى تلك المقابلة.

عندما وصلنا، كانت يارا تنتظرني في الخارج، فلاحظت توتّرها.

- مرحبًا سينيوريتا مايا. شكرًا لقدومك.

- شكرًا لك على ترتيب اللقاء.

- في الواقع، لم أكن أنا. كانت سينيورا بياتريس من طلبت ذلك ومن دون أن أسألها. هي تعرف أنّه لم يتبقّ أمامها إلّا وقتًا طويلًا. هل أنت جاهزة؟

شعرت بالتعاطف في عيني يارا.

فأجبت بنعم.

قادتني على طول الممر الواسع والمظلم إلى جناح المستشفى. عندما دفعت بمصراعي الباب لنكمل طريقنا، شممت رائحة مطهر تختلط برائحة مختلفة لم أتمكّن من تحديدها. لكنّها ذكّرتني بباقي المستشفيات التي زرتها، وآخرها كان ذلك الذي أنجبت فيه طفلي.

- سينيورا بياتريس تنتظرك هناك. أشارت إلى باب موجود في نهاية الممر.

- سأذهب إليها لأرى فقط إذا كانت جاهزة.

جلست على المقعد في الخارج أفكّر في أنّه مهما يكن ما ستخبرني به بياتريس اليوم فلن أتيح له أن يحبطني من جديد. فذاك من الماضي، وأمس بدأت أتطلّع إلى المستقبل.

عاد باب الغرفة وفُتح من جديد فأومأت يارا إليّ للدخول.

- هي بحالة وعي تام، وقد أخبرت الممرضة أنّها لا تريد أي مهدّئات قبل الانتهاء من التحدّث إليك، لتحافظ على صفاء ذهنها. أمامكما ساعة قبل أن يشتدّ الألم مجدّدًا.

ثمّ أدخلتني غرفة مشرقة ومهوّاة تتميّز بإطلالتها الجميلة على الجبال والبحر. وعلى الرغم من أن السرير كان من النوع الذي يصمّم للمستشفيات، لكن كلّ ما تبقّى كان يُذكّر بغرف النوم العادية.

- صباح الخير يا مايا.

رأيت بياتريس تجلس على كرسي بجوار النافذة، فأدهشني استقبالها الحارّ.

- شكرًا لقدومك. من فضلك اجلسي. قالت وهي تشير إلى الكرسي الخشبي الموضوع قبالتها.

- يارا، اتركينا وحدنا من فضلك.

- نعم، سينيورا. إذا احتجت إلى شيء اضغطي على الجرس. قالت يارا وهي تغادر الغرفة.

استغللت فرصة حديث السيّدة مع خادمتها، لأتأمّل بياتريس قليلًا. فبعد ما قالته يارا عنها، حاولت أن أنظر إليها من زاوية مختلفة. لم تكن في الظاهر تشبه والدتها إيزابيلا، وممّا لا شكّ فيه أنّها كانت تتمتّع بسمات أوروبية وبشرة فاتحة مثل والدها. كما أنّني ولأول مرة، لاحظت لون عينيها الأخضر الذي أحيا وجهها الهزيل.

- مايا، أريد أولًا الاعتذار منك عن استقبالي لك في المرّة السابقة. فرؤيتك تمشين هكذا في حديقتي، وأنت صورة حيّة عن أمّي، شكّلت صدمة كبيرة لي. وبالطبع هناك القلادة... لقد تعرّفت إليها على الفور مثل يارا. تلك القلادة تركتها لي أمّي إيزابيلا، وأنا قدّمتها إلى ابنتي في عيد ميلادها الثامن عشر. فجأة أحسست بألمها يطفو في عينيها وربّما كان حنينها، لم أكن واثقة.

أردفت بعد صمت:

- سامحيني يا مايا، لكنّني كنت بحاجة إلى الوقت لأقرّر ما يجب عليّ فعله حيال ظهورك المفاجئ في حياتي، وأنا على وشك الرحيل.

- سينيورا بياتريس، أكرّر لك أنني لست هنا من أجل المال أو الميراث أو أي شيء من هذا القبيل. لكنّ بياتريس رفعت يدها في وجهي لتقاطعني.

- قبل كلّ شيء، من فضلك ناديني بياتريس. لأنّني أعتقد، وللأسف، أنّ الوقت قد تأخّر بعض الشيء لتناديني بجدّتي، أليس كذلك؟ ثانيًا، أقرّ بأنّ توقيت ظهورك يلائمني كثيرًا لدرجة اعتباره من باب المصادفة، وثقي بأنّه لم يقلقني. ولو اضطررنا إلى إثبات نسبك، نستطيع إجراء اختبار الحمض النووي في هذه الأيام. فضلًا عن أنّ جيناتك بادية مثل نور الشمس على ملامحك. لا... تنهّدت قائلة:

- كان شيئًا آخر ما جعلني أتردّد.

- ما هو؟

- مايا، الطفل الذي يتمّ التخلّي عنه أو الذي يفقد أحد والديه ميّال إلى تخيّل أمّه البيولوجية أو أبيه البيولوجي بصورة مثالية. أعلم ذلك لأنّ هذا ما حصل مع والدتي. فإيزابيلا في مخيّلتي هي امرأة مثالية، على الرغم من أنّني واثقة من وجود عيوب كثيرة لديها مثل كلّ إنسان.

قلت لها:

- نعم، أعتقد أنك على حق.

توقّفت عن الكلام للحظة، لتدرس ملامحي.

- لذلك، عندما رأيتك متلهّفة إلى التعرّف إلى والدتك واكتشاف الأسباب التي دفعتها إلى التخلّي عنك، شعرت بأنّني غير قادرة على الكذب عند إجابتك عن أسئلتك. أمّا إذا قرّرت إخبارك بالحقيقة، فحينها سأدمّر أي صورة رسمتها عنها في ذهنك.

- فهمت الآن المعضلة التي وجدت نفسك فيها. قلت لها وأنا أحاول طمأنتها.

- لكنني أريدك أن تعلمي أنّني، إلى حين وفاة والدي بالتبنّي، لم أفكّر يومًا في التعرّف إلى والدتي الحقيقية أو حتّى والدي. فقد حظيت بنشأة سعيدة للغاية، كما كنت أعشق أبي ومارينا، المرأة التي ربّتني أناو أخواتي، والتي قدّمت لنا الرعاية القصوى وما تزال تقدّمها حتّى اليوم.

- حسنًا، أعتقد أن هذا سيساعدنا كثيرًا. قالت بياتريس.

- لأنّ القصة التي سبقت وصولك إلى الميتم ليست قصة جميلة. لا، بل أعتبر أنّه من المروّع أن تجد أي أمّ نفسها تقوم بمجهود لتحبّ طفلها وتفشل في النهاية. ويؤسفني القول بأنّ هذا ما حدث مع كريستينا. سامحيني يا مايا، فآخر شيء أريد أن أقوم به الآن هو التسبّب لك بمزيدٍ من الأسى. لكنني أرى أنّك امرأة ذكية، ولذلك لن أقدر على إخبارك بتفاهات وأكاذيب، لأنّني واثقة من أنّك ستكتشفينها. أريدك فقط أن تتذكّري بأنّه لا يمكن للآباء أن يختاروا أطفالهم، ولا يمكن للأطفال أن يختاروا آباءهم.

فهمت ما كانت بياتريس تحاول أن تخبرني به، لذلك فكّرت للحظة أنّه ربّما كان من الأفضل لي ألّا أعرف مزيدًا. لكنّني كنت قد قطعت شوطًا طويلًا في رحلة بحثي، وربما من أجل بياتريس نفسها، كان عليّ أن أسمعها حتّى النهاية. لذلك أخذت نفسًا عميقًا وقلت لها بهدوء:

- لمَ لا تخبرينني عن كريستينا؟

بعد أن أدركت بياتريس أنّني اتّخذت قراري قالت:

- ممتاز. قالت لي يارا إنّها أخبرتك عن حياتي، لذلك أفترض أنّك أصبحت تعرفين أنّ زوجي أي جدّك، وأنا عشنا زواجًا سعيدًا، واكتملت فرحتنا عندما اكتشفت أنّني حامل. لكنّ ابننا الأول توفّي بعد أسابيع من ولادته. وعندما أنجبت كريستينا بعد بضع سنوات، اعتبرناها هديّة قيّمة.

أخذت نفسًا عميقًا وشعرت بأفكاري المشتّتة تتجمّع حول ابني الضائع.

تابعت بياتريس: وبعد أن حُرمت في طفولتي من حب الأبوين، حرصت بعد إنجابي كريستينا على تربيتها بكل الحب الذي كنّا أنا ووالدها قادرين على تقديمه. ولأكون صريحة معك يا مايا، كريستينا كانت طفلة صعبة منذ لحظة ولادتها. إذ نادرًا ما كانت تنام ليلًا، ومع الوقت أصبحت تتعرّض لنوبات غضب شديدة كانت تدوم ساعات في بعض الأحيان. وعندما أدخلناها المدرسة، راحت تتورّط في مشكلات كثيرة، وفي كلّ مرّة، كانوا يستدعوننا ليقولوا إنّها تعرضت لطفل وتنمّرت على آخر وأبكت ثالثًا... أعترف لك بأنّ الوضع كان فظيعًا. قالت بياتريس بصوت مرتعش عكس مدى تألّمها من تلك الذكريات.

- وفي النهاية تبيّن لنا أنّ كريستينا لم تكن تندم على إيذائها الآخرين حتّى أن ضميرها لم يكن يؤنّبها. قالت بقهر.

- مايا أخبريني من فضلك إذا كنت تفضّلين أن أتوقّف هنا.

- لا، تابعي أرجوك. أجبتها تلقائيًّا وكأنّني مخدّرة.

- وبالطبع، كانت سنوات المراهقة هي الأسوأ. وقد عانينا أنا ووالدها من عدم احترامها من هو أكبر منها، سواء كنّا نحن أو أيّ شخص آخر تتعامل معه. والمؤسف في الأمر هو أنّها كانت شديدة الذكاء، ولم يكفّ مدرّسوها للحظة عن تذكيرنا بذلك. فعندما كانت أصغر سنًّا، قاموا باختبار معدّل ذكائها وتبيّن أنّه أعلى من المتوسط العام بأضعاف. في السنوات الأخيرة، بعد أن تطوّر الطبّ كثيرًا، وتعمّقوا أكثر في دراسة الصحة العقلية، قرأت مقالات عمّا يسمّونه متلازمة أسبرجر. هل سمعت بها؟

- نعم.

- حسنًا، يبدو أنّ من يعانون من تلك المتلازمة يتحلّون بمعدّل ذكاءٍ عالٍ جدًّا، لكنّ معدّل حساسيّتهم وتعاطفهم تجاه الآخرين متدنٍّ جدًّا. وهذا أفضل تشخيص باعتقادي لما حدث مع والدتك. على الرغم من أنّ لوين، والدة يارا، قالت لي مرارًا إنّ كريستينا كانت تذكّرها بجدّتي لويزا، التي لا أكاد أتذكّرها لأنّها توفّيت عندما كنت في الثانية من عمري، بعد يومين من رحيل أمّي.

- نعم، أخبرتني يارا بذلك.

- سواء كان السبب وراثيًّا، أو ما يسمّونه في هذه الأيام متلازمة، أو ربّما يكون مزيجًا من الاثنين، فقد استحال علينا التعامل مع شخصية كريستينا. كما عجز كثير من الخبراء الذين استشرناهم عن تقديم الحلول لنا. قالت بياتريس وهي تهزّ برأسها من الحزن.

- عندما بلغت السادسة عشرة من عمرها وبدأت تقضي معظم وقتها خارج المنزل، راحت تتردّد إلى حانات مشبوهة في المدينة وتتعرّف إلى أصدقاء السوء. تستطيعين اليوم أن تتخيّلي مدى خطورة تلك الحانات الموجودة في ريو، وخصوصًا على من هم دون خمسة وثلاثين عامًا. وأكثر من مرّة، عادت إلى المنزل بصحبة الشرطة، بعد أن يعثروا عليها في حالة سكر وضياع وهي لا تزال قاصرًا، فيقوموا بتهديدها بالملاحقة القضائية بتهمة شرب الكحول وهي قاصر. وكانت تهدأ إثر ذلك لفترة وجيزة ثمّ تعود إلى سابق عهدها. لاحقًا اكتشفنا أنّها لم تكن تذهب إلى المدرسة، وبدلًا من ذلك، كانت تقضي تلك الفترة الزمنية في الأحياء الفقيرة مع أصدقائها الذين يعيشون هناك.

توقّفت بياتريس عن الكلام وراحت تحدّق من النافذة إلى الجبال البعيدة قبل أن تعاود النظر إليّ وتضيف:

- وفي النهاية، لم يكن أمام المدرسة سوى طردها، خصوصًا بعدما عثروا على زجاجة روم في حقيبتها المدرسية، وبعد أن ورّطت باقي الفتيات معها، إذ وصل الجميع ذات يوم إلى حصّة الدرس وهنّ في حالة سكر. فقمنا أنا ووالدها بتوظيف مدرّس خاص لنحضّرها لامتحاناتها ولنبقيها تحت أنظارنا. كما أنّنا قمنا أحيانًا بحبسها

في غرفتها عندما كانت تصرّ على الخروج ليلًا. لكنّ الغضب عقب ذلك كان كارثيًا، فضلًا عن أنّها كانت دائمًا تجد طريقة للهروب منها، فلم نقدر على ضبطها. عزيزتي من فضلك، أعطني بعض الماء الموضوع على الطاولة بجانب السرير، لقد جفّ حلقي من كثرة الكلام.

- بالطبع. قلت وأنا أنهض لأحضر لها الكوب والشاروقة. وعندما حاولت الإمساك بالكوب، رأيت يديها ترتجفان لدرجة لم تستطع القيام بذلك وحدها، فساعدتها على وضع الشاروقة في فمها وبقيت أمسك بها إلى أن روت عطشها، وقالت لي:

شكرًا. ثمّ نظرت إليّ بعينيها الخضراوين باستياء.

- هل أنت واثقة من رغبتك في سماع مزيدٍ؟

- نعم. قلت لها وأنا أعيد الكوب إلى مكانه وأجلس مجدّدًا قبالتها.

- حسنًا، ذات يوم اكتشفت أن قلادة الزمرد والأقراط التي ورثتها عن والدتي، تلك التي أهداها جدّي لها في عيد ميلادها الثامن عشر، والتي كانت تساوي ثروة، اختفت من صندوق مجوهراتي. كانت الشيء الوحيد الذي لم أجدها فيه يومها، ففهمت أنّها لم تكن حادثة سرقة. حينها كانت كريستينا تصرف معظم وقتها في الأحياء الفقيرة، فاستنتجنا، أنا ووالدها، أنّها متورّطة مع رجل ما، يدفعها إلى فعل ذلك، فضلًا عن أنّني كنت قد بدأت ألاحظ التعب في عينيها طوال الوقت وتضخّم البؤبؤ. استشرت طبيبًا صديقًا لي، فأخبرني أنّ السبب قد يكون تعاطيها المخدرات.

تابعت بياتريس بصوت مرتعش من وطأة تلك الذكرى المؤلمة:

- وبالطبع، عندما أخبرني عن كلفتها الباهظة، فهمت سبب اختفاء طقم الزمرد. لا بدّ من أنّها سرقته لتبيعه وتدفع ثمن المخدّرات. بحلول ذلك الوقت، كنّا أنا ووالدها على شفير الطلاق. فإيفاندرو شعر بالإرهاق من مشكلاتها وبدأ بالاستسلام. أمّا كريستينا فكانت قد بلغت الثامنة عشرة من عمرها قبل شهرين، وما زلت أذكر حتى اليوم وجهها الخائب عندما قدّمت لها حجر القمر الذي يعود لأمّي، لأنّها كانت تعلم بأنّه ليس له قيمة عالية.

أضافت بياتريس وهي تذرف الدموع لأوّل مرّة:

- قامت بردّ فعل كان الأفظع على الإطلاق. ذلك الحجر كان بالنسبة إليّ ذا قيمة معنوية كبيرة، وكنت أعرف أنّه هديّة من والدي إلى أمّي، وبعد وفاتها أهداني إياه. فأعطيته لابنتي التي لم تخجل من السؤال كم كان سيجلب لها من نقود إذا باعته لمتجر المجوهرات لتتمكن من دفع ثمن المخدّرات. أعتذر يا مايا. قالت بياتريس وهي تخرج منديلًا من جيب ردائها.

قلت لها في محاولة لتهدئتها:

- أرجوك يا بياتريس، لا تعتذري. أفهم تمامًا كم هو مزعج ما تخبرينني به. تذكّري أنّك تصفين لي شخصًا لم ألتقِه يومًا، سواءً كان جيدًا أم سيّئًا. لذلك ثقي بأنّني لا أشعر بشيء تجاهها، لأنني لم أعرفها شخصيًّا.

- حسنًا، في النهاية قرّرنا أنا وزوجي أنّ نواجهها ونحذّرها من أننا سنضطر لطردها من المنزل إذا لم تتوقّف عن تعاطي المخدرات وعن سرقتنا. وفي الوقت نفسه، قدّمنا لها كلّ المساعدة والدعم لتنجح في ذلك، لو أنّها حاولت مساعدة نفسها. لكنّ الوقت كان قد تأخّر وأصبحت مدمنة، وآثرت العيش مع أصدقائها هناك في أعلى التلال في الأحياء الفقيرة. وفي النهاية، حزمنا لها حقيبتها وطلبنا منها مغادرة المنزل.

- بياتريس، أنا آسفة. أتصوّر أنّك عانيت الأمرّين في ذلك الوقت، لا بدّ من أنّه كان أمرًا صعبًا بالنسبة إليك. قلت لها وأنا أمدّ يدي وأضغط على يدها بلطف مبدية تعاطفي معها.

قالت وهي تأخذ نفسًا عميقًا:

- لقد كان الأمر كذلك. لكنّنا أصررنا على إفهامها أنّها إذا رغبت يومًا في العودة إلينا، فعليها أن تتخلّى أوّلًا عن عاداتها السيّئة، وحينها سنرحّب بعودتها برحابة صدر.

أتذكّر كيف نزلت السلالم عند المدخل وهي تمسك بحقيبتها. سارت مباشرة من دون أن تنظر خلفها، وعندما توقفت للحظة ونظرت إلى الوراء، رأيت الكراهية في عينيها. قالت بياتريس وقد علا صوت بكائها:

- ما زالت تلك اللحظة تطاردني حتّى اليوم. كانت تلك آخر مرة أرى فيها ابنتي.

ساد الصمت بيننا لبرهة، كما لو أنّ كلّ واحدة منّا غرقت في أفكارها. وعلى الرغم من إصراري على أنّ كلّ ما قالته بياتريس لم يزعجني، إلّا أنّه، بالنظر إلى فظاعة القصة التي روتها لي، كان من المستحيل ألّا أتأثّر ولو قليلًا. ففي النهاية، دم كريستينا يجري في عروقي. لذلك رحت أفكّر إذا كنت قد ورثت منها عيوبها.

- مايا، أعرف ما تفكرّين فيه. قالت بياتريس فجأة وهي تجفّف عينيها وتحدّق إليّ من جديد مضيفةً: اسمحي لي أن أؤكّد لك، ممّا أشعر به بالنظر إليك وممّا أخبرتني به يارا، أنك لا تشبهينها على الإطلاق. يُقال إن الجينات قادرة على تخطّي أجيال، وأنت صورة حيّة عن أمّي إيزابيلا. فممّا سمعته عنها من الآخرين، يمكنني التأكيد بأنّ شخصيّتك قريبة جدًّا من شخصيّتها.

كنت أدرك أنّ بياتريس تحاول أن تتصرّف معي بلطف. ومنذ البداية، أي منذ أن سمعت لأول مرة عن جدتي الكبرى ورأيت مدى أوجه الشبه بيننا، شعرت بتعاطفٍ تلقائيٍّ معها. لكنّ ذلك لا يغيّر حقيقة ما كانت عليه والدتي.

- حسنًا إذا لم تري كريستينا مرّة أخرى، فكيف عرفت أنّها أنجبتني؟ سألتها وأنا أعضّ على الشاروقة، لعلّني أجد ثغرة وأنجح في إلغاء فرضيّة أن يكون هناك صلة تربطني بتلك العائلة، أو بأمّي.

- ما كنت لأعرف يا عزيزتي، لولا صديقة لي كانت تعمل في ذلك الوقت متطوعةً في واحدة من دور الأيتام الكثيرة في ريو. معظم الأطفال الذي كانوا يصلون إلى الميتم كانوا من الأحياء الفقيرة، وصديقتي كانت حاضرة هناك عندما تركتك كريستينا في الميتم. وعلى الرغم من أنّها لم تذكر اسمها عندما رمتك هناك وغادرت مسرعة كما تفعل أمهات كثيرات، استغرقت صديقتي بضعة أيّام لتتذكّر أنّ كريستينا هي ابنتي، إذ أنّها في البدء لم تتعرّف إليها بعد أن فقدت وزنها بشكل صادم وفقدت بعضًا من أسنانها. قالت بياتريس بحسرة.

- وفي النهاية، عندما تذكّرتها جاءت مسرعة إليّ لتخبرني أنّها تركتك مع قلادة من حجر القمر. وعندما وصفت القلادة لي، أدركت أنّها تلك التي قدّمتها لها. وعلى

الفور، توجّهت مع إيفاندرو إلى الميتم لنعود بك إلى المنزل ونعتني بك مثل ابنتنا. لكن على الرغم من أنّه لم يمرّ أسبوع على وجودك هناك، جاء أحدهم وتبنّاك. فاندهشت صديقتي لأنّه بحسب ما قالت، كان هناك أطفال كُثُر حديثو الولادة وصلوا في الوقت نفسه إلى تلك الدار. وفي العادة يستغرق أمر تبنّيهم أسابيع عدّة إذا قُدّر لهم الرحيل. لذلك رجّحنا أن تعود السرعة في تبنّيك لأنك كنت طفلة جميلة يا عزيزتي. قالت بياتريس وهي تبتسم لي.

وإذا بذلك السؤال الذي بقي يدور في خلدي إلى أن خرج تلقائيًا:

- وهل هذا يعني أن صديقتك رأت والدي بالتبني؟

- نعم. أكّدت لي بياتريس.

- كما رأت المرأة التي جاءت برفقته ليخرجاك من هناك. لقد أكّدت لي صديقتي أنّهما بدوَا لطيفين جدًّا. فتوسّلناها أنا وإيفاندرو لتخبرنا بالمكان الذي اصطحباك إليه، لكنّها كانت متطوّعة، لذلك لم تكن تملك مثل تلك المعلومات.

- فهمت.

- لكنها كانت قادرة على فعل شيء واحد فقط. ستجدين في ذاك الدرج هناك مظروفًا. قالت وهي تشير إليه بأصبعها.

- كانت دار الأيتام تلتقط صورة لكلّ طفل يصل إليها، وتضمّها إلى سجلّاتها. وبعد أنّ تمّ تبنّيك وغادرت الميتم ما يعني أنّ ملفّك قد أقفل، استطاعت صديقتي أن تحضر لي تلك الصورة كتذكار. ستجدينها في الدرج، تستطيعين أن تلقي نظرة عليها.

مشيت إلى الدرج وأخرجت منه المظروف. وعندما أمسكت بالصورة التي تحدّثت عنها، وجدت صورة قديمة بالأسود والأبيض لطفلة بشعر داكن وعينين ضخمتين ومذهلتين. وكنت قد رأيت عددًا من الصور التي التقطت لي وأنا صغيرة بين ذراعي مارينا أو في أحضان يا سولت، فتعرّفت على الفور إلى نفسي ولم يساورني أدنى شكّ.

- إذًا لم تعرفي هويّة الشخص الذي تبنّاني؟ سألت بياتريس.

- لا. على الرغم من أنّني حاولت كثيرًا وآمل أن يكون لديك فكرة عن مدى صعوبة ذلك. حتّى أنّنا شرحنا لمديرة الميتم أنّنا جدّاك الحقيقيّان وأنّنا كنّا ننوي تبنّيك لأنّك من صلبنا. فطلبت منّا دليلًا يثبت بأنّك حقًّا حفيدتنا. لكنّنا للأسف لم نجد ما يثبت ذلك. قالت بياتريس وهي تتنهّد بعمق.

- خصوصًا أن اسم أمّك لم يكن مذكورًا في الملف. وعندما أبرزت لها صورتي وأنا أضع قلادة حجر القمر تلك، قالت إنّها ليست كافية في نظر القانون. فطلبت منها، أو بالأحرى، توسّلت إليها أن تسمح لي على الأقل بالتواصل مع عائلتك الجديدة، لكنّها رفضت بحجّة أنّ التجارب السابقة أثبتت لهم أنّ من الأفضل للجميع ألّا تكون عائلة الطفل الحقيقية على صلة بعائلته الجديدة. كانت سياستهم صارمة وقواعدهم غير قابلة للكسر. لذلك، على الرغم من كلّ جهودنا ومساعينا، وصلنا في النهاية إلى طريق مسدود.

همست لها:

- شكرًا على المحاولة.

- صدّقيني يا مايا، لو لم يتمّ تبنّيك بتلك السرعة لكانت حياتنا قد اختلفت جذريًّا. أعدت الصورة إلى داخل المظروف لحاجتي إلى التركيز أكثر على ما كانت تقوله، ونهضت لأعيدها إلى الدرج.

- لا يا عزيزي، احتفظي بها لأنّني لم أعد بحاجة إليها الآن، وأنت تقفين أمامي بلحمك ودمك.

في تلك اللحظة شعرت بأنّ ألمها بدأ يزداد، فعرفت أن وقت المقابلة بدأ ينفد.

- ألم تعرفي هويّة والدي الحقيقي؟ سألتها.

- لا.

- وكريستينا؟ ماذا حلّ بها؟

- للأسف، لم أسمع عنها شيئًا منذ آخر مرّة. وآسفة للقول إنني غير قادرة على الجزم بأنّها حيّة أو ميتة. لقد اختفت عن الأنظار بعد أن تركتك في الميتم. وهذا ما كان يحصل كثيرًا في تلك الأيام في ريو. قالت بياتريس وهي تتنهّد مجددًا.

- أتمنّى، إذا قرّرت البحث عنها بنفسك، أن يحالفك الحظ. ففي هذه الأيام، تبدي السلطات استعدادًا أكبر في مساعدة الأولاد الذين يبحثون عن آبائهم المفقودين منذ زمن بعيد. إذا كان حدس الأم صائبًا في الغالب، فهو يقول لي إنّ كريستينا ميتة. فأولئك الذين يأتون إلى هذه الحياة ليدمّروا أنفسهم ينجحون في معظم الأحيان. ومع ذلك، قلبي ينفطر لمجرّد التفكير في ذلك.

- لا بدّ من أن ينفطر، أجبتها وأنا أعرف حقّ المعرفة ما كانت تشعر به.

- لكن على الأقل يا بياتريس، عليك أن تشعري بالراحة لأنّها عندما غادرت المنزل، أخذت معها قلادة حجر القمر، وقد تركته لي لاحقًا. فهي كانت تعرف ما تمثّله لك تلك القلادة، وتبيّن أنّها كانت مهمّة بالنسبة إليها، على الرغم من كلّ ما حدث من قبل. وهذا يظهر أنها، في الصميم، كانت تحبّك.

- ربّما أنت على حقّ. أومأت بياتريس وهي تجهد في إظهار ابتسامتها على شفتيها الجافّتين.

- والآن يا عزيزتي، هل لي أن أطلب منك قرع الجرس لتأتي الممرضة؟ لم أعد قادرة على تحمّل الألم، وأعتقد أنه حان الوقت لأتناول حبّة من تلك الحبوب المروِّعة التي تطرحني في السرير، لكنّها تساعدني في تحمّله.

- بالطبع. ثمّ ضغطت على الجرس وشاهدت بياتريس تمدّ يدها الضعيفة إليّ.

- مايا، من فضلك عديني بأنّك لن تسمحي لتلك القصة التي رويتها لك أن تؤثر في مستقبلك. قد يكون والداك قد خذلاك، لكن ثقي بأنّني، أنا وجدّك، لم نتوقّف لحظة عن حبّك والتفكير فيك. أمّا ظهورك في حياتي الآن فيجعلني أخيرًا أشعر بالسلام.

اقتربت منها، ولففت ذراعي حولها لأحتضن لأول مرّة في حياتي شخصًا يجري دمه في عروقي، وأنا أتمنّى في أعماقي لو كنا نستطيع صرف بقية الوقت سويًّا.

- شكرًا على هذا اللقاء. على الرغم من أنّني لم أعثر على أمّي، لكنّني عثرت عليك. وهذا يكفيني. قلت لها بلطف.

دخلت الممرضة إلى الغرفة.

- مايا، هل ستكونين في ريو غدًا؟ سألتني بياتريس فجأة.

- سأبقى إذا أردت ذلك، نعم.

- إذًا، عودي لزيارتي. اليوم أخبرتك بالأمور السيئة، لكن إذا خصّصت لي مزيدًا من وقتك، فعلينا استغلاله لتتعرّفي إليّ وأتعرّف إليك. لن تتخيّلي كم كنت أتوق إلى التعرّف إليك عن كثب.

شاهدت بياتريس وهي تفتح فمها مطيعة لتناول الحبوب التي قدّمتها لها الممرضة.

- أراك غدًا في الوقت نفسه». قلت لها.

رأيتها تلوّح بيدها الضعيفة لتودّعني، قبل أن أغادر الغرفة.

49

عدت إلى الفندق واستلقيت على السرير منطويةً على نفسي مثل كرة، وما هي إلّا لحظات حتّى غفوت. استيقظت وأنا أفكّر في بياتريس وفي ما قالته لي، ورحت أبحث في ذهني عن ردّ فعلٍ تجاه ما عرفته. لكنني لم أشعر بشيء على الرغم من فظاعة القصة التي سمعتها من جدّتي.

تذكّرت ما شعرت به عندما رأيت أمس أولئك الأطفال في الأحياء الفقيرة: كانوا يرقصون وكلّهم أمل في الحياة، فأدركت أن ذلك الشعور نابع، على الأرجح، من شعوري الدفين بالانتماء لكنني في ذلك الوقت لم أكن قادرة على تفسيره. أما الآن فقد أصبحت على يقين تامّ بأنّني وُلِدت هناك في أحد تلك الأحياء. وما قامت به والدتي، بغض النظر عن الدافع في ذلك الوقت، قد أنقذني لا محالة من مستقبل بائس. واليوم، لم أعد آبه لمن هي أمّي أو لمن هو أبي، بعد أن عثرت على جدّة تحبّني بصدق وتهتمّ لأمري.

فكّرت إن كان عليّ البحث عن أمّي لكنّني قرّرت ألّا أفعل. كان واضحًا مما وصفته بياتريس أنّني لم أكن سوى ثمرة أنتجتها ولم ترغب فيها. وقادني حبل أفكاري إلى حقيقة أنّني في الظاهر تصرّفت بالمثل مع طفلي. فكيف أستطيع اليوم أن أحكم على أمّي بقسوة وأدع فكرة عدم رغبتها فيّ تعذّبني، وأنا لا أعرف الدافع الذي جعلها تتّخذ مثل ذلك القرار.

ثمّ فكّرت في أحداث اليوم وأنّها إذا لم تحقّق لي شيئًا، فإنّها جعلتني أدرك أن الأمر الوحيد الذي أرغب فيه الآن هو ترك شيء لابني يشرح له سبب اتّخاذي

لذلك القرار، في غياب عقد من حجر القمر أو أجداد متلهّفين إلى تبنّيه، وفي غياب أدلّة على المكان الذي أتى منه في الأصل. فكما قال فلوريانو، هناك احتمال كبير في أنّه لا يعلم بقصة ولادته الحقيقية. وفي حال كان يعلم، أو في حال قرّر والداه بالتبنّي إخباره بالحقيقة في المستقبل وخرج ليبحث عنّي، سأحرص على أن أرسم له الطريق الذي يجب عليه أن ينطلق منه، تمامًا مثلما فعل پا سولت مع بناته الستّ.

فهمت الآن لماذا قادتني ترتيبات پا سولت إلى كازا داس أوركيدياس بدلًا من دار الأيتام، على الرغم من أنّني لم أولد هناك. ربّما كان يعرف أنّني سأبحث عن بياتريس وأقابلها ذات يوم، فهي الفرد الوحيد الذي يرتبط بماضيّ، والذي سيهتمّ كثيرًا إذا ظهرت في حياته.

فكّرت مجدّدًا في سبب وجود پا سولت في ريو وقت ولادتي، والسبب الذي دفعه إلى اختياري من بين كلّ الأطفال المتوافرين للتبنّي في ذاك الوقت، لكنّه اختارني أنا. لم تذكر بياتريس شيئًا عن بلاط الحجر الأملس الذي تركته أمّي معي عندما أودعتني في دار الأيتام، فكيف حصل عليه پا سولت؟

إنّها معضلة أخرى رغبت في حلّها. لكنّني قرّرت التوقّف عن طرح الأسئلة، وتقبّل فكرة أنّني كنت محظوظة جدًّا بالحصول على أب محبّ ومعلّم رائع كنت أجده بجانبي كلّما احتجت إليه. لذلك كان لا بدّ لي من تعلّم درس الثقة في طيبة الآخرين.

وهذا ما أعادني إلى التفكير في فلوريانو. نظرت تلقائيًّا عبر النافذة ووجّهت ناظريّ إلى السماء. لا بدّ من أنّه الآن في مكانٍ ما فوق المحيط الأطلسي. شعرت بالغرابة بعدما قضيت أربع عشرة سنة وأنا أعيش فراغًا عاطفيًّا لغياب شخص يجعلني أفكّر فيه، أو لعدم رغبتي في الحصول على شخص. وها أنا أشعر فجأة بأحاسيس تجاه فلوريانو تجتاحني، وكأنّ برعم وردة يتفتّح بين ليلة وضحاها بلون ساحر جذّاب فيجمّل حياتي. ثمّ شعرت بأنّني قد اشتقت إليه، ليس كشغف عابر، إنّما كإدراك ثابت بأنّه أصبح جزءًا منّي، وبطريقة ما شعرت بأنّني أنا أيضًا جزء منه.

وبدلًا من دخولي في حالة يأس مجنون، تقبّلت ذاك الذي بدأ يولد بيننا، والذي هو بحاجة إلى رعاية إذا لم أكن أرغب في أن يذبل ويموت.

بحثت عن كمبيوتري المحمول وفتحته، كما وعدت فلوريانو، ورحت أكتب له رسالة إلكترونية أشرح فيها بإيجاز ما أخبرتني به بياتريس في الصباح. وقلت له إنّني سأعود إلى الدير لأراها مرة ثانية في صباح اليوم التالي.

وبدلًا من التردّد كعادتي، وأنا على وشك إنهاء العمل الذي أقوم به، وثقت هذه المرّة بشعوري وضغطت على «أرسل» من دون أن أعيد قراءة الرسالة. ثمّ غادرت الفندق وعبرت الطريق لأنعش نفسي داخل الأمواج التي كانت تلقي بنفسها على شاطئ إيبانيما.

في صباح اليوم التالي، وجدت يارا تنتظرني أمام مدخل الدير، كما في اليوم السابق. لكنّها هذه المرّة استقبلتني بابتسامة مشرقة، حتّى أنّها اقتربت منّي خجلة لتشبك يدها بيدي.

- شكرًا لك يا سينيوريتا.

- على أي شيء؟

- لأنّك أنَرت عينَيْ سينيورا بياتريس من جديد، ولو كان ذلك لفترة قصيرة. هل تشعرين بخير بعد كلّ ما أخبرتك به؟

- بصراحة يا يارا، لم أتوقّع مثل ذلك، لكنّني أحاول التآلف.

- لم تكن تستحق ابنة مثلها ولا تستحقين أنت أمًّا مثلها». تمتمت يارا بانزعاج.

- أعتقد أنّنا في كثير من الأحيان لا نستحقّ ما نحصل عليه، ولاحقًا نكتشف أنّ المستقبل يخبّئ لنا شيئًا أفضل. قلت وأنا أوجّه الكلام لنفسي في المقام الأوّل، بينما كنت أتبعها على طول الممر.

- سينيورا بياتريس ترتاح في سريرها لكنّها مصرّة على رؤيتك، فهل ندخل؟ سألتني.

- بالتأكيد. قلت لها.

دخلنا الغرفة معًا، ولم تحتج يارا هذه المرّة إلى التحقّق من أنّ سيّدتها كانت جاهزة لاستقبالي. كانت بياتريس مستلقية في السرير فبدت لي ضعيفة جدًّا، ولما رأتني عند الباب أشرقت ملامحها الذابلة بابتسامة.

- مايا. قالت وهي تشير إلى يارا لتسحب الكرسي وتضعه بجانب السرير.

- تعالي واجلسي بجانبي. كيف حالك اليوم يا عزيزتي؟ شعرت بالقلق عليك في الليلة الماضية. لا بدّ من أنّك أُصبت بصدمة بعد كلّ ما قلته لك.

- أنا بخير، يا بياتريس حقًّا، قلت لها وأنا أجلس وأربّت يدها بلطف.

- هذا يسرّني، أعتقد أنّك امرأة قوية وأنا معجبة بك. لكن كفانا حديثًا عن الماضي، أرغب في أن تخبريني أكثر عن حياتك. قولي لي أين تعيشين؟ هل أنت متزوجة؟ هل لديك أطفال؟ هل لديك وظيفة؟

رحت أخبر جدّتي خلال نصف الساعة، بكل ما خطر في بالي عن پا سولت وMarina وعن أخواتي ومنزلنا الجميل على ضفاف البحيرة في جنيڤ. كما أخبرتها عن مهنتي كمترجمة، وكنت على وشك أن أخبرها عن زيد وحملي وعن تخلّيّ عن طفلي. لكنّني شعرت في أنّها لم تكن ترغب إلّا في سماع الأحداث السعيدة، لذلك تفاديت ذكر هذه التفاصيل.

- وماذا عن المستقبل؟ أخبريني عن ذلك الرجل الجذاب الذي رافقك إلى المنزل لرؤيتي. أعرف أنّه يحظى بشهرة واسعة في ريو. هل هو مجرد صديق؟ قالت وهي تنظر إليّ بمكر.

- إحساسي يخبرني بأنّه أكثر من ذلك.

- أجل، أنا أحبّه. اعترفت لها.

إذًا، ما الذي تنوين فعله يا مايا؟ هل ستعودين إلى جنيڤ أم ستبقين هنا في ريو معه؟

- في الواقع، لقد سافر صباح أمس إلى باريس. قلت لها.

- آه، باريس! وشبكت بياتريس أصابعها.

- لقد قضيت فيها أسعد أيّام حياتي. لا بدّ من أنك علمت بأنّ جدتك الكبرى زارتها أيضًا وهي في سنّ صغيرة. أعتقد أنّك رأيت نحتها في حديقة المنزل، كان والدي من شحن التمثال من باريس ليقدّمه لها هدية زفافهما.

- نعم رأيته: قلت لها وأنا أتساءل: إلامَ قد تقود تلك المحادثة.

- عندما ذهبت إلى باريس لأتابع دروسي في مدرسة الفنون الجميلة، اكتشفت أنّ النحّات الذي عمل على التمثال كان أحد أساتذتي. وذات يوم بعد انتهاء الحصّة، عرّفته بنفسي وأخبرته أنّني ابنة إيزابيلا، فتفاجأت عندما قال لي بروفيسور برويي إنّه تذكّرها. ثمّ أخبرته بوفاتها، فتأثّر كثيرًا إلى درجة الحزن. وبعد ذلك، راح يبدي اهتمامًا كبيرًا بي لدرجة رعايتي، كما أنه دعاني إلى منزله الجميل في مونبارناس واصطحبني إلى لا كلوزيري دي ليلاس لتناول الغداء. وأخبرني أنّه التقى ذات مرّة بأمّي هناك وأمضيا في ذلك اليوم وقتًا رائعًا على الغداء. كما اصطحبني إلى مشغل بروفيسور بول لاندوڤسكي وقدّمني إليه. بحلول ذلك الوقت، كان لاندوڤسكي قد تقدّم في السن، ولم يعد ينحت كما كان ينحت من قبل، لكنّه أراني صورًا فوتوغرافية عن الوقت الذي جهّزوا فيه قوالب الكريستو داخل مشغله.

أضافت بياتريس:

- كانت والدتي، كما يبدو، حاضرة، عندما كان بروفيسور لاندوڤسكي وبرويي يعملان عليه. وعثر في إحدى الخزائن على قوالب يديّ أمّي، قال إنّها كانت نموذجًا أوّليًا ليدي الكريستو. ورأيت بياتريس تبتسم مع عودة تلك الذكريات إليها.

- بروفيسور برويي كان كريمًا جدًّا معي إلى درجة أنّه خصّص لي كامل وقته واهتمامه. حتّى أنّنا بعد مغادرتي فرنسا، بقينا نتراسل طوال الوقت إلى أن توفّي عام 1965. أحيانًا يبدي لنا الغرباء لطفًا أكثر من لطف من هم الأقرب إلينا. فكّرت بياتريس بصوت عالٍ.

- إذًا أخبريني يا عزيزتي مايا، هل ستتبعين خطّى جدّتك وجدّتك الكبرى وتقومين بتلك الرحلة من ريو إلى باريس؟ علمًا بأنّ الذهاب إلى هناك في هذه

الأيام أسهل بكثير ممّا كان عليه، إذ استغرقت رحلتي أنا وأمّي قرابة ستّة أسابيع. أما إذا كنت ستذهبين اليوم إلى باريس، فتستطيعين في الغد زيارة لا كلوزيري دي ليلاس لشرب كأس أفسنتين! مايا، عزيزتي هل تسمعينني؟

كنت أستمع بالفعل لبياتريس، لكنّي شعرت بعجز في الكلام من شدّة الصدمة. أخيرًا فهمت خوف يارا وحذرها من ذكر الماضي. فتلك المرأة لم تكن تعرف أي شيء عن والدها الذي أتى بها إلى هذا العالم.

- نعم، أعتقد أنّني سأذهب. أجبتها وأنا أحاول استعادة اتّزاني.

- جيّد جدًّا. سرّت بياتريس لسماع ذلك.

- والآن يا مايا، حان الوقت لننتقل إلى أمور أكثر جدية. بعد ظهر اليوم سيأتي كاتب العدل لرؤيتي. أرغب في كتابة وصيّة جديدة أترك فيها كلّ ما أملكه لحفيدتي الوحيدة. هو ليس بالكثير؛ هناك المنزل الذي يحتاج إلى مئات آلاف الريالات ليتمّ تجديده، وأنا متأكّدة من أنّك لا تملكين ذاك المبلغ. لذلك، إذا رغبت في بيعه، اعلمي أنّه لا مانع لديّ لكن بشرط واحد، أن تسمحي ليارا بالبقاء فيه حتّى وفاتها. فأنا أعرف مدى قلقها من المستقبل، وأريد أن أضمن لها سقفًا يأويها في شيخوختها. لطالما اعتبرت ذلك المنزل بيتًا لها بقدر ما كان بيتًا لي. وسأترك لها مبلغًا من المال لتعيش به ما تبقّى من عمرها. لكن إذا قُدّر لها أن تعيش كثيرًا، فأنا واثقة من أنّك ستعتنين بها. فكما ترين، لقد كانت أقرب صديقة لي، حتّى أننا نشأنا مثل أختين.

- بالطبع سأعتني بها. قلت لها وأنا أحاول كبح دموعي.

- لديّ أيضًا بعض المجوهرات التي تخصّني، وأخرى ورثتها عن والدتي، فضلًا عن الفازندا سانتا تيريزا، المزرعة التي قضت فيها أمّي طفولتها. وأنا أدير مؤسسة خيرية تساعد النساء في الأحياء الفقيرة المجاورة، والمزرعة هي مقرّ لتلك المؤسسة. لذلك إذا كنت قادرة على مواصلة إدارتها بعد رحيلي، سأكون سعيدة جدًّا.

- بالطبع سأفعل ذلك يا بياتريس. همست وأنا غير قادرة على إخراج الكلمات من حلقي.

- لكن يا بياتريس، أشعر أنّني لا أستحق كلّ هذا. لا بدّ من أن يكون لديك أصدقاء أو عائلة.

- مايا! كيف تعتقدين ذلك! قالت لي وأنا أشعر بازدياد ألمها من نبرة صوتها.

- السبب الوحيد الذي حرمك من ذاك الميراث الذي، إذا جاز لي القول، كان لديه في السابق قيمة كبيرة في نظر مجتمع ريو، هو تخلّي والدتك عنك عند ولادتك. تذكّري أنّك أنت أيضًا من عائلة آيريس كابرال وأنّ نسلها سيستمرّ من خلالك، على الرغم من أنّ المال لا يُعوّض عن الضرر المعنوي الذي أصابك، لكن هذا أقلّ ما يمكنني فعله، وأشعر أنّه من واجبي. قالت من دون تردّد.

- شكرًا يا بياتريس. قلت لها وأنا أرى الاضطراب عليها، لذلك لم أرغب في إزعاجها أكثر.

- أنا واثقة من أنّك ستديرين ذلك الإرث بذكاء. وفجأة بدأت تعبس من شدّة الألم.

- هل أنادي الممرّضة؟

- انتظري قليلًا. لأنّني أريدك أن تعرفي، قبل أن تقولي لي بأنّك ستعودين لزيارتي وستبقين إلى جانبي حتّى النهاية، أنّها المرّة الأخيرة التي سأراك فيها. أعرف تمامًا ما الذي ينتظرني وأرفض تمامًا أن تكوني حاضرة عند رحيلي، خصوصًا أنّك ما زلت في فترة حداد على والدك بالتبني. ولا تقلقي عليّ لأنّ يارا ستبقى بجانبي، ولن أحتاج إلى أكثر من ذلك.

- لكن يا بياتريس.

- من دون لكن يا مايا. الألم بات لا يُحتمل، على الرغم من أنّني كنت قادرة على مقاومته حتى الآن، لكن بعد ظهر اليوم سأطلب من الممرضة أن تزوّدني ببعض المورفين. وبعد ذلك ستأتي النهاية بسرعة. رأيت بياتريس تجبر نفسها على إظهار ابتسامة.

- لذلك، أنا سعيدة لأنّني حظيت بفرصة مشاركتي لحظات وعيي الأخيرة مع حفيدتي الجميلة. أنت حقًّا جميلة يا مايا وأتمنّى لك مستقبلًا زاهرًا، والأهم من

ذلك، أتمنّى من كلّ قلبي أن تعثري على الحب لأنّه الوحيد الذي يخفّف عنّا آلام هذه الحياة. لا تنسي ذلك. والآن، تستطيعين استدعاء الممرضة.

بعد لحظات، كنت أعانق بياتريس وأودّعها للمرّة الأخيرة. وعندما غادرت الغرفة، رأيت جفنيها قد بدآ ينغلقان ولا تكاد تقدر على التلويح لي بيدها وأنا أغلق الباب خلفي. جلست على المقعد في الخارج ودفنت رأسي بين كفّي لأبكي بصمت. فجأة شعرت بذراع تلتفّ حول كتفي فرفعت عيني ورأيت يارا تجلس بجانبي لتواسيني.

- لم تعلم أبدًا أنّ لوران برويي كان والدها الحقيقي، أليس كذلك؟

- لا يا سينيوريتا، لم تعلم. أمسكت يارا بيدي، وبقينا جالستين هكذا من دون حراك، نشعر بحزن على تلك المأساة.

بعد أن كتبت عنواني ورقم هاتفي وبريدي الإلكتروني على ورقة ليارا، خرجت برفقتها إلى السيارة التي كانت تنتظرني عند المدخل.

- وداعًا يا سينيوريتا مايا. أنا سعيدة لأنّ الأمور بينك وبين سينيورا بياتريس قد حُلّت في النهاية قبل أن يفوت الوقت.

- الفضل لك يا يارا. بياتريس محظوظة جدًّا بحصولها على رفيقة درب مثلك.

- وأنا محظوظة بها. أجابتني وأنا أركب السيارة.

- من فضلك أخبريني عندما... لكنّني لم أستطع النطق بتلك الكلمات.

- بالتأكيد سأخبرك. لكن الآن، اذهبي وعيشي حياتك يا سينيوريتا. لا بدّ من أن تكوني قد تعلّمت درسًا من قصة أجدادك. كلّ لحظة تمرّ علينا ثمينة، والأحرى بنا ألّا نضيّعها.

* * *

أخذت بكلام يارا، وعدت إلى الفندق لأتحقّق من بريدي الإلكتروني وسقف توقّعاتي أعلى من المعتاد. وفور رؤيتي رسالة فلوريانو، ابتسمت.

قال في رسالته: «إنّ باريس رائعة، لكنني بحاجة إلى مترجم ليساعدني في لغتي الفرنسية الرديئة. اكتشفت أيضًا شيئًا يجب أن تريه يا مايا. أخبريني بموعد وصولك».

رحت أضحك وحدي وأنا أقرأ رسالته. حضرته لم يسألني إذا قرّرت أن ألحق به، لكنه يريد التحقّق من موعد وصولي.

اتّصلت بخدمة «الفندق» وطلبت منهم إيجاد مقعد لي على أوّل رحلة إلى باريس. بعد عشر دقائق، عاودوا الاتصال بي ليخبروني أنّهم عثروا على مقعد واحد في الدرجة الأولى. وعندما أخبروني بثمن البطاقة شعرت بغصّة، لكنّني وافقت في النهاية وطلبت منهم مواصلة الحجز وأنا أشعر بأنّ پا سولت وبياتريس وبيل، كلّهم يدعمونني في قراري.

خرجت من الفندق ورحت أغوص في شوارع إيبانيما. فقصدت السوق واشتريت بضعة فساتين «غير مناسبة» من تلك التي كانت مايا السابقة ستشعر بالرعب منها. في حين أنّ مايا الجديدة تعتقد بأنّها ستعجب رجلها، لأنها كانت ترغب في إرضائه بالظهور أمامه بأفضل حال. «لن تختبئي بعد اليوم». قلت لنفسي بكل ثقة. ثمّ اشتريت زوجين من الأحذية بكعبٍ عالٍ ولاحقًا قصدت الصيدلية لأبحث عن عطر يليق بي، بعد مرور سنوات طويلة على مخاصمتي للعطور. وفي النهاية اشتريت لونًا جديدًا من أحمر الشفاه.

في ذلك المساء، صعدت إلى شرفة الفندق في الطابق العلوي لألقي نظرة أخيرة على الكريستو وقت غياب الشمس. رحت أرتشف النبيذ الأبيض البارد وأشكر السماوات على مساعدتي في العثور أخيرًا على نفسي.

في صباح اليوم التالي، غادرت ريو في وقت مبكر برفقة بييترو. كنت في السيّارة عندما التفتُّ إلى الوراء لألقي نظرة أخيرة على قمّة جبل كوركوڤادو، وأنا أشعر في الصميم بأنّني سأعود قريبًا لأكون تحت جناحيه.

50

- ألو. أجاب صوتها المألوف على مكالمتي.

- ماي، هذه أنا، مايا.

«مايا! كيف حالك يا عزيزتي؟ مرّ وقت على آخر مرّة هاتفتِني فيها». قالت مارينا. فشعرت ببعض الملامة في صوتها.

- أنت على حقّ، آسفة لأنني لم أتّصل بك من قبل يا ماي. انشغلت قليلًا. قلت لها وأنا أمنع نفسي من الضحك لإحساسي بيد تتسلّل فوق بشرتي في أسفل معدتي العارية.

- أردت فقط أن أخبرك بأنّني سأصل إلى المنزل بعد ظهر غدٍ. ثمّ بلعت ريقي قبل أنّ أتابع القول:

- وسأحضر ضيفًا معي.

- إذًا هل أعدّ لها غرفة في المنزل، أم أنّها ستبقى في جناحك؟

- لا داعي، ستبقى في جناحي. ثمّ استدرت إلى فلوريانو وابتسمت.

- تمام. أجابت بصوت فرح.

- وهل أجهّز العشاء؟

- لا، من فضلك لا تشغلي نفسك. سأتّصل بك في الغد لأعلمك متى سيكون على كريستيان أن ينتظرنا.

- سأنتظر مكالمتك. وداعًا يا عزيزتي.

- وداعًا. أعدت السمّاعة إلى مكانها على الطاولة بجانب السرير، وعدت بنفسي إلى ذراعي فلوريانو وأنا أتساءل ما الذي سيفعله، بحقّ السماء، في منزل طفولتي.

- أتمنّى ألّا تشعر بالصدمة عندما نصل إلى هناك، وألّا تعتقد أنّني شخص مهمّ أو شيء من ذاك القبيل. فلطالما كنت أعيش هناك.

أجابني وهو يسحبني إليه ويغمرني بين ذراعيه:

- *querida*، أنا في الأساس منبهر بطريقة عيشك الآن. لا تنسي أنّني أعرف من أين أتيت. حسنًا، بقي لدينا يوم في باريس وأريدك أن تري أمرًا مميّزًا للغاية.

- هل هذا يعني أنّ علينا الخروج؟ سألته وأنا أتكاسل وأمطّ بجسمي فوق جسمه.

- عاجلًا أم آجلًا، سنخرج... أجابني فلوريانو.

بعد ساعتين، كنّا قد ارتدينا ملابسنا وغادرنا الفندق. نادى فلوريانو على سيّارة أجرة وزوّد السائق بعنوان واضح بفرنسيّته الرديئة.

- المكان قريب من الشانزليزيه؟ قلت مؤكّدة على السائق وعلى نفسي أيضًا.

- نعم، وهل تشكّين ببراعتي في لغتي المفضّلة الجديدة؟ قال مبتسمًا.

أجبته:

- لا، بالطبع لا. لكن هل أنت واثق من أنّك تريد الذهاب إلى حديقة؟

- اصمتي يا مايا. قال لي وهو يضع أصبعه على شفتيّ.

- ثقي بي.

ترجّلنا من السيّارة بجوار درابزين حديدي كان يحيط بمساحة خضراء مربّعة صغيرة تقع قبالة شارع دو مارينيي.

دفع فلوريانو للسائق ثمّ أمسك بيدي وقادني عبر البوابة على طول الممر

الذي قادنا إلى وسط الحديقة. هناك رأيت نافورة جميلة تتراقص فيها المياه، فأشار فلوريانو إلى تمثال برونزي لامرأة عارية مستلقية في أعلاها. كنت قد تعوّدت رؤية مثل تلك التماثيل المثيرة في أنحاء باريس، لذلك التفت إلى فلوريانو مستغربة.

- انظري إليها جيّدًا وقولي لي إذا كنت قادرة على التعرّف إليها. وهكذا فعلت. فجأة رأيتها؛ كانت هي إيزابيلا، جدتي الكبرى، عارية وشهوانية، ترمي برأسها إلى الوراء من المتعة، ويداها مرفوعتان إلى فوق باتّجاه السماء.

- هل عرفتها؟

- نعم، بالتأكيد.

- إذًا لن تتفاجئي إذا قلت لك إنّ هذا التمثال من نحت بروفيسور لوران بروبي، جدّك الأكبر. ولا يسعني إلّا التفكير بأنّه نحته ليخلّد حبّه السرّي لجدّتك الكبرى. والآن يا مايا، انظري إلى يديها.

نظرتُ إليهما ورأيت راحتَي كفّيها وأصابعها الناعمة. نعم، رأيتها جيّدًا.

- بالطبع هي صغيرة جدًّا بالنسبة إلى حجم التمثال، لكنّني قارنتها بيدي الكريستو، وبتّ الآن مقتنعًا بأنّهما متطابقتان. سأريك الصور الفوتوغرافية لاحقًا لتقارنيها بنفسك، فبالنسبة إليّ لم يعد لديّ شك، لا سيّما أنّنا الآن في الحديقة التي قابلت فيها لوران للمرة الأخيرة قبل مغادرتها باريس، بحسب ما أخبرت لوين في رسالتها.

رحت أنظر إلى إيزابيلا وأتساءل عمّا كانت ستشعر به اليوم لو استطاعت أن ترى كيف خُلِّدت مرّة جديدة، على الرغم من أنّها هذه المرّة لم تظهر بصورة العذراء البريئة كما في النحت الأول، إنّما بصورة المرأة الشهوانية المثيرة التي خلّدها بها الرجل الذي عشقها، والأب الحنون الذي شاء القدر أن يتعرّف في النهاية إلى ابنته الوحيدة التي أنجبها منها.

وضع فلوريانو ذراعه حول كتفي عندما عدنا أدراجنا بعيدًا عن التمثال.

- مايا، لا أريد أن أن نتبادل الوداع هنا مثلما فعلت بيل ولوران. وثقي بأنّني لا أريد أن نتبادل الوداع أبدًا. هل تفهمين؟

- نعم.

- ممتاز، والآن بات بإمكاننا المغادرة. ثمّ همس في أذني:

- ذات يوم، سأكتب رواية جميلة تقديرًا لك.

رحت أراقب وجه فلوريانو ونحن نمشي باتّجاه البحيرة لنذهب إلى المنزل. على الرغم من أنّني لم أغب عنه في الواقع سوى ثلاثة أسابيع، لكنّني شعرت وكأنّها أشهر عديدة. كانت البحيرة مليئة بمراكب صغيرة ذات أشرعة ترفرف في النسيم مثل أجنحة الملائكة. وعلى الرغم من أنّها كانت السادسة مساء، إلّا أنّ الطقس كان ما يزال دافئًا، والشمس الذهبية ساطعة فوق رؤوسنا تحت سماء زرقاء صافية. عندما لمحت سياج الأشجار من بعيد، تراءى لي وكأنّني بعيدة عن أتلانتيس، وفي حقبة زمنية مختلفة. قاد كريستيان القارب إلى الرصيف وربطه هناك ثمّ ساعدنا على النزول. رأيت فلوريانو يمسك بالأمتعة، لكنّ كريستيان استوقفه على الفور:

- لا يا سيدي، سأحضرها بنفسي لاحقًا.

«يا إلهي!». قال ونحن نعبر الحدائق.

- أنت فعلًا مثل أميرة تعود إلى قلعتها. أضاف ممازحًا.

عندما وصلنا إلى المنزل الرئيسي، قدّمت فلوريانو إلى مارينا. رأيتها كيف بذلت جهدًا لإخفاء دهشتها عند اكتشاف أنّه كان ضيفًا وليس ضيفة. أخذت فلوريانو لاحقًا في جولة، فشعرت أنّني أعاود اكتشاف منزلنا الجميل من خلال عينيه.

وعندما بدأت الشمس بالغروب وراء الجبال العالية خلف البحيرة، كنّا نحتسي شرابًا، فتلذّذت أنا بكأس نبيذ أبيض وفلوريانو بجعّة، ثمّ قدته إلى حديقة پا سولت السرّية التي تقع على ضفاف المياه. كانت مثل مرج يشعّ بألوان تمّوز/يوليو الزاهية، كل نبتة فيه وكل زهرة تبدو في منتهى الجمال. وعلى الفور تذكّرت حديقة شهيرة تقع في مكانٍ ما في جنوب إنجلترا، زرتها ذات مرة برفقة جيني ووالديها.

كان كلّ شيء هناك منسّقًا وجميلًا، وما زلت أذكر حتّى اليوم كيف كانت روضاتها المتشابكة تصطفّ بكل ترتيب داخل السياج المشذّب.

جلسنا على المقعد تحت أشجار الورد التي تمدّ أغصانها فوق المياه وتنشر عطرها في كلّ مكان. وكم من مرّة عثرت في الماضي على والدي هنا، وهو في حالة تأمّل عميق.

تبادلنا الانخاب قائلةً له بصوتٍ مرتعش: نخب ليلتك الأخيرة في أوروبا والنجاح الذي يلاقيه كتابك. لقد بلغ المرتبة السادسة على قائمة أكثر الكتب مبيعًا في فرنسا منذ الأسبوع الأول، ولا شيء يمنعه من بلوغ المرتبة الأولى.

- من يدري؟ قال فلوريانو وهو يهزّ بكتفيه. كنت أعلم بأنّه كان يشعر بالإطراء من كثرة إشادة وسائل الإعلام الفرنسية والمكتبات بكتابه. أضاف قائلًا:

- وبالطبع هذا بفضل الترجمة الرائعة التي حظي بها. ما هذا؟ سألني وهو يشير إلى وسط الشرفة.

«هذا يُدعى اسطرلاب كروي. وأعتقد أنّني أخبرتك من قبل أنّه ظهر فجأة في الحديقة بعد فترة قصيرة من وفاة پا سولت. وتبيّن لنا أنّه يحمل اسم كل واحدة منّا، كلّ اسم محفور على شريط مختلف بالإضافة إلى مجموعة إحداثيات موجّهة إلى كل واحدة، فضلًا عن نقوش مكتوبة باليونانية.

نهض فلوريانو من مكانه ليتفقّده عن قرب.

- هذه أنت هنا»، قال وهو يشير إلى الشريط الذي يحمل اسمي.

- وماذا يقول النقش الذي يخصّك؟

- لا تسمحي أبدًا للخوف بأن يقرّر مصيرك. قلت له وأنا أظهر ابتسامة ساخرة على وجهي.

فأجابني:

- أعتقد أن والدك كان يعرفك حقّ المعرفة. ثمّ أعاد انتباهه مرّة أخرى إلى الاسطرلاب الكروي وقال:

- وماذا عن هذا الشريط؟ فهو ما يزال فارغًا.

- نعم. بعد أن أطلق علينا پا أسماء نجوم الأخوات السبع، توقّعنا، في وقت ما، ظهور الرقم سبعة في حياتنا، لكنّ ذلك لم يحصل، وبقينا ست فتيات، للأسف. فكرت بحزن.

- لن يكون أبدًا هناك رقم سبعة.

- هذه هدية فراق جميلة يقدّمها أب لبناته. قال فلوريانو:

- يبدو أنّ والدك كان مثيرًا للاهتمام. ثمّ عاد ليجلس بجواري.

- وأنا أيضًا أعتقد أنّه كذلك، على الرغم من أنّنا عند وفاته، لم نكن نحن الفتيات الستّ نعرف الكثير عنه. لطالما شكّل لغزًا بالنسبة إلينا. قلت له وأنا أهزّ بكتفي.

- أعترف لك بأنّني لم أكفّ يومًا عن التفكير في ما كان يفعل في البرازيل عند ولادتي. ولمَ اختارني أنا.

- سؤالك يشبه إلى حدٍّ بعيد السؤال الذي نطرحه كلّنا على أنفسنا؛ ما الذي يجعل هذه الروح تذهب إلى ذاك الجسد، أو مثلًا لمَ وقع اختيار ترجمة كتابي عليك أنت، هذا هو سرّ الحياة. الحياة عشوائية يا مايا، وهي تشبه لعبة يانصيب.

- ربّما تكون على حق، لكن هل تؤمن بالقدر؟ سألته فجأة.

- لو سألتِني هذا السؤال قبل شهر، كنت على الأرجح سأجيبك بلا. لكنّني الآن سأخبرك بسرّ صغير. قال وهو يمسك بيدي.

- قبل أن ألتقي بك، مرّت الذكرى السنوية على وفاة زوجتي، وكنت حينها أشعر بالوحدة والفراغ الشديد. تذكري أنّني كنت مثلك، وحيدًا لوقت طويل. في ذلك اليوم، أذكر أنّني وقفت على حافة الشرفة في منزلي، ورحت أحدّق إلى الكريستو والنجوم فوقه. ثمّ حدّثت أندريا وطلبت منها أن ترسل لي شخصًا يساعدني على المضي قُدُمًا. وفي اليوم التالي، تلقّيت بريدًا إلكترونيًا من ناشر كتبي، يطلب منّي فيه أن أعتني بك طوال إقامتك في ريو. لذلك يا مايا، نعم أنا أؤمن بالقدر، وأعتقد

أنّ القدر هو من أرسلك إليّ كما أرسلني إليك. ثمّ ضغط على يدي، وبطريقته المعتادة في تحويل اللحظات الجدّية إلى شيء أكثر خفّة قال لي:

- لكن بعد اكتشاف الحياة التي تعيشينها منذ صغرك، لا أتوقع أنّك ستعودين إلى شقتي الصغيرة عمّا قريب.

عدنا لاحقًا إلى المنزل، وعلى الرغم من أنّني كنت قد طلبت من مارينا بألا تزعج نفسها في تحضير العشاء، إلّا أنّني وجدتها تعترض طريقنا ونحن نسير إلى الجناح.

- كلوديا حضّرت حساءً لذيذًا ما يزال على النار في المطبخ، هل تشعران بالجوع؟

- نعم، أنا أتضوّر جوعًا. قال فلوريانو متلهّفًا.

- شكرًا لك يا مارينا، وهل ستنضمّين إلينا؟ سألها بلكنته الفرنسيّة المصطنعة.

- لا، شكرًا على السؤال يا فلوريانو، لكنّني لست جائعة.

جلسنا في المطبخ لتناول الحساء اللذيذ الذي حضّرته كلوديا باللحم، فأدركنا فجأة أنّ ذلك العشاء هو الأخير لنا سويًّا. كان فلوريانو قد مدّد رحلته إلى أوروبا قبل أيّام بعد أن وافق جدّا فالنتينا على استضافتها لوقت أطول، وقد بات عليه الآن أن يعود إلى ابنته. أما أنا... فلم أكن أعرف.

بعد العشاء، أخذته إلى مكتب پاي لأريه ما اعتبرتها دائمًا أفضل صورة له معنا نحن الشقيقات الست، وعرفّته إلى أخواتي في الصورة، كلّ واحدة باسمها. فعلّق قائلًا:

- كلّ واحدة منكنّ مختلفة عن الباقيات. أمّا أبوك فيبدو رجلًا جذابًا، أليس كذلك؟ قال فلوريانو وهو يعيد الصورة إلى الرف. فجأة لفت انتباهه شيء آخر، فبقي ثابتًا في مكانه لبضع ثوان يحدّق إليه عن كثب.

- مايا، هل رأيت هذا؟ أشار إلى المنحوتة الصغيرة التي كانت موضوعة على الرف، وكانت واحدة من مجموعة پا سولت الشخصية الواسعة. عندما حدّقت إليها استغرقت بضع ثوانٍ لأفهم سبب طرحه ذلك السؤال عليّ.

- نعم، مرات عدّة، لكنّها مجرّد نسخة عن الكريستو.

- لا أشكّ في ذلك... هل يمكنني حملها؟

- بالطبع. قلت له وأنا ما أزال أتساءل: لماذا يبدي كل ذلك الاهتمام بتمثال صغير يتوافر بآلاف النسخ ويُباع ببضعة ريالات في مختلف متاجر ريو السياحية.

- انظري كيف نُحت بدقّة متناهية. قال وهو يداعب بأصبعه الخطوط في رداء الكريستو.

- وانظري هنا. قال وهو يشير إلى القاعدة، فتمكّنت حينها من رؤية ما نُقش عليها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لاندوڤسكي

قال لي وعيناه تلمعان من الدهشة: مايا، «هذه ليست من تلك النسخ التي تنتج بكميات هائلة. هذه نسخة قديمة موقّعة من النحات نفسه! ألّا تذكرين الرسائل التي وجّهتها بيل إلى لوين والتي تحدثّت فيها عن إصدارات مصغّرة كان هيتور دا سيلڤا كوستا قد طلبها من لاندوڤسكي قبل أن يقرّر على التصميم النهائي؟ ثمّ مرّر لي التمثال فحملته بتأنٍّ بين كفّي، وفوجئت بوزنه الثقيل. رحت أتتبّع بأصابعي ملامح وجه الكريستو المنحوتة ويديه فأدركت أنّ فلوريانو محقّ، وأنّ هذه النسخة كانت حرفية أكثر.

- لكن كيف وصل إلى پاي، ومن أين حصل عليه بحق السماء؟ هل يمكن أن يكون قد اشتراه في مزاد؟ أو ربّما كان هدية من صديق؟ أو ربّما... لست أدري. قلت وأنا أغرق في صمتٍ محبط.

- كلّ ما تقولينه مجرّد احتمالات. ففضلًا عن النسخ التي في حوزة عائلة لاندوڤسكي، ما يزال هناك نسختان بهذا الحجم الصغير وهما على الأرجح في حوزة عائلة هيتور دا سيلڤا كوستا. وبالطبع علينا أن نصادق عليهما، لكنّ هذا الاكتشاف يساوي كثيرًا!

عندما رأيت الإثارة في عيني فلوريانو، فهمت أنّه كان ينظر إلى الموضوع من منظار مؤرّخ، بينما كنت أنا أحاول في المقام الأول أن أعرف كيف وصلت تلك النسخة إلى والدي.

- آسف يا مايا، لكن تفكيري يأخذني بعيدًا. قال فلوريانو.

- في كل الأحوال، أنا واثق من أنّك سترغبين في الاحتفاظ به. لكن هل من مانع إذا حملناه معنا إلى جناحك الليلة فقط؟ أود على الأقل أن أحظى بامتياز التحديق إليه لفترة أطول.

- بالطبع ليس هناك مانع. كلّ شيء في هذا المنزل بات ملكنا أنا وأخواتي، وأشكّ في أنّ الآخريات سيمانعنَ.

- إذًا دعينا نذهب إلى الفراش. همس في أذني وهو يحاول بلطفٍ الوصول بأصابعه إلى أحد خدَّيّ.

لم أنمْ جيّدًا تلك الليلة، شعرت بتعكّر مزاجي عندما فكّرت في أنّ فلوريانو سيغادر في الغد. على الرغم من أنّني كنت أقنع نفسي بعدم استباق الأمور وبعيش تلك العلاقة كلّ لحظة بلحظتها، إلّا أنّني كنت أجد نفسي مع اقتراب الصباح، غير قادرة على فعل ذلك. بقيت أتقلّب في فراشي وأشاهد فلوريانو نائمًا بسلام إلى جانبي. ثمّ فكرت في شكل حياتي بعد أن يغادر أتلانتيس، لا بدّ من أنّها ستعود إلى سابق عهدها قبل أن أغادر إلى ريو. لم نتحدّث أنا وفلوريانو عن المستقبل، وبالطبع لم نتطرّق إلى أي خطّة ملموسة. وعلى الرغم من أنّني كنت أشعر بأنّه يكنّ لي مشاعر حقيقية لأنّه قال لي مرّات عدّة إنه يحبّني، فقد كنّا ما نزال في بداية العلاقة. وبالنظر إلى أنّ كلّ واحد منّا يعيش في جهة مختلفة من الكرة الأرضية، كان عليّ أن أتقبّل وجود احتمال خمود العواطف بيننا، وتحوّل العلاقة إلى مجرّد ذكرى جميلة.

عندما رنّ المنبّه في الصباح شكرت اللّه على طلوع النهار. وعلى الفور قفزت من السرير وذهبت للاستحمام، بينما كان فلوريانو ما يزال غارقًا في نومه، هربًا من

سماع ما يُقال في العادة لحظة الفراق. ثمّ ارتديت ملابسي بسرعة وأعلمته بأنّني ذاهبة إلى المطبخ لتحضير الفطور، وبأنّ كريستيان كان سينتظره عند القارب بعد عشرين دقيقة. وعندما ظهر أمامي في المطبخ بعد دقائق قليلة، غادرت الغرفة على عجلة من أمري، وأخبرته أنّني ذاهبة إلى المنزل الرئيسي وسأراه عند أسفل الرصيف بعد عشر دقائق.

- مايا، من فضلك... سمعته يناديني، لكنّني كنت قد خرجت من الباب مسرعة إلى البيت. وعندما وصلت إلى هناك، لم أكن قادرة على مواجهة مارينا أو كلوديا، لذلك أغلقت على نفسي في مرحاض الطابق السفلي، ورحت أنظر إلى ساعتي وأنتظر مرور الدقائق فتأتي لحظة مغادرته وينتهي الأمر. وقبل ثوانٍ قليلة من موعد انطلاقه، خرجت من الحمام وفتحت الباب ومشيت عبر المروج، وإذ بفلوريانو هناك يتحدّث إلى مارينا.

- أين كنت يا عزيزتي؟ صديقك سينطلق على الفور وإلا ستفوته الرحلة. حدّقت مارينا إليّ بنظرات غريبة قبل أن تحوّل انتباهها إلى فلوريانو من جديد.

- لقد سررت بمعرفتك وآمل أن نلتقي مجددًا قريبًا في أتلانتيس. والآن، سأترككما على انفراد.

- مايا. قال فلوريانو بعد أن غادرتنا مارينا. «ماذا حصل؟ ما بالك؟

- لا، لا شيء، لا شيء... كريستيان ينتظرك. من الأفضل أن تنطلق على الفور. وفتح فمه ليقول لي شيئًا، لكنّني غادرت بغتة فمشيت أمام عينيه على طول الرصيف باتجاه القارب، ولم يكن أمامه خيار سوى أن يتبعني. ساعده كريستيان على ركوب القارب ثمّ شغّل المحرك.

- وداعًا، مايا. قال فلوريانو وعيناه مليئتان بالحزن. ثمّ راح القارب يبتعد عن الرصيف على صوت محرّكه الصاخب.

صرخ لي من بعيد:

- سأراسلك! ثمّ قال شيئًا آخر لم أفهمه لأنّ القارب كان يبحر بسرعة وقد ابتعد كثيرًا عن أتلانتيس وعنّي.

مشيت يائسة إلى البيت، وأنا أعيب نفسي على سلوكي الطفولي. أنا امرأة ناضجة، ويفترض بي أن أكون قادرة على التعامل مع ذلك الفراق الذي بدا لي منذ البداية أنّه محتّم. لكنّني أدركت أنّ ما قمت به الآن كان ردّ فعل على ما عشته في الماضي، وتبيّن لي أن ألم فراقي عن زيد ما يزال، بعد كل تلك السنوات، يعذّبني في الصميم ويحرقني مثل الجمر المتأجّج.

كانت مارينا تنتظرني أمام الجناح، بذراعين مضمومتين ووجه عابس.

- ما هذا الذي فعلته، يا مايا؟ هل تخاصمتما؟ بدا لي فلوريانو شابًّا لطيفًا. حتّى أنّك لم تودّعيه. لم نعرف لمَ اختفيت وأين اختبأت.

- كان لديّ... ما أقوم به. آسفة على ذلك. قلت لها وأنا أهزّ بكتفي. شعرت بأنّني كنت أتصرّف مثل مراهقة أساءت التصرّف وتلقّت التوبيخ على أخلاقها السيئة. ولأغيّر الموضوع سألتها:

- بالمناسبة، أنا ذاهبة إلى جنيف للقاء جورج هوفمان. هل تحتاجين إلى شيء من هناك؟

نظرت مارينا إليّ بيأس واضح وقالت: «لا، شكرًا لك يا عزيزي، لا أريد شيئًا».

ثمّ ابتعدت عنّي، فشعرت بأنّني سخيفة، فضلًا عن أنّني تصرّفت بحماقة.

* * *

يقع مكتب جورج هوفمان في المنطقة التجارية في وسط جنيف، مقابل شارع جان بيتيتو. هو مكتب أنيق وعصري، واجهاته زجاجية ضخمة بعلو السقف تضفي بإطلالتها الجوية على الميناء لمسة أنيقة إلى المكتب.

حيّاني جورج وهو ينهض عن كرسيّه من خلف مكتبه:

مايا، لم أتوقّع مجيئك، لكنّني مسرور بلقائك. قال مبتسمًا وهو يقودني إلى أريكة الجلد السوداء لنجلس عليها.

- سمعت أنّك كنت خارج البلاد.

- أجل، من قال لك؟

- مارينا بالطبع. والآن، كيف أستطيع مساعدتك؟

- حسنًا... قلت له وأنا أتنحنح.

- أقصدك من أجل خدمتين.

قال جورج وهو يغلق أطراف أصابعه على بعضها:

- تفضّلي، أرجوك.

- هل لديك فكرة لماذا قام پا سولت باختياري أنا عندما أراد تبنّى أوّل طفل له؟

- يا إلهي، مايا. فشعرت من ملامحه بأنّه فوجئ بسؤالي.

- آسف للقول إنّني كنت محامي والدك وليس صديقه المقرّب.

- كنت أعتقد أنّكما صديقان؟

- نعم كنّا كذلك، أو على الأقلّ هذا ما كنت أعتقد. لكن، كما تعلمين، والدك كان متكتّمًا، ومع ذلك أودّ كثيرًا أن أفكّر في أنّه كان يعتبرني جديرًا بالثقة. لكنّني، كنت موظفًا عنده، لذلك لم يكن من حقّي طرح أسئلة خاصّة عليه. حتّى أنّني علمت بوجودك فقط عندما اتّصل بي ليسجّلك على اسمه في الدوائر الرسمية السويسرية، وملء الاستمارات اللازمة لإصدار أوّل جواز سفر لك.

- إذًا ليس لديك أدنى فكرة عن طبيعة علاقته بالبرازيل؟ أصررت.

- على المستوى الشخصي لا شيء على الإطلاق. كانت لديه فقط مصالح تجارية. لكن اهتمامه بالبرازيل لم يزد عن اهتمامه بباقي الأماكن حول العالم. أوضح جورج.

- لذلك، أنا آسف للقول إنني غير قادر على مساعدتك في ذلك الموضوع.

وعلى الرغم من أنّني شعرت بخيبة، لكنّني لم أتفاجأ من إجابته. عدت وأصررت عليه في محاولة للاستفسار أكثر.

- عندما كنت في البرازيل، التقيت، بفضل ما تركه لي باي من قرائن، جدّتي التي توفيت، للأسف، قبل أيّام. فأخبرتني أنّ والدي عندما وصل إلى الميتم ليتبنّى طفلًا، كان برفقة امرأة. فأكّدت لنا دار الأيتام أنّ المرأة كانت زوجته. هل كان حقًّا متزوجًا؟

- لا، أبدًا. ليس على حدّ علمي.

- وهل كانت له علاقة بإحداهنّ في ذلك الوقت؟

- مايا، سامحيني. لكن ليس لديّ حقًّا أدنى فكرة عمّا كانت عليه حياة والدك الخاصّة. يؤسفني ألّا أتمكّن من مساعدتك أكثر. والآن، ما هي الخدمة الأخرى التي قلتِ إنك قصدتِني من أجلها؟

كان واضحًا بالنسبة إليّ أنّني لن أحرز أيّ تقدّم هنا، لذلك استسلمت لفكرة أنّني لن أعرف أبدًا الأسباب وراء اختياري أنا للتبنّي. ثمّ أخذت نفسًا عميقًا لأقول ما كنت بحاجة إليه.

- لقد أخبرتك قبل لحظات أنّ جدّتي لأمّي توفّيت مؤخّرًا، وقد تركت لي في وصيّتها عقارين في البرازيل ومبلغًا صغيرًا من المال.

- فهمت، وهل تريدينني أن أتولّي عنك تنفيذ الوصّية؟

- نعم، لكنّ هناك شيئًا آخر أيضًا، أريد أن أكتب وصيّتي وأترك ممتلكاتي إلى نسيب لي.

- فهمت، حسنًا. لا مشكلة في ذلك. حتّى أنّني في الحقيقة، هذا ما أوصي به جميع زبائني، مهما كانت أعمارهم. والآن أريد منك أن تكتبي قائمة بالأشخاص الذين ترغبين في توريثهم. تستطيعين أن تضمّي إليها أيضًا وصايا لأصدقائك، وما يشبه ذلك، وأنا سأتكفّل بتحويلها إلى وصيّة قانونية.

- شكرًا لك. تردّدت قليلًا وأنا أبحث في ذهني عن كيفية صياغة ما أريد أن أقول له بعد ذلك.

- كنت أريد أن أسألك عن مدى الصعوبة في تقفّي أثر طفل تخلّى والداه عنه ليتمّ تبنّيه. راح جورج يحدّق إليّ بإمعان وشعرت بأنّه لم يندهش من سؤالي.

- صعب جدًا بالنسبة إلى الوالدين. أوضح لي.

- لأنّ الطفل الموضوع للتبنّي، خصوصًا إذا حصل ذلك في سنّ مبكرة، يحتاج إلى الشعور بالاستقرار والأمان. لذلك فإنّ السلطات القيّمة على موضوع التبنّي لا تسمح للأبوين الطبيعيين بتقديم نفسيهما إلى الطفل في حال ندما على قرارهما لاحقًا، لأنّ الأمر سيسبّب اضطرابًا للطفل. وهناك أيضًا الأبوان اللّذان يربّيان الطفل ويحبّانه كما لو أنّه طفلهما. وظهور الأبوين الطبيعيين المفاجئ سيصيبهما بالحزن، إلّا إذا كانا موافقين مسبقًا على ذلك. وفي حال كان الوضع مماثلًا لوضعك، ورغب الطفل المتبنّى في البحث عن أبويه الطبيعيين بعد أن يبلغ السنّ القانونية التي تسمح له القيام بذلك، فهذه قصة ثانية.

استمعت إليه باهتمام ثمّ سألته:

- إذا رغب الطفل المتبنّى في البحث عن أمّه أو أبيه الطبيعيين، من أين عليه أن يبدأ؟

- من عند السلطات القيّمة على موضوع التبنّي. على الأقلّ هنا في سويسرا، لأنّهم في هذه الأيّام يحتفظون بسجل مفصّل ودقيق جدًّا عن هذه الأمور. تستطيعين الذهاب إلى هناك، أقصد... وصحّح جورج كلامه على الفور:

- يمكن لأيّ طفل مُتبنّى أن يبدأ من هناك.

لاحظت احمرارًا خافتًا على وجنتيه الشاحبتين. وفي تلك اللحظة، أدركت أنه فهم المقصود.

- فلنقل إنّ أحد الوالدين الطبيعيين كتب وصيّة يترك فيها ممتلكاته للطفل الذي تخلّى عنه، ماذا يحدث بعد ذلك؟

راقبت جورج كيف بقي صامتًا للحظة ليحسن اختيار الكلمات التي سيقولها.

- سيتبع المحامي المسار الذي يفترض على الطفل أن يتبعه، ويذهب إلى السلطات القيّمة على موضوع التبنّي ويشرح لهم الموضوع. وبعد ذلك، إذا كان الطفل قد تخطّى ست عشرة سنة من عمره، يقوم المحامي بالاتصال بالطفل، أو بالشاب البالغ المعني بموضوع الإرث.

- وماذا يجري إذا لم يكن الطفل قد تجاوز ستة عشر عامًا من عمره؟

- تقوم السلطات المعنية بالاتّصال بالوالدين المربّيين، وهما لديهما الحق بالرفض أو بالموافقة على إعلام الطفل بأمر الوصية قبل بلوغه السنّ القانونية.

- فهمت. قلت له وأنا أومئ برأسي بعد أن تفاجأت بشعوري بالسيطرة على الأمور.

- وإذا لم تتمكّن سلطات التبني بتقفّي أثر الطفل المعنيّ، وكان على المحامي أن يلجأ إلى وسائل غير تقليدية للبحث. ما مدى سهولة ذلك؟

عاد جورج يحدّق إليّ، وفي تلك اللحظة، أخبرتني عيناه كلّ ما لم يستطع لسانه قوله.

- بالنسبة إلى محامٍ ماهرٍ سيكون الأمر سهلًا للغاية.

أخبرت جورج بأنّني سأعمل بحسب ما ناقشناه في جلستنا وسأكتب تفاصيل الوصية. كما أخبرته بأنّني سأكتب رسالة كي يحتفظ بها، ويبرزها إلى أيّ منظّمة تعتني بتبني الأطفال وتتّصل به، وذكرت له تاريخ الميلاد الذي سأدوّنه له. ثمّ غادرت مكتبه.

عندما أصبحت في الشارع، لم أرغب في العودة مباشرة إلى المنزل. وقبل أن تسنح لي الفرصة لاستيعاب المعلومات التي حصلت عليها لتوّي، جلست إلى طاولة في أحد المقاهي المطلّة على البحيرة وطلبت زجاجة جعّة. في العادة كنت أكره مذاقها، لكنّني ما إن وضعت الزجاجة على فمي، بعد أن رفضت الكوب الذي أحضرته النادلة، حتى أحسست براحة نفسية إذ ذكّرني مذاقها بريو.

إذا كان جورج على علم بأمر ابني، فهذا يعني أنّ پا سولت كان يعلم أيضًا بوجوده. ثمّ تذكرت الكلمات التي أزعجتني وزعزعت استقراري في رسالة الوداع التي تركها لي:

«أتمنّى أن تصدّقيني عندما أقول لك إنّ العائلة هي كلّ شيء،
وإنّ حبّ الوالدين للطفل هو أعظم قوّة على وجه الأرض».

شعرت وأنا أرتشف الجعة تحت أشعة الشمس، بأنّني كنت في تلك اللحظة قادرة على العودة فورًا إلى مكتب جورج لأواجهه بالحقيقة، ولأسأله عن هويّة الشخص الذي تبنّى طفلي وعن مكانه الحالي. لكنّني تذكّرت ما قاله لي فلوريانو وكان منطقيًّا بالنسبة إليّ. فمهما أكن متلهّفة إلى إخبار ابني الحبيب بالسبب الذي جعلني أتخلّى عنه حينها، وإلى التعويض عليه في الوقت الحالي، فإنّ ذلك سيعدّ أنانية منّي.

أحسست فجأة بأنّني أكاد أنفجر من الغضب بعد أن فكّرت في يد پا سولت الجبارة غير المرئية التي، كما يبدو، لا تزال تسيطر على حياتي وهو في قبره، وكانت على الأرجح تسيطر على حياة ابني أيضًا.

بأي حقّ يطّلع على أموري الشخصية وأنا بنفسي لا أعرف عنها شيئًا؟

ومع ذلك، شعرت براحة داخلية لكونه يملك مثل تلك القدرات المطلقة، تمامًا مثلما يشعر أولئك الذين يصلّون لقوّة غير مرئية يثقون بها ضمنيًّا، بالاستناد إلى غريزتهم الإنسانية وليس إلى أدلّة واقعية. لو كان والدي يعلم - والشعور بالذنب الذي عانيته في عيني جورج بعد أن ارتكب خطأه البشري، يؤكّد لي بأنّه كان يعلم - فهذا يعني أنّ ابني الآن في مكان آمن على هذا الكوكب، وبين أيدٍ أمينة.

لم يكن والدي من يفتقد الثقة في علاقتنا، بل أنا. الآن أستطيع أن أرى بوضوح أنّه قام بذلك، لأنّه فهم السبب وراء قراري بعدم الوثوق به وتقبّله. لقد سمح لي أن أقوم باختياري الذي، أعترف اليوم، أنّ سببه لم يكن خوفي من ردّ فعله كوالد، إنّما كان بسببي أنا؛ فقد كنت في التاسعة عشرة من عمري، أختبر الحرية لأوّل مرة في حياتي، واثقة من أنّ مستقبلًا باهرًا ينتظرني، وآخر شيء كنت أريده حينها هو أن أكون أمًّا عزباء. ربّما لو فكّرت حينها في أن أذهب إلى پاي وأعترف له بالحقيقة وأناقش معه الخيارات المتوافرة، لكنت سأقوم، على الأرجح، بالخيار نفسه.

ثمّ فكّرت في والدتي التي حملت بي عندما كانت في السنّ نفسها، وكانت حينها تواجه المعضلة نفسها، مع اختلاف وحيد هو فارق الزمن.

«أنا أسامحكِ». فكّرت فجأة بصوت عالٍ. «وأشكركِ على قراركِ». أضفت بعد أن فهمت أخيرًا أنّها كانت قد اتّخذت القرار الأنسب لي، مهما تكن الدوافع وراءه.

ومرّة أخرى، عادت أفكاري إلى پا سولت، فضحكت في نفسي ما إن خطر لي أنّه ليس مستبعدًا أن يكون قد أجرى مقابلة مع الوالدين اللذين رغبا في تبنّي طفلي.

ربّما فعل ذلك وربّما لم يفعل. المهمّ هو أنّني في تلك اللحظة شعرت وأنا أجلس هناك في مكاني أشرب الجعّة، بسلام داخلي، ولأوّل مرة منذ ولادة طفلي قبل ثلاث عشرة سنة.

ها أنا أدرك أنّ پا سولت بتقديمه لي قرائن عن ماضيّ، قد وهبني مستقبلًا أيضًا. ثمّ تذكّرت سلوكي مع فلوريانو هذا الصباح، فشعرت بالجبن.

ماذا فعلت يا مايا؟

أمسكت بهاتفي المحمول لأتّصل بكريستيان، وطلبت منه مقابلتي عند الجسر العائم بعد خمس عشرة دقيقة. ثمّ رحت أمشي في شوارع جنيڤ الصاخبة، فشعرت بشوقٍ إلى أجواء ريو المريحة. فهناك الناس يعملون ويرفّهون عن أنفسهم ويحترمون ما لا يستطيعون تغييره أو فهمه. وإذا كنت سأفسد مستقبلي بالسماح لمخاوفي القديمة بأن تتغلّب عليّ، فسأتحمّل المسؤولية كاملة.

عندما بلغت الجسر العائم وكنت على وشك الصعود إلى المركب، فهمت أنّ حياتي ربّما وصلت إلى ما هي عليه الآن بفعل أحداث خارجة عن إرادتي، لكنني كنت أنا من اخترت القيام بردود أفعال مثل تلك التي أظهرتها.

بعد انطلاق كريستيان إلى أتلانتيس استقبلني وجه مألوف عند الرصيف لم أتوقّع رؤيته.

- مفاجأة! قالت لي وهي تفتح ذراعيها لتحتضنني عندما نزلت من المركب.

- آلي! ما الذي تفعلينه هنا؟

- يا لها من غرابة، أليس كذلك. قالت مبتسمة وأنا أرافقها إلى المنزل ممسكة بذراعها.

- أوَليس هذا منزلي أيضًا.

- بلى، لكنني لم أتوقّع حضورك.

- أخذت إجازة لبضعة أيام، وفكّرت في المجيء لأتفقّد ماي مادمت بعيدة عن المنزل. أتصوّر أنّها هي أيضًا مرّت بوقت عصيب بعد وفاة پاي.

شعرت على الفور ببعض الذنب لأنانيتي. فأنا لم أتّصل بها ولو مرّة واحدة طوال فترة وجودي في ريو. حتّى أنّ مخاطبتي لها لم تتعدَّ كلمة «مرحبًا» منذ وصولي إلى هنا أمس.

- تبدين رائعة يا مايا! سمعت أنك كنت مشغولة. قالت آلي وهي تدفعني إلى الأمام بمودّة.

- أخبرتني ماي أنّك استضفت أحدهم في الليلة الماضية. من كان؟

- شخص التقيت به في ريو.

- حسنًا، دعينا نتناول شرابًا وأنتِ تخبرينني عنه.

جلسنا إلى الطاولة على الشرفة لنستمتع بأشعة الشمس. في البدء، تردّدت كعادتي أمام أختي «كاملة الأوصاف»، لكن فيما بعد، شعرت على الفور بالاسترخاء ورحت أخبرها بما حدث معي في البرازيل.

- واو. قالت عندما توقفت عن الكلام لألتقط أنفاسي وأرتشف الليموناضة التي حضّرتها كلوديا التي كانت تعرف أنّها مشروبنا المفضّل أنا وآلي.

- يا لها من مغامرة يا مايا. أنت حقًّا شجاعة لتذهبي إلى هناك وتبحثي في ماضيك. لست واثقة من أنني قادرة مثلك على مواجهة أسباب التخلّي عنّي ليتبنّاني أحد، على الرغم من أنّني أعتبر نفسي محظوظة جدًا بپا سولت وبكم أنتم. ألم تتألّمي عندما أخبرتك جدتك عن أمّك؟ سألتني آلي.

- بلى، بالطبع تألّمت في البدء، لكنني تفهّمت الأمر لاحقًا. وهناك شيء آخر يا آلي أريد أن أخبرك به. وربّما كان عليّ أن أفعل ذلك منذ زمن بعيد...

أخبرتها عن ابني وعن القرار الفظيع الذي اتّخذته بالتخلي عنه. فبدت آلي مصدومة بصدق حتّى أنّني رأيت الدموع في عينيها.

- مايا، كم هو مروّع أن تمرّي بكلّ ذلك في السرّ. لمَ لمْ تخبريني من قبل؟ فأنا أختك، ولطالما اعتقدت أنّنا متقاربتان. كنت ساندتك في محنتك، لا تشكّي في ذلك.

- أعلم يا آلي، لكنّك كنت ما تزالين في السادسة عشرة من عمرك، فضلًا عن أنّني حينها شعرت بالخجل.

- يا له من عبء ثقيل تحمّلته وحدك. قالت آلي وهي تتنهّد بعمق.

- إذا لم يكن هناك مانع، هل لي أن أعرف من هو الأب؟

- آه، لا تعرفينه. كان شخصًا التقيت به في الجامعة واسمه زيد.

- زيد إسزو؟

- نعم، ربّما سمعت باسمه في الأخبار. فوالده كان مليارديرًا وانتحر.

- أجل، كان يركن قاربه بجانب قارب پاي في ذلك اليوم الرهيب عندما سمعت بخبر وفاته، هل تذكرين. قالت آلي وهي ترتجف.

- بالطبع. قلت لها على الرغم من أنّني كنت قد نسيت تلك التفاصيل في دوّامة العاصفة التي مررت بها في الأسابيع الثلاثة الماضية.

- لسخرية القدر، كان زيد هو الذي دفعني، من دون قصده، إلى ركوب الطائرة والهرب إلى ريو، في الوقت الذي كنت ما أزال فيه حائرة بين الذهاب أم البقاء. فبعد أربعة عشر عامًا على غيابه، تلقيت فجأة رسالة صوتية منه، يقول فيها إنّه آتٍ إلى سويسرا ويطلب لقاءنا.

نظرت إليّ آلي مستغربة،

- هل أراد مقابلتك؟

- نعم، قال لي إنّه سمع بوفاة پاي فاقترح أن نلتقي لنتبادل المواساة. فكان هو سبب هروبي بعيدًا عن سويسرا.

- وهل يعرف أنّك حملت منه؟

- لا، وحتّى لو عرف أشكّ في أنّه كان سيهتمّ.

- أعتقد أنّك أحسنت في التخلّص منه. قالت لي من دون تكلّف.

- إذًا كنت تعرفينه؟

- ليس شخصيًّا، لا. لكن لدينا... صديق مشترك. في أي حال. قالت وهي تعود إلى صلب الموضوع.

- يبدو لي أنّ ركوبك تلك الطائرة كان أفضل شيء تفعلينه على الإطلاق. لكنّك لم تخبريني بعد عن ذلك البرازيلي الرائع الذي استضفته أمس. أعتقد أن ماي أُعجبت به كثيرًا. فمنذ أن وصلت وهي لا تتوقّف عن الحديث عنه. يبدو أنّه كاتب.

- نعم، وقد ترجمت روايته الأولى التي صدرت في باريس الأسبوع الماضي وأشادوا بها كثيرًا.

- كنت معه هناك؟

- نعم.

- وماذا أيضًا؟

- أنا... معجبة به كثيرًا.

- تقول مارينا إنّه هو أيضًا معجب بك كثيرًا. علامَ تنويان الآن؟

- لا أعلم. لم نضع أي خطة مستقبلية. فهو لديه ابنة في السادسة من عمرها، وهو يقيم في ريو، وأنا هنا... في كلّ حال، أخبريني عنك أنت يا آلي. قلت لها إذ لم أكن أرغب في مناقشة موضوع فلوريانو أكثر من ذلك.

- الإبحار يسير على ما يرام، وقد طُلب منّي الاشتراك في سباق «فاست نت» الشهر المقبل. يرغب مدرّب المنتخب السويسري للإبحار الشراعي أن أنتقل إلى التصفيات النهائية. وإذا حصل، سأبدأ بالتدريبات في الخريف مع باقي الفريق استعدادًا لأولمبياد بكين العام المقبل.

- آلي، هذا رائع! ستخبرينني بكلّ المستجدّات، أليس كذلك؟

- بالطبع سأفعل.

كنت على وشك أن أطرح مزيدًا من الأسئلة لكنّ مارينا قاطعتني بظهورها على الشرفة.

- مايا عزيزتي، لم أعرف أنّك عدت إلى المنزل، كلوديا أخبرتني بذلك الآن. لقد أعطاني كريستيان هذه، ومع وصول آلي المفاجئ، نسيت أن أعطيها لك من قبل. سلّمتني مارينا مظروفًا، نظرت إلى الخط فعرفت أنّه من فلوريانو.

- شكرًا يا ماي.

سألتنا:

- هل ترغبان في تناول العشاء؟

- إذا كان هناك شيء حاضر، فبالتأكيد أرغب في ذلك. وأنت يا مايا؟ سألت آلي وهي تنظر إليّ.

- هل تتناولين العشاء معي؟ فنحن لم نحظَ دائمًا بمثل تلك الفرصة لنجلس معًا.

- نعم، بالطبع. قلت لها وأنا أنهض.

- لكن إذا كنت لا تمانعين، أريد الذهاب إلى جناحي أوّلًا.

نظرت المرأتان إليّ ثمّ إلى الرسالة.

قالت مارينا:

- أراك لاحقًا يا عزيزتي.

وعندما أصبحت في الجناح، شعرت بأصابعي ترتجف وأنا أفتح الرسالة.

سحبت الورقة من المظروف فبدت كما لو أنّ فلوريانو مزّقها وهو على عجل من مفكّرته.

على القارب
بحيرة جنيف
13 تموز 2007

مايا حبي،

أكتب لك هذه الرسالة بلغتي الفرنسية الرديئة. على الرغم من أنّني لا أملك ذلك الأسلوب الشاعري الذي استخدمه لوران برويي في مراسلة إيزابيلا، لكنّ شعوري المختبئ وراء كلماتي هو نفسه. (وسامحيني أيضًا على خطّي السيّئ، فأنا أكتب لك وأنا ما أزال على القارب الذي يتخبّط فوق المياه).

عزيزتي، أنا أفهم تمامًا الضيق الذي شعرت به هذا الصباح وتمنيت لو كنت قادرًا على إراحتك، لكنّني أشعر بأنّك ما تزالين تكافحين من أجل الوثوق بي. لذلك أكتب لك هذه الرسالة لأقول لك إنّني أحبّك. على الرغم من أنّه لم يمرّ وقت طويل على معرفتي بك، أعتقد أنّ قصّتنا قد بدأت لتوّها. لو قضينا هذا الصباح معًا، كنت سأخبرك بأنّ أكثر ما أتمنّاه اليوم هو أن تأتي إلى ريو لتبقي معي، ونتمكّن من تناول يخنة الفاصوليا المحروقة، ونرتشف النبيذ غير الصالح للشرب، ونرقص السامبا كل ليلة طوال حياتنا. أعرف أنّني أطلب منك شيئًا كثيرًا عندما أسألك التخلّي عن حياتك في جنيف واللحاق بي إلى هناك. لكن، مثلما كان على إيزابيلا أن تفكّر في الطفل الذي كانت ستنجبه، عليّ أنا أيضًا أن أفكّر بابنتي. ففالنتينا بحاجة إلى البقاء بقرب عائلتها، على الأقل في الوقت الحالي.

لذلك، سأدعك تفكّرين في الأمر لأنّني واثق من أنّه قرار مصيري بالنسبة إليك. لكن من فضلك، سأكون ممتنًّا إذا لم تتأخّري عليّ في إخراجي من بؤسي. ستكون هذه الليلة طويلة عليّ وأنا أنتظر ردّك، لكن في ظل الظروف الراهنة، سأعتبرها مهلة معقولة.

كما أنّني أرفق هذه الرسالة ببلاط الحجر الأملس الذي تمكّن أخيراً صديقي في المتحف من فكّ اللغز الذي يحتويه، ذلك الذي كتبته إيزابيلا للوران.

الحب لا يعرف المسافات،

ولا يعرف الحدود بين القارات.

الحب لا تحدّه إلّا السماء.

أودّعك مؤقّتًا، بانتظار ردّك في القريب العاجل.

فلوريانو X

مكتبة
t.me/soramnqraa

آلي

حزيران 2007

قمر جديد

12: 04: 53

51

لوّحتُ أنا ومارينا لمايا ورحنا نرسل إليها القبلات ونحن نشاهدها تغادر أتلانتيس. كانت تحمل معها حقيبتين حشتهما بكل أغراضها الثمينة، وبثلاثمائة كيس شاي، علامة «توينينغ إنكليش بريكفاست» التجارية، كونه غير متوفرا في ريو. وعلى الرغم من أنّها أكّدت لنا بأنها ستعود قريبًا لرؤيتنا، إلّا أنّ إحساسنا كان يقول إنّها لن تعود. لذلك تأثّرنا ونحن نشاهد أختنا الكبرى تتوارى عن الأنظار لتبدأ حياة جديدة بعيدًا عنّا.

- أنا سعيدة من أجلها. قالت مارينا بينما كانت تمسح عينيها خلسة، ونحن عائدتان إلى المنزل.

- يبدو أنّ فلوريانو رجل وسيم، ومايا تقول إنّ ابنته الصغيرة جميلة أيضًا.

- لقد وجدت لنفسها عائلة مكوّنة وجاهزة لاستقبالها. أضفت قائلة:

- لعلّها تعوّض عليها ما خسرته.

رمقتني مارينا بنظرة سريعة أثناء دخولنا إلى المنزل.

- وهل أخبرتك مايا؟

- نعم، البارحة. وأعترف أنّني صدمت. ليس ممّا حدث، بل لأنها احتفظت بالحقيقة لنفسها كلّ هذه السنوات. في الواقع شعرت بألم كبير لأنّها لم تثق بي وتأتمنّي على سرّها.

- لا أعرف لمَ، لكنّني أفترض بأنّك كنت تعرفين؟ قلت لماي وأنا أتبعها إلى المطبخ.

- نعم يا عزيزتي، فأنا من ساعدها. في كل حال، ما حصل في الماضي قد حصل. المهمّ الآن أنّها وجدت لنفسها حياة جديدة، وبصراحة... اعترفت مارينا وهي تشغّل الغلاية.

- أحيانًا كنت أشعر باليأس من أجلها لأنّني اعتقدت بأنّها لن تجدها.

- جميعنا شعرنا بذلك. أتذكّر أنّها في صغرها كانت سعيدة جدًّا وكانت أكثر إيجابية، وفجأة تغيّرت بين ليلة وضحاها. ذهبت مرة واحدة لزيارتها في باريس، عندما عادت لتكمل سنتها الجامعية الثالثة في جامعة السوربون. كانت حينها هادئة جدًا... ومنغلقة على نفسها. كنّا في عطلة نهاية الأسبوع ولم ترغب مايا في الخروج إلى أي مكان، وأنا كنت في السادسة عشرة من عمري وفي باريس لأول مرة في حياتي، فشعرت بملل كبير. الآن أفهم السبب. تعرفين كم كنت أحبّها عندما كنت صغيرة، وقد انزعجت كثيرًا عندما شعرت بأنّها تبعدني عنها.

- أعتقد أنّها أبعدتنا جميعًا. قالت مارينا لتواسيني.

- لكن إذا كان هناك أحد سيعيد إليها الثقة، فهو ذلك الشاب الذي وجدته لنفسها. هل تريدين شايًا؟ أم تفضّلين شرابًا باردًا؟

- سأكتفي بالماء، شكرًا. بصراحة يا ماي، أعتقد أنّك معجبة كثيرًا بفلوريانو! شاكستها وهي تناولني كوب الماء.

- حسنًا، هو من دون شكّ جذاب جدًّا. قالت مارينا بكل صراحة.

- لا يسعني الانتظار لمقابلته. لكن الآن وقد رحلت مايا، ماذا ستفعلين هنا؟

- آه، لا تقلقي عليّ، لديّ أمور كثيرة تبقيني منشغلة. ويسرّني أن أراكنّ يا فتيات تعدن باستمرار إلى هذا العش الذي حضنكنّ ذات يوم. وغالبًا بشكل فجائي. ابتسمت وهي تقول لي ذلك.

- الواقع أنّ ستار كانت أيضًا هنا في الأسبوع الماضي.

- فعلًا؟ من دون سيسي؟

- نعم. قالت مارينا بلباقة من دون أن تعلّق أكثر على الموضوع. أضافت:

- تعلمين أنّه سيكون من دواعي سروري لو تسكن إحداكنّ معي هنا في المنزل.

- لكنّني لم أعد أشعر بالإحساس نفسه عندما كان پاي موجودًا. أجبتها من دون تفكير.

- بالطبع لا، لكن تخيّلي مدى فخره لو كان قادرًا على رؤية ما ستقومين به غدًا؟ تعرفين كم كان يحبّ الإبحار.

- نعم. قلت لها وأنا أبتسم وأشعر ببعض الحزن في داخلي.

- بعيدًا عن ذلك، من الواضح أنّك كنت تعرفين أنّ والد ابن مايا كان زيد، ابن كريج إيسزو؟

- نعم، كنت أعرف ذلك. قالت مارينا وهي تغيّر الموضوع أيضًا.

- سأؤكد على كلاوديا أن يكون العشاء جاهزًا بحلول السابعة هذه الليلة. أعلم أنّ عليك أن تنطلقي باكرًا في الصباح.

- نعم، والآن عليّ أن أذهب لأتفقّد بريدي الإلكتروني. هل تمانعين إذا استخدمت مكتب پاي؟

- بالطبع لا. تذكّري أنّ المنزل هو لك ولأخواتك. أجابت مارينا.

أخذت الكمبيوتر المحمول من غرفتي ونزلت إلى الطابق السفلي وفتحت باب مكتب والدي. لأول مرة في حياتي جلست على الكرسي الذي كان يجلس عليه پا سولت. وإلى أن يشتغل كمبيوتري المحمول، رحت أحدّق إلى الفضاء وأنقّل نظري بين الأشياء التي كان پاي يحتفظ بها على رفوفه.

لكنّ الكمبيوتر قرّر بعد أن اشتغل أن ينطفئ من جديد، فوقفت ريثما يعاود اشتغاله، ومشيت إلى مشغّل الأقراص المدمجة الذي كان يملكه پاي. كم من مرّة حاولنا أن نقنع پاي بالانتقال إلى جهاز iPod، إلّا أنّه، وعلى الرغم من أنّه كان يملك مجموعة كبيرة من أجهزة الكمبيوتر والاتصالات الإلكترونية المتطورة في مكتبه، كان يردّد دائمًا بأنّه قد أصبح كبيرًا في السن على تغيير عادته، وكان يفضّل لمس الموسيقى بين يديه قبل تشغيلها. وعندما قمت بتشغيل القرص المدمج

الموجود داخل الآلة، ذهلت لاكتشاف آخر ما كان يستمع إليه پا سولت. وفجأة علت في الغرفة افتتاحية مقطوعة إدفارد غريغ الموسيقية الجميلة مورنينغ موود من پير جينت سويت.

وقفت متسمّرة في مكاني بعد أن هاجمتني موجة من الذكريات. كانت تلك مقطوعة الأوركسترا المفضلة لدى پاي، وكم من مرّة طلب منّي أن أعزفها له على الناي. مع الوقت أصبحت لحن طفولتي المفضّل فذكّرني بكل شروق شمس رائع تشاركته مع پاي عندما كان يخرج بي إلى البحيرة ليعلّمني الإبحار.

اشتقت إليه كثيرًا.

كما أنّني أفتقد شخصًا آخر.

ومع ارتفاع صوت الموسيقا من السماعات المخفية ليملأ الغرفة، أمسكت لاشعوريًّا بسمّاعة الهاتف الموجودة على مكتب پاي لإجراء مكالمة.

وضعت السماعة على أذني لأطلب الرقم فأدركت أنّ شخصًا آخر في المنزل يجري مكالمة في الوقت نفسه. لكنّ الصدمة كانت عند سماعي نغمة صوت مألوفة كانت تريحني في طفولتي، فقاطعت المحادثة.

- مرحبًا. قلت وأنا أسرع إلى إخفاض صوت مشغّل الأقراص لأتأكّد من أنّه الصوت نفسه.

إلّا أنّه سرعان ما تحوّل إلى صفير رتيب، فعلمت أنّه اختفى.

ملاحظة المؤلّفة

تستند سلسلة «الشقيقات السبع» إلى ميثولوجيا ثريّا الشقيقات السبع النجمية التي تقع بجوار حزام أوريون الشهير. وهذه الثريّا ذُكرت كثيرًا في نقوش شعوب المايا والإغريقيون والأروميّين ومنشوراتهم. كما أنّها أنارت دروب البحّارة على مدى آلاف السنين. حتّى أن ماركة السيّارات اليابانية سوبارو، سمّيت على اسم الشقيقات الستّ...

هناك أسماء كثيرة مذكورة في رواية «الشقيقات السبع» تشكّل جناسًا ناقصًا مع أسماء شخصيات أسطورية، وهناك استعارات كثيرة مُستخدَمة على امتداد الرواية، لكنّك لن تحتاج إلى معرفتها لتستمتع بالرواية. ومع ذلك، إذا كنت تهتمّ لقراءة مزيدٍ عن پا سولت ومايا وشقيقاتها، فيمكن لك زيارة موقع www.lucindariley.com، لتعرف أكثر عن تلك الأساطير والقصص.

رسالة شكر

أودّ أن أشكر أولًا، ميّا وفرناندو باراكيني وابنهما غي، إذ أنّني كنت جالسة إلى مائدتهم في ريبيراو پريتو، عندما خطر لي تأليف رواية تدور أحداثها في البرازيل لأوّل مرّة. كما أريد أن أشكر ماريا إيزابيل سيابرا دي نورونها، حفيدة هيتور دا سيلڤا كوستا، مصمّم ومهندس تمثال المسيح الفادي، على وقتها الثمين وعلى كل المعلومات التي شاركتها معي وعلى فيلمها الوثائقي (De Braços Abertos)، وعلى قراءتها مخطوطة الرواية والتحقّق من أنّ التفاصيل المذكورة فيها صحيحة، على الرغم من أنّها رواية خيالية مصاغة حول شخصيات تاريخية حقيقية. لكنّ تصوّري لكلّ من بول لاندوڤسكي وعائلة دا سيلڤا كوستا وما يخصّها فهو من محض خيالي ولا يمتّ إلى الحقيقة بصلة. وأودّ شكر فاليريا ولويز أغوسطو ريبيريو على استضافتي في مزرعتهما التي تقع في أعلى الجبال المطلّة على ريو حتّى أتمكّن من الكتابة، وأعترف بأنّني بعد الانتهاء من عملي، لم أرغب مطلقًا في مغادرتها. كما أقدّم شكري إلى فانيا وإيفون سيلڤا على حلوى الباوند كيك وغيرها، وإلى سوزانا بيرل، المرشدة السياحية التي عرّفتني إلى ريو وإلى تاريخها بأدقّ تفاصيلها، وإلى بيترو وإدواردو، السائقين الرائعين اللذين رافقانا إلى كلّ مكان، وإلى كارلا أورتيلي على تنظيمها الرائع، فبفضلها لم نواجه أي متاعب، وإلى أندريا فيريرا لردّها السريع على مكالماتي كلّما احتجت إلى ترجمة ما.

أودّ أيضًا أن أشكر الناشرين حول العالم على كل الدعم والتشجيع الذي أظهروه لي عندما أخبرتهم بأنّني سأبدأ بكتابة سلسلة من سبعة كتب عن ثريا الأخوات السبع، لا سيّما جيز تريفاثان، وكاثرين ريتشاردز، وجورج ريوشلين، وكلوديا نيجيل، وبيتر بورلاند وجوديث كور، وكنوت جورفيل، وجوريد ماتياسين، وبيب هالين.

أودّ أن أشكر فاليري بروشاند، جارتي في جنوب فرنسا، التي ذهبت من أجلي إلى متحف لاندوڤسكي في بولون بيلانكور والتقطت مئات الصور هناك، وأدريانا هانتر التي ترجمت سيرة لاندوڤسكي الهائلة وجمعت حقائق مهمّة كثيرة. وأودّ أن أشكر دايفيد هاربر وفريق عمله الذين ساعدوني على فهم طريقة عمل الاسطرلاب الكروي.

ولن أنسى والدتي جانيت التي لا تكفّ عن دعمي، وأختي جورجيا، وابنها رايف الذي جعل وهو فقط في التاسعة من عمره، من رواية منتصف الليل الوردي كتاب قراءة في مدرسته! أودّ شكر ريتا كالاتي التي شجّعتني على الذهاب إلى البرازيل قبل ليلة واحدة من تلقيّ عرض دار النشر، وإيزابيل لاتر التي بقيت تشجعني على الذهاب إلى نورفولك وتستمع إلى شكاويّ وهي تدلّك بلطف جسمًا متألّمًا بقي يسافر آلاف الأميال عبر العالم وينحني فوق مخطوطة على مدار الساعة والأيّام.

وبالطبع لن أنسى سوزان موس، صديقة العمر والأقرب إلى قلبي، وأنا أعتبرها اليوم شريكتي في تفاصيل المخطوطة، وجاكلين هيسلوب التي أشعر بأنّها كانت أختي في حياة أخرى، ومساعدتي الشخصية أوليفيا رايلي، التي لا أعرف كيف كانت تفك رموز خربشاتي وهي من عرّفني إلى مفهوم الاسطرلاب الكروي.

ما زلت أذكر الليلة التي خطرت لي فيها فكرة تأليف رواية من إيحاء ثريّا الأخوات السبع. كنّا في أوائل شهر كانون الثاني 2013 وكانت تشعّ بالنجوم، فناديت على عائلتي وجلسنا كلّنا بجانب النار، كنت أشعر بالإثارة وأنا أحاول شرح ما أرغب في القيام به. وأنا أعتبر أنّ الرواية صدرت بفضلهم، لأنّ لا أحد منهم حينها اعتبرني مجنونة، على الرغم من أنني بدوت كذلك عندما بدأت الأفكار تتبلور في رأسي. لذلك أعتبر اليوم نفسي مدينة لهم بشكر كبير على كل ما حصل منذ تلك اللحظة.

زوجي العزيز ومدير أعمالي ستيفن؛ لقد قمنا معًا بتلك الرحلة العام الماضي وتعلّمنا الكثير منها. أولادي الرائعون، هاري الذي ينفذ كل أفلامي الرائعة. ليونورا التي كانت هي من ابتكرت أوّل جناس ناقص پا سولت؛ كيت، أصغرهم سنًّا والتي تعرف كيف تجعلني أضحك؛ وبالطبع إيزابيلا روز، طفلتي الرائعة التي لا تزال في الثامنة عشرة، والتي أهديها هذا الكتاب على وجه الخصوص.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قائمة المراجع

«الشقيقات السبع» هو عمل روائي يقوم على خلفيّة تاريخية خياليّة. في ما يلي قائمة المصادر التي اعتمدتها في أبحاثي عن تلك الفترة الزمنية وتفاصيل حياة الشخصيات التي ابتكرتها من نسج خيالي:

Munya Andrews, *The Seven Sisters of the Pleiades* (Spinifex Press, 2004)

Dan Franck, *Bohemian Paris* (Grove Press, 2001)

Robert Graves, *The Greek Myths* (Penguin, 2011)

Robert Graves, T*he White Goddess, a Historical Grammar of Poetic Myth* (Faber and Faber, 1975)

Michèle Lefrançois, *Paul Landowski: L'oeuvre sculpté* (Crèaphis editions, 2009)

Jeffrey D. Needell, *A Tropical Belle Époque* (Cambridge, 2009)

Maria Izabel Noronha, *De Braços Abertos* (documentary) (2008)

Maria Izabel Noronha, *Redentor: De Braços Abertos* (Reptil Editora, 2011)

Peter Robb, *A Death in Brazil* (Bloomsbury, 2005)

Nigel Spivey, *Songs of Bronze* (Faber and Faber, 2005)

تستطيعون قراءة مزيدٍ عن آلي وأخواتها في:

الشقيقة العاصفة

ستجدها في مكتبة قريبا

امسح الكود وانضم إلينا

♦ روايات وقصص عالمية ♦

الروائي پاولو كويلو

- إحدى عشرة دقيقة (رواية)
- ألِف (رواية)
- أوراق محارب الضوء (عبارات وعِبَر)
- بريدا (رواية)
- الجاسوسة (رواية)
- الجبل الخامس (رواية)
- حاج كومپوستيلّا (رواية)
- الخيميائي (رواية)
- الرابح يبقى وحيداً (رواية)
- رامي السهام (رواية)
- الزانية (رواية)
- الزّهير (رواية)
- ساحرة پورتوبيللو (رواية)
- الشيطان والآنسة پريم (رواية)
- على نهر پييدرا هناك جلستُ فبكيت (رواية)
- ڤيرونيكا تقرّر أن تموت (رواية)
- مخطوطةٌ وُجِدت في عَكرا (رواية)
- مكتوب (عبارات وعِبَر)
- هيپّي (رواية)

جين ساسون

- بنات سموّ الأميرة (قصة)
- حلقة الأميرة سلطانة (قصة)
- خيار ياسمينا (قصة)
- سموّ الأميرة (قصة)
- سموّ الأميرة: الأسرار المباحة (قصة)
- سموّ الأميرة: حفنةٌ أخرى من الدموع (قصة)
- لأنك ولدي (قصة)
- مغامرة حب في بلاد ممزقة (قصة)
- ميّادة ابنة العراق (قصة)

جون غرين

- سلاحف إلى ما لا نهاية
- ما تخبّئه لنا النجوم

راوي حاج

- الصرصار (رواية)
- كرنفال (رواية)
- لعبة دي نيرو (رواية)

غيربرند باكر

- التوأم
- المنعطف

مارغريت دوراس

- التدمير
- مرض الموت

سردار أوزكان

- حبٌّ عَرَفَه الرومي (رواية)
- حين تستحيل الحياة نوراً (رواية)
- الوردة الضائعة (رواية)

داڤيد فاغنر

- حياة (رواية)
- العملاق النسَّاء (رواية)

لوسيندا رايلي

- الشقيقات السبع
- الشقيقة العاصفة

♦ ♦ ♦

- **«الأصولي» المتردِّد** - محسن حامد
- **ألف عام من الصلاة (قصص قصيرة)** - ييون لي
- **اعترافات غايشا** - آرثر غولدن
- **امرأة من ماريوپول** - ناتاشا فودين
- **بساط من الزهر الأحمر: البحث عن أفغاني** - نيلوفر بازير
- **بومبي** - روبيرت هاريس

- بيل كانتو - الرهينة - آن باتشيت
- حكاية الشتاء - پول أوستر
- الخجل والكرامة - داغ سولستاد
- دماء الأزهار - أنيتا أميرسڤاني
- سوريّو جسر الكولا - ياسين رفاعية
- فتاة من بلغراد - لويس دو بيرنيير
- اللعنة على نهر الوقت - بير بيترسون
- متتالية فرنسية - إيرين نميروفسكي
- مدينة بوهاين - كيڤن باري
- موعظة عن سقوط روما - جيروم فيراري
- الناس والآخرون - قدري قلعجي

♦ مكتبة نوبل ♦

توني موريسون

- الديار
- رحمة

جان ماري غوستاف لو كليزيو

- بِتنا تحت سماء سيول
- العاصفة

يوكيو ميشيما

- حبٌّ محرّم - (تخلّى عن الجائزة مرّتين)
- المعبد الذهبي

كنزابورو أوي

- اقتلعوا البراعم، اقتلوا الأولاد
- الموت غرقًا

♦ ♦ ♦

- الضفادع - مو يان

♦ روايات وقصص قصيرة ♦

رجاء نعمة

- شيطان في نيو قرطاج (رواية)
- مذكّرات امرأة شيعيّة (رواية)

روحي طعمة

- امرأة للشتاء المقبل (قصص قصيرة)
- لا أحد يفهم ما يدور الآن (شعر)

سليم اللوزي

- خلف العتمة (رواية)
- ذبائح ملوّنة (رواية)

شاكر نوري

- جحيمُ الرّاهب (رواية)
- الرواية العمياء (رواية)
- مجانين بوكا (رواية)

د. عبد السلام فزازي

- الزمن المستعار... (رواية)
- ويسألونك عن الذاكرة (رواية)

عماد بزّي

- خلف أسوار بيروت (قصص قصيرة)
- فوق أرض لبنان (قصص قصيرة)

ليلى عسيران

- الاستراحة
- جسر الحجر
- الحوار الأخرس
- خط الأفعى
- عصافير الفجر
- قلعة الأسطة
- لن نموت غداً
- المدينة الفارغة

د. محمد طعّان

- رحلة بهان (رواية)
- صيف الجرّاح (رواية)

منى دايخ

- إيزيس في القدس (رواية)
- بوح أنثوي (شعر)
- طلاق الحاكم (رواية)
- غزَل العلوج (رواية)

ملك محمد جودة

- **أنا... والعيون الزجاجية (رواية)**
- **رواية ١٩٥٣ (رواية)**

د. نعمة الله إبراهيم

- **السيَر الشعبية العربية (قصص قصيرة)**
- **فروخ ناز - ألف يوم ويوم (قصة)**

نوال السعداوي

- **إنه الدم (رواية)**
- **نوال السعداوي وعايدة الجوهري في حوار حول الأنوثة والذكورة والدين والإبداع (دراسة)** - د. نوال السعداوي ود. عايدة الجوهري

يسرى مقدّم

- **الحريم اللُّغوي**
- **صباح الخامس والعشرين من شهر ديسمبر**

◆ ◆ ◆

- **أرملة مهندس** - صالح ابن عايض
- **إعصار بالتيمور** - حسين عبد الرسول سبيتي
- **إمرأة... وظلّان** - خلود عبدالله الخميس
- **ابن الحزب** - فيصل فرحات
- **احتضار الفَرَس** - خليل صويلح
- **بائع الفستق** - سمير عطا الله
- **Top كاميرا** - فاديا بَزّي
- **حقيبة حذر** - عاطف البلوي
- **رقص تحت أشجار الكستناء** - عباس جعفر الحسيني
- **الرؤْيَوان (قصص قصيرة)** - عمرو عبد الكريم
- **سأعطيك الحلوى شرط أن تموت** - وائل ردّاد
- **سوريّو جسر الكولا** - ياسين رفاعية
- **صورة على هاتفٍ جوّال** - إمام منصور
- **العطر والفقر وما بينهما (قصص قصيرة)** - اسماعيل الأمين
- **عشّاق أمي (قصص قصيرة)** - هاجر عبد السلام
- **على أرصفة الشتات** - حسونة المصباحي
- **الغشوة** - راضي شحادة
- **في وسط العاصمة حانة مسحورة** - ساندرا تربونيّة
- **في حديقة الملك** - ميّادة العسكري
- **قصة مشربية - قصة يوطوبيا** - حسن فتحي
- **كأجراسٍ بعيدة...** - راتب شعبو
- **محاولاتٌ اغتيال علي (قصص قصيرة)** - محمد بركات
- **محاولة متأخرة للبكاء (قصص قصيرة)** - زينة حموي
- **مولود وثلاثة آباء** - نائل ماجد مجذوب
- **نهاية جيل** - محمد سعيد طالب
- **هل يفرّقنا الدين؟** - حسن السيد أسعد فضل الله
- **همنغواي الأديب العاشق** - أ. إ. هوتشنر
- **اللّاهي** - جان دوست
- **يونس بحري وموانئ الليل** - سامي البدري
- **١٨ يوماً في ميدان التحرير** - قصة رامي حبيب ورسم أحمد سليم

◆شعر◆

سليم حيدر

- **آفاق**
- **أشواق**
- **إشراق**
- **ألوان**
- **ألحان**
- **أشجان**
- **لبنان**
- **يا نافخ الثورة البيضاء**
- **ألسنة الزمان**
- **مهرجان العدالة**

طلال حيدر

- **آن الأوان (شعر)**
- **سرّ الزمان (شعر)**

مهدي منصور

- **أخاف الله والحب والوطن**

- الأرض حذاء مُستَعمَل
- الظلُّ فجر داكن
- فهرس الانتظار

هادي مراد

- حرب الجسد
- كما يقع التفاح

◆ ◆ ◆

- **أثواب الحزن** - هدى السراري
- **أنظر إليك** - مرام المصري
- **تُفّاح** - سلمان زين الدين
- **خريف من ذهب** - جوزيف طوبيّا
- **خطوات أنثى** - ردينة مصطفى الفيلالي
- **خفيفًا كزيتٍ يُضيء** - بلال المصري
- **ذُهان 04:48** - لوركا سبيتي وماجدة نصر الدين
- **ما يفعله الغريب في الليل** - محمد دياب
- **مثْل السَّكْت** - سوسن مرتضى
- **ميتينغ meeting** - جوليان حكيم
- **هو وهي في السعودية** - هتان بن محمد طاسجي
- **وراء الأفق** - إبراهيم أبو زيد
- **وصيّة شاعرة** - ناهد عيد
- **يساورني ظنٌّ أنهم ماتوا عطاشى** - غسّان علم الدين

◆دراسات◆

د. أحمد حاطوم

- في مدار اللغة واللسان
- قواعد فاتَتِ النُّحاة
- كتاب الإعراب
- المساجلات
- نقوش

محمد توفيق أبو علي

- ضوع الياسمين (شعر - حكايات - خواطر)
- صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية في كتب الأمثال العربية - (دراسات)

عصام محفوظ

- عشرون روائياً عالمياً يتحدثون عن تجاربهم (دراسة)
- مختارات من الشعراء الرواد في لبنان (شعر)

◆ ◆ ◆

- **أبعد من الريف: شعراء خالدون في عيون الألف الثالث** - لامع الحر
- **أثر الفكر الديني في روايات باولو كويلو** - د. بكادي محمد
- **أحمد فؤاد نجم: تشخيص أوجاع الأمة المصرية** - د. كمال عبد الملك
- **أُخذَةُ كِشْ: أقدم نص أدبي في العالم** - ألبير نقاش وحسني زينة
- **إميل بجاني كاتب في الغربال** - تأليف عدد من الكتّاب
- **جدلية الحب والموت: في مؤلفات جبران خليل جبران العربية**- د. بطرس حبيب
- **الحب والتصوّف عند العرب** - د. عادل كامل الآلوسي
- **الدوائر المتّحدة المركز: دراسة نقدية في شعر نزيه أبو عفش** - نادين باخص
- **الرومنطيقيّة في الشعر العربي المعاصر** - د. فيكتور غريّب
- **سنوات ضائعة من حياة المتنبي** - هادي محيي الخفاجي
- **طه حسين (من الشاطئ الآخر)** - عبد الرشيد محمودي
- **علم الإبداع** - د. مروان فارس
- **مهما قلت... لا تقل** - نبيل سليمان
- **موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية** - إعداد: منير عبود

منشورات المجلس القطري للثقافة والفنون والتراث

- **تاريخ اللغات ومستقبلها (دراسة)** - هارالد هارمان
- **فلسطين في الشعر الإسباني المعاصر (شعر)** - د. محمد الجعيدي
- **هل كنا مثل أي عاشقَين؟ (رواية)** - نافتج سارنا

بالاشتراك مع مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

- **أصل الغواية (قصص قصيرة)** - منتهى العزة
- **باب للخروج (رواية)** - طارق فرّاج
- **حبيبتي الحقيقة (شعر)** - أحمد طقش
- **الخامدون (قصص قصيرة)** - ربى عنبتاوي
- **نسرين ستموت الليلة (رواية)** - خديجة نمري

د. شكري نصرالله

- **الثالث (رواية)**
- **قالوا... وفعلوا: وقائع من تاريخ العرب وتراثهم (حِكَم وأشعار)**
- **كنوز العرب (حِكَم وأقوال مأثورة)**

الجية، طلعة زاروط،

International Press

الجية، طلعة زاروط،
مبنى International Press، لبنان
هاتف: ٩٦١ ٧ ٩٩٦٢٠٠/٣٠٠+
البريد الإلكتروني: Interpress@int-press.com
الموقع الإلكتروني: www.int-press.com

إثر وفاة والدها، تجتمع مايا وشقيقاتها في أتلانتيس، منزل العائلة، ليجدن رسالة من والدهنّ بالتبنّي لكلّ منهنّ، وطرف خيط يرشدهنّ إلى جذورهنّ. تنطلق مايا، وهي الشقيقة الكبرى، في رحلة إلى ريّو دي جانيرو بحثًا عن والديْها البيولوجيّيْن وهناك تنكشف لها قصصٌ من ماضيها الحزين، وتعيش حاضرًا فرحًا رفقة كاتب يساعدها في البحث عن والديْها، يُنسيها الوحدة والألم ويعيدها إلى الحياة بالحبّ والرقص. تكتشف مايا قصّة جدّتها إيزابيلا، التي تعرّفت إلى نحّات شابٍّ في فرنسا في أواسط القرن الماضي لحق بها إلى ريّو، فلم تتردّد بتسليمه قلبها هربًا من الزوج العاجز الذي اختاره لها أبواها.

قصّة مايا هي الرواية الأولى من سلسلة «الشقيقات السبع»، رواية مشوّقة بقصصٍ متداخلة وسردٍ منساب. هي دعوة إلى أن نحبّ الحياة ونحيا بالحبّ جسدًا وروحًا.

telegram @soramnqraa

لوسيندا رايلي، وُلدَت لوسيندا رايلي في إيرلندا في العام 1965 وكتبَت روايتَها الأولى في سنّ الرابعة والعشرين. تُرجمت رواياتها إلى 33 لغة وبيعت ملايين النسخ منها لتصل إلى رأس قائمة الكتب الأكثر مبيعًا على مستوى العالم.
سلسلة من 7 قصص كتبتها لوسيندا، وأكملها ابنها هاري بالكتاب الثامن الذي يصدر في العام 2023. حازت الجائزة الـپلاتينية الهولندية للرواية الأكثر مبيعًا في عام واحد، وهي الجائزة نفسها التي مُنحت لسلسلة هاري پوتر. توفيت لوسيندا في العام 2021 بعد معاناة مع السرطان.

ISBN 978-6144-58-581-8

9 786144 585818

www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر